

تاريخ جماعة الإخوان المسيرة والمصير

(المجلد الأول)

د. رفعت السعيد

السعيد. رفعت

تاريخ جماعة الإخوان: المسيرة والمصير

تأليف: رفعت السعيد

القاهرة: شركة الأمل للطباعة والنشر ٢٠١٢

٧٥٢ صفحة ١٧ × ٢٤ سم

تدمك: ١-١5-5047-977-978

١- الإخوان المسلمون

أ- العنوان ٦, ٢١٧ .

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٢٢٨٦٢

I.S.B.N 978-977-5047-15-1

تاريخ جماعة الإخوان المسيرة والمصير

المجلد الأول (ثلاثة أجزاء)

- الجماعة كيف بدأت ولماذا ؟
- حسن البنا مسلحاً
- وثعاين الإرهاب تأتي من الجماعة

إلى الذين ساندوني طوال معركتي الصعبة ضد التأسلم
وحتى إلى من لم يساندوني إلا بعد أن سطعت الحقيقة
وإلى

أسرتي.. ليلي — خالد وغاده
وأحفادي نيفين ورامي — يوسف وليلي
شكرا على احتمالهم لآثار موقفي المستمر

ليست مجرد مقدمة

تشابكت علاقائى مع جماعة الإخوان على مدى مجمل الحياة تقريباً. فمنذ نهايات أيام الطفولة حاول نجيب ابن أصحاب فرن أبو خضرة المجاور لبيتنا أن يضمنى للجماعة، وذهبنا معاً إلى النادى الرياضى فى شارع الحسينية، وأجلسنى إلى أفندى ملتج بدأ بامتداح أبى ثم تحدث طويلاً... فهمت كل الكلمات ولكن لم أفهم المغزى وأكتفيت بأن ألعب بنج - بونج، تأملنى الملتحى فى صمت ولعله قرر الصبر إلى حين. لكن هذا الحين لم يأت؛ فقد أبعدتنى شراسة طلاب الإخوان فى صدامهم مع الطلاب الوفديين واليساريين، أيديهم وألسنتهم تمتد سريعاً ولا يردعهم سوى كثرة الآخرين وتحالفهم معاً. وأيضاً حرص حضرة الناظر حمودة بك الذى أحكم قبضته على طلاب الملك الكامل الثانوية وتواجد حيث يتواجد أى تجمع طلابى. وعقب حريق القاهرة يناير ١٩٥٢ وفى (معتقل المأظرة) كان الصدام لسبب هزلى.. زميلنا رؤوف نظمى طالب الطب آنذاك فوجئ بهجوم إخوانى عارم لأن التسمى باسم "رؤوف" حرام، فهو من أسماء الله الحسنى وصمموا على أن يغير اسمه الى عبد الرؤوف وعبثاً حاولنا، وقلت لهم معنى فى مدرسة الملك الكامل طالب اسم عائلته العدل.. فرد شيخهم بكلمة واحدة "كافر". كان شيخهم يبحث عن مبرر لمقاطعتنا. وفى حقوق عين شمس تصادمنا واعتدوا علينا وكان ردنا عنيفاً فارتدعوا. وبعدها تعايشنا فى ظل كابوس المعتقلات والسجون هايكستب حيث كانت أول خطواتى مبتعداً عن الطفولة. ثم وأنا فى بدايات الشباب النقيت مع جموعهم فى سجون طرة ثم جناح بالواحات ثم المحاريق وهو سجن واحاتى أيضاً، وبعد تخرجى من السجن وتخرجى فى الجامعة تفرغت تماماً وطوال سبعة عشر عاماً لكتابة موسوعة تاريخ الفكر الاشتراكى فى مصر ثم تاريخ الحركة الشيوعية

فى خمسة مجلدات متباعداً عن إمكانية النظر فى أى شىء آخر حتى التقيت
بالباحث الأمريكى ريتشارد ميتشل وأهدانى كتابه عن جماعة الإخوان وعرض على
أن ننتشارك فى إعداد موسوعة متكاملة عن تاريخ جماعة الإخوان وقال يومها حجة
غريبة لم أزل أحاول التثبت من صحتها حتى الآن، قال: نحن الأكاديميين
الأمريكيين نختار ما نعتقد أو ما يتوصل اليه البحث أنه الحقيقة التاريخية، ثم ننهمك
فى البحث عن التفاصيل المؤكدة لصحتها وكثيراً ما يدفعنا ذلك إلى تضخيم
تفاصيل غير مهمة وغير مؤثرة ومن ثم اصطناع ما هو غير حقيقى فى البحث
عن الحقيقة، لكنك كما تابعتك فى موسوعتك عن تاريخ الحركة الشيوعية قد اتبعت
المنهج الأكاديمى الألمانى تدرس التفاصيل وتتهمك فى تجميعها قطعة قطعة ثم
تتأكد من صحة كل منها. وبعدها تترك القارئ كى يدرك الحقيقة. وأنا أريد أن
أستعين بدأبك فى جمع التفاصيل الهامة كى نعد معاً دراسة تبرز الحقيقة
الإخوانية.

ولم أكن أعرف الرجل جيداً وتحسبت فقد تكون الدراسة المطلوبة.. مطلوبة
لجهة ما غير أكاديمية، وهو ما أخافنى خاصة وأنه أشار إلى موازنة مفتوحة..
ومكافأة مفتوحة.. واعتذرت له. ثم تكاثرت هموم العمل التأسيسى لمنبر اليسار ثم
حزب التجمع حتى كان يناير ١٩٧٧ وإلى سجن القلعة حيث الحبس انفرادياً طوال
الوقت، تراكمت أيام وليال والباب المغلق يبقى مغلقاً ولا ورق ولا قلم ولا صحف ولا
حتى مصحف فمبدأ القراءة مخالف للائحة. وطوال ساعات لا تريد أن تنتضى عاد
إلى ذهنى مشروع ريتشارد ميتشل وتحولت التأملات إلى اهتمام خاصة وإن جدران
الزناينة رقم ٢ التى اعتادوا وضعى فيها كانت مليئة بعبارات ودعوات من شكرى
مصطفى (التكفير والهجرة) وصالح سرية (الفنية العسكرية) وأقرأ الحائط ألف ألف
مرة كل يوم لأستعيد دون إرادة ذكرياتى عن الإخوان واقتراح ميتشل. وبعد فترة
انفرج الباب واتسعت مساحات الحركة وتم السماح بعد خناقات وشكاوى بالكتب مع
منع الصحف فاستحضرت كتاب ميتشل وهو ما أزعج الضابط لأنه بالإنجليزية

والتعليمات لم توضح عربى أم أفرنجى. وبعد خناقة أخرى تسلمت الكتاب. وقرأت. واستعدت وأنا أقرأ الأفندى الملتحى. وشغب طلاب الإخوان بالملك الكامل الثانوية، وما كان فى المعتقلات والسجون وكلها إشارات سلبية بل وغاية فى السلبية. وحسنت أمرى على أن أدرس هذا الموضوع. وبعدها عاد ميتشل شخصياً وعاود العرض وعاودت التحسب واعتذرت، وعلى أية حال توفى ميتشل خلال ذات الزيارة وهو نائم فى غرفته بفندق شبرد. لكن مشروعى ظل يؤرقنى كحامل جاءتها ساعة المخاض.

وكان طبيعياً أن أهتدى بنصائح أستاذى البروفسير لوثر راثمان أستاذ أساتذة الاستشراق الألمان والذى أصبح رئيساً لجامعة ليبزج والذى علمنى كيف أبحث عن الحقيقة التاريخية وأسماها الحقيقة الحقيقية أى التى تكون قدر المستطاع متكاملة أو شبه كاملة فلا حقيقة كاملة تماماً وأن أبدأ بالمفاهيم الأساسية وأن أتجنب مراجع الدرجة الثانية؛ فلقد تخطئ ولقد يتلبسها الكسل أو الغرض أو حتى سوء القصد. فنحيت مراجع الدرجة الثانية ومنها كتاب ميتشل نفسه. وتذكرت مقولة أستاذ فلسفة التاريخ ميشيليه التى قال فيها: "أن علم التاريخ يتكون من نصفين، نصف جميل وهو الحكايات والروايات والتحليلات والهواجس والتخمينات ونصف قبيح وهو الحقائق الأساسية". وبدأت، واستدعيت وسط دهشة ضباط السجن كتب الفقه والتفسير وشروح هذه التفسير وكتب الحديث. والكتب يمتنع عليها أن تتراكم، فقبل أن يأتى كتاب جديد يذهب القديم، وأصبح السجن ممتعاً فلا شيء يشغلك سوى ما تحب. وحين أتى الإفراج كانت أمتعتى هى أساساً ألوف من الكروت التى علمنى راثمان أن أثبت فيها ما هو مهم. وبعدها أكملت المسيرة مع كتب الأستاذ حسن البناء، أو بالدقة كل ما استطعت الحصول عليه منها، وأدهشتنى متابعة الكروت أن بعض هذه الكتب قد دخل عليه مع تعدد الطباعات شطب وحذف وإضافات؛ تواكباً مع تغير الأحداث وحرصاً على أن تبقى صورة الإمام الروحانى والريانى خالية من

أى عيب أو خطأ، وكان أكثر ذلك فى كتاب "مذكرات الدعوة والداعية"، فعاودت البحث عن الطبعات الأولى وانهمكت فى الكتابة حتى كان كتابى الأول "حسن البناء، متى وكيف ولماذا؟"، وقد أدهشنى ما كان من أمر هذا الكتاب فقد توالى طبعاته بعضها برغبة منى وأكثرها دون علمى، فثمة طبعات لم أسمع عنها إلا بالمصادفة فى الكويت وتونس وعدن ودمشق وبغداد، وبعضها دخل عليه اختصار مخل أو أضيفت إليه تعليقات وشروح لم أكن لأقبل بها. ولعل ما أفرعنى هو طبعة دمشق التى خصصت لتوزيعها على كوادى البعث والجيش السورى ثم خصصت نسخ عديدة منها لتوزيعها على سجناء الإخوان الذين تكاثروا فى السجون عقب مذبحة حماة ومحاولة اغتيال حافظ الأسد وأضيفت إليها شروح بالغة القسوة وقال لى وزير الإعلام السورى أيامها مزهوا أنهم أجروا "قحوصاً" أى "امتحانات" للسجناء فيما احتواه الكتاب انتقاداً لمسلك الجماعة وأدبياتها كنوع من النكاية فيهم وهم سجناء. وفزعت أكثر عندما أكد لى أن حقوقى كمؤلف بلغت مبلغاً فلكياً فقد طبعوا أربعين ألف نسخة. وسجلت احتجاجى ورفضت أن أتقاضى أى ثمن لسوء استخدام ما أردت أن يكون بحثاً أكاديمياً ليتحول إلى أداة تعذيب أو إكراه.

وبعد فترة من القلق إزاء التعامل غير الشريف مع بحث أردت له أن يكون أكاديمياً قررت أن أبدأ من جديد فراجعت الكتاب ملتزماً بتدقيق أكاديمى، وأغرانى ذلك بل أغوانى أن أواصل البحث فى أصول التأسلم.. وهو التعبير الذى أدخلته على مفردات البحث فى هذا المجال وكررت حتى أصبح الأكثر تداولاً. والحقيقة أن حرف "التاء" قد حيرنى وألهمنى الكثير، فلقد يغير المعنى إلى النقيض إذا ترحز من مكانه قليلاً فى ذات الكلمة.. وفى القرآن الكريم "لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت" فالفارق بين الثواب والعقاب جاء من تغيير موقع التاء. وعلى أية حال فإن لفظ "التأسلم" شاع وأصبح الأكثر تداولاً، وعدت إلى تاريخ بداياته عندما اتخذ الصراع القبلى وصراعات السلطة التى اتخذت مسوحاً إسلامية حتى تتحول أداة

لحشد العامة من المسلمين وتتحول بهم إلى وقود وضحايا في سبيل مصالح شخصية للطامعين في السلطة والسلطان. وتكشفت لى بشاعات الاتجار بالدين والتي بلغت ذروتها في ابتداع أحاديث مكذوبة وتفسير للقرآن انحنت بالحقيقة القرآنية الساطعة إلى تبريرات وتفسيرات تصلح كوقود لصراع حول المصالح الشخصية لقادة لا يستحقون أن تسال قطرة دم واحدة من دماء المسلمين في سبيل شهوة أحدهم للسلطة.

وتأملت طويلاً آيات من القرآن الكريم يحاول الكثيرون نسيانها مثل "قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا" [الكهف - ١٠٣] وأحاديث للرسول مثل "الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مسلم" وتنزيل الآية الكريمة مصدقه لهذا الحديث "إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ" وكلمات موحية للصحابيين من أمثال سعد بن أبي وقاص الذى استدعاه كل فريق للقتال معه ضد الطرف الآخر "الكافر" فصاح فى وجه الجميع: "والله لا أقاتل حتى تأتونى بسيف له عينان وشفتان ويقول هذا مسلم وهذا كافر"، ودفعت أبو ذر الغفارى إلى أن قال فى أسى ظاهر: "والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها، والله ما هى من كتاب الله ولا سنة نبيه، والله إنى لأرى حقاً يطفأ وباطلاً يحيا، وصادقاً مكذباً وأثره بغير تقى".

ومع العودة للمراجع الأولى نكتشف فيها حقائق الصراع القبلى بين بنى هاشم أى جماعة على بن أبى طالب ومعه كثيرون منهم كل سكان المدينة وبين وحوش بنى أمية. فبعد أن هاجم جيش يزيد المدينة المنورة أباحها لجنده ويقال إنهم افتضوا بكارة عشرة آلاف فتاة وساموا الأنصار من الأوس والخزرج عذاباً وحشياً وهلل يزيد فرحاً بأنه قد ثار لهزيمة بنى أمية وعلى رأسهم أبو سفيان فى غزوة بدر على يد الرسول وأنصاره من الأوس والخزرج فى المدينة وقال:

ليت أشياخى ببدر شهدوا

فرع الخزرج من وقع الأسل

لأهلوا واستهلوا فرحاً

ولقأوا ليزيد لا فشل

وتتمادى الكراهية ذات الطابع القبلى الجاهلى لنقرأ شعراً لعمران بن حطان أحد
غلاة أمراء الخوارج مادحاً عبد الرحمن بن ملجم الذى قتل على بن أبى طالب
غيلة يقول:

لله در المرادى الذى سفكت

كفاه شر خلق الله إنساناً

أمسى عشية غشاه بضربته

مما جناه من الآثام عريانا

يا ضربة من تقى ما أراد بها

إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا

هذا هو رأيهم فى على بن أبى طالب كرم الله وجهه!

وقرأت شعراً لبكر بن حماد التهرتى يرد به على قصيدة ابن حطان يقول:

قل لابن ملجم والأقدار غالبية

هدمت ويليكَ للإسلام أركاننا

قتلت أفضل من يمشى على قدم

وأول الناس إسلاماً وإيماناً

وأعلم الناس بالقرآن ثم بما

سن الرسول لنا شرعاً وتبياناً

صهر النبى ومولاه وناصره

أضحت مناقبه نوراً وبرهاناً

[بكر بن حماد التهرتى - الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التهرتى - ص ٦٢].

قرأت هذا الشعر وذاك، وتأملت وعرفت كم هو الفارق بين عقلية المسلم
الصالح والتأسلم المتطرف.

إنه التطرف الذى قال عنه الرسول "رجلان من أمتى يحرمان من شفاعتى، ملك ظالم ومبتدع غال فى الدين ومتعد الحدود" عرفت هذا الحديث منذ زمن ولكن ها أنا إذ أكتب هذه المقدمة أكتشف أن الحديث الشريف ينطبق تماماً على ما شهدناه فى الأيام الأخيرة.. مرسى ظالم وبعض أتباعه "غال فى الدين ومبتدع متعد الحدود" وهؤلاء المبتدعون والمتطرفون والمتعدون للحدود يعملون رؤيتهم وحدهم ويرفضون أى خلاف أو اختلاف معهم والرد لديهم جاهز هو القتل والترويع والاتهام بالكفر. وينسون أو بالدقة يتناسون الآية الكريمة "وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ" [الحج - ٦٩].

وأذكر بالمناسبة حواراً جرى بالتلفزيون على إحدى الفضائيات مع واحد من هؤلاء، قلت له فيه: "كلامك هو فى أفضل الأحوال رأى شخصى يحتمل الصواب والخطأ وذكرت قول على بن أبى طالب "القرآن لا ينطق وهو مكتوب وإنما ينطق به البشر، وهو حمّال أوجه" فرد صاحبنا مستكراً حمّال أوجه هذه تفتح باب الكفر على مصراعيه، قلت قالها على بن أبى طالب فلتتحاسبا على هذا القول يوم القيامة فرد ساخطاً: أنتظر حتى يوم القيامة وهل أنا أكتع؟. وأنهيته المكاملة بقول للرسول "يحمل هذا العلم من كل خلف عدول ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين".

ولأن أحداً لا يملك وحده أن يتصور أنه الممتلك لتمثيل السماء وأن من عداه كفار، فإننا نلج عليهم أن الدين مقدس ولكن للبشر القدرة على فهمه كل وفق هواه أو وفق رؤيته أو حتى وفق مصلحته. لكنهم لا يصدقون بل يصممون على أن قولهم وحده هو الصحيح وإن من عداهم خارج ملة الإسلام..

وأستعيد لهم ولا يصدقون، أستعيد وصية الرسول إلى بريدة "إذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك أنت، فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا". .. وأستعيد لهم ولا يصدقون أقوال الأئمة الكبار..

الإمام الشافعى: رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب.
الإمام أبو حنيفة: رأينا هذا هو أفضل ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بأفضل منه قبلناه.

الإمام مالك: كل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد ما عدا صاحب هذا القبر، وأشار إلى قبر الرسول.

لكنهم لا يلتفتون، ويمضون متصورين أنهم وحدهم حراس السماء. ألم يقل مرشد الجماعة فى رابعة العدوية إن عزل مرسى [بإرادة ٣٠ مليون متظاهر] هو أشد كفراً من هدم الكعبة حجراً حجراً.

وهكذا يتضح أيضاً الفارق بين الشريعة وبين الفقه. فالشريعة معطى سماوى كلى الصحة ودائم الإلزام. والفقه نتاج إنسانى وتعبير عن رؤية إنسانية ومن ثم فهو نسبى الصحة. ونقرأ للأستاذ الإمام محمد عبده: "إن البعض جعلوا كتبهم - على علاقتها - أساس الدين ولم يخلطوا من قولهم بوجوب العمل بما فيها، فانصرفت الأذهان عن القرآن والحديث وانحصرت الأنظار فى كتب الفقهاء على ما فيها من الاختلال فى الآراء والركاكة" [مجموعة الأعمال - الجزء الثالث - ص ١٩٥]. ونقرأ للدكتور محمود حمدى زقزوق: "ومن الأفكار المغلوطة لدى الكثيرين الخلط بين الشريعة والفقه الإسلامى. وقد استقر هذا الفهم فى أذهان الكثيرين من قرون، نتيجة لعصور التخلف التى طرأت على المسلمين بعد تراجع الحضارة الإسلامية. والفرق بين الشريعة والفقه مثل الفرق بين السماء والأرض، وبين ما هو إلهى وما هو بشرى، وقد أدى هذا الخلط الى إضفاء طابع القداسة على آراء الفقهاء، خروجاً على الدين نفسه وتمسك هؤلاء بإغلاق باب الاجتهاد ومنع رحمة الله الواسعة فى التيسير على العباد" [مقاصد الشريعة الإسلامية وضرورات التجديد ص ٢٣]. وتتمايز فى الفقه مدرستان فقه النقل وفقه العقل. أى فقه النقل عن كتب التراث مهما تباعد الرأى عن المعقول وعن التلاؤم مع الواقع، أما فقه العقل فهو القادر على التمييز بين ما هو صائب وما هو غير صائب، بين

ما كان ملائماً للزمان القديم، وبين ما يسعى نحو التلاؤم مع معطيات العصر ومستجداته التى تتطور أبداً وتفرض على المسلم أن يعيش عصرها وإلا صار خارجاً عن إطار الزمان والمكان وأصبح من ثم عبئاً على البشر. وأقرأ للإمام ابن القيم: "من أفتى الناس بمجرد النقل من الكتب على اختلاف أعرافهم وعوائدهم وأزمنتهم وأحوالهم فقد ضل وأضل وكانت جنايته على الدين" [أعلام الموقعين - الجزء الثالث - ص ٧٨] أما الإمام القرافي فيحذر: "ينبغي على المفتى إن ورد عليه مستفت إلا يفتيه بما عادته أن يفتى به حتى يسأله عن بلده وهل حدث لهم عرف فى ذلك البلد أم لا" [الإحكام فى تمييز الفتاوى عن الأحكام - ص ٣٢٣] ونعود إلى الإمام محمد عبده لنقرأ: "لا ينبغي للإنسان أن يذل فكره لشيء سوى العقل والحق، والدليل للحق عزيز ويجب على كل طالب أن يسترشد بمن تقدمه سواء كانوا أحياء أم أمواتاً، ولكن عليه أن يستعمل فكرة فيما يؤثر عنهم فإن وجده صحيحاً أخذ به، وأن وجده فاسداً تركه" [رشيد رضا - تاريخ الأستاذ الإمام - ص ٧٦٢] ويقول فى ذلك د. محمد حسين هيكل: "إن البعض أضاف إلى دين الله شيئاً كثيراً لا يرضاه الله ورسوله، واعتبره من صلب الدين ورمى من ينكره بالزندقة، فقد أضافت أكثر كتب السيرة ما لا يصدق عقل ولا حاجة إليه فى ثبوت الرسالة، ولأن هذه الأقاويل قد اعتبرها البعض من صلب الدين فقد رمى من أنكرها بالإلحاد، بل إن العديد من العلماء المسلمين والشيخ محمد عبده فى مقدمتهم قد تعرضوا للاتهام والإلحاد والكفر" [حياة محمد - ص ٢٩]. ويؤكد د. هيكل على ضرورة النظر إلى كتب التراث نظراً نقدياً، وإخضاعها للفحص العقلى المدقق خاصة وأن أقدمها كتب بعد وفاة النبى بمائة سنة أو أكثر، وبعد أن فشلت فى الدولة الإسلامية دعايات سياسية وغير سياسية كان اختلاف الروايات والأحاديث بعض وسائلها إلى الترويع والغلبة فما بالك بالمتأخر مما كتب فى أشد أزمان التقلقل والاضطراب؟ وقد كانت المنازعات السياسية سبباً فيما لقيه الذين جمعوا الحديث ونفوا زيفه ودونوا ما اعتقدوه صحيحاً من جهد وعنت" [ص ٥٤].

وهكذا اقتادتتى هذه القراءات إلى خطأ وخطر إقحام الدين فى العمل السياسى ومحاولة إلباس المواقف السياسية رداءً دينياً حتى تكتسب بالقداسة والإلزام. ومنذ البداية صاح حسن البنا شعراً:

الدين شىء والسياسة غيره

دعوى نحاربها بكل سلاح

ولم يقل نجادلها بالرأى بل نحاربها بكل سلاح. وأستعين بقول لابن المقفع رغم عدم إعجابى بسيرته ومسيرته "الدين تسليم بالإيمان والرأى [أى السياسة] تسليم بالخصومة فمن جعل الدين رأياً جعله خصومه ومن جعل الرأى ديناً جعله شريعة". جعله شريعة ليلزمك به ويفرضه عليك "بكل سلاح". ولقد قيل كلام كثير فى هذا الصدد، لكننى أستأذن القارئ فى حوار جرى معى. ففى واحد من الاجتماعات التشاورية التى كان يجريها المشير طنطاوى وقادة المجلس العسكرى السابق مع قادة الأحزاب كان يجلس إلى جوارى الشيخ مخيون رئيس حزب النور. الذى صاح فجأة وبلا مقدمات موجهاً حديثه للمشير: "يا سيادة المشير الدكتور رفعت يعترض على أن يكون حزبنا ذا مرجعية إسلامية فى حين أن حزبنا ذا مرجعية ماركسية، فابتسم المشير ولعلها كانت ابتسامة رضاء [الله أعلم] وطلب إلى الرد فقلت يا شيخ مخيون حزب التجمع ليس له مرجعية ماركسية، لكننى ولكى أريحك أمثلك شخصياً مرجعية ماركسية، وأنت تستطيع أن تهاجمنى وتهاجم مرجعيتى كما تشاء فهى على أية حال رأى بشرى قد يخطئ ويصيب، ولكن عندما تقول أنت أن ما تقول به فى أى مجال يأتى وفق مرجعية إسلامية فهل أستطيع أن أقول أنك مخطئ" وصمت الشيخ مخيون وظل صامتاً طوال الجلسة.

الأمر إذن أن الدين إذ يتخذ ستاراً سياسياً فإنه يضيف حصانة على صاحبه ويجعل من عزل مرسى بإرادة شعبية أكثر كفراً من هدم الكعبة حجراً حجراً كما قال مرشد الجماعة.

ولأن الأقوال السياسية تحتاج إلى قدسية زائفة تحتمى بها فإنها تلجأ وعن عمد إلى الخرافة لتضلل بها عامة المسلمين وتوحى إليهم بأنها جزء من المعجزات الدينية كذلك الرواية المثيرة للسخرية التي رواها شيخ من شيوخ رابعة العدوية إذ قال إنه رأى نفسه فى المنام جالساً متربعاً وأن مرسى أتى ونام على إحدى رجليه ثم أتى سيدنا محمد ونام على الرجل الأخرى ثم أذن المؤذن آذان الفجر فقال الرسول لمرسى قم يا مرسى لتؤمننا فى الصلاة". تصوروا مرسى يؤم الرسول فى الصلاة! ومن شروط الإمامة فى الصلاة أن يكون الإمام الأكثر إيماناً. والغريب هو أن جموع رابعة هللت.. وصدقّت.

ويبقى بعد ذلك. أن نتحدث عن جمود الفكر المتأسلم الذى تلتحف به الجماعة. وإلى رفض التجديد فى الفكر الدينى لأن التجديد يجرّد الجماعة المتأسلمة من احتكار فهم النص الدينى واحتكار استخدام الخرافة لسبب بسيط وهو أن التجديد يعنى استخدام العقل. ونذكرهم ذون جدوى بالحديث الشريف: "إن الله يبعث على رأس كل مائة من السنين لهذه الأمة من يجدد لها أمر دينها" [رواه أبو هريره - وأورده البخارى ومسلم فى صحيحيهما] وقال الإمام السيوطى: "ولا يشترط أن يأتى كل مائة سنة ويمكن أن يأتى أكثر من مجدد فى زمن واحد" [جلال الدين السيوطى - التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مئة]، هنا يسقط فى أيدي المتأسلمين فالتجديد يعنى إعمال العقل وليس النقل. ويعنى ضرورة التأويل لكى يتلاءم المجدد مع روح العصر ومتطلباته. ولعل مصر قد شهدت أكثر من غيرها من دول العالم الإسلامى عديداً من المجددين الذين توافدوا بحثاً عن تأويل النص سعياً نحو روح العصر والتخلص من تكلس روايات القدامى التى قد تكون لازمة لزمانهم لكنها لم تعد تمثل رؤية صائبة للعصر الحالى وللتقدم العلمى والمستحدثات التى تتوالى وبلا نهاية، والمستجدات الدائمة التجدد. أتى إلى مصر شيوخ عظام.. الشيخ عياد الطنطاوى والشيخ حسن العطار والشيخ حسين المرصى ثم تفوق رفاعة الطهطاوى وبعده أتى الأفغانى وأتى محمد عبده الذى أخذ من التجديد أداة

لبناء مفهوم يسعى بمصر نحو الحداثة وإقامة دولة مدنية. صرخ محمد عبده فى شيوخ عصره: "إذا تعارض العقل مع النقل أخذنا بما دل عليه العقل"، وقال: "لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله وعن رسوله من كلام رسوله بدون توسط أحد من خلف أو من سلف" [الأعمال الكاملة - الجزء الثالث - ص ٢٨٢] ويؤكد الإمام محمد عبده ليس لمسلم مهما علا كعبه فى الإسلام على مسلم آخر مهما انحطت منزلته سوى حق النصيحة، فليس من الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية أو المؤسسة الدينية بوجه من الوجوه ولم يعرف المسلمون فى عصر من العصور تلك السلطة الدينية" [الأعمال الكاملة - الجزء الأول - ص ١٠٥] ويقول: "فالإسلام لا يجعل للقاضى أو المفتى [ونلاحظ أنه كان آنذاك مفتياً للديار المصرية] أو شيخ الإسلام أية سلطة على العقائد وتقرير الأحكام. وكل سلطة تتاولها واحد من هؤلاء هى سلطة قدرها الشرع الإسلامى، ولا يسمح لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه أو ينازعه فى طريقة تفكيره" [المرجع السابق - الجزء الثانى - ص ١٢٥]، وهو يؤكد أن سبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا يسمو لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان" وقد تم للإنسان المسلم بمقتضى دينه الحقيقى [لاحظ الحقيقى] أمران عظيمان.. استقلال الإرادة واستقلال الرأى والفكر". وأعمل محمد عبده عقله فأسهم فى بناء مصر الحديثة بفتاوى صائبة وتجديدية فأفتى بصحة التعامل المصرفى والحصول على سعر الفائدة وتداولات البورصة وحرية اختيار الثياب للرجل والمرأة وأفتى بجواز أكل ذبائح المسيحيين واليهود فهم أهل كتاب وأباح إقامة التماثيل والرسم التشكيلى والتصوير الفوتوغرافى وأكد أن طلب العلم فريضة على المسلم رجلاً كان أو امرأة.. وتعرض فى سبيل دعوة التجديد هذه لهجمات من شيوخ الأزهر الرجعيين الذين اتهموه بأنه لا يصلى ولا يصوم وأصدروا كتباً مليئة بالشتائم البذيئة وصفه أحدها بالمهياص الهجاص.. ورد عليهم محمد عبده وهو فى فراش الموت:

ولست أبالي أن يقال محمد أبل
أم اكتظت عليه المآثم
ولكنه دين أردت صلاحه
أحاذر أن تقضى عليهم العرائم

وعلى درب محمد عبده أتى مجددون كثيرون منهم الكواكبي - على عبد الرزاق
- أحمد أمين - طه حسين - أمين الخولي - محمود حمدي زقزوق وآخرون
كثيرون يأتون في كل يوم.. إلى ساحة صحيح الدين أو ما أسماه الإمام عبده
"الدين الحقيقي" لينيروا الطريق أمام مصر المستقبل.

وكان ذلك كله مجرد بعض ذخيرة استعنت بها في كتابة تاريخ جماعة الإخوان
منذ بدايتها وحتى نهايتها المأساوية اليوم. مضاف إليها بعض من التعمق في فهم
مفردات اللغة العربية حتى أستطيع أن أتابع وأن أمايز وأن أفهم.
وفي هذه الدراسة تعمدت ألا أكتب عن واقعة إلا بعد توثيقها بالمراجع وتعمدت
كما قلت أن أحاول الانحياز لمراجع الدرجة الأولى.. ولهذا أجهدت كل من حاول
الرد أو النفي أو الادعاء. ولم يبق لديهم سوى شتائم لم أجد مبرراً للرد عليها.
وظلت إجابتي عليها بيني وبين نفسي:
من جاش بالأمل المقدس قلبه

لم يلتفت لحجارة الفناء

وتبقى بعد ذلك عدة ملاحظات موجزة :
في سجن جناح الواحات حيث الخيام هي المأوى والأسلاك الشائكة تحدد معالم
السجن ولا تصلح أن تكون أسواراً، كانت شخصية إخوانية فريدة من نوعها هي عم
الشيخ توفيق. كان واحداً من الرعيل الأول. من أوائل الذين التقى بهم حسن البنا
عند قدومه للقاهرة. وحكى كثيراً وكثيراً جداً عن أيامهم الأولى وكيف كان يلبس

جلاباً أبيض ويضع على كتفه شريطاً أخضر يعلق به مصحفاً على صدره ويمسك بوقاً من صفيح ويجوب شوارع حي الخليفة ليدعو الناس للانضمام إلى الجماعة. كان يأتي إلى خيامنا مرفوع الرأس رغم أن القرار الإخواني كان يمنع ذلك، لكن عم الشيخ توفيق كان يتمتع بحصانة صحبة الأستاذ البنا في الأيام الأولى وكان الإخوان حتى هذه الفترة يحترمون هذه الصحبة [أما الآن فلا كرامة لأصحابها إن وجدوا] كان يدخل خيامنا يجلس متربعاً ونلتف حوله وهو يتحدث إلى صديقه المفضل محمود توفيق. ويحكى دون ملل عن حسن البنا ومنه تلقنت القدرة على التعرف على مواهب الأستاذ البنا. كان مريداً عاشقاً للبنا ويقدر عشقه للبنا كان يرفض وأعتذر إذ أقول كان يحتقر القيادات والأجيال الحديثة من الإخوان، وعندما أتت سيرة المستشار الهضيبي الذي كان مرشداً أيامها قال "لا هو مثل البنا ولا رجاله مثلنا".

ومن هذا التوقير الآتي من مريد لا يكفيه أى قدر من الإعجاب بشيخه، تعلمت أن أفتش عن مواهب البنا وقدرته الأسرة في إقناع رجاله. ولعل هذا الشيخ الجليل يذكرني بالأستاذ كمال الهلباوى الذى لم يزل على موقف الاحترام والتوقير لحسن البنا، وعلى رفض الجماعة الحالية ورجالها وقادتها وسياستها.

وعندما قررت أن أبدأ الكتابة فى هذا الموضوع، توقفت قبل السطر الأول لأستعيد حكايات عم الشيخ توفيق، ووجدت فيها كثيراً من الصدق والصحة. فالبنا ورغم كل اختلافى مع أفكاره ومناوراته ومسيرته هو ورجاله وأتباعه، كان عقلية تنظيمية فذة وذات قدرة روحية عالية فى السيطرة على أتباعه. نعترف بذلك ونحترمه وبعدها نختلف كما نشاء. كما أننى قررت أن أستدعى الاحترام لرجل اختلف مع رأيه وفكره، فقد تذكرت حالة مماثلة ولكن من جانب آخر وهى الأستاذ عبد القادر عودة. كنت فى سجن الاستئناف يوم تنفيذ حكم إعدامه. ساد الصمت المهيب، وارتفعت الراية السوداء وبدأت عملية الإعدام. صعدت على أكتاف زميل بالزنزانة وعبر قضبان الباب المطل على طريقة الدور الثالث شاهدتهم. محمود عبد اللطيف

كان منهجاً ويكي، ويوسف طلعت [رئيس الجهاز السرى] كانوا يجرونه فقدماء
امتنعنا عن حملته، هندأوى دوير كان يصرخ "إحنا ما اتفقناش على كده" ثم جاء
عبد القادر عودة منتصب القامة رافضاً أن يمسك به أحد من الحراس، يمشى
بخطى ثابتة وحاسمة ويصيح بصوت قوى يسمعه الجميع:

ولست أبالى حين أقتل مسلماً

على أى جنب كان فى الله مصرعى

ورغم كل الاختلاف احترمت ولم أزل ثبات الرجل وشجاعته.

وعن الجهاز السرى للجماعة الذى يسمونه "الجهاز الخاص"، تعتمد الإخوان أن
يحيطوه بالغموض. ينكرون وجوده أصلاً فى زمن ما، ثم يقولون 'نه وجد لمحاربة
الصهيونية، وينكرون علاقته وعلاقتهم بأيه أعمال إرهابية. وهكذا فإن هذا المسلك
جعل الكتابة الأكاديمية تتردد إزاء الحوادث والأحداث، حتى وقعت خلافات بين
كوادر هذا الجهاز وحتى كتبوا مذكراتهم متباهين فيها بالقيام بكل ما أنكرته
الجماعة وأسموه جهاداً، متنافسين فيما بينهم حول من كان الأكثر وحشية.
فاستطاعت الكتابة أن تنقل عنهم باطمئنان متجاوزة عن خلافاتهم واتهاماتهم
لبعضهم البعض. والكتب والمذكرات فى هذا الصدد كثيرة لكن أهمها:

. أحمد عادل كمال . النقط فوق الحروف.

. صلاح شادى . حصاد العمر .

. محمود الصباغ . الجهاز الخاص ودوره فى جماعة الإخوان.

محمود عبد الحليم - الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ - ثلاثة

مجلدات [وهو التاريخ المعتمد من الجماعة للجماعة].

. زينب الغزالى . أيام من حياتى .

وبعدها لم يعد مجال لإنكار، ومع ذلك تبقى المعاندة، لكنها ومهما عاندت لا
تلقى الحقيقة.

وأخيراً.. يعتاد المؤرخون والكتاب السياسيون إذ يكتبون عن خصم على التأكيد أنهم محايدون. ولكننى أقرر أن الحياد إزاء قضية كهذه سيكون صعباً، فعندما تجد نفسك فى بئر جماعة كهذه، وترى أمام عينيك حقائق حقيقية يجرى إنكارها، وتجد القول ونقيضه، الحقيقة وعكسها، وممارسات تتعدد وتتناقض وتتجاوز فى آن واحد. وعندما ترى ما أزعج الصحابى الجليل أبو ذر الغفارى يتجسد أمام عينيك إذ ترى أعمالاً ما هى من كتاب الله ولا هى من سنة نبيه، وعندما ترى حقاً يظفأ وباطلاً يحيا، وصادقاً مكذباً وأثره بغير تقى. ترى ذلك الذى أفزع أبو ذر الغفارى يجرى أمام عينيك فإنك لا يمكن ومهما حاولت أن تكون محايداً، ومع ذلك أكاد أوقن أننى لم أكن ولن أكون مبتعداً عن البحث عن الحقيقة وإن كان ذلك البحث مضنياً، ولم أكن لا مبالغاً ولا مستدعياً خصومة وقعت، محولاً كلماتى إلى طعنة مكتوبة، وحتى شتائمهم اعتزلت الرد عليها، وعندما أخطأ أحد كتابهم فى حقى خطأ فادحاً على صفحات جريدة الشعب ورفعت عليه دعوى ووجدته قد يسجن تنازلت عن الدعوى. وهكذا كانت الكتابة محاولة خالية من تكلف حياد يخفى الحقيقة، وخالية أيضاً من اقتناص الأخطاء والوقوع فى حبائل العدا. وحتى موقفى السياسى الجاف من الجماعة حاولت جهد طاقتى أن أعزله عن ضمير الكتابة.

والآن أستطيع أن أبدأ...

فقط أذكر أن هذا المجلد لم يكمل بحثاً يتعين أن يمتد ليصل بنا إلى ما كان منذ تسعينيات القرن الماضى وحتى الآن.

وهذا ما أتوعد نفسى به.. إن كان ثمة بقية من أيام.

القاهرة ١١ أكتوبر ٢٠١٣

الجماعة كيف بدأت؟ ولماذا؟

المبتدأ..

لست أدرى لماذا . فى هذا الموضوع بالذات . اعتاد الباحثون والكتاب أن يبدأوا الكتابة من منتصف الصفحة، متصورين أنها البداية. وأكاد أتصورهم كمن يمزق الثمرة، أيما كان تذوقه لها لذينة أو مريرة، متناسيا التعرف على الشجرة. أو يقدم للقارئ كوباً من شراب مجهول الهوية، وهو دوماً ممتلئ حتى منتصفه فقط.

أقصد . ولكى لا أطيل . أن أحداً لم يبدأ من البداية الحقيقية.

فالمبتدأ فى اعتقادى يكون عند البواعث والدوافع والمكونات الاجتماعية والمجتمعية والثقافية والتعليمية والإعلامية التى تراكمت فى الوجدان المصرى لتخلق المناخ الذى نبتت منه هذه البذرة. عندما كانت بذرة.

فليس منطقياً أن نصف الشجرة، أن نصفها جميعاً دون أن يتمعن أحد فى جذورها ليرى كيف ولماذا نبتت فى هذا الوقت بالذات، وفى هذه التربة بالذات؟.

وليس منطقياً أن ننطلق جميعاً نحو الظاهرة مؤيدين أو معارضين دون أن نسأل أنفسنا لماذا كانت؟ وكيف تطلعت؟ فكانت ما نراه الآن.

فبدون التعرف على التربة والمخصبات . السلبية والإيجابية . التى أورثتنا ظاهرة التأسلم، سنظل أسرى للنظرة الجزئية والعارضة وغير المدركة لحقيقة ما ندرس من موضوعات متعلقة بها.

وهكذا كانت العودة إلى المبتدأ ضرورة حتمية، تجاهلناها جميعاً، ربما عن عمد بسبب صعوبة المرتقى، وربما اكتفاءً بالموضوع الأكثر جذباً للقارئ. لكننا . وبالقسط . لن نستطيع فهم الظاهرة، أى ظاهرة إلا بدراسة المسببات، وفحص علاقات السببية المتشابهة التى تولدت منها هذه الظاهرة وجوداً وزماناً ومكاناً.

ولهذا فإن هذه الكتابة ستحاول أمراً صعباً، هو أن تبدأ من المبتدأ، أى بدراسة العوامل والأسباب والمسببات والتفاعلات التى تولدت منها ظاهرة التأسلم.

ويبدو هذا المبتدأ وكأنه مقدمة طويلة، لكنها وعندما يتعامل معها القارئ سيكتشف . فى اعتقادى . أنها لزوم ما يلزم، وأنها كانت دوماً لازمة، لكننا، لم نلتزم بما هو صحيح وضرورى فتجاهلناها.

ولأن الكتابة . بعد ذلك . ستكون عن جماعة الإخوان المسلمين، باعتبارها أيضاً مبتدأ التيار المتأسلم فى العصر الحديث، فإننا لن نحاول التكرار . فالكتابة عن جماعة الإخوان كثيرة ومتكاثرة، ولعلها انقسمت شطرين أساسيين . التهليل المرحب والمؤيد فى حالة تشبه الوجد الصوفى، والهجوم الضارى والمتشدد . وما من منطقة رمادية بين الاثنين . ومن ثم فإن من حق الكاتب والقارئ معا أن يستعيدا بيت الشعر الجاهلى:

هل غادر الشعراء من متردم

أم هل عرفت الدار بعد توهم

كان الشاعر ينعى إمكانات أى شعر قادم، فهو يقول إن المعانى كلها قد قيلت، وإن إمكانات الإبداع قد استنفدت.

فماذا يمكن أن يقال جديداً فى موضوع جماعة الإخوان؟ ماذا وبعد كل هذه الكتب، وبعد كل هذا المديح المفرط، والهجوم المتشدد، ماذا بعد كل هذا التحليل والتأويل، القول والقول المضاد؟

لكننى أزعم أيضاً أن الكتابة لم تكتمل بعد، وأن هناك زوايا عديدة لم تنل مفتحة أمام الباحثين. ومن هذه الزوايا سيجد القارئ كتابة تعتمد أساساً على المقاربة والمقارنة بين كتابات الكوادر الإخوانية.

فسوف نستعرض عبر صفحات من هذا الكتاب عديداً من كتب قيادات وأعضاء

جماعة الإخوان وجهازها الإرهابي. نقارن ونفحص ونكتشف التناقضات والتضادات والهجمات المتبادلة، ونستخلص من ذلك حقائق تبنت لنا وكأنها مذهلة، ولعلها ستتبدى كذلك للقارئ.

فقد اختلف الإخوان، وخاصة إخوان الجهاز السري، وكتب الطرفان كتباً عديدة تحمل اتهامات واتهامات مضادة، وتمتلى بما قالوا إنها حقائق، وبحقائق مضادة. ومن المقارنة سنكتشف . دون عناء . ثماراً معرفية جديدة.

ولأن الأستاذ سيد قطب، هو سيد التطرف المتأسلم في اعتقادنا، ولأنه هو الذى تجاسر فمد الخط الإخواني على استقامته، فقال وفعل ما حاولت الجماعة أن تفعله دون قول أو إيضاح، ولأنه عند تابعيه وتابعي تابعيه، هو قطب الفكر المتأسلم، والعمل المتأسلم أيضاً. ولأن آلافاً من تابعيه وتابعي تابعيه يعتبرون أنفسهم وعلى امتدادات متسعة من الأرض التى يعيش عليها مسلمون يعتبرون أنفسهم وفى تباهاة وافتخار إنهم "قطبيون" ربما دون أن يقرأوا له، مكتفين بأن يقرأوا عنه. فإن الكتابة المتأنية عنه كانت ضرورية.. وهذا ما حاولناه.

ولعلى ممن يعتقدون أن سيد قطب قد تعرض ولم يزل للاستخدام وللإستخدام المضاد. فجماعة الإخوان تقدسه وتكره فى آن واحد. وكثير ممن يسمون أنفسهم "بالقطبيين" نسبة إليه يتخذونه . ربما دون إرادة منه . وساماً يتحلون به فى سوق التأسلم، ويستندون إليه لأنهم كانوا ولم يزلوا بحاجة إلى صورة المفكر الشهيد، دون دراسة جدية لفكره أو رؤيته العلمية.

ويبقى سيد قطب ظاهرة تحتاج إلى دراسة متأنية، وهذا ما حاولناه فى الفصل الأخير من الكتاب.

مؤملين أن هذا يكون كله مستحقاً من القارئ عناء المطالعة، والقراءة النقدية، فلعلنا وعبر اختلاف الرؤى وتفاعلها نفهم ونتفهم، أو نحاول ذلك. فظاهرة التأسلم التى أساعت إلى الإسلام . فى اعتقادنا . وأساعت إلى المسلمين . فى اعتقادنا أيضاً .

تمثل واحدة من أخطر ما يواجه زماننا من تحديات.. ومن ثم فهي تستحق عناء
الكتابة وعناء القراءة، وعناء النقد والانتقاد، والخلاف والاختلاف.
فهذا هو مبتدأ الطريق نحو الفهم الموضوعي، المفضي إلى نقاء الفهم للإسلام،
أقصد صحيح الإسلام.
أو هذا ما أعتقد.

د. رفعت السعيد

الفقه.. والتراث

"يحمل هذا العلم من كل خلف عدول ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين"

(حديث شريف)

"رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب"

(الإمام الشافعي)

"رأينا هذا هو أفضل ما قدرنا عليه، فمن جاعنا بأفضل منه قبلناه"

(الإمام أبو حنيفة)

"كل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد ما عدا صاحب هذا القبر وأشار إلى قبر

الرسول صلى الله عليه وسلم"

(الإمام مالك)

لعلنا إذا ما تأملنا واقعنا تأملاً هادئاً سنكتشف أن كثيراً مما يعترض الفهم الصحيح للإسلام، وكثيراً مما أنبت من الشوك والمرارة في مسارنا الإسلامى، ومما طمس المعالم والفروق الواضحة بين الفهم لصحيح الإسلام وخاطئه، أى بين الإسلام والتأسلم ينبع من تسريب مفاهيم ومعان غير دقيقة أو خاطئة لمفردات ترددها ألسنتنا كل يوم دون وعى دقيق بمدلولاتها، بما يلغى . أو يحاول . الفروق الفارقة بين كلمات وكلمات، ومعان ومعان.

كمثال: الفارق الكبير بين كلمات "الجهاد" و"الإرهاب" و"الاغتيال" و"الفتك" أو الفارق الواضح بين "الشريعة" و"الفقه". فالبعض عن عمد أو عن جهل . سيان . يعتبرها مترادفات وما هى كذلك.. وسوف نحاول فى هذه البداية أن نمايز بين كل منها.

الجهاد:

وبابه جهد بفتح الجيم وتعنى المشقة أى جد فى الأمر وفى القرآن الكريم "وأقسموا بالله جهد إيمانهم"، وبضم الجيم أى "جُهد" أى بذل الطاقة وفى الآية الكريمة "والذين لا يجدون إلا جُهدهم"^(١)، ويقال أجهد دابته أى حملها ما فوق طاقتها. وجَهِدَ فلان من كذا أى جد فيه" ومنه اجتهد. واجتهاد وجهاد^(٢).

الإرهاب:

وبابه "رهب" أى خاف ويقال رهبه أى أخافه وأفرعه^(٣)، أما كلمة إرهاب فهى مشتقة من الفعل المزيد أرهب، فيقال أرهب فلانا أى خوفه وأفرعه. أما الفعل المزيد بالتاء "ترهب" فيعنى أنه خاف غواية الدنيا له فانقطع للعبادة. وفى الآية الكريمة "يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ" وأيضا " قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَزْهَبَهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ

عَظِيمٌ" (٤) وكذلك "لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ" (٥) و .. "وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ" (٦) أى من الخوف.

اغتيال:

بابها "غول" ومنها غال الشئ من باب قال. واغتاله أى أخذه من حيث لم يدر (٧). وكل ما اغتال الإنسان فأهلكه فهو غول. واغتيال تأتى على زنة افتعال أى أنها تتطوى على العمد والقصد.

ويقال قتله غيلة "أى خدعة فذهب به إلى موضع فقتله" وأصل "غيل" هو الحرج ذو الشجر الكثيف، وعندئذ يكون قولهم اغتاله أو غاله مأخوذة من قتله فى الغيل أى غفلة منه أى غيلة (٨). ويقال: غالته الخمر إذا شربها فأذهبت عقله، وغاول الأعداء أى باغتهم بالهجوم من حيث لا يدرون (٩).

فَتَكَ:

أى ركب ما تدعو إليه نفسه غير مبال. وفتك به أى غدر به وقتله مجاهرة (١٠) والفتك بفتح التاء وضمها وكسرها يعنى القتل على غرة (١١). ويقول ذات الشئء تقريبا الزمخشري "الفتك هو القتل على حين غرة" (١٢).

إذن اغتاله: تعنى قتله من حيث لا يدرى.

وفتك به، قتله وهو يراه لكنه غافل عنه.

وتدخل الحالتان فى مفهوم الغدر.

ونتوقف قليلاً لنناقش علاقة الاغتيال والفتك بالموقف الدينى الصحيح.

يقول الفخر الرازى فى تفسيره للآية "إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ" (الحج: ٣٨) أن مسلمى مكة استأذنوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى أن يقتلوا سرّاً المشركين الذين آذوهم فنهاهم قائلاً: "الإيمان قيد الفتك" (١٣) ونزلت الآية السابقة لتؤكد قول الرسول. وفى ذات المعنى استخدم الحديث الشريف. "فقد استشهد به مسلم ابن عقيّل حين دافع عن عدم تنفيذ لخطه رسمها له قائد شيعى بالكوفة لاغتيال عبيد الله بن زياد، وقال إن رسول الله (صلى

الله عليه وسلم) قال "قيد الإيمان الفتك لا يفتك مؤمن" أخرجه أبو داود^(١٤).
وتردد ذات الحديث في أخبار مقتل الحسين^(١٥).

ومن هنا فإن الآية الكريمة والحديث الشريف يشكلان موقفًا شرعيًا متكاملًا يرفض الاغتيال والفتك مهما تكن دوافعه حتى ولو كان ضد المشركين الذين يمارسون التعذيب ضد المسلمين ويحاربون الدين ومن آمنوا به. "ويتمشى هذا الموقف مع قيم الفروسية التي ترسخت حتى في الجاهلية والتي تتمسك بالقتال وجها لوجه، ولا تقر ملاحقة الهارب. وكان الفارس الجاهلي إذا قابل خصمًا صاح به قبل أن يهاجمه: خذ حذرک إني قاتلك"^(١٦).

الأمر واضح تمام الوضوح قرآنا وسنة. ومع ذلك فإن كتب التراث تمتلئ بأحاديث وحكايات مثيرة للدهشة عن الاغتيال؛ محاولة أن تضيف مشروعية على ما هو غير مشروع.

ونختار بعضاً من هذه الحكايات..

. اغتيال كعب بن الأشرف، وكان من زعماء اليهود، وحليفاً لبني قريظة أقوى عشائر يثرب اليهودية، وبعد غزوة بدر قيل إنه ذهب إلى مكة ليحرض زعماءها على قتال المسلمين. وقيل إن محمد بن مسلمة من الأوس قد اغتاله^(١٧).
. اغتيال خالد بن سفيان، وقيل إن صحابيا يدعى عبد الله ابن أنيس اغتاله لأنه كان يجمع حشداً لمهاجمة يثرب^(١٨).

. محاولة اغتيال أبي سفيان وقيل حاول ذلك عمرو بن الضمرى لكنه فشل^(١٩).
. اغتيال سعد بن عباد، وهو زعيم الخزرج، وأحد النقباء في بيعة العقبة التي مهدت لهجرة الرسول إلى يثرب، وكان قائداً للأتصار في حروب الرسول. ولكنه كان يعارض سطوة قريش^(٢٠) وقد رشح نفسه للخلافة يوم السقيفة لكن الكثيرين من الأوس خذلوه. فرفض مبايعة أبي بكر. واعتزل ولم يشارك في الفتوحات. وكان يصلى في بيته فلما فتحت الشام هاجر إليها. وقيل إنه قتل عام ١٤ هـ.

وتقول كتب السير إنه اغتيل بطعنة رمح بزعم أن الجن شكت قلبه لأنه بال

واقفاً. وتحاول هذه الرواية أن تعزز نفسها فتجرى صياغتها شعراً:

يقولون سعد شكت الجن قلبه

ألا ربما صحت دينك بالغدر

وما ذنب سعد أنه بال واقفاً

لكن سعداً لم يبايع أبا بكر

وقد صبرت عن لذة العيش أنفس

وما صبرت عن لذة النهى والأمر (٢١)

وهكذا نجد أن كتب السير قد أسهبت في محاولة لتأكيد مشروعية الاغتيال والفتك،

وتناست تماماً النهى القرآنى والحديث الشريف الأمرين للمؤمنين بعدم الفتك.

لكننا يتعين علينا أن نتذكر أن المجتمع كان حديثاً فى إسلامه، وأن التقاليد

الجاهلية كانت راسخة إلى درجة يمكنها أن تتحدى حتى التعاليم الدينية.

فالمسيحية التى أمرت بعدم رد العدوان بعدوان "قادر له خدك الأيسر" لم تستطع

أن تغير البدوى المسيحي فتجعله مسالماً يتقبل عدوانا دون أن يرد الصاع

صاعين.

والشاعر المسيحي جابر بن حنى يرد على تهجم صادر من قبيلة لقبيلته قائلاً:

وقد زعمت بهراء أن رماحنا

رماح نصارى لا تبوء إلى الدم

نعاطى الملوك السلم ما قسطوا لنا

وليس علينا قتلهم بمحرم (٢٢)

وبعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقعت فى خلافة الراشدين أربع

حوادث اغتيال طالت ثلاثة خلفاء، وهم: عمر وعثمان وعلى وصحابى ذو شأن.

ثلاثة منها تمت بأيدي عربية والرابعة بيد واحد من الموالى. وثلاثة منها تمت بشكل

عنى والرابعة تمت سراً. إنه الصراع السياسى الذى يحتدم فتعود التقاليد القديمة

والعادات الجاهلية والنزعة القبلية لتتلبسه.

لكننا سنتوقف أمام حادثة اغتيال عمر بن الخطاب لأنها لم تكن نزاعاً بين طرفين يتصارعان على الحكم؛ بل لعلها ووفق حكايات كتب السير كانت نزاعاً طبقياً حول امتيازات مالية يريد عمر أن يلغيها.. أو هكذا توحى كتب التراث. القول المألوف إن أبا لؤلؤة المجوسى وكان فارسياً قتلته انتقاماً لهزيمة الفرس على يد جيوش عمر واحتجاجاً على استرقاق الرجال وسبى النساء من سادات الفرس. لكن ثمة حكايات أخرى..

فإن عمر كان واحداً من فقراء قريش، وكان يعمل دلالاً فى السوق وهى مهنة متواضعة^(٢٣).

ويحكى أن عمرو بن العاص كان يقول فى مرارة "لعن الله زمانا عملنا فيه لابن الخطاب، لقد رأيته وأباه وإنهما لفى شملة ما توارى أرسغهما، وإن العاص بن وائل (والد عمرو) لفى مقطعات الديباج مزررة بالذهب"^(٢٤).

'وتوحى الحكايات أن عمرًا وقف ضد جشع أغنياء عصره والذين ازداد جشعهم مع تراكم ثروات طائلة عبر الفتوحات.

ويروى أبو يوسف أن عمر قال قبل حلول موعد تقسيم العطاء: "لئن عشت إلى هذه الليلة لألحقن أواخر الناس بأولاهم حتى يكونوا فى العطاء سواء. وأنه أُغتيل قبل أن يحل موعد العطاء التالى"^(٢٥).

ويحكى ابن الأثير أن عمرًا قال: "إن رسول الله قدر فوضع الفصول مواضعها وتبلغ بالترجية، وإنى قدرت فوالله لأضعن الفصول مواضعها ولأتبلغن بالترجية"^(٢٦) والفضول هى الأموال الفائضة عن الحاجة. والتبلغ بالترجية كناية عن الكفاف. ومعنى العبارة أن عمرًا يقول عن نفسه أنه ينوى التنازل عن أمواله محتفظاً فقط بما يكفيه لعيش الكفاف. وما كان لأثرياء العرب آنئذ أن يسكتوا عن شىء كهذا.

ويروى الطبرى أن عمرًا قال: "لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء"^(٢٧) ويقول: "كان عمر قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج من المدينة إلى الأمصار إلا بإذن وأجل

مسمى" (٢٨) ويعود ليقول إن الشعبي قال: "لم يمت عمر حتى ملته قريش وقد كان حصرهم فى المدينة، قائلاً إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد" (٢٩). ويروى عن الشعبي إنه قال: "وما إن جاء عثمان حتى رفع الحجر عن قريش فتنقلوا فى البلاد، فكان أحب إليهم من عمر" وعن طلحة: "لم تمض سنة من إمارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالاً فى الأمصار وانقطع إليهم الناس (أى تجمعوا حولهم) وصار لكل واحد حاشية وأتباع" (٣٠).

ويقول الطبرى أيضاً نقلاً عن عبد العزيز بن سياه أن عبد الله ابن عمر صاح بعد مقتل والده: "والله لأقتل رجلاً ممن شاركوا فى دم أبى، وأنه كان يقصد رجلاً من المهاجرين والأنصار". ويوحى بأن عمرًا نفسه كان يعرف ذلك وأنه تساءل وهو يحتضر: "أعن ملاً منكم كان هذا؟ وكانوا يجيبونه: معاذ الله" (أى هل تواطأ بعضكم على ذلك؟).

. ويعنى ذلك كله إن كان بالإمكان الاعتداد بهذه الحكايات رغم تعدد مصادرها بأن الأمر كان ثمرة مريرة لصراع اجتماعى بين أرسقراطية قريش الناشئة وبين عمر الذى قاوم نفشى ثرائها (٣١).

لكن الصبغة الأساسية للاغتيالات فى هذه الحقبة وما تلتها كانت صراعاً سياسياً حول السيطرة على الحكم ارتدى . أو حاول . ثياباً دينية.

فالخوارج تداولوا فى أمر الأمة الإسلامية وما آلت إليه من شقاق وقرر بعضهم أن السبب هو صراع الزعامات على الحكم ورأوا اغتيال الثلاثة: على . معاوية . عمرو بن العاص. واختاروا ثلاثة "قذائين" بحيث يتم الاغتيال فى ساعة واحدة هى صلاة الفجر فى يوم ١٩ رمضان. وتوجه الأول إلى الكوفة حيث قتل على. والثانى إلى دمشق لكن ضربته لم تسدد جيداً فأصاب معاوية فى إلبته. أما الثالث فقد أتى إلى مصر وطعن من تصور أنه عمرو بن العاص لكن عمرُ كان مريضاً وناب عنه فى الصلاة "خارجة" فقال القذائى ما صار مثلاً يتردد "أردت عمرًا وأراد الله خارجة".

الاغتيال أصبح فى هذا الزمان سلاحًا وسلاحًا مضادًا فى معارك سياسية على تولى الحكم، واتخذت فى أغلب الحالات طابعاً قبلياً: بنو هاشم ضد بنى أمية، وارتدى ذلك كله رداء دينياً.. وهو أبعد ما يكون عن الدين. واتخذ معاوية سلاحاً جديداً لاغتيال خصومه هو السم. وكان الطبيب ابن آثال هو من يستحضره له^(٣٢).

ويروى الأصفهاني: "لما أراد معاوية أن يظهر الولاية لابنه يزيد قال لأهل الشام: إن أمير المؤمنين قد كبرت سنة، وبق عظمه، واقترب أجله، ويريد أن يستخلف عليكم، فمن تريدون؟ فقال الكثيرون: عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. وسكت معاوية، وأضرمرها فى نفسه وأمر بقتل عبد الرحمن بالسم"^(٣٣) ولأن الكثيرين يعرفون أن الطبيب ابن آثال هو الذى يستحضر السم فقد قام ابن عبد الرحمن بن الوليد بقتل ابن آثال. وعندما قبض عليه قال لمعاوية "قتلت المأمور وبقي الأمر"^(٣٤).

.. ويبدو أن السم كان أيضاً وراء مصرع عمر بن عبد العزيز "فقد سقاه بنو أبيه السم لما شدد عليهم وانتزع كثيراً مما فى أيديهم"^(٣٥).. وكذلك الإمام أبو حنيفة يقال إنه "مات فى السجن من الضرب أو السم"^(٣٦).

ويكاد أغلب الرواة أن يجمعوا على أن الحسن قد مات مسموماً. وأصل الحكاية أن الحسن وكان مسالماً لا يريد اشتعال الحرب بين المسلمين قد سلم بخلافة معاوية على اتفاق بينهما أن يخلف معاوية متى توفى. وراهن الحسن على أن معاوية أكبر منه سناً بكثير وأن يزيد بن معاوية لم يزل طفلاً. ولكن وبعد عشر سنوات أصبح معاوية كهلاً ويزيد شاباً وتقرر التخلص من الحسن. ويجمع الكثير من الرواة على أنه مات مسموماً^(٣٧).

والمثير للدهشة أن الحسن كان مسالماً فعلاً ولا يريد قتالا حتى مع من يعادونه، ويروى الحسن البصرى: "لما كانت فتنة ابن الأشعث دخل جماعة على الحسن فقالوا: ما تقول فى هذا الطاغية (الحجاج الثقفى) الذى سفك الدم الحرام، وأخذ المال الحرام، وترك الصلاة، وفعل.. وفعل؟ ذاكرين له الكثير من أفعاله. فقال الحسن: لا تقاقلوه فإنه إن يكن عقوبة من الله فما أنتم برادى عقوبة الله بأسيا فكم،

وإن كان بلاءً فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين" (٣٨).

ونعود تاركين كتب السير والتراث وحكاياتها. نعود لنجد أن الإسلام برىء من ذلك كله وأنها صراعات سلطة أو صراعات اجتماعية على ثروة، وما كان للإسلام أن يكون سنداً لذلك. فالإسلام قد حدد قرآناً وسنة كما رأينا فى بداية هذه الكتابة "إن الله لا يحب كل خوان كفور" و"الإيمان قيد الفتك" ومع ذلك القول الإسلامى الواضح والأمر فإن متأسلمى زماننا الحديث يتكون القرآن والسنة مستخدمين حكايات وروايات انتزعوها من كتب السير التى كتبت بعد سنين طويلة من الزمن الإسلامى الأول.. ذلك أن أولها وهو ابن هشام كتب حوالى سنة مائة هجرية.

ويرغم الآية الكريمة والحديث الشريف نجد واحداً من جماعة الإخوان يقول دون احتراز: "إن قتل أعداء الله غيلة هو من شرائع الإسلام" (٣٩).

فكيف يستقيم هذا القول مع حقيقة الشرع؟

هذا هو السؤال الكبير.

على أنه يتعين علينا أن نؤكد أن استخدام الدين بشكل متعسف لتبرير اغتيال الخصوم ليس قاصراً على الإسلام وحده. ففي المسيحية واليهودية حدث ذلك ولم يزل يحدث.

وميكيافيللى هو الذى قال "إن الأنبياء غير المسلحين فاشلون". والعودة إلى التاريخ يمكنها أن تورد أضعافاً مضاعفة من حكايات وروايات تعزز هذا القول.

لكن لماذا تركز الأمر طوال حقبة طويلة عبر الرداء الإسلامى؟ يقول هادى العلوى: "إن الاغتيال السياسى فى الإسلام ليس استثناء فى تاريخ البشرية الخارج من رحم العنف المسلح، لكنه يكرس من جهته خصوصية التناقض فى مجتمع شديد التعقيد. ولا شك أن الصراع التناحرى فى الإسلام قد سلك سبلاً مسدودة جعلته يبدو فى النهاية كما لو أنه صراع من أجل الصراع. حدث هذا لأن حركة التاريخ الإسلامى بقيت حركة مستديرة ضمن الخطوط المغلقة التى رسمها ابن خلدون بموهبته الاستقرائية الفذة. ولم يتهياً لدورة ما من هذا الصراع الطويل

الداعى أن أحدثت خرقا فى هذا المدار لتنتقل بنا نحو مرحلة عليا من تطورنا الحضارى" (٤٠).

ونأتى إلى الشريعة وعلاقتها بالفقه وعلاقة الفقه بها.

- الشريعة: وأصلها "شرع" أى تناول الماء بفمه، أى نهل منه. والشرع هو الطريق. وما شرعه سبحانه تعالى للبشر كي يسيروا على هدايه، وأُشرع نحوه الرمح أى سدده (٤١).

والشريعة هى ما شرع الله لعباده من الدين. ويقال شرع الدين أى حدد أحكامه. والآية الكريمة تقول "ثم جعلناك على شريعة من الأمر فأتبعها". و.. "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه" (٤٢). ومن هنا يقول تعريف للشريعة "أنها ما سنه الله لعباده من الدين وفرضه عليهم"، وأنها "ما جاءت به الرسل جميعا من عند الله بقصد هداية البشر إلى الحق فى الاعتقاد وإلى الخير فى السلوك والمعاملات" (٤٣) فهى تحدد "صلة الإنسان بنفسه، وصلته بخالقه وصلته بمن حوله وما حوله من بشر ونبات وحيوان وجماد" (٤٤). ويمكن إجمال خصائص الشريعة بأنها: ربانية المصدر - صالحة لكل زمان ومكان وأنها تحقق مصالح العباد فى دنياهم وأخراهم" (٤٥).

ومن هنا فإنه يمكن القول "إن الشريعة تقرر مبادئ أمة، وأصولا وقواعد تعد بمثابة خطوط عريضة، وهى تدع الباب مفتوحا فى كل وقت للاجتهاد فى استنباط الأحكام الشرعية التى تتلاءم مع الظروف والأحوال فى كل مجتمع، وتتناسب مع مستجدات الحياة ومتطلبات الزمان والمكان"، كما تنسم الشريعة أيضا "بالتيسير على الناس ورفع الحرج عنهم، فليس فى الشريعة ما يشق على الناس أو يخرج عن نطاق استطاعتهم. فالحج لمن استطاع إليه سبيلا، والصوم للقادر عليه، والزكاة على من عنده فضل مال" (٤٦) وقد قرر القرآن الكريم هذا التيسير فى قوله "يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر" (٤٧).

الفقه :

يقال فقه الأمر فقها أى أجاد فهمه، وفقه فقاها أى صار فقيها. وأفقها أى أفهمه. وفاقها أى تفوق عليه فى الفقه.. والفقه هو الفهم والفتنة والفتية هو العالم الفطن^(٤٨). ويقال فاقها أى تباحث معه^(٤٩) وفى الآية الكريمة "ذلك بأنهم قوم لا يفقهون".

والفقه شىء، والتفقيه شىء آخر فالتفقيه شطط وغلو وادعاء. قال عمر بن الخطاب "تهينا عن التفقيه".

ومنذ صدر الإسلام ويعد وفاة الرسول بدأت تتبلور ملامح مدرستين فى الفقه، فقه أسمى فقه "الأثر" أى ذلك الذى تخرج من الاجتهاد بالرأى إن لم يجد نصاً من القرآن أو السنة. وفقه "الرأى" ومقره العراق وهو الذى يفتى برأيه دون حرج حتى لو لم يجد نصاً يسعفه. وظل الأمر كذلك حتى الآن وإن اتخذ أسماء مختلفة منها: "فقه النقل" وفقه العقل. وبطبيعة الحال فإن كلتا المدرستين تستند إلى النص وإنما بنسب متفاوتة.

ومن هنا نستطيع أن نقرر:

الشرعية معطى سماوى كلى الصحة ودائم الإلزام. والفقه نتاج إنسانى ومن ثم فهو نسبى الصحة، وهو يحتمل الخطأ والصواب. وهو يتغير بتغير القائل وتغير المجتمع وتغير الزمان والمكان.

ونقرأ "ومن الأفكار المغلوطة لدى الكثيرين الخلط بين الشريعة والفقه الإسلامى. وقد استقر هذا الفهم فى أذهان الكثيرين منذ قرون، نتيجة لعصور التخلف التى طرأت على المسلمين بعد تراجع الحضارة الإسلامية. والفرق بين الشريعة والفقه مثل الفرق بين السماء والأرض، وبين ما هو إلهى وما هو بشرى؛ وقد أدى هذا الخلط إلى إضفاء طابع القداسة على آراء الفقهاء "خروجاً على الدين نفسه، وتمسك هؤلاء بإغلاق باب الاجتهاد ومنع رحمة الله الواسعة فى التيسير على العباد"^(٥٠).

أما الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فقد نعى على بعض الفقهاء أنهم جعلوا "كتبهم . على علاتها . أساس الدين ولم يخلوا من قولهم بوجوب العمل بما فيها، فانصرفت الأذهان عن القرآن والحديث وانحصرت الأنظار فى كتب الفقهاء على ما فيها من الاختلال فى الآراء والركاكة"^(٥١).

وقد قال الإمام أبو حنيفة "الفقه هو معرفة النفس ما لها وما عليها"، مستنداً إلى الآية الكريمة "قلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين"^(٥٢). ويقول د. عبد الكريم زيدان "إن مدلول الفقه صار قاصراً على الأحكام العملية أى على العبادات والمعاملات"^(٥٣) والفقيه إذ يعتمد على القرآن والسنة فإنه يعتمد فى الوقت نفسه "على مصدرين آخرين هما الإجماع والقياس. وهناك مجال لرأى الإنسان واجتهاده فيما عدا ما هو معلوم من الدين بالضرورة. أما ما عدا ذلك من الأحكام الفقهية فإنها تخضع للاجتهاد ويراعى فيها ظروف الزمان والمكان والمصالح المرسله والأعراف. ومن أجل ذلك يطرأ على هذه الأحكام التغيير الذى يحقق مصلحة الإنسان"^(٥٤).

والقول الفقهي المعتمد يقول "حيثما تتحقق مصلحة الناس فثمة شرع الله" وهذا القول للإمام نجم الدين الطوفى الذى اعتبر المصلحة مصدراً مستقلاً للتشريع^(٥٥). والمصلحة المقصودة ليست مصلحة فرد أو جماعة أو تنظيم وليست تعبيراً عن الهوى والغرض وإنما المصلحة الحقيقية للمجموع.

ويقول الإمام الغزالى "المصلحة هى المحافظة على مقصود الشرع. ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم. فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعه مصلحة"^(٥٦).

وما كان لى أن أتحدث تفصيلاً عن هذا الموضوع إلا لأدرك عن الإسلام فهم المتأسلمين للمصلحة بأنها مصلحتهم كجماعة أو أفراد أو حتى كفكرة. فالمصلحة هى فى نظر الشرع مصلحة مجموع الأمة وهى ما يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم

وعقلهم ونسلهم ومالهم. وليس استباحة دمائهم وأموالهم ونسلهم.
ونعود إلى الفقه وموقفنا منه.

والحقيقة أننا نعانى معاناة حقيقية إزاء التعامل معه، فهو منتج بشري لكنه شئنا
أم أبينا أصبح وقد اكتسى عند الكثيرين بقداسة لا يأذن بها الإسلام. فالفقه يتغير
زمانا ومكانا. ويجب أن يتغير ومن ثم فهو خال من القداسة.

يقول الإمام ابن القيم "من أفتى الناس بمجرد النقل من الكتب على اختلاف
أعرافهم وعوائدهم وأزمنتهم وأحوالهم فقد ضل وأضل وكانت جنايته على الدين" (٥٧)،
ويقول الإمام القرافي "ينبغي للمفتي إذا ورد عليه مستفت ألا يفتيه بما عاداته أن يفتي
به حتى يسأله عن بلده، وهل حدث لهم عرف في ذلك البلد أم لا" (٥٨).

كذلك أكد الإمام محمد عبده "لا ينبغي للإنسان أن يذل فكره لشيء سوى الحق،
والذليل للحق عزيز، ويجب على كل طالب أن يسترشد بمن تقدمه سواء كانوا
أحياء أم أمواتا. ولكن عليه أن يستعمل فكره فيما يؤثر عنهم، فإن وجده صحيحا
أخذ به، وإن وجده فاسدا تركه" (٥٩).

ولكن أين تكمن المشكلة؟ يجيب د. محمود زقزوق "أن قرون التخلف الفكري
والتراجع الحضاري التي مرت بالأمة الإسلامية رسخت في أذهان الكثيرين
مذاهب فقهية جامدة تتمسك بحرفية النصوص الفقهية دون إفصاح أى مجال
لإعمال العقل الإنسانى. الأمر الذى جعل التخلف الفكرى والتقليد الممقوت يضرب
بأطنابه فى عقول الأمة الإسلامية" (٦٠). وما يعيننا نحن هو ذلك الفقه الذى يروج
له المتأسلمون مستندين إلى آراء ومواقف تقادم عليها الزمان، واختلف المكان
وتغايرت الأحوال فيخرجونها من سياقها التاريخى والمجتمعى ليفرضوها على
حاضر مغاير زاعمين أنها صحيح الدين، متخليين. أو مدعين. أنها صالحة لكل
زمان وكل مكان.

وإذ كان "الفقه" هو "العلم بالأحكام الشرعية العلمية المكتسبة من أدلتها
التفصيلية" (٦١) فى رأى البعض، أو كان "معرفة أحكام الله فى أفعال المكلفين بالوجوب

والحظر والندب والكراهية والإباحة، وهى تتلقاه من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفة من الأدلة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك قيل لها الفقه^(٦٢) كما قال ابن خلدون: "قإن البيان عنه والقول به فى مسألة محددة هو "الفتوى".

الفتوى:

هى إحداث حكم. وهى بيان حكم الله تعالى بمقتضى الأدلة الشرعية^(٦٣)، وهى الإجابة عن مسألة^(٦٤). وفى القرآن الكريم "يستفتونك قل الله يفتيكم"^(٦٥) وأيضاً "ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن"^(٦٦).

ويلاحظ المدقق فى أمور الفتيا أن الفقهاء القدامى كانوا يضعون شرحاً وافياً ومنهجياً للموضوع محل الفتوى. بل لقد وصل الأمر بالإمام أبى حنيفة إلى أن يرفض أن يعمل أحد بأحكامه ما لم يفهم أدلته. وذلك تأكيداً على العلاقة السببية بين الواقعة والفتوى بشأنها.

ومع جمود الفقه وتمترس المحدثين على أبواب الفقه القديم المتجمد "أصبحنا أمام أحكام وفتاوى محددة، وفى نفس الوقت أمام وقائع حياة ليست محددة بطبيعتها. وعلى هذا الأساس لجأ الكثيرون إذ لم يجدوا ما يسعفهم من الأحكام الفقهية فى مواجهة الواقع المتغير إلى سيف التحريم وأصبح إطلاق لفظ الحرام كثير الشيع على الرغم من تخرج الفقهاء الأوائل من استخدامه"^(٦٧) .. "عندما لا يصبح الحكم الفقهى مرتبطاً بتفسير الظاهرة وتحليلها وفهمها فهماً عميقاً، يصبح من البديهي أن يفتى فى السياسة من لا يميز فرقاً بين النظام الرئاسى والنظام البرلمانى، وأن يكفر الأحزاب كلها من لا يعلم ما هو الحزب... وأن يفتى فى الطب ونقل الأعضاء من ليس له أدنى علاقة بالطب"^(٦٨).

وكثيراً ما يؤدى الإفتاء بغير علم بموضوع الفتوى إلى تحريم ما لم يحرم الله، بل وتكفير الآخر الذى لم يأخذ بالفتوى، ومن ثم غاب ما يمكن أن نسميه أدب الاختلاف فى الرأى الفقهى أو فى الفتوى "الجماعات الإسلامية تكفر الحاكم، وبعضها يكفر المجتمع، ثم تتقلب على بعضها فتكفر بعضها بعضاً، ويستبيح

الجميع دم الجميع. وعندما يصبح التكفير هو السلاح المشهر عند الاختلاف فلا رأى ولا حوار ولا تفاعل ولا تقدم".

وأدب الاختلاف فى الفقه والفتوى هو ضمان للاجتهاد وإعمال العقل. وبدونه تكون الكارثة. ونعرف أن الخوارج قد أفتوا بتكفير على بن أبى طالب لخلافهم معه فى قضية التحكيم "أما هو فقد أذن لأصحابه أن يصلوا خلف الخوارج، وقال: لا تقاتلوا الخوارج بعد فليس من طلب الحق فأخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه"^(٦٩) ووقف على أمام قتلى معركة صفين قائلاً: "إن قبلتنا واحدة، وديننا واحد، وقرآننا واحد ونبينا واحد. لم نختلف فى شيء من ذلك، وإنما اختلفنا فى دم عثمان". ثم دعا الله "أن يدخل قتلى الفريقين جنته ونهى أصحابه عن سب معاوية وجنوده"^(٧٠). والأساس هنا هو الرفق والرحمة بالمخالفين فى الرأى واحترام حقهم فى الاختلاف، وفى القرآن الكريم "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين". وفى الحديث الشريف "إنى لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة للعالمين"^(٧١).

وروى أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سمى نفسه أسماء عدة فقال: "أنا محمد وأحمد ونبى الرحمة"^(٧٢).

والآيات الكريمة التى تتحدث عن الصفح والعفو والصبر والرحمة بلغت ١٢٤ آية. وحتى إذا ما حاول أهل الكتاب أن يردوا المسلمين عن إيمانهم فجواب المسلمين هو العفو والصفح "ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره، إن الله على كل شيء قدير"^(٧٣).

لكن متأسلمى آخر الزمان لا يأخذون إلا بالعنف والقتل قائلين إن كل الآيات الكريمة التى تتحدث عن العفو والرحمة والصفح والصبر قد نسختها الآية الكريمة "فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد"^(٧٤).

ويرد عليهم الإمام السيوطى مؤكداً أن هذا ليس نسخاً لكنه نوع من النسخ أى التأجيل والتوقيف بأجل وظرف.

ويستند متأسلمو زماننا إلى فتوى شهيرة لابن تيمية أسميت فتوى أهل ماردين فهم يقولون إن ابن تيمية أمر بتكفير التتار رغم إسلامهم لأنهم حكموا بما أسموه "الياسة" ولم يحكموا بالقرآن. وينسى هؤلاء أن الحرب كانت قائمة بين التتار وبين المماليك فى مصر والشام. وأن ابن تيمية قال فى هذه الفتوى عن المماليك "إنهم كتيبة الإسلام وعزهم عز الإسلام، ونلهم نل الإسلام فلو استولى عليهم التتار لم يبق للإسلام عز ولا كلمة عالية ولا طائفة ظاهرة يخافها أهل الأرض"^(٧٥) ولم يكن تكفير ابن تيمية للتتار لأنهم يحكمون بالياسة ومساندته للمماليك لأنهم يحكمون بالشرعية، فالمماليك لم يكونوا هم أيضاً يحكمون بالشرعية بل كانوا ظلمة فجرة. يقول المقرئى إن هؤلاء المماليك كانوا أيضاً من المغول "وقد استكثر من شرائهم الملك الصالح نجم الدين، ومنهم من ملك مصر وأولهم عز الدين أيك وكانوا قد ربوا بدار الإسلام وعرفوا أحكام الملة المحمدية فجمعوا بين الحق والباطل، وضمووا الجيد إلى الردىء، وفوضوا قاضى القضاة فى كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والزكاة والصوم والحج والأفضية الشرعية. واحتاجوا فى نفس الوقت إلى الرجوع لعادة جنكيز خان والافتداء بحكم الياسة لذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم على مقتضى الياسة، وجعلوا إليه النظر فى قضايا الدواوين السلطانية"^(٧٦).

وهكذا نكتشف خطأ محاولة متأسلمى زماننا فى الاستناد إلى فتوى ابن تيمية. فابن تيمية لم يكفر التتار بسبب اتخاذهم الحكم بالياسة فالمماليك أيضاً كانوا يحكمون بالياسة وكانوا أيضاً ظلمة فجرة. وإنما حكم ابن تيمية بتكفير التتار بسبب عدوانهم على بلاد المسلمين.

وقد زاد من الخلط ما بين الشرع والفقه والفتوى والرأى والاعتماد على كتب السير، التى أوردت حكايات وروايات وأحكاماً تواترات بالنقل والاصطناع. ويتنمرد د. محمد حسين هيكى من ذلك قائلاً: "إن البعض أضاف إلى دين الله

شيئاً كثيراً لا يرضاه الله ورسوله، واعتبره من صلب الدين، ورمى من ينكره بالزندقة، فقد أضافت أكثر كتب السيرة ما لا يصدق العقل ولا حاجة إليه في ثبوت الرسالة، ولأن هذه الأقاويل قد اعتبرها البعض من صلب الدين فقد رُمى من أنكرها بالإلحاد. بل إن العديد من العلماء المسلمين والشيخ محمد عبده في مقدمتهم قد اتهموا بالإلحاد والكفر^(٧٧). ثم يقول في لفظة ذكية: "لقد لاحظ الذين درسوا كتب السيرة أن ما روته من أنباء الخوارق في الكتب القديمة أقل بعدا عن مقتضى العقل مما ورد في كتب المتأخرين، وهذه سيرة ابن هشام أقدم السير المعروفة، تغفل كثيراً مما ذكره أبو الفداء في تاريخه، وكذلك الشأن في كتب الحديث واختلافها"^(٧٨). ويؤكد د. هيكل على ضرورة النظر إلى كتب التراث نظراً نقدياً، وإخضاعها للفحص العقلي المدقق "خاصة وأن أقدمها كتب بعد وفاة النبي بمائة سنة أو أكثر، وبعد أن فشلت في الدولة الإسلامية دعايات سياسية وغير سياسية كان اختلاق الروايات والأحاديث بعض وسائلها إلى الذبوع والغلبة، فما بالك بالتأخر مما كتب في أشد أزمان التقلل والاضطراب؟ وقد كانت المنازعات السياسية سبباً فيما لقيه الذين جمعوا الحديث ونفوا زيفه ودونوا ما اعتقدوه صحيحاً من جهد وعنت"، ثم يقول: "ويكفى أن يذكر الإنسان ما كابده البخاري من مشاق وأسفار في مختلف أقطار الدولة الإسلامية لجمع الحديث وتمحيصه، وما رواه بعد ذلك من أنه وجد أن الأحاديث المتداولة تربو على ستمائة ألف حديث لم يصح لديه منها أكثر من أربعة آلاف. وهذا معناه أنه لم يصح لديه من كل مائة وخمسين حديثاً إلا حديث واحد (أي بنسبة ٠,٦%) وأبو داود لم يصح لديه من خمسمائة ألف حديث غير أربعة آلاف وخمسمائة"^(٧٩).

ويقول الدارقطني إن الحديث لم يجمع إلا في عهد المأمون "بعد أن أصبح الحديث الصحيح في الحديث الكاذب كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود" والراجح أن الحديث لم يجمع في صدر الإسلام، بسبب ما روى عن الرسول أنه قال "لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن، ومن كتب شيئاً غير القرآن فليمح".

ولا مفر أمام المسلم الحق سوى أن يعمل العقل فى فهم كل ما يقدم إليه.. وخاصة كتب التراث، التى يعتمد عليها المتأسلمون فى ترويح أباطيلهم. ونعرض على المسلم العاقل ما نقله . متندراً بل ومنهدداً . الأستاذ محمود الشرقاوى من بعض كتب التراث.. يقول الأستاذ محمود الشرقاوى: "أى شقاء فكرى وروحى نجده عندما نرى فى بعض الكتب التى يطالعها الناس ويتناقلون ما فيها من أن نوحا عليه السلام بنى سفينته من عظام حيوان يبلغ طوله مسافة ما بين السماء والأرض ويبلغ عرضه مسيرة عام كامل؟ وأى شقاء للروح والعقل أكثر من أن يقرأ دعاة التقديمية فى الفكر الدينى ما يقرأه الناس فى عالمنا العربى فيجدون فى كتاب من كتب التفسير للقرآن الكريم حديثا منسوبيا لحذيفة مرفوعا للنبي (صلى الله عليه وسلم) يقول فيه "أن يأجوج ومأجوج أمة، وكل أمة أربع مائة أمة، لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح. وهم من ولد آدم يسرون فى خراب الأرض.. وهم ثلاثة أصناف: صنف مثل شجر الأرز، وصنف طوله وعرضه سواء عشرون ومائة وهؤلاء لا تقوم لهم الجبال ولا الحديد، وصنف منهم يفرش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه، مقدمتهم بالشام وساقطهم فى خراسان يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبريا، ومنهم من تثبت لهم مخالب فى أظفارهم، وأضراسهم كأضراس السباع". ويمضى الشرقاوى منددا بكتاب من كتب التراث يقول عن "الشيخ" إن نعليه يطيران ويضريان رأس الفاسق حتى يموت. وإن تابع الشيخ يمشى على الهواء والشمس تسلم عليه. وإنه . أى الشيخ . وهو فى المهد رضيع كان يمنع نفسه عن ثدى أمه فى رمضان من الفجر إلى الغروب لأنه صائم. وأن أهل بغداد رأوه رأى العين يقف على ماء دجلة والأسماك تجيء إليه فوجاً بعد فوج تسلم عليه وتقبل يديه ورجليه، وأن الشيخ تشفع عند الله فى مريد له ليغفر له ذنباً عظيماً فلم يقبل الله للشيخ شفاعته، فكف الشيخ عن تصريف أمور الكونية ومراسم الغوثية وكان بعد ذلك أن قبل الله شفاعته الشيخ وغفر عن

مريده" (٨٠) فهل يمكن لأحد منا أن يقبل بذلك، ثم ما هى "أمور الكونية" و"مراسم الغوثية" التى يقوم الشيخ بتصنيفها؟.

ولا مخرج سوى إعمال العقل وتجديد الفقه والإفتاء بعد المعرفة الدقيقة بموضوع الفتوى، وقراءة كتب الفقه والتراث بروية انتقادية جديدة قادرة على فرز ما هو عاقل ومعقول وما هو غير ذلك.

ويستند دعاة التجديد الدائم فى الفقه إلى حديث رواه أبو هريرة عن رسول الله أنه قال: "إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها أمر دينها". وهو ما يشرحه السيوطى قائلا: "إنه على رأس كل مائة سنة يبعث الله داعية يقوم بتجديد الدين" ويقول إن المائة سنة ليست شرطا فلقد يأتى من يجدد بشكل متلاحق، وقد يأتى أكثر من مجدد فى زمان واحد" (٨١).

ويتحدث الشيخ أمين الخولى عن ذات الموضوع قائلا: "فإذ تحدث أصحاب القديم عن التجديد، وبدأ حديثهم هذا مبكراً منذ حوالى القرن الثالث الهجرى، لم يبق بعد ذلك مقال لقائل ولا اعتراض لمعترض. ولم تعد فكرة التجديد بدعاً من الأمر يختلف الناس حوله... ولا يضيق الوقت والجهد فى تلك المهارات التى تكثر وتسخر حول كل محاولة جادة لدفع الحياة الدينية والاجتماعية إلى ما لا بد لها منه من سير وتقدم وتطور ووفاء بما يجد دائما من حاجات الأفراد والجماعات" (٨٢).

وهو يحدد ما يعنيه بالتجديد قائلا: "فإذا كان المجدد متطوراً مع الحياة فمعنى ذلك أنه يقدر تغييرها فى سيرها إلى غدها، ويعمل على جعل الدين مساهراً لها فى السر، موافقاً لحاجتها فيه، فالتجديد هو تطور، وهو ليس إعادة قديم كان، وإنما هو اهتمام إلى جديد لم يكن بعد" (٨٣).

وهو يؤكد التزامه بالعلم ومستحدثاته "فإذا كان العلم اليوم وغداً يجد فى الميادين الطبيعية تطوراً، فإن الإسلام يدعه يمضى فى ذلك إلى أقصى ما يصل إليه من مقررات مادية وعملية وفلسفية، وراحة الإسلام هى فى ألا يتورط فى التفاصيل ويدع العلم يخب فى طريقه معلنا مقدماً إنه مستعد لتقبل كل ما يجىء به العلم من

ذلك. ولا يحتاج الدين إلى العرض لشيء من مقررات العلم اليوم أو فى الغد البعيد، مع انطلاق العلم ذلك الانطلاق الجبار الذى لا يعترف بمناطق ممنوعة، ولا حدود حاجزة تعوقه عن محاولة المعرفة بكل ما لديه وما سيبتكره من وسائل ومعاونات" (٨٤).

ويقول "إن التجديد الدينى هو تطور، والتطور الدينى هو نهاية التجديد الحق" (٨٥). ثم يحلق الشيخ الخولى ليسأل سؤالاً مثيراً للدهشة "عن إمكانية تطور العبادة، فالأجهزة المتكفية تذيع الصلوات الجامعة من جمعة وعيد، فماذا يكون حكم الاقتداء بها بواسطة هذه الأجهزة، وفيها واسطة حاضرة مشهودة كالتلفزيون، يرى فيه المصلى من حال الإمام وحركاته ويسمع من صوته ووعظه ما لا يستطيع أن يراه بكل صعوبة فى مسجد الحى" (٨٦).

ثم يقول "إن من أجدى ما قدم المجددون للحياة الدينية هو فهم الدين على أنه إصلاح للحياة، لا طقوس وأشكال" ويذكرنا أن عمر بن عبد العزيز رد على من طلبوا منه كسوة الكعبة قائلاً: "إنى رأيت أن أجعل ذلك فى أكباد جائعة، فإنها أولى بذلك من الكعبة. وأن الشافعى أمضى ليلة مضجعا يفكر فى مسألة فقهية عملية مؤثراً ذلك على الصلاة" (٨٧). بل إن د. محمود حمدى زقزوق يفتح أمام المسلمين باب إعمال العقل واسعاً مستدعياً فقهاً جديداً ومتجدداً لبحث أمور "مثل نقل الأعضاء والاستئساخ وأطفال الأنابيب والكثير من أمور المعاملات المالية الحديثة.. وبخاصة بعد ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية وانتشار استخدام الإنترنت على نطاق واسع. ومدى شرعية وحجية استعمال هذه الوسيلة الحديثة فى وقوع الزواج والطلاق والوصية وغير ذلك من معاملات" (٨٨).

ويسير فى نفس الاتجاه د. محمد الدسوقي إذ يقول: "إن التجديد لا يتحقق بالخيال والأمانى وإنما يقوم على الجهد والعلم، ومن يستقرئ تاريخ الاجتهاد فى حياة الأمة يلاحظ أن هناك علاقة عضوية بين ازدهار الاجتهاد الفقهي وتقدم الأمة وقوتها، ذلك أن الاجتهاد هو القوة المحركة فى الإسلام، وما دام الاجتهاد

الذى هو مناط التجديد، مناط القوة للأمة وقوتها فإن التجديد يصبح فريضة^(٨٩).
ومهما أطلنا وتأملنا نكتشف حاجتنا إلى العقل وإعماله فى ديننا ودنيانا، وأن
نرفض النقل، وأن نجدد ديننا مع تجدد حياتنا.
ونستمع إلى الشيخ محمد الغزالي مؤكداً "القرآن خطاب الزمان كله، حتى يرث
الله الأرض وما عليها، خطاب الأجيال والأجناس والعلماء والمستويات الحضارية
المتفاوتة، ولا يمكن منطقياً أن نجمده عند فهم عصر معين"^(٩٠).
ولسنا فى ذلك نبتكر شيئاً جديداً بل نعود إلى الأصل الصافى الذى طمسته
عصور الجهل والتخلف.

فقد روى عن معاذ بن جبل أن النبى (صلى الله عليه وسلم) لما بعثه إلى اليمن
قال له: كيف تقضى إذا عرض عليك قضاء؟ قال أقضى بكتاب الله. قال فإن لم
تجد فى كتاب الله؟ قال: فبسنة رسوله. قال: فإن لم تكن فى سنة رسول الله؟ قال:
أجتهد رأيى ولا آلو (أى لا أقصر) فوافقته الرسول (صلى الله عليه وسلم)
وامتدحه^(٩١).

هكذا كان الأمر.. وهكذا يجب أن يكون.

الهوامش

- (١) الإمام محمد بن أبى بكر الرازى . مختار الصحاح . باب جهد . القاهرة . (٢٠٠٠).
- وأيضاً . إبراهيم مصطفى وآخرون . المعجم الوسيط . باب جَهْدَ . ط٢ . (١٩٧٢).
- (٢) الوسيط.
- (٣) مختار الصحاح . المرجع السابق.
- (٤) الأعراف . ١١٦ .
- (٥) الحشر . ١٣ .
- (٦) القصص . ٣٢ .
- (٧) مختار الصحاح . باب غول.
- (٨) الفيروزآبادى . باب غول.
- (٩) الوسيط . المرجع السابق.
- (١٠) الوسيط . باب فتك.
- (١١) مختار الصحاح . باب فتك.
- (١٢) الزمخشري . الأساس.
- (١٣) الفخر الرازى . التفسير الكبير.
- (١٤) الدينورى . الأخبار الطوال . مصر المحروسة (١٣٣٠ هـ) ص ٢٣٦ .
- (١٥) أبو الفرج الأصفهاني . مقاتل الطالبين . القاهرة (١٩٤٩) ص ٩٩ .
- (١٦) هادى العلوى . الاغتيال السياسى فى الإسلام . بيروت (١٩٨٧) . ص ١٥ .
- (١٧) السهيلي . الروض الأنف . ج ٢ . القاهرة (١٩١٤) . ص ١٢٢ .
- (١٨) راجع: تاريخ الطبرى . سيرة ابن هشام.
- وأيضاً . ابن حبيب: أسماء المعتالين من الأشراف.
- (١٩) ابن الأثير (عز الدين) الكامل فى التاريخ . أحداث عام ٤ هجرية.
- (٢٠) ابن عساكر . تهذيب تاريخ دمشق الكبير . بيروت (١٩٧٩) ج ٦ . ص ٩٠ .
- (٢١) ابن أبى الحديد . شرح نهج البلاغة . ج ١ . ص ٥٤٠ .
- (٢٢) المفضل الضبى . المفضليات.
- (٢٣) أبو حيان التوحيدى . الإمتاع والموائسة . بيروت . ج ٢ . ص ٩٥ .
- (٢٤) ابن أبى الحديد، المرجع السابق . ج ١ . ص ٨٥ .
- (٢٥) أبو يوسف . الخراج . ص ٤٦ .
- (٢٦) ابن الأثير . المرجع السابق . حوادث سنة ١٥ هجرية . باب فرض العطاء وعمل الديوان.
- (٢٧) الطبرى (أبو جعفر بن جرير) . تاريخ الرسل والملوك . حوادث عام ٢٣ . باب شىء من سيرة عمر .

- (٢٨) المرجع السابق . حوادث عام ٣٦ هجرية . فصل مقتل عثمان .
- (٢٩) المرجع السابق . حوادث عام ٢٣ هجرية . فصل مقتل عمر .
- (٣٠) المرجع السابق . حوادث عام ٣٦ هجرية . فصل مقتل عثمان .
- (٣١) هادى العلوى . المرجع السابق . ص ٥١ .
- (٣٢) ابن أبى أصيبعة . عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . بيروت (١٩٦٥) . ص ١٧٤ .
- (٣٣) أبو الفرج الأصفهاني . الأغاني . بيروت . ج ١٦ . ١٤٠ .
- (٣٤) ابن عساكر . تهذيب تاريخ دمشق الكبير . ج ٥ . ص ٩٥ .
- (٣٥) الكتبي . الوفيات . بولاق مصر المحروسة . (١٢٨٣ هجرية ج ٢) . ص ١٠٥ .
- أيضا: الغزالي . إحياء علوم الدين . كتاب الموت . مصر المحروسة (١٢٩٦ هجرية) ج ٤ . ص ٤٦٥ .
- (٣٦) ابن حجر . الخيرات الحسان . القاهرة (١٣٠٤ هـ) ص ٦٧ .
- وأيضا ابن عبد البر القرطبي . الانتقاء . القاهرة (١٣٥٠ هـ) . ص ١٧٠ .
- (٣٧) ابن حجر . تهذيب التهذيب . وأيضا: ابن الأثير . أسد الغابة . ابن عبد البر . الاستيعاب . ج ١ . ترجمة الحسن بن على . ص ٣٨٩ . والمدائني وابن أبى الحديد وغيرهم .
- (٣٨) ابن عساكر . المرجع السابق . ج ٤ . ترجمة الحجاج الثقفى . ص ٨٠ .
- (٣٩) محمود الصباغ . حقيقة النظام الخاص ، القاهرة (١٩٩٨) . ص ١٣٨ و ص ٤٢٩ .
- (٤٠) هادى العلوى . المرجع السابق . ص ٩ .
- (٤١) الوسيط . المرجع السابق ، باب شرع .
- (٤٢) الشورى . ١٣ .
- (٤٣) د. يوسف حامد العالم . المقاصد العامة للشريعة الإسلامية . القاهرة (١٩٩٧) ص ٢٠ .
- (٤٤) الشيخ محمد أبو زهرة . أصول الشريعة . القاهرة . دار الفكر العربى ص ٣٤٢ .
- (٤٥) د. عبد الكريم زيدان . المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية . بغداد (١٩٨١) ص ٣٩ .
- (٤٦) د. محمود حمدى زقزوق . مقاصد الشريعة الإسلامية وضرورات التجديد القاهرة (٢٠٠٣) . ص ٢١ .
- (٤٧) البقرة . ١٨٥ .
- (٤٨) الوسيط . باب فقه .
- (٤٩) مختار الصحاح . باب فقه .
- (٥٠) د. محمود حمدى زقزوق . المرجع السابق . ص ٢٣ .
- (٥١) الإمام محمد عبده . الأعمال الكاملة . تحقيق د. محمد عمارة . بيروت (١٩٨٠) . ج ٣ . ص ١٩٥ .
- (٥٢) التوبة . ١٢٢ .
- (٥٣) د. عبد الكريم زيدان . المرجع السابق . ص ٦٢ .
- (٥٤) د. محمود حمدى زقزوق . المرجع السابق . ص ٣٥ .
- (٥٥) دائرة المعارف الإسلامية ، الشارقة (١٩٩٨) ج ٣٠ . ص ٩٣٦٤ .
- وأيضا: د. حسين حامد حسان . نظرية المصلحة فى الفقه الإسلامى . القاهرة (١٩٨١) ص ٩ .
- (٥٦) الإمام الغزالي . المستصفى من علم الأصول . ج ١ . ص ٢٨٦ .

- (٥٧) الإمام ابن القيم . أعلام الموقعين . ج ٣ . ص ٧٨ .
- (٥٨) الإمام القرافى . الإحكام فى تمييز الفتاوى عن الأحكام . ص ٣٢٣ .
- (٥٩) الشيخ رشيد رضا . تاريخ الأستاذ الإمام . ص ٧٦٢ .
- (٦٠) د. محمود حمدي زقزوق . المرجع السابق . ص ١٤ .
- (٦١) محمد سالم مذكور . الفقه الإسلامى . القاهرة (د.ت) . ص ١١٥ .
- (٦٢) ابن خلدون . المقنمة . القاهرة (د.ت) . ص ٤١٠ .
- (٦٣) الشوكانى . القول المفيد فى الاجتهاد والتقليد . القاهرة (د.ت) . ص ١١٥ .
- وأيضا: ابن منظور . لسان العرب . القاهرة (د.ت) . ج ٥ . ٣٣٤٨ .
- (٦٤) الوسيط . باب فتى .
- (٦٥) النساء . ١٧٦ .
- (٦٦) النساء . ١٢٧ .
- (٦٧) د. كمال حامد مغيث . الحركة الإسلامية فى مصر فى العصر الحديث، القاهرة (١٩٩٧) . ص ١٤٩ .
- (٦٨) المرجع السابق . ص ١٥١ .
- (٦٩) ابن أبى الحديد . شرح نهج البلاغة . المرجع السابق . ص ٧٤ .
- (٧٠) المرجع السابق . ص ٢٥٦ .
- (٧١) رواه أبو داود وابن حنبل عن سلمان الفاريسى .
- (٧٢) رواه مسلم والترمذى وابن ماجه عن أبو موسى الأشعرى .
- (٧٣) البقرة . ١٠٩ .
- (٧٤) التوبة . ٥ .
- (٧٥) ابن تيمية . الفتاوى الكبرى . ج ٤ . القاهرة (١٩٦٥) ص ٣٤٥ .
- (٧٦) المقرئى . الخطط . ج ٣ . ص ٦٣ .
- (٧٧) د. محمد حسين هيكل . حياة محمد . القاهرة (١٩٩٨) ص ٢٩ .
- (٧٨) المرجع السابق . ص ٥٣ .
- (٧٩) المرجع السابق . ص ٥٤ .
- (٨٠) الهلال . نوفمبر ١٩٦٧ . مقال محمود الشرقاوى بعنوان محنة الفكر التقدمى .
- (٨١) جلال الدين السيوطى . التنبيه بمن يبعثه الله على رأس كل مائة .
- (٨٢) الشيخ أمين الخولى . المجددون فى الإسلام . القاهرة (٢٠٠١) ص ١٠ .
- (٨٣) ص ٣٦ .
- (٨٤) ص ٣٨ .
- (٨٥) ص ٦٦ .
- (٨٦) ص ٦٢ .
- (٨٧) ص ١٦٠ .
- (٨٨) د. محمود حمدي زقزوق . المرجع السابق . ص ٢٩ .

- (٨٩) د. محمد الدسوقي . التجديد فى الفقه الإسلامى . القاهرة (٢٠٠٢) ص ٥٠ .
- (٩٠) الشيخ محمد الغزالى . كيف نتعامل مع القرآن . القاهرة (١٩٩٢) . ص ١٦٤ .
- (٩١) أبو عمر يوسف بن عبد البر ، جامع بيان العلم وفضله . المدينة المنورة (١٩٦٨) ج ٢ . ص ٦٩ .

الإرهاب.. كيف يأتى

"رجلان من أمتى يحرمان من شفاعتى، ملك ظالم، ومبتدع غال فى الدين
متعد فى الحدود"

(حديث شريف)

حدث . ولست أدري لماذا لم يتكرر هذا الحدث . أن عقدت ندوة على مستوى أكاديمي راق ومتعدد التوجهات والرؤى لمناقشة ما أسمى حينذاك "الحركات الدينية المتطرفة".

وبرغم النجاح . على المستوى العلمى والمعرفى .، الذى حققته هذه الندوة، فقد نسيت أوراقها، ولم تطبع إلا فى نسخ محدودة، والأخطر من ذلك أن هذه الفكرة لم تتكرر . مرة واحدة، ولم تتكرر .

تصاعد الموج الإرهابى ووصل ذروته، تراجع ووصل إلى حدود الإنكار أو الاستنكار، لكل ما كان . ولم يبذل جهد علمى جماعى لبحث هذه الظاهرة، كسبيل معرفى للتعامل معها . ليس على نهج الإدانة والاكتفاء بالهجوم، وإنما على نهج محاولة التعرف على البواعث والمنابع التى ينبع منها الفعل الإرهابى المتأسلم^(١) . ولأن عنوان الندوة كان "الحركات الدينية المتطرفة" فقد توقف العديد من المشاركين فيها أمام كلمة "تطرف" ومدلولها اللغوى والمعرفى والمجتمعى . ونتابع معهم .

- د . سيد عويس: "مفهوم التطرف لغويًا يعنى تجاوز حد الاعتدال، وهو فى ضوء العلم ليس مطلقًا . وفى المجتمع قد تتطرف الأغلبية (جماعات الأغلبية البيضاء فى أمريكا) وقد نجده فى بعض المجتمعات فى جماعات الأقلية (تطرف البيض فى جنوب إفريقيا) والتطرف فى المجتمعات أو فى الطبيعة هو نوع من التباين والتفاوت"^(٢) .

- العميد سيد السبكي: "التطرف هو اللجوء إلى العنف واستخدامه بصورة تكرر الأمن وتخل به . ولا نعتقد أن المقصود بالتطرف هو التشدد فى تطبيق شرع الله أملاً فى الجنة، فهذا ليس تطرفاً بل هو من الأمور الشخصية التى تتعلق بعبادة الفرد لربه"^(٣) .

- المستشار عدلى حسين: "والتطرف فى الرأى أو العقيدة ليس خطراً فى حد ذاته، بل إن التطرف فى بعض الأحيان يكون سبيلاً إلى التغيير والتطور إلى الأحسن والأرقى، وإنما الخطر يكمن فى اللجوء إلى العنف لتحقيق هذه الأفكار المتطرفة.. ومَن اتخذ العنف سبيلاً لتحقيق مآربه فلن يعوزه إيجاد المبررات لذلك، حتى لو لجأ إلى تلوين المبادئ الدينية"^(٤).

ويقول "والتطرف عموماً لا ينشأ فى مجتمع ولا ينتشر إلا فى ظروف غير عادية وغير طبيعية تؤدى إلى حالة من الاضطراب النفسى البالغ الذى يؤدى فى كثير من الأحيان إلى السلوك العدوانى فى أقصى صورته، ويلجأ الفرد إلى إسباغ المشروعية على هذا السلوك العدوانى بالركون إلى أسباب دينية حتى يبرر لنفسه ولغيره خروجه وتمرده على المجتمع الذى يعيش فيه"^(٥).

وهذا التفسير يقتادنا للبحث الأكثر عمقاً فى بواعث التطرف، إذ يقتادنا نحو عوامل اجتماعية ومجتمعية تفتح الباب أمام نوازع التطرف المتأسلم، وهو ما سنتحدث عنه فى صفحات لاحقة.

- ود. إبراهيم صقر.. يحذرنا مؤكداً: "إن ظاهرة التطرف والعنف . دينياً كان وغير دينى . ليست ظاهرة جديدة أو حديثة على المجتمعات البشرية فقد وجدت فى كل زمان ومكان"^(٦).

- د. يحيى الرخاوى: ينقلنا إلى محاولة المقارنة بين كلمة "تطرف" وكلمة "تعصب" ويقول: "التعصب هو جمود فى موضوع مات فيه الزمن وانعدمت فيه الحركة. أما التطرف فهو: نقطة قصوى فى حركة بندول نشط فهى تحتمل العودة إلى التحرك مع استمرار الحركة والفرق خطير وجوهري"^(٧).

- د. فرج أحمد فرج يقتادنا نحو بعد نفسى فيقول: "يحاول البعض أن يفسر هذا العنف نفسياً بما يسمى البنيان السادومازوخى". والسادية عشق إيذاء الغير. أما المازوخية فهى عشق إيذاء الذات" فيكون المريض عاشقاً لإيذاء الغير وإيذاء ذاته فى نفس الوقت، فيتستر المريض بستر الدين محاولاً إيهام الغير وإيهام نفسه بأنه

إنما يخوض معركة يضحي فيها من أجل نصره الدين أو العقيدة أو الحق. ويتخذ من تجريح الآخرين "الأفراد والسلطة" وإيذائهم واستخدام العنف ضدهم وتحمل عنهم ضده كسبيل للإشباع المرضى الذى هو بحاجة إليه"^(٨).. ويقول: "ذهب فرويد مؤسس حركة التحليل النفسى إلى القول بأن العدوان غريزة تقف فى مواجهة نقيضها أى الحياة.. وتتمكن فى النهاية من التغلب عليها. لقد انتهى فرويد إلى اعتبار غرائز الحياة والجنس والبكاء أكثر ضعفاً من غرائز العدوان والموت والهدم والتدمير" ثم إن "المشتغل بالتحليل النفسى ويعلم النفس قد ينجذب إلى دراسة العدوانية كظاهرة، كقوة دافعة أساسية تتستر وراء كثير من العقائد والأيديولوجيات الدينية والسياسية وتجعل منها مطية وستاراً لدوافع عدوانية جامحة. بمعنى أن جماعة سياسية تريد السيطرة على الحكم أو السلطة أو فرض هيمنتها على الجمهور بأساليب عدوانية وغير ديمقراطية فتتخذ وعن عمد الدين ستاراً لهذه العدوانية. ومن ثم فإن الفعل السياسى المتستر بالدين قد يلجأ إلى العنف تحت قناع الدين بينما هو بذاته (أى الدين) لا ينطوى على إلزام أو توجيه يمثل هذا السلوك"^(٩).

وهو يحذرنا "أن المخاطرة الحقيقية هى أن ننساق وراء تسمية هذه الحركات الدينية بالحرركات المتطرفة دون أن يكون ثمة دليل موضوعى على تطرفها. وربما كان حكم أصحابها على من يدمغونهم بالتطرف هو أن هؤلاء الآخرين متطرفون بدورهم تطرفاً سلبياً، أى فى اتجاه التباعد الدينى" ثم يصل بنا إلى المرحلة المخيفة "وتبرز المشكلة أكثر عندما يتحول الفكر إلى ممارسة فعلية، كما يقال فى التحليل النفسى أى التفعيل. أى التحول بالفكرة إلى فعل إيجابى يتحول إلى فرض الفكرة والإلزام المعنوى ثم المادى ثم تصل قمة هذا التحول إلى العنف الفكرى (التكفير مثلاً) فالبدنى (الإرهاب)"^(١٠).

ثم يقول: "والمثير للاهتمام هو أن هؤلاء المتطرفين إذ يتمردون بعنف على كل أشكال السلطة: (الأسرة . المدرسة . الوظيفة . الدولة . الدستور . القانون)، ويفرضون

الانصياع لها بل ويقاومونها بعنف فإنهم يقيمون لأنفسهم سلطة بديلة يدينون لها بالطاعة العمياء وهى سلطة الأمير"^(١١).

"وتنجم العدوانية تجاه النظام القائم، والعنف ضده من فهم أولى لا يعترف بإمكانية تجاوز النقائص وتعايشها معًا. فدمار النظام القائم هو عندهم شرط لميلاد نظامهم. فالعدوان الذى نراه قوة للدمار هو بالنسبة لهم قوة للبناء. ومن هنا فإن باعث العدوان هنا نابع عن عجز فى فهم طبيعة الأشياء، ومنطق الحياة ذاتها الذى يقوم على تجاوز النقائص ليتولد من تفاعلها معًا.. الجديد"^(١٢).

- د. محمد أحمد خلف الله: يرى أن المشكلة "تكمن فى فكرة ضرورة قيام الدولة الدينية" .. والعائق أمام قيام هذه الدولة هو "الطاغوط أى المدنية الحديثة التى تصرف الناس عن عبادة الله، وتطلب إليهم ممارسة الحياة على أسس غير تلك التى أنزلها الله، كما أنهم يرون أن الناس قد عادوا إلى جاهلية أشد إضرارًا بالحياة الدنيا وبالحياة الآخرة من الجاهلية الأولى. ومن هنا وجب الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله، وجعل كلمة الذين كفروا هى السفلى، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين"، ثم هو يصل إلى نتيجة مهمة وهى أن جميع الحركات والجماعات التى تسعى لقيام الدولة الدينية تتفق على "وجوب إقامة الدولة الإسلامية ووجوب النضال باللسان والسنان (أى العنف) فى سبيل تحقيق ذلك" ويقول: "كان الإخوان المسلمون يرون فى الاغتيال وسيلة من وسائل الجهاد، ويبررون موقفهم هذا بواقعة "تزعمها كتب التراث" تقول باغتيال كعب بن الأشرف الذى كان يؤذى الرسول صلى الله عليه وسلم، وقياسًا على ذلك اغتالوا المستشار الخازندار والنقراشى باشا"^(١٣).

وينسى هؤلاء الحكمة التى ردها حجة الإسلام الإمام الغزالى "أنه مهما أمكنك أن تعمل الأمور بالرفق واللطف فلا تعملها بالشدة والعنف. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل وال لا يرفق برعيته لا يرفق الله به يوم القيامة"^(١٤).

- د. سهير لطفى تقول: "إن انتشار الإسلام يرجع إلى تغلغله فى الأوجه الدنيوية والاجتماعية والسياسية للمجتمعات التى ارتبطت به. ورغم أن مفكرى

الإسلام الأول قد اختلفوا فى مذاهبهم وآرائهم الفقهية، وفى المسائل الفكرية إلا أنهم كانوا كالذين يتبارون فى ملعب واحد ويلتزمون بقواعد متفق عليها، ومن هنا أمكن أن تكون لهم ثقافة موحدة الروح وإن تباينت مظاهرها^(١٥).

وقد "اتسم فكر المصلحين بصفة عامة بأنه فكر إصلاحى سلفى فى الإطار التاريخى للنظام الاجتماعى القائم فى ذلك الوقت. إذ اقتصر فكر رفاة الطهطاوى على إمكان تفسير الشريعة بطريقة تتفق مع احتياجات العصر. أما محمد عبده والأفغانى فكانا فى بداية حياتهما متحررين وانتهيا محافظين توفيقيين فقد تركزت أفكار الأفغانى التى كانت خليطاً من الدينية والوطنية والرايكية الأوروبية فى دعم الحركة الدستورية والجامعة الإسلامية. كما تركز فكر محمد عبده حول إمكان التوفيق بين الإسلام والفكر الحديث. وبهذا يمكن القول إن الفكر الإصلاحى كان عبارة عن نداء سياسى يستند إلى تفسير مثالى للعقيدة الإسلامية. ولأن الفكرة الإسلامية كانت تسعى إلى استعادة السلطة الإسلامية فإنها لم تلجأ إلى العنف بل تمسكت بأهداف الأخوة التى تجمع كل المسلمين فى ضوء الواقع الاجتماعى واحتياجاته"^(١٦).

وبصفة عامة يمكن القول إن الفكر السياسى الاجتماعى لدى العرب قد تركز فى جميع مراحل على محاولة التوفيق بين نظرية الإسلام فى الحكم، وبين المتغيرات التى طرأت على واقع الحكم فى مختلف المراحل التاريخية. حتى تواجه المسلمون فجأة فى أوائل القرن الـ ١٩ مع عالم أوروبا الحديث، ف شعر المفكرون المسلمون بضرورة القيام بمحاولة جديدة للتوفيق بين آخر ما وصلت إليه النظرية الإسلامية فى الحكم وبين هذا العالم الجديد الغريب والمثير للدهشة، والباعث فى أحيان على الإعجاب والانبهار، وفى أحيان أخرى على الحنق والرفض. وفيما كان موج التغريب يندفع نحو الأراضى التى أحكمت الإمبراطورية العثمانية عليها قبضتها والتى أصبحت حائرة وواهية "نشأت حركة فكرية واسعة النطاق انبثقت منها اتجاهان فكريان؛ الأول: يميل إلى الأخذ بأفكار الغرب، والثانى يرى فى الدعوة الدينية وسيلة لمواجهة هذه الأفكار"^(١٧).

وكان من السهل أن يدور حوار هادئ بين الاتجاهين سعياً وراء توافق بينهما، لكن ذلك لم يحدث. ولعل السبب في ذلك هو عدم وجود إمكانات وآداب الحوار مع الآخر وحتى احترام حرية الآخر، وافتقاد الديمقراطية عبر مجمل المجتمع، فالنسيج العام للمجتمع يقوم على أساس سلطوى "تجسد في تسلط النظم الحاكمة والإعلاء من شأن القمة على حساب القاعدة. فأهم شخصية في الدولة هي الرئيس، وأهم فرد في الجيش هو القائد وفي الأسرة هو الرجل. وفي مثل هذا النظام التسلطى يصعب تصور إقامة حوار بين طرفين متساويين، واكتفى العقل العربى بالالتزام بحرفية النص الأمر مما أدى إلى غلق باب الاجتهاد والاقتصار على تلقى الأوامر والأفكار والتفسيرات والمبررات من أعلى.. فأغلق باب الاجتهاد، وتوقف العقل.. وانعكس ذلك "فى السلوك اليومى من حيث إعطاء الأولوية للمظهر على الجوهر وإلى رفض المعارضين وتكفيرهم"^(١٨).

ويضاف إلى كل ما سبق أن مصر بلد زراعى "تسود فيه الثقافة الزراعية بشكل عام فتشكل الطقس الذى يربى فيه الفرد، وهى بنية محافظة قدرية تقليدية. ومجتمع أبوى فيه الكثير من الوصاية والكثير من التلقين، والكثير من الأمر والنهى، فرب العائلة يعرف بالضرورة أكثر، وأكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة، وما يقوله صحيح، وما يقال غيره ليس كذلك، وطاعته من طاعة الله"^(١٩)، ومثل هذه "البنية المحافظة القدرية الجامدة التى تسود فيها الأمية تستشرى فيها الخرافة وتكون الكتب الصفراء هى أساس المعرفة ويقدس فيها القديم أى قديم، وتكون هذه البيئة مجالاً طيباً لوصاية أصحاب العلم الأكثر "وهم المشايخ" وهم فى الأغلب ذوو ثقافة سلفية، وهنا يتقبل الفرد التفسير الأبسط والأسهل والحل الجاهز"^(٢٠) (الذى يقول به صاحب الأمر، الحاكم، رب الأسرة، الشيخ الأكثر علماً سيان). "كذلك فإن الفرد الذى ينشأ فى البيئة الريفية يتنفس طقساً يسود فيه عدم التكافؤ وتبرز فيه الفوارق المادية فى جميع المجالات، ويسود الاستئثار بأكثر من الحق، والحرمان من مجرد الحق"^(٢١).

ويؤكد طارق البشرى هذه الفكرة "فعندما تحس الفئات الصغيرة والمتوسطة بأن المستقبل ليس فى مصلحتها تتجه إلى الماضى تلتمس منه العون، وبقدر ما ينغلق أفق المستقبل أمامهم بقدر ما ينمو الخيال ليستمد من الماضى مدينته الفاضلة، كما كان اشتغال العمال (منذ مطلع القرن العشرين) فى مؤسسات رأسمالية يسيطر عليها الأجانب واليهود مما يغلف العلاقة الطبقيّة بمسوح دينية، ويصبح الاختلاف الدينى فى تفكير الجماعة بمثابة سيطرة لغير الإسلام على الإسلام" (٢٢).

وفى السنوات الأولى من القرن العشرين، كانت مصر تتلاعب، وتوشك أن تتنفس بعد مأساة هزيمة العربيين، وباختصار.. كانت مصر تجد نفسها، تحقق ذاتها، أو على الأقل تجد القدرة لى تقرر ذلك.

وهكذا شهد مطلع القرن العشرين تحركًا حضاريًا عارمًا، حاول أصحابه . كل فى مجاله . أن يوقظ قطعة من الأمل فى وجدان هذا الشعب.

فالأحزاب السياسية بمختلف اتجاهاتها تتوالد سريعًا، وبكثرة: حزب الأمة، حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية، الحزب الوطنى، الحزب الوطنى الحر، حزب المقاصد المشتركة للعمال، والحزب الاشتراكى المبارك... إلخ.

والصحافة تكاثرت وتنوعت، والمسرح شهد هو الآخر ازدهارًا، والتعليم ارتبط فى وجدان مصر بطموحها نحو الاستقلال، فنهضت القوى الوطنية بحركة تأسيس "الجامعة الأهلية" وبحركة التعليم الليلى والحرفى.

والتنوير كمعركة، وكطموح كان هو أيضًا سبيلًا أساسيًا من سبل إيقاظ مصر، وبدأت عبارات مثل: حرية الفكر، حرية التعبير والاعتقاد، تتردد على اللسان المصرى، ربما فى تردد لكنها كانت ترد على أى حال.. ولعل شبلى شميل . وهو واحد من رواد معركة التنوير . قد لخص طبيعة هذه المعركة فى عبارة واحدة، موجزة قاطعة.. "الحقيقة أن تُقال، لا أن تُعلم".

فالكثيرون يعرفون كيف يتلمسون طريقهم نحو الحقيقة لكنهم لا يعرفون كيف

يفتحون فهم بها، خشية المجابهة مع القوى الرجعية، وهى كثيرة وذات نفوذ. وكانت مصر بحاجة إلى "هزة" عنيفة كي تستيقظ، وتخلع عن عينيها غشاوة الهزيمة والاستسلام اليائس، ثم تنهض وتمضى من جديد. وتقدم الكثيرون من المفكرين يحاولون الإسهام فى إحداث "الهزة" فى الوجدان المصرى. يقول شبلى شميل تعقيباً على الضوضاء الفكرية التى تلت صدور كتابه "فلسفة النشوء والارتقاء": "فهذه الرجة التى حصلت اليوم هى المقصودة منى فى ذلك الحين، لإيقاظ الأفكار من نومها العميق، والحركة مهما كانت خير من السكون" (٢٣).

ولم يكن ذلك الرعيل من رواد حركة التنوير بواهم أو بمبالغ فى قدراته أو فى قدرات مصر ذلك الحين، لكن هذه "الرجة" فى الأفكار كانت ضرورية، هكذا يؤكد شبلى شميل "فما كنت أطمع بأن أرد الناس إلى فى هذا الزمن القصير، وأنا لا أجهل ما يحول دون ذلك من الصعوبات، بل إنى قصدت مباغته الأفكار للفتها إلى غير مألوفها. وإن كنت لا أجهل أن إلقاء حجر فى المستنقعات الراكدة لا يقلق الضفادع المطمئنة. إلا أنى لا أجهل أيضاً فعل العجين المخمر، فإن أقل ما يعلق بالعقل حينئذ من أثر الأفكار المخالفة ينمو فيها غالباً بسرعة الاختمار نفسه، خصوصاً إذا صادف استعداداً فى النفوس كامناً فيها لكثرة البواعث الضاغطة عليه" (٢٤).

وهكذا كان..

وإذا كان الحوار الفكرى بين المتعلمين أو مدعى العلم لا يزال منحصرًا تمامًا فى مجادلات سفسطائية تجاوزها الزمن من نوع "هل الأرض كروية؟.. وهل تدور؟" يكتب يعقوب صروف فى المقتطف قائلًا: "إن موضع دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس صار أشهر من نار على علم وأوضح من الصبح لذى عينين، وتحققت صحته لكل ذى عقل سليم يطالع ويفهم" (٢٥). لكن الدنيا تقوم لهذه الكلمات ولا تقعد،

فقد تصدى له رجال الدين معلنين تكفيره ومروقه، وخاضوا ضده معارك قلمية وخطابية، وجذبت هذه المعركة الكثير من الأطراف، حاول بعضها دحض العلوم الحديثة أصلاً باعتبارها "كفر وبهتان" وتبلور فى المقابل تيار من المتعلمين، أمثال عبد الله باشا فكرى، ومصطفى باشا رياض، وعبد الله أبو السعود، يحاول أن يدفع هذه الهجمة عن العلوم الحديثة، ووجدوا أن السبيل الوحيد، لذلك . كما يقول الأستاذ محمد عبد الغنى حسن . هو "إحكام المناورة لتأييد قضية الموافقة بين العلم والدين حتى لا يتعطل . بحركة المحافظين . سير العلم الطبيعى وتقدمه فى البلاد العربية التى كانت ولا تزال فى أشد الحاجة إليه" (٢٦).

وبينما "المحافظون" يشددون النكير على العلم الحديث وعلى حركة التنوير، "والمعتدلون" يلجأون إلى المناورة، إذا بفارس يقتحم الميدان شاهراً سيفه، ليقطب المائدة على الجميع.. طارحاً للنقاش موضوعاً جديداً تماماً لعل مجرد ذكره كان كافياً لأن يثير القشعريرة فى أبدان المتزمتين والمعتدلين على السواء: "نظرية النشوء والارتقاء".

وربما كان شبلى محقاً عندما أكد أن الأمر يحتاج إلى "رجة" فى الأذهان والعقول، لكن الشجاعة الحقيقية تكمن فى أن يتصدى هو لتحقيق هذه "الرجة" مقدماً نفسه للقارئ قائلاً: "إليك أكتب أيها القارئ العاقل، العاقل المتأمل، وما أطلب منك علماً واسعاً وفلسفة بديعة وحكمة عميقة، بل أطلب منك عقلاً حلت قيوده، وتفتحت منافذه وأقام التكفير مقام الاعتقاد، والبحث مقام المقرر، يقدر مستنتجات العلم قدرها، ولا يبخس مستنبطات العقل حقها" (٢٧).

وعندما يصدر شميل كتابه "نظرية النشوء والارتقاء" يشهق الجميع فرعاً من كتاب طبع منه خمسمائة نسخة فقط. وتتركز هجمات الجميع، المحافظون والمعتدلون معاً، ضد المؤلف الذى استمر مصمماً على مواصلة إقلاق ساكنى مياه المستنقعات الراكدة، لكن شميل يرد عليهم فى هدوء "لست أخشى تخطئة الناس لى إذا كنت أعرفنى مصيباً، ولا يسرنى تصويبهم لى إذا كنت أعرفنى مخطئاً" بل هو

يواصل تحديه مؤكداً أن الأمر ليس مجرد طرح نظرية عن التطور ولكن "القول بمذهب النشوء يستلزم بالضرورة القول بمادية الكون" (٢٨).

ومرة ثانية يشهق المحافظون والمعتدلون فرعاً..

وتحدث "الرجة" المطلوبة، ويواكبها مفكرون كثيرون، فرح أنطون في مجلة "الجامعة"، سلامة موسى بجهوده المتعددة الجوانب، مصطفى حسنين المنصوري بكتابات المستنيرة عن الاشتراكية... وغيرهم.

والهدف واضح.. أن يشرق على مصر مطلع القرن العشرين عصر تنوير جديد.. أن يقال "الحقيقة"، أن يقف المفكر والعالم والمتقف والكاتب من الحضارة والمجتمع والفلسفات والتقاليد موقفاً انتقادياً دون أن يتحسس رقبته مع كل كلمة يقولها.

ويتصدى البعض من رجال الدين لحركة التنوير هذه. وتشهد مصر حركة إرهاب فكرى مخيفة، تناثرت فيها الاتهامات بالكفر والإلحاد، وأصبح التكفير هو السلاح الأساسى لإرهاب كل من يفتح فمه بكلمة جديدة، أو يحاول ذلك، ثم تتصاعد الحملة الشرسة لتصل إلى أسوأ مراحلها عندما تنتهز فرصة أن بعض دعاة حركة التنوير كانوا أقباطاً "سلامة موسى" أو مسيحيين شواماً "شبلى شميل". فرح أنطون. نقولا الحداد" لتلجأ. وبإيعاز من الحاكم الماكر كرومر. إلى شعارات الفتنة الطائفية بين المسلمين والأقباط من ناحية، وبين المصريين والشوام من ناحية أخرى.

وتوشك إرهابية التنوير أن تختنق، وأن تقع فريسة للمخطط الاحتلالى الرجعى، عندما تتصاعد حملات الهجوم الدينى المتبادل إثر اغتيال الوردانى لبطرس غالى باشا، ويحاول المتعصبون تحويل الأمر من مجرد قيام وطنى يسلك مسلك الإرهاب باغتيال رئيس للوزراء يسلم مسلك الخيانة، إلى قيام مسلم بقتل قبطى.

وتعلن مصر غضبها من محاولات تمزيق أبنائها، وزرع أشواك الفتنة الطائفية فى طريق نهضتها، ويصوغ أحمد شوقى هذه المشاعر المصرية، شعراً:

بنى القبط إخوان الدهور ويديكم هبوه يسوعاً فى البرية ثانيا
حملتم لحكم الله صلب ابن مريم وهذا قضاء الله قد غال "غاليا"
تعالوا عسى نطوى الجفاء وعهده وننبذ أسباب الشقاق نواحيا
ألم تك مصر مهدنا ثم لحدنا وبينهما كانت لكل مغانيا
ألم نك من قبل المسيح بن مريم وموسى وطه نعبد النيل جاريا

وأمام قبر بطرس غالى ينشد أحمد شوقى زفرات مصرية المذاق:

أعهدتنا والقبط إلا أمة للحق واحدة تروم مراما
نعلى تعاليم المسيح لأجلهم ويوقرون لأجلنا الإسلاما
الدين للديان جل جلاله لو شاء ربك وحد الأقواما

وبرغم ذلك ينفخ بعض رجال الدين من المسلمين والأقباط معاً فى نيران الفتنة، فهم المستفيدون أولاً وأخيراً، والضحية أولاً وأخيراً هى معركة "التنوير" التى كانوا يخشونها خشية الموت. وفى مجابهة الخطر يتقدم دعاة التنوير خطوة فى الهجوم، وكتب شميل: "فنرى مما تقدم أن الدين نفسه ليس العقبة الحقيقية فى سبيل العمران، بل رجال الدين أنفسهم"، ويمضى شميل فى هجومه عنيفاً: "ولكن الأديان تتحول من النفع العام حتى تصير وسائل للكسب فى يد أولئك الذين اتخذوها تجارة من كل دين وملة، الذين علموا الناس حتى اليوم غير ما تأمرهم به الأديان وكم قاموا يبيعون دينهم بدائق وفرطوا بمال الأيتام، وكم خدموا به أغراض عتاة حكامهم ليقسّموا معهم، ولو داسوا الدين بالأقدام"، والإدانة من جانب شميل موجهة لدعاة الفتنة الطائفية من الجانبين "يا مقلنسى الجهل ومعمى الضلال أين رأيتم فى أديانكم ما يسمح لكم بأن تررعوا رؤوس أتباعكم الجاهلين ببذور التفريق بين الناس إلى حد التباعد" (٢٩)، بل هو يمضى فى هجومه إلى ما هو أشد "قلو قامت الإنسانية فى كل الدنيا ونسرت لحم رؤساء الأديان الذين هم وحدهم المسئولون عن

كل الفضائع التي ارتكبت ولا تزال ترتكب باسم الدين، نسرة نسرة لما وفّت حق الانتقام لما جنّوه اليوم على الإنسان^(٢٠).

ولم تكن المعركة معركة شميل وحده، بل معركة تيار متكامل يدعو للتووير وللعلل.

فهناك كتابات ولى الدين يكن التي سارت على نفس النهج، والتي حظيت بنفس القدر من الهجوم العنيف من رجال الدين.. يقول ولى الدين يكن: "إن العامة تحب الشيء، إذا حبه إليها زعماءها، وتبغضه إذا بغضه إليها زعماءها، وزعماء العامة عندنا رجال الدين، وهؤلاء لا يرغبهم في الشورى شيء مما هم منقطعون إليه.. فهم يحبون أن يظلوا متحكمين في الرقاب، وأن يبقوا عيالاً على الأمة، وأن يلثم الناس أيديهم ويملاؤا أكياسهم"^(٢١).

وعندما يتعرض الشيخ جميل الزهاوى لاضطهاد حاكم العراق ورجال الدين في بلاده لأنه دعا إلى تحرير المرأة ونزع حجابها، يكتب ولى الدين يكن: "وبعد فيا أيها المسلمون، أنا مسلم مثلكم، يحزننى خسرانكم، ويشركنى معكم مصرعكم، أن هؤلاء الرجال الذين أنقلت هاماتهم العمائم أكثرهم لا يعقلون، كان السلطان عبد الحميد يقتل الناس وينفيهم وينهب الخزائن، وكل هذا حرام فى دينكم فما قام فى وجهه واحد منهم ناصحاً أو رادعاً، ولكنهم اليوم وقد وسعتهم بلاد الحرية يكرهون أن يروا حراً يتكلم، فهم يهاجمون كل من لا يكون من فريقهم، يملأون الدنيا صخباً وضجة، يكفرون الساعل والماخط والآكل والشارب، حتى لقد زهدونا بالحياة وهم أشد الناس بها تعلقاً فلا تجعلوا لهم سلطاناً عليكم فيكسبوا من خسرانكم ويسعدوا بشقائكم وأنتم لا تعلمون"^(٢٢).

وينطلق الشعر محاولاً أن يفسح مجالاً للتعبير عن توجهات جديدة تتجه نحو الحداثة، وتستقبل الجديد الآتى من الغرب بترحاب. ويشدو حافظ إبراهيم:

آن يا شعر أن تفك قيودًا قيدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا ودعونا نشم ريح الشمال

ويخوض حافظ هو أيضًا معركة ضارية ضد رجال الأزهر المتمزتين ورافعى لواء الرجعية منهم، وعندما يصدر الشيخ "أبو خطوة" حكمًا بتطليق السيدة صفية ابنة الشيخ السيد أحمد عبد الخالق السادات شيخ السادة الوفائية، من زوجها الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد لأن الزوجة من الأشراف والزوج غير كفء لها لأنه يمتن مهنة خسيصة هي مهنة الجرنالجي.. يعلو صوت حافظ محتجا وموجها حديثه إلى مصر:

حطمت اليراع فلا تعجبي	وعفت البيان فلا تعتبى
فما أنت يا مصر دار الأديب	ولا أنت بالبلد الطيب
وكم فيك يا مصر من كاتب	أقال اليراع ولم يكتب
فلا تعذلىنى لهذا السكوت	فقد ضاق بى منك ما ضاق بى
وكم غضب الناس من قبلنا	لسلب الحقوق ولم نغضب
تضيع الحقيقة ما بيننا	ويصلى البرىء مع المذنب
ويهضم فينا الإمام الحكيم	ويكرم فينا الجهول الغبى

ويغضب رجال الأزهر فيزيدهم غضبًا قائلاً:

كم عالم مد العلوم حبائلاً	لوقيعة وقطيعة وفراق
وفقيه قوم ظل يرصد فقهه	لمكيدة أو مستحل طلاق
يمشى وقد نصبت عليه عمامة	كالبرج لكن فوق تل نفاق

ولعل المعركة ضد رجال الأزهر المعارضين لنهج التقدم كانت فى أغلبها أزهرية الطابع. ففى مواجهة هؤلاء المتمزتين خاض الأستاذ الإمام محمد عبده معركة ضارية..

فأعلن "كل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله، وعن رسوله من كلام رسوله بدون توسط أحد من سلف ولا من خلف"^(٣٣)، وهكذا أكد أهمية إعمال العقل الناقد حتى بالنسبة للفقهاء والتراث.

ويورد د. محمد عمارة حوارًا يقول إنه دار محندًا بين الإمام محمد عبده والشيخ محمد البحيرى عضو مجلس إدارة الأزهر جاء فيه حول مناهج التعليم الأزهرية:

البحيرى: إننا نعلمهم كما تعلمنا.

عبده: وهذا هو الذى أخاف منه.

البحيرى: ألم تتعلم أنت فى الأزهر، وقد بلغت ما بلغت من مراقى العلم، وصرت فيه العلم الفرد؟

عبده: إن كان لى حظ من العلم الصحيح الذى تذكر فإننى لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغى ما علق فيه من وساخة الأزهر، وهو حتى الآن لم يبلغ ما أريده له من النظافة"^(٣٤).

ويرد الأزهريون على الأستاذ الإمام بعنف وقالوا "إنه يتساهل أو حتى يتجاهل أداء الفروض الدينية بما فى ذلك الصلاة"^(٣٥).

بل وصدرت كتيبات مجهولة المصدر تتناوله بألفاظ بذئية حتى على أغلفتها منها من وصفه "بالشيخ المهيأص الهجاص" ومنها "كشف الأستار فى ترجمة الشيخ الفشار" ومنها ما قيل أن كاتبه كما ورد على غلافه "المره اللى لسانها خارج لبره. خادمة الوطن والدين، وغيورة على المسلمين" ويؤكد رشيد رضا أكثر تلاميذ الإمام التصاقًا به، أن الأستاذ الإمام كان فى أحاديثه الخاصة يصف أزهر زمانه بأنه "الإسطنبول" أو "المخروب" أو "المارستان" ويكفى أن الشيخ محمد عبده كان فى فترة احتضاره يتأوه شعرًا:

ولست أبالى أن يقال محمد أبل أم اكتظت عليه المآتم
ولكنه دين أردت صلاحه أحاذر أن تقضى عليه العمائم

ويستمر دعاة التغيير فى معركتهم ضد الانغلاق والتزمّت، فيخوض محمد عبده معركة تحرير المرأة ويساند قاسم أمين فى معركته قائلاً: "الأسرة لبنة فى بنيان الأمة التى تتكون من العائلات، فصلاحتها صلاح للأمة. والرجل والمرأة متماثلان فى الحقوق والأعمال، كما أنهما متماثلان فى الذات والعقل والشعور.. واعلموا أن الرجال الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادة فى بيوتهم إنما يلدون عبيداً لغيرهم" (٣٦).

ويقول: "لقد كان الناس لجهلهم بوجوه المصالح الاجتماعية على كمالها لا يرون للنساء شأنًا فى صلاح حياتهم الاجتماعية وفسادها حتى علمهم الوحي ذلك. لكن الناس لا يأخذون من الوحي فى كل زمان إلا بقدر استعدادهم. وأن ما جاء به القرآن من الأحكام لإصلاح حال البيوت بحسن معاملة النساء لم تعمل به الأمة على وجه الكمال، بل نسيت معظمه فى هذا الزمان، وعادت إلى جهالة الجاهلية" (٣٧). ويقول: "إنه لا يعتد بطلاق الغضب واللجاج، ولا يعتد بالطلاق أصلاً إلا إذا تم فى حضور شهود" (٣٨) ويطالب "بتحويل حق الطلاق للنساء، فهو مما تقتضيه العدالة الإنسانية لشدة الظلم الواقع عليهن من فئة غير قليلة من الرجال" (٣٩).

ويقف فى ذات المعركة حافظ إبراهيم:

ليست نساؤكم حلى وجواهرًا	خوف الضياع تصان فى الأحقاق
ليست نساؤكم أنثاء يُقتنى	فى الدور بين مخادع وطباق
تتشكل الأزمان فى أدوارها	وولاءهن على الجمود بواقى

ويشارك أحمد شوقي هو أيضاً:

ظلم الرجال نساءهم وتعسفوا	هل للنساء بمصر من أنصار
يا معشر الكتاب أين بلاؤكم	أين البيان وصائب الأفكار
أيهمكم عبث.. وليس يهتمكم	بنيان أخلاق بغير جدار

ثم يحذر من اتخاذ الدين ذريعة لاغتيال حقوق النساء:

هذا رسول الله لم	ينقص حقوق المؤمنات
العلم كان شريعة	لنساءه المتفقهات
رضن التجارة والسياسة	والشئون الأخيرة
مصر تجدد مجدها	بنسائها المتجددات
النافرات من الجمود	كأنه شبح الممات

وعن كتاب "تحرير المرأة" ومعارضة قاسم أمين للحجاب قال شوقي في رثائه لقاسم:

ماذا رأيت من الحجاب وعسره فدعوتنا لتفرق ويسار
رأى بدا لك لم تجده مخالفاً ما فى الكتاب وسنة المختار

ولعل هذه النماذج تكفى لتبيين شراسة المعركة وعنفها، ولعلنا لسنا بحاجة إلى أن نوضح أن رجال الدين قد جاوبوا هذا الهجوم بما هو أعنف وأشد، ولعل الخاسر فى هذه المعركة الضارية كانت حركة التنوير فى مصر، ولعل الخسارة قد لامست الدين ذاته حيث صمم البعض من رجاله أن يضعوه اعتسافاً فى مواجهة كل جديد، وكل عقلانى، وكل علمى.

وعلى أية حال، فلم تمض سوى سنوات قليلة حتى توجهت سهام الرجعيين إلى صدور أزهريين أصلاء يتهمون لمجرد دعوتهم للتجديد والتنوير وإعمال العقل، بالإلحاد والمروق، الشيخ على عبد الرازق بسبب كتابه "الإسلام وأصول الحكم" وكذلك طه حسين لأنه عنى "بتطبيق منهج الشك الديكارتى على دراسته للأدب العربى، ولم يتردد فى أن يتشكك فى أصالة الشعر الجاهلى، بل وفى أن ينثر الشكوك حول بعض المسلمات التى ارتدت ثياباً دينية وذلك فى كتابه "فى الشعر الجاهلى" الذى أصدره عام ١٩٢٦^(٤٠). وخرجت مظاهرات الأزهريين الغاضبة

تطالب برأس الشيخ وبحرق كتابه، ولعل المظاهرات كانت من العنف بحيث اضطر زعيم مستنير كسعد زغلول أن يتراجع أمامها في محاولة لتهديتها "هبوا أن رجلاً مجنوناً يهذى فى الطريق فهل يضير العقلاء شىء من ذلك" (٤١). ولكم كان الأمر قاسياً على طه حسين ألا يجد الزعيم سبيلاً لإنقاذ رأسه من مقصلة المتعصبين إلا الدفع بجنونه.

وهكذا تقف الحركتان وجهًا لوجه، ويتبدى للكثيرين أن المخرج الممكن من هذا الصراع هو منهج يفهم الدين فهمًا صحيحًا وعميقًا، ويقدر للتنوير أهميته وضرورته، ويحاول أن يمزج بين الاثنين مقدمًا لمصر صيغة جديدة للانطلاق، وكان هذا فارس المخرج هو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، الذى كان "أبداً داع إلى أن العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين، فالدين عرف بالعقل ولا بد من اجتهاد يعتمد على الدين، وعلى العقل معاً حتى يستطيع المسلمون أن يواجهوا الأوضاع الجديدة فى المدينة الحديثة مقتبسين منها ما يفيد وينفع، وإذا كان المسلمون لا يستطيعون أن يعيشوا فى عزلة، فلا بد لهم أن يتسلحوا بما يتسلح به غيرهم وأكبر سلاح فى الدنيا هو العلم".

وبينما كانت مصر تحاول أن تجد ذاتها، وإذا ترتفع صيحة "تحيا مصر" وشعار "مصر للمصريين" يكون من الغريب أن يستقبل بعض المتدينين ورجال الدين هذه الصيحة بالنفور والغضب. إذ اعتقدوا أن "المصرية" هى نقيض "الإسلامية" وأن استقلال مصر هو مجرد مؤامرة ملحدة ضد الباب العالى العثمانى حامى حمى الإسلام والمسلمين.

وحتى فى صفوف الحزب الوطنى أكثر التجمعات المصرية راديكالية كانت مسألة "الخلافة الإسلامية" وتناقضها مع "المصرية" مسألة ملحة وفاعلة، بل وتوشك أن تقسم الحزب ذاته.

وفى البداية كان مصطفى كامل يمارس المناورة بين السلطان العثمانى

والإنجليز محاولاً أن يكسب لوطنه شيئاً ما، وكان يؤكد أنه "ما دامت الدولة العلية قوية سليمة دام أمل المصريين فى الخلاص كبيراً عظيماً" (٤٢).

لكنه ما لبث أن أدرك وبوضوح أن استقلال مصر يعنى انتزاع حريتها ومقدراتها من الخليفة العثمانى ومن الإنجليز معاً، فصاح بأعلى صوته "رمانا الطاعنون بأننا نريد أن نخرج الإنجليز من مصر لنعطيهما لتركيا، وما هذه التهمة إلا تصريح بأن معرفتنا لحقوق الأمم وواجباتها لم ترشحنا إلا أن نكون عبيداً أرقاء، فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها". ولكن الشيخ عبد العزيز جاويش أحد أقطاب الحزب، ورئيس تحرير مجلته لفترة طويلة، كان يرى رأياً آخر؛ إذ كان يؤكد فى حسم أنه "لا وطنية فى الإسلام" ويتمسك بشعار الجامعة الإسلامية وهو اتجاه ينادى "بحق الأمة المصرية فى الحرية والدستور والجلء فى ظل وحدة العالم الإسلامى ممثلاً فى الدولة العثمانية التى يتعين الحفاظ على وحدتها ومقاومة تمزيقها، فإن فى تمزيقها ضياع الوطن كله" (٤٣).

وكان الحزب الوطنى يعانى كثيراً من هذا التمزق، بل لقد كانت دعوة الشيخ جاويش هذه خليقة بأن تفقد الحزب تأييد عناصر كثيرة (٤٤). وكان محمد فريد خليفة مصطفى كامل يقاوم هذه الدعوة وينقدها نقداً شديداً، وهو يشير فى مذكراته إلى الشيخ جاويش قائلاً: "إن حبه للدولة العثمانية أدى به إلى نسيان مصر ومصالحها، فأصبح يقول إن مصر للمسلمين لا للمصريين، وقد وصلت الحالة بالشيخ جاويش إلى أن ينصحنى بعدم حمل الدبوس الذى عملناه فى جنيف والمكتوب عليه مصر للمصريين والذى قررنا أن يكون شعار المصريين المخلصين، وقال إن منظره فى صدرى وصدر إخوانى يغيظ العثمانيين، كما تغيظهم محافظتى على قومية مصر" (٤٥).

وفى موضع آخر من مذكراته يقول محمد فريد: إن جاويش لم يزل يحارب فكرة الوطنية فى الإسلام، وقد قال أخيراً فى برلين لأحمد بك أن يقلع عن فكرة الوطنية

أو الجنسية المصرية قائلًا: "إنه لا وطنية في الإسلام".

ولا تبدو أفكار الشيخ جاويش بعيدة عن كلمات كتبها الشيخ حسن البنا بعد قرابة الربع قرن، "أن كل قطعة أرض ارتفعت فيها راية الإسلام هي وطن لكل مسلم يحتفظ به، ويعمل له، ويجاهد في سبيله".

وعندما قام كمال أتاتورك بثورته، فإنه لم يهز عرش السلطان الفاسد فحسب، بل هز وجدان الكثيرين ممن تعلقت أبصارهم وآمالهم بالخلافة العثمانية كحصن أول وأخير للمسلمين.

وإذا كان بعض الكتاب قد ألمح إلى أن إنهاء الخلافة العثمانية قد مكن الكثيرين من دعاة التجديد والإصلاح من محاولة تقديم فهم إسلامي إصلاحى، ومكن بعض رجال الدين من مزج "العقيدة الدينية بالفكرة الوطنية، ومن أن يعبروا عن دعوتهم إلى الإصلاح بعبارات أكثر وضوحًا وصراحة عن ذي قبل" وألمح آخر إلى أن انهيار الخلافة العثمانية "قد دمر الأسس الواقعية والجغرافية للجامعة الإسلامية وشجع النزعات الوطنية والقومية" بل و"شجع إلى حد ما ولمرحلة معينة النزعات العلمانية ودفعها إلى السطح" فإن انهيار الخلافة قد أوجد لدى البعض نزوعًا للعمل الدائب دعوة لها والأمل الذى لا يخبو فى استعادتها.

وقد أحاطت بالدعوة إلى الخلافة شبهات موضوعية تتعلق بطموح الملك فؤاد وحاشيته من شيوخ الأزهر، الأمر الذى دفع أحد كبار شيوخ الأزهر وهو الشيخ الأحمدي الظواهرى إلى أن يقول: "لم يكن التمهيد لانعقاد مؤتمر للخلافة بالقاهرة يحضره مندوبون من جميع الأمم الإسلامية أمرًا بسيطًا هيئًا كما ظن علماء الأزهر فى بادئ الأمر. فقد امتد زمن الدعوة إليه من عام ١٩٢٤ إلى عام ١٩٢٦. أما سبب التأخير فيرجع إلى أنه قد دخلت نفوس بعض كبار المسلمين وأمرائهم فى الأمم الإسلامية الأخرى شكوك من جهة مصر، فقد ظنوا أن علماء الأزهر إنما يقصدون من مؤتمر القاهرة الذى يدعون إليه أمرًا آخر له باطن، غير ظاهره، وأنهم إنما يثيرون مسألة حماية الخلافة لا خوفًا على الخلافة وإشفاقًا على كلمة

الإسلام كما يدعون بل لغرض آخر فى فؤاد أم موسى هو نقل الخلافة من شاطئ البوسفور إلى شاطئ النيل وضم أريكة الخلافة إلى أريكة الملك فى عابدين" (٤٦).

ويمضى الشيخ الطواهرى: "ومن أجل ذلك كانت إجابات دول الإسلام على دعوة علماء الأزهر لعقد مؤتمر فى القاهرة إجابات فاترة، وكان معظمها استفساراً عن مرامى المؤتمر وغاياته، ومن الذى يراد بتصحيحه خليفة بدلاً من الخليفة المعزول" (٤٧) وينعقد مؤتمر الخلافة ليفشل، وليقرر المجتمعون أنه ليس بإمكانهم "وهم أقلية بين شعوب الإسلام أن يتخذوا قراراً فى شأن يهم المسلمين جميعاً" (٤٨).

وتكون قصة الخلافة سبباً فى معركة ضارية خاضها شيوخ أزهيون ضد شيخ أزهرى، وفى أبريل ١٩٢٥ أصدر الشيخ على عبد الرازق القاضى الشرعى بمحكمة المنصورة كتابه الشهير "الإسلام وأصول الحكم" مؤكداً أن مبدأ فصل الدين عن الدولة يتطابق مع تعاليم القرآن والسنة، وأن الدين هو فى جوهره روحى خالص "وليس له أى علاقة بالسلطة السياسية، كما أنه مجرد من السلطة التنفيذية الزمنية، ويرى "أن مبدأ الخلافة لا يرتكز لا على القرآن الذى لم يشر إليه على الإطلاق، ولا على إجماع صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، دينية قبل كل شىء، وظلت بعيدة عن أى شكل من أشكال الحكم وعن أى سلطة تنفيذية" (٤٩).

وكان نصيب الشيخ ردّاً على كتابه هو ما نعرف من الاتهامات المقررة على كل داع للتجديد، وهى اتهامات أقلها المروق والكفر والإلحاد.. وقرار من هيئة كبار العلماء "حكمنّا نحن شيخ الأزهر بإجماع أربعة وعشرين عالماً معنا من هيئة العلماء بإخراج الشيخ على عبد الرازق أحد علماء الأزهر والقاضى الشرعى ومؤلف كتاب "الإسلام وأصول الحكم" من زمرة العلماء وتعلن الأسباب بعد إعدادها فيما بعد" (٥٠).

وتظل فكرة الخلافة حلمًا يداعب خيالات الكثيرين، ليس فقط ذلك الملك الساذج القابع فى قصر عابدين تحت رعاية المحتلين، ولا من تبعه من شيوخ الأزهر الذين

غذوا أحلامه بأن يرث عرش الخلافة المنيع، وإنما أيضًا بعض الدعاة المخلصين للإسلامية، والذين تعلقت أبصارهم بفكرة "الخلافة" و"الجامعة الإسلامية" مؤمنين بأن الإسلام بذاته وطن، وأنه لا نجاة للمسلمين بغير خليفة لهم جميعًا.

ذلك أن الإسلام كعقيدة هو فى نظر البعض "محتوى سياسى" و"المجتمع الإسلامى هو ذاته الكومنولث الإسلامى أى "مجموعة الشعوب المسلمة" والأمة الإسلامية هى أيضًا تكوين سياسى متكامل"^(٥١).

وتكون هذه الصراعات . بالضرورة . واحدة من مكونات المناخ الفكرى الذى عاشه الفتى حسن البنا.

وكان هناك أيضًا "التبشير" وجماعته التى تناثرت فى أماكن عديدة من مصر. ولقد قيل عن هذا الموضوع كلام كثير لعل أكثره صحة هو أن التبشير لم يكن أكثر من لعبة استعمارية تستهدف استفزاز المشاعر الإسلامية وحرفها عن مسارات الكفاح الطبىعى لتحرير الوطن، إلى مسارات تستهلك قواها فى صراعات داخلية تبعد القتال عن مساره الطبىعى ضد الاستعمار.. وأن أكثره كان فى واقع الأمر تبشيرًا مسيحيًا . مسيحيًا. أى محاولة ضم بعض مسيحيى الصعيد خاصة (وهم الأكثر فقرًا) إلى الكنيسة الكاثوليكية أو البروتستانتية.

وعلى أى حال، فقد حدث فى نهاية العشرينيات أن استفز النشاط التبشيرى مشاعر المسلمين فى مصر "وكان لحوادث الغواية عن الدين وحوادث نقد الإسلام فى محاضرات بعض المبشرين وكتبهم وقع عنيف"^(٥٢).

كذلك فقد تواترت محاولات بعثات التبشير فى "خلق أقلية دينية مصنوعة، واستهدف الاستعمار بذلك أن يحيل الأقلية الدينية إلى رأس رمح يوجه إلى الحركة الشعبية، وأن يثير لدى الأغلبية رد فعل دينى متطرف يرد بها إلى مواقف الرجعية، ويرد الحركة الوطنية ضد الاستعمار إلى حركات طائفية ومتعصبة"^(٥٣).

وقد كان..

إذ تتالت ردود الفعل باتجاه طائفي، وتوترت مشاعر الكثيرين وضخمت نتائج عمليات التبشير بصورة مبالغ فيها، الأمر الذى يعنى أن الهدف الحقيقى من التبشير قد تحقق، فلنأخذنا نحن أن أحدًا من السداجة بحيث يتصور أن التبشير كان خطة عملية أو منطقية تستهدف استقطاب أفراد من المسلمين باتجاه الديانة المسيحية.

فلا التجربة العملية، ولا الواقع الموضوعى، ولا الأرقام الفعلية، لا شىء من ذلك كله يشير مجرد إشارة لأى احتمال لنجاح حملات التبشير من هذه الزاوية. وعلى أى حال فقد كانت حملات التبشير وردود فعلها بما يمكن أن يسمى التبشير المضاد من سمات هذه الفترة، ومكوّنًا من فكر قطاعات من المسلمين المتشددين، وإذا كان البعض مثل حزب الوفد وغيره قد فهم أبعاد اللعبة وردها إلى صاحبها الطبيعى، وهو الاستعمار ولجأ إلى مقاومتها "وبكفاءة بالدعوة إلى وحدة عنصرى الأمة"^(٥٤). فإن البعض الآخر قد اتخذ منها ذريعة للهجوم على المسيحية بما يعمق الخلاف ويوسع الهوة ويخلق المناخ اللازم للتعصب الدينى.. وهكذا فإن هذا البعض الذى وقع فى وهدة التبشير المضاد، يكون قد حقق .أيًا كانت نواياه .مطامح الاستعمار.

وفى خضم ذلك كله كانت تنمو فكرة التناقض بين الحضارتين الشرقية والغربية، وكان البعض يثير هذا التناقض من منطلق وطنى، والبعض يثيره من منطلق إسلامى.

هكذا "الميكادو" قد علمنا أن نجعل الأوطان أمًا وأبًا إنه منطلق التيار الوطنى الذى يرفض الغرب ويتطلع شرقًا نحو حضار تحقق الطموح الوطنى من خلال معطيات شرقية، كذلك كانت حركة "مصر الفتاة" تستلهم فى مطلع الثلاثينيات نهضة اليابان كنموذج للنهضة الشرقية المرجوة، ومن منطلق معاد للاستعمار عمومًا.

أما التيارات الإسلامية فقد كانت ترى "الشرقية" بالنسبة للتيارات الإسلامية مدخلاً أو مخرجاً يتيح الهجوم على الغرب، وعلى كل ما هو غربي سواء فى ميادين الفكر أو فى الحضارة أو الثقافة أو غيرها.

وكانت هذه التيارات ترى "أنه لا خلاص للعرب والمسلمين، ولا فرصة أمام الشرق كى يحترم نفسه ما لم يتخلص من كل معطيات الحضارة الغربية، وأن يعتمد على نفسه وعلى رحمة الله الواسعة، وعلى المسلمين أن يقاوموا الأفكار الغربية لأنهم ليسوا فى حاجة إليها"^(٥٥).

ويواكب حسن البنا هذا التيار فيقول: "إن المدنية الغربية التى تتباهى بعلومها والتى استطاعت أن تسيطر على العالم، تعاني الآن من الإفلاس والانحيار ذلك أن أسسها السياسية قد انهارت تحت وطأة الديكتاتورية، وأنظمتها الاقتصادية تتداعى بفعل الأزمة، وكيانها الاجتماعى يتآكل، والناس هناك يسيطر عليهم الطمع والقهر"، ويؤكد حسن البنا: "لقد بدأت قيادة العالم شرقية، ثم أصبحت غربية، وها قد حان الحين لينهض الشرق من جديد"^(٥٦).

وهكذا تختلط . وربما عن عمد . فكرة الشرقية بالإسلامية، كسبيل للهجوم على الغرب من منطلق غير صحى وغير صحيح.. فهو هجوم لا ينبعث من فهم واضح لمعنى الاستعمار، ولا يقود إلى أسلوب محدد لمجابهته. فالاستعمار هو مجرد "صليبية . أوروبية"^(٥٧) واستعمار مسيحي، بل إن حسن البنا يؤكد أن جوهر الصراع مع الاستعمار هو صراع "صليبي وليس اقتصاديا أو ماليا أو سياسيا"^(٥٨) ولعله من المثير للدهشة أن هذه العبارات بذاتها تتردد حتى الآن فى مقولات تنظيم القاعدة.

ومن ثم فإن الهجوم على الغرب قد اتخذ اتجاهاً غريباً إذ تحول إلى الهجوم على كل مَنْ ينهل من ثقافة الغرب وعلومه أو يدعو للتنوير مستفيداً من معطيات حركة التنوير الغربية. وتوجهت سهام إلى شخصيات إسلامية مثل طه حسين والشيخ على عبد الرازق والشيخ خالد محمد خالد متهمة إياهم بأنهم "خضعوا بوعى أو بغير وعى لغواية الثقافة الغربية الاستعمارية"^(٥٩).

وهكذا فهمت "الشرقية" على وجهين، واستخدمت كسلاح ذى حدين لكنها كانت وفى ذلك الحين عنصراً فاعلاً فى تكوين المناخ الفكرى العام إلى درجة تمكنها من أن تؤثر بلا شك فى وجدان ومشاعر ومنطلقات شاب سياسى ومتدين مثل حسن البنا.

وللسلفية والتجديد قصة تستحق وقفة هى الأخرى. قصة تركزت حول موضوع الدين وتحديات العصر.

وكانت هذه القضية هى الشغل الشاغل لمصر. لمجديديها وسلفيها، ثوارها ومعتدليها ورجعيها، وعلمائها ومفكرها ورجال الدين فيها، وذلك طوال الفترة من منتصف القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين^(٦٠).

وكانت العلاقة الشائكة والحتمية بين الدين وتحديات العصر تتبلور فى كثير من الأحيان فى موضوعين: العدالة الاجتماعية، والموقف من العقل ومنجزات العلم الحديث.

والحقيقة أن الإسلام بطبيعته، وبطبيعة الوضع الطبقي لشيوخه البارزين فى هذه الفترة قد استطاع أن يجد حلاً لمسألة العلاقة بين الدين والعدل الاجتماعى. وكان رفاعة الطهطاوى والأفغانى رواد هذه المعركة على أرض مصر.

الطهطاوى فى كتابه الرائع "مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية" كان يصيح بأعلى صوته "الأرض للزارعين" ويقول: "إن الفضائل جميعاً تعود إلى أصل واحد هو العدل العمومى والإنصاف المشترك"^(٦١).

وهو ينتقد الملاك لأنهم يتمتعون "فى العادة بالمتحصل من العمل، ولا يدفعون نظير العمل الجسيم إلا المقدار اليسير الذى لا يكافئ العمل"^(٦٢).

ويأتى بعده الأفغانى لترتفع صيحته أكثر فأكثر ولتتخذ ثوباً واضحاً تماماً "أما الاشتراكية فى الإسلام فهى ملتزمة مع الدين الإسلامى" "وأول مَنْ عمل بالاشتراكية بعد التدين بالإسلام هم أكابر الخلفاء من الصحابة"، وهو يقدم تعريفاً

شاملاً وتقدمياً للاشتراكية "فالاشتراكية هي التى ستؤدى حقاً مهضوماً لأكثرية من الشعب العامل".

وتكون صيحة الشيخ الكواكبى، أعلى هى الأخرى، "أن النظام الطبيعى فى كل الحيوانات أن النوع الواحد منها لا يأكل بعضه بعضاً والإنسان يأكل الإنسان، ومن غريزتها أن تلتمس الرزق من الله أى مورده الطبيعى، والإنسان حريص على التماسه من أخيه" (٦٣).

ثم إن الكواكبى يمجّد العلم وبالذات العلوم العقلية "فالمستبد لا يخاف من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة وإنما يتلهى بها المتهوسون. ولكن ترتعد فرائض المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الأمم أو سياسة المدنية. وغيرها من العلوم الممزقة للغيوم، المبسقة للشموس، المحرقة للرؤوس" (٦٤).

وهو يهاجم الأغنياء فهم "رباط المستبد يذلهم فيئنون، ويستدرهم فينحنون، ولهذا يرسخ الذل فى الأمم التى يكثر أغنياءها، أما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة الذئاب" (٦٥)، وهو يدعو صراحة إلى الاشتراكية باعتبارها "السر كل السر فى نجاح الأمم المتمدنة" (٦٦) ويقول: "إن الداء العام هو الفقر. لكن الحكومات الإسلامية قد قلبت الموضوع فصارت تجنى الأموال من الفقراء والمساكين للأغنياء، وتحابى بها المسرفين" (٦٧).

وتبقى القضية الأخرى..

ولعل الأفغانى كان رائداً أيضاً فيها، فبعد كتابه "الرد على الدهريين" والذى هاجم فيه "النيشيريين" "دعاة الطبيعة" والماديين، والذى اختص فيه نظرية التطور بهجومه وتهكمه وإدانته قاتلاً: "إذا كان زعم داروين أن الإنسان كان قرداً ثم عرض له التنقيح والتهذيب صحيحاً، فعلى زعم داروين هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلاً بمرور القرون وكر الدهور وأن ينقلب الفيل برغوثاً كذلك" (٦٨). بعد هذا نجده يراجع نفسه فى كتابه الآخر "خاطرات جمال الدين".

"فقد سُئل الأفغانى عن قولة "المعرى":

والذى حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

وهل يقصد بها ما عناه داروين بنظرية النشوء والارتقاء فقال:

لا أعالى ولا أبالغ إذا قلت: "ليس على سطح الأرض شىء جديد بالجواهر والأصول، أما مقصد أبى العلاء فظاهر واضح وليس فيه خفاء، فهو يقصد النشوء والارتقاء مهتدياً بما قاله العرب قبله بهذا المذهب، إذ قال أبو بكر بن بشرون فى رسالته لأبى السمح، عرضاً، فى بحث الكيمياء: "إن التراب يستحيل نباتاً، والنبات يستحيل حيواناً، وإن أرفع مواليد التراب . ومنه المعادن . النبات، وهو أدنى طبقات الحيوان، سلسلة تنتهى عند الإنسان"^(٦٩).

ولعل الأفغانى بموقفه هذا قد تأثر إلى حد ما برسائل إخوان الصفا وبأفكارهم، ولعله لم يكن مطلوباً منه فى إطار التحديات المطروحة فى زمانه أن يقدم أكثر مما قدم.

لكن العطاء الحقيقى للأفغانى كان تلميذه محمد عبده. يقول مارسيل كولومب "وليس من السهولة أن نوضح أثر هذين الرائدین "الأفغانى ومحمد عبده" على الجيل الذى تلاهما. ومع ذلك فثمة شىء مؤكد، ذلك أنه عندما تبذل المحاولات لجعل الدين يتوافق مع العلم الحديث، وعندما تتقبل فكرة إعادة النظر فى الشريعة الإسلامية كضرورة حتى تتسق مع مقتضيات العصر، فلا بد أن ندخل فى اعتبارنا أن الأفغانى ومحمد عبده هما اللذان هيئا النفوس بالتدرج لتقبل مفهوم للدولة وللدين يختلف عن مفهومهما فى القرن السابق"^(٧٠).

لكن محمد عبده كان يختلف عن أستاذه فى المسألتين المهمتين: العدل الاجتماعى والموقف من العقل والعلم الحديث.

فى المسألة الأولى كان أكثر تخلفاً، وفى الثانية كان أكثر تقدماً ولعل السبب واضح.

فالصراع الاجتماعى احتدم عنيقاً بعد أن طرد الأفغانى من مصر وصار على

كل مفكر أن يختار موقعه الاجتماعي والطبقة التي ينحاز إليها. وما أصعب أن يختار مثقف برجوازي صغير موقع الدفاع عن الفقراء.

فالشيخ محمد عبده يهاجم التطرف لدى الثوار العربيين، ويلومهم صراحة على انتمائهم للشعب والفقراء.. بل هو يؤكد أنه انتقد حكومة رياض ومسلك الخديو توفيق "لكنني كنت ضد الثورة، كنت أعتقد أنه يكفي جدًا أن نحصل على دستور خلال خمس سنوات، وكنت أعارض أسلوب طرد رياض باشا، ومظاهرة عابدين، وكان سليمان باشا أباطة والشريعي باشا يؤيداني ضد الثورة لكننا كنا جميعًا نطالب بالدستور" (٧١).

لكن الثورة قامت، ومس لهيبها شغاف قلب كل مصري، واندفع الفلاحون ينخرطون في سلك جيش من أصحاب الجلايب المسلحين بأى شيء وهم يهتفون "الله ينصرك يا عرابي".

ولم يكن أمام الشيخ محمد عبده إلا أن يقف معها محاولاً قدر الإمكان أن يحد من ثورتها وفي ١٣ فبراير ١٨٨٣ أقامت جمعية المقاصد الخيرية حفلًا كبيرًا ابتهاجًا بتشكيل وزارة العربيين برئاسة محمود سامي باشا البارودي، وفي حشد كبير من الأعيان وقف محمد عبده ليحذر "الثوار" من ثورتهم، وليحذر الأعيان من تساهلهم أو تغافلهم تجاه هذه الثورة.. قال محمد عبده: "إنه لم يعهد في أمة من أمم الأرض أن الخواص والأغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس وإزالة امتيازاتهم واستئثارهم بالجاه والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم في ذلك، فكيف حصل في هذه المرة، ومن أهل هذا المجتمع؟ فهل تغيرت سنة الله في الخلق، وانقلب سير العالم الإنساني؟ أم بلغت فيكم الفضيلة حدًا لم يبلغه أحد من العالمين، حتى رضيتم واخترتم عن روية وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم في جاهكم ومجدكم وتتساووا بالصعاليك حبًا بالعدالة والإنسانية؟ أم تسيرون إلى حيث لا تدرون وتعملون ما لا تعلمون" (٧٢).

وبرغم هذا الموقف المتخلف من القضية الاجتماعية فإن محمد عبده يبرز بعد

عدة أعوام رائدًا من رواد التجديد وداعية من دعاة.

فالعقل والتنوير كانا يصعدان معركتهما، ومنجزات العلم الحديث تفرض نفسها وبالإحاح على حياة المجتمع والأفراد طالبة إجابة صريحة "وفتوى شرعية" في كل أمر جديد، وكانت فتاوى محمد عبده تتألق دومًا باتجاه متقدم.

وهو يبدأ معركته بتجريد رجال الدين من كهنوتهم الذى يحاولون أن يفرضوه على البشر قائلًا: "ليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها أعلاهم يتناول بها أدناهم". والحقيقة أن محمد عبده كان يجابه مهمة صعبة، فمع نهايات القرن التاسع عشر تم وضع مجموعات القوانين الجديدة، التى تغطى مجال المعاملات المدنية كلها ونظام العقوبات وذلك نقلًا عن القوانين الفرنسية، وتم إنشاء هيكل قضائى حديث، وانتشر التعليم الحديث أيضًا. وهكذا كانت مصر وهى تقترب من روح العصر، وتتلامس مع المدنية الحديثة تتمايز فيها شخصيتان، ومؤسستان فى عديد من المجالات المهمة، مؤسستان للقضاء ومؤسستان للتعليم "مما فصل عن الأزهر أهم جانب من جوانب وظيفته الاجتماعية". "ومع نهايات القرن التاسع عشر وضع الصدع أمام المبصرين وغير المبصرين جميعًا، وتم صدع مماثل فى المؤسسات الاجتماعية والمؤسسات الفكرية، وفى البناء الأخلاقى والسلوكى للأفراد. أمام هذه المشكلة قامت دعوة محمد عبده تحاول رتق هذا الفتق الذى يتسع ويدعو لتفتيح الفكر الإسلامى ليستوعب الحاجات المدنية للمجتمع، وليمكن الفكر الإسلامى من أن يقدم الأساس الأخلاقى والمعنوى لهذه الحياة المتطورة. وكانت وسيلته إلى ذلك الدعوة إلى تطوير الأزهر وتفتيح مناهج التعليم فيه، وفتح باب الاجتهاد"^(٧٣).

لكن الأزهر وقف من حركة محمد عبده موقف الرفض، بينما تلقفها التيار العقلانى وتمسك بها فى مواجهة دعاة التقليد، وهكذا ازدادت الهوة اتساعًا بين حركة التجديد وبين الأزهر.

والحقيقة أن محمد عبده قد استفاد كثيرًا جدًا من إقامته في أوروبا لفترة من الوقت، ولعل هذه الإقامة لم تكسبه استنارة وسعة أفق ورغبة نهمة في الدفاع عن العقل والعلم فحسب، وإنما قدمت أمام عينيه نمطًا من السلوكيات ونموذجًا للحياة يختلف اختلافًا جذريًا عما يراه في أرض وطنه، ولعل ذلك هو الذي دفعه إلى الإعراب عن دهشته لأن "الكفرة يتصرفون كمسلمين بينما يتصرف المسلمون وكأنهم كفرة" (٧٤).

ولعل هذا الموقف يتضح أيضًا من إعجابه الشديد بالفيلسوف الروسي تولستوى فعندما كان محمد عبده مفتيًا للديار المصرية كتب إلى تولستوى يقول: "أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوى: لم نحظ بمعرفة شخصك، ولكننا لم نحرم التعارف بروحك. سطع علينا نور من أفكارك، وأشرق في آفاقنا شمس من آرائك، ألقت بين نفوس العقلاء ونفسك، فكما كنت بقولك هاديًا للعقول، حاثًا بعلمك للعزائم والهمم وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى به الضالون، كان مثالك في العقل إمامًا يقتدى به المرشدون" (٧٥).

هكذا يتكلم مفتي الديار المصرية مع مفكر هو على أي حال غير مسلم بل ومتهم من كنيسته بالإلحاد، وهكذا كان تقديره لحضارة الغرب ولأفكار الجديدة فيه. ولقد كان المنطلق الأساسى لمحمد عبده هو تصميمه على "أن الإسلام لم يتعارض ولا يمكن أن يتعارض مع العلم الذى مثله مثل العقيدة يكشف للناس أسرار الطبيعة" (٧٦).

وبينما كان "السلفيون" وظلوا حتى ما بعد زمن محمد عبده بكثير يتكبرون للحضارة الغربية والثقافة الغربية، كان محمد عبده يرى أن مفتاح التقدم هو تبنى العلوم الغربية والثقافة. وقد أكد محمد عبده في أحد مقالاته المبكرة "إن سر تفوق أوروبا يكمن فى تفوقها فى مضمار البحث العلمى، وإلى تقدم نظم التعليم فيها" (٧٧).

وبعد أن يؤكد محمد عبده ضرورة التلاصق مع الفكر الغربى الحديث، يخطو خطوة جديدة شائكة، لكنها حاسمة فهو يدعو إلى تحديث الفكر الإسلامى، فقد كان يرى أن

الإسلام لا يمكن أن يرسخ أقدامه عبر الأزمان إذا ما استمر معتمداً على التقليد. وكم هاجم محمد عبده دعاة التقليد وكم أكد "أنه بدون استخدام العقل سوف يتعذر على المسلمين إحراز أى تقدم أو تطور"^(٧٨). وذلك فى الوقت الذى كان يعانى فيه الآخرون من عقدة الخوف والرفض لكل ما هو قادم من الغرب، ولكل ما هو إعمال للعقل، باعتبار أنه تهديد أو إضعاف لنفوذ الإسلام. الأمر الذى أشعرهم بضرورة شن "هجوم مضاد" فتشبهوا بشعار الجامعة الإسلامية، وتهافتوا على إدانة كل ما هو عقلاى وعلمى أو جديد^(٧٩).

وفى هذا المناخ يمضى الأستاذ الإمام محمد عبده مفتى الديار المصرية ليصدر سلسلة من الفتاوى الشرعية تحاول أن تيسر على المسلمين مجابهااتهم وتعاملاتهم مع حياة المدنية الحديثة. والحقيقة أن الأستاذ الإمام كان مطالباً بإصدار فتاوى شرعية فى مسائل معقدة مثل "قوائد الأموال المودعة فى البنوك" .. و"سعر الفائدة" و"التأمين على الحياة" و"الشركات المساهمة وأرباحها" .. وفى مسائل أخرى قد تبدو بسيطة لكنها من فرط بساطتها تلح على المسلم فى كل تعاملاته: "التصوير الفوتوغرافى" حلال أم حرام؟ واستخدام التليفون حلال أم حرام؟ وهكذا ويصدر رحب ويعقل مفتوح مدرك لتبعات المفتى المستتير تجاه عصره حاول محمد عبده أن يقدم إجابات توفق بين تعاليم الإسلام واحتياجات العصر. وحتى فى المسائل الشديدة التعقيد والتي قد يتحرج شيخ مسلم من البحث عن الجديد تجاهها مثل: المرأة وعلاقاتها بالمجتمع، وتحريرها، ومسألة الحجاب.. إلخ، تروج شائعات قوية عن إسهام الأستاذ الإمام فى إعداد كتاب صديقه الحميم قاسم أمين عن تحرير المرأة.

ويمضى الأستاذ الإمام بعد رحلة مجيدة ليترك تلاميذ يختلفون اختلافاً شديداً حول تفسير تعاليمه، ويقول الباحث مجيد خضورى "إن البعض من تلاميذ الإمام قد حاول أن يطور تعاليمه، ويصل بها إلى نهايتها المنطقية، أى أن ينفى دور الإسلام كعقيدة تجاه المجتمع ككل، وأن يحصره تجاه الفرد وضميره ووعيه. وكان هذا البعض يرى أن

الإسلام عقيدة حية ومن ثم فيتعين لها أن تتطور باستمرار، وأن النهاية الحتمية لهذا التطور هي علمانية المجتمع الإسلامي".

ويمضى خضورى قائلاً: إن هذه الآراء قد رفضت بشدة من جانب "مريدى الإمام من المحافظين وخصوصاً هؤلاء الذين كانوا . برغم ولائهم لشيخهم . يرون أنه قدم تنازلات غير ضرورية لصالح المدنية والتطور الحديث، وكان على رأس هؤلاء المحافظين المتشددين من أتباع محمد عبده الشيخ رشيد رضا"^(٨٠).

وبرغم أن رشيد رضا كان أقرب هؤلاء المريدين إلى قلب الإمام إلا أنه كان أكثرهم حرصاً على تفسير تعاليمه تفسيراً محافظاً ومتزماً إلى أبعد الحدود^(٨١).

وهكذا نجد أمامنا مدارس عدة.. وليس مدرستين فقط.

. التقليديون.. "المحافظون من شيوخ الأزهر".

. المجددون "الشيخ محمد عبده وتلاميذه المستنبرون".

. المجددون المحافظون "الشيخ رشيد رضا وتلاميذه".

وعن هذه المدرسة الأخيرة سنتحدث قليلاً، لأنها ذات علاقة بموضوع بحثنا.

لقد قرر رشيد رضا أن يخوض معركتين لا معركة واحدة، معركة ضد علماء الأزهر الذين كان يريد أن ينتزعهم بعيداً عن نهجهم فى "التقليد" وعن "تعصبهم المذهبى" وأخرى "ضد دعاة التفرنج" وكان رشيد رضا يشير دومًا إلى خطورة كلا التيارين ويرفضهما معاً وينفس الحدة^(٨٢).

وفى كتابه "الخلافة أو الإمامة العظمى" يهاجم الشيوخ "الذين ازوروا إلى زوايا مساجدهم أو جحور بيوتهم، ويتهمهم بأنهم عاجزون عن أداء واجبهم، وعن الإبقاء على نقاء أقدس التقاليد وأنبليها"، ويهاجم فى نفس الوقت دعاة التفرنج قائلاً: "إنه من الجنون أن نسعى إلى انتزاع مقومات الأمة الإسلامية الدينية والتاريخية، واستبدال مقومات أمة أخرى ومشخصاتها بها"^(٨٣).

ورويًا رويًا كان رشيد رضا يتخلى عن تعاليم الإمام، ويبتعد بهجمات العنيفة ضد دعوة "التجديد" عن معسكر أستاذه، بل لعله كان يقترب من معسكر خصوم

الإمام من دعاة "التقليد". فهو يدعو إلى العودة للمصادر الأولى.. وبالنسبة له فإن العمل والجهد والأمل يتركز فى شيء واحد "الخلافة الإسلامية"... "فهى الحكومة المثلى التى بدونها لا يمكن أن يتحسن حال البشرية"^(٨٤). والدولة الإسلامية الأصلية هى فى الواقع خير الدول ليس بالنسبة للمسلمين فحسب ولكن بالنسبة لسائر البشر فهى وسط بين الجمود وبين حضارة الإفرنج التى تفتك بها ميكروبات الفساد وأوبئة الهلاك فتجعلها عرضة للزوال^(٨٥)، وهو يبتعد كثيرًا عن نهج أستاذه عندما يؤكد أن السيادة المطلقة فى الدولة هى "الأولى الأمر" الذين "أمر الله بطاعتهم"^(٨٦).

وهكذا تمضى دعوة الأستاذ الإمام على يد تلاميذ يضيّقون بتجديده وليبراليته، فيتراجعون بها نحو "التقليد" و"المحافظة"، ويستمر التراجع، فتلاميذ التلاميذ أكثر محافظة، وأكثر تمسكًا بضرورة العودة إلى التقليد.

وقد تأثر الشيخ حسن البنا برشيد رضا فقد أعلن صراحة فى الأيام الأولى لجماعته "نحن سلفيون من أتباع الشيخ رشيد رضا". ويرى البعض أن الأفغانى فى حالته غير المتطورة كان بمثابة "الأب الروحى" وكان الإخوان يقدمون حسن البنا فى صورة "أفغانى" عصره^(٨٧).

وإذا كان أحد الإخوان قد قال إن الأفغانى كان مجرد "مؤذن أو هو مجرد صرخة" وأن رشيد رضا كان مجرد "مؤرخ أو مسجل" وأن المرشد هو "بنا"^(٨٨) فإن الشيخ حسن البنا يورد تقديرًا محدودًا لهؤلاء الرواد جميعًا "قال أفغانى كان يرى المشكلات ويحذر منها، وكان محمد عبده يعلم ويفكر، ورشيد رضا يكتب أبحاثًا، لكنهم كانوا جميعًا فى نظره مجرد "مصلحين دينيين وأخلاقيين" يفتقدون الرؤية الإسلامية الشاملة"^(٨٩). وربما كان أحد تلاميذ الشيخ البنا أكثر وضوحًا فى تقديم هؤلاء الرواد فهو إذ يمايز بين دعوة محمد عبده ودعوة حسن البنا يقول إن دعوة الإخوان المسلمين تتميز عن غيرها بأنها تعنى الجهاد والنضال والعمل، وأنها ليست مجرد رسالة فلسفية^(٩٠).

ومع ذلك فإنه يتعين علينا ألا ننسى أن الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا والد حسن البنا وأستاذ الأول كان تلميذاً من تلاميذ محمد عبده، وأن الطالب حسن البنا كان قارئاً مثابراً لمجلة "المنار"، ولعله مارس على صفحاتها أولى محاولاته فى الكتابة^(٩١).

وإذا استمر الشيخ رشيد رضا فى تراجعته عن "التجديد" حتى أصبح متمسكاً "بالسلفية" مؤكداً أن "السلف" هم القادرون على فهم المغزى الحقيقى للمبادئ الإسلامية كما أنزلت فى القرآن ووردت فى الحديث^(٩٢). فإنه يستحق أكثر من غيره من الرواد . الذين كانوا أكثر منه تألقاً . مديح وثناء الشيخ البنا، الذى وصف مجلة "المنار" بأنها قدمت أجلّ الخدمات للإسلام فى مصر وغيرها من البلدان^(٩٣). والذى تباهى بأن الشيخ رشيد رضا كان على وشك الانضمام لجماعة الإخوان المسلمين قبيل وفاته^(٩٤).

وهكذا يحدد الشيخ حسن البنا موقفه كامتداد أكثر "سلفية" للتيار "السلفى" بين تلاميذ محمد عبده.

ويلخص ألبرت حورانى الموقف كله فى عبارة تقول: "إذا كان التاريخ هو ما تعيه ذاكرة الإنسان عن الماضى، فإن هذا الماضى يظل بالنسبة للبعض أملاً يتعين الارتداد إليه، وبالنسبة لبعض المسلمين سيظل العصر الإسلامى الأول صورة وحيدة لما يجب أن يكون عليه العالم^(٩٥)."

وحتى الدين فهمه البعض فهمًا ميكيا فيليا. وحاول وباستمرار استخدامه أداة فى لعبة السياسة والصراع السياسى والاجتماعى.

وثمة عبارة قد تثير القشعريرة فى أبدان البعض أوردها توماس هوبز صاحب "الليفيثان" أو "الوحش" حول هذا الموضوع، أستمح القارئ ليس فقط فى أن أوردها بنصها وإنما فى أن أطلب إليه أن يتذكرها من الآن فصاعداً، وهو يطالع صفحات هذا الكتاب، فربما كانت هذه العبارة قادرة على تفسير الكثير من المواقف التى قد

تبدو . فى إطار حسن النية . غير مبررة وغير منطقية. يقول توماس هوبز: "الدين هو مجرد مانعة للصواعق الاجتماعية.. والكنيسة قوة أخرى من قوات الأمن التى تستخدمها الدولة لحفظ الاستقرار الاجتماعى، لا تختلف عن البوليس والجيش فى طبيعتها، ولكنها أفعل منهما أثرًا وأوسع مدى، وربما أقل تكلفة، إنها تقيم على كل إنسان شرطياً ملازمًا له داخله"(٩٦).

وقد نختلف حول تفسير معطيات هذه العبارة، وقد نرفضها رفضًا قاطعًا، لكنه يتعين علينا أن نستبقها فى ذاكرتنا لتفسير مواقف الكثير من القوى الرجعية تجاه الدين، ومحاولاتها استخدامه واستخدام بعض رجاله ومنظماته كأدوات فى صراعتها الاجتماعى.

وهكذا كان الأمر فى مصر منذ مطلع القرن العشرين.. استمرت المحاولات من جانب الاحتلال البريطانى تارة، والقصر الملكى تارة أخرى، ثم أحزاب الأقليات . عندما نشأت . تارة ثالثة لاستقطاب القوى الدينية واستخدامها أداة "أقل تكلفة" من البوليس فى إحكام قبضتها على الإنسان المؤمن. وإقامة "شرطى ملازم له من داخله" يعمل دومًا على إخضاعه لصالحها فى كل مواقف الصراع السياسى والاجتماعى.

والأزهر قلعة الإسلام المكيمة، ورمزه الشامخ فى العالم أجمع كان لا بد له أن يكون محطًا لمؤامرات هذه القوى وإغراءاتها، وهدفًا لاستقطابه فى خضم هذه الصراعات.

وقد حرص فؤاد منذ أن كان سلطانًا على أن يحكم قبضته على الأزهر. وعندما كانت لجنة الثلاثين تصوغ دستور ١٩٢٣ كانت عين فؤاد مركزة أساسًا على موضوع العلاقة بين الملك وبين أهم مؤسستين فى ذلك الحين وهما: الأزهر والجيش.

وأنت نصوص المشروع الأول للدستور خالية من أى إشارة لسلطات الملك تجاه الأزهر، الأمر الذى يعنى أن لجنة الدستور لم تر منح الملك أى سلطات استثنائية

تجاه الأزهر، بل جعلت الإشراف عليه مثله مثل غيره من المؤسسات التابعة للوزارة المسؤولة أمام البرلمان^(٩٧) لكن مشروع لجنة الثلاثين قد خضع لتعديلات كثيرة، وبعد صراع مرير أسفرت المعركة عن نص يحال إلى قانون يصدر فيما بعد لينظم "الطريقة التي يباشر بها الملك سلطته، فيما يختص بالمعاهد الدينية وتعيين الرؤساء الدينيين، وبالأوقاف التي تديرها وزارة الأوقاف، وعلى العموم المسائل الخاصة بالأديان المسموح بها في البلاد"^(٩٨) "وإذا لم توضع أحكام تشريعية، تستمر مباشرة هذه السلطة طبقاً للقواعد والعادات المعمول بها الآن"^(٩٩)، وهكذا استخلص الملك بهذا النص اعترافاً دستورياً بأن له سلطة خاصة فيما يتعلق بمسائل الأديان، وإقراراً دستورياً ببقاء الوضع على ما هو عليه حتى يصدر قانون جديد ينظم هذه السلطة.

ويعترف الشيخ الظواهري . الذي عينه فؤاد شيخاً للأزهر . بأن الملك فؤاد "كان حريصاً على أن يعرف كل شيء عن الأزهر والمعاهد الدينية، فقد كان جلالته يعتبر هذه الناحية من الأمور الخاصة به يديرها جلالته بدون وساطة أحد من وزرائه"^(١٠٠).

ولقد رأينا في صفحات سابقة كيف حاول فؤاد استخدام الأزهر في مسألة الخلافة، والآن نرى كيف حاول استخدامه أيضاً في مسائل الصراع السياسي، وبالذات في خصومته ضد سعد زغلول الزعيم المحبوب من شعبه والذي كان من المستحيل مقاومة النفوذ الذي يتمتع به بغير استقطاب مؤسسة كالأزهر.

وقد بدأت محاولات السراي باستقطاب عدد من شيوخ الأزهر، ثم في تبني بعض مطالب الأزهريين وإظهار حكومة سعد بمظهر الرفض لها. وتطور الأمر إلى مطالبة بعض شيوخ الأزهر بما أسموه رفع الوساطة بين الملك وشيوخ الأزهر "كما لا وساطة بين جلالة الملك وبين رئيس الوزراء، إذ لا يليق في عهد جلالته الميمون أن يحال بين كبير رجال الدين وبين كبير رجال الدنيا"^(١٠١)، وفي نوفمبر ١٩٢٤ تبرز ظاهر جديدة، مظاهرة من طلاب الأزهر تتوجه لاستقبال الملك فؤاد

لدى عودته من مصيفه بالإسكندرية وهى تهتف "يسقط سعد زغلول" "لا رئيس إلا الملك". وتستمر هذه الظاهرة التى شجعها الملك وبوليسه والشيوخ من أصدقاء السراى.

وتزخر ملفات البوليس السياسى بتقارير وافية عن هذه المحاولات. ولنورد واحدًا منها كنموذج:

محافظة القاهرة.

إدارة الضبط فرع "ب".

الموضوع: تقرير عن حالة الأزهر الشريف يوم ٤ فبراير ١٩٢٧ "ثمرة ٩ سياسى سرى". مطلوب رد.

"حضرة صاحب المعالى كبير الأمناء لحضرة صاحب الجلالة الملك:

أتشرف بإخبار معاليكم أنه كان بالأزهر أمس عدد كبير جدًا لمناسبة صلاة الجمعة فألقيت فيه الخطب الكثيرة طوال النهار وفى الليل أيضًا، وقد كانوا يصيحون بالنداءات الآتية من وقت لآخر "يحيا جلالة الملك . يحيا حسن نشأت باشا . يسقط البرلمان والحكومة وسعد باشا".

وقد كان البوليس مرابطًا على بعد من الجامع الأزهر، ولم تحصل مظاهرات ولم تقع حوادث.

وهذا لمعاليكم للمعلومية.

وتفضلوا معاليكم بقبول فائق الاحترام.

تحريرًا فى ٥ فبراير ١٩٢٧.

حكمدار بوليس مصر. " (١٠٢).

ويعقب د. عبد العظيم رمضان على هذه العلاقة قائلاً: "استمرت علاقة التحالف بين القصر والأزهر طوال عهد الملك فؤاد وحتى نهاية حياته ونظرًا لأن القصر كان على علاقة تحالف أخرى مع الإنجليز، فلم يكن هناك مفر من أن يتأثر الأزهر بهذه العلاقة أيضًا. وحين اتجهت السياسة البريطانية فى ربيع ١٩٣٥

تحت ضغط الحركة الوطنية إلى تقديم بعض الترضيات للجماهير المصرية، فرضت على الملك إخراج الشيخ الظواهري من منصب شيخ الأزهر وتعيين الشيخ مصطفى المراغى مكانه، ولم يجد مفرًا من إجابة الطلب، وكان الشيخ مصطفى المراغى على صلة بالسلطات البريطانية منذ أن كان موظفًا كبيرًا في السودان، وعندما نقل إلى مصر اتصل باللورد جورج لويد المندوب السامى البريطانى، وأصبح على علاقة وطيدة معه، إلى حد أنه لم يكن يمضى أسبوع دون أن يكون الشيخ مدعوًا أو زائرًا في دار المندوب السامى، كما حكى محمد شفيق رئيس القسم العربى بدار المندوب السامى^(١٠٣).

وهكذا امتد التدخل فى شئون الأزهر وفى أمور الدين، من الملك العاجز، إلى أحزاب الأقليات الفاشلة، إلى الإنجليز المحتلين.

فقط.. لنتذكر الأسطر السابقة ونحن نتابع فى صفحات قادمة علاقات الشيخ حسن البنا بالقصر، وبالشىخ المراغى، ونتابع مواقفه المتشددة تجاه الوفد والمتساهلة بل والصديقة تجاه أحزاب الأقلية.

هل تتكرر اللعبة القديمة؟

لسنا نريد إجابة سريعة، فلننتظر تسلسل الأحداث، ولنترك للاستقصاء العلمى وليس للعاطفة الحكم والقرار.

ولقد تكلمنا فى الصفحات السابقة عن أهم محاور الصراع الفكرى والمجتمعى التى ماجت بها مصر وهى:

. الصراع بين العلم وحركة التنوير عامة وبين القوى المحافظة.

. الصراع بين الوطنية المصرية وبين دعاة الخلافة الإسلامية.

. التبشير.. والتبشير المضاد.

. التناقض بين دعاة الحضارة الغربية والمتوسطة وبين رافضيها.

. الصدام بين "التجديد" و"التقليد".

. دور الدين ومؤسساته فى لعبة السياسة.

من هذه الصراعات والتناقضات وفى خضمها نبتت شخصية حسن البنا وتفاعلت واتخذت مواقفها.. ولهذا فإنه بغير بحث مدقق عن هذه الصراعات يوشك الحديث عن حسن البنا أن يكون مسطحاً وبغير عمق، وأن يكون مجرد سرد لسيرة معزولة عن أحداث مجتمعا.

ويحتاج البحث المدقق مزيداً من إلقاء الضوء على هذه القضايا حتى نستطيع أن نتفهم الوعاء الذى نبتت جماعة الإخوان منه وفيه.

وإذا تأملنا حالة "التغريب" أو تقليد الغربيين فإننا نجد حالة من الاشتباك الحاد تتدد بشدة بهذا المسلك ويختلط عبر هذا الاشتباك . الذى يبدو انفعالياً . الموقف الدينى بالأخلاقى الشرقى بالتقليدى المستند إلى أسلوب الحياة القديمة، لكن الزمان يتغير والبعض لا يتغير. المدينة امتلأت بالأجانب من كل صنف ومن كل الطبقات، وانتشرت دور اللهو وباعة الملذات، وتغيرت أساليب الحياة. ويواكب ذلك نشوء فئات ريفية ذات ثراء ملحوظ بسبب زيادة ريع الأرض الزراعية بتنظيم شبكة الرى والصرف، وبسبب زيادة الملكيات الزراعية المملوكة للمصريين نتيجة لإصرار المعتمد البريطانى على إضعاف سطوة الخديو المنأوى له . وإن بحدود . عباس حلمى الثانى، وذلك عبر بيع أراضى الدائرة السنية لسداد ما عليه من ديون.

وكثيراً ما كان هؤلاء الأثرياء الجدد ينغمسون بلا حساب فى حياة الصخب الجديدة يبددون فيها كثيراً من ثرواتهم.. ولعل خير وصف لهؤلاء وأبنائهم يسجله لنا بأسلوب أدبى متمتع إبراهيم المويلحى فى كتابه الذى تبدى احتجاجاً اجتماعياً ساخراً من هؤلاء الذين انغمسوا فى ملذات المدنية التى تحولت سريعاً إلى مدنية كوزموبوليتية^(١٠٤).

لكن البعض خاض المعركة كمعركة ضد الغرب وضد تقاليده وأخلاقياته وتحول بها إلى معركة يقاوم بها أساليب الحياة العصرية ككل معتبراً أن كل خروج على التقاليد وأساليب الحياة القديمة . حتى لو كان ملتزماً بصحيح المواقف . هو خروج على الدين والعرف وانحياز للأعداء.

ويصيح أحد هؤلاء: "تجراً الرقعاء والخلعاء على ما لم يكونوا يتجرأون على الجهر به من قبل مطمئنين إلى بلادة الرأي العام الذى تعود أن يغض الطرف عما يجرى من حوله وألا يكثر به" (١٠٥).

ويقول: "وقد تهافت الأغنياء على تقليد الأوروبيين فى عاداتهم وسلوكهم، وأصبح المترفون من الأغنياء يتهافتون على ما تخرج المصانع الأوروبية من وسائل الترف حتى عدت توافه الكماليات من ألزم الضروريات، وأصبح قصارى ما يبلغه أحدهم من التمدن أن يتقن تقليد الأوروبيين فى استعمال أدوات المائدة، أو يحسن استقبال النساء والتودد إليهن والتلطف فى معاملتهن، وأن يدير لسانه بألوان الرطانات، ثم يرسل أبناءه وبناته إلى المعاهد الأجنبية إتماماً لما يريد أن يسبغ على نفسه وعلى بيته من جو أوروبى خالص يظن أنه هو المقياس الحق للمدنية الصحيحة والتقدم" (١٠٦).

ويبدو أن د. محمد محمد حسين . صاحب العبارات السابقة . كان شديد التمسك بالقديم ورافضاً لكل سمة أو حتى همسة جديدة. فهو يهاجم مقالاً يدعو لإصلاح السجون ويطالب بأن تكون مدارس لتعليم السجناء. يهاجمه لماذا؟ لأنه مجرد تقليد لدعوات الإنجليز لإصلاح سجونهم. وهكذا فإنه يرفض حتى المطالب الخيرة والدعوات الصحيحة الاتجاه إذا كانت تنقل عن الغرب.

ثم هو يشن هجوماً عنيفاً على احتفاء الشيخ عبد العزيز البشرى برأس السنة الميلادية وهو احتفاء اتخذ مظهرًا بريئاً للغاية، فقد تجسد فى كتابه مقال بعنوان "مضى عام" (١٠٧) فإذا بالدكتور محمد حسين يدين الشيخ والصحيفة ويطالب بالاحتفال والاحتفاء فقط برأس السنة الهجرية أو بذكرى المولد النبوى.

ويمضى فى ذات الاتجاه الشكلى . والذى يتجه فقط نحو القشور . مصطفى لطفى المنفلوطى، فيكتب تحت عنوان "المرقص": "رأيت الدنانير ذائبة فى الكؤوس، والعقول جامدة فى الرؤوس، والحبائل منصوبة لاستلاب الجيوب، والسهام مسددة لاصطياد القلوب، ورأيت مَنْ كنت أحسبه أوفر الناس عقلاً وأذكاهم

قلبًا، مَنْ كنت أراه فأقف بين يديه إجلالًا وإكبارًا واقعًا فى حبائل بغى تقيمه وتقعده، وتطويه وتنشره، وتعبث به عبث الطفلة بلعبتها، وهو فى غير هذا المكان قيصر الرومان عزة وفخرًا، وكسرى فارس أنفة واستكبارًا" (١٠٨).

والكتابات المماثلة.. نثرًا وشعرًا بغير حصر، لكننى أعتقد أنها مضت بلا أثر أو تأثير فقد اكتفت بالحديث المظهري عن المظاهر والتصرفات، ولم تجد سبيلًا لبحث الأوضاع الاجتماعية والمجتمعية وكيفية التعامل معها تعاملًا متوازنًا وصحيًا فى آن.

لكن هذا لا يعنى أن هذه المعركة كانت دومًا بمثل هذا التسطيح أو تواضع المستوى، فثمة معارك جادة، وذات مستوى فكرى رفيع من الجانبين دارت على مدى ثلاثة عقود من القرن العشرين.

ونحاول سريعًا أن نستعرض بعضًا من تراثها. ونقرأ لعبد القادر أفندى حمزة دعوات حارة لتحرير العقل من قيد الجمود والتقليد "أن علينا أن نخرج أنفسنا من العصر الذى نستسلم فيه لماضينا إذا كنا لا نريد أن نظل جهلاء وضعفاء كما هو الحال الآن، وكما كنا سالفًا"، ويؤكد أن القرآن الكريم "لم يأت إلا بقوانين عامة لجميع الناس، وأن لكل أمة حق التصرف انطلاقًا من الحكمة المتضمنة فى هذه القوانين، وأن تختار ما يتماشى مع الزمان والمكان دون أن تقيد العقل بأى قيد سوى البقاء فى حدود الإيمان"، ويشن حمزة هجومًا عنيفًا على رجال الدين "الذين حولوا الدين إلى تجارة فلم يعد يهمهم إلا أن تردد أفواههم هذه التجارة صباح مساء، ويتخذونها وسيلة للتغريب، واحتيالًا لكسب رضاء العامة وشيوع ذكرهم بينها غير ملتفتين إلى الخطر العظيم الذى يدفعون إليه الأمة ودينها"، ويواصل حمزة هجومه على كل مَنْ يحاول إقحام الدين فى شئون الحياة "تزلفًا إلى العامة من الناس الذين استولى عليهم هوس دينى يدل على مدى تسلط رجال الدين على عقولنا، بل يدل على استسلامنا استسلامًا أعمى إلى ماضينا الذى يجب أن نبعد عنه كل الابتعاد إذا كنا نريد أن لا نبقى كما نحن، وكما كنا جهلاء، وضعفاء". ويصف المتشددین

من رجال الدين بأنهم "أجهل الناس بالإسلام، يتاجرون باسمه ويتخذونه مطية للتغريب والتضليل" مستعيذاً أمثلة عديدة من تاريخ الحضارة الإسلامية "وقف فيها رجال الدين الجهلة فى وجه العلم والعلماء واتهموهم بالخروج عن الدين" (١٠٩).

وهناك أيضاً منصور فهمى الذى كان عضواً فى أول بعثة علمية أوفدتها الجامعة الأهلية إلى أوروبا بعد تخرجه فى كلية الحقوق، وقد أعد رسالة دكتوراه فى باريس موضوعها "أسباب تدهور أوضاع المرأة فى المجتمعات العربية والإسلامية" وكان مجرد اختيار هذا الموضوع مثاراً لموجة سخط عارمة وسط ممثلى الطرف الآخر فى الصراع الدائم، الأمر الذى دفع الجامعة إلى إرسال برقية إليه فى باريس طالبة تأجيل مناقشة الرسالة، لكنه رفض التأجيل وسأله أساتذته الفرنسيون، ونال فهمى درجة الدكتوراه، ونال معها وعلى الفور قرار فصل من عمله كمدرس بالجامعة. وعاد ليواصل معركته فى صفوف الحزب الديمقراطى الذى كان ليبرالياً أكثر من غيره وحتى أكثر من حزب الوفد" (١١٠).

أما قاسم أمين فإننا نكتشف بقليل من البحث والدراسة أن معركته لتحرير المرأة لم تكن سوى جزء من معركة أشمل ونقرأ له: "يجب أن نلتفت إلى التمدن الإسلامى القديم، ونرجع إليه لا لننسخ منه صورة، ونحتذى مثال ما كان فيه سواء بسواء، بل لكى نزن ذلك التمدن بميزان العقل، ونتدبر فى أسباب ارتقاء الأمة الإسلامية وأسباب انحطاطها، ونستخلص من ذلك أننا مهما دققنا البحث فى التاريخ الإسلامى لا نجد عند أهل تلك العصور ما يستحق أن يسمى نظاماً، فإن شكل حكومتهم كان عبارة عن خليفة أو سلطان غير مقيد، يحكم موظفين غير مقيدين، وربما يقال إن هذا الخليفة كان يولى بعد أن يبايعه أفراد الأمة، وإن هذا يدل على أن سلطة الخليفة مستمدة من الشعب الذى هو صاحب الأمر. ونحن لا ننكر هذا، ولكن هذه السلطة التى لا يتمتع بها الشعب إلا بضع دقائق، هى سلطة لفظية، أما فى الحقيقة فالخليفة وحده هو صاحب الأمر والنهى" ويقول: "إن من أسباب نكبتنا أننا نسند حياتنا على التقاليد التى لم نعد نفهمها، والتى نحافظ عليها

فقط لأنها أتت إلينا من الماضي".

ويقول إنه يتعين مقاومة الحجاب الداخلى عند الرجل، قبل أن نقاوم الحجاب الخارجى عند المرأة "فهمزة الوصل بين الحجابين هى عبوديتهما معًا لسلطة الدولة، والقيم الموروثة المتراكمة عبر أجيال من القهر الاجتماعى والطغيان السياسى". أما مواقفه من الحضارة الغربية فهو واضح بقدر ما هو متوازن "أن مصر تتحول إلى بلد أوروبى بطريقة مدهشة، وقد أخذت إدارتها وأبنيتها وشوارعها وعاداتها وذوقها وغذاؤها وثيابها تتسم بطابع أوروبى، إنها تهتم بكل ما تكتبه أوروبا أو تفعله وتجذ كل الأفكار التى تحرك حماس أوروبا مداها هنا" ومع ذلك يقول "إن أمام مصر عقبة رهيبة هى أوروبا، فهى العقبة الكبرى التى يتعين علينا أن نحاربها من أجل استعادة مكاننا فى العالم"^(١١١).

وهناك أيضًا الشيخ طنطاوى جوهرى الذى أكد أن البحث العلمى والعقلى "فريضة واجبة، وأن العقل منحة إلهية لا بد من استخدامها وأن الأخذ بنظرية أصل الأنواع، وآراء داروين عن التطور لا يتنافى مع تعاليم الإسلام، بل يتعين على المسلمين تعلم التشريح والتطبيقات والكيمياء والعلوم العصرية الأخرى، ودراسة الحيوانات والنبات والإنسان التى هى أسمى مظهر لعبادة الله، وهى أشرف عطاء، وأشرف من صلاة زائدة وإحسان إلى مسكين"^(١١٢).

أما طه حين فقد خاض معركته على جبهات متعددة، وخاضها حتى ضد القادة التقليديين من سياسيين ورجال دين كى ترتفع رايات العلم الحديث على أيدي قيادات من العلماء الذين يمكنهم أن "يلائموا بين مستحدثات العلم على اختلافها وبين حاجات الناس وطاقتهم واستعدادهم للتطور، وهم يمكنون للحكم الصالح المنتج الذى يحقق العدل ويكفل رقى الشعب ويتيح للإنسانية أن تتقدم إلى الأمام بما يتطلب إشراف الدولة المدنية على التعليم، أى عزله عن نفوذ رجال الدين ونفوذ الأجانب". ويطالب بالحرية الكاملة والمطلقة للتعليم الجامعى حفاظًا على حرية البحث العلمى والأكاديمى، ويطالب الأزهريين بتدريس الدين الصحيح "كدين للحرية والتقدم، وأن يلحق الطالب

الأزهرى المعنى الصحيح للوطنية الإقليمية وليس ما يقال إنه الرابطة القومية الدينية" وأشهر سيف الشك الديكارتى فى كل المقولات "يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربى وتاريخه، أن ننسى عواطفنا القومية وكل شخصياتها وأن ننسى عواطفنا الدينية وما يتصل بها، وأن ننسى ما يقال عن هذه العواطف القومية والدينية وألا نقبل شيئاً مما قاله القدماء فى الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبت" (١١٣).

وإسماعيل مظهر يكتب عن "النمط العلمى فى التفكير" قائلاً: "إن اهتمام المفكرين العرب والمسلمين بالموضوعات المثالية المجردة بدلاً من الاهتمام بقضايا الحياة الواقعية، قد جعل النمط الغيبى لا الموضوعى هو السائد فى تفكيرهم الماضى والحاضر، وإننى أتوقع وعسى أن يكون ذلك قريباً أن الخطوة التى خطوناها فى سبيل الخروج من ظلمات الأسلوب الغيبى إلى وضوح الأسلوب اليقينى سوف تقودنا سعياً إلى ميدان يتصادم فيه الأسلوبان تصادمًا يثير فى جو الفكر عجاجة يتكشف غبارها عن الأسلوب الغيبى وقد تحطمت جوانبه واندكت قوائمه، وتترك الأسلوب اليقينى قائماً بهامة الجبار القوى الأصلاب مشرقاً على الشرق، وقد هب من رقاد القرون ليسير فى الدروب التى سهلت سبله للأنام نواميس النشوء والارتقاء" (١١٤).

ويقول: "جاهد الناس تحت تأثير فكرة الحرية فى سبيل الفصل بين الدين والسياسة متخيلين أن الفصل بينهما فى الاعتبار كاف للفصل بينهما فى الواقع. ولقد هبت حول هذه المسألة عاصفة الجدل، وقامت قيامة الكلام، ولكن هل تخلص الدين من مؤثرات العقل المنحرف تحت وهم القيام بالواجب والشعور بالمسئولية إزاء المعتقد الثابت؟ لم يكن شيئاً من هذا، فإننا لا نزال نرى فى عصرنا الديمقراطى أن الدين تحت تأثير زعمائه قد عبر جسر الذاتية البشرية إلى موضوعات السياسة العملية، فاختلطت منافع الذوات بأوجه المنافع العملية العامة اختلاطاً أفسد الديمقراطية وجعلها أبعد الأشياء عن الحرية الصحيحة، إذ يقيد الناس أنفسهم بقيود من المعتقد تجعل الحرية والسياسة فى حيز العدم" (١١٥).

ورحلة إسماعيل مظهر فى هذه المعركة طويلة وممتدة. نكتفى منها بهذه الإشارات.. داعين طالب المزيد إلى مراجعات عديدة وكأنها بلا ضفاف^(١١٦).

ونأتى إلى معركة أخرى لعلها الأكثر التهاباً، تلك التى اشتعلت بين سلامة موسى ورشيد رضا.

موسى يكتب: "مَنْ يتأمل أحوالنا الآن فى مصر والشرق العربى يجد فئتين تتغالبان الزعامة فى الرأى، إحداها سلفية تقول باتباع السلف الصالح وتنسب إليه الخصال أو تلتزم بالتقاليد الماثورة، والأخرى فئة المجددين الذين يقولون بالتطور حين يعتدلون، أو بالثورة حين يغالون، ومن الغلو أن ينسب السلفيون حميد الخصال إلى السلف دون الخلف، لأن الإنسانية تتدرج فى الرقى، ولو أن السلف كانوا أصلح منا لوجب أن نبقى ملازمين لتلك الحضارة البدائية". ويقول: "يجب أن تكون لنا تقاليد تشبه الوراثة فى صون كيان الأمة، وتجديد يشبه التطور فى العمل للرقى"^(١١٧). ويقول: "إن الحضارة كتلة متماسكة فلا يمكننا أن نأخذ بعضها ونترك البعض الآخر. مثال ذلك أننا لا يمكننا أن ننشر الصناعة بيننا وننتقل من الطور الزراعى إلى الطور الصناعى دون أن نعطى المرأة حريتها، لأن هذه الحرية التى اكتسبتها المرأة فى أوروبا هى ثمرة النظام الصناعى الذى يعيش فيه الأوروبيون"^(١١٨).

وينهض الشيخ رشيد رضا ليهاجم سلامة موسى هجوماً شديداً على صفحات "المنار" مذكراً إياه بأنه مجرد مسيحي، ويتهمة بأنه أيضاً كافر وملحد. ويرد سلامة موسى: "يعيش الشيخ رشيد رضا يسب المجددين المصريين ويتهمهم بالكفر، وهو يتمرغ الآن فى الضياع والعقارات التى جمعها بالنصرة الدينية، وقد يتساءل الإنسان هل هذه غيرة للدين أم غيرة للعيش؟!". ويهاجم أيضاً الشيخ محيى الدين الخطيب قائلاً: "إنه شاب ليس فيه خبث الشيخ رشيد وللشباب سذاجته، ولكنه يسير فى خطة عوجاء لا بد أنها ستنتهى به إلى أشر مما انتهى إليه الشيخ رشيد. وهو يصدر مجلتين يستخدمهما فى الطعن فى كل من طه حسين وعلى عبد الرازق

وأمثالهما من شباب مصر الراقى، ويدأب فى ذلك أسبوعياً حتى ليظن القارئ له أنه ينوى بهما شراً عظيماً، أو يريد منا أن نطردهما من وطنهما مصر" (١١٩).

ويقول فى رشيد رضا: "هذا الرجل رغم أنه موظف فى الحكومة المصرية الآن ليس فى دمه قطرة من الدم المصرى، وهو أخصائى فى السب والشتم يميناً ويساراً بلا حساب، وبسلطة يحسبها بلاغة، يقول عن العقاد إنه "مراحيضى" وعن طه حسين إنه "جاهل"، وله غارات على شخص المحرر لهذه المجلة فهو فى نظره كافر وشيوعى ونصرانى مدسوس على الإسلام وإباحى.. إلخ.. أما عن الكفر فأنا أدلهم على إيمانى فهو إيمان الدكتور هيكمل ومحمود عزمى وعزيز ميرهم، بل إنه إيمان معظم الشباب المصريين الذين درسوا شيئاً من العلوم العصرية، ولا يمكن أن يسمى أى منهم كافراً، إذ لكل منهم صوفيته الدينية أو الفلسفية أو الأدبية. وأما أنى نصرانى مدسوس على الإسلام فالرد عليه سهل، وهو أن الإسلام دين بلادى وواجبى أن أدافع عنه أمام الأجنبى، وهذا ما فعلته فى كل الظروف، ففى عام ١٩٢٠ كتب السير هاردى جونستون مقالاً فى مجلة "نيو ستيتسمان" ينعى فيه على الإسلام ويطالب بإلغاء الأزهر فرددت عليه ردّاً مفحماً قلت فيه: إنى مع أنى قبضى أعيش بين مسلمين لا أجد أن الإسلام يؤذى غيره، بل هو يعمل للتسامح والرخاء. وفى العام الماضى اقترحت الاحتفال بمرور ألف عام على تأسيس الأزهر باعتباره أقدم جامعة فى العالم. وليس فى ذلك غرابة لأن الفخر بهذه الجامعة يعود على المصريين جميعاً، فهو لا يخدم الإسلام فحسب، بل هو جامعة مصرية تخدم الثقافة، ونهمس إليه وأمثاله بأن الجمهور فى مصر قد ارتقى وأن الطن فى آذانه بأن هذا أو ذاك من الكتاب كافر أو عدو للإسلام أو إباحى إنما يعده الجمهور هذراً سخيفاً" (١٢٠).

لكن الشيخ رشيد رضا لا يسكت، ويصدر ضد سلامة موسى كتاباً مليئاً بالشتائم والاتهامات.. وكان بلا توقيع ويرد سلامة موسى: "سألت عن كاتبه فى إدارة المطبوعات فعرفت أنه ابن أخ رشيد رضا الصحفى المعروف الذى وفد على بلادنا كما تفد الطواعين (لم يكن رشيد رضا مصرياً) وخص نفسه بشتم الشبان

المصريين واتهمهم بالإلحاد والشيوعية"، ويورد موسى نماذج من الشتائم التي تكاثرت في أسطر الكتاب ويقول: "وهكذا بحيث تحتاج إلى أن تغسل يديك عقب قراءة هذا الكتاب" (١٢١).

ولسنا بحاجة إلى أن نذكر القارئ بمعارك ضارية اشتهرت في تاريخ مصر الحديثة ولعل أكثرها شهرة معركة كتاب "فى الشعر الجاهلى" لطف حسين وكتاب "الإسلام وأصول الحكم" للشيخ على عبد الرازق.

ولأنها معارك شهيرة يمكن للقارئ الرجوع إليها بسهولة فإننا نتركها لبحث مَنْ هو راغب فى المزيد.

وكانت ثورة ١٩١٩ علامة فارقة فى هذا المسار. فقد أفسحت الثورة مساحة كبيرة للأقباط، الذين لعبوا دوراً بارزاً فيها، وفى قيادة حزب الوفد، ومن ثم فى قيادة الثورة.

ونقرأ "منذ عام ١٩٢٠ تقريباً كان الشكل الغالب للتعبير عن الولاءات السياسية والآراء والمطامح والمصالح غرضى الطابع وقام كثير من الأحزاب السياسية العلمانية التى نشرت برامجها وكسبت على أساسها المؤيدين" (١٢٢).

لقد امتزجت الثورة بمزيج ليبرالى وعلمانى وشعبى طاغ، وتحول شعار الوحدة الوطنية فى مواجهة الاحتلال الذى حاول عبثاً أن يلعب بورقة حماية الأقباط إلى شعار أساسى أحكم ترسخه فى عقول وقلوب المصريين الذين ردّدوا جميعاً . وباستثناءات قليلة جداً . شعار الثورة "الدين لله والوطن للجميع" ويقول الباحث السيد يوسف "أسفرت فترة الحرب عن إقصاء شبه عام للإسلام السياسى وحلول الوفد ذى النزعة العلمانية فى قيادة الحركة الوطنية، متميزاً بذلك عن الحزب الوطنى الذى كان يقودها فى مطلع القرن وكان لفكر بعض قادته طابع إسلامى" (١٢٣) مثل الشيخ عبد العزيز جاويش، الذى كان يرفض وبشدة شعار "مصر للمصريين متمسكاً بالولاء للخلافة العثمانية بزعم أن إضاعة هذه الخلافة إضاعة للذات" (١٢٤).

ويقول المستشار عدلى حسين: "إن الوفد والطبقة السياسية التى تداولت الحكم بعد دستور ١٩٢٣ لم تستوعب الإسلام فى حركتها، وهذا ينطبق على الوفد بشكل خاص فى العشرينيات، "تحت قيادة سعد زغلول" سواء كان ذلك لأسباب فكرية "دنيوية" أم لأسباب برجماتية (وحدة المسلمين والأقباط) ويقول مندداً "إن الوفد على اتساعه لم يضم شخصية إسلامية واحدة بارزة، وانعكس ذلك فى ظهور منابر إسلامية داخل الحركة السياسية بدءاً من أواخر العشرينيات. أى ظهر إلى العلن الانقسام الذى كان كامناً بين العلمانية وبين التيار الإسلامى" (١٢٥).

ويمضى عدلى حسين: "نشأت جماعة الإخوان فى مواجهة صريحة مع دنيوية ثورة ١٩١٩، ويبدو أن الإخوان تصوروا أن الدور المتوقع يتطلب استعداداً لاستخدام العنف من أجل تحقيق المجتمع الإسلامى، وبالتالي تضمن نشاطهم اهتماماً بالتربية العسكرية لشبابهم، وبالتدريب على استخدام السلاح وبإنشاء تنظيمات لهذا الغرض خلف واجهة النشاط العلنى المشروع" (١٢٦)، ثم يقول: "إذا كان الهدف الخاص للإخوان المسلمين من استخدام هذا الأسلوب هو تحقيق المجتمع الإسلامى فإن الاختيار يكون داخل المشروعية الإسلامية وليس داخل المشروعية السياسية فقط"، ثم يتساءل "ولكن ما جدوى الاطمئنان إلى شرعية الوسيلة إذا كان الهدف أى المجتمع الإسلامى موضع خلاف شديد؟ فهل يكفى أن يطمئن العلمانيون إلى أن مجتمعهم سيدبح بالطريقة الشرعية؟" (١٢٧).

ثم يقدم السيد يوسف أسباباً أخرى: "وكان وجود الاحتلال وجيوشه وشركاته كافياً فى حد ذاته لدى المصريين لإثارة مشاعرهم الوطنية والدينية، لكن النزعة الوطنية لم تكن مقبولة من التيار السلفى ورأينا كيف رفضها الشيخ جوايش رافضاً شعار مصر للمصريين ومؤكداً لا وطنية فى الإسلام" ويؤكد يوسف "لقد رفض التيار السلفى فكرة الفرعونية وفكرة العروبة، بل ورفض الفكر القومى عامة ووضعه فى تعارض مع الإسلام" (١٢٨).

وثمة إضافة أخرى؛ فعلى أثر هزيمة تركيا واختفاء الخلافة وصعود نجم

الليبرالية "خفت صوت الأحزاب الإسلامية بعد أن انهزمت دولة الخلافة، وبرز دعاة الحضارة الغربية من المتفرنجين يدعون بدعوتهم التي صادفت رواجًا عند كثير من الناس خاصة شبابهم الذي عام في جو الثورة التي تغرى بالتمرد على كل قديم، والاستخفاف بكل تالد وموروث، والذي استهواه بريق المظاهر التافهة الخلابة في الحضارة الأوروبية التي تناسب شبابه وترضى نزواته".

ويمضى السيد يوسف: "قامت فرنسا في المغرب العربى بهجمة استفزت مشاعر المسلمين، كما قامت إيطاليا بإعدام عمر المختار فى ليبيا، وتفجرت قضية فلسطين فبعثت الحمية الدينية والقومية، وتلفت المصريون إلى روابطهم الوثيقة إسلاميًا وعربيًا"، ثم يقول: "أما الأوساط السلفية والمحافظة فقد انتابها الذعر والشعور الفادح بالخطر على جوهر معتقداتها بعد أن فقدت بإلغاء الخلافة الإطار السياسى لكيانها فانطلقت فى دفاع خائف عن ذاتها فى هجوم عنيف توزع الاتهامات وتنزع عن كثير من الكتاب والمفكرين هويتهم الإسلامية"^(١٢٩).

وبدأت بوادر الهجوم السلفى المنظم فى تأسيس جمعيات إسلامية.

الجمعية الشرعية وقد أسسها الشيخ محمود خطاب عام ١٩١٢.

جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية "وكان حسن البنا عضوا فيها وهو طالب".

جمعية الشبان المسلمين وقد تأسست فى ديسمبر ١٩٢٧ برئاسة د. عبد الحميد

سعيد، وقد أرسل حسن البنا رسالة من الإسماعيلية معلناً انضمامه لها.

وبعدها بعدة أشهر أسس حسن البنا الإخوان المسلمين (١٩٢٨) "وبينما كانت

جمعية الإخوان تنتشر وتزداد عضويتها، كانت الجمعيات الإسلامية الأخرى تتحول بالتدريج إلى أندية رياضية"^(١٣٠).

وبرغم أن العديد من مؤسسى جمعية الشبان المسلمين كانوا من السياسيين

أمثال د. عبد الحميد سعيد والشيخ عبد العزيز جاويز والدكتور يحيى الدرديرى إلا

أن نشاط الجمعية قد انحصر كليًا فى المجال الاجتماعى والرياضى ولم يمارسوا أى فعل سياسى.

أما الجمعية الشرعية فقد أصدرت منشورًا عامًا كى يسير دعائها على ضوئه.. ونقرأ فيه: "إياك.. إياك.. أن يخطر ببالك أن تتكلم فى موضوع سياسى. فإن ذلك ليس من شأنك وحسبنا فى ذلك حكومتنا السنوية حفظها الله وقواها، ومعلوم أن الدين دين الله، والهداية لدينه بيده لا يملكها سواه" (١٣١).

وعلى أى حال فإن الجميع ممن اشتغلوا بالسياسة "الإخوان المسلمون" أو ممن لم يشتغلوا بها مثل هذه الجمعيات وغيرها، أو كانوا أفرادًا ذوى صوت مسموع "رشيد رضا . محب الدين الخطيب . مصطفى صادق الرافعى.. إلخ" قد تكاتفوا فى شن حملة ضارية على دعاة الليبرالية والتجديد، وهى حملة تسترت أحيانًا بالدفاع عن الإسلام فى وجه العلمانية والليبرالية والتغريب، وتسترت فى أحيان أخرى بمواجهة عمليات التبشير.

والحقيقة أن قصة التبشير هذه قد استخدمت استخدامًا مبالغًا فيه، وبهدف تأجيج المشاعر الإسلامية ضد النصارى الذين يحاولون تنصير المسلمين. وقد قمت بالبحث طويلاً فى صحف هذه الفترة وخاصة مرحلة بداية الثلاثينيات حيث التهب هذه القضية فلم أجد إشارة واحدة لحالة واحدة لتحول مسلم إلى المسيحية، وإن كانت هناك إشارات مبهمة حول حوادث اختفاء عدد من الشبان وإيماءات وإيحاءات باحتمال وجود سبب لذلك عبر عملية تغيير للدين لكنها حالات محدودة جدًا.

وإن كانت هناك دلائل قوية حول عمليات نشطة لتحويل عديد من الأرثوذكس إلى الكاثوليكية أو البروتستنتية. وفى أماكن عديدة وخاصة فى مدن الصعيد المزدهمة بفقراء من الأرثوذكس انتشرت مدارس "الفرير . الفرنسيسكان . السكركير . الجزويت ومدارس الإرساليات الأمريكية البروتستانتية وغيرها" وعبادات ومستوصفات ومستشفيات استقطبت بخدماتها المجانية عديداً من المتعاملين معها. ومن هنا يمكن القول إن أكثر عمليات التبشير كانت اختراقاً كاثوليكياً أو بروتستنتياً للكنيسة الأرثوذكسية.

وقد نفخت الجيوب الصهيونية التي تواجدت داخل الجالية اليهودية في هذه النيران بهدف إشعال الفتنة.

فشنت صحيفة "إسرائيل" التي أنشأها ألبرت موصيرى عام ١٩٢٠ كجريدة صهيونية صرفة حملات غوغائية استهدفت تأجيج فتنة طائفية. وتوالت على صفحاتها مقالات بعنوان "كيف حاولوا تنصيرى؟" (١٣٢) ثم بدأت في تقديم معلومات لا نعرف مدى صحتها عن محاولات لتنصير طلبة يهود كانوا تلاميذ في مدارس كاثوليكية (١٣٣).

ثم بدأت حملة جديدة حول محاولات لتنصير شبان من المسلمين وبدأت حملات تهاجم الديانة المسيحية (١٣٤).

ويبدو أن حركة التبشير قد استغلت حالة الأزمة الاقتصادية التي تفاقمت في مطلع الثلاثينيات، كما يبدو أنها قد جرى استغلالها من أجل تحويل أنظار المصريين عن الأوضاع الاقتصادية والسياسية المتردية، كما جرى استغلالها من جانب العناصر السلفية لاستجلاب حالة من الضغط على القوى الداعية للتحرر الفكري والعقلي.

ويقول د. محمد جابر الأنصارى: "إن حركة المبشرين قد اشتدت أثناء الأزمة المالية والسياسية فحولت إليها كثيرًا من سخط الناس، فوق ما أثارته من غيره الناقمين على الاستعمار" (١٣٥).

ونطالع بعضًا من محاولات استغلال هذا الأمر.. "اجتاحت العالم الإسلامي موجة من الذعر، ومن الإحساس بالخطر دعت به إلى التماسك، وإلى الاستجابة لنداء الداعين إلى الجامعة الإسلامية، وذلك على أثر اشتداد حملة التنصير في ربوعه" (١٣٦).

وكما هو متوقع سارعت جماعة الإخوان لاستغلال هذا الأمر فرفعت رسالة إلى الملك فؤاد تقول فيها: "إلى سدة صاحب الجلالة الملكية حامى حمى الدين ونصير الإسلام والمسلمين عليك مصر المفدى يتقدم أعضاء مجلس الشورى العام للإخوان

المسلمين المجتمعون بمدينة الإسماعيلية بتاريخ ٢٢ صفر ١٣٥٢ هـ والممثلون
لخمسة عشر فرعاً من فروع جمعية الإخوان المسلمين برفع أصدق آيات الولاء
والإخلاص لجلالة الملك المفدى وسمو ولى العهد المحبوب، ويلجأون إلى
جلالتكم راجين حماية شعبكم المخلص الأمين من عدوان المبشرين الصارخ على
عقائده وأبنائه بتكفيرهم وتشريدهم، وإخفائهم وتزويجهم من غير أبناء دينهم. إن
مصر زعيمة الشرق ورعية الملك المسلم العادل لا تقبل أن تكون يوماً من الأيام
مباءة تبشير أو موطن تكفير تستمد ذلك من غيرة مليكها وقوة إيمانها^(١٣٧).

ويكشف المؤرخ المعتمد لجماعة الإخوان . محمود عبد الحليم . عن كيفية
استغلال الإخوان لحركة التبشير فيقول بصراحة مثيرة للدهشة: "ولولا حركة التبشير
ما استطاع حسن البنا أن يجمع على العمل الإسلامى هؤلاء الرجال الذين لم يكن
تجمعهم جامعة ولا تربطهم رابطة وجزى الله الشدائد كل خير، وكان من ثمرات
ذلك إنشاء جمعية تسمى جمعية الشبان المسلمين وأسندت رياستها إلى رجل مسلم
غير هو الدكتور عبد الحميد سعيد، وكان الطالب حسن البنا من أوائل من اشترك
فى عضويتها"^(١٣٨).

ونلاحظ هنا أن المؤرخ المعتمد لجماعة الإخوان قد أخطأ بقوله إن حسن البنا
كان طالباً وقت تأسيس الشبان المسلمين، فقد تأسست الجمعية فى نهاية نوفمبر
١٩٢٧، وكان البنا وقتها مدرساً بالإسماعيلية وأرسل من هناك طالبا الانضمام
إليها.

لكن الذى لا شك فيه أن عود جماعة الإخوان قد اشتد مستنداً إلى ادعائه
حماية الإسلام من محاولات تكفير أبنائه. ونطالع بعضاً من كتابات حادة للأستاذ
حسن البنا "كنت متألماً لهذا أشد الألم، فما أنذا أرى أن الأمة المصرية العزيزة
تتأرجح حياتها الاجتماعية بين إسلامها الغالى العزيز، الذى ورثته وحمته وألفت
وعاشت به واعتز بها أربعة عشر قرناً كاملة، وبين هذا الغزو الغربى العنيف
المسلح المجهز بكل الأسلحة الماضية الفتاكة من المال والجاه والمظهر والمتعة

والقوة ووسائل الدعاية. وكان ينفس عن نفسه بعض الشيء الإفضاء بهذا الشعور إلى كثير من الأصدقاء من زملائنا الطلاب بدار العلوم والأزهر والمعاهد الأخرى" (١٣٩).

ويقول فى كتابه أخرى: "إن الأمة مصابة من ناحيتها الفكرية بالفوضى والمروق والإلحاد مما يهدم عقائدها ويحطم المثل العليا فى نفوس أبنائها، وفى ناحيتها الاجتماعية بالإباحية فى عاداتها وأخلاقها والتملل من الفضائل الإنسانية التى ورثتها عن الغر الميامين من أسلافها". وبالتقليد الغربى يسرى فى مناحى حياتها سريان لعب الأفاعى فيسمم دماءها ويعكر صفو صفائها، وبالقوانين الوضعية التى لا تزجر مجرمًا ولا تؤدب معتدًا ولا ترد ظالمًا، ولا تغنى يومًا من الأيام غناء القوانين السماوية، وبفوضى فى سياسة التعليم والتربية تحول دون التوجيه الصحيح لنشئها ورجال مستقبلها، وفى ناحيتها النفسية بياس قاتل وخمول مميت، وجبن فاضح وذلة حقيرة وخنوثة فاشية، وشح وأنانية تكف الأيدى عن البذل وتقف حجابًا دون التضحية، وتخرج الأمة من صفوف المجاهدين إلى اللاهين اللاعبين" (١٤٠).

ويكتب أيضا: "أيها الإخوان المسلمون، بل يا أيها الناس جميعًا من الحق أن نعترف بأن موجة قوية جارفة، وتيارًا شديدًا دفاقًا قد طغى على العقول والأفكار فى غفلة من الزمن، وفى غرور من أطم الإسلام وانغماس منهم فى الترف والنعيم فقامت مبادئ ودعوات وظهرت نظم وفلسفات، وتأسست حضارات ومدنيات، وناقست هذه كلها فكرة الإسلام فى نفوس أبنائها وغزت أممه فى عقر دارها، وأحاطت بهم من كل مكان ودخلت عليهم بلداتهم وبيوتهم ومخادعهم. ونشأ فى كل الأمم الإسلامية جيل مخضرم إلى غير الإسلام أقرب، تصدر فى تصريف أمورهما، واحتل مكان الزعامة الفكرية والروحية والسياسية والتنفيذية منها، فدفع بالشعوب مغافلة إلى ما يريد، بل إلى ما ألف، وهى لا تدري ما يراد بها، ولا ما تصير إليه" (١٤١).

ونلاحظ أنه يهاجم بل ويدين رجال السياسة والفكر والدين والتنفيذيين بأنهم إلى غير الإسلام أقرب.

ثم يهاجم الجامعة المصرية التى كانت آنذاك مصدر العلم وإعمال العقل فيقول إنها قامت "بثورة على الدين" ويقول إنها تتسم "بالتوجه العلمانى والاندفاع وراء التفكيرالمادى المنقول عن الغرب بحذافيره" واتهم أساتذتها وطلابها "بالتحلل والانطلاق من كل القيود" ثم يقول: "وظهرت كتب وجرائد ومجلات كل ما فيها ينضح بالدعوة للتححر الذى لا هدف له إلا إضعاف أثر الدين أو القضاء عليه فى نفوس الشعب، لينعم بالحرية الحقيقية فكرياً وعملياً فى زعم الكتاب والمؤلفين، وجهزت صالونات فى كثير من الدور الكبرى الخاصة فى القاهرة يتطارح فيها زوارها مثل هذه الأفكار"^(١٤٢).

ويقول البنا إنه قاوم هذه الموجة منذ وصوله إلى القاهرة للدراسة فى دار العلوم بعد أن شاهد فيها "مظاهر التحلل والبعد عن الأخلاق الإسلامية فى كثير من الأماكن. وعلى أثر ما كان ينشر فى بعض الجرائد من أمور تتنافى مع التعاليم الإسلامية، ومن جهل العامة بأحكام الدين، ووجدت أن المساجد وحدها لا تكفى فى إيصال التعاليم الإسلامية إلى الناس ففكرت فى أن أدعو إلى تكوين فئة من الطلاب الأزهريين وطلاب دار العلوم للتدرب على الوعظ والإرشاد فى المساجد ثم فى المقاهى والمجتمعات العامة، ثم تكون منهم بعد ذلك جماعة تنتشر فى القرى والريف والمدن المهمة لنشر الدعوة الإسلامية، وقرنت القول بالعمل فدعوت لفيقاً من الأصدقاء للمشاركة فى هذا المشروع الجليل، وكنا نجتمع فى مساكن الطلاب أو فى مسجد شيخون بالصليبة"^(١٤٣).

إنها حملة شاملة ضد كل مخالفين من زعماء سياسيين وقادة فكريين ورجال دين ورجال حكم وكتاب وصحفيين.. وحتى الزعامات المهيبة لم تسلم من هجومهم.

فأخذ الإخوان يهاجمون مصطفى كامل ومحمد فريد "لأن حركتهما كانت متجهة إلى كسب الاستقلال (وكان العمل لكسب الاستقلال عيب) وليس إلى العمل على

رد الناس إلى أصول دينهم، ويهاجمون ثورة ١٩١٩ "لأنها جاءت لتعترف في انهزامية فكرية بسياسة الأمر الواقع من حيث النظام السياسى والاستسلام لجحافل الغزو الفكرى والخلقى"^(١٤٤).

ولقد كان الهجوم السلفى عاتياً.. واستند إلى نغمة الدفاع عن الدين المهدد بالغزو الحضارى الغربى وبالتبشير. والغريب فى الأمر أن كل هذه الكتابة لم تذكر حرفاً واحداً عن الاستعمار والاحتلال وهو غربى وغير مسلم. وأمام هذا الهجوم بدأ الكثير من دعاة الليبرالية فى التراجع ومحاولة البحث عن حل وسط. لكننا نتوقف قبل ذلك لتحدث عن عنصر مهم فى هذه المعارك هو "الخلافة".

ولعله من الضرورى لكى نكتشف الحقيقة أن نبدأ من بداية الغزو العثمانى لمصر.

كان سلطان مصر فى هذا الزمان قنصوه الغورى، وكان قد تحمل شأن الكثير ممن حكموا مصر مسئولية رعاية الأماكن المقدسة سواء فى مكة أو المدينة أو القدس، وكان مسئولاً عن صناعة كسوة الكعبة وإرسالها مع المحمل. وأسمى نفسه "خادم الحرمين الشريفين" ولما علم قنصوه بحشود العثمانيين التى تستعد لغزو مصر أرسل إلى السلطان سليم الأول رسالة جاء فيها: "علمنا أنك جمعت عساكر وأنت عازمت على تسييرهم علينا فتعجبت نفسنا غاية التعجب لأن كلنا والحمد لله من سلاطين أهل الإسلام وتحت حكمنا مسلمون موحدون"، فرد السلطان سليم فى كذب سافر: "يعلم الله وكفى به شهيداً أنه لم يخطر ببالنا قط طمع فى أحد سلاطين المسلمين أو فى مملكته، أو رغبة فى إلحاق الضرر به، فالشرع الشريف ينهى عن ذلك".

لكن سليم الأول كان مصمماً على غزو مصر ولم يكن ينقصه إلا فتوى تبيح له غزو بلد مسلم سلطانه "خادم الحرمين الشريفين" ويحتضن الأزهر الشريف،

وأخيرًا وجد قاضى عسكر الأناضول كمال باشا زاده الحل الذى يمكنه من إصدار فتوى بغزو مصر، فقد فتش فى القرآن الكريم حتى وجد الآية "ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون" لكن هذه الآية لا تسمح بشيء مما يفكر فيه السلطان فكان لا بد من اعتساف تفسير يسمح بالفتوى المطلوبة، فالأرض هى مصر، قياسًا على أن الأرض وردت فى آية أخرى مشيرة إلى مصر، أما "عبادى الصالحون" فهم طبعًا العثمانيون فى نظر قاضى عسكر الأناضول.

ثم سارع مفتى الأستانة الذى كان يسمى "مفتى الأنام شيخ الإسلام" ليفتى بجواز غزو مصر "لأن أهلها قطاع طرق، والحرب والقتال ضدهم غزو وجهاد، والمقتول فى هذه الغزوة شهيد ومجاهد"، وفيما تقترب الجيوش العثمانية من حدود مصر أرسل سليم الأول إلى حاكم مصر الجديد طومان باى رسالة يقول فيها: "إن الله قد أوحى إلىَّ بأن أملك الأرض والبلاد من الشرق إلى الغرب كما ملكها الإسكندر ذو القرنين، وأنا خليفة الله فى أرضه، فأنا أولى منك بخدمة الحرمين الشريفين". وقد بدأ السلطان سليم جرائمه فى مصر بشنق طومان باى على باب زويلة. ولم يغفر له المصريون ذلك أبدًا، وظلوا وحتى الآن يقرأون الفاتحة كلما مروا بالقرب منها وأسموها بوابة "المتولى" والمتولى هو أحد أسماء طومان باى.

ويحكى ابن إياس عن جرائم العثمانيين خلال الغزو "واتجهوا إلى الطحانيين فأخذوا البغال والخيول، وأخذوا جمال السقاين، ونهبوا كل ما فى شون القمح من غلال، ثم صاروا يأخذون دجاج الفلاحين وأغنامهم وأوزهم حتى أبواب بيوتهم وخشب السقوف أخذه، ثم صاروا يخطفون العمائم ويعرون الناس فى الأماكن المفردة من بعد العشاء": وأرسل السلطان واحدًا من أكثر رجاله توحشًا هو جان بردى الغزالى إلى الشرقية "فوصل إلى نواحي التل والزمرونيين والزنكلون ونهب ما فيها من أبقار وأغنام وأوز ودجاج وقام بأسر الصبيان وسبى الفتيات باعتبار أنهم أبناء كفار، وراح يبيعهم فى المحروسة بأبخس الأثمان وسارع المصريون بشراء هؤلاء الصبية من سوق العبيد والجوارى ثم يهبونهم لأهاليهم، فاشتري أحدهم بنتًا

بأربعة أشرفية "جنيهات" ووهبها لأُمها وفوق ذلك فإن العثمانية طفشت فى العوام والغلمان ولعبوا فيهم بالسيف، وراح الصالح بالطالح، وصارت جثثهم مرمية من باب زويلة إلى الرملة إلى الصليبية فوق العشرة آلاف إنسان، ثم أحرقوا جامع شيخون فاحترق الإيوان والقبه، أما والى التركى الذى تركه سليم لحكم مصر فكان كما يقول ابن إياس: "يصبح وهو مخمور فيحكم فى الناس بالعسف والظلم" ويلخص ابن إياس الأيام الأولى للغزو العثمانى لمصر قائلاً: "أطلقوا فى مصر جمرة نار" .. ولعل تلك الأيام السوداء فى تاريخ مصر هى التى علمت المصريين شعاراً ظلوا يرددونه دومًا "يا رب يا متجلى اهلك العثمالي" (١٤٥).

ثم نكتشف بعد ذلك أن عديدًا من الباحثين لاحظوا "أن الإمارة العثمانية قد نشأت فى الشمال الغربى للأناضول على حافة العالم المسيحى، وهو ما يطلق عليه دار الحرب، وعلى حافة العالم الإسلامى وهو ما يسمى دار الإسلام" (١٤٦). ونتيجة للإحساس بضرورة توسيع دار الإسلام على حساب دار الحرب لم تكن للعثمانيين رابطة بأرض معينة. فالأرض بالنسبة لهم لم تكن مقامًا بل هى مجرد معبر إلى أرض أخرى "بل إنهم كانوا دومًا يرفضون نسبتهم إلى تركيا ويتمسكون بكلمة عثمانى وعثمانيين. وعلى الجانب الآخر نجد أن الأرض بالنسبة للمصريين تمثل مكانة كبيرة فى فكرهم ووجدانهم وذلك على مر العصور" ذلك أن "الارتباط بمصر (الأرض والنهر والوطن) ككيان لا يلغيه الارتباط بما هو أكبر منه من كيانات [كالخلافة أو غير ذلك] وربما يرجع الأمر إلى أن مصر شكلت عبر تاريخها إقليمًا موحدًا" (١٤٧).

فالبذور الأولى للوعى المصرى تتمثل أساسًا فى الأرض والنهر ككيان جغرافى وحضارى ترسخ فى العقل الجمعى منذ عصور قديمة جدًا. ثم "جاءت المسيحية ثم الإسلام ليلقى كل منهما البردة الدينية على المساحة الجغرافية. فالتراث المصرى القبطى والإسلامى يعتبران أرض مصر هى الجنة فى الدنيا. وهكذا يمكن القول إن علاقة المصريين بأرضهم تمثل واحدًا من أهم عناصر الاستمرارية المصرية على

مر التاريخ^(١٤٨) ولا بد أن هذه الرؤية المتباينة للأرض بين العثمانيين والمصريين كانت أحد العوامل الأساسية في وجود فجوة واسعة بين كل منهما. ولعل هذا هو الذى أدى إلى أن بقيت عناصر الحكم فى مصر سواء الولاة العثمانيين أو المماليك "الذين كانوا فى ربوع مصر كاثنية أجنبية"^(١٤٩) وقد ظلوا كذلك لم يطلهم التمسير أو الاندماج مع المصريين "بل عاشوا مترفعين فى معزل عنهم، مغالين فى ابتزاز الأموال منهم"^(١٥٠).

وربما كان أحد الأسباب هو أن الاستعلاء والاستكبار كانا من السمات المميزة للخلق والتعاملات العثمانية. فالعثمانيون شعب اعتبر أن الحرب مهمته الأولى، ونظر إلى أصوله العرقية الأولى على أنها الأنقى والأرقى بين الشعوب الأخرى "وكان ينظر إلى الشعوب المسيحية نظرة ازدراء وإلى الشعوب الإسلامية نظرة استعلاء، وهكذا عاش العثمانيون فى مصر فى عزلة اجتماعية وثقافية، وكان اختلاف اللغة أحد المظاهر الرئيسية لهذه العزلة، بحيث إن العثماني كان ينظر إلى الشعوب المحيطة به على أنها لا تصلح إلا للاسترقاق والعبودية"^(١٥١) وربما تأثر ذلك الموقف أيضا بتلك الرؤية الاستعلائية لدى الحكام العثمانيين حتى إزاء أبناء الشعب التركى نفسه. "فالدولة العثمانية كانت دولة طبقية بمعنى الكلمة. تضم عبيدًا وأحرارًا. والغريب هنا أن المحكومين كانوا الأحرار، أما الحكام باستثناء الأسرة السلطانية فكانوا عبيدًا، فالهيئة الحاكمة العثمانية بأكملها من أصغر فرد إلى الصدر الأعظم كانوا جميعًا عبيدًا للسلطان، ويطلق عليهم جميعًا المصطلح التركى "قولار" أى العبيد ومفردها "قول" أى العبد ويقصد به عبد السلطان، وكانوا جميعًا يسمون فى الأوراق الرسمية قولار أى العبيد"^(١٥٢) ولعل العوامل التى أدت إلى استعلاء العثمانيين على الشعب المصرى وعزلتهم الاجتماعية والثقافية عنه هى ذاتها التى حفظت لمصر تميزها وقدرًا من استقلاليتها عن الحكام. وأدى الأمر بطبيعة الحال "إلى قيام تراكيب اجتماعية مصرية متماسكة، وأن تعم المصريين جميعًا حالة من الكراهية للعثمانيين"^(١٥٣) وهكذا لم يكن غريبًا أن تشهد مصر منذ

منتصف القرن الثامن عشر إرهابات تكون وتلاحم الجماعة الوطنية المصرية،
ويزوغ نزعة المواطنة ارتكازاً على اندماج المحكومين المقهورين فى مواجهة حكام
متعالين لم يقتربوا ولو بأقل قدر من حافة الاندماج أو حتى التقارب مع المصريين.

ويكون مبرراً وطبيعياً تماماً أن ينشر أحمد شوقى عقب إعلان كمال أتاتورك
علمانية الدولة التركية، وإلغاء الخلافة:

مضت الخلافة والإمام فهل مضى ما كان بين الله والعباد؟
والله ما نسى الشهادة حاضر فى المسلمين ولا تردد شادى
والصوم باق والصلاة مقامة والحج ينشط فى عناق الحادى

ولعله تصور، وتصور الكثيرون معه، أن كلمات كهذه قد أنهت ملف الخلافة
وطوته دون عودة، لكن الأمر لم يكن كذلك فالسلفيون اعتبروها مسألة حياة أو
موت، أو بالدقة مسألة كفر وإيمان وما هى كذلك.

ولنبداً الحكاية من بدايتها:

احتلت الجيوش الإنجليزية والفرنسية والإيطالية الأستانة فى نهاية الحرب
العالمية الأولى وفرضت على تركيا شروطاً مذلة فى معاهدة سيفر، وأصبح الخليفة
وحيد الدين سجيناً فى قصره، مغلوباً على أمره مستسلماً للمحتلين. وتعلقت آمال
الأتراك والمسلمين عامة بضابط شاب قاد ثورة الأتراك ضد قوات الاحتلال وضد
اليونان الذين انتشروا فى الأناضول، وانتصر هذا الضابط على اليونان وأجلاهم
عن الأناضول فى ١٩٢٢ بعد أن كبدهم خسائر فادحة. ويهلل أحمد شوقى لهذه
الانتصارات مشبهاً هذه الشاب "كمال أتاتورك" بخالد بن الوليد:

الله أكبر كم فى الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب
والغريب فى الأمر أنه فيما كان المسلمون فى أرجاء العالم فرحين بانتصار
أتاتورك على المحتلين نجد أن الخليفة وحيد الدين يخضع لرغبة الاحتلال ويسانده

فى ذلك شيخ الإسلام مصطفى صبرى توقادى، وأعلنا معاً أن أتاتورك خائن ومتمرد وعاص وأهدرا دمه. ووصل الأمر بشيخ الإسلام توقادى أن هاجم أحمد شوقى منتقداً قصيدته السابقة قائلاً: "إن كتاب الله تعالى علمنا أن الشعراء يقولون ما لا يفعلون، لكنى وجدت هذا الشاعر من الذين يقولون ما لا يعلمون".

وعلى أية حال فقد انقسم المسلمون، واحتدمت معارك كلامية وفقهية حامية، ونسى الناس موقف الخليفة وحيد الدين وشيخ الإسلام توقادى من مساندة أعداء الوطن والدين، واشتعل الخلاف حول مدى شرعية الخلافة، وهل هى شعيرة إسلامية، أو فريضة إسلامية؟ وهل هما من الأصول الإسلامية أم من الفروع، أم هى دخيلة على الإسلام وهى بالسياسة أشبه؟

كذلك احتدم الخلاف حول من الأحق بها، وتبارت الأطماع فى تقلدها، فالشريف حسين يتطلع إليها، وأنصاره والمنفعون به يبايعونه بالخلافة، والملك فؤاد فى مصر يطمع فيها كى يضم إلى أريكة مصر عرش الخلافة، وكثرة من مشايخ الأزهر، وغالبية قادة التيار السلفى فى مصر يتحركون وينشطون بدعم من القصر للإعداد لمؤتمر الخلافة فى القاهرة، ومضوا يشكلون لجائاً أسموها لجان الخلافة للدعوة للمناداة بالملك فؤاد خليفة، أصدروا مجلة خاصة عن مؤتمر الخلافة. وكان هناك أيضاً منافس آخر هو أمير الأفغان.

وعلى أية حال فإن الخلاف حول من يكون خليفة لم يكن هو المهم بالنسبة للتيار السلفى، بل كان مبدأ الخلافة ذاتها.

ونقرأ: "وللمرة الأولى سقطت الخلافة بعد أن اتصلت حلقاتها خلال ثلاثة عشر قرناً ونصف القرن، تنقل مركز الخلافة فيها بين عواصم البلاد الإسلامية المختلفة، ولكنه ظل فى كل الأحوال رمزاً للرابطة التى تجمع بين المسلمين فى شتى بقاع الأرض، أما تركيا مقر الخلافة فلم تكثف بالتخلى عن الخلافة بل انسلخت عن إسلامها"^(١٥٤). وسرعان ما اتخذ الأمر طابعاً تنظيمياً وإعلامياً منتظماً، فبعد انتهاء الخلافة "اشتد سعى التيار السلفى للبحث عن وعاء للمقاومة، فلم يكن فى مصر

لهذا التيار من صحف سوى "المنار" ومن جمعيات سوى جمعية مكارم الأخلاق ومجلتها، فتتحدى زعماء هذا التيار لتكوين كيان يربط بين البلاد الإسلامية تحت راية الإسلام في مواجهة القومية والوطنية والعروبة، واستقطب هذا الاتجاه بعض قيادات الحزب الوطنى من تلاميذ الشيخ جاويش، وبعض رجال الأزهر، وبعض تلاميذ الشيخ محمد عبده "الذين تخلوا عن أفكاره بعد وفاة الشيخ وانساقوا خلف الشيخ رشيد رضا ومحب الدين الخطيب صاحب المكتبة السلفية، ولكى يصبح وقع دعوتهم صارخاً ومفزعاً لخصومهم أسسوا جمعية تحت اسم مقاومة الإلحاد.

ثم أصدروا فى يونيو ١٩٢٦ مجلة الفتح وكان رئيس تحريرها الشيخ عبد الباقي سرور، ومديرها محب الدين الخطيب، ثم آل تحريرها إلى الأخير. ثم أسسوا جمعية الشبان المسلمين فى غرة جمادى الآخر ١٣٤٦ هـ ٢٥ نوفمبر ١٩٢٧ وأنشأوا لها فروعاً فى يافا وحيفا والقدس والعراق وزادت فروعها لتصل إلى عشرين فرعاً فى ١٩٣٠^(١٥٥).

ولقد كان لإلغاء الخلافة وجهه الآخر فقد تشجعت . فى بداية الأمر . الاتجاهات العقلانية فى مصر، وظهرت مؤلفات تنهج نهجاً علمانياً مثل: الإسلام وأصول الحكم للشيخ على عبدالرازق (أبريل ١٩٢٥) و"فى الشعر الجاهلى" لطفه حسين (١٩٢٦) ونتج عن ذلك اشتعال معارك فكرية ضارية بين المعسكرين السلفى والتجديدى، وهى معارك استخدم فيها السلفيون مطارق التكفير والالتهام بالإلحاد ضد خصومهم.

وفى البداية انقسم رجال الدين المصريون حول الأمر، فحتى دعاة الخلافة منهم فوجئوا بحضور شيخ الإسلام مصطفى صبرى توقادى إلى مصر هارباً من الكماليين، واستقبله المصريون استقبالاً سيئاً للغاية فهو فى نظرهم عميل للإنجليز فقد استسلم لهم وأصدر فتوى بتكفير أتاتورك عندما كان يحارب الاحتلال ونشرت الصحف نبأ وصوله وسوء استقبال الناس له فى عبارات مليئة بالغمز على موقفه من أتاتورك "وكانت الصحف على اختلاف ألوانها ونزعاتها وقتئذ تكيل للكماليين

ثناء لا تحفظ فيه" (١٥٦).

وهاجم الشيخ خصومه بنبرة عالية وأسلوب ملئ بالشتم متهمًا إياهم بالفسق، مظهرًا عجبه من أمر الناس الذين أصبح قائل الحق لا يقوله بينهم إلا همسًا بينما يجهر الفجرة بمعصيتهم وينادون بالفساد المستحيل فيجدون آذانًا مصغية.

إذا قلت المحال رفعت صوتي وإن قلت اليقين أطلت همسي (١٥٧)

وشنت المقطم عدة مقالات تهاجم الشيخ توقادى هجومًا عنيفًا (١٥٨) وكتب الشيخ على سرور الزنكلونى خمس مقالات فى الهجوم على توقادى نشرتها الأهرام متتالية (١٥٩).

ولعله من المفيد أن نقدم مثالاً لهذا الهجوم الذى يبدو مثيراً للدهشة فالمعيار فيه وطنى بحت. أتاتورك يلغى الخلافة، ويفرض بشدة علمانية الدولة لكنه يواجه الاحتلال "الإنجليزى، الفرنسى، الإيطالى، واليونانى" ويحل المصريون هذا التناقض ببساطة ويسر. المعركة الأساسية هى ضد الإنجليز، والخليفة وحيد الدين عميل لهم.. فهم وببساطة مع أتاتورك عدو الإنجليز وضد وحيد الدين عميل لهم.. ونقرأ . كنموذج . تكرر عشرات المرات، عبارات من مقال للشيخ محمد شاکر وكيل الجامع الأزهر وعضو الجمعية التشريعية وقد بدأ المقال بالثناء على أبطال الشرق ورجال المجلس الوطنى الكبير، والكماليين حماة الإسلام فى أنقرة ويهاجم السلطان وحيد الدين الذى احتمى بالإنجليز، وأذاع منشوراً قبل مغادرته الأستانة وحيد الدين بن عبد المجيد عامله الله بما يستحقه، وهو على أهبة السفر مغادراً ملك آبائه وأجداده، ملتجئاً إلى الدولة البريطانية، معلناً أنه بصفته خليفة للمسلمين يطلب الحماية البريطانية، ولا يستحى من الله ورسوله، ولا من الشعب الذى وجه إليه هذا النداء، ولا من الأمم الإسلامية التى يزعم أنه يتكلم باسمها كخليفة للرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، ولا يستحى من تاريخ أجداده، ولا من التاج الذى دنسه بالالتجاء إلى الحماية الأجنبية، فصحفاً لمدنس شرف الإسلام". ثم يمضى الشيخ شاکر متسائلاً: "أفلا يجدر بالمسلمين بعد هذا أن يفكروا فى قلب هذا النظام

العتيق رأسًا على عقب، حتى ينفذوا الإسلام والمسلمين من هذه الكوارث وحتى يضعوا حدًا لتصرفات البلاط الشاهاني والباب العالي في الشئون الإسلامية العامة؟". ثم يعدد "الخسائر التي ابتلى بها المسلمون على يد الخلفاء العثمانيين ففسروا كل عواصم الإسلام والجزائر ومراكش وطرابلس وعواصم أخرى لا تعد ولا تحصى في مشارق الأرض ومغاربها"، ثم يختتم مؤكدًا "فضل الكماليين في تحرير الأستانة مقدمين القدوة لأربعمائة مليون من المسلمين" (١٦٠).

وإذ يلجأ الكماليون إلى اعتماد ما أسموه بالخلافة الروحية وتنتشر "الأهرام" بيانًا للسيد أحمد السنوسي تحت عنوان "بيان خطير الشأن للسيد السنوسي الأكبر" .. ويعلن السنوسي في بيانه "تأييده لقصر الخلافة على الجانب الروحي؛ ذلك أن نزع السلطة المدنية من يد الخليفة قد عزز نفوذه الإسلامي لأنه لم يعد خاصًا بأمة واحدة بل صار ملكًا مشتركًا للمسلمين جميعًا" (١٦١).

ويرد على هذا الموقف الشيخ رشيد رضا مطالبًا المسلمين "بألا يغتروا بتحبيذ عوام المسلمين لما قرره الكماليون في أمر الخلافة الروحية فما أضرع على المسلمين دنياهم ودينهم إلا تحييد دهمائهم لكل ما تفعله حكوماتهم ودولهم، وناهيك بشعور المسلمين الذين ينتنون من أنقال حكم المستعمرين. إنه شعور شريف، وإنما يعوزه الرأي الحصيف، فقد كان السواد الأعظم من هؤلاء الملايين يرمى من يخالف أهواء السلطان عبد الحميد بالخيانة والمروق من الدين" (١٦٢).

ثم يحدث تغيير مثير لدهشة الباحث. ففجأة يتحرك الأوركسترا في الاتجاه المعاكس وينقلب المؤيدون لأتاتورك إلى معارضين، وكما أيده بشدة، عارضوه بشدة، وكما بدأنا بشوقي. نعود لنبدأ به وهو يتغير فيهاجم الكماليين وشعرًا أيضًا.

وبدلاً من "يا خالد الترك جدد خالد العرب" يقول:

عادت أغاني العرس رجع نواح ونعيت بين معالم الأفراح

والشيخ محمد البتانوني الذي كتب مقالاً في مديح الكماليين (١٦٣) عاد ليهاجمهم بشدة في مقال افتتاحي بالأهرام أيضاً (١٦٤)، والشيخ محمد حسنين كتب مقالاً في

"الأهرام" يهاجم الكماليين بعد أن مدحهم من قبل^(١٦٥).

والشيخ محمد شاكر الذى قرأنا فيما سبق هجومه على الخليفة ودعمه للكماليين ووصفه إياهم بأنهم حماة الإسلام، عاد ليكتب فى المقطم مقالاً "يعبر فيه عن خيبة أمله فى الكماليين معتذراً عن سابق مدحه لهم". ويهاجمهم أمين الرافعى فى صحيفة "الأخبار" مصوراً فظاظتهم فى عزل الخليفة وطرده، وبتهمهم بالإلحاد والجهل والغرور. وكان مصطفى صادق الرافعى من أعلى الأصوات وأشدّها هجوماً على الكماليين فى كتابه "وحى القلب" وفى مقال له بعنوان "كفر الذبابة" يصف كمال أتاتورك بأنه ذبابة وبعوضه وقملة وقال إنه "أودى بأناس يقوم إيمانهم على أن الموت فى سبيل الحق هو الذى يخلدهم فى الحق، وأنه والله ما قتل ولا شئ ولا عذب، لكن الإسلام احتاج فى عصره هذا إلى قوم يموتون فى سبيله، وأعوزه ذلك النوع السامى من الموت الذى كان حياة الفكر ومادة التاريخ. أما هم فقتلوه فى التاريخ، وجاءهم بالرحمة من جميع المسلمين، أما هم فجاءوه باللعة من المسلمين جميعاً"^(١٦٦).

وفى ٦ مارس ١٩٢٤ ينشر "الأهرام" بياناً بعنوان "خلع الخليفة غير شرعى" وهو موقع من ١٦ عالماً من علماء الأزهر قرروا فيه بطلان عزل الخليفة "الذى انعقدت له البيعة من المسلمين جميعاً لأنه صادر من فئة قليلة لا يعتد بها، فبيعته صحيحة شرعاً فى عنق كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر".

ونأتى بعد ذلك إلى ما يفسر لنا كل هذا الانقلاب الحاد فى المواقف، فالبيان يؤكد حاجة المسلمين للخليفة، ويدعو إلى عقد مؤتمر يقرر ما يراه فى أمر الخلافة عبر الطريق الشرعى، ويحذر المسلمين من الخلاف الذى يؤخر الإسلام ويوهنه^(١٦٧).

وهنا يتعين علينا أن نتوقف. فى البداية (١٩٢٢) انبرى عشرات الشيوخ مؤيدين لأتاتورك ومساندين موقفه ضد الإنجليز، ومن هاجموا الخليفة وشيخ الإسلام الذى أيده فى اللجوء إلى الإنجليز، فماذا حدث فى عام ١٩٢٤؟ نقرأ الإجابة واضحة سافرة فى

مقال للشيخ محمد حسنين وكيل الأزهر السابق قال فيه: "إن الخليفة إذا كان متمسكاً بالخلافة فبيعته لا تزال فى الأعناق، وإلا انحلت بيعته من أعناق المسلمين ووجب عليهم إسنادها لمن هو أحق بها"، وبما أن وحيد الدين قد انحلت بيعته من أعناق المسلمين "فإن أولى الناس بهذا الواجب الخطير هو الأمة المصرية، فإن فيها من علماء الدين وطلاب العلم آلافاً عدة، ومن أهل الحل والعقد وذوى المشورة والرأى ما لا يجتمع فى غيرها، وفيها الأزهر الشريف الذى امتازت به مصر على سائر الأقطار، يؤمه الدانى والقاصى من مشارق الأرض ومغاربها، ولمصر فى نفوس العالم الإسلامى منزلة تستحق معها السبق إلى هذا الواجب الأكيد، فيجب على العلماء وأهل الحل والعقل أن يبادروا إلى النظر فى بيعة خليفة المسلمين" (١٦٨).

ثم ينكشف الغطاء أكثر فأكثر، إذ ينشر "الأهرام" بياناً لعلماء التخصص فى الأزهر الشريف بعنوان "مصر والخلافة" يحذرون فيه "الانخداع بنداء الخونة المارقين الذين ينادون ببيعة الملك حسين بن على صنيعة الإنجليز، ومن تهافت كل مملكة على جعل الخليفة منها، فيؤدى ذلك إلى تعدد الخلفاء وانقسام المسلمين وإضعافهم" (١٦٩).

وفى ٢١ مارس ١٩٢٤ يكشف "الأهرام" الغطاء نهائياً فى رده على مبايعة علماء فلسطين للملك حسين بن على بالخلافة، وفى مقال افتتاحى بعنوان "الخلافة ومصر" يقول فيه بوضوح صريح "رأى جلالة الملك ورأى الحكومة ورأى العلماء أن يكون ملك مصر خليفة" (١٧٠).

وكان الملك فؤاد خلف هذا التغيير فى الموقف. ونقرأ ما كتبه واحد من أقرب المقربين من القصر وهو أحمد شفيق باشا، إذ يقول: "ورغم الحرص على الكتمان فقد ساهم القصر الملكى فى مصر فى نشاط لجنة المؤتمر الإسلامى، الذى دعى إليه لاختيار خليفة، والتى اتخذت شكلاً رسمياً وانتشرت فروعها فى البلاد" (١٧١).

وبطلب من القصر الملكى ينشر علماء الأزهر بياناً وقعه شيخ الأزهر أفتوا فيه ببطلان بيعة الخليفة التركى الذى سمح له الكماليون بما أسموه الخلافة الروحية

لأن الكماليين أقاموه بالخلافة منفصلة عن السلطة، والإسلام لا يعرف الخلافة بهذا المعنى، وقرروا دعوة ممثلى جميع الأمم الإسلامية لمؤتمر يعقد فى القاهرة فى شهر شعبان من العام التالى برئاسة شيخ الإسلام ليقدر مَنْ الذى تسند إليه الخلافة" (١٧٢).

ونلاحظ أن ذات علماء الأزهر كانوا قد أصدروا فتوى قبلها بعشرين يوماً فقط أى فى ٦ مارس ١٩٢٤ يؤكدون فيها أن بيعة عبد المجيد (الخليفة الروحى) صحيحة شرعاً وأن عزله باطل.

وهكذا تغير الموقف بتغير الأهواء، وتغير رغبة الملك فؤاد الذى تطلع فى ١٩٢٤ لأن يكون خلفية للمسلمين، ولم يكن قادراً على مثل هذا التطلع فى عام ١٩٢٢ أى قبل حصول مصر على استقلالها. وما كان لمسلمى العالم أن يختاروا سلطاناً على بلد غير مستقل خليفة لهم.

وأصدرت لجنة المؤتمر الإسلامى نشرة باسم المؤتمر الإسلامى "صدر عددها الأول فى ربيع أول ١٣٤٣ (أكتوبر ١٩٢٤) وكتب افتتاحية العدد الأول الشيخ رشيد رضا مؤكداً فيها أن "نصب الإمام واجب على الملة فى هذا الزمان كغيره من الأزمنة" (١٧٣) ويمضى رشيد رضا فى الشوط حتى مداه فينشر مقالاً فى المنار يقول فيه: "إن جميع المسلمين آثمون بعدم نصب إمام تجتمع كلمتهم عليه بقدر طاقتها، ذلك أن الجماعة التى أمرنا باتباعها لا تسمى جماعة المسلمين إلا إذا كان لها إمام بايعته باختيارها. وإمام المسلمين هو رئيس حكومتهم السياسية" (١٧٤).

لكن الأمر لم يكن سهلاً فلم يكن فؤاد وحده هو الطامع فى هذا المنصب بل نازعه آخرون: الحسين بن على وملك الأفغان. ولعل إلحاح فؤاد على تنصيب نفسه خليفة هو الذى يفسر لنا عنف علماء الأزهر وخاصة هيئة كبار العلماء فى تعاملهم مع الشيخ على عبد الرازق عندما هاجم فكرة الخلافة فى كتابه "الإسلام وأصول الحكم".

وعلى أى حال.. تأجل انعقاد المؤتمر الذى دعى إليه، كى ينعقد فى مارس

١٩٢٥، ولم ينعقد إلا في أول ذي القعدة ١٣٤٤ (١٣ مايو ١٩٢٦) (١٧٥) وانهقد هزيراً فقد حضره ٣٤ عضواً فقط (على حد قول المقطم) و ٣٠ عضواً (كما قالت السياسة) وقد حضر بعضهم بشخصه دون أن يكون ممثلاً لحكومة أو هيئة، وبعضهم حضر مستمعاً دون المشاركة في إبداء أى رأى كمندوب إيران. وتمخض الأمر عن نكسة كبيرة لحلم الملك فؤاد ومن ساندوه من مشايخ الأزهر وغير الأزهر فقد أصدر المؤتمر بياناً قال فيه: "إن الخلافة الشرعية المستجعة لشروطها المقررة في كتب الشريعة الغراء، والتي من أهمها الدفاع عن حوزة الدين في جميع بلاد المسلمين وتنفيذ أحكام الشريعة الغراء فيها، لا يمكن تحقيقها بالنسبة للحال التي عليها المسلمون الآن".

وبرغم هذه الهزيمة النكراء والتي تجسدت واقعاً عملياً ملموساً فقد ظلت فكرة الخلافة تراود أصحابها. وإذ تنشر الأهرام تصريحاً أدلى به مصطفى النحاس رئيس مجلس الوزراء لوكالة الأناضول التلفزيونية قال فيه: "إنني معجب بلا تحفظ بكمال أتاتورك الذي صاغ بعقريته تركيا الحديثة، ولست أعجب فحسب بعقريته العسكرية بل أعجب أيضاً بعقريته الخالصة وتفهمه لمعنى الدولة الحديثة التي تستطيع وحدها في الحالة العالمية الحاضرة أن تعيش وتنمو". ويغضب حسن البنا من هذا التصريح فيوجه رسالة إلى النحاس يقول فيها: "قدولتكم أكبر زعيم شرقي عرف الجميع فيه سلامة الدين وصدق اليقين، وموقف الحكومة التركية من الإسلام وأحكامه وتعاليمه وشرائعه معروف في العالم أجمع، فالحكومة التركية قلبت نظام الخلافة إلى الجمهورية. ثم هل يفهم من ذلك أن دولة النحاس باشا وهو الزعيم المسلم الرشيد يوافق على أن يكون لأمتة برنامج كالبرنامج الكمالى يتولى كل الأوضاع فيها ويفصلها عن الشرق والشرقيين ويسقط من يدها لواء الزعامة، وإنا لننعيذ دولة الرئيس من هذا المقصد الذي نعتقد أنه أبعد الناس عنه".

وهكذا، وفي مواجهة هذه الاتهامات المتشددة بالكفر والإلحاد والمروق، ثم في

مواجهة ضغوط القصر الملكى سواء فى موضوع الخلافة، أو فى تحالفه مع المؤسسة الدينية بدأ العديد من الليبراليين فى التراجع، إما بسبب نزعتهم الأرستقراطية وتطلعهم إلى لعب دور سياسى فاعل فى مواجهة حزب الوفد (أحمد لطفى السيد .د. محمد حسين هيكل . على ومصطفى عبد الرزاق وإسماعيل مظهر... إلخ) وإما لأنهم ارتقوا فى السلم الاجتماعى عبر المعطى الثقافى والصحفى والسياسى ولم يكن طموحهم نحو المزيد ليسمح لهم بتحدى هذه الموجة. وهكذا نشأت فكرة التوصل إلى حل وسط مع السلفيين وعدم تحديهم بشكل سافر، وربما لهذا الهدف أصدر محمد حسن الزيات مجلة "الرسالة" لتكون "جامعة بين روح الشرق، وحضارة الغرب" وفى العدد الأول كتب أحمد أمين معبراً عن الحاجة إلى نموذج اجتماعى تربوى متوازن متكامل من رجال الثقافة يتجاوز الثنائية بين التغريب والسلفية ليجمع بين الثقافة العربية والإسلامية والأوربية ويقول: "فى مصر حلقة مفقودة لا نكاد نشعر بوجودها فى البيئات العلمية، مع أنها ركن من أقوى الأركان التى ينبغى أن نبني نهضتنا عليها، تلك الحلقة هى طائفة من العلماء جمعوا بين الثقافة الدينية الإسلامية العميقة، وبين الثقافة الأوروبية العلمية، هؤلاء يعوزنا الكثير منهم ولا يتسنى لنا أن ننهض إلا بهم، إن أكثر من عندنا قوم تتفوق ثقافة عربية إسلامية بحتة، وهم جاهلون كل الجهل بما يجرى فى العصر الحديث من آراء ونظريات فى العلم والأدب والفلسفة، وطائفة أخرى تتفقت ثقافة أجنبية بحتة، يعرفون آخر ما وصلت إليه نظريات العلم فى الطبيعة والكيمياء والرياضيات لكنهم يجهلون الثقافة العربية كل الجهل. والفئة الأولى يمثلها خريجو الأزهر ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى، ويمثل الطائفة الثانية نوابغ المدارس العصرية والثقافات الأوروبية"^(١٧٦)، ولعل هذه الصيحة كانت أساساً لتوجه العديد من المفكرين الليبراليين إلى التعمق فى الدراسات الإسلامية بما سمح لعباس العقاد أن يقدم لنا عبقرياته، وللدكتور هيكل أن يقدم "حياة محمد"... إلخ. ويصدر د. هيكل منذ عام ١٩٣٢ ما أسماه "ملحق السياسة" مكتسباً بطابع إسلامى مطالباً "بحضارة يمتزج فيها العلم والإيمان فيرتوى منها العقل والنفس جميعاً،

وتجد فيها الروح الإنسانية غذاء يجمع لها بين الرخاء والسعادة، وبين النعمة والطمأنينة".

ويوضح د. هيكل موقفه أو بالدقة يبرره قائلاً فى كتابه "منزل الوحي": "لقد خيل إلىّ زمنًا كما لا يزال يخيّل إلى أصحابى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله، لكننى أصبحت أخالفهم الرأى فى أمر الحياة الروحية، وأرى أن ما فى الغرب منها غير صالح لأن ننقله. فتاريخنا الروحى غير تاريخ الغرب، وثقافتنا الروحية غير ثقافته، لا مفر إذن من أن نلتمس فى تاريخنا وفى ثقافتنا، وفى أعماق قلوبنا وفى أطوار ماضينا هذه الحياة الروحية، ولقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية، لكننى أدركت بعد لآى أننى أضع البذر فى غير منبته، فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه، ثم رأيت تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر" (١٧٧)، ويعلق د. جابر الأنصارى على هذا الموقف قائلاً: "إن هيكل بهذه التوفيقية الفكرية يعبر عن تيار محمد عبده، لبيعته بعد أن تصدع بسبب الصراع بين التيار النصوصى المحافظ للشيخ رشيد رضا، وبين التيار العقلانى المجرّد لطف حسين وعلى عبد الرازق" (قبل أن يتغيراً) (١٧٨) ويورد الأنصارى نصّاً لبرنارد لويس يقول: "انقلبت الصورة تماماً فإذا الإسلام باعتباره قوة عقيدية اجتماعية سياسية جامعة يقوم، وإذا الليبرالية العلمانية تتحسر. وحتى الليبرالية المخففة المطعمة بعناصر تراثية أخذت تزيد من تقبلها للأفكار الإسلامية، وفقد أصبح واضحاً أن رغبة العرب فى دفع السيطرة الأوروبية عنهم تفوق بكثير رغبتهم فى استيعاب الحضارة الأوروبية" (١٧٩).

ويفسر بادو Badeu ذلك الوضع قائلاً: "فى معظم أقطار الشرق الأوسط كان الاتجاه نحو العلمانية والإصلاح الاجتماعى سائداً. وكان التوجه الدينى كثيراً ما يقرن بالمحافظين والمتحجرين الذين يرفضون التقدم والسير مع الركب، واليوم وبعد الحرب بقليل نجد أن الدين قد أخذ فى الانبعاث وتبواً مركزاً فعالاً فى الحياة. إن الدين لسبب من الأسباب قد عاد إلى مسرح الأحداث فى الشرق الأوسط منذ عام

١٩٣٩، بينما خفت صوت التوجه العلماني، لكن نمو الظاهرة الدينية ليس إحياءً عقدياً فكرياً وإنما إحياء سياسي اجتماعي، فليس فيها اجتهاد ديني وفكري جديد، وإنما هي ظاهرة اجتماعية تستخدم الدين لأهداف سياسية، فالإحياء هنا وعلى وجه التحديد إحياء للدين كعامل اجتماعي وكحزب سياسي^(١٨٠)، لكن عباس العقاد يعارض هذا الرأي قائلاً: "إن هناك إنجازاً فكرياً خصباً، فقد صدر عن الإسلام أكثر من عشرين كتاباً في عام واحد عدا عديد من المجالات الإسلامية، والملاحظ أن معظم الكتابات الإسلامية قد جاءت لغير المتفرغين للمسائل الدينية مما يعبر عن اهتمام متزايد بالأمر. وسبب ذلك فشل الفلسفة المادية على نطاق العالم في إقناع العقول وإرضاء النفوس بعد أن اجتاحت العالم حوالى قرن من الزمان"، ثم يعيها أيضاً "باليقظة العربية واللياذ بالعقيدة التي تعيد ذكرى القديم، وتحمي أصحابها من غارات أعدائها في العصر الحديث، وكذلك بحركة المبشرين، وأيضاً بالفزع من الشيوعية"^(١٨١).

وعلى أى حال فإن أسباباً كثيرة يمكن أن تقال تبريراً لتراجع الليبراليين ودعاة التقدم أمام الهجمة السلفية ولعل أكثرها تأثيراً كانت الاتهامات الشرسة بالكفر والإلحاد، وزيادة اعتماد القصر الملكي على القوى السلفية.. فقد فعلها الملك فؤاد إذ أيد جماعة الإخوان، وفعلها فاروق عندما أسلم قيادة القصر إلى الثلاثي على ماهر . كامل البنداري، والشيخ المراغى الذى أعاد تجنيد المؤسسة الدينية لخدمة القصر، كما سعى هذا الثلاثي لدعم الإخوان ومصر الفتاة. وإلى إعطاء الملك الشاب سمات دينية.

وعلى أى حال فإن السيد يوسف يرى "أن التيار الليبرالي بعدائه للفكر الاشتراكي، وبتراجعه خطوة خطوة أمام الإرهاب الفكرى للتيار السلفى، قد ساعد على تنامي التيار السلفى وتصاعد نفوذه"^(١٨٢).

وأياً كانت الأسباب.. فإن هؤلاء الليبراليين قد وجدوا أن مصلحتهم تكمن فى المشاركة فى ارتداء المسوح الدينية، وربما كان ذلك بسبب مصالح شخصية، وربما

لأنهم لم يدرسوا الفقه الإسلامي واكتفوا بدراسة التاريخ الإسلامي فلم يستطيعوا التفريق بين الإسلام والتأسلم ومن ثم لم يلتفتوا إلى هذا الفارق الكبير بما دفعهم إلى التراجع.

وبعد كل ما سبق يمكننا أن نبدأ.

وبدونه لم يكن ممكناً.

الهوامش

- (١) المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجناائية . ندوة: الحركات الدينية المتطرفة (الأربعاء ١٢-٥-١٩٨٢) رئيس الندوة: د. أحمد محمد خليفة . وسوف نشير إليها فيما بعد كمرجع بكلمة "الندوة".
- (٢) الندوة . د. سيد عويس، بحث بعنوان: العوامل التي أدت إلى ظهور الجماعات الدينية المتطرفة . ص ١٦٧.
- (٣) الندوة . العميد سيد السبكي، بحث بعنوان الحركات الدينية المتطرفة . ورقة موقف . ص ٢٢١.
- (٤) الندوة . المستشار عدلى حسين بحث بعنوان: الحركات الدينية المتطرفة . ورقة موقف . ص ٢٥٤.
- (٥) المرجع السابق . ص ٢٠٧.
- (٦) الندوة . د. إبراهيم صقر . بحث بعنوان: الحركات الدينية المتطرفة . ورقة موقف . ص ٢٥٤.
- (٧) الندوة . د. يحيى الرخاوى . بحث بعنوان: أفكار وانطباعات فى محاولة الإجابة على التساؤلات الموجهة لإعداد مشروع لورقة موقف . ص ١٣٨.
- (٨) الندوة . د. فرج أحمد فرج . بحث بعنوان: الحركات الدينية المتطرفة . توصيف وتقييم . ص ١٥٥.
- (٩) المرجع السابق . ص ١٥٤.
- (١٠) المرجع السابق . ص ١٥٢.
- (١١) المرجع السابق . ص ١٥٨.
- (١٢) المرجع السابق . ص ١٥٩.
- (١٣) الندوة . د. محمد أحمد خلف الله . بحث بعنوان: إقامة الدولة الإسلامية . ص ٥٤.
- (١٤) حجة الإسلام الإمام الغزالى . زبدة نصيحة الملوك . إعداد وتقديم د. عبد الحميد حمدان . القاهرة ٢٠٠٠، ص ٣٩، وهى مقتبسات من كتاب "التبر المصبوك فى نصيحة الملوك" كتب بالفارسية وترجمة صفى الدين على بن مبارك الإربلى فى القرن السادس الهجرى.
- (١٥) الندوة . د. سهير لطفى . بحث بعنوان: رؤية سسيولوجية للجماعات الدينية المتطرفة . ص ١٩٢.
- (١٦) المرجع السابق . ص ١٩٦.
- (١٧) ص ١٩٣.
- (١٨) ص ٢٠٠.
- (١٩) الندوة . د. إبراهيم صقر . المرجع السابق . ص ٢٥٥.
- (٢٠) المرجع السابق ص ٢٥٦.
- (٢١) ص ٢٥٧.
- (٢٢) طارق البشرى . الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ . ١٩٥٢ . ص ٦٩.
- (٢٣) د. شبلى شميل . فلسفة النشوء والارتقاء ط ٢ . القاهرة . مطبعة المقتطف (١٩١٠) وما بعدها.
- (٢٤) المرجع السابق ص ٢٨.
- (٢٥) المقتطف . مجموعة عام ١٨٧٦.

- (٢٦) محمد عبد الغنى حسن . عبد الله فكرى . القاهرة . سلسلة أعلام العرب . ص ١٩ وما بعدها .
- (٢٧) مجلة البصير . مجموعة عام ١٨٧٨ . مقال "القضاء على القضاء" .
- (٢٨) د. شبلى شميل . فلسفة النشوء والارتقاء . المرجع السابق . ص ٢٧ .
- (٢٩) د. شبلى شميل . ج ٢ من مجموعة كتاباته . مطبعة المعارف . القاهرة (١٩٠٨) ص ٦٢ .
- (٣٠) الأخبار . مجموعة عام ١٩٠٩ . مقال ضحايا الجهل .
- (٣١) ولى الدين يكن . المعلوم والمجهول . ج ٢ . ص ١٥٩ .
- (٣٢) ولى الدين يكن . التجاريف . ص ٢٣ .
- (٣٣) الشيخ محمد عبده . الأعمال الكاملة . بيروت . المرجع السابق . ج ٣ . ص ٢٨٢ .
- (٣٤) المرجع السابق . ص ١٧٨ .
- (٣٥) رضوان السيد . الإسلام المعاصر . ص ٦٩١ .
- وأيضا: ألبرت حوراني . الفكر العربى فى عصر النهضة . ص ١٧٥ .
- (٣٦) محمد رشيد رضا . تاريخ الأستاذ الإمام . ج ١ . القاهرة - ١٩٣١ . ص ٤٩٥ .
- (٣٧) المرجع السابق . ص ١١ .
- (٣٨) محمد عبده (الشيخ) الأعمال الكاملة . المرجع السابق ص ٦٥٤ .
- (٣٩) المرجع السابق . ج ٢ . ص ١١٨ .
- (٤٠) محمد صبيح . مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية . ص ٣٨٩ .
- (٤١) المرجع السابق .
- (٤٢) المرجع السابق .
- (43) Khadduri, M – Political Trends in the Arab World, London (1972) P. 55.
- (44) Berger, M-The Arab World Today – New York (1964) p-318.
- (45) Khadduri-Ibid- p.70.
- (٤٦) من مذكرات شيخ الإسلام الظواهرى . السياسة والأزهر . القاهرة . المرجع السابق . ص ١١ .
- (٤٧) المرجع السابق . ص ١٢٣ .
- (٤٨) المرجع السابق . ص ٢١٧ .
- (٤٩) على عبد الرازق . الإسلام وأصول الحكم . القاهرة "١٩٢٥" .
- (٥٠) آخر ساعة . ١٩٧٠ . مقال محمود عوض: اتهام ملكى للشيخ بالإلحاد .
- (51) Von Grunebaum – Modern Islam, The Search For Cultural Identity – new york – p. 65.
- (٥٢) طارق البشرى – الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ – ١٩٥٢ المرجع السابق – ص ٢٣٦ .
- (٥٣) المرجع السابق – ص ٢٥٠ .
- (٥٤) المرجع السابق – ص ٢٥١ .
- (٥٥) محمد شرقى زكى . الإخوان المسلمون والمجتمع المصرى . القاهرة "١٩٥٤" ص ٦٠ .
- (56) Mutchell, R-The Society Of Muslim Borthers – Oxford – London (1969) p. 99.
- (٥٧) حسن البنا . الرسائل الثلاث، ص ٨٧ وما بعدها .
- (٥٨) سيد قطب . العدالة الاجتماعية فى الإسلام ط ٣ .

- (٥٩) سيد قطب . من هنا نعلم . ط٤ . القاهرة "١٩٥٤".
- (٦٠) الشهاب - نوفمبر ١٩٤٧.
- (٦١) رفاعة الطهطاوى . مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية . ص ٢ . ص ١٣١.
- (٦٢) المرجع السابق . ص ٩٣.
- (٦٣) عبد الرحمن الكواكبي . طبائع الاستبداد فى مصارع الاستعباد . القاهرة . مطبعة الدستور العثمانى، (١٣١٨هـ) ص ٥٩.
- (٦٤) المرجع السابق . ص ٣٣.
- (٦٥) المرجع السابق . ص ٥٠.
- (٦٦) المرجع السابق . ص ٦٩.
- (٦٧) عبد الرحمن الكواكبي . أم القرى . القاهرة . طبعة محمود أفندى طاهر صاحب جريدة العرب . ص ٤١.
- (٦٨) جمال الدين الأفغانى . الرد على الدهريين . ترجمة محمد عبده وعارف أبى تراب . القاهرة ط٤ "١٩١٤".
- (٦٩) جمال الدين الأفغانى . خاطرات جمال الدين . أملاه على محمود باشا المخزومى . بيروت . ١٩٣١.
- (٧٠) مارسيل كولومب . المرجع السابق . ص ١٥٧.
- (71) Blunt, W-Secret History of Egypt- London (1907), p. 493.
- (٧٢) د. على الحيدى . عبد الله النديم . ص ١٧٧.
- (٧٣) الكاتب . أغسطس ١٩٤٧ . مقال طارق البشرى بعنوان: "الأزهر بين القصر والحركة الوطنية".
- (74) NewMiddle East, January – Feburay 1975. Article by Stewart Desmond Egypton Search of Religious and Political Community.
- (٧٥) مجلة الإذاعة والتلفزيون . ١٠/٧/١٩٧١، د. عثمان أمين، مقال "صفحة مجهولة من تاريخنا الفكرى".
- (76) Keadduri- Ibid – p.63.
- (77) Adams – Islam and Modenism in Egypt- p39 and 135.
- (78) Khadduri – Ibid – p. 61.
- (79) Ibid – p. 56.
- (80) Ibid – p. 65.
- (٨١) لمزيد من التفاصيل حول العلاقة بين تعاليم الشيخ محمد عبده وأفكار رشيد رضا، راجع سامى الدهان، قدامى ومعاصرون . القاهرة ١٩٦١، ص ٧٣، وما بعدها وأيضاً إبراهيم العدوى، رشيد رضا.
- (٨٢) مارسيل كولومب . المرجع السابق . ص ١٦٨.
- (٨٣) رشيد رضا . الخلافة أو الإمامة العظمى . مطبعة المنار بمصر (١٣٤١هـ).
- (٨٤) المرجع السابق . ص ١١٦.
- (٨٥) المرجع السابق . ص ١٢٨.
- (٨٦) رشيد رضا . كتاب الوحي . ص ٢٣٩.
- (87) Smith, Wilfred Cantwell – Isalam in the Modern history (1957) p. 51.
- (٨٨) الدعوة . ٢٠/٢/١٩٥١.
- (٨٩) مذكرات الدعوة والداعية . المرجع السابق . ص ٥٨.
- (٩٠) أحمد أنس الحاجبى . الرجل الذى أشعل الثورة . القاهرة . ١٩٥٢، ص ٤٣.

(91) Metchell – ibid – p. 322.

(92) Khadduri – ibid – p. 67.

(٩٣) مذكرات الدعوة والداعية.

(٩٤) وحول المقارنة بين أفكار رشيد رضا وحسن البنا.. راجع:

Safran, Nadav – Egypt in Search of political Community. (1961) – p. 291.

(95) Hourani, Albert – Arabic Thought in The Liberal Age. 1798 - 1939 – Oxford (1970) p. 80

(٩٦) نقلًا عن د. لويس عوض . تاريخ الفكر المصري الحديث . الجزء الثاني . القاهرة . ١٩٦٩ ، ص ٢٨٢ .

(٩٧) دستور ١٩٢٣ . م . ١٥٣ .

(٩٨) الكاتب . أغسطس ١٩٧٤ . مقال طارق البشري ، بعنوان الأزهر بين القصر والحركة الوطنية .

(٩٩) مذكرات شيخ الإسلام الطواهي . المرجع السابق . ص ٧٩ .

(١٠٠) الأخبار . ١٩٢٤/١١/١٤ .

(١٠١) الأخبار . ١٩٢٤/١١/١١ .

(١٠٢) جمال سليم . البوليس السياسي يحكم مصر . القاهرة . ص ٣١٥ .

(١٠٣) صباح الخير . ١٩٧٧/٣/٣١ . د. عبد العظيم رمضان . مقال بعنوان: الدين في الصراع السياسي .

(١٠٤) إبراهيم المويلحي . حديث عيسى بن هشام .

(١٠٥) د. محمد محمد حسين . الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر . ج ٢ . ص ١٨٥ .

(١٠٦) المرجع السابق . ص ١٨٧ .

(١٠٧) السياسة (الأسبوعية) . أول يناير ١٩٢٧ . مقال للشيخ عبد العزيز البشري بعنوان . "مضى عام" .

(١٠٨) مصطفى لطفى المنفلوطي . النظرات . ج ٣ . ص ١٧٦ .

(١٠٩) المقطف . مجموعة ١٩٠٤ . مقال لعبد القادر أفندي حمزة .

(١١٠) لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد "عمائم ليبرالية" القاهرة، ٢٠٠١ .

(١١١) لمزيد من التفاصيل راجع: د. محمد كامل ضاهر . الصراع بين التيارين الديني والعلماني في الفكر العربي

المعاصر . بيروت ١٩٩٤ .

وأيضا: قاسم أمين . تحرير المرأة .

(١١٢) د. رفعت السعيد . الليبرالية المصرية . دمشق . ٢٠٠٣ ، ص ٢٠٠ .

(١١٣) لمزيد من التفاصيل راجع: د. محمد كامل ضاهر . المرجع السابق .

(١١٤) المقطف . المجلد ٦٨ (١٩٢٦) مقال: إسماعيل مظهر بعنوان: "النمط في التفكير" . ص ١٣٧ .

(١١٥) العصور . العدد الأول . سبتمبر ١٩٢٧ . الافتتاحية . ص ٧ .

(١١٦) راجع للتفاصيل مجلة العصور عبر سنوات ١٩٢٧ - ١٩٣٠ .

وأيضا . د. رفعت السعيد . الليبرالية المصرية . المرجع السابق .

(١١٧) المجلة الجديدة . العدد الثاني . ديسمبر ١٩٢٩ . مقال لسلامة موسى بعنوان "السلفيون والمجددون" ص

١٤٥ .

- (١١٨) المجلة الجديدة . العدد الثالث . يناير ١٩٣٠ . ص ٣٨٠ .
- (١١٩) المجلة الجديدة . العدد الرابع . فبراير . ١٩٣٠ . ص ٤٣٣ .
- (١٢٠) المرجع السابق .
- (١٢١) المجلة الجديدة . يوليو ١٩٣٠ .
- (١٢٢) برنارد لويس . الغرب والشرق الأوسط . ص ١٠٨ .
- (١٢٣) السيد يوسف . الإخوان المسلمون وجذور العنف والتطرف والإرهاب فى مصر . القاهرة ١٩٩٩ . ص ١٧ .
- (١٢٤) لمزيد من التفاصيل راجع د . رفعت السعيد . محمد فريد . الموقف والمأساة . عدة طبعات .
- (١٢٥) الندوة . على حسين بحث بعنوان : الحركات الدينية المتطرفة . ورقة موقف .
- (١٢٦) المرجع السابق . ص ١٢٤ .
- (١٢٧) المرجع السابق . ص ١٧ .
- (١٢٨) السيد يوسف . المرجع السابق . ص ١٧ .
- (١٢٩) المرجع السابق .
- (١٣٠) الإخوان المسلمون "اليومية" ٥ سبتمبر ١٩٤٨ . مقال محب الدين الخطيب بعنوان : مذكرات شاهد عيان .
- (١٣١) أبو القاسم إبراهيم . الدين الخالص . أو إرشاد الخلق إلى دين الحق . القاهرة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م) ص ١٥ .
- (١٣٢) إسرائيل . ١٧ يوليو ١٩٣١ .
- (١٣٣) إسرائيل . ٣١ يوليو ١٩٣١ .
- (١٣٤) إسرائيل . ٥ فبراير . ١٢ فبراير ١٩٣٢ .
- (١٣٥) د . محمد جابر الأنصارى . تحولات الفكر والسياسة فى الشرق العربى ، ١٩٣٠ . ١٩٧٠ . ص ١١٦ .
- (١٣٦) د . محمد محمد حسين . المرجع السابق . ج ٢ . ص ١٥٣ .
- (١٣٧) حسن البنا . مذكرات الدعوة والداعية . ص ١٤٧ .
- (١٣٨) محمود عبد الحليم . الإخوان المسلمون . أحداث صنعت التاريخ . ج ١ . ص ٣٦ .
- (١٣٩) حسن البنا . المرجع السابق . ص ١٥٠ .
- (١٤٠) حسن البنا . دعوتنا .
- (١٤١) حسن البنا . مجموعة رسائل الإمام الشهيد . رسالة تحت راية القرآن . ص ٩٥ .
- (١٤٢) حسن البنا . مذكرات الدعوة والداعية . المرجع السابق . ص ٤٩ .
- (١٤٣) المرجع السابق . ص ٤٦ .
- (١٤٤) عبد المتعال الجابرى . لماذا اغتيل الإمام الشهيد حسن البنا . ص ١٤ .
- (١٤٥) لمزيد من التفاصيل راجع : د . رفعت السعيد . المتأسلمون ماذا فعلا بالإسلام ، وينا . القاهرة ٢٠٠٣ .
- (١٤٦) د . عبد العزيز الشناوى . الدولة العثمانية : دولة إسلامية مفترى عليها . ج ١ . القاهرة ١٩٨٠ . ص ٩ .
- (١٤٧) د . وليم سليمان قلادة . المسيحية والإسلام على أرض مصر . القاهرة ١٩٩٢ ، ص ١٢ .
- (١٤٨) أحمد صادق سعد . تاريخ العرب الاجتماعى . نحو التكوين المصرى من النمط الآسيوى إلى النمط

الرأسمالى . بيروت ١٩٨٩ . ص ٨٧.

- (١٤٩) د. وليم سليمان قلادة . من العثمانية إلى المصرية . بحث مقدم إلى المؤتمر السنوى الثالث عشر للبحوث السياسية . كلية الاقتصاد والعلوم السياسية . مركز البحوث والدراسات السياسية ، ديسمبر ١٩٩٩ .
- (١٥٠) اليسار . العدد ١١١ . يوليو ١٩٩٩ ، دراسة لسمير مرقص بعنوان: الأقباط فى مصر العثمانية .
- (١٥١) عمر الإسكندرى وسليم حسن . تاريخ مصر من الفتح العثمانى . القاهرة ط٢ . ١٩٩٦ . ص ٦٥ .
- (١٥٢) د. عبد العزيز الشناوى . المرجع السابق . ص ٣٢١ . وما بعدها .
- (١٥٣) المرجع السابق . ص ١١٩ .
- (١٥٤) سيار الجميل . بقايا وجذور التكوين العربى الحديث . عمان ١٩٩٧ . ص ١٩٠ .
- (١٥٥) لمزيد من التفاصيل حول الموقف الشرعى والفقهى والتاريخى من مسألة الخلافة راجع د. رفعت السعيد المتأسلمون ماذا فعلوا بالإسلام وينا؟ القاهرة ٢٠٠٣ .
- (١٥٦) السيد يوسف . المرجع السابق . ص ٤٥ .
- (١٥٧) شيخ الإسلام مصطفى صبرى توقادى . التكريز على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة . ص ١٨٥ .
- (١٥٨) المقطم . ٣١ أكتوبر ١٨٢٣ . ٤ نوفمبر ١٩٢٣ . ٨ مارس ١٩٢٤ .
- (١٥٩) الأهرام . الأعداد من ١٣ إلى ١٧ ديسمبر ١٩٢٢ . مقالات للشيخ على سرور الزينكلونى بعنوان . الخلافة وشيخ الإسلام السابق .
- (١٦٠) الأهرام ١٩٢٢/١٢/٥ مقال لفضيلة الشيخ محمد شاكى بعنوان "ما شأن الخلافة بعد التغيير؟" .
- (١٦١) الأهرام . ١٩٢٣/٩/٢٨ .
- (١٦٢) الشيخ رشيد رضا . الخلافة أو الإمامة العظمى . ص ١٠ .
- (١٦٣) الأهرام . ٢٨ نوفمبر ١٩٢٢ .
- (١٦٤) الأهرام . ١٢ مارس ١٩٢٤ .
- (١٦٥) الأهرام . ٧ مارس ١٩٢٤ .
- (١٦٦) د. محمد محمد حسين . المرجع السابق . ج ٢ . ص ٢٢ .
- (١٦٧) الأهرام . ٦ مارس ١٩٢٤ .
- (١٦٨) الأهرام . ٧ مارس ١٩٢٤ . مقال الشيخ محمد حسنين بعنوان: "الخلافة الإسلامية" .
- (١٦٩) الأهرام ١٠ مارس ١٩٢٤ .
- (١٧٠) الأهرام ٢١ مارس ١٩٢٤ .
- (١٧١) أحمد شفيق باشا . حوليات مصر السياسية . الحولية الأولى . ص ١٢٣ .
- (١٧٢) المنار ٢٥ مارس ١٩٢٤ . وأيضا الأهرام ٢٧ مارس ١٩٢٤ .
- (١٧٣) المؤتمر . العدد الأول . ربيع أول ١٣٤٣هـ .
- (١٧٤) المنار . مجلد ٢٦ . ج ١ . ص ٣١ . أبريل ١٩٢٥ .
- (١٧٥) المقطم . وأيضا السياسة . ١٤ مايو ١٩٢٦ .

- (١٧٦) الرسالة . يناير ١٩٣٣ . مقال لأحمد أمين .
- (١٧٧) د . محمد حسين هيكل . منزل الحى . القاهرة . ١٩٣٦ . ص ٢٦ من المقدمة .
- (١٧٨) د . محمد جابر الأنصارى . المرجع السابق . ص ٦٧ .
- (١٧٩) المرجع السابق .
- (١٨٠) ج . بادو وآخرون . التطور فى الدين . دراسات إسلامية لمجموعة من المستشرقين الأمريكيين . ترجمة نقولا زيادة وآخرون . ص ٢٤٦ .
- (١٨١) روز اليوسف ١٢ أغسطس ١٩٣٥ .
- (١٨٢) السيد يوسف . المرجع السابق . ص ٣٤ .

الجهاز السرى

"إذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك أنت، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا".

من وصية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى بريدة

"إن الاغتيال باسم السماء كان وسيظل دوماً لعبة من ألعاب السياسة".

فولتير

وها نحن نعود مرة أخرى فنعاود الكتابة عن هذه الجماعة. نعاود التطلع فى عمق هذه البئر التى كلما حاولت المزيد من التطلع فى عمقه، قادك التطلع نحو أعماق أخرى ظلت خافية. فنحن إزاء جماعة احترفت "التقية"، واعتادت على القول بغير الحقيقة، وعلى تقديم أنصاف الحقائق وأرباعها، وعلى تقديمها بأكثر من لون. وحتى أعضاء الجماعة وقادتها على مر عصورها بدأوا كتاباتهم بآيات كريمة وأحاديث شريفة ثم ما لبثوا فى تعجل أن انقضوا على الحقائق ليقولوا بغيرها، وأتوا بالنقول بدلا من القول الصحيح. وبورع زائف فتكوا ببعضهم بعضا، كل يتهم الآخرين من إخوانه، وكل يغير الحقائق ويغير على الحقيقة.

وعبر قرابة الثمانية عقود تراكمت كتابات مضادة، حقائق وحقائق مضادة، أكاذيب وأخرى تكذبها لكنها هى أيضا كاذبة.

وأنت الحكايات عن الجماعة من أنصار يقدسونها، وفيما هم يسبحون بحمدها نجدهم يغالون بعضهم بعضا، كما أنت من خصوم ذوى خصومة لديدة، لا تعرف . ولو بأقل قدر . محاولة التعرف على الحقيقة.

وبين هؤلاء وأولئك كانت كتابات أكاديمية حاولت أن تؤرخ للجماعة بضمير المؤرخ الأكاديمى الذى يجهد نفسه كى ينطلق مجتهدا نحو الحقيقة، وما أصعب أن يجدها فى خضم كتابات ومواقف واعترافات واتهامات تتبدى كطوفان بلا ضفاف.

وحتى رجال الأمن الذين اتخذوا فى أزمنة "محنة" الجماعة مهنة مطاردتها كتبوا هم أيضا. فقالوا ما لو صدقناه لوضعنا هذه الجماعة فى موضع لا ترضاه لها خصومتنا ذات الطابع الفكرى والسياسى لأفكارها وسياساتها.

ولقد كان بالإمكان إذا ما منحنا الخصومة الغلبة على الحقيقة أن نختار التجول بين أمواج العداة وسنجد منها ما يكفى ويزيد كى يسطر كتباً عدة، لكننا نريد أن

نسعى نحو التعرف على عمق البئر الإخواني، وعبر هذا التعرف المتأنى يمكننا أن نحاول . أقول نحاول . أن نمنح هذه الكتابة بعداً يتسم بالتعرف الموضوعي على هذه الجماعة.

ولأن الأمر صعب، طالما أنه يرتدى ثياب الجدية، فإننا نريد أن نشرك القارئ معنا فى هذه المحاولة. وهكذا فقد آثرنا منهجاً جديداً فى الكتابة عن هذه الجماعة. أن نصطحب القارئ معنا خطوة خطوة. نطالع معه كتاباً إثر آخر نبدأ بما كتبه رجال الجماعة واحداً واحداً، ثم برجالها المنشقين عنها، ثم بكتب أكاديمية فكتابات بعض محترفى مطاردة الجماعة من رجال الأمن. وعبر عديد وعديد من الكتب . التى نؤمل أن تكون كافية كعينات تكاد أن تحتوى الحقيقة بين طياتها، أو تستنطقها، عبر إبراز تناقضات الأقوال والأقوال الأخرى أو حتى الأقوال المضادة، عبر مسيرة نتمنى ألا تطول بأكثر مما نحتاج للتعرف على الحقيقة سنحاول أن نشرك القارئ معنا فى المطالعة والتأمل والمقارنة والمقاربة، وربما فى الحيرة والدهشة والحقن، فلعله من خلال ذلك كله، ومن خلال إعمال الفكر بحثاً عن رؤيته المستقلة التى ستكون . بالطبع . أفضل بكثير من أن نقدم نحن له رؤيتنا فى شكل نتائج جاهزة نفرضها عليه أو نحاول.

أقول لعله من خلال إعمال فكره هو، وعبر مطالعته لنصوص تم اختيارها بحيادية وموضوعية سيكون أقرب إلى الحقيقة التى ينسجها هو بنفسه دون إملاء من أحد. لا منى ولا من أى كاتب أو كتاب آخر.

إنها طريقة جديدة فى الكتابة، أو لنقل إنه درب صحيح للتواصل العقلانى من جانب القارئ، كل قارئ على حدة مع كتابات عديدة ومتنوعة ومتعارضة وبل متناقضة بحيث يصل كل منهم إلى رؤيته الخاصة، وتحليله الخاص، أو لنجاذف فنقول إلى حقيقته الخاصة عن هذه الجماعة. وهى بالضرورة ستكون أكثر نضجاً ووعياً وبقية إذا ما خاض معنا هذا المعترك بعقل منفتح، ورؤية انتقادية لما نقول ولما يقوله غيرنا، نقداً أو تحييراً، مدحاً أو نمّاً.

أعتقد أنني بهذا المنهج أرهق القارئ. لكننى على يقين إنه نوع من الإرهاق المثير للحيرة التى هى مفتاح المعرفة وللهشة التى هى دوماً طريق الباحثين عن الحقيقة.

فتعالوا نحاول معاً وعبر قراءة الكتابات والكتابات المضادة والأخرى التى تحاول أن تكون محايدة، تعالوا نحاول أن نتعرف على هذه الجماعة التى طال شوقنا لى نتعرف على حقيقتها، فنعرف أبعاد رؤيتها ومواقفها ومخططاتها. أو على الأقل لنحاول ذلك، واضعين فى الاعتبار أننا لا نؤرخ لهذه الجماعة فقد فعلنا ذلك أكثر من مرة^(١)، لكننا فقط سنحاول أن نلقى بحزمة مكثفة من الضوء حول الموضوع الأكثر حساسية والأكثر إيلافا وهو علاقة الجماعة بالإرهاب. فلنحاول..

والحقيقة إنه لا خلاف بين أحد من المؤرخين على أن بدايات هذه البذرة الإرهابية كانت فى تربة جماعة الإخوان، وحتى هم يقرون بذلك، وأحياناً يتباهون به، ويتسابقون فى نسبته إلى أشخاصهم دون غيرهم من رموز أخرى للجماعة. ولا يحتاج الأمر إلى كبير عناء فقط نراجع كتاباتهم حول الإرهاب والتنظيم السرى وهى كثيرة ومنها على سبيل المثال: محمود عبد الحليم . الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ "رؤية من الداخل" ثلاثة أجزاء.

أحمد عادل كمال . النقط فوق الحروف . الإخوان والنظام الخاص . صلاح شادى . حصاد العمر .

صلاح شادى . الشهيدان: حسن البنا وسيد قطب .

محمود الصباغ . حقيقة النظام الخاص ودوره فى دعوة الإخوان المسلمين .

ومحمود الصباغ . الذى سنتوقف بعض الشئ أمام كتابه . يقول فى مقدمته

"الإرهابيون نوعان: إرهابيون لأعداء الله، وهؤلاء هم أرق الناس قلوباً وأرهفهم حساً، وإرهابيون لأحباب الله وهؤلاء هم أغلظ الناس قلوباً وأكثرهم قسوة ووحشية"^(٢).

ومثل هذا التعبير، كان المنطق والمستند الذى استندت إليه الجماعة فى الدفاع عن إرهابها وعن جهازها الإرهابى. يقولون أحياناً إنه أنشئ ضد الإنجليز والصهاينة، وفى أحيان أخرى يوسعون الدائرة فيقولون إنه استهدف إرهاب أعداء الله. وتبقى المشكلة فى تعريف من هم أعداء الله، فالإخوان يقررون أن أعداء الله هم تحديداً أعداء الجماعة.. وقد قرر محمود الصباغ ذلك صراحة أكثر من مرة.

وحتى عندما قتل أعضاء فى الجهاز الإخوانى الإرهابى القاضى أحمد الخازندار، غضب المرشد العام للإخوان غضباً شديداً واستتكر الحادث علناً، لكن الأمر كان فى واقع الأمر غضباً لاختراق احتكاره لكل السلطات فى الجماعة، ذلك أن رئيس الجهاز السرى عبد الرحمن السندى قد قرر الاغتيال ودبره دون إذن من حسن البنا. ولهذا تقرر تقديم السندى لمحاكمة داخلية فى إطار الجماعة، وكانت المحاكمة هى المهزلة بعينها لأنها بررت القتل وبرت ساحة مدبره بحجج مثيرة للسخرية.

تشكلت المحكمة الإخوانية من: فضيلة المرشد الأستاذ حسن البنا، صالح ع شماوى، الشيخ محمد فرغلى، الدكتور خميس حميدة، الدكتور عبد العزيز كامل، محمود الصباغ، مصطفى مشهور، أحمد زكى حسن، أحمد حسنين، د. محمود عساف.. أى أكبر قادة جماعة الإخوان، ومعهم قادة الجهاز الخاص. أما المتهم فهو رقم (١) فى الجهاز أى مسئوله الأول عبد الرحمن السندى. قال المتهم "إنه تصور أن عملية القتل سوف ترضى فضيلة المرشد، ولأن المرشد يعلم عن السندى الصدق فقد أجهد بالبكاء ألماً لهذا الحادث الأليم"^(٣)، وبعد هذه المسرحية الهزلية كان الحكم أكثر هزلاً فهو ينص: "تحقق الإخوان من أن الأخ عبد الرحمن السندى قد وقع فى فهم خاطئ فى ممارسة غير مسبوقة من أعمال الإخوان". ورأوا أن يعتبر الحادث قتل خطأ، حيث لم يقصد عبد الرحمن ولا أحد من إخوانه سفك نفس

بغير نفس، وإنما قصدوا قتل روح التبلد الوطنى فى بعض أفراد الطبقة المتقفة من شعب مصر أمثال الخازندار، هكذا ببساطة قصدوا قتل روح التبلد فقتلوا الخازندار فوق القتل خطأ. أليس الأمر مثيراً للسخرية؟ لكن بقية القرار أكثر إثارة للسخرية ونقرأ: "ولما كان هؤلاء الإخوان قد ارتكبوا هذا الخطأ فى ظل انتمائهم إلى الإخوان المسلمين وبسببه، إذ لولا هذا الانتماء لما اجتمعوا على الإطلاق ليفكروا فى مثل هذا العمل أو غيره، فقد حق على الجماعة دفع الدية التى شرعها الإسلام كعقوبة على القتل الخطأ من ناحية، وأن تعمل الهيئة كجماعة على إنقاذ حياة المتهمين البريئين [قرروا ببساطة أنهما بريئان] من حبل المشنقة بكل ما أوتيت من قوة، فدماء الإخوان ليست هدراً يمكن أن يفرط فيه الإخوان فى غير فريضة واجبة يفرضها الإسلام"^(٤).

ثم تتفاهم السخرية عندما نقرأ التبرير لعدم دفع الدية: "ولما كانت جماعة الإخوان المسلمين جزءاً من الشعب، وكانت الحكومة قد دفعت بالفعل ما يعادل الدية إلى ورثة المرحوم الخازندار بك، حيث دفعت لهم من مال الشعب عشرة آلاف جنيه، فإن من الحق أن نقرر أن الدية قد دفعتها الدولة عن الجماعة، وبقي على الإخوان إنقاذ حياة الضحيتين محمود زينهم، وحسن عبد الحافظ".

هل رأيتم عبثاً أكثر من هذا العبث؟

فجأة أصبح الإرهابيان بريئين، ثم أصبحا ضحيتين ثم الحكومة الكافرة التى تحكم بشرع مبدل لشرع الله دفعت الدية عن الجماعة.

ولعل الشيخ عمر عبد الرحمن وهو أمير جماعة إرهابية حديثة كان أقل استدعاءً للسخرية عندما أفتى بخطأ إرهابيه إذ قتلوا غدرًا عشرات من رجال الشرطة فى مديرية أمن أسيوط، ثم أفتى بأن يصوموا شهراً كفارة عن جريمتهم.. وخلص.

وقبل أن تبدأ رحلتنا مع صناعة وصنّاع الإرهاب نحب أن نشير إلى أنهم أنكروه أحياناً، أو قالوا إنه كان ضد الاحتلال والصهيونية فى أحيان أخرى، فلما

كذبتهم الوقائع وثبت بما لا يدع مجالاً للشك وبأقوالهم هم أنفسهم أنهم مارسوا الاغتيال والإرهاب جاءوا يقولون "ده كان زمان" لكننا الآن مستأنسون ولا نمارس إرهاباً.

وإذ نواصل رحلتنا مع الأستاذ محمود الصباغ نقرأ له وهو يتحدث عن اغتيال السادات قائلاً: "قبلغ قمة الاستبداد والتآله على شعب منحه حبه وضحي معه بدمه عزيزاً على أرض المعركة، وهو ظلم لا يرضى عنه خالق السماوات والأرض فسلط عليه شباباً من شباب مصر، وأظلمهم بظله فباغته في وضح النهار وهو في أوج زينته وعزه، يستعرض قواته المسلحة ولا يرى فيهم إلا عبيداً، له ينحنون، وبقوته وعظمتهم يشهدون، وإذا بهم سادة يقذفونه بالنار ويدفعون عن أنفسهم وصمة الذل والعار والشنار. وعادت لمصر عزتها وانتصر الله للمؤمنين نصراً عزيزاً"^(٥).

ولكن ها نحن نتعجل، فلم لا نبدأ الحكاية من بدايتها؟ انضم محمود الصباغ إلى الإخوان عام ١٩٣٩. ثم أفهموه أو أوهموه أنهم يؤسسون الجيش المسلم. وتعرف على عبد الرحمن السندى المسئول عن تأسيس هذا الجيش.

والبداية هي أن يشتري العضو الجديد مسدساً من ماله الخاص. ثم تكون البيعة في منزل بحى الصليبية ويتحسس مصحفاً ومسدساً ويتلو البيعة، ثم يأتيه صوت من الشخص المثلث الذى يتلقى البيعة: "فإن خنت العهد أو أفشيت السر فسوف يؤدي ذلك إلى إخلاء سبيل الجماعة منك، ويكون مأواك جهنم وبئس المصير".

والتركيب التنظيمى للجهاز الإرهابى وفق رواية الصباغ منفصل تماماً عن الجماعة لكنه متداخل تماماً مع قمة قيادتها.

فقادة الجهاز "عبد الرحمن السندى . مصطفى مشهور . محمود الصباغ . أحمد زكى حسن . أحمد محمد حسنين" ومعهم خمسة من أكبر قادة الجماعة: صالح عشاوى، د. محمد خميس حميدة، الشيخ محمد فرغلى، د. عبد العزيز كامل، ود. محمود عساف.

لا مجال إذاً للدعاء بأن الجهاز كان يعمل منفصلاً عن الجماعة. فقادة

الجماعة هم جزء أساسي من قيادته، وفوق هؤلاء جميعا المرشد العام حسن البنا. والإرهاب الإخواني جزء من العقيدة الإخوانية. فمن يعترض عليهم أو يقاومهم أو يصدر قرارًا بحل جماعتهم كافر ثم نقرأ: "وهل يمكن أن يلوم أحد شابًا مسلمًا أو عدة شباب مسلمين إذا ما اتحدت إرادتهم في هذا الظرف المثير على قتل صاحب هذا القرار الداعي إلى الكفر بالله وهو يدعى أنه مسلم" (١).

وإبراهيم عبد الهادي عارضهم وقاوم إرهابهم "فكانت مقاتلة مثل هذا الرجل فريضة دينية تفرضها الشريعة الإسلامية، فتكاثرت أوكار الإخوان المسلمين المسلحة عليه حتى أسقطوه من الحكم وقد تنفذ ذلك بفضل الله" (٢).

وهم يبررون الإرهاب. حتى الآن لم يزلوا يفعلون ذلك. فالكتاب الذي نطالعه، كتبه محمود الصباغ أحد قادتهم الكبار وقد كتبه عام ١٩٨٩، وكتب مقدمته مادحًا في الكاتب وكتابه الأستاذ مصطفى مشهور "المرشد العام للجماعة آنذاك"، الكتاب إذن وثيقة إخوانية حديثة الإصدار.. فماذا يقول؟

إنه يتحدث عن أعضاء جماعته أو بالدقة أعضاء جهازها الإرهابي "لقد تعلم كل منهم كل ما شرعته عقيدته الإسلامية من قواعد القتال والشهادة. ولا حاجة لأحد منهم لعالم يفتي له هل يعمل أو لا يعمل، ولا قائد يقول له هل يتطوع أو لا يتطوع وكلهم قارئ لسنة رسول الله في إباحة اغتيال أعداء الله" (٣).

والقتل عند "الإخوان" سلاح يمكن استخدامه ضد الخصم، ولأى من آحاد الناس أن يفعله.

وحتى أكثر الإخوان اعتدالا يقولون بذلك. فالشيخ محمد الغزالي "الإخواني المعتدل جدا" يقول في شهادته أمام المحكمة في قضية اغتيال د. فرج فودة:

. المحامي: من الذى يملك إقامة الحد؟

. الغزالي: المفروض أن جهاز القضاء هو الذى يقوم بهذه المهمة.

. المحامي: هل يبقى الحد على أصله من وجوب إقامته؟

. الغزالي: حكم الله لا يلغيه أحد. والحد واجب الإيقاع.

. المحامى: ماذا لو أوقعه فرد من آحاد الناس؟

. الغزالى: يعتبر مفتئناً على السلطة، أدى ما ينبغى أن تقوم به السلطة.

. المحامى: هل هناك عقوبة للافتئات على السلطة؟

. الغزالى: لا أذكر أية عقوبة فى الإسلام.

هكذا وببساطة. ولو صدقته المحكمة لأمرت بالإفراج عن قاتل فرج فودة.

ونمضى سريعاً مع كتاب الأستاذ محمود الصباغ ولعله من الضرورى أن نتذكر دوماً أن تاريخ صدور الكتاب ١٩٨٩ وأن كاتب مقدمته هو الأستاذ مصطفى مشهور. - كان الاسم الحركى للسلاح هو "المحفوظات" وأن المرحلة الأولى فى تكوين العضو هى "دراسة قطعة من المحفوظات ثم دراسة باقى قطع المحفوظات"^(٩).

. "ولم يكن الأمر يقتصر على الدراسة النظرية من فك وتركيب وتنظيف لقطع السلاح المختلفة وأنواع القنابل المختلفة ولكن كان لا بد من التدريب على ضرب النار واستعمال القنابل. وقد اتخذ النظام من الجبال والصحارى ميادين للتدريب".

. ثم يقول "ولم يقتصر تفكير النظام الخاص على التدريب على الأسلحة والقنابل التقليدية، بل فكر فى صناعة ما يستطيع تصنيعه محلياً من المتفجرات التى لا تتوافر فى الأسواق مثل قطن البارود، فقد تم إنتاجه بنجاح، وكذلك ساعات التوقيت التى تحدد وقت انفجار العبوة الزمنية، فقد تم تطوير الساعات العادية إلى ساعات زمنية لتفجير العبوات"^(١٠).

. ولكن إنتاج المتفجرات على نطاق ضيق لا يكفى لتغطية الاستعداد لإرهاب واسع النطاق ويمضى محمود الصباغ "ومن ثم اتجه تفكيرنا إلى تصنيع قطن البارود على نطاق واسع، وكان لا بد لذلك من مكبس هيدروليكى كبير من نفس الحجم المستخدم فى صناعة البلاط. ومن ثم اتجه تفكيرنا إلى إنشاء مصنع للبلاط لا يعمل فيه إلا عمال من أعضاء النظام الخاص بحيث ينتج البلاط على أساس تجارى يضمن له صفة الاستمرار، وفى نفس الوقت يستخدم مكبسه فى إنتاج قوالب قطن البارود بالكميات التى تحتاج إليها العمليات. وقد قمت شخصياً بشراء

المكبس الهيدروليكي من السوق، وتم إنشاء المصنع فى ميدان السكاكىنى بالقاهرة بصفته أحد مصانع شركة المعاملات الإسلامية، وتعين كل عماله من أعضاء النظام الخاص وأخذ فعلا فى إنتاج أجود أنواع البلاط، وأقوى أنواع قوالب قطن البارود". وقد تمت تجربة عينات الإنتاج فى الجبل بالصاق القالب فى قطعة قضيب سكة حديد ثم تم تفجيره من بعد حتى لا يصاب أحد من الانفجار. وتحقق لنا نفس قضيب السكة الحديد بانفجار هذا القالب الصغير^(١١).

- ونعود إلى "معدات" الإرهاب إذ يشير المؤلف إلى تقرير ضبط فى حافظة الأستاذ مصطفى مشهور (المرشد السابق وكان متهما رئيسياً فى قضية سيارة الجيب) يدل على أن كاتبه كان يتجسس على جماعة مصر الفتاة، ثم تقرير آخر فى ذات الحافظة يشير إلى تفاصيل عن مراقبة منزل حسن باشا رفعت. وجاء فى تقرير ضبط بذات الحافظة أن محرره أحضر متفجرات تسلمها من آخر من الإخوان الذى أحضرها كهدية. ويشير التقرير إلى أن محرره ذهب إلى منزل عزبة النخل لاستلام "لغم" لكنه لم يجد صاحب المنزل. وقد فتش منزل كاتب التقرير حيث عثر فيه على كميات كبيرة من المواد الناسفة واعترف صاحب المنزل أن متهما آخر قد تسلم لغمًا يمكن توقيت انفجاره^(١٢).

هذه الترسانة من الأسلحة والمتفجرات لا يمكن القول بأنها أعدت للانتقام من شخص أو أشخاص وإنما للانقضاض على نظام حكم بأكمله ومجتمع بأسره. أما ما يثير ما هو أكثر من الدهشة فهو أن هؤلاء الإرهابيين يعالجون أمر الإرهاب، والقتل ببساطة وكأنه شربة ماء. فاغتيال القاضى أحمد الخازندار تم بقرار من عبد الرحمن السندى. القاضى قتل.. فما هو التبرير، يقول المؤلف إن الجماعة كان رأيها أن القاضى لا يجب قتله ولكن لماذا قتل، السبب بسيط وهو أن "عبد الرحمن السندى، كنا نلمس فيه صفاء النفس ورقة فى الشعور. ولعل هذا الإحساس المرهف مع الطبيعة الصعيدية هما القوة الدافعة.. فغلت الدماء فى عروقه"^(١٣).. مرهف الحس وصعيدى وغلت الدماء فى عروقه فأمر بقتل الخازندار.

وهكذا عبر كل صفحات الكتاب نجد تبريراً مبسطاً وبسيطاً للقتل والاغتيال.

. فحادثة قتل سليم زكى باشا حَكمدار العاصمة أمر طبيعى عنده فهو قد أمر بفتح كوبرى عباس "ويمكن أن يكون إلقاء الطلبة القنابل على البوليس مجرد مقاومة لعدوان البوليس عليهم" ثم يقول "وقد كان إلقاء القنابل فى المظاهرات من جانب المتظاهرين فى هذه الأيام أمراً عادياً"^(١٤).. هكذا ببساطة إلقاء القنابل على قوات البوليس أمر عادى، والحقيقة أن آلافاً من المظاهرات وقعت فى هذا الزمان، وملايين من المتظاهرين تظاهروا واصطدموا بالأمن وكان أقصى سلاح استخدموه هو الحجارة. أما القنابل فقد كانت حكرًا على جماعة الإخوان.

- وفى مظاهرة المدرسة الخديوية.. "ألقى الإخوان سيد بدر ولطفى فتح الله قنابل، لم يكونا يقصدان بها أحدًا بعينه من البوليس ولكنهما كانا يقصدان تخفيف حملة البوليس على المتظاهرين، وقد حوكموا وأدينوا بعقوبة السجن عشر سنوات"^(١٥)، مظاهرة لطلبة ثانوى يقذف فيها "الإخوان" قنابل.. وهذا عند المؤلف مسألة عادية.

وبعد تحالف بين حسن البنا وإسماعيل صدقى، قرر الإخوان شن حملة إرهاب ضده لمجرد إشعاره بقوتهم فقاموا بعمليات عدة تباهى بها فى افتخار مثير للدهشة محمود الصباغ موردًا تفاصيل مهمة سنورد بعضها منها:

- "تفجير قنابل فى جميع أقسام البوليس فى القاهرة يوم ١٩٤٦/١٢/٣ (أقسام الموسيقى، الجمالية، الأزكية، مصر القديمة، نقطة السلخانة، عابدين، الخليفة، ومركز إمبابية)"^(١٦).

- ثم يقول "وعمد النظام الخاص إلى إرهاب الحزبين اللذين منحا صدقى باشا الأغلبية البرلمانية، فألقى قنبلة حارقة على سيارة هيكى باشا وقام بذلك الإخوان أحمد البساطى ومحمد مالك.. وكان قد تقرر إلقاء قنبلة على سيارة النقراشى باشا ولكن لم يعثر عليها" ويقول محمود الصباغ فى افتخار إنه هو الذى خطط لهاتين العمليتين.

. ونأتى إلى حادث آخر يعترف به المؤلف وهو حادث محاولة اغتيال إبراهيم عبد الهادى إذ يقول: "وهو الحادث المعروف باسم حادث حامد جودة. حيث كان حامد جودة هو صاحب الركب الذى تعرض للهجوم ظنا من الإخوان الفدائيين بأنه إبراهيم عبد الهادى. لقد كان عمل إبراهيم عبد الهادى امتداداً لعمل النقراشى، فكانت مقاتلة هذا الرجل فريضة دينية تفرضها الشريعة الإسلامية على كل مسلم ومسلمة، فتكاثرت أعمال الإخوان المسلحة عليه حتى أسقطوه من الحكم"^(١٧). وفى نهاية الكتاب يستخلص الأستاذ "محمود الصباغ" مبادئ أساسية قال إنها حكمت موقف الإخوان، وهى:

. يجوز اغتيال المشترك الذى بلغته الدعوة وأصر على العداء والتحريض على حرب المسلمين.

. يجوز اغتيال من أعان على قتال المسلمين سواء بيده أو بماله أو بلسانه.

. يجوز التجسس على أهل الحرب.

. يجوز إيهام القول للمصلحة.

. يجوز أن يتعرض القليل من المسلمين للكثير من المشركين.

. يجوز الحكم بالدليل والعلامة للاستدلال.

ولقد تبدو هذه الكلمات بريئة. لكن الخطورة تأتى إذ نعرف ماذا يعنى بالمسلمين وماذا يعنى بالمشركين، فالمسلمون عندهم جماعة الإخوان والمشرك هو مَنْ يتعرض لها.

وهنا تأتى القضية الأساسية عندما نرفض قيام حزب سياسى على أساس دينى. فالحزب الدينى مثل جماعة الإخوان يعتبر نفسه صاحب الموقف الإسلامى الصحيح. وأن قاداته أهل الحل والعقد، وأن مَنْ والاهم قد والى صحيح الدين ومَنْ عارضهم قد عارض صحيح الدين.. ومَنْ يعارض صحيح الدين كافر ومَنْ أعانه ضد الجماعة كافر.. ومَنْ.. ومَنْ..

ولهذا فهم يتباهون بالقتل والإجرام عندما يتقاعدون.. أما الجماعة فإنها تواصل

الكذب والادعاء بأنها لم تفعل هذا الفعل الإرهابي أو ذاك، وأن هدفها كان محاربة الاستعمار.. لكن الإخوان يفضحون أنفسهم بأنفسهم عندما ينشرون مذكراتهم متباهين بجرائمهم.

ولم تزل هناك كتب إخوانية أخرى.

وكما يفعل الحكام المتحكمون إذ يصطنعون أجهزة تصارع بعضها بعضاً، لتوازن بعضها بعضاً، فيصبح التحكم أكثر إحكاماً، كذلك فعل الأستاذ حسن البنا، فبعد أن أقام "الجهاز الخاص" ونصب عليه عبد الرحمن السندى مسئولاً اكتشف أن السندى قد أصبح مركز قوة في الجماعة إلى درجة أن بعض الإخوان كان يردد "ما دام عبد الرحمن السندى موجوداً فالدعوة بخير"^(١٨). ولأن رجلاً كحسن البنا أحكم قبضته على الجماعة إحكاماً جعل مفكراً إسلامياً شهيراً هو أبو الحسن الندوى يقول: "إذا عطس البنا في القاهرة قال له أتباعه في أسوان يرحمكم الله"^(١٩) فإنه ما كان يسمح لأحد في جماعته أن يكون مركز قوة. ولهذا فما إن شعر بقوة عبد الرحمن السندى حتى بادر بتأسيس جهاز سرى آخر أسماه "جهاز الوحدات" ليضم فيه رجال الجيش والبوليس من أعضاء الجماعة. وتولى مسئوليته الأستاذ صلاح شادى. وكان ضابط بوليس.

وعن هذا الجهاز يتحدث رئيسه صلاح شادى ليروى القصة بأكملها ويعرب عن موقفه من الجهاز الآخر ويحكي صراعاته مع عبد الرحمن السندى في كتابه "حصاد العمر".

ونتابع الحكاية في الكتاب. قدم صلاح شادى بيعته لحسن البنا عام ١٩٤٣. ويقول صلاح شادى إن مهمة "جهاز الوحدات" كانت "تبصير رجال الجيش والبوليس بحقيقة الجهاد في الإسلام، وأنه لا يكون إلا إعلاء كلمة الله، حتى لا يموت الجندى فيهم ميتة جاهلية"^(٢٠). ونتوقف أمام هذه العبارة فالجماعة كانت تعتبر أن العمل وفق منهاجها هو إعلاء لكلمة الله. ومعنى هذه العبارة أن رجال

الجيش والبوليس مطالبون بالجهاد فى سبيل الجماعة وليس فى سبيل الوطن حتى لا يموت الجندى منهم مئة جاهلية.

أما لماذا قام الأستاذ البنا بتأسيس جهاز جديد فهو ما يفسره الأستاذ صلاح شادى صراحة وبلا مواربة إذ يقول: "عرفنى الإمام الشهيد فى باكورة عملى بهذا القسم بالأخ عبد الرحمن السندى باعتباره المسئول عن القسم الخاص الذى يضم تشكيلا من المدنيين من مختلف طوائف الأمة يؤهلون تأهيلاً عسكرياً للقيام بأعمال فدائية". ثم يقول: "وتبين فى الوهلة الأولى من لقائى مع عبد الرحمن السندى أن الذى عناه الإمام الشهيد من هذا اللقاء هو تنسيق العمل بين جهازين يعملان فى خدمة الجماعة فى حقل واحد مشترك من العمل" ثم.. "ولكننى أدركت أخيراً . بالإضافة إلى ذلك . أن مرشد الإخوان إنما كان يخطط لأمر آخر هو ألا يجعل كل رجال النظام الخاص تحت يد واحدة دفعا لما يمكن أن يواجه الجماعة من أحداث"^(٢١). ويعزز صلاح شادى هذه الرؤية بحديث مطول عن حادث اغتيال المستشار أحمد الخازندار ويفسره بأن السندى كان يشعر "باستقلاله هو ومن يتولى قيادتهم من الإخوان عن سلطان الجماعة"^(٢٢).

لكن الوقائع التى رواها الأستاذ محمود الصباغ حول تشكيل لجنة لمحاكمة السندى برئاسة البنا وتبرئته واعتبار قتل الخازندار قتلا خطأ قصد إحياء شعور الفئة المثقة، وأن قاتلى الخازندار كانوا رغم قيامهما بالقتل أخوين بريئين يتعين الدفاع عنهما بكل قوة، توضح أن الأستاذ البنا كان يتلاعب بكل الأطراف ويلعب على كل الأطراف.

إذ يروى الأستاذ صلاح شادى نفسه فى صفحة أخرى من الكتاب أن تولى السندى رئاسة الجهاز الخاص كانت بناء على ببيعة يتعهد فيها "بألا يقدم على أية خطوة عملية إلا بعد الرجوع إلى لجنة القيادة ثم إلى المرشد شخصياً"^(٢٣). ويحاول صلاح شادى . وبعد فوات الأوان . أن يصفى حسابه مع السندى إذ يكرر فى كتابه واقعة ضعف السندى خلال التحقيق معه فى قضية سيارة الجيب، وكيف أنه

اعترف على زملائه بما أساء إلى مراكزهم القانونية. ثم يقول إنه بعد واقعة اغتيال الرجل الثانى فى الجهاز السرى الأستاذ سيد فايز ذهب ثلاثة من قادة الإخوان إلى السندى لسؤاله ثم يقول: "خرجوا باقتناع واضح أنه هو الذى دبر الحادث"^(٢٤).

أما قيمة جهاز الوحدات فقد اتضحت عندما قام مكتب الإرشاد فى ٢٢ نوفمبر ١٩٥٣ بفصل أربعة من أكبر قادة الجهاز الخاص وهم: السندى، وأحمد عادل كمال، ومحمود الصباغ، وأحمد زكى. فأرسل السندى مجموعة من رجاله إلى منزل المرشد المستشار الهضيبى لإجباره على الاستقالة، ومجموعة أخرى لاحتلال المركز العام للجماعة وإعلان صالح عشاوى مرشدًا عامًا. الجهاز السرى يتمرد ويحاول الانقلاب، وهنا يتحرك الجهاز السرى الآخر "جهاز الوحدات" فقد "وصلت إلى المركز العام سيارات تاكسى تحمل عددًا من الإخوة من قسم الوحدات، لم ينتظروا حتى يفتح لهم باب المركز فتسلقوا الأسوار ودخلوا المبنى ومعهم صلاح شادى ليقوموا بطرد رجال السندى"^(٢٥).

لكن المسألة البالغة الأهمية والتى تستحق وقفة تأمل هى أن صراع الهضيبى مع السندى قد جاء على أساس اقتراح يقول إنه لا يجوز أن يعمل فى الجهاز السرى أشخاص سبق القبض عليهم، ومن ثم كان من الضرورى إبعاد السندى ورجاله.

أما كيف تصرف فضيلة المستشار المرشد فكما يقول صلاح شادى "واقفت المرشد بهذا الرأى وبدأ يحكم خطوة بالإعلان عن عدم وجود هذا النظام داخل الجماعة وفى نفس الوقت أبقى عليه وعين يوسف طلعت مسئولًا عن الجهاز"^(٢٦). أرايتم الخديعة، السيد المستشار المرشد العام ينفى وجود الجهاز السرى ويعلن فصل قاداته ثم يبقى على الجهاز ويعين له مسئولاً جديدًا.

ولم يزل للخداع أبواب عدة. ونواصل مطالعتنا لصلاح شادى ونسير معه إذ يحاول أن يدافع عما لا يمكن الدفاع عنه.

يفسر صلاح شادى لنا سر مقابلة حسن البنا للملك فاروق عام ١٩٤٥ فيقول: "لقد كانت فطنته تهديه دائما لتجنب العثار فى هذه المسيرة المليئة بالأشواك من كل جانب، وكان يعتقد أن مسئولية الداعية نحو الناس لا تنقطع إلا بانقطاع وسائل التبليغ"، ومن ثم فقد كان المرشد يعمل "فى كل وقت على التأثير على الملك حتى يحمله على انتهاج سياسة إسلامية تتسق مع دعوته وكان يظن أن لقاءه معه سيحقق له هذا الأمل"، لكن الأمر لا يخلو من خديعة فصلاح شادى يثير دهشتنا إذ يؤكد على الفور "أن حسن البنا لم يحمل ولاء للملك ولا للنظم القائمة"^(٢٧).

لكن صلاح شادى يحاول أن يفسر ما لا يمكن تفسيره إذ يعترف بعلاقة حميمة بين البنا والطاغية إسماعيل صدقى فيقول: "وبعد تولى إسماعيل صدقى الوزارة، مر على دار المركز العام بالحلمية وترك بطاقته تحية للمرشد"، ثم يحاول أن يبرر قائلا: "ويعجز المنصف أن يرى فى هذا السلوك خروجًا عن المألوف" ثم يقول "ومهما قيل حول التصريح لجريدة الإخوان بالظهور، أو شراء أوراق طباعتها بالسعر الرسمى، أو استعمال جواله الجماعة للمعسكرات الحكومية فلا يمكن أن يجرى ذلك بدافع شراء موقف الإخوان إزاء سياسة الحكومة حتى إذا قصدت الحكومة ذلك، لأن كل ما قدمته للإخوان لا يزيد شيئًا على الحق الطبيعى للجماعة"^(٢٨). لكن سؤالًا بسيطًا يظل مستعصيا على إجابة إخوانية، هو: لماذا منح صدقى كل هذا "الحق الطبيعى" لجماعة الإخوان وحدها؟

ثم نعود إلى تصفية الحسابات بين مجموعتى الإرهاب داخل صفوف الإخوان. يقول صلاح شادى إن جميع ما قام به جهاز السندى كان متسما بسوء التخطيط "فحادث الخازندار، وحادث النقراشى، وحادث حامد جودة، وقبلها حادث النادى البريطانى لم تحظ كلها بقدر كاف من التخطيط السليم، وهذه الأحداث كانت أظهر ما قام به النظام عام ١٩٤٨ وما قبله، وكلها ضبط فاعلوها"^(٢٩).

أما حادث محاولة نسف محكمة الاستئناف فيصفه صلاح شادى بأنه يكشف "عن مدى فقد الشعور بالمسئولية التى كان السندى ينظر من خلالها إلى

الأحداث" (٣٠). لكن صلاح شادى يعود ليرىكننا إذ يقول: "أبلغنى الأخ عبد الحليم محمد أحمد إنه كان من ضمن الأشخاص المكلفين بعملية نسف محكمة الاستئناف وأن المرحوم سيد فايز هو الذى أمرهم بنفسه بتنفيذها"، ويمضى صلاح شادى قائلاً: "ومن جهتى فإننى أثق تماماً فى عمق احترام سيد فايز لأوامر المرشد، كما أثق تماماً فى صحة أقوال الأخ عبد الحليم محمد أحمد التى أكدها أيضاً شفيق أنس الذى قام بمحاولة النسف وهذه شهادة مسلمين عدلين" (٣١).

باختصار يحاول صلاح شادى بأسلوب رقيق أن يقول إن قرار نسف محكمة الاستئناف قد تم بناء على أوامر من المرشد حسن البنا لسيد فايز الذى كان مسئول الجهاز السرى بعد القبض على السندى فى قضية سيارة الجيب.. ونعرف حجم الخداع عندما نقرأ بيان البنا الذى أدان فيه حادث محكمة الاستئناف، ووصفه لمديره بأنهم صغار النفوس وأنهم "ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين". ولا تكفى كل علامات الاستفهام.

لكن صلاح شادى يواصل هجومه على السندى . حتى بعد فوات الأوان . فهو ينعى على الجماعة عدم محاسبتها للسندى، ويقول إنه كان من الضروري "مساءلة السندى فى أعقاب موقفه المتخاذل من تحقيقات قضية سيارة الجيب الأمر الذى أدى إلى كشف كثير من الوقائع والأشخاص بمجرد التحقيق معه فى البوليس والنيابة"، ثم يقول: "إن قيادة الإخوان لا يمكن إعفاؤها من مسئولية باعتباره قائداً للنظام الخاص الأمر الذى كان يحتم إبعاده عن منصبه" (٣٢). ولعل منطق صلاح شادى يكون صحيحاً إذا تعاملنا به مع جماعة أخرى، فالأستاذ صلاح شادى وكل الإخوان وكل من تعامل معهم أو عاشهم فى السجون يعرف تماماً أن أكثر من ٩٩% من المقبوض عليهم من الإخوان قد اعترفوا على بعضهم بعضاً.

ثم يعود صلاح شادى ليؤكد أن السندى قد دبر قتل الرجل الثانى فى الجهاز الخاص الأستاذ سيد فايز، ويقول: "إنه ربما اتضح أمر مقتل سيد فايز من فهم الانحرافات فى نفس السندى الذى لم يطق صبراً أن يكون من بين إخوان النظام

مَنْ يخالفه الرأي، أو ينال بالنقد الجدى أسلوبه فى العمل أو موقعه من قيادة النظام" (٣٣).

ثم يقول: "إن السندى قد شاعت عثراته قبل القبض عليه وبعده حين أبان التحقيق عن قدراته"، ولأن عبد الناصر هو العدو رقم واحد للإخوان فإن صلاح شادى يقول: "إن عبد الناصر لم يتميز بسوء أبعد مما تميز به السندى حين خان مسئوليته" (٣٤).

ونواصل رحلتنا مع الأستاذ صلاح شادى، ولكن عبر مصدر آخر هو مقالات عشر نشرها فى جريدة الوطن الكويتية ردا على دراسة مطولة نشرت على حلقات للدكتور عبد العظيم رمضان عنوانها "الإخوان المسلمون والتنظيم السرى". وقد نشرها د. عبد العظيم فيما بعد فى كتاب بذات العنوان ونشر معها مقالات الأستاذ صلاح شادى.

ولسوف نستعرض بعضا مما كتبه صلاح شادى فى هذه المقالات خاصا بالجهاز السرى والإرهاب.

ونبدأ بموضوع التدريب على السلاح. فالأستاذ صلاح شادى ينسى القانون الذى يحرم حيازة السلاح والتدريب عليه ويقرر فى براءة غريبة أن قيام الجهاز السرى بالتدريب على السلاح وتخزينه هو فريضة إسلامية، ويقول: "هكذا يصبح التدريب على السلاح وتنشئة النفس على مشاق الحياة هدفاً يطلب لذاته، ويظل الفرد عاكفا عليه لحفظ معنى الرجولة فيه، وعدم عصيان الله بنسيانه" (٣٥).

وعندما يجادل د. رمضان قائلا: "لو كان الإخوان مخلصين فى دعوتهم إلى الحكم الديمقراطى لكان عليهم أولا حل جهازهم السرى الذى يتنافى وجوده مع النظم الديمقراطية" يرد عليه صلاح شادى بحدة وإيجاز يكشفان حقيقة الأمر، فالإخوان ظلوا طوال حياتهم وحتى الآن يعالجون جرح الجهاز السرى وإرهابه بزعم أنه أقيم لمحاربة الاحتلال الإنجليزى والصهيونية. لكن صلاح شادى يكشف كل أوراق اللعب، فالجهاز عنده أقيم لمواجهة الحكام، ويقول: "النظام الخاص الذى نشأ عبد

الناصر فى أحضانه ليدفع طغيان فاروق هو نفسه الذى أبقاء قادة الجماعة ليدفعوا به طغيان عبد الناصر" (٣٦). هكذا يقرر صلاح شادى صراحة أن من حق الجماعة إذا اختلفت مع الحاكم ومارس ضدها "طغيانا" أن تواجهه بالسلاح، وهو ما يفتح أبواب جهنم.

والمثير للدهشة أنه وبعد خروج الإنجليز وبعد قيام حكومة تحارب الصهيونية (١٩٥٤) كان الجهاز السرى يعزز وجوده بل ويلقى بظلاله السوداء على الجماعة كلها. فقد "كون المرشد قبيل سفره إلى الأفطار العربية فى أوائل يوليو ١٩٥٤ لجنة قيادية مهمتها مواجهة موقف الحكومة من الإخوان بما يلزم مما تهيئه قدراتهم على ضوء الأحداث" وهذا طبيعى، لكن المثير للدهشة هو تكوين اللجنة، فاللجنة مكونة من يوسف طلعت (قائد الجهاز السرى)، صلاح شادى (المشرف على الجهاز السرى أيضا) والشيخ فرغلى (صاحب مخزن السلاح الشهير بالإسماعيلية) ومحمود عبده (وكان من المنغمسين فى شئون الجهاز السرى القديم) (٣٧).

والحقيقة أن الجماعة كانت تعتبر أن الجهاز السرى طبقة مميزة داخل صفوفها، وكان أعضاؤه يتيهون على الجميع بحالة من الاستقواء بوضعهم وجهازهم، ووصل الأمر أن أحد الذين هاجموا بيت المرشد العام محاولين إرغامه على الاستقالة قال للمرشد بعنف شديد: "لقد حضرنا لأننا تعبنا منك، لأنك لا تعرف كيف تقود الجماعة، ونحن لم نر منك خيرا، وقد حضرنا لنطالبك بالاستقالة". أما المرشد الذى لا بد أنه صعق من هذا الهجوم فقد سأله: "الأخ اسمه إيه؟" فأجاب فى تعال على مرشده "اسمى محمد حلمى فرغل من إخوان تحت الأرض"، "تحت الأرض" هذه هى التسمية المثلى للجهاز الإرهابى.

لكن المثير للدهشة أن السندى ورجاله الذين كانوا يقودون الجهاز السرى ضد النظام ما لبثوا وتحت ضغط خصومتهم مع المرشد ورجاله أن تحالفوا مع عبد الناصر.. ويروى صلاح شادى أن الأخ صلاح العطار صرح للأخ سيد عيد يوسف المسئول عن الجهاز السرى فى شبرا الخيمة وهما يتدارسان الوضع بعد

اقتحام رجال السندى لمنزل المرشد لإجباره على الاستقالة واحتلالهم للمركز العام لإعلان صالح عشاوى مرشداً، صرح له قائلاً: "الأخ سيد سابق قادم الآن من عند عبد الناصر ليبلغ السندى بموافقة على الانقلاب داخل الإخوان، وأن التعاون مع عبد الناصر سيتم بعد نجاح الانقلاب"^(٣٨).

وفى كل الأحوال فإن صلاح شادى لا ينسى معركة مع عبد الرحمن السندى، ولعلها معركة ممتدة منذ المنافسة بين جهازين سريين يعملان فى الجماعة "الجهاز الخاص" و"قسم الوحدات".. ولهذا فإنه وبدون مناسبة يقول: "كان الإمام البنا يدرك أخطاء السندى بنفس المستوى الذى أدركها بعده حسن الهضيبى، ويرغب فعلاً فى تغيير قيادة هذا النظام" ثم يحيى شجاعة الهضيبى الذى طرد السندى ورجاله من الجماعة قائلاً إنه "فتح الخراج بمبضع الجراح وكانت هذه شجاعة نادرة من حسن الهضيبى تذكر له بالحمد والفخر"^(٣٩).

ولم تزل صفحات الإرهاب الإخوانى مليئة بما يستحق المتابعة.

ونواصل رحلتنا لاكتشاف جذور الإرهاب فى جماعة الإخوان. ونقلب معا صفحات كتاب آخر لواحد من قادة العمل الإرهابى للإخوان. أحمد عادل كمال الرجل الثالث فى سلم الجهاز الإرهابى لجماعة الإخوان المسلمين المسمى بالجهاز الخاص يصدر هو أيضاً كتاباً عن ذكرياته كإرهابى يتباهى بما ارتكب من جرائم.

أحمد عادل كمال يقدم لنا "النقط فوق الحروف".

وكالعادة فإن مؤلف الكتاب يحاول أن يخوض به معركة داخلية نشبت بين صفوف الإخوان، كل منهم يحاول أن ينسب لنفسه "شرف" ارتكاب أكبر قدر من العنف والإرهاب. فقد كان هناك صراعان وليس صراعاً واحداً: صراع داخل "الجهاز الخاص" أنصار السندى وأعداؤه، ثم صراع آخر بين الجهاز الخاص وجهاز الوحدات.

ونستمع إلى أحمد عادل كمال إذ يحدثنا عن أسلوب تربية الأستاذ حسن البنا لأتباعه في الجهاز الإرهابي فيقول: "كان المرشد يشرح لإخوان النظام الخاص مهامهم، وانتقل إلى ركن الجهاد فذكر أن أولى مراتبه هي إنكار القلب، وأعلاها القتل في سبيل الله" (٤٠).

ثم يجرى تدريب "الإخوان" على القتل.. "وفي الدرس الثاني كان مع المدرس مسدس بلجيكي الصنع كان هو موضوع الدرس وكنا نسمى المسدس مصحفا حتى لا نلجأ في أحاديثنا إلى ذكر المسدسات" (هكذا يدنسون اسم كتاب الله) ثم "وفي الدرس الثالث كان الموضوع القنبلة ميلز ٣٦ شديدة الانفجار، واستمرت الدروس حول القنبلة اليدوية الفوسفورية الحارقة، والقنابل الإيطالية والمفرقات من جليجنايت، ت. ن. ت، قطن البارود، وأنواع القنابل والمتفجرات والبودائى ولوازم النسف والتدمير" (٤١).

ويواصل الإرهابي الإخواني التباهى بقصص عمليات تفجير القنابل في أقسام البوليس وعمليات تفجير عديد من القنابل ليلة الكريسماس (٤٢).

أما عملية قتل القاضى المستشار الخازندار فتروى فى بساطة شديدة وكأننا نقرأ حكاية بوليسية مسلية: "أصدر القاضى الخازندار حكمه ضد الأخوين اللذين ضبطا متلبسين بإلقاء القنابل، ورجعت من المحكمة مطالبا برأس الخازندار حماية لنا فى عملياتنا المستقبلية، ولم تكن مفاجأة لى أن أعلم أنه لم يكن رأى وحدى، وأن هناك غيرى من تطوع لاغتيال الخازندار وبالفعل قتل هذا القاضى" (٤٣).. هكذا ببساطة "قتل هذا القاضى".

وحتى عندما حاول الإخوان التتصل من الجرائم الإرهابية. وعندما اقتنع السيد المستشار حسن الهضيبي المرشد الثانى للجماعة أنه لى يكون الإرهاب والقتل مضمون النتائج يتعين إبعاد الرعوس الإرهابية المعروفة للأمن.. ومن ثم أصدر قراره بفصل عبد الرحمن السندى وثلاثة من كبار إرهابيى الجهاز، وأعلن على الملأ أن الجماعة لم تعد بحاجة إلى جهاز سرى وأنه قد تم حله، كان السيد

المستشار القاضى السابق قد أصدر قراره إلى إرهابى غير مكشوف ليعيد تأسيس الجهاز الإرهابى، ويتولى أحمد عادل كمال تدريب أعضاء هذا الجهاز.

ويورد أحمد عادل كمال متباهياً بعضاً من برامج تدريب الإرهابيين الجدد، مع ملاحظة أننا نتحدث الآن عن سنوات ١٩٥٤.٥٣. فإذا كان هدف الجهاز الإرهابى كما قال أصحابه، وكما لم يزلوا يبررون حتى اليوم هو محاربة الاستعمار والصهيونية والحكومات العميلة للاستعمار والقصر، فقد كانت هناك حكومة عبد الناصر التى سعت لطرد الاستعمار وأعلنت الحرب على الصهيونية وطردت الملك وقامت بتصفية عملاء الاستعمار والقصر، فلماذا الجهاز السرى إذن؟ ولن ننتظر منهم إجابة على هذا السؤال فهم يعرفون ونحن نعرف أنهم يبررون ويكذبون مستندين إلى لائحة الجهاز السرى التى تقول "للمسلم إيهام القول حتى يخدع العدو". ونعود إلى برنامج التدريب فى المرحلة الأولى وإلى الامتحان النهائى^(٤٤).

هناك فى البداية أسئلة لإيهام العضو بأن للأمر علاقة بالإسلام فثمة سؤال حول الأسباب المبيحة للتيمم، ثم سؤال عن فرائض وسنن الغسل، ثم نأتى إلى الأسئلة المهمة.

"اشرح باختصار تكتيكات الانسحاب؟

. اذكر مواضع الطعن القاتلة وكيف تصيبها من خصمك؟

. اشرح كوكيتيل مولوتوف وكيفية صناعته واستعماله؟

. اذكر ما تعرفه عن ميزات قنابل الأنيرجا وفيم تستعمل؟

. احتجت إلى قنبلة ٧٥ ولم تجدها. اذكر تفصيلاً كيف تجهزها محلياً. وما

استعمالها؟

. اذكر مزايا استعمال النسف بالكهرباء واستعمال النسف بالفتيل؟

ونسأل فيم كان ذلك كله، ولماذا؟ وكان ذلك . ومرة أخرى . عام ٥٣ . ١٩٥٤ .

وربما شعر "الأخ" أحمد عادل كمال بأن ما يعترف به فى كتابه سوف يثير دهشتنا ودهشة الجميع فحاول أن يشرح لنا عقيدته.. التى أوجزها فى عبارة أكثر

إثارة للدهشة.. عبارة تقول بصراحة وبساطة "جماعة من غير جهاز سرى مسلح يحميها مجرد تهريج".

والإخوان لا يحبون التهريج.. ولهذا فالجهاز السرى المسلح ضرورى فى كل حين.

وفيما يكشف الأستاذ أحمد عادل كمال عن خبايا عديدة، وعن ضرورة الجهاز الإرهابى للجماعة، فإنه يكشف أيضا عدم صحة أحد أهم الحجج التى تدرع بها الإخوان مبررين وجود هذا الجهاز الإرهابى، ووجود كل هذا السلاح فى حوزته.

دوما.. فى الماضى وحتى فى الحاضر يؤكد الإخوان أنهم إنما أقاموا جهازهم السرى ودربوا إرهابيهم وخبثوا سلاحهم من أجل القضية الفلسطينية، فهل هذا صحيح؟

ونقرأ فى كتاب "النقط فوق الحروف" كيف كان الإخوان يتدربون على استخدام السلاح فى جبل المقطم، ويقول: "وكان الترتيب أن يكون هناك بصفة دائمة وفى مكان مرتفع من يرقب المجال بمنظار مكبر، وكانت هناك حفر معدة ليوضع بها كل السلاح والذخيرة ويردم عليها لدى أول إشارة من الأخ الذى يتولى المراقبة، وبهذا تبقى المجموعة فى حالة معسكر عادى وليس معها ممنوعات، واستمر ذهاب المجموعات وعودتها بمعدل مرتين كل يوم ولمدة طويلة..". ولعلنا نتأمل عبارة "استمر ذهاب المجموعات بمعدل مرتين كل يوم ولمدة طويلة"، فهى توضح كيف كان التدريب على الإرهاب يتم على نطاق واسع.

ولكن حدث فى ١٩ يناير ١٩٤٨ أن أغفل "الأخ" المكلف بالمراقبة أداء واجبه ففاجأ البوليس هذه المجموعة بسلاحها وقنابلها.. ويحكى أحمد عادل كمال القصة ببساطة مثيرة للحيرة "وحتى حالة كهذه كان هناك إعداد لمواجهةها. فقد أجاب إخواننا المقبوض عليهم بأنهم متطوعون لقضية فلسطين، وهى إجابة كان متفق عليها مسبقا. وفى نفس الوقت كانت هناك استمارات تحرر بأسمائهم فى مركز التطوع لقضية فلسطين، كما تم الاتصال سريعا بالحاج محمد أمين الحسينى مفتى

فلسطين ورئيس الهيئة العربية العليا، وشرحنا له الوضع على حقيقته، وكان متجاوبا معنا تماما، فأقر فى التحقيق بأن المقبوض عليهم متطوعون من أجل فلسطين، وأن السلاح سلاح الهيئة العربية العليا، وبذلك أفرج عن الإخوان وسلم السلاح إلى الهيئة العربية العليا^(٤٥).

ونتوقف لنحلل هذه الواقعة.

. كان الإخوان يدربون أعضاء الجهاز السرى ويضعون ترتيبات لحماية عملية التدريب وإخفاء السلاح، بحيث يبدو الأمر وكأنه مجرد معسكر من المعسكرات التى اعتاد الإخوان على القيام بها كجزء من التمرين.

- كان هناك ترتيب احتياطى، فإن قبض عليهم بسلاحهم يزعمون أنهم متطوعون للقضية الفلسطينية.

- كانت تجرى عملية تزييف لتحرير استمارات تطوع للقضية الفلسطينية على غير الحقيقة. ولا تحرر هذه الاستمارات إلا عند القبض على المتدربين حتى لا تكشف أسماؤهم قبل ذلك.

- كان هناك ترتيب مع مفتى فلسطين الحاج أمين الحسينى للتغطية عليهم والزعم بأنهم يتدربون لحساب الهيئة العربية العليا وأن السلاح المضبوط هو سلاح الهيئة.

وهكذا ينكشف أمر الجهاز السرى، فلا علاقة للأمر بقضية فلسطين، بل هى مجرد غطاء ومبرر للتدريب وتخزين السلاح.. والغريب أنها لم تزل تستخدم مبررا حتى الآن يحاول الإخوان أن يستخدموها للدفاع عن جماعتهم وعن جهازها الإرهابى. بدلا من الاعتراف بالحقيقة والإقرار بأن ما كان من تأسيس جهاز سرى للإرهاب هو خطأ وقعت فيه الجماعة ولا مبرر له.

لكن الأمر ليس بهذه البساطة فالجماعة اعتادت أن تستكر الإرهاب وتفعله، وأن تقيم الجهاز السرى ثم تتكر وجوده، فإذا انكشف أمره أعلنت حله وفصلت قاداته ثم تعيد تأسيسه بقيادة جدد.

.. الأمر ليس بهذه البساطة طالما أن عقيدة الجماعة كما أكدها أحد قادتها وهو الأستاذ أحمد عادل كمال "أن جماعة من غير جهاز سرى يحميها مجرد تهريج".

.. وفي صفحات الإرهاب الإخواني كتب أخرى تستحق متابعتها ومطالعتها. فلنحاول.

ثم نأتى بعد ذلك إلى أول مسئول عن الجهاز الإرهابى للإخوان، أو هكذا أكد هو وتابعوه من قادة الجماعة. نأتى إلى الأستاذ محمود عبد الحليم فى كتابه الضخم "الإخوان المسلمون . أحداث صنعت التاريخ . رؤية من الداخل" وهو من ثلاثة مجلدات وتعتبره الغالبية من الإخوان المرجع التاريخى الأساسى لجماعتهم، ويعتبرون الأستاذ محمود عبد الحليم المؤرخ المعتمد للجماعة. ولقد حرص الأستاذ محمود عبد الحليم على أن يصف نفسه وعلى غلاف الكتاب بأنه "عضو الهيئة التأسيسية". وحرص على أن يؤكد فى كتابه وأن يكرر التأكيد على أنه هو أول من تلقى التكليف بتأسيس الجهاز السرى، وعندما اضطرت وظيفته إلى الانتقال إلى دمنهور اقترح هو على البنا أن يخلفه عبد الرحمن السندى. ويبدو أن التلميذ تمرد على الأستاذ فكان ما كان من خلاف تظهر آثاره فى الكتاب هجوما شديدا على السندى^(٤١).

والحقيقة أن الأستاذ محمود عبد الحليم قد أدهشنى، ليس فقط من فرط إلحاحه على خصومته للسندى وإلصاق كل نقيصة به وحده، وكأن الفكرة صحيحة وإسلامية ولكن وريثه فى التنفيذ أخطأ. وإنما من موقفه من مسألة "المعرفة" ودراسة "الإسلام كدين وتعاليم وفقه، بل وحتى من حفظ القرآن".

هو يتحدث عن الجهاد والتضحية والقتل والطاعة فى المنشط والمكره ولكنه فى نفس الوقت يريد للأخ الذى سيجاهد تحت إمرته أن يكون سطحيا فى معرفته بالإسلام، بل وجاهلا بتعاليمه. ولعله كان على حق فى ذلك فلو تفقه هؤلاء الإرهابيون فى أمور الإسلام لما قبلوا بهذا التأسلم.

ونقرأ ما يثير دهشتنا "أن الإسلام شقان: أحدهما للمعلومات والآخر للتنفيذ والتطبيق. ولم يشغل الشق الأول بكل ما فيه من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياة الرعيل الأول معه إلا جزءاً من ألف جزء شغلها الشق الآخر"، ولا يوضح لنا الأخ عبد الحليم كيف يتم التنفيذ والتطبيق دون معلومات. لكنه يمتضى مؤكداً "وما كان الصحابة رضوان الله عليهم . على علو قدرهم . يعرفون من الأحكام الفرعية في الدين عُشر ما يعرفه الآن طلاب المراحل الأولى من الدراسة الأزهرية، ولكن حياتهم مع ذلك كانت ممارسة عملية لما تعلموه من المعلومات الأساسية القليلة من أحكام الدين فكانوا يتحركون للدين، ويسكنون للدين، ويفرحون للدين، ويغضبون للدين"^(٤٧) هكذا كان قصده تماماً وبالنص. أراد رجال الإرهاب المتأسلم أن يفهموا الدين فهما سطحياً ولا يتعمقون فيه، ويكفيهم أن يتبعوا تعليماته هو، وأوامره هو، وما يوجههم به من أنهم يتحركون للدين ويغضبون للدين. ذلك أن القائد الأول للإرهاب المتأسلم يؤكد نصاً "قالإسلام ممارسة وعمل وصبر وجهاد قبل أن يكون معلومات يتعمق في دراستها ويتبحر في الخوض فيها"^(٤٨).

ولعل رفض التعمق في المعلومات يكون مقبولا للمسلم العادى رغم أن العلم مطلوب للجميع بنص أحاديث شريفة عديدة، ولكن هل تكون السطحية هي حالة "الأخ" "المجاهد" الذى "يتحرك للدين" و"يغضب للدين"، أو ما أسماهم حسن البنا "رهبان الليل وفرسان النهار"؟

وحتى حفظ القرآن لا قيمة له عند مؤسس الجهاز الإرهابى. "لقد مد الله تعالى في عمر عبد الله بن مسعود رضى الله عنه حتى رأى أجيالا لا شك أنها كانت أحسن منا حالا وأقرب إلى الدين منا ومع ذلك قال عنهم. "أنزل القرآن عليهم ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملا، إن أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفا وقد أسقط العمل به"^(٤٩). كل شيء متجه إلى العمل الذى هو عند هذا الجهاز الإرهابى المتأسلم الشيء الأساسى، أما التعمق فى فهم الدين.. او حتى حفظ القرآن فلا ضرورة له.

مرة أخرى أعتقد أن الأخ محمود عبد الحليم كان مدركا لما يفعل، فالتطرف المتأسلم والإرهاب والغدر كل ذلك نقيض للفهم الصحيح والمتعمق للدين. ألم يقل مالك بن أنس "من تصوف ولم يتفقه فقد ترندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف وتفقه فقد تحقق".

ويؤكد المؤلف توجهه ضد دراسة الدين بحكاية عن الأستاذ حسن البنا فيقول: "كان الكثيرون من أصدقاء حسن البنا، ومن عارفي فضله من العلماء يحتثونه على تأليف كتب في التفسير وفي مختلف فنون الإسلام، ويلحون عليه في ذلك حرصاً منهم على تزويد المكتبة الإسلامية بنظرات عميقة وأفكار غير مسبقة، ولكنه كان يقول: "دعوني من تأليف الكتب.. فالمكتبة الإسلامية متخمة بالمؤلفات في جميع العلوم والفنون ومع هذا فإنها لم تُعن عن المسلمين شيئاً حين قعدت همهم وثبتت عزائمهم وركنوا إلى الدعة والخمول. والوقت الذي أضيعه (لاحظ أضيعه) في تأليف كتاب، أستغله (لاحظ أستغله) في تأليف مائة شاب مسلم يصير كل منهم كتاباً حياً ناطقاً عاملاً مؤثراً، أرمى به بلداً (لاحظ أرمى) من البلاد فيؤلفها كما ألف هو" (٥٠).

ونقف في المجلد الثاني من الكتاب على أبواب الصراع على مقعد المرشد العام بعد اغتيال المرشد الأول الأستاذ حسن البنا بين أولى القرى وأولى القوة. وترشح من أولى القرى شقيق المرحوم حسن البنا عبد الرحمن البنا، وصهره عبد الحكيم عابدين أما "إخواننا في النظام الخاص في دعوة الإخوان فكانوا يرون أنفسهم أحق بأن يكون صاحب هذا المنصب بترشيحهم" (٥١).

ومن هنا بدأت معركة طاحنة استمرت حتى انتهت بأحداث قتل وفصل وتشهير كانت هي المحور الأساسي للمجلد الثالث من هذا الكتاب.

والمثير للدهشة في هذا الأمر أن الجهاز السري الذي زعم حسن البنا وما زال الإخوان يزعمون أنه أسس لمحاربة الاستعمار، قد تغيب تماماً عن معارك الكفاح المسلح في القنال (١٩٥١) وقد تتصل المرشد العام المستشار الهضيبي . في حديث له نشرته المصري (١٩٥٢/١/٣) ونقله الأستاذ محمود عبد الحليم في

كتابه من أية مشاركة فيه وقال: "كثير تسأول الناس عن موقف الإخوان المسلمين فى الظروف الحاضرة، كأن شباب مصر كله قد نفر إلى محاربة الإنجليز فى القنال ولم يتخلف إلا الإخوان.. ولم يجد هؤلاء للإخوان عذراً واحداً يجيز لهم الاستبطاء بعض الشيء" وقال "إن الإخوان لا يريدون أن يقولوا ما قال واحد منهم . وليس له حق التعبير عنهم . إنهم قد أدوا واجبهم فى معركة القنال فإن ذلك غلو لا جدوى منه ولا خير فيه، ولا يزال بين ما فرضه الله عليهم من الكفاح وبين الواقع أمد بعيد والأمور إلى أوقاتها".

وإذا أتينا إلى المجلد الثالث من كتاب الأستاذ محمود عبد الحليم والمخصص للفترة ٥٢ . ١٩٧١ نجد أنه قد خصص أساساً لتصفية الحساب الإخوانى مع عبد الناصر، ولتصفية الحسابات الإخوانية . الإخوانية، خاصة تصفية الحسابات مع مجموعة عبد الرحمن السندى، ونقرأ: "ويعلم الله كم عانيت فى إعداد هذا الجزء من مشقة نفسية وآلام تلذع القلب وتدميه، فأنا أكتب عن فترة كانت حالكة الظلام، والأشخاص خلالها يتحركون فيتخبط بعضهم فى بعض، فربما أقبل أحدهم على آخر معانقاً وهو يظن أنه إنما يعانق صديقاً ولا يتبين إلا أخيراً أنه إنما عانق العدو، وينفر أحدهم من آخر على أنه العدو ولا يتبين له أنه نفر من صديق إلا آخر الأمر" (٥٢).

ونمضى معه وهو يحكى عن مرارة العلاقات بين الإخوان وبعضهم بعضاً، وكيف تصارعوا صراعاً حاداً وعنيفاً، ونستمع إليه وهو يصف العلاقات بين "رهبان الليل وفرسان النهار" "إنها لم تكن عاصفة كسابقاتها، وإنما كانت هذه المرة دوامة هائجة اخترقوا بها قلب الإخوان المسلمين فى مهجته، فعميت من غبارها العيون، وداخت من دورانها الرعوس، وذهلت بمفاجأتها العقول.. وكيف لا وقد نشأت من صميم لبها ونبتت فى سويداء قلبها وتشعبت فى سائر عروقها، فكانت المصيبة فيها كمصيبة الذى قال:

كيف احتراسى من عدو لى وإذا عدوى بين أضلاعى

أو على حد قول آخر:

كنت من كرتى أفر إليهم فهمو كرتى فأين الفرار^(٥٣)

ولعله يستشعر مقدما أننا سوف نبدي دهشتنا من هذا الصراع المحتدم بين إخوة الجماعة فيقول: "ولقائل يقول أنتم المسئولون لماذا لم تدققوا فيمن تقدموا لعضوية جماعتكم، وإجابة على هذا القائل نذكره بقوله تعالى "ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا" ونقول له: لا تنس أن مِمَّنْ كانوا حول الرسول (صلى الله عليه وسلم) منافقين"^(٥٤).

ثم هو يبدأ بعد ذلك فى تصفية حساب مرير مع عبد الرحمن السندى.

ولسنا طرفاً فى هذا الصراع. بل لعلنا نقول إن "اختلافهم رحمة" لكننا فقط نلاحظ أمرين: أولهما أن عبد الرحمن السندى كان تلميذاً لمحمود عبد الحليم أو هكذا أكد عبد الحليم أكثر من مرة. هو جندّه للجهاز السرى، هو لقنه فنون الإرهاب المتأسلم، هو اختاره ليحل محله فى قيادة الجهاز السرى، أى ليكون رقم ١ فيه.

وثانيهما أن ردوداً عديدة ووجهات نظر مختلفة، وتكذيباً وتكذيباً مضاداً، واتهامات واتهامات مضادة قد ملأت صفحات كتابين كرسا للدفاع عن عبد الرحمن السندى، (أحمد عادل كمال . النقط فوق الحروف . ومحمود الصباغ . حقيقة الجهاز الخاص) ومن هذا الصراع الشرس والوحشى أحياناً، والملء بشتائم سنرى طرفاً منها فيما بعد، استبانة لنا حقائق عديدة، وخفايا كانت مستورة.

ويتحدث الأخ محمود عبد الحليم باستخفاف شديد . وربما ليس محموداً من الناحية الخلقية . عن السندى وعن علاقته بجمال عبد الناصر قائلاً: "وحسب القارئ أن يتصور موظفاً صغيراً بوزارة الزراعة مؤهله الثانوية العامة يطلبه رئيس الحكومة فيستقبله فى مكتبه استقبال الند للند أمام رجال الحكم، ثم يجلسه إلى جانبه، ويمضى ساعات فى الحديث معه منفرداً، ولا يسمح لأحد مهما علا شأنه بالدخول عليهما، وقد تنتهى الجلسة بأن يصحبه إلى منزله فيتغديان معاً". وينسى محمود عبد الحليم أنه هو نفسه الذى اختار وانتقى عبد الرحمن السندى واصطفاه

ليرشحه رئيساً لأخطر جهاز فى الإخوان. ثم يمضى عبد الحليم فى الهجوم على الآخرين: "ولم يكن هذا أسلوب جمال مع رئيس النظام الخاص وحده بل إنه كان يستعمل نفس الأسلوب مع كثيرين من أعضاء النظام حتى الطلبة منهم" (٥٥).

ثم يمضى محمود عبد الحليم فى تحقير شأن السندى فيقول: "أما رئيس النظام الخاص (السندى) فإنه لم يكن بحاجة إلى كل هذه المظاهر من الاحتفاء والتقرب ليسلك المسلك الذى يريده عبد الناصر. ولو أن جمالا اكتفى بأن أوماً إليه مجرد إيماء من بعيد بما يشعره بالتأييد لفعل كل الذى فعل مما كان يريده جمال أن يفعل. فلقد كان رئيس النظام يعتقد أن المرشد العام (الهضيبي) قد سلبه سلطة لا حدود لها، ولا قيود عليها، كان يستمتع بها ويظن أنها صارت تفويضاً إلهياً. ومن هذا المنطلق كان سلوكه الشائن والمخرب الذى تمت جولاته بتدبير أثيم فى كنف عبد الناصر وتحت مظلة من تأييده" (٥٦).

ثم نصل إلى الاتهام البشع.. بأن السندى قد دبر قتل أحد كبار قادة النظام الخاص المهندس سيد فايز ونقرأ: "كان السندى يعلم أن المهندس سيد فايز، وهو من كبار المسؤولين فى النظام الخاص من أشد الناقمين على تصرفاته، وأنه وضع نفسه تحت إمرة المرشد العام لتحرير هذا النظام فى القاهرة على الأقل من سلطته. فكيف تخلص من سيد فايز؟ لقد تخلص منه بأسلوب فقد فيه دينه وإنسانيته ورجولته وعقله". فقط نتوقف لنأمل المفردات.. فقد دينه وإنسانيته ورجولته وعقله.

ونعود إلى رواية عبد الحليم: "انتَهز السندى فرصة ذكرى المولد النبوى الشريف وأرسل إليه فى منزله هدية علبة مغلقة عن طريق أحد عملائه.. فلما حضر وفتح العلبة انفجرت فيه وقتلته وقتلت معه شقيقة له وجرحت بقية الأسرة، وهدمت جانبا من جدار الغرفة"، ويمضى عبد الحليم مؤكداً: "وقد ثبت ثبوتاً قاطعاً أن هذه الجريمة الأثيمة الغادرة كانت بتدبير السندى. وقد قامت مجموعة من كبار المسؤولين فى هذا النظام بتقصى الأمور فى شأن هذه الجريمة، وأخذوا فى تضيق الخناق حوله حتى صدر منه اعتراف ضمنى" (٥٧).

ولكى تتأكد إدانة السندى فقد أورد محمود عبد الحليم تفاصيل عملية فصل السندى وإخوان ثلاثة معه.. وأوردها وهي مرتبطة بهذه الجريمة. ونقرأ: "أمام هذا الغدر المجرم والاعتداء الآثم الذى وصل إلى استحلال الدم، لم يكن بد من اتخاذ إجراء حاسم. واجتمع مكتب الإرشاد فى ٢٢ نوفمبر ١٩٥٣، وتداول فى هذا الموضوع الخطير وانتهى إلى قرار إجماعى بفصل رئيس النظام الخاص وثلاثة من معاونيه هم: أحمد عادل كمال، محمود الصباغ، أحمد زكى^(٥٨).

ونتوقف قليلا لنلاحظ:

إن مكتب الإرشاد عجز عن تقديم أى سبب لعملية الفصل. ويفسر المؤلف ذلك بأن المكتب كان يتحاشى استتارة عبد الناصر بالحديث عن علاقة الإخوان الأربعة به. لكننا نعتقد أن الورطة الأكبر كانت أن مكتب الإرشاد قد وجد نفسه مجبرا على الصمت حتى لا يقر بوجود النظام السرى، وحتى لا يعترف بقيادة هؤلاء الأربعة له، وحتى لا يدين الجماعة ليس فقط بوجود جهاز سرى مسلح فى صفوفها، وإنما بأن رجاله يقتلون بعضهم بعضا بوحشية.

ثم يمضى المؤلف فى هجومه "مهما بلغت الخصومة بين الإخوان فإنها لم تستحل حرمة البيوت، فقد كان الإخوان يرون فى ذلك خسة ونذالة يربأون بأنفسهم عنها، لكن مؤامرة السندى استحلّت حرمة البيوت فاقتحمت على المرشد بيته، واستحلّت دم أخ مخالف لهم فى الرأى".

وهكذا تتأكد المقولة المأثورة "من يرى الثعابين السامة تلدغه". لكن عملية اللدغ هنا كانت متبادلة. ويكفى أن نطالع كتابى أحمد عادل كمال ومحمود الصباغ من ناحية وكتابى محمود عبد الحليم وصلاح شادى من ناحية أخرى لنكتشف أن الأخلاقيات الإخوانية فى إدارة الصراع عبر تدوين التاريخ كانت مفتقدة تماما، وأن ألفاظا نابية، واتهامات جارحة قد جرى تبادلها بشكل غير أخلاقى وغير مفترض.

وبعد هذا نستأذن القارئ فى وقفة قصيرة نستعرض فيها الاتهامات التى وردت

فى المذكرة التفسيرية لقرار حل جماعة الإخوان الصادر فى ٨ ديسمبر ١٩٤٨ .
ليس فقط لنستعرض سلسلة من أعمال إرهابية لم يسمع بها الكثيرون، وإنما . وهذا
هو الأهم . لكى نرى مدى صدق مواجهة الجماعة لهذه الاتهامات .
وننقل عن هذه المذكرة نصاً^(٥٩) : "فى ٨ فبراير ١٩٤٦ بإحدى قرى مركز أجا
قام طالب يخطب الناس حاثاً إياهم على الانضمام لشعبة الإخوان المسلمين فى
تلك القرية، ومحرضاً على "مقاومة كل من يتعرض لهذه الجماعة من رجال الإدارة
وغيرهم . ولو أدى ذلك إلى استعمال السلاح".
وتقول المذكرة التفسيرية:

- أوضحت تحقيقات الجناية العسكرية العليا سنة ١٩٤٢ قسم الجمر ك حقيقة
أغراض هذه الجماعة، وأنها تهدف إلى قلب النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية
متخذة طرقاً إرهابية، بواسطة فريق من أعضائها دربوا تدريباً عسكرياً .
- وبتاريخ ٦ يونيو ١٩٤٦ وقع اصطدام فى مدينة بورسعيد بين أعضاء هذه
الجماعة وخصوم لهم استعملت فيه القنابل والأسلحة وأسفر عن قتل أحد خصومهم
(كان عضواً بحزب الوفد) وإصابة آخرين وضبطت لذلك واقعة الجناية رقم ٦٧٩
لسنة ١٩٤٦ قسم ثان بورسعيد .

- وبتاريخ ١٠ ديسمبر ١٩٤٦ ضبط بعض أفراد هذه الجماعة بمدينة
الإسماعيلية يقومون بتجارب لصنع القنابل والمفرقات .
- كما وقعت بتاريخ ٢٤ ديسمبر ١٩٤٦ حوادث إلقاء قنابل انفجرت فى عدة
أماكن بمدينة القاهرة وضبط من مرتكبيها اثنان من هذه الجماعة قدما لمحكمة
الجنايات فقصت بإدانة أحدهما وهى قضية الجناية رقم ٧٦٧ لسنة ١٩٤٦ قسم
عابدين ١١٧ كلى لسنة ١٩٤٦ . (وقد أورد هذه الحوادث الإرهابية تفصيلاً متباهياً
بتدبيرها الأستاذ صلاح شادى فى مذكراته "حصار العمر").

- وقد تعددت حوادث اشتباك أفراد هذه الجماعة مع رجال البوليس ومقاومتهم
لهم، بل والاعتداء عليهم وهم يؤدون واجبهم، مثال ذلك ما حدث يوم ٢٩ يونيو

١٩٤٧ بدائرة قسم الخليفة من اعتداء فريق جواله الإخوان على مأمور هذا القسم ورجاله.

. وقد ثبت من تحقيق الجناية رقم ٤٧٢٦ لسنة ١٩٤٧ الإسماعيلية أن أحد أفراد هذه الجماعة ألقى قنبلة بفندق الملك جورج بتلك المدينة فانفجرت وأصيب من شظاياها عدة أشخاص، كما أصيب ملقيها نفسه بإصابات بالغة (اعترف بالواقعة متباهيا صلاح شادى فى مذكراته).

- فى ١٩ يناير ١٩٤٨ قبض على خمسة عشر شخصًا من جماعة الإخوان بمنطقة جبل المقطم يتدربون على استعمال الأسلحة النارية والمفرقات والقنابل، وكانوا يحرزون كميات كبيرة منها (تباهى بهذه الواقعة أحمد عادل كمال فى مذكراته: النقاط فوق الحروف).

- وفى ١٧ فبراير ١٩٤٨ اعتدى فريق من هذه الجماعة على خصوم لهم فى الرأى بأن أطلقوا عليهم أعيرة نارية قتلت أحدهم، وكان ذلك بناحية كوم النور مركز ميت غمر، وضبطت لذلك واقعة الجناية رقم ١٤٠٧ لسنة ١٩٤٨.

- بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٩٤٨ عثر بعزبة الشيخ فرغلى رئيس شعبة الإخوان بالإسماعيلية على صندوق يحتوى على قنابل مما استدعى تفتيش منزله، فإذا بأرض إحدى الغرف سردابان بهما كميات ضخمة من القنابل المختلفة والمفرقات والمقذوفات النارية والبنادق والمسدسات وأحد عشر مدفعا، كما عثر فى فجوة بأرض الغرفة على وثائق تقطع بأن هذه الجماعة تعد العدة للقيام بأعمال إرهابية واسعة النطاق.

. وأحرقت فى ١٨ يناير ١٩٤٧ أحطاب لأحد الملاك بناحية كفر بدواى واتهم بوضع النار فيها فريق من شعبة الإخوان بتلك القرية. ولما قام البوليس بالفحص عن أحوال تلك الشعبة تبين لأن أحد أعضائها مقدم لمحكمة الجنايات فى قضية قتل شيخ خفاء البلدة.

- ومن الأساليب التى لجأت إليها الجماعة إرسال خطابات تهديد لبعض

الشركات والمحال التجارية لابتزاز الأموال منها على زعم أنها مقابل الاشتراك في جريدتهم، واقتنصوا بالفعل أموالاً بهذه الوسيلة، وقد تقدمت بعض هذه الشركات بالشكوى من هذا التهديد طالبة حمايتها من أذى هذه الجماعة.

- حدث ببندر دمنهور في يوم ٢٥ مايو ١٩٤٧ بمدرسة الصنائع أن اعتدى تلاميذ الإخوان المسلمين على أحد المخالفين لهم في الرأي، وشرعوا في قتله بطعنه بسكين، وضبطت لذلك واقعة الجناية رقم ١٢٤٨ لسنة ١٩٤٧ ببندر دمنهور.

- وفي يوم ٢٤ يناير ١٩٤٨ تحرش بعض تلاميذ مدرسة شبين الكوم الثانوية من المنتمين إلى الإخوان بزملاء لهم الأمر الذي أدى إلى حادث قتل.

- ولم تتورع الجماعة عن أن يمتد إجرامها إلى القضاء الذي ظل رجاله في محراب العدل ذخراً للمصريين، إذ قصدوا إلى إرهاب القضاء عن طريق قتل علم منهم هو المغفور له أحمد الخازندار بك.. وقد ثبت أن أحد المجرمين القاتلين كان سكرتيراً خاصاً للشيخ حسن البنا.

- وقد وقعت في يوم ٤ ديسمبر ١٩٤٨ حوادث مؤلمة بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة) ألقى فيها الطلاب قنابل على رجال البوليس وأطلقوا عليهم الرصاص. كما حدث في نفس اليوم أن اعتصم بعض طلبة كلية الطب بأسطح مبنى الكلية وأشعلوا النار في أماكن متفرقة وقذفوا رجال البوليس ببعض قنابل وكميات هائلة من الأحجار وزجاجات مملوءة بالأحماض، ثم ألقوا على حكمدار بوليس العاصمة قنبلة أودت بحياته.

- وحدث في ٦ ديسمبر ١٩٤٨ أن تجمع طلبة المدرسة الخديوية واندس بينهم بعض الغرباء وألقوا قنبلتين على رجال البوليس الذين كانوا خارج أسوار المدرسة فأصيب ضابط وسبعة عساكر، وكان مقترفو هذه الحوادث المروعة من المنتمين لجماعة الإخوان.

- ولا تزال النيابة العامة ماضية في تحقيق حادث ضبط سيارة بها مواد متفجرة

ونذائر ومستندات خطيرة بدائرة قسم الوايلي يوم ١٥ نوفمبر ١٩٤٨. وقد أدى التقصى عن ظروف هذا الحادث إلى ضبط كميات هائلة من القنابل والمفرقات جاءت أضعافاً مضاعفة لما ضبط فى تلك السيارة (إنها سيارة الجيب الشهيرة التى ضبطت بالمصادفة، وضبطت فيها أوراق بالغة الخطورة عن تشكيلات الجهاز السرى للإخوان وقبض على العديد من قادة الجهاز الإرهابى، والمثير للدهشة أن أكثر اثنين من المتهمين ضعفاً، واعترفا على زملائهم كانا عبد الرحمن السندى مسئول الجهاز السرى، ومصطفى مشهور الذى أصبح مرشداً عامّاً للجماعة فيما بعد).

. وتمضى المذكرة التفسيرية قائلة: "وقد كشفت ملابسات هذا الحادث حتى الآن عن أن جماعة الإخوان يكونون عصابات إجرامية هى المسئولة عن حوادث الانفجارات الخطيرة التى حدثت فى مدينة القاهرة خلال الشهور الستة الأخيرة، وكان آخرها حادث نصف شركة الإعلانات الشرقية يوم ١٢ نوفمبر ١٩٤٨، وما نجم عنه من هدم وتخريب فى المباني وقتل بعض الأهالى ورجال البوليس وجرح عدد غير قليل من الأشخاص".

.. وكان كل ما سبق هو ما وصل إلى علم الأمن من جرائم إرهابية ارتكبتها الإخوان حتى تاريخ حل الجماعة فى ٨ ديسمبر ١٩٤٨. وبعدها استمر الإرهاب.. قتل النقرشى باشا، محاولة نصف محكمة الاستئناف، محاولة اغتيال حامد جودة، ثم ما تلا ذلك من أحداث إرهابية تواصلت أمدا طويلا.

إنه سجل حافل من الإرهاب المتأسلم.

وكثيرا ما أكدنا وأعدنا التأكيد أن أعضاء الإخوان المسلمين قد اعتادوا الكذب فيما يتعلق بموضوع علاقتهم بالإرهاب، وأنهم يستندون فى ذلك إلى حجة فقهية غريبة ومريبة يرددها الأستاذ محمود الصباغ فى كتابه "حقيقة النظام الخاص" فيقول: "إن قتل أعداء الله غيلة من شرائع الإسلام، ومن خدع الحرب فيها أن

يسبب "المجاهد" المسلمين وأن يضلل عدو الله بكلام حتى يتمكن منه فيقتله" (٦٠) ويقول: "يجوز إيهام القول (أى الكذب) للمصلحة" (٦١).

وهذا المنهج اتبعه الإخوان ولم يزلوا عندما يقتربون من موضوع الإرهاب. وسنحاول هنا أن نقدم دليلاً قاطعاً يقطع بأن مؤسس الجماعة الأستاذ حسن البنا قد اتبع هو أيضاً ذات المنهج.. وتجنب الصدق، وقال عكسه عامداً متعمداً.. ولنقدم بعضاً من أمثلة عديدة.

عندما صدر قرار حل الجماعة أرفقت به مذكرة تفسيرية تورد بعضاً مما ارتكبه الجماعة من أعمال إرهابية، ويحاول البنا التوصل من ذلك على طريقة.. "ومن خدع الحرب أن يضلل المسلم عدو الله بالكلام حتى يتمكن منه فيقتله". ولم يدرك فضيلة المرشد الأول ساعتها أن بعضاً من رجاله سوف يأتون فى زمن لاحق ليقولوا الحقيقة فيضعوه وبعد رحيله بسنوات عديدة فى مأزق الاتهام بالكذب الفاضح.

.. جاء فى المذكرة التفسيرية: "كما وقعت بتاريخ ٢٤ ديسمبر ١٩٤٦ حوادث إلقاء قنابل انفجرت فى عدة أماكن وضبط من مرتكبيها اثنان من هذه الجماعة.. وأدين أحدهما". ويرد الأستاذ حسن البنا على ذلك قائلاً: "والشخص الذى أدين بمناسبة حوادث ٢٤ ديسمبر ١٩٤٦ لم يثبت أنه أمر بهذا من قبل الإخوان أو اشترك معه فيه أحد منهم.. فتحمل الهيئة تبعة هذا التصرف لا حق فيه ولا مبرر له" (٦٢).

ولكن يشاء الله أن يأتى أحد أركان الجماعة وأحد مؤسسى جهازها الإرهابى (أحمد عادل كمال) ليؤكد أن هذه العمليات قد تمت بتدبير من الجماعة وأن جميع مرتكبيها كانوا أعضاء فى جهازها السرى (٦٣).

وإذ نتحدث المذكرة التفسيرية عن محاولة نسف فندق الملك جورج بالإسماعيلية واتهام أحد الإخوان فيها يقول الأستاذ البنا وعلى غير الحقيقة: "ثبت أن الذى اتهم فيها غير مسئول عن عمله وسقط الاتهام عنه، فهل تكون هيئة الإخوان مسئولة عن عمل شخص تبين أنه هو نفسه غير مسئول عن عمله؟" (٦٤).

لكن صلاح شادى أحد قادة الجماعة يكشف الحقيقة قائلا: "والتقى أمرنا داخل قسم الوحدات على القيام بعملية إرهابية داخل فندق الملك جورج.. وكلفنا الأخ رفعت النجار من سلاح الطيران بالقيام بهذه العملية بأن يحمل دوسيتها به مادة ناسفة يشعلها ثم يتركها فى ردهة الفندق" وأصيب المنفذ فى الحادث وقبض عليه، ولما كانت التهمة ثابتة عليه فإن صلاح شادى يعترف صراحة "وأحضرنا له بعض الإخوة المحامين الذين دفعوا بأن قدراته النفسية والعقلية لا تضعانه فى مستوى المسؤولية الجنائية"^(٦٥).. الشيخ البنا يقول إنه غير مسئول عن عمله. أما صلاح شادى فيزهو بشجاعة المنفذ للعملية وبأكاذيب الإخوة المحامين.. والفارق واضح بين الكذب والحقيقة.

وتورد المذكرة التفسيرية واقعة ضبط عدد من أعضاء الجماعة يتدربون على السلاح فى المقطم. ويرد الشيخ البنا "هؤلاء الخمسة عشر الذين ضبطوا بعضهم من الإخوان ومعظمهم لا صلة له بالإخوان أصلا، ولقد برروا فعلهم بأنهم يستعدون للتطوع لإنقاذ فلسطين".

لكن أحمد عادل كمال يقول عكس مرشده.. فالجميع كانوا من الإخوان.. وكان التدريب يتم لأسابيع عدة دفعتين كل يوم.. وإن الترتيبات كانت تقضى بإعداد حفرة تخبأ فيها الأسلحة إذا شعروا باقتراب الأمن.. وإذا قبض عليهم كان على الإخوان المقبوض عليهم "أن يقولوا إنهم متطوعون لقضية فلسطين وهى إجابة كانت متفق عليها، وفى نفس الوقت كانت استمارات بأسمائهم تحرر فى مركز التطوع، كما تم الاتصال بالحاج أمين الحسينى وشرحنا له الوضع على حقيقته وكان متجاوبا معنا تماما فأقر بأن المقبوض عليهم متطوعون وأن السلاح سلاح الهيئة العربية العليا".

أما عن حادث سيارة الجيب فإن البنا يقول "لقد ضبط فيه عدد كبير من مختلف الهيئات"، ثم ثبت أن الجميع من الإخوان وأنهم جميعا من قادة الجهاز السرى للجماعة.

ويبدو الكذب فاضحا فيما يتعلق بحادثة اغتيال أحمد الخازندار . إذ يقول البنا:

"وكل ذنب الإخوان فيه أن أحد المتهمين شاع أنه سكرتير المرشد العام" .. ولكن محمود الصباغ يكشف النقاب عن أن البنا رأس لجنة تحقيق إخوانية أقرت بمسئولية الجهاز السرى عن القتل وأقرت بوجوب دفع "الدية" ولكنها أعفت نفسها من ذلك لأن الحكومة دفعت تعويضا لأسرة المستشار.

.. كنا نعرف دوما أنهم يكذبون.. لكن أن يفتضح كذب المرشد العام بأقلام رجاله.. فهذا جديد.

وحبال الكذب تمتد طويلاً وربما بلا نهاية، لكنها دوماً قصيرة، فسريراً ما نكتشف ما فيها من بهتان. والمثير للدهشة أننا نكتشف ذلك عبر كتابات "الإخوان" أنفسهم وعبر صراعاتهم مع بعض بعضاً، أو تباهيهم المفرط بما ارتكبوا من جرائم.

ونعود لنفتح صفحة أخرى من كتاب الإرهاب الإخوانى المتأسلم المراوغ. فهم دائماً يرتكبون الجرم ثم يحاولون التملص منه. فواقعة محاولة اغتيال عبد الناصر فى ميدان المنشية. ينفى الإخوان ولا يزالون مشاركتهم فيها وأكدوا أنها خدعة ناصرية. ووصل الأمر بالأستاذ عمر التلمسانى أحد مرشدى الجماعة أن قال: "حادث المنشية قد اخترعه خبير أمريكى ودبره عبد الناصر للإيقاع بالإخوان"^(٦٦). وقالت مجلة "لواء الإسلام" "إن حادث المنشية دبره عبد الناصر"^(٦٧).

لكننا أمام شهادة أخرى يقدمها اللواء حسن أبو باشا الذى يقول: "لقد لجأت جماعة الإخوان بعد حادث المنشية إلى نشر شائعات كثيرة تشير كلها إلى أن محاولة الاغتيال فى المنشية كانت مجرد تلفيق وتمثيلية أحبك إخراجها بهدف التخلص من الجماعة والقضاء عليها"^(٦٨).

ويقدم اللواء أبو باشا أدلته المضادة فيقول إن قيادات الإخوان وعلى رأسهم المرشد العام قد اختفوا فجأة قبل حادث الاغتيال، ومن ثم فقد تقرر القبض على عدد من قيادات الجهاز السرى وقام حسن أبو باشا بتفتيش "منزل أحد أعضاء

الجهاز السرى، وهو طالب يقيم بمنطقة بين السرايات وقد عثرت على مسودة خطابين بين صفحات أحد الكتب فى غرفته أحدهما موجه إلى المحامى إبراهيم الطيب (كان مسئول المجموعة التى كلفت بعملية المنشية) وكان مرسل الخطابين هو مسئول التسليح فى الجماعة. أما المطلوب من إبراهيم فهو إرسال الخطاب الآخر على وجه السرعة إلى المرشد العام. فماذا يقول الخطاب "إنه يذكر المرشد بالقرارات السرية التى اتخذت فى المؤتمر العاشر للجماعة والتى كان من بينها أن الجماعة يجب ألا تسعى للقيام بأى عمل انقلابى إلا بعد أن يتحقق لها قاعدة قوية فى الجيش والشرطة وأن أى عمل سيقوم به الإخوان الآن لن تكون له نتيجة إلا بحور من الدماء يغرق فيها الإخوان" ويستنتج اللواء أبو باشا أن الخطاب كان يحذر من عملية المنشية. خاصة وأنه أرسل إلى إبراهيم الطيب الذى أشرف على تنفيذها.

لكننا كعادتنا نعود إلى كتابات قيادات الإرهاب المتأسلم لأن فيه ما يكفى من أدلة. ولدينا شهادة الضابط الإخوانى المخضرم عبد المنعم عبد الرعوف فى كتابه "أرغمت فاروق على التنازل عن العرش" وكان قد هرب خلال عملية ترحيله من السجن الحربى وكلفته الجماعة بوضع خطة للقيام بما أسماه هو "انقلاب إسلامى" فأرسل من مخبئه (كان مختبئاً فى منزل كادر إخوانى من الجهاز السرى اسمه عبد اللطيف، ونلاحظ أن عبد اللطيف هو الذى قام بمحاولة اغتيال عبد الناصر) نقول أرسل من مخبئه "يطلب موافاته بما يلى:

١. عدد أفراد الجهاز الخاص المدربين.
٢. كشف مفصل بجميع الأسلحة الصغيرة الصالحة للاستعمال . رشاشات . بنادق . طبنجات . قنابل يدوية . خناجر . ذخيرة.. إلخ" (٦٩).

ويروى فى مذكراته أو اعترافاته أنه كان فى الفترة السابقة لمحاولة الاغتيال على اتصال مباشر بثلاثة من أخطر المتهمين فى الحادث: إبراهيم الطيب وهنداوى دوير والشخص المسمى "عبد اللطيف"، ويصف عبد المنعم عبد الرعوف هذا الشخص

وصفا دقيقا ينطبق تماما على من قام بإطلاق رصاصات المنشية.

ويروى فى مذكراته أيضا أنه خلال لقاءاته مع هذه المجموعة "وجد أن هنداوى دوير كان متحمسا جدا لإطلاق النار على جمال عبد الناصر وأقسم له: "والله العظيم أن جميع العسكريين سينفركشون عند سماعهم أول طلقة"^(٧٠) ثم يقول "إنه نظم معسكرا للتدريب على السلاح فى كرداسة وإن الذى نظم المعسكر هو إبراهيم الطيب أحد الذين اتهموا فى حادث المنشية"^(٧١).

ثم هو يقرر فى حسرة أن هنداوى دوير الذى كان أول المتحمسين لإطلاق النار على عبد الناصر لم يلبث أن سلم نفسه للبوليس بعد الحادث "وأدلى بكثير من الاعترافات والخطط لم تكن فى الحسبان"^(٧٢).

لكن هذه المحاولة لم تكن الخطة الوحيدة، ويعترف يوسف طلعت مسئول الجهاز السرى فى ذلك الحين أن عبد المنعم عبد الرؤوف قد وضع خطة لاقتحام مجلس الوزراء واحتلاله والقيام بانقلاب، وطلب تدبير أربع فصائل من الجهاز (الفصيلة ٣٠ عضواً) يرتدون ملابس البوليس الحرى.

وقد ضبط بالفعل عدد ٥٠ بدلة عسكرية لدى المقبوض عليهم^(٧٣). ويعترف إبراهيم الطيب أمام المحكمة بأنه كانت هناك خطة تالفة تستهدف اغتيال مجلس قيادة الثورة بأجمعه^(٧٤).

وتمضى الاعترافات الإخوانية، تمضى وكأنها بلا نهاية، ولا نملك إلا أن نتواصل معها حتى نكتشف عمق البئر الإخوانى المتأسلم.

ورحل حسن البنا بعد أن حاول أن يتلاعب بالجميع فتلاعب به الجميع. ولأن الديمقراطية داخل الجماعة كانت . ولا تزال . مفتقدة، وإذ كان رجال الصف الثانى يخوضون صراعاً حاداً على منصب المرشد العام الذى يحتكر كل النفوذ وكل السلطان. ولأن التأسلم يمنح صاحبه ابتعاداً عن سماحة الإسلام وتسامحه مع الآخر، فإن الصراع يصبح شرساً وحتى عنيفاً، ألم نر كيف قتل عبد الرحمن

السندى مساعده المهندس سيد فايز، مفجراً إياه بشحنة ناسفة مخبأة فى علية
لحلولى المولد النبوى؟

ولعل حسن البنا كان أكثر دراية برجاله منا جميعاً ولهذا فقد ترك لهم مقولة لم
يلتفت إليها أحد.. "إنى والله لا أخشى عليكم حديداً أو ناراً، ولا أخشى عليكم مالاً
أو نساء.. بل أخشى عليكم أنفسكم فلا تختلفوا".

لكنهم ما إن أفاقوا من هول الاعتقال حتى تصارعوا بشراسة على موقع السلطة
الوحيد فى الجماعة، موقع المرشد العام. بل إن الصراعات حول موقع المرشد
العام قد نشبت شرسة ودم حسن البنا لم يجف بعد. بدأت حتى وهم فى السجون
والمعتقلات. ويروى أحد قادة الإخوان وهو الأستاذ فتحى العسال (مراقب المركز
العام للجماعة) قصة ما أسماه بالخلاف الأسبق قائلاً: "إن الفتنة بدأت تدب داخل
الصفوف فى المعتقل، وكذلك، وبعد خروج الإخوان من محتتهم طمع البعض منهم
فى أن يحظى بهذا المنصب، فمثلاً الأستاذ محمد فريد عبد الخالق كان يقوم
بحركات تقليدية متشبها بخلجات الإمام الشهيد ونبراته، كذلك الأستاذ عبد الحكيم
عابدين كان فى المنصب من الطامعين، ويعتقد أن له الأحقية فيه دون غيره لأنه
السكرتير العام الذى بيده مقاليد الأمور والمسئول الأول أمام القضاء عن الإخوان،
وكذلك الأستاذ صالح عشاوى مدير الشركة الإخوانية، وعلاوة على ذلك فقد لبث
عمرًا طويلاً وكيلاً للمرشد العام. ولا يخفى على القارئ أن الأستاذ عبد العزيز
كامل كان له مثل ما لغيره من الآمال"^(٧٥). ويظهر صراع حقيقى وصفه البعض
بأنه صراع بين ذوى القربى (شقيق البنا وصهره) وذوى القوة (أعضاء الجهاز
السرى) وحسنى النية الذين تصوروا أن الأمر يمكن البت فيه عبر النوايا الحسنة
والاستحسان المنطقى، والمثابرة فى الدعوة (مثل الأستاذ فريد عبد الخالق والأستاذ
عبد العزيز كامل والشيخ الباقورى) أما صالح عشاوى فقد كان مرشح أهل القوة
(الجهاز السرى). وكان هناك أيضا صاحب النفوذ بين الطلاب الأستاذ مصطفى
مؤمن.

وكل ذلك مقبول وطبيعى لكن المشكلة تكمن فى كيفية إدارة الإخوان لصراعاتهم.

فما إن أحس صالح عشاوى بمنافسة جادة من الأستاذ مصطفى مؤمن حتى هاجمه هجوماً شرساً على صفحات جريدة المصرى، ونقرأ ما كتبه صالح عشاوى: "إن ما نشره الأستاذ مصطفى مؤمن لا يعبر عن رأى الجماعة لأن هذا الأخير لم يعد عضواً منها، لأنه خرج على الإخوان ولم يعد واحداً منهم لنزعتة الذاتية وحبه للترغم والسيطرة والتي لفتت نظر المغفور له المرشد العام والتي حدث به أن يطلب من الأستاذ مصطفى مؤمن أن يخرج هو ومن يؤيده ليعمل بما يرضى نزعتة" (٧٦).

ويرد مصطفى مؤمن قائلاً: "ولا يسعنى فى هذا الصدد إلا أن أستبعد على الأحياء أن يعلقوا على مشجب الشهداء أثواباً وأردية ليست لهم" (٧٧). ويعود صالح عشاوى ليلتهم مصطفى مؤمن بأنه أراد موقع المرشد لنفسه لحظة اغتيال البنا "وقد حدث عندما كنا فى المعتقل وسمع الأستاذ مؤمن باستشهاد المرشد العام أن أذاع بين المعتقلين نبأ الاستشهاد وعقب على النبأ قائلاً "لنستبدل المنهاج بمنهاج والرجل برجل ولا حاجة بنا إلى الانتظار" بل وقال "إن وجودنا فى الطور ما هو إلا نتيجة لتصرفات المرشد، وأنا اعتقلنا بجريرة غيرنا" (٧٨).

ويرد مصطفى مكذباً فى حدة صالح عشاوى فحديثه "محض خيال وحديث خرافة إذ من غير المعقول أصلاً أن يكون مقام الحزن والرتاء محل جدل سياسى، ونقاش برامج عن حاضر أو مستقبل" ثم هو يفجر قنبلة أخرى فصالح عشاوى لم يكن معهم أصلاً فى معتقل الطور، وإنما كان معتقلاً بهايكستب قرب القاهرة (٧٩). ويرد عشاوى قائلاً إنه لم يكن هناك ولكنه سمع ذلك ممن كانوا فى الطور ويقول "إنه سمع هذا الكلام من إخوان صادقين وأمناء وشرفاء، وإذا كانت البيئة تقوم برجلين أو أربعة فأنا أستطيع أن أذكر لك أربعين شاهداً بل أربعمائة من الشهود العدول".

ويعود مصطفى مؤمن ليكذب صالح عشاوى مؤكداً أن الطور لم يكن به سوى

١٥٠ معتقلاً من الإخوان والشيوعيين واليهود معاً وليس أربعمائة، وحتى لو أضيف إليهم الحراس والهجانة والقومندان فلن يصلوا لهذا الرقم، ثم يقول "إن أشقاء فضيلة المرشد العام الثلاثة الأساتذة محمد وعبد الباسط وجمال كانوا معي في الطور وهم بلا مرأى غير وأحفظ لما يقال عند مرشدكم وشقيقهم الشهيد". وطلب شهادتهم، ويرد صالح عشاوى ردّاً قاسياً لكنه ينسى أنه قال إن مصطفى مؤمن قد طرد من الجماعة، ويقول إنه مجرد عضو عادى فى قسم الطلاب.

وهكذا تمتد الخلافات حول المنصب فيكذب من يكذب ويشتّم من يشتّم، وتختفى آداب الحوار الإسلامى أو حتى الحوار الحزبى، ونرى الوجه القبيح للجماعة وقياداتها.

ونمضى مع كتاب الشيخ فتحي العسال (مراقب المركز العام للجماعة) لنطالع ما لم يعهد أحد من شتائم واتهامات.. لِمَنْ؟ للمرشد العام ومؤيديه من الإخوان. ونقرأ "كان حسن الهضيبي بداية النهاية فى تاريخ الإخوان" أما عن مؤيديه "فبمجرد القبض على أحدهم اعترف فوراً على مكان رئيسه، نرى ذلك فى أقوال هنداوى الذى أرشد عن مكان يوسف طلعت فى الحال وتم القبض عليه دون مقاومة، وكذلك الضابط صلاح شادى الذى اعترف فوراً على مكان الهضيبي" (٨٠).

ويقول الشيخ العسال إن الهضيبي وصل إلى قيادة الجماعة عبر مؤامرة دبرها منير دله وعبد الحكيم عابدين، وأن الأمر تم عن طريق ناظر الخاصة الملكية نجيب باشا سالم زوج شقيقة حسن الهضيبي بك (٨١).

ثم يقول: "واختير الهضيبي الذى لا يعرفه أحد من الإخوان مرشداً عاماً. واعترف الإخوان بزلتهم بعد اختياره، وعرفوه قريباً ونسبياً وصهرًا لأربعة من رجال السراى الملكية ومن مستشارى الملك فاروق المقربين فهو زوج أخت نجيب سالم باشا ناظر الخاصة الملكية، وابنه متزوج من بيت سالم باشا، وهو قريب عمر حسن رئيس القسم المخصوص فى وزارة الداخلية وعبد اللطيف طلعت، وحسن يوسف باشا رئيس الديوان الملكى بالنيابة، وكانت هذه القرابات بمثابة نعش لجماعة الإخوان لأنها حكمت

باختياره مرشداً" ثم يقول "لقد أفلحت الخطة فكان حسن الهضيبي بك مرشداً للسراى وليس مرشداً لجماعة الإخوان المسلمين" (٨٢).

ويروى الشيخ العسال واقعة مثيرة للدهشة إذ يقول إن جريدة "أخبار اليوم" خرجت لتعلن نبأ اختيار الإخوان للهضيبي مرشداً عاماً قبل اجتماع الهيئة التأسيسية لاختياره بشهر كامل.. ويقول "إذن الأمر مبين قبلها بشهر" (٨٣).

ويوم اجتماع الهيئة التأسيسية انحنى عبد الحكيم عابدين ليقبل يد الهضيبي "وفى ذلك إشارة إلى الإخوان جميعاً أن اصنعوا مثل ما صنعت" (٨٤).

ثم يقول إن عبد الحكيم عابدين رشح عبد القادر عودة وكيلاً للجماعة رغم أن مدة عضويته في الجماعة لم تكن لتسمح له بذلك، فقانون الجماعة يشترط مضي خمسة أعوام على ترشيحه لعضوية الهيئة التأسيسية.

ويقول: "لكن خطة عابدين والدله التي دبرها كانت تقضى باختيار رجلين مجهولين للإخوان جميعاً لمنصبى المرشد العام والوكيل العام، متخطين بذلك مبادئ الجماعة وقانونها" (٨٥).

أما أول قرار للمرشد العام الجديد فهو "١٠٠ جنيه مرتب للمرشد العام . ٧٥ جنيه كمرتب لعبد القادر عودة . ٣٥ جنيه كمرتب للسكرتير الخاص للمرشد سعد الدين الوليلي" (٨٦)، مع العلم بأن المستشار الهضيبي كان يتقاضى معاشاً كقاض سابق. ثم يسوق الشيخ العسال اتهاماً مثيراً للدهشة فيقول: "إن الهضيبي جمع تبرعات من الإخوان لإنشاء مجلة تنطق بلسان الجماعة ثم اشترى بالمال الذى جمعه سيارة أنيقة ماركة كريسز لر لنفسه" (٨٧).

ويقول المؤلف إن استلام الإخوان لدار المركز العام بالحلمية كان ثمرة اتفاق المرشد مع الملك ويقول: "لقد تسلم الإخوان دارهم ولكنهم دفعوا الثمن غالياً على يد المرشد الجديد الذى انحرف بالدعوة قضاء ثمن رخيص من المطاعم والأهواء، أما مبادئ الدعوة، أما تعاليم الإسلام، فكل هذه ألفاظ تقال فى المناسبات، والسياسة تقضى بإغفال هذه المعانى، وهذه سياسة جديدة على الدعوة وعلى أبنائها، سياسة مقبلة مهينة لم

يعرفها الإخوان من قبل^(٨٨).. ثم يتحدث عن سكوت الهضيبي على جرائم الإنجليز في القنال ويقول: "وماذا يفعل الهضيبي لأصدقائه الإنجليز، وخلانه المستعمرين الذين نصبوه مطية لهم على الإخوان"^(٨٩).

هكذا ببساطة المستشار حسن الهضيبي المرشد العام للإخوان المسلمين يتهمه أحد كوادر الدعوة بأنه عميل للقصر الملكي "ومرشد" للقصر (وهو يستعمل كلمة مرشد هنا بمعنى مخبر)، ثم هو أيضا مطية لأصدقائه الإنجليز وخلانه المستعمرين. لكن الألفاظ لا تلبث أن تتحول إلى شتائم مقذعة فالهضيبي "يتحد مع الإنجليز والاستعمار ويتفق معهم على أحط صفات النذالة في سبيل الوصول إلى مآرب مبيتة بينه وبين سيده الذي ولاه (الملك) وبين هؤلاء المستعمرين الغاصبين"^(٩٠). ثم يقول إن الملك كان يسخر من أهل مصر عبيدًا له "وخدمًا رقعاء نفذوا أغراضه الخبيثة بقتل دعوة الحق والقوة والحرية التي اغتال صاحبها من قبل"^(٩١).

والشتائم والاتهامات ضد المرشد العام بغير نهاية وما يعيننا فيها هو أخلاقيات الحوار في الجماعة التي انحدرت إلى أننى مستوى، والكتاب بأكمله ركام من الشتائم والاتهامات التي نعف عن ذكرها.

وإذ نترك التهجم بالشتائم والاتهامات الجارحة نأتى إلى دراسة نقدية جادة، للمفكر د. عبد الله النفيسى فى دراسة ضمن كتاب عن الحركة الإسلامية^(٩٢)، ويضم الكتاب عددا من الدراسات الأكاديمية لمفكرين إسلاميين تناولوا بالبحث تاريخ الحركات الإسلامية ومستقبلها، ولعل أهم هذه الدراسات هى دراسة الدكتور النفيسى المعنونة "الإخوان المسلمون فى مصر: التجربة والخطأ". وقبل أن نبداً يجدر بنا أن نشير إلى أن د. عبد الله النفيسى ظل لأمد طويل معدوداً من رموز الإخوان فى الكويت.

وتحفل الدراسة بعدد من الانتقادات المهمة، وهو يبدأ انتقاداته بفحص جذور الجماعة منذ حياة مؤسسها الأستاذ حسن البنا الذى يمتلك ضده انتقادات عدة

أهمها: تأسيس الجهاز الخاص (الجهاز السرى) . إهمال تربية وتكوين وتدريب كوادر قيادية تتمتع بالأهلية والمقدرة القيادية لتحل محله . وتحامله وهجومه بشكل مستمر على الحياة الحزبية والأحزاب، الأمر الذى يعكس غياب نظرية متكاملة للعلاقات السياسية المصرية . كما أنه أقام نظاما داخليًا للجماعة يفتقر إلى الديمقراطية الحقبة ويعطى للمرشد سلطات مطلقة، حتى أنه يمتلك الحق فى مخالفة إجماع مكتب الإرشاد "الأمر الذى أسهم فى خلخلة مراقبة القاعدة لقرارات وسياسات القيادة، بل أدى إلى وصول الكثير من العناصر التى تفتقر إلى الأهلية والشرعية إلى سدةها" (٩٣).

ويمضى د. النفيسى نحو مرحلة المرشد العام الثانى المستشار حسن الهضيبي ويقول إنه رغم موافقته على وجود الجهاز السرى فقد ظل يقاوم سيطرة هذا الجهاز على مقدرات الجماعة، ومحاولة هذا الجهاز "عسكرة الجماعة" أى إخضاعها لأسلوب عسكرى فى قيادتها وإدارتها. ثم يقول: "وقد كانت وفاة الهضيبي رحمه الله إيذانا بانهاى كل مقاومة ذاتية فى الجماعة ضد العسكرة. وبداية لانتكاسة فكرية وإدارية وسياسية عاشتها الجماعة ولم تزل منذ ذلك الحين" (٩٤).

ثم يمضى موضحًا ومفسرًا لمسائل ظلت غائبة عن الكثيرين "ومع وفاة الهضيبي سيطر الجهاز السرى ولم يزل يسيطر على الجماعة، وفى البداية أكدوا وجود ما أسموه "المرشد السرى" زاعمين أن الهضيبي رشحه لهم قبل وفاته، وفرضوا بالأمر الواقع وبقوة نفوذهم هذه المقولة، وتحت عباءة المرشد السرى تمكنت عناصر الجهاز الخاص: مصطفى مشهور . كمال السناني . أحمد حسنين . د. أحمد الملط . حسنى عبد الباقي وغيرهم.. من إحكام سيطرتهم على الجماعة، ومن خلال هذه الهيمنة تمت عملية إبعاد كل العناصر المستتيرة التى تتمتع بالشرعية والأهلية، فشكل عناصر النظام الخاص من بينهم مكتبًا للإرشاد هو القائم حتى اليوم مع ترصيعه مؤخرًا ببعض الفصوص" (٩٥).

ويمضى د. النفيسى: "أن أعضاء الجهاز السرى هم الذين اختاروا وحدهم ودون

غيرهم الشيخ عمر التلمساني مرشدًا دون الرجوع للمؤسسات الشرعية للجماعة ويقول نصًا: "إن الشيخ التلمساني كان هيئًا ليئًا ولهذا اختاروه كواجهة سياسية بينما تفرغوا هم للإمساك بتلابيب الجماعة قيادة وإدارة ومالية وعلاقات" (٩٦).

وعندما توفي الشيخ عمر التلمساني إلى رحمة الله حدث نفس الشيء فتم تعيين الشيخ حامد أبو النصر، ويقول النفيسي عنه "والرجل رغم بلائه وتضحياته، متواضع الإمكانات كقائد إلى درجة كبيرة، وهو يفكر إلى الرؤية السياسية والقدرة على التعبير عن رأيه، والذي يتأمل أبو النصر وهو يتحدث ثم يستحضر صور البنا والهضيبي والتلمساني يدرك أن معيار القيادة لدى الإخوان قد أصابه خلل ظاهر في مضامينه السياسية والثقافية والحضارية" (٩٧).

ولكن هذا التدهور في مستوى الذين يشغلون موقع المرشد العام لم يأت مصادفة، فهناك سببان رئيسيان أوردهما المؤلف: الأول أشرنا إليه في البداية وهو عدم اهتمام الأستاذ حسن البنا بتربية كوادر قيادية وعدم وجود نظام داخلي ديمقراطي يكفل إمكانية بروز قيادات ذات كفاءة، أما السبب الثاني فهو أن الجهاز السري الذي أمسك بتلابيب الجماعة، وسيطر عليها سيطرة تامة بعد وفاة المرحوم المستشار حسن الهضيبي كان يرى ضرورة اختيار مرشد ضعيف، أو مستضعف بحيث لا يكون قادرًا على مناوئة نفوذ رجال الجهاز على مقدرات الجماعة من تنظيم وإدارة ومالية وعلاقات دولية. وهو يقرر أن الأستاذ مصطفى مشهور قد أحكم قبضته على الجهاز السري ومن خلاله أحكم قبضته على المالية وعلى العلاقة بالتنظيم الدولي، ثم باختيار المرشد تلو الآخر بحيث يكون كل منهم أضعف مما سبقه ويظل هو المسيطر الأوحد على مقدرات الجماعة حتى استصفاها لنفسه أخيرًا فتولى موقع المرشد العام عبر ما أسمى تهكما ببيلة المقابر. إذ تجاوز المستشار مأمون الهضيبي كل أجهزة الجماعة ومكتب إرشادها ووقف في حشد المودعين للمرشد الراحل ليطلب إليهم. وفيهم من هو ليس أهلا للبيعة وفيهم من ليس عضوًا في الجماعة - أن يبايعوا الأخ مصطفى مشهور مرشدًا.

ثم انتهى د. عبد الله النفيسى إلى نتيجة مهمة هي "أن أعداداً كبيرة من ذوى العلم والفكر والسياسة قد بدأت تنفر من القيادة الحالية"^(٩٨). وربما يفسر ذلك لنا ما شهدته الجماعة مؤخراً وما زالت تشهده من انشقاقات وانقسامات.

وفى ذات الكتاب، نقرأ دراسة أخرى للأستاذ الدكتور حسان حتوت عنونها: "تشخيصات ووصايا للحركات الإسلامية".

والكاتب د. إحسان حتوت هو واحد من القادة التاريخيين لجماعة الإخوان. وهو واحد من الرعيل الأول الذين تتلمذ مباشرة على يدى المرشد الأول الأستاذ حسن البناء، لكن الدكتور حسان حتوت يطل علينا عبر هذه الدراسة برؤية انتقادية وربما تجديدية. وربما بسبب غربة طويلة فى الكويت ثم فى أمريكا، أو ربما بسبب تخصصه وتميزه العلمى الرفيع، كانت هذه الرؤية صافية، وأيضاً صريحة وشجاعة.

وفى البداية يوجه د. حسان حتوت انتقاداً شديداً لأسلوب ومنهج عمل الحركات الإسلامية المعاصرة. ونلاحظ منذ البداية أنه يتحدث عن هذه الجماعات إجمالاً، لكنه يأتى وكأنه يضع يده على الجرح الحقيقى لجماعة الإخوان ونقرأ معه: "أنظر إلى الجماعات الإسلامية على وجه الإجمال فيخيل إلى أنها فى الغالب الأعم لم يتضح لها الموقع المحورى للحرية. فقد وجدنا لدى الجمعيات الإسلامية . أفراداً وجماعات . ضيقاً بالرأى الآخر وتضييقاً عليه. فمن لم يكن رأيه نسخة طبق الأصل من رأى الجماعة فهو إما منشق عليها أو معاد لها، ويصنفه أصحابها فى مراتب منها الخيانة أو العمالة أو المروق من الدين، أو ابتغاء الفتنة، وكل ذلك فى غياب كامل لمفهوم الحوار الهادئ الذى ينشد الحقيقة، ويرى أن للحقيقة أكثر من باب".

ويأتى د. حسان حتوت فى إيماءة حادة إلى فكرة البيعة لدى جماعة الإخوان ولدى مختلف الجماعات الإسلامية قائلاً: "رأينا كثيراً من الجمعيات كبيرة وصغيرة .

تحشد الأتباع والأنصار، وتأخذ منهم العهد على السمع والطاعة، لا على تكريم الإنسان والمطالبة بحقوقه العادلة وبحريته، بل وأنسنا في البعض منها تكريسا للولاء للجمعية ينافس الولاء للإسلام". ويركز الدكتور تحتوت على نقد فكرة السمع والطاعة التي ربما عانى هو منها في صفوف الجماعة. والتي عانت منها جماعة الإخوان ولم تنزل إذ تحشد أعضائها تحت لواء السمع والطاعة والبيعة عليهما في المنشط والمكره فيقول: "إنما يجب السمع والطاعة في جيش يحتشد لحرب، أما في سياق الدعوة الطويل الأمد فالمطلوب هو إعداد رأى عام مسلم، وليس قوة ضاربة مسلمة، ولعل المتفكر المتدبر لدروس الماضي القريب والبعيد يدرك أن هذا هو الطريق الوحيد، وإن كان الطريق البعيد"^(٩٩).

إن الدرس الذى يستخلصه د. حسان تحتوت واضح عبر تعثر مسيرة جماعة الإخوان بسبب اتباعها أسلوب الاحتشاد تحت لواء السمع والطاعة وكأنه احتشاد لحرب، الأمر الذى أدى إلى وقوع القيادات المتتالية (حسن البنا ثم حسن الهضيبى ثم سيد قطب) فى وهم إمكانية تحقيق طموحاتهم عبر الاحتشاد الحربى كما يقول د. تحتوت وليس عبر تكوين رأى عام إسلامى لا يمكن تكوينه إلا عبر حوار فيه أخذ وعطاء، رأى ورأى آخر، ورؤى نقدية متبادلة. ويمكن القول إن ورقة د. حسان تحتوت تدور كلها حول فكرة محورية واحدة هى "الحرية" واحترام حق الاختلاف وحق الحوار وحق النقد وحقمية الرؤية النقدية، وهو ما لم تعرفه جماعة الإخوان بل وترفضه رفضاً قاطعاً.

ويعود الرجل مراراً ليمسك بالجرح القديم المتجدد قائلاً: "ولو طوعت خيالى فتصورت أن الحكم قد أوكل إلى الحركات الإسلامية غداً، فلا أحسبها ستقدم للأمة العلاج المطلوب وهو الحرية، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وأحسبها على أحسن الفروض، وأجمل الظنون ستكون دكتاتورية أخرى، ولكن فى الاتجاه الآخر، ولا يشفع للدكتاتورية عندى أن تكون إسلامية، فإن الدكتاتورية مرض مهما كانت، المسألة مسألة مبدأ، وهو أن السيادة يجب أن تكون للأمة على الحاكم، وأن تكوين

الأمة الإسلامية لا يمكن أن يأتى ولن يكون أبداً عبر القهر، ولا بالعصا، ولا حتى بسيف القانون، بل هو وبالقطع ثمرة الإقناع والاقتناع بالحكمة والموعظة الحسنة^(١٠٠).

ويمضى الدكتور تحتوت منتقداً تصرفات ومسلك ومنهاج عمل وأسلوب تفكير جماعة الإخوان وغيرها من الجماعات الإسلامية فينتقد جنوحها إلى العنف دون أى سند إسلامى أو شرعى، وأنها تملأ أساليبها بالمرارة والغلظة وتحسبها من أساليب الدعوة الإسلامية، ومنها الاهتمام بالشكليات والمظهريات، وإضفاء صفة الفريضة على ما ليس بفريضة، ومنها أيضاً السطحية فى العلم بالدين وفى تعلمه، والانكفاء على الماضى والانحباس فى إيساره، دون التداعى للنظر والتخطيط المستقبلى، وكذلك امتلاكها لحساسية مرضية إزاء المرأة وضدها، وفوق هذا وذاك خلطهم بين ما هو تراث خاطئ ومظلم وبين ما هو دين حق^(١٠١).

وتمضى صفحات د. تحتوت الإخوانى القديم لتحاول إنارة الطريق أمام جماعة لا تريد النور ولا تريد العمل على ضوءه، وإنما المضى فيما اعتادت عليه رغم أنه أوردها موارد التهلكة والمحنة أكثر من مرة.

فهم ويرغم كل شىء لا يتعلمون من التكرار.

ونأتى بعد ذلك إلى واحد من جيل الشباب نفى عن نفسه غبار الجمود الإخوانى وحاول أن يفكر.

الأستاذ سامح عيد فى كتابه "الإخوان المسلمون . الحاضر والمستقبل . أوراق فى النقد الذاتى". وفى بداية الكتاب يتحدث المؤلف عن تاريخ الفكر الإسلامى.. "ومع بداية الدولة الأموية، وورثة الخلافة بدأ الفصام بين القيادة السياسية والفكر الإسلامى، فبعد أن كان العالم هو نفسه القائد المنقذ، أصبح العالم يتعاطى السياسة كتثافة واستشارة لا ممارسة. ثم كان الصدام وتعارض مصلحة السياسيين مع آراء الفقهاء حتى إن كبار العلماء وعلى رأسهم الأئمة الأربعة لم يتورع الساسة

عن إلحاق النكال والإيذاء بهم، ليموت أبو حنيفة في السجن دون أن يقبل تولى منصب القضاء، وليضرب الإمام مالك حتى تشل يده لما جهر به من بطلان طلاق المكره، وكان لهذه الفتوى مغزى سياسى حيث كان الخلفاء العباسيون يأخذون البيعة منهم، وعلى طلاق نسائهم إن نكثوا، وكان نصيب الإمام الشافعى الهروب من بغداد بعد أن سيق إليها مكبلاً بالأغلال من اليمن، كما نال الإمام أحمد الكثير من العذاب والأذى لمعارضته السلطة السياسية^(١٠٢)، ثم يحكى كيف عمل الحكام على الأمر بعدم تدريس الفقه إلا وفق المذاهب الأربعة وحدها كي يغلقوا باب الاجتهاد العقلى الفكرى، وكيف أن العلماء أفرطوا فى الغوص فى فقه العبادات بعد أن أربهم الخوض فى فقه المعاملات من الصدام مع السلطة السياسية. ثم يقول: "والفقه الإسلامى ما زال يعانى حتى الآن من غلق باب الاجتهاد فى القرن العاشر الهجرى بسبب الساسة والحكام"^(١٠٣)، ثم يأتى الكاتب إلى مبتغاه الأساسى ليقول: "أما العجب كل العجب فمن هؤلاء الذين أرادوا أن يغلقوا باب الاجتهاد الحركى عند حدود اجتهاد الإمام البنا وتلامذته. فكل اجتهاد غيره هو وهم ووساوس شيطان، واتباع هوى، بل وربما ظننها بعضهم مؤامرة أجنبية، وإذا كان لمغلقى أبواب الاجتهاد الفقهى مقاصد معتبرة فى حينها، فلا أرى لمغلقى باب الاجتهاد الحركى إلا وسوسة مبتذلة واحتكارا ليس له محل للعمل الدعوى"^(١٠٤). ثم يعلن المؤلف زهده فى أى عمل سرى أو ثورى يضر بالمصلحة الوطنية، ويفتت وحدة الشعب ويؤكد تمسكه بكل عمل ثقافى حوارى، ويقول: "قالمشاكل عويصة والإشكاليات متشابكة والحلول غير مكتملة، ولكن القلق أفضل من الطمأنينة الكاذبة التى جعلت من العضوية المجردة (فى الجماعة) أعلى درجات الجهاد، فاطمأن بها الدعاة وأراحوا عقولهم من التفكير، واستسلموا للواقع بكل مراراته معتبرين أنفسهم قابضين على الجمر، لأنهم لم يتخلوا عن عضويتهم. داعين الله الثبات على هذا الحال، وما أرى هذا الحال إلا ترهلا وكسلا وخمولا وتفاعسًا واستسلامًا، وما أصف كل هذه الصفات إلا للعقل، أما الأعضاء فربما

يقومون بواجبات بدنية وأعمال إدارية، وجهود اجتماعية، وسمو روحاني" ثم يتمنى لعضوية جماعة الإخوان أن "تتوجه التوجه السليم للتطوير والتحديث بعيداً عن الثوابت المختلفة والوهمية المقيدة"^(١٠٥).

ثم يؤكد المؤلف على أهمية إعمال العقل "الذى يكون رادعه الوحيد العقل المضاد الذى يدحض فكرة ويفند أخرى".." وليس من حق أحد أن يضيق واسع انطلاقنا مدفوعاً بوساوس قهرية ومخاوف وهمية، وحرص وورع كاذب أودى بالأمّة إلى التجر والانغلاق، وأظهر الإسلام بما ليس فيه"، ثم يذكر أنه "على استعداد للتراجع عن أى رأى وبمنتهى البساطة "إذا رأيت صحة الحجة المضادة" فالحوار ليس معناه أن أجلس على مائدة الحوار برأى رافضاً لغيره، ولكن لا بد أن يكون عندى من المرونة ما أتقبل به الحجة القوية ولو كانت لغيرى، فالحقائق غالبة"^(١٠٦) إنه بهذا الموقف يطعن الاستعلاء الإخوانى، والجمود الذى عاشوا حياتهم عليه طعنة نجلاء.

ثم هو يضع أمامنا حالة مثيرة للدهشة لعلها توضح لنا حقيقة جماعة الإخوان وحقيقة أفكارها فيقول: "وكيرا ما تستخدم المؤسسة (الجماعة) المصطلحات الشرعية مثل الدعوة . التعزير . التساقت . الهداية . الثبات : الطاعة" ولأن الجماعة تعتبر نفسها ووحدها صحيح الإسلام، بل الإسلام ذاته فإن هذه المصطلحات الشرعية تستخدم بهدف إضفاء قداسة غير مفترضة على الجماعة "فالهداية تعنى الدخول إلى الجماعة، والثبات يعنى البقاء فيها، والتساقت يعنى تركها، بل إن الدعوة تعنى الجماعة ذاتها فدخول الدعوة تعنى دخول الجماعة" ويؤدى مثل هذا الاستخدام المفتعل إلى تأثيم الخروج من الجماعة وإلى "آثار سلبية على الموروثات الثقافية للأعضاء بحيث يصعب تغييرها بعد ذلك"^(١٠٧)، ثم يحدثنا المؤلف عن كيفية تبرير الجماعة لتصرفات قادتها. فإن الإخوانى "لا يعرض هذه التصرفات عقلياً على ميزان الصواب والخطأ بل يبحث عن تبريرها، بل وأحياناً تأصيلها، حتى أن بعض المسئولين فى الجماعة برر المحسوبية والوساطة ويعتبرها من

السنة المشرفة قياساً على تمييز الرسول للمهاجرين على الأنصار" (١٠٨).

ولعل أهم ما فى هذا الكتاب هو أنه يقدم لنا بصورة مجسدة وواضحة الفارق بين الإسلام والتأسلم. أى الفارق بين الدين وتوظيف الدين لخدمة أهداف سياسية خاطئة وبعيدة عن روح وجوهر الدين الحنيف. فقد أتى بعدد من المفردات ذات المعطى الدينى وأوضح لنا كيف استخدمتها جماعة الإخوان استخداماً متأسلماً.. فمثلاً كلمة "الهداية" "لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها"، والهداية هى انتقال الفرد من الكفر إلى الإيمان، أو من الإسلام بمعناه العام إلى الإيمان بمعناه الخاص، أو من الفسق إلى التدين، أو من المعصية إلى التوبة، أما أن تفهم بمعنى انضمام الإنسان إلى الجماعة، وأن يغرس ويورث هذا المعنى فهذا فى حاجة إلى مراجعة، ومن أدبيات الجماعة أن يسأل العضو.. ربنا هداك إمتى؟ وهداك على يد من؟ أى متى دخلت الجماعة" (١٠٩) كذلك فى لفظ "التعزير"، "قالتعزير" مصطلح شرعى يخول للحاكم المسلم الحكم فيما ليس فيه حد، والمفروض أن يكون الفعل المرتكب معصية أو عمل فيه ضرر. ولكن الجماعة تخول المسئول أن يحكم على المتأخر عن موعد الاجتماع أو المقصر فى العمل التنظيمى بأن يقوم بالتعزير.. والأفضل أن يسمى "التكدير". لأن ذلك الاستخدام الخاطئ يخلط بين الدين ذاته وبين الجماعة.

وهناك خلط فاضح أيضاً فى استخدام لفظ "الدعوة" "والدعوة بمعناها الفقهى هى الدعوة إلى الإسلام ولا تنقيد بزمان ولا مكان ولا أشخاص معينين ولا جماعة معينة" ولا يجوز اختزالها فى جماعة بذاتها. لكن الجماعة تحاول أن تحتكر لفظ الدعوة لنفسها فمن دخل الجماعة دخل الدعوة ومن تركها ترك الدعوة.

أما كلمة "البيعة" وهى التى جرى بشأنها ولم يزل جدل كثير، فإن المؤلف يشرح الفارق بين البيعة العامة التى لم تعد واردة الآن فلا خليفة ولا خلافة ولا جماعة يمكنها أن تزعم أنها وحدها جماعة المسلمين. ولم يبق سوى البيعة الخاصة. لكن الجماعة ومنذ أيام حسن البنا حاولت أن تحول البيعة العامة إلى نفسها وإلى

مرشدها. وقد أدى ذلك إلى تشويش وخط وخاصة في حكم "النكت في البيعة" فقد اعتبرت الجماعة أن من أقال نفسه من البيعة التي قدمها للمرشد، كمن نكت عن البيعة العامة، ويستخدمون هنا اتهامات من العيار الثقيل مرددين أحاديث تتعلق بالبيعة العامة مثل "من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربة الإسلام من عنقه" الأمر الذي أحاط الجماعة بهالة من القداسة، ومن ثم فقد جرى تأثيم كل من خرج من صفوف الإخوان، وأصبح مجرد البقاء داخل الجماعة نعمة وفضلاً من الله وثواباً عظيماً، حتى أن بعض الإخوان يرى أن أسوأ أعضاء الجماعة أفضل من أحسن المسلمين خارجها ناسين أن الأصل هو الأعمال وأن الثواب هو ثواب الأعمال^(١١٠).

ثم يقول: "خلاصة الموضوع أن بعض الموروثات الفقهية كالتأثيم والبيعة والجماعة والطاعة والهداية والدعوة قد استخدمت في منظومة ذات طابع مقدس بحيث أربحت عضو الجماعة حتى يستشعر أن مخالفة الجماعة سوف تعرضه للنقمة الإلهية"^(١١١). ويرجع المؤلف ذلك كله إلى أن الجماعة تتمسك بالتربوية التقليدية وهي التلقين من أعلى إلى أسفل. من المسئول إلى العضو ذن أن يوجد ما أسماه المؤلف بالتغذية الراجعة أي حق العضو في النظر نظراً عقلياً وانتقادياً إلى ما يجرى تلقينه به"^(١١٢).

واستكمالا لهالة القداسة فإن تاريخ الجماعة يقوم على "إلقاء أسباب الهزائم والتراجع والانحسار إلى أسباب تأتي من خارج الجماعة، وإذا وجدت أسباب داخلية يتحمل مسئوليتها الأعضاء العاديون أو "الجنود" لضعف إيمانهم وقلة عملهم. أما أن تتحمل القيادة جزءاً من التبعة والمسئولية فهذا مستحيل. وكثيراً ما يحاكم الجنود أما أن تحاكم القيادة فلا"^(١١٣).

كذلك تسود في الجماعة فكرة تأثيم مَنْ هم خارجها "وهو خطأ شرعى فادح. فضلاً عن أنه أوقعنا في فخ الدوجما، واعتقدنا أننا أصحاب الحق المطلق، وهذا خلط بين ما هو إسلامي وهو ليس حكراً علينا وبين الموقف البشرى"^(١١٤).

ونختتم الكتابة عن هذا الكتاب بفقرة أثبتتها المؤلف على ظهر الغلاف "غرض

البحث تدعيم لغة الحوار والنقد الذاتى البعيد عن التشنج والتعصب والخروج من دائرة الأخوة الضيقة داخل تنظيم إلى أخوة الإسلام الرحبة".

والمؤلف الشاب يستعرض عبر صفحات الكتاب جميعا (١٧٨ صفحة) معاناته داخل صفوف جماعة تقوم على الصلف والتعجرف إزاء الآخرين، وعلى ادعاء قداسة غير مفترضة لتاريخها وتصرفاتها، وعلى رفض أى شكل من أشكال النقد الذاتى. ولعله يوضح حالة من المفاضلة بين جيل إسلامى وبين جماعة متأسلمة. .. مرة أخرى وليست أخيرة إن هذه الكتابات توضح لنا حقيقة الفارق بين الإسلام والتأسلم، وتوضح حقيقة المأزق الذى يضع فيه المتأسلمون أنفسهم بابتعادهم عن الفهم الصحيح للإسلام.

ومهما أطلنا، ومهما تنوعت الكتب والكتابات ستظل هذه الجماعة مثيرة للجدل. ومحلا لتمجيد يصل إلى درجة التقديس من أعضاء وتابعين لا يعرفون مذاق أية رؤية نقدية، أو مراجعة فكرية، فكل ما كان وما يكون وما سيكون عند الجماعة وعنها هو محل تقديس يعتبر أن النقد مروق، وأن الانتقاد معاداة للإسلام. باعتبار أن الجماعة هى ذاتها وبذاتها الإسلام ذاته. وبين خصوم ينتقون السيئات من غابة تمتلئ بها. ولعلنا حاولنا وسنحاول أن نمايز بين ما هو صحيح وما هو خاطئ فى منهاج جماعة تعتبر صوابها وخطأها كلا واحداً هو الإسلام ذاته.

وما كانت محاولتنا هذه سوى رؤية تستهدف التمييز بين ما يتفق مع الإسلام وما لا يتفق. أو بالدقة بين الإسلام والتأسلم.

ولعل من حقنا وحق القارئ علينا أن نتأمل ما آلت إليه أفكار هذه الجماعة.. عندما امتد الخط الفكرى على استقامته، صريحا دون تقية، واضحا دون رتوش تستهدف التغطية والتعمية.

فلنحاول مع الخطوة التالية لفكر حسن البناء، الأستاذ سيد قطب.

الهوامش

(١) راجع: د. رفعت السعيد . حسن البناء متى وكيف ولماذا . أربع عشرة طبعة، . التيارات العقائدية المصرية . الفصل الخاص بجماعة الإخوان . صفحات من تاريخ جماعة الإخوان . الإرهاب إسلام أم تأسلم؟ . التأسلم فكر مسلح . المتأسلمون ماذا فعلوا بالإسلام وينا . التأسلم السياسى . مصر .. العمال بين اليمين واليسار . رسائل إلى د. مرسى.

(٢) محمود الصباغ . حقيقة النظام الخاص ودوره فى دعوة الإخوان المسلمين . القاهرة (١٩٨٩).

(٣) المرجع السابق: ص ٢٦٥.

...

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق: ص ٢٩.

(٦) ص ٨١.

(٧) ص ٣١٤.

(٨) ص ٤٢٨.

(٩) ص ١٣٤.

(١٠) ص ١٤٩.

(١١) ص ١٥٠.

(١٢) ص ١٦٣.

(١٣) ص ٢٥٩.

(١٤) ص ٢٧٥.

(١٥) المرجع السابق.

(١٦) ص ٢٧٨.

(١٧) ص ٣١٤.

(١٨) صلاح شادى . حصاد العمر . القاهرة . (١٩٨٧) . ص ٣٣٩.

(١٩) أبو الحسن الندوى . مذكرات سائح فى الشرق العربى .

(٢٠) صلاح شادى . المرجع السابق . ص ٦٧.

(٢١) ص ٣٠.

(٢٢) ص ٩٣.

(٢٣) ص ١٢٩.

(٢٤) ص ١٤٣.

(٢٥) ص ١٥٢.

(٢٦) ص ١٣٢.

- (٢٧) ص ٨١.
- (٢٨) ص ٨٣.
- (٢٩) ص ١٣٦.
- (٣٠) ص ١٧.
- (٣١) ص ١٣٨.
- (٣٢) ص ١٤٠.
- (٣٣) ص ١٤١.
- (٣٤) ص ٣٣٩.
- (٣٥) الوطن (الكويت) ١٢/٣/١٩٨٠.
- (٣٦) ١/٢١/١٩٨١.
- (٣٧) ١٢/٣١/١٩٨٠.
- (٣٨) المرجع السابق.
- (٣٩) الوطن ١٢/١٠/١٩٨٠.
- (٤٠) أحمد عادل كمال . النقطة فوق الحروف . القاهرة . ص ٥٤.
- (٤١) ص ٩.
- (٤٢) ص ١٤٤.
- (٤٣) ص ١٤٨.
- (٤٤) ص ٤٨١.
- (٤٥) ص ١٥١.
- (٤٦) محمود عبد الحليم . الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ، رؤية من الداخل . (ثلاثة أجزاء) ج ٢، ص ٤.
- (٤٧) ص ٥.
- (٤٨) ص ٥.
- (٤٩) ص ٥.
- (٥٠) ص ٣٤٥.
- (٥١) ج ٢ . ص ٥ من المقدمة.
- (٥٢) ج ٣ . ص ٦.
- (٥٣) ج ٣ . ص ٨.
- (٥٤) ج ٣ . ص ١٩٨.
- (٥٥) ج ٣ . ص ١٩٨.
- (٥٦) ج ٣ . ص ٢٠٥.
- (٥٧) ج ٣ . ص ٢٠٧.
- (٥٨) المرجع السابق.
- (٥٩) قرار حل جماعة الإخوان المسلمين . ٨ ديسمبر ١٩٤٨ . المذكرة التفسيرية.

- (٦٠) محمود الصباغ . المرجع السابق . ص ٤٣٣ .
- (٦١) ص ١٣٨ .
- (٦٢) حسن البنا . قول فصل .
- (٦٣) أحمد عادل كمال . المرجع السابق . ص ١٤٤ .
- (٦٤) حسن البنا . قول فصل .
- (٦٥) صلاح شادى . المرجع السابق .
- (٦٦) عمر التلمسانى . قال الناس ولم أقل فى حكم عبد الناصر . ص ١٨٦ .
- (٦٧) لواء الإسلام ١٩٨٩/٩/١ .
- (٦٨) الحياة (لندن) ١٩٩٠/٨/٢٠ حسن أبو باشا، مذكرات فى الأمن والسياسة .
- (٦٩) عبد المنعم عبد الرؤوف . أرغمت فاروق على التنازل عن العرش . القاهرة ص ١٦٣ .
- (٧٠) ص ١٦٧ .
- (٧١) ص ١٨٤ .
- (٧٢) ١٩٤ .
- (٧٣) د. عبد العظيم رمضان . الإخوان المسلمون والتنظيم السرى . ص ٢٢٠ .
- (٧٤) ص ٢٢٥ .
- (٧٥) فتحي العسال . الإخوان المسلمون بين عهدين، قصة الإخوان كاملة . ط٢ . القاهرة (١٩٩٢) ص ٢٧ .
- (٧٦) المصرى . ٢ نوفمبر ١٩٥٠ .
- (٧٧) المصرى . ٣ نوفمبر ١٩٥٠ .
- (٧٨) المصرى . ٥ نوفمبر ١٩٥٠ .
- (٧٩) المصرى . ٧ نوفمبر ١٩٥٠ .
- (٨٠) فتحي العسال . المرجع السابق . ص ١٢ .
- (٨١) ص ٢٥ .
- (٨٢) ص ٢٦ .
- (٨٣) ص ٤٢ .
- (٨٤) ص ٤٢ .
- (٨٥) ص ٤٤ .
- (٨٦) ص ٦٠ .
- (٨٧) ص ٦٠ .
- (٨٧) ص ٦٥ .
- (٨٩) ص ٦٨ .
- (٩٠) ص ٦٩ .
- (٩١) ص ٧٤ .
- (٩٢) د. عبد الله النفيسى (تحرير) . الحركة الإسلامية، رؤية مستقبلية . أوراق فى النقد الذاتى .

- (٩٣) ص ٢١٠.
- (٩٤) ص ٢٣٤.
- (٩٥) ص ٢٣٥.
- (٩٦) ص ٢٣٨.
- (٩٧) ص ٢٣٩.
- (٩٨) ص ١٢٠.
- (٩٩) ص ٦٧.
- (١٠٠) ص ٧١.
- (١٠١) ص ٧٣.
- (١٠٢) سامح عيد - الإخوان المسلمون، الحاضر المستقبل - أوراق في النقد الذاتي . القاهرة (٢٠٠٠) . ص ٩٠.
- (١٠٣) ص ١٠.
- (١٠٤) ص ١١.
- (١٠٥) ص ١٢.
- (١٠٦) ص ١٢.
- (١٠٧) ص ٨٠.
- (١٠٨) ص ٨١.
- (١٠٩) ص ٥٤.
- (١١٠) ص ٥٩.
- (١١١) ص ٥٩.
- (١١٢) ص ٦٥.
- (١١٣) ص ٧٩.
- (١١٤) ص ٨٠.

سيد قطب.. الأب الروحي للإرهاب

"والله لا أقاتل حتى تأتونى بسيف له عینان وشفقتان، فيقول هذا مؤمن وهذا كافر".

(سعد بن أبي وقاص)

"روى البخارى أن ابن عمر كان يرى الخوارج شر خلق الله، وكان يقول إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت فى الكفار فجعلوها على المؤمنين".

.. نحن إزاء شخصية تحيطها هالات من الألغاز التى لم تحل بعد، وربما لن تحل أبدًا. وتحيطها أيضًا هالات كثيفة من التقديس.

وهو فى نظرنا الامتداد المنطقى لفكر الإخوان المسلمين. فهو الذى كشف الغطاء ولم يتستر، ولم يلجأ للتقية. ويمكن تلخيص العلاقة الفكرية والمعتقدية بين حسن البنا وسيد قطب فى فكرة موجزة لكنها واضحة الدلالة، فاضحة المغزى. كان البنا يتحدث عن "الجهاد" مستترًا مكتفيًا بالعبارات التى يمكن فهمها على أكثر من وجه، مقتطعا آيات من القرآن الكريم دون الأخرى.. فكان يقرأ "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة"^(١) ويكتفى. ثم يترك الباب مفتوحًا للتفسير وفق الحاجة، فقد تفسر أحيانًا كدعوة للقتال، وقد تفسر كدعوة للمزيد من البذل فى سبيل الله.

لكن سيد قطب يمضى ليكمل الآية الكريمة "بأن لهم الجنة".. يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون". ويطلق عقب الاستكمال تفسيرااته التى عرفناها والتى أسميت بالفكر "القطبى".

فهو يؤكد "أن الجهاد فى سبيل اللهبيعة معقودة بعنق كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله"^(٢).

ويمتد الخط الإخوانى على استقامته حتى نهايته المريرة. ويمكن تفسير ذلك ببساطة ويسر فلقد كان لجماعة الإخوان . وعلى الدوام . خطابان، خطاب معلن هو ذلك الخطاب الوديع والهادئ، وهو ما تقوله الجماعة علنا، وخطاب يتردد سرا . فى أغلب الأحيان . ويختص به الجهاز السرى للجماعة المسمى بالنظام الخاص .

ولعل هذا يفسر لنا أقوالا إخوانية ردها بعض قادة الجماعة، لكن الكثيرين لم يلتفتوا إليها. مثل قول الأستاذ صفوت منصور: "والأستاذ سيد قطب صاحب كتاب معالم فى الطريق يعد فى ميزان الرجال عمادًا هائلًا فى تجديد شباب الحركة

الإسلامية، والامتداد الفكرى والحركى لجماعة الإخوان المسلمين^(٣) ثم يؤكد أن "فكر الأستاذ سيد قطب هو امتداد لفكر جماعة الإخوان المسلمين، وتجديد لشبابها الفكرى والحركى"^(٤).

إنه هو الذى يؤكد أن فكر سيد قطب هو "الامتداد" ومنه اتخذنا عبارة "امتداد الخط على استقامته".

أما الأستاذ صلاح شادى (أحد قادة الجماعة المبرزين) فيقول "لقد كان حسن البنا البذرة الصالحة للفكر الإسلامى، وكان سيد قطب الثمرة الناضجة لهذا الفكر"^(٥).

إنها ذات فكرة الامتداد، لكن المثير للدهشة أن "الأخ" صفوت منصور وهو يتحدث عن الامتداد يختص كتاب "معالم فى الطريق" بإعجابه، ويصف سيد قطب بأنه "صاحب كتاب معالم فى الطريق" ولعله كان الأجدر أن يقرنه بأهم كتبه "فى ظلال القرآن" الذى قدم فيه تفسيره للقرآن الكريم.

ولعل ما يفسر ذلك قول "الأخت" زينب الغزالى، وكانت فى فترة "المحنة" الإخوانية (١٩٥٤ وما بعدها) أهم الشخصيات الفاعلة ممن تبقى من قيادات الجماعة خارج السجن، إذ تؤكد "أن فضيلة المرشد (الأستاذ حسن الهضيبى) قد قرأ كتاب معالم فى الطريق، وأعاد قراءته قبل طبعه، ووافق عليه، وقال إن هذا الكتاب قد حصر أمله كله فى "سيد"، وأنه الأمل المرتجى للدعوة الآن"^(٦).

إنهم يلتقون فى الإعجاب بسيد قطب، لكنهم يلتقون أكثر حول الإعجاب بكتابه الأكثر تطرفاً، أو لنقل الأكثر شراسة "معالم فى الطريق".

وإذ كانت العبارات السابقة مجرد إيضاح لعنوان هذا الفصل، فإن البعض من قادة الجماعة قد أعملوا فقه التستر، أو "التقية" قائلين بالمفاصلة بين فكرهم وفكر سيد قطب مؤكدين أنه اتخذ فكراً غير ذلك الذى تقول به الجماعة، لكنهم جميعاً . وكما اعتادوا دوماً . رفضوا تقديم أى نقد لفكره.

لكننا بهذا نسبق الحدث والحديث، فلنعد إلى الحديث عن ذلك الرجل المحير الذى ولد عام ١٩٠٦ فى قرية "موشا" بمحافظة أسيوط، لأسرة متوسطة الحال، فقد أبوه أكثر ثروته فى تأكيد تميزه وكونه واحدًا من الأعيان.

وعلى ذات طريق حسن البنا . وهى مصادفة مثيرة للدهشة . سار سيد قطب. دخل مدرسة المعلمين (١٩٢٥) ثم دار العلوم (١٩٢٨) ليتخرج عام ١٩٣٣. عمل مدرسًا ١٨ سنة ثم صعد فى سلم وزارة المعارف العمومية ليصبح مراقبًا مساعدًا للبحوث الفنية والمشروعات بالوزارة. وقدم استقالته عام ١٩٥٢.

وخلال هذه المرحلة برز سيد قطب ككاتب وشاعر وأديب وناقد. اقترب جدًا من عباس العقاد، بل وعاش فى كنفه، واستفاد كثيرًا من هذه العلاقة.. "وقد كان العقاد وراء تقديم سيد قطب إلى معظم الصحف والمجلات التى كتب فيها" ولكن "وبعد علاقة قوية استمرت ربع قرن انفصلا واختلفا وكان السبب رفض العقاد أن يكتب مقدمة لكتاب له"^(٧) إنها واحدة من الرتوش المهمة فى بورتريه سيد قطب. ويمكن القول إنه سمة مميزة لسيد قطب يحب ثم يكره، وفى كلا الحالين تكون الوفرة والغلو سمة مميزة.

كذلك كان الأمر مع طه حسين، ففى كتابه "طفل القرية" والذى ضاهى به أيام طه حسين، كان الإهداء "إلى صاحب كتاب الأيام، إلى د. طه حسين بك، إنها يا سيدى كأيامك، عاشها طفل فى القرية، فى بعضها من أيامك تشابه، وفى سائرها عنها اختلاف، اختلاف بمقدار ما يكون بين جيل وجيل، وقرية وقرية، وحياة وحياة"^(٨).

لكنه لا يلبث أن يهاجم طه حسين هجومًا شديدًا لديدًا وقاسيًا، ونقرأ كمثال "إن مذهب طه حسين هو طه حسين نفسه، أى إنه موهبة بلا امتداد وبلا تلاميذ"^(٩). ويقول البعض إنه خاض معركته ضد طه حسين إرضاء لأستاذه العقاد الذى كان آنذاك يخوض ذات المعركة. ويرى آخرون "أن شهرة سيد قطب النقدية قد جاءت بسبب هجومه القاسى على طه حسين"^(١٠).

ويمضى الأديب والناقد سيد قطب إلى الطريق المعتاد. يكتب شعراً ونثراً ونقدًا، وسيرة ذاتية. ويقدم للقراء أفكارًا جديدة ذات طابع ليبرالى صارخ، وأحيانًا ذات طابع رومانسى حالم.. فهو يكتب كثيرًا عن الترجمة العربية التى قام بها د. إبراهيم أمين الشواربى لغزليات الشاعر الفارسى حافظ شيرازى، وينتقى ما هو أكثر رقة وعذوبة: "أن شفة الحبيب ياقوتة ظمأى إلى الدماء، وأنا من أجل رؤيتها أضحى بالروح" وأيضاً "مبعثر الخصلات، محمر الوجنات، ضاحك الأسنان تلعب به الخمر، سكران، ممزق القميص، يتغنى بالألحان، فى يده إبريق من بنت الحان.. وها قد شربنا ما صبه الساقى فى كووسنا"^(١١). لكن المثير لدهشة الذين ألقوا بأضوائهم على المرحلة الأخيرة من حياة سيد قطب هو تعليقه على حافظ شيرازى صاحب هذا الشعر "إن كاتب هذا الشعر نشوان بالخمير الإلهية أو النواسية (نسبة لأبى نواس) وليقل ما يشاء، وكيف يشاء فهو خير عند نفسه، وعند الله من المرائين والمنافقين ومن الوعاظ الثقلاء"^(١٢).

كلمات كهذه هى التى دفعت البعض إلى التشكيك فى مدى تدين سيد قطب ذلك الزمان.

وفيما كان قطب يخوض معركة الدفاع عن صديقه العقاد ضد هجمات محمد أحمد الغمراوى أستاذ الكيمياء بكلية الطب الذى كان مؤيدًا للرافعى ضد العقاد لدغه الغمراوى لدغة من تلك التى أتقنها قطب فى المراحل الأخيرة من حياته. قال الغمراوى معرضًا بقطب "فالمسألة بين القديم والجديد كما يسمونها ليست مسألة اختيار بين أدب وأدب، وطريقة وطريقة، ولكنها فى صحيحها مسألة اختيار بين دين ودين".

لكن سيد قطب لم يكن ممن يتراجع أمام هجوم كهذا، فهو يرد ردًا صاعقًا "قد والله أخافنا وأفزعنا وهو يجعل المسألة دينًا أو لا دين، ويلخص المعركة بين المدرستين القديمة والجديدة فى إنها المعركة بين أهل الجنة وأهل النار. نعم هكذا مرة واحدة. ومن لم يكن قد عرف الخوف فليعرفه الآن. فها هو ذا رجل يمسك بيده

ميزان الحسنات والسيئات فأما من كان مع الرافعى فقد أزلفت له الجنة، وأما من كان مع العقاد فقد فتحت له جهنم أفواهاها"، ويمضى قطب وكأنه يرد على قطب الآخر الذى أتى بعد سنوات: "إن الدين هو صيحة الواهن الضعيف يحتمى بها كلما جرفه التيار وهو لا يملك من أدوات السباحة ولا وسائلها شيئاً. وأشد الجناة على الدين، وأشد المشوهين له والمشككين فيه هم أولئك الذين يضعونه مقابلاً للعلم تارة، والفن تارة ثم يحكمون أيهما أصح وأولى بالاتباع"، ثم يقول: "الدين.. قولوها مئة مرة فلسنا والحمد لله ممن تخيفهم هذه الصيحات الفارغة، ونحن أكثر منكم دراسة وفهما للدين"^(١٣).

ولعل هذا يستدرجنا إلى موضوع أثار كثيراً من الغبار. وهو القول إن سيد قطب كان ملحدًا لفترة طويلة من الزمان. والغبار هنا يحيط بتاريخ سيد قطب كشخص، لكنه. وهذا هو الأهم. يخيم على الأفكار الحديثة والتجديد والليبرالية فيجعل منها قرينة للإلحاد، ويكون الإيمان قرينا بمرحلة قطب المتشددة والمتطرفة والملتصقة بالغلو والتكفير.

وعلى أية حال يقول سليمان فياض مؤكداً "أنه سمع بأذنه من سيد قطب أنه ظل ملحدًا أحد عشر عامًا، ثم خرج من حيرة الإلحاد إلى طمأنينة الإيمان"^(١٤). لكن الباحث فى كتابات سيد قطب طوال هذه الفترة لا يجد "ما يشير إلى إلحاد أو زندقة أو حتى الاهتمام بمسألة أصل الوجود والكون"^(١٥)، بل على العكس فإن أحد القريبين من سيد قطب فى مرحلته الأولى يقول "قال زنديق لسيد قطب (فى الفترة التى قيل إنه كان ملحدًا فيها) إن إثبات وجود الله أمر صعب، فرد عليه قائلاً: وفيه أيضا صعب" ويمضى قائلاً إن سيد قطب قال له يوماً "إن الدين ضرورى لقيادة القطعان البشرية ولا يمكن أن يسلس قيادها بغيره"^(١٦).

ولعله من الممكن أن يكون رجل سهل الانفعال والتتقل بين الأفكار والمواقف قد مر بفترة حيرة أو حتى شك لكن الواضح أنه لم يكتب يوماً ما يشير إلى إلحاده. ومما أشيع أيضاً عن سيد قطب أنه كان إباحياً وماجناً وداعية إلى العرى التام،

ويرى الأستاذ محمود عبد الحليم وهو المؤرخ المعتمد للإخوان المسلمين إنه "قرأ مقالاً منشوراً في أهرام ١٧ مايو ١٩٣٤ للأستاذ سيد قطب يدعو فيه للعرى التام، وإلى أن يسير الناس في الشوارع عراة تماماً كما ولدتهم أمهاتهم"، ويقول: "إنه عرض على الأستاذ حسن البنا أن يرد عليه لكن البنا منعه حتى لا تشتهر هذه الفكرة، ولعل الله يهدي سيد قطب" (١٧).

.. لكن أحد الباحثين وهو الأستاذ شريف يونس يقول إنه "بحث عن هذا المقال المزعوم في عدد الأهرام ١٧ مايو ١٩٣٤ وفيما قبله وما بعده من أعداد ولم يجد لسيد مقالاً بهذا المعنى" (١٨).

وعلى العكس فإن الباحث في كتابات سيد قطب يكتشف أن له عديداً من المقالات ضد اختلاط الجنسين (١٩).

وهنا نقف في حيرة.. هل هي مرة أخرى محاولات إخوانية للإحياء بأن كل ما هو ليبرالي ومجدد ملحد. وأن مناط الإيمان هو الالتحاق بجماعتهم؟ أم هي محاولة للإحياء بأن الأستاذ البنا كان ملهماً بحيث يستشرف ما سوف يحدث بعد حوالي عشرين عاماً إذ يهتدى سيد قطب ويلتحق بمرفأ الجماعة؟

وعلى أية حال فإن من حقنا أن نتوقف أمام بضع عبارات مهمة..

. يقول د. الطاهر مكي: "كان هذا الشاب الذي سوف يدخره القدر ليلعب أعظم دور إسلامي، وليحيا في القمة مع كبار دعاة الإسلام ومفكره في عصرنا الحديث، غارقاً أيام الدراسة وبعد تخرجه في المذاهب والتيارات الثقافية الأوروبية التي أخذت تتدفق على مصر مع الاحتلال والبعثات والترجمة، وتقبل عليها صفوة المثقفين بحسن نية أحياناً، وفي غفلة أحياناً أخرى، ويدفعون إليها دفعا في أحيائين كثيرة" (٢٠).

- ويقول عادل حمودة إن أتباع سيد قطب "نسوا أيام كان يكتب عن المرأة والعشق وموسيقى الجاز ويدعو أن تكون في مصر مستعمرات للعراة، وهم يَتمنون أن يفقد من ذاكرة التاريخ ذلك الجزء من أيامه كأن لم يكن، لتبدأ قصة حياته من

لحظة الهداية والعقيدة، وبداية الطريق إلى الاستشهاد^(٢١).

. أما سيد قطب نفسه فقد كتب فى قمة كتبه المتطرفة "معالم فى الطريق": "إن الذى يكتب هذا الكلام عاش يقرأ أربعين سنة كاملة كان عمله الأول فيها القراءة والاطلاع فى معظم حقول المعرفة الإنسانية وما هو فى تخصصه، وما هو من هواياته، ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره فإذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلاً ضئيلاً إلى جانب ذلك الرصيد الضخم . وما كان يمكن أن يكون إلا كذلك .، وما هو بنادم على ما قضى فى أربعين عاماً من عمره، وإنما عرف الجاهلية على حقيقتها وانتفاشها، وعلى غرورها وادعائها كذلك. وعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يجمع المسلم بين هذين المصدرين فى التلقين"^(٢٢).

وتبقى عبارة أخرى لعادل حمودة: "لقد كان لسيد قطب أكثر من وجه، وأكثر من لون وأكثر من لقب فهو معلم وشاعر ومفكر ومفسر وملحد ومسلم ومتطرف ومصلح ومبدع ومجاهد ومجتهد وشهيد، فتحولاته حادة وتغييراته مذهلة وصورته لم تحبس نفسها فى إطار ثابت"^(٢٣).

ولكن .. وإذا كان سيد قطب يعيش فى وجدان التاريخ ظالماً أو مظلوماً (حسب وجهة نظر أى منا) فالذى لا شك فيه أن الباحثين الذين تعاقبوا على فحص كتاباته، تقييماً وتحليلاً قد ظلّموا سيد قطب الكاتب والأديب والناقد والشاعر، وركزوا فقط على كتاباته الفقهية وعلى أفكاره المتأسلمة^(٢٤).

اختفى الأديب والناقد المبدع من ملامح الصورة الباقية وبقي الفقيه المناضل والشهيد عند البعض، والإرهابى المتأسلم عند البعض الآخر. وتحوّل شاهد قبره أو ضريحه إلى مزار للجماعات والتنظيمات الإسلامية المتطرفة تستلهم منه الوحي، وتحاول تفسير أقواله وأفعاله على هواها، فهى بحاجة إلى أب روحى تستند إليه فى حيثيات حكمها على جاهلية المجتمع وتستخدمه فى تبرير الرصاص الذى تطلقه^(٢٥).

والحقيقة أن الإرهاب المرتدى ثياباً دينية قد وجد منذ المراحل الأولى فى تاريخ

الصراعات السياسية بالمجتمعات الإسلامية، لكنه فى زماننا الحديث كان بانتظار من يؤسس له أفكارًا وقيمًا وفقهاً تستند إليه، كانت التوازنات والصراعات والعوامل الاجتماعية والمجتمعية بحاجة فى صراعها المحتدم إلى مثل هذا "الشهيد" وكان سيد قطب هو البطل المنتظر أو الضحية.. سيان.

ولعل أكثر من ظلم سيد قطب هم هؤلاء الإرهابيون المتأسلمون الذين اتخذوا من أفكاره وفقهه "شماعة" يعلقون عليها فقههم وجموحهم، وجعلوا كتاباته وخاصة كتابه "معالم فى الطريق" مرجعًا يبررون به رصاصهم وقنابلهم، وأنهار الدماء التى أسالوها، والجرائم التى ارتكبوها فى إساءة بالغة للإسلام والمسلمين.

وهكذا تحول سيد قطب إلى مبرر لما لا يمكن تبريره، وأسمى الإرهابيون المتأسلمون على مسطح الكرة الأرضية كلها بالقطبيين. وحتى هؤلاء الذين لم يقرأوا حرفًا مما كتب نسبوا جرائمهم إلى فقهه وألصقوها بكتابه "معالم فى الطريق" الذى هو أضعف كتبه وأقلها قيمة من الناحية العلمية والفقهية.

لكن "سيد قطب" يظل معلقًا فى مشنقة التاريخ، يتناوله الجميع سلبيًا وإيجابيًا ويلصق به الكثيرون ما لم يفعل، بل وما لم يخطر على باله.

فالدكتور حسن حنفى ينسب إليه مثلاً أنه كان "على صلة وطيدة بالتنظيمات الماركسية وتحديداً بمنظمة الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدثو). وبالأحزاب الوطنية مصر الفتاة، والطليلة الوفدية يكتب فى جرائدها ومجلاتها وهى تفسح له صدرها وصحفها"^(٢٦).

والقسم الأخير من هذه العبارة صحيح، تؤكد أية مطالعة متأنية أو حتى متعجلة لصحف هذه الفترة (١٩٥١ . ١٩٥٢). ويؤكد سيد قطب نفسه فى "اعترافاته" التى أسمى فى بعد "لماذا أعدمنى" (ولكى يتضح الأمر فإن المتهم فى المحاكمات العسكرية يطلب إليه دوماً أن يكتب ما يسمى "إقرار المتهم" ووفق ما هو معروف كتب سيد قطب إقرارًا مختصرًا، ثم إقرارًا موسعًا وضافيًا اعترف فيه ربما بكل شئء مسجلًا فى مقدمته أنه إنما يفعل ذلك بعد أن اعترف الآخرون بكل

شئ، وهو ما سنتناوله تفصيلا فيما بعد، وقد نشر هذا الإقرار الثانى فى مجلة "المسلمون" على مدى عدة أعداد ثم طبع فى كتاب)، ونعود.. كتب سيد قطب فى هذا الإقرار عن فترة ما بعد عودته من أمريكا: "استغرقت فى صراع شديد بالقلم والخطابة والاجتماعات ضد الأوضاع الملكية القائمة والإقطاع والرأسمالية، وأصدرت كتابين فى الموضوع غير مئات المقالات فى صحف الحزب الوطنى الجديد والحزب الاشتراكى ومجلة الدعوة ومجلة الرسالة وكل جريدة أو مجلة قبلت أن تنشر لى بلا انضمام لحزب معين" (٢٧).

لكن ما استوقفنا فى كتاب الدكتور حسن حنفى كان قوله إن سيد قطب كان على علاقة وطيدة بالتنظيمات الماركسية وخاصة منظمة "حدثو". والحقيقة أن مراجعة كتابات سيد قطب فى هذه الفترة تكشف عن هجوم سيد قطب الشديد على الشيوعية كنظرية وتطبيق، بل إنه كان يستند فى مطالباته بالعدالة الاجتماعية إلى التخويف من خطر الشيوعية. لكن الحقيقة أنه وخلال احتدام الصراع ضد عبد الناصر فى عام ١٩٥٤ اقترح سيد قطب إقامة تحالف مع الشيوعيين، وبالفعل تم اتصال مع منظمة الحزب الشيوعى المصرى الراية.. لكن الضربات البوليسية ضد الجانبين أجهضت المحاولة.

وعلى أية حال فإن هذا الشخص المحير دوماً والغامض أحياناً سيبقى . ولأمد طويل . محلاً لتمجيد مبالغ فيه من تابعيه وتابعى تابعيه، كما سيبقى محلاً لهجوم مبالغ فيه أيضاً من مخالفه فى الرأى والموقف.

يقول حلمى النمنم إنه تعرف على أفكار سيد قطب عندما كان طالباً "كانت الجماعة الإسلامية بالجامعة توزع مؤلفات سيد قطب على نطاق واسع وبأسعار زهيدة بنصف جنيه للكتاب أو جنيه على الأكثر" (٢٨).

وبالمقابل، فإنه يورد واقعة أخرى "كنت أتحدث مرة مع الشيخ محمود شاكر المحقق والمدافع القوى عن اللغة العربية وذكرت اسم سيد قطب فانطلق شاكر ليقول كلمات قاسية فى حقه منها أنه جاهل كبير" (٢٩).

وحتى نجيب محفوظ أقصوه في الأمر. وينتقى النقاد من كتابته في "المرايا" شخصية أسماها محفوظ عبد الوهاب إسماعيل ووصفها قائلاً: "استقر في نفسى رغم صداقتنا نفور دائم منه" وتحدث محفوظ عن "جانب انتهازى في شخصيته، وتعصب شديد ضد غير المسلمين" وقال "لم أرتح أبداً لسحنته ولا لنظرة عينيه الجاحظتين" (٣٠).

وكالمعتاد فإن الكثير يلقون على عاتق سيد قطب كامل المسؤولية عن تصاعد موج التأسلم سواء ذلك الذى يتخذ طابعاً عنيقاً أو طابعاً فكرياً.. ونقرأ لحلمى النمنم: "ولم تكن أفكار سيد قطب خلف الإرهابيين والقتلة فحسب بل كانت فى ذهن هؤلاء الذين قالوا عن أنفسهم إنهم معتدلون وإنهم لا يرفعون السلاح على المجتمع، فالذين دخلوا انتخابات مجلس الشعب وكلما سألهم سائل عن برنامجهم للتعامل مع قضايا المجتمع ومشكلاته ردوا بتلك العبارة الفضفاضة "الإسلام هو الحل" وكان سيد قطب هو صاحب تلك النظرية. لا برنامج، لا خطط، بل الحكم أولاً ثم يأتى كل شىء بعد ذلك وعلى مهل" (٣١).

ولعله يستند فى رأيه هذا إلى أقوال عديدة لسيد قطب تتخذ هذا الموقف منها . على سبيل المثال . قوله: "إن الجاهلية التى حولنا تسأل المخلصين من أصحاب الدعوة الإسلامية أين تفصيلاً نظامكم الذى تدعون إليه؟ وماذا أعددتם لتنفيذه من بحوث ومن مشروعات، وهى فى هذا تتعمد أن تعجلهم عن منهجهم، وتجعلهم يتجاوزون مرحلة بناء العقيدة، وأن يحولوا منهجهم الربانى عن طبيعته" (٣٢).

ولم يسلم سيد قطب من نقد حتى هؤلاء الذين وقفوا فى ساحته الفكرية فالشيخ يوسف القرضاوى يوجه له نقداً لاذعاً، ويتهمه بعدم معرفته للفقہ الإسلامى وعدم دراسته له، وإن كان قد صاغ هذا الاتهام برقه وترفق وذكاء فهو يقول: "أحسب أن الشهيد سيد قطب رحمه الله لو أتيح له دراسة الفقہ الإسلامى والعيش فى كتبه ومراجعته زمنًا، لغيّر رأيه.. ولكن تخصصه، ولون ثقافته لم يفتح له هذه الفرصة وخاصة أن مراجع الفقہ بطريقتها وأسلوبها لا تلائم ذوقه الفنى الرفيع" (٣٣).

أما تلاميذه المقربون، وأخلص المريدين والتابعين من قادة "الجماعة الإسلامية" فإنهم ما إن غيروا أفكارهم ومنطلقاتهم الفقهية حتى انقضوا عليه إلى درجة أن أحدهم صرح لجريدة القاهرة قائلاً في بساطة ويسر "إن سيد قطب كان أديباً وليس فقيهاً" (٣٤).

ويبقى من هذا الاستعراض المتعجل لمقدمات مسيرة سيد قطب مسألتان أكثر أصدقائه وخصومه من التحويم حولهما، البعض يتساءل في دهشة، والبعض في تشكيك.

والمسألة الأولى هي بعثته إلى أمريكا.

فسيد قطب اختير للسفر في بعثة إلى أمريكا، وكان اختياره هو بالذات مثاراً لأسئلة عديدة.

فلم يكن في حساب أحد أن ينال هو بالذات هذه البعثة. وهي بعثة لم يعلن عنها كما هو مقرر، وإنما اختير هو بالذات دون إعلان.

كما أنه اختير للبعثة بعد تجاوزه السن المناسبة للدراسة فقد سافر وسنه ٤٢ عاماً. ولكي يمكن تبرير سفره انتدب من عمله في ديوان الوزارة إلى مكتب الوزير حتى يمكن تليف مبرر لسفره. كما أن البعثة كانت كما قيل لدراسة التربية والمناهج ولم يكن هذا تخصصه بل كان هناك عشرات غيره أجدر منه في هذا التخصص. يبقى بعد هذا أنها كانت بعثة فريدة من نوعها فلم يكن مقرر لها أية دراسة محددة أو حتى جامعة محددة، بل هي بعثة حرة فقد ترك له حق التجول في كل أمريكا، والإقامة حيث يشاء، والالتقاء بمن يشاء. وقد بقي في أمريكا قرابة السنوات الثلاث حيث عاد في صيف ١٩٥١.

إن هذه الملابسات جميعاً قد أثارت دهشة ولغطاً تقبله البعض بحسن نية، والبعض بغير ذلك.

يقول د. الطاهر مكي: "هذه الزيارة كانت وليدة تخطيط أمريكي، وإن كان سيد

قطب بعيدا عن هذا التخطيط، ولم يكن يدري أنه كان جزءًا من رهان أمريكي، وفيما بعد اعترف سيد قطب لرفيقه فى السجن سيد سالم أنه وقع تحت إغراء الأوساط الأمريكية بكل الوسائل ولكنه لم يسقط فى شباك أى منها، لكنه على أية حال عاد من أمريكا ساخطًا عليها، معاديًا لها^(٣٥).

أما عادل حمودة فيقول وهو يوشك أن يوجه اتهامًا: "إن أمر هذه الزيارة مثير للحيرة والقلق، ويرسم العديد من علامات الاستفهام والتعجب فقد جاءت فى وقت كان يهاجم فيه النظام الملكى بمقالات نارية. ثم لماذا أمريكا بالذات فى تلك الفترة وقد كانت بريطانيا أولى وأقرب دوما بالنسبة لمن يريدون دراسة المناهج التربوية الغربية"^(٣٦).

ويثير ذات الغبار المتسائل الأستاذ على الدالى "يرى البعض أن سفر قطب إلى أمريكا كان أمرًا مثيرًا للدهشة، كما عبر صديقه يحيى حقى عن دهشة أكبر لانضمام قطب إلى الإخوان بعد عودته من أمريكا"^(٣٧). كما أن الأمر الغريب هو أن قطب ما إن عاد من بعثته إلى أمريكا حتى قدم استقالته من وزارة المعارف. وتبقى المسألة الأخرى وهى الأكثر إثارة للتساؤلات.. وهى علاقة سيد قطب بالسلطة الناصرية.

ولن نتحدث فى هذه البداية عن موقف قطب من سلطة يوليو ولا عن علاقاته الحميمة معها فى بداياته؛ فلذلك موضعه فى صفحات قادمة، لكننا سنتوقف عن فترة السجن وعن المعاملة الخاصة التى لقيها وانتهت بعفو صحى. إن هذه الفترة وهذا العفو يحملان ألغازًا كثيرة تستحق التوقف أمامها. وهى ألغاز لم نجد لها حلا حتى الآن، ولن نحاول هنا أن نجد نحن الحل، فقط نحاول أن نسرد الوقائع لأنها لافتة للنظر ومستحقة للكشف عن غموضها، ذلك الغموض الذى يبدو وكأنه لن يجد حلا لطالاسمه.

ولنبداً من البداية.

فى ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤ جرت محاولة اغتيال عبد الناصر فى ميدان المنشية

بالإسكندرية. ودارت ماكينة القبض على الإخوان. وصدر أمر بالقبض على سيد قطب متهمًا بأنه كان المسئول عن إصدار نشرة سرية اسمها "الإخوان في المعركة".

وكان سيد قطب يصدر في أوائل ١٩٥٤ صحيفة "الإخوان المسلمون" لكنه لم يلبث أن أغلقها. أما السبب فيعلنه سيد قطب في شهادته أمام محكمة الشعب قائلاً "أغلقت الجريدة باختياري لأنى لم أستطع أن أنشر فيها ما أريد بسبب الرقابة"^(٣٨). ويبدو فعلاً أنه بادر بإصدار النشرة السرية المسماة "الإخوان في المعركة" فأمام محكمة الشعب جرى الحوار التالى بين جمال سالم رئيس المحكمة والمتهم يوسف طلعت (الرئيس الجديد للجهاز السرى):

س: مَنْ كان يقوم بتحرير الأخبار فى تلك النشرة السرية؟
ج: موش فاكر .

س: سيد قطب كان بيكتبها؟
ج: أيوه يا أفندم^(٣٩).

وأمام ذات المحكمة سأل جمال سالم الشيخ فرغلى:
س: مَنْ كان يحرق نشرة "الإخوان فى المعركة"؟
ج: كان مفهومًا أن الأستاذ سيد قطب كان يحرقها.

وعلى أية حال هرب سيد قطب واختبأ فى بنى سويف لكنه لم يهرب سوى ثلاثة أسابيع وما لبث أن قبض عليه فى ١٨ نوفمبر ١٩٥٤ وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عامًا.

وتنقل بين السجن الحربى ثم ليمان طرة، ثم ما لبث أن أودع مستشفى الليمان فى صيف ١٩٥٥ بسبب إصابته بنزيف فى الرئة.

وفى مايو ١٩٦٤ أفرج عنه بعفو صحى ثم ما لبث أن قبض عليه فى ٩ أغسطس ١٩٦٥ ليقدم للمحاكمة فى ١٢ أبريل ١٩٦٦ أمام محكمة عسكرية عليا برئاسة الفريق محمد فؤاد الدجوى، وصدر الحكم بإعدامه فى ٢١ أغسطس لينفذ

الحكم فى ٢٩ من ذات الشهر .

إن هذه التواريخ تحمل ألغازًا عديدة، سنحاول أن نسردها دون أن نتجاسر على ادعاء محاولة حل طلاسمها .

فسيد قطب عومل فى السجن معاملة خاصة جدًا . أتجاسر فأقول إن أحدًا غيره من سجناء الناصرية من خصومها السياسيين إخوانا كانوا أم شيوعيين لم يتمتع بها .

ففى مستشفى ليمان طرة سمح له بالأوراق والأقلام والكتب والمراجع، وكان هذا كله ممنوعًا بشكل حازم على الجميع إلا هو . وبدأ فى إعادة النظر فى كتابه الأشهر "فى ظلال القرآن" حيث أعاد تنقيح ثلاثة عشر جزءًا منه، أعاد تنقيحها علنا وأخرجها من السجن علنا، لتطبع علنا وتوزع علنا . وهو أمر لم يتكرر لأى سجين آخر بل إنه كتب خمسة كتب جديدة، كتبها فى السجن وأخرجها من السجن وطبعت ووزعت علنا وهى :

. هذا الدين .

. المستقبل لهذا الدين .

. الإسلام ومشكلات الحضارة .

. خصائص التصور الإسلامى .

. معالم فى الطريق .

والغريب أن مراجعة "الظلال" كانت تتم من أجل إضافة الفكر الجديد الأكثر تطرفًا .

يقول الأستاذ مصطفى مشهور فى حوار له : "بدأت ألفاظ الجاهلية والحاكمية تظهر فى كتابات سيد قطب عندما كان يعد تفسيره "فى ظلال القرآن" للطبعة الثانية أثناء وجوده فى السجن حيث تأثر بكتابات أبو الأعلى المودودى وتفاعل مع المحنة فأضاف هذه الألفاظ إلى الظلال" (٤٠) .

وتتوالى الألغاز .

وفى اعترافاتها فى تحقيقات قضية ١٩٦٥ قالت السيدة زينب الغزالى: "فى موسم الحج ١٩٥٩ قابلت سعيد رمضان وعرض علىّ الاتصال بسيد قطب ليكتب فى مجلة "المسلمون" التى كان يصدرها فى بيروت. واتصلت بسيد فى السجن (كان الاتصال يتم عن طريق أخته حميدة). لكن سيد رفض، فقد كان لا يريد أن يشغل نفسه بأى شىء غير مشروعه (مراجعة كتاب الظلال)"، وكان مما قاله سيد فى رده: "إن الحكومة فى مصر صرحت له بطبع كتبه، ولما يكتب فى مجلة المسلمون بتاعت سعيد رمضان ربما تمنع طبع الكتب بتاعته فى مصر" (٤١).

ولعله من المفيد أن نستطرد لنضيف معلومة مهمة. فزينب الغزالى تواصل اعترافاتها: "ولما تلقى سعيد رمضان الرد غضب بشدة وقال: قولى للمرشد إن الإخوان بالخارج معدوش حبيعتوا فلوس للأسر فى مصر، لأن المسألة متحولش لمسألة لاجئين"، وتضيف: "كان سعيد رمضان متضايق جداً من إخوان مصر، وكان زعله أنهم ملهمش نشاط، وأنهم انتهوا، وكان يقول إيه الإخوان، وإيه قيمتهم فى مصر دلوقت، وأنا فهمت من كلامه إنه كان بيعت فلوس لمصر عايز يقطعها، ولما قلت هذا للمرشد مردش كعادته" (٤٢).

وبعد أن تبلورت أفكار سيد قطب الجديدة نجح فى أن يستخدم موقعه فى مستشفى سجن طرة فى تجنيد العديد إلى أفكاره الجديدة.. كان المرضى منهم والتمارضون يمرون على مستشفى السجن لتلقى العلاج وهناك كان ينفرد بهم ليجندهم لأفكاره.

ويقول فى إقراره: "تكونت خلايا سميت "الأسر" ومن سجن القناطر وحده ناقشت حوالى مائة أخ، خمسة وعشرون منهم اندمجوا فى الدراسة وأصبحت لهم مفهومات واضحة فى العقيدة والمنهج و٢٣ عارضوا مبدأ السماع من غير قادة الجماعة فى الواحات و٥٠ درسوا ولم يصلوا إلى الوضوح الكافى" (٤٣).

وكان سيد قطب يحرر موضوعات ونشرات يجرى إرسالها من السجن إلى السجون الأخرى وإلى الإخوان خارج السجون. يقول أحمد عبد المجيد عبد السميع

فى محضر التحقيق معه: "الأستاذ سيد قطب كان يتكلم فى النشرات اللى كان بيرسلها من السجن عن الإخوان وعن الجماعة المسلمة، والكلام اللى كان مكتوب فى النشرات عجبنا لأنه كان كلام جديد علينا"^(٤٤).

وانقسم الإخوان فى السجن إلى فريقين، ودارت صراعات فكرية وفقهية وأحياناً تجاوزت الخلافات حدود الفكر وتحولت إلى مشاجرات ومشاحنات وتضارب.

ولا بد أن أذان البوليس المرهفة قد تلقت معلومات عن هذا الفكر التكفيرى الجديد الذى يبثه سيد قطب من مرصده فى مستشفى اليمان. ولم يتخذ الأمن أى إجراء. وهذا أمر يثير الدهشة. لكن الأكثر إثارة لما هو أكثر من الدهشة هو الإفراج عنه بعفو صحى.

ولعل من حقه علينا أن نورد تفسيره هو للإفراج عنه.

فهو يقول فى إقراره: "إن الرئيس عبد السلام عارف (الذى أعجب كثيراً بكتابه "فى ظلال القرآن") قد قام بهذه الوساطة. ونجحت والحمد لله"، وبعد أن أفرج عنه زاره السفير العراقى مهناً فحمله رسالة شكر إلى الرئيس عارف وطلب منه أن يواصل مساعيه للإفراج عن بقية الإخوان.

ويقول الأستاذ عمر التلمسانى: "لقد عرض عليه سفير العراق الذى أصبح فيما بعد وزيراً للتعليم أن يسافر إلى بغداد كخبير فى مناهج التعليم"، وكان من رأى التلمسانى أن يوافق بلا تردد "لكن قطب رفض وأثر البقاء فى مصر ليدافع عن رأيه"^(٤٥).

ونعود إلى الأغاز.. لقد تسببت أفكار سيد قطب فى انقسام حقيقى فى صفوف الإخوان؛ فقد عارضها عديد من قادة الإخوان الكبار "وكان على رأس معارضيه فريد عبد الخالق، منير الدله، صالح أبو رقيق، حسن عشماوى، المستشار عبد القادر حلمى وكان لهؤلاء القادة نفوذ على نفوس الإخوان داخل وخارج مصر"^(٤٦).

وبالمقابل التفّ حول أفكار قطب عديد من الشبان بعضهم أثار لغطاً على الصوت فى السجن (كمثال كان شكرى مصطفى واحداً من هؤلاء وكان عصبى

المزاج وكثيرا ما دخل فى مشاجرات مع مخالفيه) ولا بد أن كثيرا من هذا اللغط وصل إلى آذان الأمن.

بل إن على عشاوى أحد مشاركى سيد قطب فى إعادة التنظيم بعد الإفراج عنه يقول: "الأخ مراد الزيات أخبر صلاح شادى فى السجن بمحاولات إعادة التنظيم فأمره أن يبلغ عنا البوليس لأنه إذا شعرت أجهزة الأمن بوجودنا فسوف يعرقل ذلك الإفراج عنهم" (٤٧).

.. وتتوالى الألغاز. كتاب "معالم فى الطريق" الذى جاء تجسيدياً لأفكار التكفير كتب فى السجن وقامت بتهريبه أخته حميدة ويقول عادل حمودة "ولم تكن عملية التهريب هذه بالمسألة السهلة إذا كانت هناك رقابة شديدة" (٤٨).

والغريب أن "معالم فى الطريق" طبع علنا ووزع علنا لفترة من الزمن قبل إعادة القبض على سيد قطب. ويقول حلمى النمنم دون أن يذكر مصدر معلوماته "إن عبد الناصر رفض اقتراح أجهزة الأمن بمصادرة كتاب معالم فى الطريق" (٤٩).

ويقول قطب فى إقراره: "إن الإذاعة السعودية كانت تذيع أحاديث مقتبسة من كتاب "فى ظلال القرآن"، وبعد خروجى بشهرين فوجئت برسالة منها مرفق بها تحويل مبلغ ١٤٣ جنيها على بنك بورسعيد قيمة الأحاديث التى أذيعت، ولأنى عرفت أنها أذاعت هذه الأحاديث طيلة سنوات وأنها مستمرة فى إذاعتها فقد أرسلت إلى وزير الإعلام السعودى مطالباً بحقوقى كمؤلف، وعلمت من بعض العائدين من الحج أنه تقرر تخصيص مكافأة عن الإذاعات السابقة والتى تستجد وترسل بالطريقة التى أرسل بها المبلغ السابق، إلا أن شيئا من هذا لم يتحقق"، لكن ما هو مهم هو أن قطب أضاف: "وكنت حريصا على أن أطلع المباحث العامة على كل هذه التفاصيل" (٥٠).

وتتوالى الألغاز. لقد خرج سيد قطب متحمسا لبناء تنظيم يكون وعاء لأفكاره. لكنه كان يتصرف بلا أى حرص، ولا أية مراعاة لقواعد الأمان. يقول على عشاوى إنه كان يزور سيد قطب فى منزله هو وعدد من الإخوان ليتناقشوا فى

أمور التنظيم^(٥١) ويقول فى أقواله فى محضر تحقيق النيابة العسكرية "تم اللقاء الأول مع مجموعة الخمسة (الذين كانوا يرأسون المجموعات الإخوانية خارج السجن ومع سيد قطب بترتيب من زينب الغزالى ومن عبد الفتاح إسماعيل فى عشة سيد قطب فى رأس البر فى حوالى يوليو ١٩٦٤ (أى بعد الإفراج عن قطب ببضعة أسابيع) وباتوا عنده الليلة بعد أن ناقشوا أفكاره"^(٥٢).

هكذا ببساطة كانوا يجتمعون فى بيته وفى عشته دون أى احتراز.

ونمضى مع على عشاوى الذى يقول فى اعترافاته: "عرف سيد قطب أنهم فى مكتب المشير بيفكروا إذا كانوا يضربوا الإخوان وإلا يستتوا شوية. فرديت عليه: إيه دخل مكتب المشير فى الموضوع أنا أفهم أن المباحث أو المخابرات هى اللى تفكر فى ده. فقال: والله أنا وصلنى كده. وعلى أى حال إما الخبر مكذوب أو أن الأجهزة بايظة وتسرب منها الخبر، وعلى أى حال من المحتمل جداً أن تضرب الحكومة الإخوان ولازم نعمل عمل كبير ما يكونش زوبعة فى فنجان إذا حسينا أن التنظيم انكشف أو إذا الحكومة حاولت أن تقبض على مرة أخرى"^(٥٣).

.. أى أنه عرف باحتمالات القبض. وعرف تحديداً مصدره، ففعلاً كان مكتب المشير هو صاحب القضية. ولم يتخذ أى إجراء لحماية التنظيم أو هروب أعضائه. أو أى شىء سوى توجيه ضربة لا تكون زوبعة فى فنجان.. فكيف؟ ولماذا؟

.. وبعد

إن كل سطر من الأسطر السابقة يشتمل على لغز يحتاج إلى حل. ولعل أسهل الحلول هى التى لجأت إليها زينب الغزالى إذ قدمت تفسيراً مثيراً للدهشة فقالت إن القضية "قبركها مكتب شمس بدران (أى مكتب المشير) لتقديم كبش فداء جديد لعبد الناصر. وإن إخراج سيد قطب من السجن كان تخطيطاً من المخابرات ليسهل اغتياله"^(٥٤).

.. هذا هو تفسير زينب الغزال. أما نحن فنكتفى بما قدمنا من ألغاز مستشعرين

الحرص من تقديم أى تفسير، تاركين الأمر للمستقبل فاعله يكشف لنا بعضًا مما لا يزال خافيا.

لكن سيد قطب لم يزل يثير دهشتنا إذ تصرف بهذه البساطة ولنقل . وإن عد البعض ذلك تجاوزًا . بهذه السذاجة، وهو الذى عاش طوال فترة السجن مستشعرًا خطر مؤامرات تحاك.. وهو يروى تصويره لهذه المؤامرات فى إقراره.

والحقيقة أن مطالعة هذه الإقرار (٥٠ صفحة فولسكاب) تكشف لنا الكثير من جوانب شخصية سيد قطب، فقد كتب بصراحة، ولعله لم يخف الكثير، ولعله كتب معترفًا بما يعرفه الآخرون من إخوانه الذين شاركوه بناء التنظيم. وبما أنه "اعترف" بالأخطر فلا بأس من الاعتراف بالأقل خطورة.

وببدأ سيد قطب إقراره: "بسم الله الرحمن الرحيم.. سيد قطب إبراهيم، تقرير وبيان بالتفصيلات الكاملة عن أوجه نشاطى فى الحركة الإسلامية فى جماعة الإخوان المسلمين بوقائعها ودوافعها. ولقد كتبت بيانًا مجملًا قبل هذا تنقصه وقائع وبيانات كثيرة. ولقد أسىء فهم موقفى وتقرير دوافعى فى كتابة ذلك البيان على هذا النحو. وأرجو أن يكون فى هذا التقرير الجديد المفصل ما يفى بالمطلوب، وما يجعل موقفى مفهومًا على حقيقته".

أما لماذا لم يعترف بالتفاصيل فى إقراره الأول.. "كنت أحاول أولاً وقبل كل شىء حماية مجموعة من الشباب الذى عمل معى فى هذه الحركة بقدر ما أملك، لاعتقادى أن هذا الشباب من خيرة من تحمل الأرض فى هذا الجيل كله". وأن "ذلك البيان المجلل الذى لا يحتوى كل التفاصيل الدقيقة هو كل ما أملكه فى الظرف الحاضر للتخفيف عنهم، وقد يشملنى هذا التخفيف ضمناً"، ثم.. "ويجب أن أبين أن تقديمى ذلك البيان الأول المجلل بهذا القصد هو واجبى كمسلم، فالأسير المسلم لا ينبغى له أن يدل على ما وراءه من جند الإسلام، ولا يكشف مقاتل المسلمين وعوراتهم ما أمكنه"، ولكن.. "الآن وقد تبينت أن هذا الشباب قد

قرر كل تفاصيل أدواره الخاصة والعامة، وأننى لا أدل عليهم بشئ، فقد ارتفع الحرج عن صدرى فى ذكر كل التفاصيل".

بهذه المقدمة يمكننا أن نعتد . بقدر كبير . بما أورده سيد قطب من خواطر وآراء. لكننا هنا سنركز فقط على تصوراته عن المؤامرات التى تحاك ضد الجماعة. بما يضاعف دهشتنا إزاء عدم احترازه فى تأمين حركته وتحركه. لقد أشار سيد قطب فى إقراره إلى ثلاث مؤامرات أو ما تصوره هو أنها مؤامرات.

والأولى هى محاولة اغتيال عبد الناصر فى ميدان المنشية ويقول عنها: "أنا لا أقول أنها تمثيلية، ولكنى أقول أنها مدبرة لهدف معين، وأن أصبعا أجنبية ذات دخل فيها"، ثم يقول: "إن شعورى وتقديرى بأن حادث المنشية مدبر تدييراً جعل يملأ نفسى رغبة فى معرفة الحقيقة، غير أننى لم أجد أحداً ممن التقيت بهم فى سجن طرة عام ١٩٥٥ . كانوا كثيرين قبل ترخيلهم إلى الواحات . يدلنى على هذه الحقيقة، كل من سألتهم ومنهم أناس قريبون جداً من محمود عبد اللطيف الذى انطلقت الرصاصات من مسدسه، ومن هنداوى دوير كذلك، قالوا لى: المسألة غامضة وموش عارفين الحكاية دى حصلت إزاي، وبعضهم قال إن فيها سرّاً لا يمكن الآن معرفته، وكانت كل الأجوبة لا تملك أن تعطينى الحقيقة".

أما مشروع المؤامرة الأخرى فهو يرويه بالأسماء.. وننقل نحن الأسماء على مسؤوليته هو، ففى حوالى أبريل ومايو ١٩٥٥، كان فى مجموعة سجن طرة بعض الضباط السابقين فؤاد جاسر، حسين حمودة، عبد الكريم عطية وجمال ربيع. والمهم أن جمال ربيع أخذ يعرض مشروعاً يتلخص فى محاولة موحدة التوقيت بين المجموعات الثلاث فى السجون الثلاثة (طرة وسجن مصر والسجن الحبرى). للخروج بالقوة من السجون بعد الاستيلاء على أسلحة الكتائب (الحراسة) بها، ثم التجمع مع بقية الإخوان فى الخارج حسب خطته العسكرية التى لا أفهم فى تفصيلاتها الفنية بعد عبور النيل لمحاولة عمل انقلاب بعد الاتصال بوحدات

عسكرية يتصل هو بها أو هو على اتصال بها (لا أتذكر تمامًا). وقد عرض هذا الموضوع كما ذكر لى على فؤاد جاسر وحسين حمودة فلم يوافقا. وعرضه على الأستاذ صالح أبو رقيق فشتمه وعنفه كما قال لى فيما بعد الأستاذ صالح. وعرض جمال ربيع مشروعه على قائلًا إنه لا يجد فى الإخوان خمسين رجلاً قلوبهم حديد لتنفيذ خطته. ومع عدم خبرتى بالمسائل الفنية فقد أحسست أنها محاولة انتحارية جنونية لا يجوز التفكير فيها". وفيما كان سيد قطب يستعد لترحيله إلى السجن الحربى لتقديره للمحاكمة جاءه جمال ربيع قائلًا: "إنه تدبير من الله أن أذهب إلى السجن الحربى لمقابلة معروف الحضرى هناك وعرض الأمر عليه، للاتفاق فيما بعد على التفاصيل وتحديد التوقيت. ومع عدم اقتناعى لحظة واحدة بجدية خطة كهذه فقد عرضت المسألة على معروف وقبل أن يعرف منى من هو صاحب الخطة قال فى عصبية "دى دسيسة لتدبير مذبة كبرى للإخوان الذين فى السجون والذين فى الخارج جميعًا".

أما مشروع المؤامرة الثالثة فيرويه سيد قطب قائلًا: "كان قائد كتيبة ليمان طرة الصاغ عبد الباسط البنا (شقيق حسن البنا) وقد وجدته يزور مصحة الليمان ثلاث مرات ويسلم على... على غير معرفة سابقة. ويحدثنى فى ضرورة تخليص الإخوان فى السجون لأنهم هكذا يستهلكون تمامًا... ومع معرفتى أنه لم يكن يوما ما من الإخوان فى حياة أخيه الشهيد حسن البنا فقد سألته: وكيف ذلك؟ فقال: إنه كقائد للكتيبة يضع نفسه وأسلحة الكتيبة تحت تصرفنا، لأنه لم يعد يطبق منظر طابور الإخوان فى الجبل"، ويقول قطب: "وهنا تذكرت خطة جمال ربيع ورنيت فى أذنى كلمات معروف الحضرى دى دسيسه لتدبير مذبة كبرى للإخوان. وقلت له: إحنا متشكرين على عواطفك، ولكن نحن نرى أننا أدينا واجبنا وانتهت مهمتنا بدخول السجون ولم نعد نستطيع عمل شىء، فمن أراد أن يعمل من غيرنا فليعمل. وانقطعت زيارته عنى، ثم نقل من الكتيبة".

أما المؤامرة التى تحققت نتائجها فى وجهة نظره فهى الأحداث الدامية التى

اصطلاح على تسميتها بمذبحة ليمان طرة والتي انتهت بقتل ٢١ من السجناء الإخوان وجرح الكثيرين.

ويبقى التساؤل: كيف وبعد كل هذه التجارب والتصورات يفعلها سيد قطب فيفقد حذره وينساق دون تأمين كاف إلى ما فعل؟

لكن صورة سيد قطب السياسى لا يمكن أن تكتمل دون إلقاء نظرة على مواقفه المبكرة من ثورة يوليو.

فالذين يطالعون كتابات سيد قطب الآن لا يرون منها إلا موقفه الشديد العداء والتكفيرى لعبد الناصر وثورته، ذلك أن الطابعين والناشرين للتراث القطبى قد أخفوا وعن عمد متعمد كتاباته فى الأشهر الأولى لثورة يوليو.

ونحن إذ نورد بعضاً منها إنما نحاول . جهد الطاقة . استكمال صورة الرجل الذى نتحدث عنه، وتبيان . أو محاولة تبيان . الانقلابات الحادة، وربما العاطفية فى مواقفه.

عندما قامت يوليو أطلق عليها أصحابها "الحركة المباركة"، وأسماها أصدقاؤها "الانقلاب"^(٥٥) لكن سيد قطب أصر على أنها "ثورة وينبغى أن تكون كذلك"^(٥٦) ولم يسبقه إلى هذه التسمية سوى محمد فريد أبو حديد^(٥٧).

ومنذ البدايات الأولى انبرى سيد قطب وبحماس دافق ليس فقط لتأييد الثورة وإنما لدفعها دفعا إلى طريق الدكتاتورية وهو ما ناصبها العداء بسببه فيما بعد.

ونقرأ فى جريدة الأخبار مقالا يعتب فيه على الضباط ما أشيع من أنهم ينوون العودة إلى تكناتهم، وطالبهم بالاستمرار فى الحكم قائلا: "بدلاً من أن تسيروا فى هذا الطريق إلى نهايته، بدلاً من أن تضربوا الحديد ساخناً، بدلاً من أن تقتحموا أوكار اللصوص، أثرت أن تتسحبوا إلى التكنات، وأن تتركوا المجال إلى رجال السياسة، هؤلاء الذين امتطى الملك الراحل ظهورهم واتخذ منهم أدوات لإذلال الشعب وإهانتة"، ويقول: "باسم الملايين الذين لن يسمحوا لكم بالعودة إلى التكنات لأن مهمتكم لم تنته

بعه، لأن واجبكم قد بدأ وعليكم أن تكملوه". ثم ينتقل إلى مهاجمة دستور ١٩٢٣ واصفاً إياه بأنه "الخدعة التي يطنطن بها رجال السياسة ليفرقوا بها وثبتكم. إن الرجعية اليوم تتستر وراء الدستور وتتشبث بهذه الخدعة لتعيش"، ثم يطالب بدكتاتورية "عادلة ونظيفة حتى يتم التطهير، إن الدستور الذى سمح بكل ما وقع من الفساد، ليس فساد الملك وحاشيته فحسب، ولكن فساد الأحزاب ورجال السياسة، وما تحمله صحائفهم من أوزار أيضاً، إن هذا الدستور لا يستطيع حمايتنا من عودة الفساد إن لم تحققوا أنتم التطهير الشامل الكامل الذى يحرم الملوئين من كل نشاط دستورى، ولا يبيح الحرية السياسية إلا للشرفاء. لقد احتمل الشعب دكتاتورية طاغية باغية شريرة مريضة على مدى خمسة عشر عاماً أو تزيد أفلا يحتمل دكتاتورية عادلة نظيفة ستة شهور على فرض أن قيامكم بحركة التطهير يعتبر دكتاتورية بأى وجه من الوجوه" (٥٨)؟ وهكذا فإنه وفى وقت مبكر جداً يحاول أن يثير الفرقة فى صفوف مجلس الثورة، محرضاً البعض ممن يتشبثون بالسلطة ضد البعض ومنهم خالد محيى الدين وضباط الفرسان الذين طالبوا بعودة الجيش إلى ثكناته وعودة الحكم النيابى.

وعندما قامت إضرابات كفر الدوار فى ١٢ و ١٣ أغسطس كان سيد قطب أول من كتب مندداً بها محرضاً على العمال الذين اتهموا بالقيام بها، قائلاً إنها حركات لا تخيفنا "وقد كنا نتوقع أشد منها، إن الرجعية لن تقف مكتوفة اليدين وهى تشهد مصرعها، إنها ستدافع عن نفسها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة". ويقول: "إن عهداً بأكمله يلفظ أنفاسه الأخيرة فى قبضة قوية مكينة فلا بأس أن يرفس برجليه، لكنه عهد قد انتهى. عهد قد مات. إنما المهم أن نشرع فى الإجهاز عليه، وأن تكون المدينة حامية، فلا يطول الصراع، ولا تطول السكرات، لقد أطلع الشيطان قرينه، فلنضرب بقوة، ولنضرب بسرعة، أما الشعب فإن عليه أن يحفر القبر، وأن يهيل التراب" (٥٩). وفى مجلة روز اليوسف ينشر مقالاً يطالب فيه بالإطاحة بدستور ١٩٢٣ "إن هذا الاتجاه إلى دستور ١٩٢٣ يحمل الدلائل على أن عقلية الثورة تتقصنا، لقد كان ينبغى ألا نبحث لنا عن سند فى دستور انتهى أمره... إن منطق

الثورة معناه استلهم الموقف الجديد الذى لم يكن فى حساب الدستور ولا واضعى الدستور. إن دستور ١٩٢٣ قد مات، مات فى عالم الواقع، ولا يمكن بعثه إلا إذا ماتت الثورة. والفكرة واضحة إما الثورة أو دستور ٢٣ ولا بقاء للآخرين معاً. وما دامت الثورة قائمة فيجب أن نتخلص من هذا الدستور" (٦٠).

وهو يدعو إلى استبعاد "ال جماهير" من معادلة العمل السياسى مكتفياً بدور الجيش مؤكداً إنه "من مصلحة الجميع أن يظل الزمام فى أيدى قوة نظامية طاهرة نظيفة، وألا يقف الحمقى فى طريقها فهى أقوى من كل ما يظنون، وهى ستسحقهم سحقاً لأنها قوة الشعب كله. وطريقة القوة المنظمة فى الشعب أسلم من طريقة الجماهير" (٦١).

ويهاجم سيد قطب الأحزاب جميعاً ويقول: "لم يخب ظنى فى هذه الأحزاب القديمة، كنت أدرك أنها أحزاب انتهت، تجمدت، فقدت القدرة على الحركة فلم تعد صالحة للبقاء، ولا قابلة للشفاء. إن مشكلة هذه الأحزاب أنها لم تدرك أنها قد تحولت إلى تروس صدئة فى الجهاز الاجتماعى الفاسد الذى يكافحه الشعب"، ثم يشن هجوماً على حزب الوفد بالذات يقول فيه: "استكمل حزب الوفد الطابع الرجعى بانضمام الإقطاعى سراج الدين إلى صفوفه، وبروزه فى هذه الصفوف، وسيطرته عليه فى النهاية، وكانت هذه نهاية الوفد كحزب يعبر عن اتجاه الجماهير" (٦٢). وكان أحمد الفتاح قد كتب مقالاً فى "المصرى" يدافع فيه عن النحاس باشا قائلاً إن النحاس باشا "هو أفضل من يتولى رئاسة الوفد" (٦٣) ويكون مقال سيد قطب السابق ردّاً على أبو الفتاح. ويكمل سيد قطب معركته ضد النحاس قائلاً: "أنا أوافق الأستاذ أحمد أبو الفتاح على ذلك فالوفد حزب شاخ وانتهت أيامه، ومصطفى النحاس رجل شاخ وانتهت أيامه".

ويشن سيد قطب فى واحدة من حملاته غير الموفقة هجوماً شديداً على كبار الفنانين المصريين فيكتب تحت عنوان "أخرسوا هذه الأصوات النجسة" طالب فيه بمنع إذاعة أغانى عبد الوهاب وأم كلثوم ولىلى مراد وفريد الأطرش ومحمد فوزى قائلاً: "إن واجبنا حماية الجماهير من الأصوات التى تحبها كما نحميها من

المخدرات، وهذا واجب الثورة ويتعين عليها أن تفعله مهما يكن فيه من اعتداء على حريات الأفراد، لتخرس هذه الأصوات الدنسة إلى الأبد"، ويضيف سيد قطب في القسم الثاني من المقال أسماء شهرزاد وفايدة كامل ورجاء عبده وعبد العزيز محمود قائلًا عن الجميع "إنهم مخلوقات شائثة، بائسة، طابور مترهل ظل يفتت صلابة هذا الشعب ويدنس رجولته وأنوثته وهو المسئول عن نصف ما أصاب حياتنا الشعبية والقومية من تفكك وانحلال. إنهم أخطر من فاروق وحاشيته، إن فساد فاروق وحاشيته ورجال الأحزاب ومن إليهم لم يدخل كل بيت، ولم يتسلل إلى كل نفس، أما أغاني هذا الطابور وأفلامه فقد دخلت إلى البيوت وأفسدت الضمائر. إن الجماهير تحبهم نعم لكن الجماهير تحب المخدرات، وواجبنا أن نحمي الجماهير منها"^(٦٤). والغريب أن الضباط المسئولين عن الإذاعة قد استجابوا لهذا المقال ومنعوا إذاعة أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب. لكن عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ما لبثا أن تدخلوا وأعادوا إذاعة الأغاني، وهزم سيد قطب.

لكن سيد قطب يخوض معركته أيضًا ضد العمال. ويروى القائد النقابي المخضرم فتحى كامل إنه ذهب إلى وزارة الشؤون الاجتماعية ليتفاوض مع المسئولين فيها حول تكوين اتحاد عام لنقابات العمال، وحضر الاجتماع وزير الشؤون محمد فؤاد جلال والضابط عبد المنعم أمين عضو مجلس قيادة الثورة وسيد قطب، ويقول فتحى كامل إن قطب كان أكثر الحاضرين رفضًا لفكرة الاتحاد العام مؤكدًا أن النقابات بحاجة أولاً إلى أن تظهر صفوفها من الشيوعيين^(٦٥).

كذلك خاض سيد قطب معركة ضد محاولات الحركة العمالية لإلغاء المادة ٣٩ من قانون عقد العمل الفردى والتي كانت تجيز الفصل التعسفى للعمال، وكان خالد محيى الدين عضو مجلس قيادة الثورة متحمسًا لهذا المطلب، وإذ ينجح سيد قطب فى موقفه المعادى للعمال، يفجر خالد محيى الدين الموقف بتقديم استقالته من مجلس قيادة الثورة، وجاء فيها: "إننى قد فقدت القوة الدافعة على العمل نتيجة أننى أرى أن أقل ما كانت تصبو إليه نفسى من أفكار ومبادئ لا أستطيع تنفيذها"،

ويؤكد على رفضه لهذه المادة "التي أعتبرها ظلمًا فادحًا على فئة العمال التي تعتبر العمود الفقري لأي أمة تريد أن تبني مكانها اللائق بين الأمم"^(٦٦)، ويرفض مجلس قيادة الثورة الاستقالة، ويعيد النظر فيما قرره من قبل من إجازة هذه المادة، ويقرر إلغائها. ويهزم سيد قطب مرة أخرى.

والحقيقة أن مواقف سيد قطب قد استقطبت ضده العديد من المثقفين والكتاب الذين شعروا بخطورة دعوته إلى الدكتاتورية وحكم العسكريين ورفض الدستور وهجومه على الفن والفنانين. فبدأت حملة هجوم ضده.

وتنتهز مجلة الثقافة فرصة صدور طبعة جديدة من كتاب العدالة الاجتماعية في الإسلام، لسيد قطب لتشن ضده حملة قاسية. ففي باب نقد الكتب تنشر دراسة مطولة للناقد عز الدين إسماعيل هاجم فيها سيد قطب ووجه له نقدًا لاذعًا لكتبه جميعا. فهو يحذر القارئ وينبئه "إلى خدعة كبيرة، وهالة باطلة نسجها الخيال في وقت من الأوقات حول شخصية سيد قطب في حين أن أظهر ما تتسم به مؤلفاته هو الضحالة، والصحافية، وصياغة أفكار الآخرين من جديد". ويقول: "وإن شئت فارجع إلى كتابه "النقد الأدبي أصوله ومناهجه" وهناك تستطيع أن تترك تمامًا أن الكاتب أعاد أفكار ابركوبى وتشالتن ورونسون التي سبق أن ترجمت إلى العربية، فإذا بحثت عن جديد يختص به المؤلف أعياك البحث دون جدوى". ويمضى عز الدين إسماعيل قائلًا: "أما الكتابان اللذان خدعنا بهما المؤلف وخيل إلينا أن فيهما من الأصالة ما ينفي عن المؤلف تلك الصفة وهما "التصوير الفني في القرآن" و"مشاهد القيامة في القرآن" هذان الكتابان بكل أسف ليس فيهما من أصالة الفكرة شيء، فقد تلقف الأستاذ سيد قطب أصل الفكرة من الأستاذ الكبير عباس العقاد وراح يضخمها حتى ظفر من هذه الضخامة بقدر يملأ كتابين"، ويقول: "إن سيد قطب لا يقرأ الأصول التي تفيده في موضوعه وإنما يقف عند الكتب الثانوية دائمًا، ولا يجهد نفسه في البحث في المصادر الأولى، وإنما يكتفى بما يلتقطه من كتب الدرجة الثانية"^(٦٧).

ولعل هذا الاتهام الأخير يعيد إلى أذهاننا ذات الاتهام الذى سقناه فى صفحات سابقة على لسان الشيخ يوسف القرضاوى فقد اتهمه وإن بألفاظ رقيقة للغاية بذات التهمة. ولعل هذا يفسر أيضًا انقلاب العقاد عليه وانقلابه على العقاد.

ونعود إلى كُتَّاب ومتفقى هذه الفترة الذين أفرعتهم دعوات سيد قطب لدعم الدكتاتورية. ونقرأ ردًا لإحسان عبد القدوس يقول فيه: "إننا لن نقضى على الفساد بالقوانين الاستثنائية، ولن نقضى على الفساد بالقوة، بل بالعكس فإن القوانين الاستثنائية والقوة تحمى الفساد وتضلل الشعب عن مواطنه"، وتساءل إحسان عبد القدوس: "هذه القوانين التى تصدر مقيدة لحريات المفسدين لماذا لا تقابلها قوانين أخرى تصدر مطلقة لحريات الصالحين؟ إن هذه القوانين المتشددة هى جهنم والله سبحانه وتعالى جعل النار للكذابين والجنة للصالحين، وهذه هى النار فأين الجنة؟" (٦٨).

وعندما دعا سيد قطب إلى قيام حكم استبدادى نظيف عاد للرد عليه إحسان عبد القدوس: "أنا لا أؤمن بالأكذوبة اللفظية التى تتغنى بالمستبد العادل، فالمستبد لا يمكن أن يكون عادلا ما دام مستبدًا، والعادل لا يمكن أن يكون مستبدًا ما دام عادلا" (٦٩).

ولكن برغم هذه الهجمات التى شنّها المتفقون والكُتَّاب الليبراليون ضد سيد قطب . وربما بسببها نجح سيد قطب فى أن يفترش مساحة كبيرة من النفوذ لدى رجال يوليو . وكان له مكتب خاص فى مبنى مجلس قيادة الثورة. وأوكلت الثورة إليه هو وسعيد العريان مهمة تغيير مناهج التعليم لتتلاءم مع معطيات ومواقف العهد الجديد، وملأت أشعاره وأناشيده الكتب المدرسية وخاصة كتب المطالعة.

ولا يبقى فى هذا المجال سوى أن نتوقف لنأمل عبارة كتبها سيد قطب مطالبًا باختفاء كل شخص حامت حوله مجرد الشكوك ويقول: "لئن نظلم عشرة أو عشرين من المتهمين خير من أن ندع الثورة تذبل وتموت" (٧٠).

نتأمل، ونستعيد صورة سيد قطب السجين والمحكوم عليه بالإعدام ونسأل أنفسنا

ترى هل طافت هذه الألفاظ بمخيلته وهو يواجه المحنة؟

ويبقى أن نشير إلى أن مَنْ أعادوا جميع كتابات سيد قطب وأصدروها في كتب عدة، قد تجاهلوا تماما كل كتاباته دفاعاً عن ثورة يوليو، وكأنها لم تكن. لكن ذاكرة التاريخ أقوى من أى تجاهل؛ فهي لا تنسى ما قد كتب في الصحف، وما قد حدث في الواقع.

ثم نأتى إلى ما هو مهم. إلى قمة جبل الجليد من كتابات سيد قطب. فإذا كان الجميع تقريبا، سواء مريديه وأتباعه الذين تجاهلوا كل ما سبق من كتاباته عن مرحلة "الإسلاميات" حرصاً منهم على أن تظل صورة الفقيه المتبوع نقية من أية شوائب ليبرالية أو علمانية أو حتى أدبية، وإذا كان هو نفسه قد تجاهلها لدى إصداره للطبعة الثانية من الجزء الأول وحتى الجزء الثالث عشر لكتابه "في ظلال القرآن" حيث أورد عناوين كتبه التى أحب، وتجاهل كل ما سبق مرحلة الإسلاميات.. وإذا كان خصوم سيد قطب تجاهلوا كذلك ضنا عليه بأية سمة من الليبرالية أو التقدمية، مكتفين بما يستحق شجبهم وإدانته. فإننا قد أوردنا ما سبق من كتابات تسبق إسلامياته أو تغايرها لتكون الكتابة أمينة وتكون صورة الرجل كاملة. وهذا هو حق الرجل وحق الكتابة التاريخية.

لكن الخوض في "إسلاميات" سيد قطب أمر بالغ الصعوبة، فالرجل كثير الكتابة، وما إن تصل فكرة ما إلى عقله أو قلبه حتى تهطل الكلمات من قلم لا يتوقف (ولقد رأينا كنموذج كتاباته في تأييد أو . بالدقة . تحريض قادة ثورة يوليو في أوائل أيامهم، وكيف كانت مقالاته تهطل يوميا وربما أمطر القراء بمقالين أو ثلاث في صحف مختلفة في اليوم الواحد).

لكننا مجبرون على مراجعة بعض من هذه الكتابات ليس فقط لتكون الصورة كاملة، والتصور كذلك، وإنما لأنه حتى الأتباع والمريدين، الذين أسماوا أنفسهم، أو ألصقت بهم صفة "القطبيون" تجاوزوا كثيراً من إسلامياته المبكرة والوسيلة واكتفوا

وفقط وفى كثير من الأحيان بكتابه الأخير "معالم فى الطريق" وهو بإجماع الباحثين أقل كتبه شأنًا من الناحية العلمية والفقهية. وإن كان أعلاها نبرة، وأشدّها غلوًا، وأكثرها تأسلاً. ولعلمهم فضلوهُ على غيره من كتابات إمامهم لهذا السبب بالذات. لكننا سنحاول أن نغوص ولو بأقل قدر فى بعض إسلاميات الرجل لسبب إضافي هو محاولة إيضاح فرضية نأخذ نحن بها؛ وهى أن كتاب المعالم لم يكن بداية الجملة المتطرفة والمتأسلة فى كتابات سيد قطب وإنما كان فقط مجرد تعبير سياسى غاضب وساخط لما جاء سابقاً عليه.

وقبل أن نبدأ نود أن نشير إلى عنوان هذا الفصل، فقد اتخذناه بافتراض صحة ما نعتقد من أن فكر سيد قطب ليس سوى امتداد منطقى لفكر جماعة الإخوان، أو هو ذات الفكر وإنما بلا خفاء ولا تستر ولا مدهانة.

ويتفق معنا الكثيرون حتى من الإخوان أنفسهم فى ذلك (راجع ما أوردناه عن كتابات صفوت منصور، وصلاح شادى، وزينب الغزالى فى صفحات سابقة). لكننا سنورد رأياً مكملًا لواحد من أقرب الباحثين إلى فكر سيد قطب، وأكثرهم تعاطفاً معه وهو الأستاذ محمد توفيق بركات.

إذ يقول: "ومن الناحية الفكرية فلا ريب أن سيد قطب يمثل . فى رأينا . قمة النضج الفكرى عند الإخوان المسلمين، بحيث يمكن أن يعتبر ظاهرة خاصة لها طابعها المميز، ولا يعتبر مجرد استمرار لمدرسة البناء الفكرية أو تلميذ متخرج منها"، ويقول: "نعم إن سيد قطب استفاد من فكر الإخوان المسلمين الذى غذاه البناء ونماه، ويحتمل كثيراً أننا لم نكن لنجد سيد قطب المفكر المسلم لولا الإخوان المسلمين ولولا البناء، ولكن ذلك لا يعنى أنه كان تلميذاً نجيباً فحسب، بل هو مجدد حقيقى فى مدرسة الشهيد البناء"^(٧١). وإذا كان البعض قد حاول التمييز القاطع بين فكر الإخوان وفكر سيد قطب فإنه ينجح فى ذلك فقط إذا ما تجاهل كثيراً من كتابات الأستاذ البناء وغيره من مفكرى جماعة الإخوان.

وجيل كييل يبحث عن الفوارق بين البناء وقطب فيقول: "كان تعبير الجاهلية

كوصف للمجتمع القائم هو الإضافة الفكرية التى أضافها سيد قطب وجعلته
ينفصل عن المعتقدات التقليدية للإخوان المسلمين" (٧٢).

ويقول باحث آخر: "كانت فكرة المفاصلة والعزلة عن المجتمع الجاهلى هى
إحدى الإضافات الخطيرة والحادة التى أضافها سيد قطب لفكر جماعة
الإخوان" (٧٣).

على أننا إذا ما تجاوزنا المغايرة اللفظية فى ألفاظ مثل "الجاهلية" و"المفاصلة"
وتجولنا بحرص وتدقيق فى فكر جماعة الإخوان نكتشف أن قطب قد شرب حتى
الشمالة من ذات النبع.. نبع جماعة الإخوان.

فالأستاذ حسن البنا يحدد فى "رسالة التعاليم" واجبات الأخ المجاهد وعددها ٣٨
واجبا.. الواجب ٢٥ منها يأمر الأخ "أن تقاطع المحاكم الأهلية وكل قضاء غير
إسلامى، والأندية والصحف والجماعات والمدارس والهيئات التى تتأهض فكرتك
الإسلامية مقاطعة تامة"، وفى البند ٣٧ يأمره "أن تتخلى عن صلتك بأية هيئة أو
جماعة لا يكون الاتصال بها فى مصلحة فكرتك" (٧٤).

هذا عن فكرة المفاصلة. أما عن التكفير والجاهلية وما إلى ذلك فإننا نقرأ
للأستاذ عبد القادر عودة: "من الأمثلة الظاهرة على الكفر بالامتناع فى عصرنا
الحالى الامتناع عن الحكم بالشرعية الإسلامية، وتطبيق القوانين الوضعية بدلا
منها، فمن أعرض عن الحكم بحد السرقة أو القذف أو الزنى لأنه يفضل غيره من
أوضاع البشر عليه فهو كافر قطعاً" (٧٥). والمفكر الإخوانى د. على جريشة يقول
هو أيضاً: "ولا خلاف فى جهاد من منع بعض شريعة الله، وأولى به من منع كل
الشرعية، والقعود عن الجهاد تهلكه نهى الله عنها" (٧٦).

إنه ذات النبع الإخوانى المريرة مياهه، أليس كذلك؟

ونحاول بعد ذلك أن نقدم مطالعة سريعة لبعض ما كتب سيد قطب.
ولعله من الجدير بالملاحظة أن إسلامياته قد بدأت معتدلة هادئة ومفعمة
بالمطالبة بالعدل الاجتماعى، وفى ١٩٤٨ يكتب: "وظيفتنا أن نحرر هؤلاء العبيد

جميعاً، عبيد الشيوعية والفاشية والرأسمالية والإباحية، وظيفتنا أن نطلب العدالة الاجتماعية، وسنقول في مظالم المجتمع ما لا يجرؤ الشيوعيون في مصر على قوله لكننا لن نكون شيوعيين، وظيفتنا أن نفصح مطامع روسيا في الشرق العربي وخيانتها للعرب^(٧٧). وفي كتابة أخرى يقول ولكننا لن نكون دعاة للاستعمار، وظيفتنا أن نورث الأحقاد المقدسة ضد الإنجليز، وضد الأمريكان، وضد الاستعمار في كل مكان، ولكننا لن نكون ذيلاً للروس. وظيفتنا أن نثير الاشتمئزاز ضد الإباحية والتبذل والانحلال الفرنسي والأوربي عامة، ولكننا لن نكون جامدين ولا مترمّتين^(٧٨).

ولأن فكرة العدل الاجتماعي كانت تتألق في الوجدان المصري في نهايات الأربعينيات، ولأنها جذبت إلى ساحتها الكثير من المفكرين والكتاب والسياسيين، فإن سيد قطب . وكان هذا طبيعياً . قد تلامس معها بالضرورة . وهو كعادته ما إن تستهويه فكرة أو موقف أو رؤية حتى يتجه إليها بكليته، ينقض عليها ليشبعها كتابة .

وأصدر سيد قطب وهو في أمريكا (١٩٤٩) كتابه "العدالة الاجتماعية في الإسلام" وجاء الإهداء لافتاً للنظر "إلى الفتية الذين ألهمهم في خيالي قادمين يردون هذا الدين جديداً كما بدأ، يجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم"، وفهم البعض من الإخوان (الذين كانوا يعانون آنذاك محنة الحل والسجن والتعذيب) أنه يقصدهم فاقربوا منه . لكنه على أية حال نفى ذلك في إقراره الذي دونه بخطه في السجن الحربي . وإن كان قد أقر بأن عدداً منهم بدأ في زيارته بعد عودته من أمريكا . لكن كتاب "العدالة الاجتماعية في الإسلام" حمل في طياته الكثير من بذور وأجنة التطرف والتي تولد منها فكره الأخير .

ولهذا فإننا سنعود إليه فيما بعد .

ونأتى إلى صيحته الاجتماعية والمجتمعية التي رأت في الإسلام ديناً للقراء، واتخذت سمناً تقديمياً واضحاً يستحق التقدير والإعجاب في آن واحد .

ونقرأ: "إن هذا الوضع الاجتماعى السيئ الذى تعانیه الجماهير المصرية غير قابل للبقاء والاستمرار، ولا يحمل عنصرًا واحدًا من عناصر البقاء، إن صوتًا سيرتفع بعد ذلك كله ولن يمكن إسكاته أبدًا، صوت المعدات الخاوية التى تملأ جنبات هذا الوادى، صوت الملايين التى تبذل العرق والدماء ولا تنال مقابلها لقمة خبز جافة ولا خرقة كساء متواضعة" .. ثم يتساءل: "من ذا الذى يستطيع أن يقول إن وضعًا اجتماعيًا تلك ثماره المتعفنة الخبيثة يمكن أن يدوم مهما أقيمت له الدساتير المنتحلة من فتاوى المحترفين أو مقالات المأجورين، أو عسف الطغاة المستغلين"، ثم يعلو صوته كعادته: "إنى أتهم الأوضاع الاجتماعية القائمة بأنها تهدر الكرامة الإنسانية وتقضى على كل حقوق الإنسان" ثم أكد "أن الأوضاع الاجتماعية القائمة مناقضة فى جملتها وتفصيلها لروح الدين" (٧٩).

ثم يقول: "إن بعض الباشوات أصحاب الكروش يتحدثون بين الحين والحين عن العدالة الاجتماعية وعن الطبقات المحرومة وعن ضرورة تحسين الأحوال. وكثير هم الباشوات الذين يطلقون للعدالة الاجتماعية البخور فى هذه الأيام، إذ كان ذلك ألطف مخدر للجماهير الكادحة يهدئ أعصابها ويسيل لعابها ويمنيها بالعدل الاجتماعى الذى لا تكافح من أجله وحدها بل يكافح معها الباشوات العظام، فما عليها إلا أن تستريح وتستبشر وتنام، لكن شيئًا من ذلك لن يجدى فتيلًا فالطبيعة والحياة والدين والحضارة الإنسانية والاقتصاد والعقل ضدها جميعًا، إنما هى تعلات فارغة ذاهبة مع الريح والهواء" (٨٠). ونذكر . فقط ودون أية محاولة للتشكيك . إنه فى هذه الفترة بالذات عاد أحمد حسين باشا من أمريكا ليبشر بالعدالة الاجتماعية كضمان ضد الشيوعية وليؤسس فى صخب جمعية أسماها "جمعية الفلاح".

ونواصل رحلتنا مع سيد قطب الآخر الذى لا يعرفه الناس، أو بالدقة الذى تعتمد تابعوه وخصومه معا ألا يعرفه الناس معرفة متكاملة .. ونقرأ فى كتابه "التصوير الفنى فى القرآن" كيف إنه غرق فى كتب التفسير لكنه لم يجد فيها ذلك القرآن اللذيذ الذى كان يجده فى طفولته وصباه .. ولهذا عاد ليقرأ القرآن فى صفاء

"وجدت قرآنى الجميل الحبيب.. لقد تغير فهمى له، فعدت إليه الآن أرتل آياته وأجد مراميها وأغراضها، وأعرف أنها مثل يضرب وحادث يقع. الحمد لله لقد وجدت القرآن" (٨١).

إن العبارة الأخيرة ذات قيمة بالغة، ولقد تمر على القارئ دون أن تستوقفه، لكنها يتعين عليها أن تستوقفنا. فهى لا تأخذ بمدرسة الفهم النصى للقرآن وما تمترس فيه وحوله سيد قطب فيما بعد، وتمتس فيه وحوله كل "القطبيين" وغيرهم من المتأسلمين، إنه يقرر أنه فهم الآيات ووجد "مراميها وأغراضها وعرف أنها مثل يضرب وحادث يقع" إنه فهم آخر ومدرسة أخرى لا تأخذ بالتفسير النصى وإنما بأسباب النزول.

وهو متحرر من فكرة "الزى الإسلامى الخاص" ويقول "حتى تلك الأزياء الخاصة للمشايخ والدراويش أنها ليست شيئاً فى الدين فليس هناك زى إسلامى وزى غير إسلامى، والإسلام لم يعين للناس لباساً، فالملبس مسألة إقليمية ومجرد عادة تاريخية، ومحمد بن عبد الله لم يلبس جبة وقطانا وكاكولة، وإنما لبس ثيابه العربية التى كان يلبسها قومه وجيله. كذلك لبس المسلمون فى فارس ثيابهم الفارسية، والمسلمون فى مصر ثيابهم المصرية".

ولم تكن معركته ضد الزى الأزهرى وحده، بل ضد الفكر الذى كان يروج من الأزهريين آنذاك. ونقرأ له "أما أنت أيها الأزهر، فقد أضعت الدين، وأفسدت الدنيا بسكوتك المريب على مفاصد المجتمع ومظالمه" (٨٢).

بل هو يشن هجومه على "هيئة كبار العلماء" قائلاً: "أصدرت هيئة كبار العلماء عريضة مرفوعة إلى رئيس الوزراء تتحدث عن فزع كبار العلماء من الفجور والمجون، ومن حفلات ماجنة خليعة يختلط فيها الرجال والنساء، إلى أندية يباح فيها القمار، إلى شواطئ فى الصيف يخلع فيها العذار ويطغى فيها الفجار"، ويمضى سيد قطب قائلاً: "وى، وى أو هذا هكذا أيها العلماء الأجلاء؟ يا سبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، حقاً إنه أمر جليل يوجب النعمة ويستوجب اللعنة، ولكن وقد قدر لشفاهكم الشريفة أن

تتفرج عن كلام فى المجتمع أفا كانت هناك كلمة واحدة تقال عن المظالم الاجتماعية الفاشية وعن رأى الإسلام فى الحكم، ورأيه فى المال، ورأيه فى الفوارق الاجتماعية التى لا تطاق؟" وما الذى كنتم تنتظرونه أياها السادة الأجلاء من أوضاعنا الاجتماعية التى تجد منكم السند والنصير، والتى يصيبكم البكم فلا تشيرون إليها من قريب أو بعيد لأن السكوت عليها من ذهب، ذهب إبريز" (٨٣).

أما موقفه من أبناء الديانات الأخرى فإنه يتبدى موقفاً ليبرالياً حريصاً على احترامهم وعلى التآخى معهم.. فهو يكتب عن فترة وجوده فى أمريكا قائلاً: "كنت ذات ليلة فى إحدى الكنائس ببلدة جربلى بولاية كولورادو فقد كنت عضواً فى ناديها، كما كنت عضواً فى عدة نواد كنسية فى كل جهة عشت فيها" (٨٤)، ونقارن بين هذا المقال الذى كتب فى ١٩/١١/١٩٥١، وبين موقفه المتعنت إزاء المسيحيين فى كتاب "معالم فى الطريق"، لندھش من المسافة التى قطعها سيد قطب فى طريق التطرف.

وفى كتابه "نحو مجتمع إسلامى" نقرأ "أن الصور التاريخية للمجتمع الإسلامى ليست الصور النهائية لهذا المجتمع، بل هناك صور متجددة أبداً، فكيف إذا لفكرة ثابتة أن تواجه حاجات وأصولاً جديدة؟ وكيف يمكن لهذه الحاجات والأحوال أن تتحرك وتنمو فى ظل فكرة ثابتة؟" ثم يقول: "إن تشريعات الفقه كانت تلبية لحاجات زمنها، وأى نقل منها من زمن لفرضها على زمن آخر ليس من شرع الله، ولا من عمل رسول الله (ﷺ) فهى لا تحصل إلا للاسترشاد والاستشهاد بها فى الحالات المشابهة التى تشهدا الأجيال المتجددة، ولكنه لا يبلغ حد الإلزام المطلق لأنه مجرد رأى بشرى فى شريعة الله، وليس جزءاً من الشريعة الثابتة الصادرة من الله"، ويقول: "أما فيما يتعلق بالمجتمع وأطواره فإن الصورة التاريخية للمجتمع الإسلامى لا تحدد ولا تستوعب كل الصور الممكنة للمجتمع الإسلامى ولكل جيل أن يبدع نظمه الاجتماعية فى حدود المبادئ الإسلامية وأن يلبي حاجات زمانه باجتهادات فقهية قائمة على الأصول الكلية للشريعة" (٨٥). ويقول: "الفقه من صنع

البشر استمدوه من فهمهم وتفسيرهم للشريعة، الشريعة ثابتة والفقه متغير " ثم "ويمكن التجاوز عن الفقه" (٨٦).

ويواصل: "لقد استمر نمو الفقه الإسلامى وتطوره إلى نحو القرن الثامن بعد انتقال الرسول (ﷺ) إلى الرفيق الأعلى، وكان فى نموه وتطوره متابعاً لنمو المجتمع الإسلامى وتطوره، وملبياً لحاجاته المتجددة بسبب بروز تلك الحاجات. ثم ركذ الفقه تبعاً لركود المجتمع الإسلامى. حتى إذا قفزت الحياة قفزاتها الواسعة فى القرون الثلاثة الأخيرة وتجدد المجتمع الإسلامى لم يكن الفقه الإسلامى على استعداد لمسايرة الحياة المتوثبة، وبذلك وجدت فجوة تاريخية ضخمة فى تسلسل هذا الفقه ومسايرته للحياة الجديدة وحاجاتها التى تضاعفت أضعافاً كثيرة" (٨٧).

ثم هو يؤكد "لقد انتهت الحضارة الأوربية . الأمريكية إلى أن تقصر همها على إنتاج المصانع أما فى حقل المبادئ فإنها ظلت تجتر مبادئ الثورة الفرنسية التى فقدت مدلولها، فتحوّلت الحرية الشخصية إلى حرية استغلال رأس المال للطبقات العاملة أو تحوّلت إلى حرية الشهوة الغريزية، والإخاء تحول بفضل الاستعمار إلى استنزاف للشعوب المقهورة والمساواة لا يمكن تحقيقها فى عالم مادي حين تختل الموازين الاقتصادية وحين ينقسم الناس إلى ملاك ورأسماليين فى جانب، وعمال ضعفاء فى جانب آخر".

ثم.. "ومع انحسار الشيوعية والحضارة الغربية فإن قيادة البشرية صائرة إلى الإسلام" (٨٨).

إنه يؤكد الحاجة إلى فقه جديد يتماشى مع المعطيات الجديدة، أو بالدقة إلى فقه يتجدد دوماً، وهذا إيجابى. وهو ينعى على الحضارة الغربية خلوها من النزعة الإنسانية وافتتانها فقط بالتقدم التكنولوجى (٨٩)، وهذا صحيح لكننا لا نلبث فيما بعد أن نجد أن مياها أخرى جرى تسريبها إلى هذه القنوات، فالتجديد فى الفقه أصبح يعنى العودة أربعة عشر قرناً إلى الخلف، ونقد الحضارة الغربية تحول إلى جعلها هى وكل الدول الإسلامية التى تتعامل مع معطيات هذه الحضارة ديار حرب جاهلية.

لكننا بهذا نسبق الحدث ونسبق الحديث.

فإن سيد قطب ومنذ هذه البدايات أصبح يسير بالقارئ فى طريق ثم لا يلبث أن ينحنى به عكس ما يتوصل إليه القارئ من معان.. والنماذج لذلك عديدة نختار واحداً منها. ففى كتابه "السلام العالمى والإسلام" نقرأ: "الإسلام يبدأ محاولة السلام أولاً فى ضمير الفرد، ثم فى محيط الأسرة، ثم فى وسط الجماعة، وأخيراً يحاول فى الميدان الدولى بين الأمم والشعوب. إنه ينشد السلام فى علاقة الطائفة بالطوائف، وفى علاقة الأفراد بالحكومات ثم ينشده فى علاقة الدولة بالدول الأخرى. وإنه ليسير فى تحقيق هذه الغاية الأخيرة فى طريق طويل يعبر فيه من سلام الضمير، إلى سلام البيت، إلى سلام المجتمع، إلى سلام العالم فى نهاية المطاف" (٩٠).

ونوشك أن نصفق إعجاباً بهذا الفهم السمو والمعتدل للإسلام لكنه لا يلبث أن يقفز بنا إلى الحديث عن "ضرورة الجهاد لحماية المؤمنين ونشر الدعوة والقضاء على أى ظلم فى الأرض حتى تسود الحاكمة وتتحقق ربوبية الله فى الأرض" (٩١). إنها رائحة معالم فى الطريق. أليس كذلك؟

ولا نملك إلا أن نتعقب تلك الرائحة، لنجد لها بدايات وأجنة فى كتابات لقطب تعود إلى نهاية الأربعينيات.

ففى كتابه "المستقبل لهذا الدين" نقرأ موقفاً متشددًا ضد الحضارة الغربية، كل الحضارة الغربية: "إن الحضارة الغربية استنفدت أغراضها، ولم يعد لها ما تعطيه للبشرية من قيم تصلح لبقاءها ورقبها، لقد أصيبت بالعقم، وهى نبت شيطانى وتحمل فى طياتها عوامل انهيارها" (٩٢).

وكان مثل هذا الهجوم على مطلق الحضارة الغربية سمة لأعداء حركة التجديد، تلك الحركة التى سبق أن خاض قطب معركة الدفاع عنها فى الثلاثينيات، واتهم بسبب دفاعه هذا بالكفر.

وفى كتابه "العدالة الاجتماعية فى الإسلام" الذى صدر عام ١٩٤٩ يقول:

"ليس لمخلوق على مخلوق سلطان، فهذا السلطان لله وحده وليس بين الإنسان والله توسط، والسلطة لذلك للأمة لا للحاكم لا يبتكر من عنده القوانين، فهي مفروضة من الله"، ثم "والإسلام ليس عقيدة وإيماناً فقط بل هو أيضاً نظام اجتماعي، وبما أن الشريعة موجودة أصلاً فقاعدة الحكومة المطلوبة بسيطة جداً حكومة عادلة ومحكومون مطيعون"، ثم هو ينعي على الأجيال التالية للمسلمين الأوائل عدم تطبيقهم لهذه القاعدة فبعد ثلاثين عاماً من وفاة الرسول (ﷺ) "بدأ الانحراف عن سنة الإسلام الرفيعة ربما بسبب سرعة إسلام شعوب المنطقة التي أدت إلى عدم جدية إسلامهم إذ أنهم لم يتحرروا من بقايا عقائدهم السابقة" (٩٣).

هذا النوع من الكتابة ربما هو الذي دفع بعض "الإخوان" للاحتفاء بالكتاب والكتاب. وهو أيضاً الذي دفع د. سمير أمين إلى القول إن كتاب سيد قطب العدالة الاجتماعية في الإسلام يعتبر "المنتج الأيديولوجي الوحيد للإخوان المسلمين لأنه كان بمثابة نظرية عامة سبقت إعادة ظهور التيار السلفي. فلا أحد من منظري السلفية الذين نقرأ لهم الآن زاد شيئاً عما قدمه سيد قطب هذا المفكر الباكر" (٩٤)، أليس هذا أمر مثير للدهشة أن يعتبر مفكر كسمير أمين أن سيد قطب قدم المنتج الأيديولوجي الوحيد لجماعة الإخوان قبل أن ينضم إليها بأربع سنوات كاملة؟

وفي كتابه "خصائص التصور الإسلامي" نطالع أوصافاً متشددة بل وصاعقة "لقد عم الفساد وجه الأرض جميعاً، فساد التصورات والقيم، وفساد الأوضاع والنظم، وفساد العادات والتقاليد حتى أصبح هذا الفساد تجسيداً لقول الله تبارك وتعالى "ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون" (الروم/٤١) (٩٥).

وفي كتابه "الإسلام ومشكلات الحضارة" تتبدى بذور التطرف وهي توشك أن تورق.. "ليس الذي ينقص البشرية لقيام مجتمع إسلامي هو وجود فقه إسلامي متطور (نلاحظ أنه قال من قبل بضرورة وجود هذا الفقه المتطور) إنما الذي

ينقصها ابتداء هو اتخاذ الإسلام نهجاً، وشريعته شريعة، إن الفقه الإسلامى لى يتطور ينبغى أن يجد التربة التى يتطور فيها، والتربة التى يتطور فيها الفقه الإسلامى هى مجتمع إسلامى يعيش فى العصر الحاضر" (٩٦) .. إنه ذات المعنى الذى صرخ به فى "معالم فى الطريق" عندما قال: "إن القلوب يجب أن تخلص لله أولاً، وتعلن عبوديتها له وحده بقبول شريعته وحده ورفض كل شرع آخر غيره من ناحية المبدأ قبل أن تخاطب بأى تفصيل عن ذلك الشرع الذى يرغبها فيه" (٩٧)، إنه ذات المنطق .. فليس مقبولاً أن تطالبهم بتقديم برنامج أو منهاج أو فقه أو نظرية إلا بعد أن يصلوا إلى الحكم .. وهو ما ظل حسن البناء متمسكاً به طوال دعوته. ويمضى سيد قطب فى ذات الكتاب قائلاً: "ألف كتاب عن الإسلام وألف خطبة فى مسجد أو قاعة أو ميدان، وألف فيلم فى الدعاية للإسلام، وألف بعثة من الأزهر أو غير الأزهر فى كل مكان، كل أولئك لا يغنى غناء مجتمع صغير يقوم فى ركن من أركان الأرض، يعيش بمنهج الإسلام، ويعيش لمنهج الإسلام، وتتمثل فيه خصائص هذا المنهج، وتتمثل فيه صورة الحياة فى الإسلام". إنها تماماً فكرة الإمارة التى أقامتها طالبان ودعمها أسامة بن لادن.

ونقرأ فى ذات الكتاب وكأننا نطالع لكتابات من طالبان أو أسامة بن لادن: "وكل فقه تراد تميته وتطويره فى وضع لا يعترف ابتداءً بحاكمية الإسلام هو عملية استنابات للبذور فى الهواء، هو عبث لا يليق بجدية الإسلام" (٩٨).

ثم نأتى إلى كتابه الضخم أو لنقل عمله العمدة "فى ظلال القرآن" وفيه تتجسد ملامح "معالم فى الطريق" ولست أدرى لماذا تشبث الجميع بمعالم فى الطريق وحده؟ ربما لأنه أصغر حجماً أو أكثر انفعالاً ووضوحاً، أو لطابعه الخطابى الذى يطغى على البحث الفقهى المتأنى. ففى كتاب "فى ظلال القرآن" نجد عبارات كاملة أعيدت كتابتها فى "معالم فى الطريق".

ونقرأ فى الظلال: "الجاهلية ليست اسماً لمرحلة تاريخية سابقة على الإسلام، بل إنها تنطبق انطباقاً حرفياً على كل وضع بصرف النظر عن اعتبارات الزمان

والمكان، إذا كان الوضع مشابهاً لتلك المرحلة التاريخية السابقة على الإسلام^(٩٩)، ثم نجد عبارة نقلت حرفياً تقريباً إلى "معالم فى الطريق": "يدخل فى المجتمع الجاهلى . كل مجتمع ملحد كالدول الشيوعية . وكل مجتمع وثنى كالهند وأواسط إفريقيا واليابان والفلبين . وكل مجتمع كان أو لا يزال يعد من أهل الكتاب كالمجتمعات الرأسمالية عموماً . وتدخل تحته أيضاً تلك المجتمعات التى خلفت المجتمعات الإسلامية وورثت أرضها وديارها وأسماءها. إى تدخل فى هذا الإطار لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله، ولأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضاً، ولكنها تدخل فى هذا الإطار لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده فى نظام حياتها فهى وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله، تعطى أخص خصائص الألوهية لغير الله، فتدين بحاكمية غير الله وتتلقى من هذه الحاكمية نظامها وشرائعها وقيمها وموازينها وعاداتها وتقاليدها"^(١٠٠).

ويقول فى الظلال أيضاً: "إن الشرك بالله يتحقق بمجرد إعطاء حق التشريع لغير الله من عباده، ولو لم يصحبه شرك فى الاعتقاد بألوهيته، ولو قدمت الشعائر التعبدية له وحده". ثم نقرأ: "إن المشقة الكبرى التى تواجه حركات الإسلام الحقيقية تتمثل فى وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين فى أوطان كانت فى يوم من الأيام داراً للإسلام يسيطر عليها دين الله، وتحكم بشريعته، ثم إذا هذه الأرض، وإذا هذه الأقوام تهجر الإسلام حقيقة وتعلنه اسماً، وإذا هى تنتكر لمقومات الإسلام اعتقاداً وواقعاً وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقاداً"^(١٠١)، ويمضى قائلاً: "وفى الأرض اليوم أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين وهم من سلالات المسلمين، وفيها أوطان كانت فى يوم من الأيام داراً للإسلام، ولكن لا الأقوام تشهد أن لا إله إلا الله بذلك المدلول، ولا الأوطان اليوم تدين الله بمقتضى هذا المدلول، وأيما فرد لم يشهد أن لا إله إلا الله بهذا المدلول (أى المدلول الذى يعتقده قطب) فإنه لم يشهد ولم يدخل الإسلام بعد، كائنا ما كان اسمه ولقبه ونسبه، وأيما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا الله بهذا المدلول فهى أرض لم تدين بدين الله ولم

تدخل في الإسلام بعد" (١٠٢).

وفى ذات الكتاب نقراً: "إنها طبيعة التعارض بين منهجين للحياة لا التقاء بينهما فى كبيرة ولا صغيرة، ويحرص أصحاب المناهج الأرضية على سحق المنهج الربانى الذى يتهدد وجودهم ومناهجهم وأوضاعهم قبل أن يسحقهم. فهى حتمية لا اختيار فيها . فى الحقيقة . لهؤلاء وهؤلاء" (١٠٣).

ونقرأ أيضاً: "وعندما يشعر التجمع الجاهلى بوصفه كياناً عضوياً واحداً متسانداً بالخطر الذى يتهدد قاعدة وجوده من النواحي الاعتقادية كما يتهدد وجوده ذاته يتمثل الاعتقاد الإسلامى فى تجمع منفصل عنه ومواجه له فعندئذ يسفر التجمع الجاهلى عن حقيقة موقفه تجاه دعوة الإسلام. إنها معركة بين وجودين (أسماهما أيمن الظواهرى وبن لادن فسطاطين) لا يمكن أن يكون بينهما تعايش أو سلام. المعركة بين تجمعين عضويين كل منهما يقوم على قاعدة مناقضة تماماً للقاعدة التى يقوم عليها التجمع الآخر" (١٠٤).

ونعود لنقارن بين كتابى "الظلال" و"المعالم" لنجد عبارات كاملة منقولة حرفياً من الظلال إلى المعالم. مثل: "ومن ثم تواجه الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه . تواجهه بالقوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات، وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها، تلك التى تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات، وتخضعهم بالقهر والتضليل وتعبدهم لغير ربهم الجليل" (١٠٥).

ويتبقى من هذا الاستعراض لبعض كتابات سيد قطب وخاصة كتابه العمدة "فى ظلال القرآن" أننا نستشعر دهشة بالغة بل ومركبة إذ نعلم أن إدارة سجن ليما ن طرة قد أعطت . وبإذن من جهات عليا . لسيد قطب الحق فى الأوراق والأقلام والمراجع والكتابة لكى يراجع كتاب الظلال. وأنه أنجز فى مستشفى السجن مراجعة ثلاثة عشر جزءاً منه. وأنه أضاف إليه فقرات مفعمة بالتشدد من بينها هذا الذى طالعنا بعضاً قليلاً منه، وأنها سمحت بإخراج المسودات بشكل رسمى، ثم صرحت

السلطات بطبع هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة عشر بكل ما فيها مما أوردنا بعضه، وسمحت بتداولها. بل إن جهات عليا . أعطت مصلحة السجون أمرا بأن تشتري نسخًا عديدة من هذه الأجزاء لتودعها مكتبات السجون، وكأن هذه الجهات كانت حريصة على أن تجد هذه الكتابات طريقها إلى سجناء الإخوان في مختلف السجون.

وهكذا يأبى سيد قطب إلا أن يحيطنا خلال بحثنا عنه بعلامات تعجب لا حصر لها.

ولا يتبقى لنا . فى مجال فكر سيد قطب . إلا أن نحاول أن نقدم مطالعة متعجلة لكتابه الأكثر شهرة "معالم فى الطريق".

وقبل أن نبدأ فى استعراض بعض فقرات من هذا الكتاب الذى اكتسب شهرة على امتداد عالمى، وتشبث به، وانتسب إليه ألوف من المتأسلمين على نطاق العالم، نقدم بعض ملاحظات لباحثين اهتموا بالكتابة عن سيد قطب.

الأستاذ حلمى النمنم يقول: "إن معالم فى الطريق هو أضعف كتب سيد قطب فكريًا وأسوأها فى الكتابة، إنه يضم فكرة واحدة قديمة لديه، أخذ يلح عليها يكررها يعيد ولا يزيد شرحا وتوضيحا بلا ملل، وبأسلوب أدبى يعتمد على الاستطراد والإنشاء فقط، إنه مونولوج طويل يمتد حوالى ٢٠٠ صفحة، مونولوج يقطر حزنا ومرارة وشعورا بالتأثر والرغبة فى الانتقام" (١٠٦).

أما الأستاذ عادل حمودة فيؤكد لنا "من المؤكد أن مذبحه سجن طرة (٢٣ قتيلا . ٤٦ جريحا) . كما يقول شهود العيان . حسمت الأمر داخل سيد قطب، فقد أصبح مقتنعًا بأن النظام الذى يحكم لا يمت للإسلام بصلة، ولأنه نظام غير إسلامى، فلا بد أنه نظام جاهلى لا بد من مقاومته ومحاربته، وفرض الإسلام الصميم عليه. لقد أصبح الآن وبسبب محنته ومحنة الإخوان يؤمن بضرورة الجهاد بالسيف للتخلص من هذا المجتمع الكافر الذى يعيش فى جاهلية وينطق الشهادتين ولا يعمل بهما" (١٠٧).

ويقول عادل حمودة: "وقد بدأ مسلسل التكفير بتكفير الجلال لأنه لا يمكن أن يكون مسلماً من يعذب المسلمين على هذا النحو، ثم امتد التكفير إلى مأمور الليمان لأنه هو الذى أعطى أمر التنفيذ إلى الجلادين، ثم إلى مدير مصلحة السجون، فمدير المباحث العامة، فوزير الداخلية، ثم راحت الدائرة تتسع حتى شملت القيادة العليا وشملت عبد الناصر نفسه، ثم راحت تتسع وتتسع حتى شملت المجتمع المصرى كله فهو يؤيد عبد الناصر أو هو لا يتخلص منه مشاركاً بالصمت، والساكت عن الحق شيطان أخرس.. ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن لم تتوقف لعبة التكفير". ويتساءل عادل حمودة: "إن كل القوى الوطنية تعرضت فى السجون لما تعرض له الإخوان من قتل وتعذيب إلا أن تلك القوى التى ملكت تفسيراً سياسياً لما حدث استطاعت تجاوز المحنة إلى ما هو أبعد من الصدمات النفسية الفردية"^(١٠٨).

ويقدم عادل حمودة أيضاً لافتاً للنظر لأسلوب اختيار سيد قطب لمصطلحاته قائلاً: "فى تلك الأيام كان سيد قطب مهوياً بالبحث عن الوصف الذى يريحه لنظام عبد الناصر، وفى رواية تحيط بها هالات مقدسة وتمنحها دعم السماء يقول البعض إن زميل وحليف وصديق سيد قطب فى عنبر العلاج محمد حواش أنقذه من الحيرة وألهمه الوصف المناسب لنظام حكم عبد الناصر. قال له محمد حواش إن سيدنا يوسف جاءه فى المنام وطلب منه أن يبلغ سيد قطب إنه سوف يجد ما يبحث عنه فى سورة يوسف وتحديداً فى الآيات ٣٥ - ٤١. والآيات تروى أن يوسف عليه السلام دخل السجن مع فتيان من خدم فرعون، وروى له أحدهما ما رآه فى منامه وكذلك الآخر وطالبا يوسف بتفسير حلميهما. ثم تمضى الآيات حتى تقرأ "ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، ما أنزل الله بها من سلطان. إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون.." "إن الحكم إلا لله" هذا هو شعار الملهم، واشتق قطب منه لفظ "الحاكمية لله"^(١٠٩).

وإذ يحاول البعض من الإخوان أن يبرروا عنف أفكار كتاب المعالم "بأنها نتيجة لتعرض سيد قطب للتعذيب والاعتقال" (١١٠) (مع العلم بأن سيد قطب لم يخضع للتعذيب فقد قضى كل فترة السجن تقريباً في عنبر مستشفى السجن بليمان طرة)، فإن البعض الآخر يقول "لا يمكن أن يكون الضغط هو السبب في بروز هذا الفكر، ذلك لأن الإخوان بصفة عامة تعرضوا للضغط أكثر من سيد قطب. فهذا الفكر هو اعتقاد وإيمان نابع من سيد قطب ومن المجموعة التي آمنت به" (١١١).

وبعد هذه الملاحظات الأولية سنحاول وبشكل مختصر تقديم بعض أفكار قطب في كتاب "المعالم" ولن نطيل فكم أطال الجميع، أصدقاء وخصوم، في الحديث عن هذا الكتاب بالذات متجاهلين كتب قطب الأكثر أهمية.

ونبدأ بما هو مهم في نظرنا. فإن الفحص المدقق والمقارن بين كتابي "الظلال" و"المعالم" يكشف وببساطة أن أربعة فصول على الأقل من كتاب المعالم مستخرجة نصاً من "في ظلال القرآن"، وهي:

الفصل الثاني: طبيعة المنهج القرآني.

الفصل الثالث: نشأة المجتمع المسلم وخصائصه.

الفصل الرابع: الجهاد في سبيل الله.

الفصل الثامن: التصور الإسلامي والثقافة.

ونبدأ في اقتباسات سريعة لا نعتقد أن أكثرها بحاجة إلى تعليق فهي بذاتها تكتفي بمدلولها..

."إن الأمة الإسلامية قد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الأرض جميعاً" (١١٢).

."وجود الأمة الإسلامية يعتبر قد انقطع منذ قرون. فالأمة الإسلامية ليست "أرضاً" كان يعيش فيها الإسلام، وليست قوماً كان أجدادهم في عصر من عصور التاريخ يعيشون بالنظام الإسلامي، إنما الأمة الإسلامية جماعة من البشر تنبثق

حياتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وأنظمتهم وقيمهم وموازنهم كلها من المنهج الإسلامى. وهذه الأمة بهذه المواصفات . قد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الأرض" (١١٣).

"إن العالم يعيش اليوم فى جاهلية من ناحية الأصل الذى تتبثق منه مقومات الحياة وأنظمتها. جاهلية لا تخفف منها هذه التيسيرات الهائلة وهذا الإبداع المادى الفائق. هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله على الأرض، وعلى أخص خصائص الألوهية" وهى الحاكمية. إنها تسند الحاكمية إلى البشر فتجعل بعضهم لبعض أربابًا. لا فى الصورة البدائية الساذجة التى عرفتھا الجاهلية الأولى، ولكن فى صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيم والشرائع والقوانين والأنظمة والأوضاع بمعزل عن منهج الله للحياة، وفيما لم يأذن الله به، فينشأ عن هذا الاعتداء على سلطان الله، اعتداء على عباده" (١١٤).

- "لا بد لنا من التخلص من ضغط المجتمع الجاهلى والتصرفات الجاهلية والتقاليد الجاهلية والقيادة الجاهلية، ومهمتنا الأولى هى تغيير هذا الواقع الجاهلى من أساسه. هذا الواقع الذى يصطدم اصطدامًا أساسيًا بالمنهج الإسلامى وبالتصور الإسلامى الذى يحرمننا بالقهر والضغط من أن نعيش كما يريد لنا المنهج الإلهى أن نعيش" (١١٥).

- "إن القانون الوضعى لا يستحق السيادة والسمو به فهذه المنزلة حققها الله بقانونه الذى يجب على الناس اتباعه".

- "إن مدلول الشريعة لا ينحصر فى التشريعات القانونية أو فى أصول الحكم ونظامه، فالشريعة تعنى كل ما شرعه الله لتنظيم الحياة البشرية، وهذا يتمثل فى الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية" (١١٦).

- "ليست مهمتنا أن نصطلح مع واقع هذا المجتمع الجاهلى ولا أن ندين له بالولاء، فهو بهذه الصفة الجاهلية غير قابل لأن نصطلح معه. إن أولى الخطوات فى طريقنا هى أن نستعلى على هذا المجتمع الجاهلى وقيمه وتصوراته، وألا نعدل

من قيمنا وتصوراتنا قليلاً أو كثيراً لنتلقى معه في منتصف الطريق. كلا، إننا وإياه على مفرق الطريق، وحين نسايره خطوة واحدة فإننا نفقد المنهج كله، ونفقد الطريق" (١١٧).

ولياًذن لى القارئ بوقفة لتفسير موقف "الاستعلاء" ورفض التنازل للمجتمع "الجاهلى" أو التصالح معه أو مساييرته ولو خطوة واحدة. لقد خرج سيد قطب وعبد الناصر فى أوج مجده الجماهيرى سواء مصرياً أو عربياً أو إسلامياً. وكانت بعض القوى الإسلامية وحتى بعض الإخوان قد رأوا أنه لا يمكن مناصبة الجماهير الغفيرة التى التفت حول عبد الناصر العداء، وأنه من الضرورى أن نسايرها ولو خطوة حتى نفسح لأنفسنا مجالاً للحركة وسط الجماهير. هذا الرأى وجد بعض النفوذ وسط الإخوان خارج السجون، كما وجد بعض النفوذ وسط سجناء الإخوان، وخاصة فى سجن جناح حيث تبلورت مجموعة إخوانية أسميت "المؤيدين" أى المؤيدين لعبد الناصر.

وكان على سيد قطب أن يرفع شعار "الاستعلاء" بالإيمان. فالمؤمن هو الأقوى سنذاً بإيمانه مهما استقوى الجاهليون بالجاه والسلطان وبالتفاف الجماهير الغفيرة حولهم. ولهذا يمضى فى "المعالم" قائلاً:

- "إن الإسلام لا يقبل أنصاف الحلول مع الجاهلية، لا من ناحية التصور ولا من ناحية الأوضاع المنبثقة عن هذا التصور فإما إسلام وإما جاهلية".
- "وظيفة الإسلام إذن هى إقصاء الجاهلية من قيادة البشرية وتولى هذه القيادة على منهجه الخاص المستقل الملامح، الأصل الخصائص" (١١٨).

ونتوقف هنا لنلاحظ أن سيد قطب قد انتقل من جاهلية المجتمع المصرى إلى جاهلية كل المجتمعات القائمة على الأرض ومن ضرورة التغيير فى مصر إلى "تولى قيادة البشرية".

وهو يستعدى إخوانه إلى مواجهة صريحة شاملة لا خفاء فيها.
- "لن نتدسس إليهم بالإسلام تدسساً، ولن نربت على شهواتهم وتصوراتهم

المنحرفة، سنكون صرحاء معهم غاية الصراحة، هذه الجاهلية التى أنتم فيها نجس، والله يريد أن يطهركم، هذه الأوضاع التى أنتم فيها خبث والله يريد أن يطيبكم، هذه الحياة التى تحيونها دون، والله يريد أن يرفعكم. هذا الذى أنتم فيه شقوة وبؤس ونكد، والله يريد أن يخفف عنكم ويرحمكم ويسعدكم" (١١٩).

إنه يتجاسر هنا فيتحدث صراحة باسم السماء، بل هو يؤكد أنه إنما يتحرك باسم الإرادة الإلهية ليظهر الناس ويرحمهم ويسعدهم. ثم هو يقول: - "وإذا بدا للبشر يوماً أن مصلحتهم فى مخالفة ما شرع الله لهم فهم واهمون أولاً، وهم كافرون ثانياً" (١٢٠).

- "والمسألة فى حقيقتها هى مسألة كفر وإيمان، مسألة شرك وتوحيد، مسألة جاهلية وإسلام، وهذا ما ينبغى أن يكون واضحاً. أن الناس ليسوا مسلمين كما يدعون وهم يحيون حياة الجاهلية، وإذا كان فيهم من يحب أن يخدع نفسه أو يخدع الآخرين فيعتقد أن الإسلام يمكن أن يستقيم مع هذه الجاهلية فله ذلك، ولكن انخداعه أو خداعه لا يغير من حقيقة الواقع شيئاً. فليس هذا إسلاماً، وليس هؤلاء مسلمين. والدعوة اليوم إنما ترد هؤلاء الجاهلين إلى الإسلام، ولتجعل منهم مسلمين من جديد" (١٢١).

وهكذا يمتد الخط الشرير حتى نهايته المريرة، فالجاهلية تخيم على العالم أجمع وعلى كل البلاد الإسلامية وكل ما عداها من بلاد. والجاهلية كفر، فالمصريون جميعاً كفار "ليس هذا إسلاماً وليس إسلامهم إسلاماً وهم ليسوا بمسلمين.. والدعوة اليوم إنما تقوم لترد هؤلاء الجاهلين إلى الإسلام، ولتجعل منهم مسلمين من جديد". ونواصل القراءة.

. "إن هناك حزباً واحداً لله لا يتعدد، وأحزاباً أخرى كلها للشيطان والطاغوت. إن هناك داراً واحدة هى دار الإسلام التى تقوم فيها الدولة المسلمة فتهيمن عليها شريعة الله، وتقام فيها حدوده، ويتولى فيها المسلمون بعضهم بعضاً. وما عداها دار حرب علاقة المسلم بها، إما القتال أو المهادنة على عهد أمان، ولكنها ليست

دار إسلام ولا ولاء بين أهلها وبين المسلمين" (١٢٢)، وهكذا فالعالم كله أصبح دار حرب. ولا بد من القتال ضده. فهو يقول:

- "إن المتسلطين على رقاب العباد لا تجدى معهم وسيلة البيان والتبليغ فى معظم الأحوال، وبالحركة بجانب البيان يتحقق التكافؤ مع الواقع. ومن ثم لم يكن بد من أن تتخذ الحركة إلى جانب البيان لنواجه الواقع البشرى بكل جوانبه وبوسائل متكافئة لكل جوانبه" ثم "... وهما معاً الحركة والبيان يواجهان الواقع البشرى بجملته بوسائل مكافئة لكل مكوناته وهما معاً لا بد منهما لحركة التحرير للإنسان فى الأرض. الإنسان كله فى الأرض كلها. هذه نقطة مهمة لا بد من تقريرها مرة أخرى. فهذا الدين يريد أن يرد العالمين إلى ربهم" (١٢٣).

وهكذا نكتشف أن بن لادن وأيمن الظواهري هما الأقرب الآن لفكر سيد قطب الذى يعود ليؤكد هذه الفكرة أكثر من مرة.

- "إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها الثورة الشاملة على حاكمية البشر فى كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها والتمرد الكامل على كل وضع فى أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر فى أية صورة من الصور" (١٢٤)، ثم هو يحدد الوسيلة:

- "والذى يدرك طبيعة هذا الدين يدرك معها حتمية الانطلاق الحركى للإسلامى فى صورة الجهاد بالسيف إلى جانب الجهاد بالبيان" (١٢٥).

ولكن متى يتعين على الجهاد أن يبدأ؟ يجيب سيد قطب:

- "وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر فإن هذه العقيدة ذاتها تقول لهم: أنتم الآن مجتمع، مجتمع إسلامى مستقل، منفصل عن المجتمع الجاهلى" ثم "والثلاثة يصبحون عشرة، والعشرة يصبحون مائة، والمائة يصبحون ألفاً" (١٢٦).

وقد سبق لسيد قطب أن أكد فكرة أن "العقيدة" تقود بذاتها إلى الحركة الواقعية ومن ثم للجهاد بالسيف. إنه يقول ما قلناه نحن فى بداية هذه الكتابة وقبل هذه البداية "إن الإرهاب يبدأ فكرياً". ونقرأ لسيد قطب فى كتاب مبكر "أن هذا التصور

ما يكاد يستقر فى الضمير حتى يتحرك ليحقق مدلوله فى صورة عملية، وليترجم ذاته فى حالة واقعية، والمؤمن بهذا الدين ما يكاد الإيمان يستقر فى ضميره حتى يحس أنه قوة فاعلة، فاعلة فى ذات نفسه وفى الكون من حوله. وهذا التصور لا يقنع بوجوده فى صورة مثالية نظرية أو تصوفية روحانية. إنما هو تصميم لواقع مطلوب إنشاؤه وفق هذا التصميم، وطالما هذا الواقع لم يوجد فلا قيمة لهذا التصميم فى ذاته، إلا باعتباره حافزاً لا يهدأ حتى يحقق ذاته^(١٢٧).

ولكن كيف يمكن لهذه الجماعة المحدودة العدد أن تواجه العالم بأسره؟ هذا السؤال يتردد الآن بقوة عندما يتصور بن لادن أنه قادر على هذه المواجهة بهذه المجموعة التى تحيط به. ولقد أجاب سيد قطب عن هذا السؤال المحير فى "المعالم" قائلاً..

."المؤمنون أجراء عند الله أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا عملوا، وقبضوا الأجر المعلوم، وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أى مصير، فذلك شأن صاحب الأمر لا شأن الأجير"^(١٢٨).

وهو يؤكد ذلك مرة أخرى فى "الظلال" قائلاً:

"الثبات هو بدء الطريق إلى النصر، فأثبتت الفريقين أغلبهما، وما يدرى الذين آمنوا أن عدوهم يعانى أشد مما يعانون، وأنه يتألم كما يتألمون، ولكنه لا يرجو من الله ما يرجون، فلا مدد له من رجاء فى الله يثبت أقدامه وقلبه، وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى "يستخذل عدوهم وينهار. وما الذى يزلزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسنين الشهادة أو النصر بينما عدوهم لا يريد إلا الحياة الدنيا وهو حريص عليها"^(١٢٩).

وهو يقول أيضاً فى ذات الظلال:

- "إن مصارع المكذبين كما يعرضها هذا القصص (القصص القرآنى) تجرى على سنة لا تتبدل، نسيان لآيات الله، وانحراف من طريقه. إنذار من الله للغافلين على يد رسول. استكبار عن العبودية لله وحده والخضوع لرب العالمين. اغترار

بالرخاء، واستهزاء بالإنداز، واستعجال للعذاب، طغيان وتهديد، وإيذاء للمؤمنين، ثبات من المؤمنين، ومفاصلة على العقيدة، ثم المصرع الذى يأتى وفق سنة الله على مدار التاريخ".

المهم كتب كتاب "المعالم" فى السجن وأخرجته السيدة حميدة قطب ثم طبع علناً ووزع علناً. وفجأة اعتبر الكتاب جريمة وثار حوله ضجيج كبير اقترن بتأسيس جماعة الإخوان من جديد، وبمحاولات عدة لاغتيال عبد الناصر.

وصار التنصل من الكتاب واجباً على الجماعة أو على من تبقى منها فى السجون، ورغم تأكيد زينب الغزالى أن المرشد العام المستشار حسن الهضيبي "قد قرأ الكتاب وأعاد قراءته وأجاز طبعه، وقال إن هذا الكتاب قد حصر أمل الدعوة كله فى سيد"، فإن الضرورة قد فرضت على المرشد أن يصدر كتاباً يرد به على أفكار سيد قطب. إن لم يكن تحت ضغط السلطة الناصرية، فتحت ضغط المعتدلين من الإخوان، وضغط الإخوان الذين كانوا لم يزلوا فى السجون ويتطلعون إلى الإفراج عنهم، فإن كتاب المعالم يطيح بآمالهم فى الحرية التى لم تأت إلا بعد تولى السادات الحكم.

المهم أصدر المرشد العام كتابه "دعاة لا قضاة" لكنه حاذر من أن يورد اسم سيد قطب أو كتاب "معالم فى الطريق" أو أى كتاب له.. واكتفى بأن فند آراء أبو الأعلى المودودى^(١٣٠).

ونبدأ ببداية الحكاية كما رواها الأستاذ عمر التلمسانى: "رسخت فكرة التكفير فى ذهن بعض الشباب وآمنوا بها عن اقتناع غريب، واتسع نطاق هذه الفكرة فى معتقل مزرعة طرة حتى بلغت أخبارها فضيلة الأستاذ الهضيبي رضوان الله عليه، إذ كان معتقلاً هناك فاستدعى رؤساءهم، وناقشهم فى الفكرة وكانت الجلسة تنتهى بما يشعر باقتناعهم بكلامه، وما أن خرجوا من عنده حتى يعودوا إلى ما كانوا عليه حتى يؤس من إقلاعهم عن الفكرة، فكتب كتابه "دعاة لا قضاة" مستعيناً بابنه المستشار مأمون الهضيبي والأستاذ مصطفى مشهور، وكان الحق ما رآه لأن

تكفير المسلم ليس بالأمر الهين في العقيدة الإسلامية مهما بلغ المسلم في انحرافه وقسوته".

ولعله من اللافت للنظر أن المستشار مأمون الهضيبي الذي أسهم مع والده في إعداد الرد قد نفى أن سيد قطب دعا إلى تكفير المسلمين. فهو يقول في حوار مع الباحثة كريمان المغربي: "إنه لا يشم من كتاب المعالم بأنه يكفر الناس، وأنه بسؤال سيد قطب رفض أنه يقصد تكفير الناس" (١٣١).

وكذلك الأستاذ عمر التلمساني ينفي تكفير قطب للمسلمين فيقول: "لا أعتقد أن كتاب معالم في الطريق فيه جديد، ولكن بما إنه كتب في السجن بعد أن ذاق ألوان العذاب على قسوتها ووحشيتها (سيد قطب لم يعذب وربما كان الوحيد من سجناء الإخوان الذي لم يعذب) فقد بدأت نغمته على مخالفة الشرع أوضح وأظهر، وما أراد الأستاذ سيد قطب أن يكفر مسلمًا لأنه أعلم المسلمين بأن رسول الله (ﷺ) قال في أكثر من حديث أن مَنْ قال لا إله إلا الله مؤمنًا بها بقلبه فلن يخلد في النار، ونحن نعلم إنه لن يخلد في النار إلا الكافرون الذين ينكرون وحدانية الواحد القهار. أما كثرة ترداده لكلمة "المجتمع الكافر" و"المجتمع الجاهلي" فلم يقصد بها تكفير المجتمع ولكن تشديد النكير على الظلمة والطغاة". ثم يمضي قائلًا: "والذين يعرفون سيد قطب ودمائة خلقه، وجم أدبه، وتواضعه، ورقة مشاعره، يعرفون أنه لا يكفر أحدًا. إنه داعية إسلامي من عيون دعاة المسلمين فظلمه مَنْ أخذ كلامه على غير مقاصده" (١٣٢).

لكن الأستاذ التلمساني نسي أنه تحدث في ذات الكتاب عن مجموعة الشبان المسجونين في ليغان طرة الذين أخذوا بفكرة التكفير.. بل "ورسخت في أذهانهم فكرة التفكير" ولم يقل من أين أنت، ولا مَنْ كان صاحبها.

وينسى الأستاذ التلمساني عبارات وردت في المعالم مثل "ليس هذا إسلامًا، وليس هؤلاء بمسلمين"، إنه يتحدث عن كامل مسلمي العالم.. ويقول ليسوا بمسلمين وليس إسلامهم إسلامًا، فماذا يكونون وماذا يكون؟

ويحاول آخر أن يبرئ سيد قطب فيقول: "إن سيدًا لم يكفر الناس، لا أفرادهم ولا جمهورهم وإنما قصد بحكم التكفير نظام الحكم" (١٣٣).

أما الأخ أحمد عادل كمال وهو أحد قادة الجهاز السرى للإخوان فقد قال: "إن العبارات التى وردت بكتاب المعالم كل فهمها بمفهوم خاص وأن التكفير ظهر أول ما ظهر على يد شكرى مصطفى" (١٣٤).

بينما يؤكد الأستاذ صالح أبو رقيق (المرشد العام للجماعة بعد عمر التلمسانى) "أن سيد قطب قد كفر المجتمع فعلا ولكن فكره قاصر عليه وعلى مجموعته" (١٣٥). ونعود إلى كتاب "دعاة لا قضاة" ونعيد التذكير أن الأستاذ الهضيبي تحاشى أن يذكر اسم سيد قطب أو أى من كتبه وإنما ركز نقده على أبو الأعلى المودودى. ونقرأ فى عجالة عددا من النصوص:

- "إن حكم الناطق بشهادتى أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أن نعتبره مسلماً تجرى عليه أحكام المسلمين، وليس لنا أن نبحث فى مدى صدق شهادته" (١٣٦).

. "إن حكم الله تعالى أن يعتبر الشخص مسلماً فى ذات اللحظة التى ينطق فيها بالشهادتين، ولا يشترط أن تكون أعمال الشخص مصدقة لشهادته حتى يحكم بإسلامه، وأنه حال نطقه بالشهادتين يلزمنا اعتباره مسلماً ويحرم علينا دمه وماله" (١٣٧).

. "ومن تعدى ذلك إلى القول بفساد عقيدة الناس بما أخرجهم عن الإسلام قلنا له: إنك أنت الذى خرجت على حكم الله بحكمك هذا الذى حكمت به على عموم الناس" (١٣٨).

. "ليست المعالنة بالمعاصى وشيوعها، وليست الظواهر العامة التى ركن إليها دعاة التكفير مما تجيز لهم شريعة الله أن يصدرها حكماً على عموم الناس بخروجهم من الإسلام إلى الكفر، أو بعدم دخولهم فى الإسلام أصلاً رغم النطق بالشهادتين" (١٣٩).

."إن لفظة الحاكمية (وهي الكلمة التي تردت كثيرًا جدًا في كتابات سيد قطب وخاصة الظلال والمعالم) لم ترد بأية آية من الذكر الحكيم ولا في حديث من أحاديث الرسول (ﷺ)، والغالبية العظمى تنطق بهذا المصطلح وهي لا تكاد تعرف من حقيقة مراد واضعيه إلا عبارات مبهمه سمعتها عفواً هنا أو هناك، أو ألقاها إليهم مَنْ لا يحسن الفهم، ويجيد النقل والتعبير" (١٤٠).

."وهكذا يجعل هؤلاء الناس أساساً لمعتقدهم مصطلحاً لم يرد له نص من كتاب الله وسنة رسوله، أساساً من كلام بشر غير معصوم وارد عليه الخطأ والوهم، وعلمهم بما قالوا في الأغلب الأعم علم مبتسر مغلوط" (١٤١).

."إن الحكم إلا لله تعالى وحده، وأنه سبحانه وتعالى وحده صاحب الأمر والنهي دون سواه هذه عقيدتنا، ولكن الله عز وجل قد ترك لنا كثيرًا من أمور دنيانا ننظمها حسبما تهدينا إليه عقولنا في إطار مقاصد عامة وغايات حددها لنا سبحانه وتعالى وأمرنا بتحقيقها وبشرط ألا نحل حراماً، أو نحرم حلالاً. ذلك أن الأفعال في الشريعة إما فرض أو حرام أو مباح" (١٤٢).

."ولا يجوز لأحد أن يزعم أن تشريعات تنظيم المرور من تشريع الله عز وجل، وفي هذا كفاية لإبطال قول من زعم أن التشريع صفة من صفات الله عز وجل، وأن من وضع تشريعاً فقد انتزع لنفسه إحدى صفات الله وجعل نفسه ندا لله تعالى خارجاً على سلطانه" (١٤٣).

."إن تكفير المسلمين نتيجة جهلهم بمعظم الشرائع المفروضة عليهم غير مقبول ذلك أن الجاهل معذور بجهله وليس بكافر أو عاص" (١٤٤).

ونتأمل هذه العبارات بألفاظها لنجد أنفسنا أمام أحد أمرين، أولهما إما أن نقر بأن سيد قطب لم يأت بشيء من عنده، لا فكرة ولا لفظاً ولا حرفاً وإنما نقل نصاً عن أبو الأعلى المودودي، أو أن المستشار حسن الهضيبي قد تحاشى عن عمد ذكر اسم سيد قطب رغم علمه وعلم الجميع أنه إنما كتب "دعاة لا قضاة" ردًا عليه هو بالذات.

لكننا قبل أن نغادر الحديث عن كتاب "دعاة لا قضاة" لا بد أن نشير إلى مسألة شديدة الأهمية تحدث بها اللواء فؤاد علام، وهو واحد من أهم قادة الأمن الذين اهتموا بملف جماعة الإخوان. فهو يقول: "دعاة لا قضاة أخطر كتاب لحسن الهضيبي المرشد العام الأسبق صنعته مباحث أمن الدولة. وابنه مأمون كان الكوبري الذي عبرت عليه فصول الكتاب من المباحث للشيخ"، ثم يقول: "خططنا لأن نستغل جناحا كان معارضاً إلى حد ما لفكر التكفير، ونجح الأمن في أن يدفع حسن الهضيبي دون أن يدري لأن يصدر كتاب "دعاة لا قضاة". وحقيقة الأمر فإن حسن الهضيبي لم يشارك بأى رأى أو فتوى فى هذا الكتاب ولم يفعل فيه شيئاً، وإنما تم إعداداه بواسطة بعض علماء الأزهر"، ثم: "وشارك فى إعداد الكتاب بجانب علماء الأزهر بعض المعتقلين من الإخوان الذين كانوا يتعاونون معنا مثل عبد المتعال الجابري وسعد الدين متولى إبراهيم"، و.. "رسمنا خطة أمنية دقيقة لإدخال الأبحاث والآراء لبعض العناصر الإخوانية فى ليمان طرة، وكانوا يجتمعون بمأمون الهضيبي ويناقشونه ويسلمونه الأبحاث، ويقوم هو بنسبتها إلى نفسه ويسلمها لوالده حسن الهضيبي على أساس أنه الذى قام بإعدادها، والحقيقة أنه لم تكن له أدنى علاقة بهذا الكتاب من قريب أو بعيد" (١٤٥).

ثم نأتى إلى الدكتور يوسف القرضاوى لنقرأ له ردّاً على سيد قطب:

. "إن المجتمع الذى نعيش فيه الآن ليس شبيهاً بمجتمع مكة الذى واجه النبى (ﷺ) حين نشأت الدعوة الإسلامية الأولى، ذلك إنه كان مجتمعاً جاهلياً صرفاً، أعنى مجتمعاً وثنيّاً كافراً لا يؤمن بلا إله إلا الله ولا بأن محمداً رسول الله ويقول إن القرآن سحر وافتراء وأساطير الأولين.. أما مجتمعنا القائم فى بلاد المسلمين فهو مجتمع خليط من الإسلام والجاهلية، فيه عناصر إسلامية أصيلة وعناصر جاهلية دخيلة. فيه أناس مرتدون صراحة، وفيه منافقون يتظاهرون أمام الشعب بالإسلام وباطنهم خراب من الإيمان فلهم حكم المنافقين. وفيه عدا هؤلاء وأولئك جماهير غفيرة تكون أكثرية الأمة الساحقة ملتزمة بالإسلام، وجل أفرادها متدينون

تدينًا فرديًا، يؤدون الشعائر المفروضة، وقد يقصرون في بعضها، وقد يرتكب بعضهم المعاصي، ولكنهم في الجملة يخافون الله تعالى، ويحبون التوبة ويتأثرون بالموعظة، ويحترمون القرآن، ويحبون الرسول إلى غير ذلك مما يدل على صحة أصول العقيدة لديهم، ولهذا يكون من الإسراف المجازفة بالحكم على هؤلاء جميعا بأنهم جاهليون كأهل مكة الذين واجههم الرسول في فجر الدعوة"، ثم يذكرنا "بأن هؤلاء الناس يتزوجون ويطلقون ويرثون ويورثون ويوصون على مقتضى كتاب الله وسنة رسوله" (١٤٦).

ثم نأتى إلى رأى رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشيخ محمد عبد اللطيف السبكي فى كتاب "معالم فى الطريق" وقد أعد تقريراً عن الكتاب بناء على طلب شيخ الأزهر حسن مأمون. ونقرأ:

- "موضوع الكتاب دعوة إلى الإسلام لكن أسلوبه أسلوب استفزازى يهيج المشاعر الدينية وخاصة عند الشباب والبسطاء، والمؤلف ينكر وجود أمة إسلامية منذ قرون طويلة ومعنى هذا أن عهود الإسلام الزاهر وأئمة الإسلام، وأعلام العلم فى الدين، كانوا جميعاً فى جاهلية، وليسوا من الإسلام فى شىء حتى يجىء سيد قطب".

. "ثم ما معنى الحاكمية لله وحده؟ هل يسير الدين على قدمين بين الناس ليمتتع الناس جميعاً عن ولاية الحكم لله؟ أو يكون الممثل لله فى الحكم هو شخصية هذا المؤلف الداعى؟ والذى ينكر وجود الحكام ويضع المعالم فى الطريق للخروج على كل حكام الدنيا؟، إن القرآن الكريم نفسه يعترف بالحكام المسلمين ويفرض لهم حق الطاعة علينا، كما يفرض عليهم العدل فينا".

- "من المقررات الإسلامية أن الله يزرع بالسلطان، ما لا يزرع بالقرآن، فكيف يستقيم أن تقوم طليعة مزعومة لتجريد الحكام جميعاً من سلطانهم؟ هذا شطط من الخيال يجنح بالمؤلف إلى الشذوذ عن الأوضاع الصحيحة والتصورات المعقولة".

. "يخيل إلينا أن المؤلف شطح شطحة جديدة فزعم لنفسه الهيمنة العليا الإلهية فى

تنظيم الحياة الدنيا، حيث يقترح أولاً هدم النظم القائمة دون استثناء، وطرد الحكام وإيجاد مجتمع جديد".

- "يدعو المؤلف إلى الجهاد ويعتبره ضرورة لتحرير الإنسان، فهذه دعوة إلى إشعال الحروب مع الغير ولو كان الوطن الإسلامى آمناً، مع أن نصوص القرآن وتوجيهات الإسلام عامة لا تدعو إلى مثل هذا الانفعال الغاشم. وإنما تعتبر الحرب وسيلة علاجية لاستقرار الحياة وقمع الفتن وشق طريق الدعوة، إذا وقف في وجهها خصوم يعاندونها ويعوقونها".

- "الكتاب يضم مزيجاً من آيات قرآنية وذكريات تاريخية صيغت بأساليب كأساليب الثائرين للإفساد في كل موقع، يخلطون بين حق وباطل ليموهوا على الناس. وهذه الحيلة هي نفسها حيلة إبليس فيما يصنعه مع آدم وحواء، وفيما دأب عليه دائماً في فتنة الناس عن دينهم، وعن الخير في دنياهم. والله أعلم" (١٤٧).

ولأن الإرهاب يبدأ فكراً. فإن من الضروري أن نتابع الثمار المريرة التي أثمرها هذا الفكر، وأن نحاول أن نتابع عملية بناء تنظيم على مقياس أفكار سيد قطب ووفق تعاليمه.

لكننا نود في البداية أن نشير إلى مفارقة اعتدنا أن نتوقف عندها وعند مثيلاتها. الفكرة هي التي ولدت التنظيم، والتنظيم خطط ودبر لأفعال إرهابية من بينها محاولة اغتيال الرئيس عبد الناصر. ويؤكد اللواء فؤاد علام أن هذه المجموعة قامت بثلاث محاولات لاغتيال عبد الناصر، الأولى: "تكليف أحد عناصر شرطة رئاسة الجمهورية واسمه إسماعيل الفيومي، وكان يجيد الإطلاق الذاتي للنيران ويمكنه إصابة الهدف من بعيد أو وهو على عينه عصابة سوداء باغتيال عبد الناصر في مطار القاهرة فور هبوطه من الطائرة عائداً من موسكو، والثانية هي تفجير القطار الذي يقل الرئيس من القاهرة للإسكندرية بشحنة يتم تفجيرها عن بعد. والثالثة أثناء مرور مركبه من المعصرة إلى رأس التين" (١٤٨).

لكن هذه الفكرة المتأسلمة ذاتها قد نمت فى أحضان رجال الأمن وبمباركة منهم، وسماح وتسامح لم يعهد فيهم مع أى من السجناء السياسيين. يقول اللواء فؤاد علام دون أن يقدم تفسيراً مقنعاً: "كان سيد قطب فى مستشفى الليمان وكان يقضى وقته بين القراءة والتأليف (كان السجناء من الشيوعيين والإخوان محرومين من الأوراق والأقلام والصحف وحتى من الأحذية ومن الملابس الداخلية)، وكان يلاحظ على أحاديثه فى هذه الفترة اتجاهه إلى العنف والتحريض على المواقف الحادة، والدخول مع إدارة السجن فى مواجهات عنيفة"، ورغم ذلك وبرغم ملاحظة اتجاهه إلى العنف والتحريض على المواقف الحادة فإن اللواء يعترف: "وفى هذه الفترة كانت الدولة تصرح له بنشر ما يتم من مؤلفاته، بل لقد وصل الأمر بإدارات السجون أنها كانت تقوم بشراء بعض مؤلفاته وتسمح بتداولها فى مكتباتها ضمن الكتب التى يصرح للمسجونين باستعارتها والاطلاع عليها"^(١٤٩).

وبعد ذلك يعود فيقول: "رسائل سيد قطب "معالم فى الطريق" (وقد كتب أيضا وهو فى السجن) هى التى قادته لحبل المشنقة فلم يكتف فيها ببث كل سموم الفتنة والتكفير، وإنما تحولت الأفكار إلى طلاقات رصاص والكلمات إلى أسلحة بيضاء"^(١٥٠).

المهم.. كان الفكر هو البداية وبعده التنظيم ثم الإرهاب.

فى المعالم يقول سيد قطب: "الجاهلية اليوم هى نفس الجاهلية التى واجهها الرسول (ﷺ) وهى لا تتمثل فى نظرية مجردة، وإنما فى تجمع حركى. ولهذا فإن محاولة إلغاء هذه الجاهلية ورد الناس إلى الله مرة أخرى لا يجوز أن تتمثل فى نظرية مجردة لأنها حينئذ لا تكون مكافئة للجاهلية القائمة، ولا بد أن تتفوق المحاولة الجديدة على الوضع الراهن حتى تستطيع أن تغيره، أى أنها لا بد أن تتمثل فى تجمع حركى أقوى من المجتمع الجاهلى. ومن ثم لم يكن بد أن تتمثل القاعدة النظرية فى تجمع عضوى حركى منذ اللحظة الأولى، وأن يكون محور التجمع الجديد هو القيادة الجديدة المتمثلة، فى رسول الله (ﷺ). ومن بعده فى كل قيادة إسلامية تستهدف رد الناس إلى

ألوهية الله وحده وربوبيته وقوامته وحاكميته وسلطانه وشريعته" (١٥١). وقد توقف الكثيرون أمام هذه العبارة وقالوا وكأن سيد قطب يقول "أنا نبي هذا الزمان" لكنه ومع تغليب حسن النية كان يعتقد . كما جاء فى كلماته . إنه يلعب دور الرسول .. الرسول، أتى بالجاهليين إلى الإسلام تحت قيادته وقطب وتحت قيادته، أيضا يرد المسلمين فى العالم أجمع إلى الإسلام.

وقبل أن يخرج سيد قطب من السجن سبقته أفكاره إلى شظايا جماعة الإخوان التى كانت متناثرة وتحاول جاهدة تجميع نفسها . ونقدم وسريعا معلومات مختصرة عن عملية إعادة التكوين هذه..

- "كانوا يتسللون إلى جمعيات دينية قديمة كجماعة العشيرة المحمدية وأنصار السنة والجمعية الشرعية، ثم يصطادون الشباب من هناك" (١٥٢). وأيضا "كان الأمر يبدأ بتجنيد الشباب تحت ستار اجتماعى وهو معاونة أسر المعتقلين وسرعان ما توسع النشاط، وبدأ تجنيد الشباب فى ظل المنهاج الذى رسمه كتاب معالم فى الطريق" (١٥٣) كنموذج لذلك "مبارك عبد العظيم عياد المدرس بالأزهر الذى دفع عشرة قروش لمساعدة عائلات الإخوان فاعتقل وقدم للمحاكمة أمام محكمة الشعب وحكم عليه بالسجن خمس سنوات. وبعد أن خرج من السجن انضم إلى التجمعات الإخوانية" (١٥٤).

. والحقيقة أن بعض الإخوان خارج السجن تجمعوا تحت فكرة الانتقام من نظام عبد الناصر (١٥٥) ومن هؤلاء المهندس محمد عبد الفتاح الشريف الذى بدأ فى ١٩٥٩ فى تنظيم مجموعة إخوانية هدفها الانتقام. ويعترف هو وإخوانه بمقابلة تمت بينهم فى فندق بالمنصورة عام ١٩٦٣ وأنه قال فيها: "ينبغى أن نتحرك ونثبت وجودنا، ولزام ننتقم من ضربة ١٩٥٤ ونعمل عمليات اغتيال سرية. وسئل: والبلد ماذا سيكون مصيرها؟ ومن الذى سيحكمها؟ فأجاب: إحنا كإخوان منقدرش حاليا نحكم البلد، وأى واحد ييجى يحكم ميهمناش" (١٥٦) إنه الانتقام المجرى من أى وعى سياسى حقيقى.

- وعلى أحمد عشاوى يقول فى اعترافاته أمام المحقق إنه وفى سنة ١٩٦٠

"بدأ العمل على إعادة إحياء الجماعة، وبدأ الاتصال بعدد من الذين كان يعرفهم من الإخوان أحدهم كاتم أسرار بوزارة الحربية وآخر طالب بكلية الهندسة.. ولم تمض ستة أشهر حتى أصبحوا مجموعتين" (١٥٧).

. وفى إقرار كتبه بعد القبض عليه يقول حامد أحمد الشريف أنه كون مجموعة فى أسبوط بهدف إعادة نشاط الجماعة والانتقام ممن قام بحلها وإنه كان يتلقى معونات مالية من أخيه الذى كان يعمل بسكرتارية أمير قطر (١٥٨).

. عبد الفتاح إسماعيل من كفر البطيخ مركز دمياط، كان إخوانياً قديماً، التقى بزوينب الغزالى فى موسم الحج ١٩٥٧ وتعاهدا على الجهاد والموت فى سبيل دعوة الإخوان. ويقول إنهما عندما عادا من الحج وجدا فتوى تلقفتها زينب الغزالى من السجن تقول "إن جمال عبد الناصر ليس له أى ولاء ولا تجب له طاعة على المسلمين حيث إنه يحارب الإسلام، ولا يحكم بكتاب الله تعالى" وفى عام ١٩٥٩ كون مع عبد الفتاح الشريف تنظيمًا.

. وفى صيف ١٩٦٣ التقى على عشاوى بعبد الفتاح الشريف الذى أرسل له بعدها بقليل رسلاً يقول: إنه يعرف ضابطاً من مجموعة رشاد منها وإنهم "عاوزين يعملوا انقلاب بس مش لاقبين واحد يقتل عبد الناصر. وعايزين واحد إخوانى يقوم بهذا الدور، وهمه يكملوا الانقلاب لصالح الإخوان ويحيبوا رشاد منها رئيساً للجمهورية.

وسأل عشاوى: من هم الضباط دول؟

وأجاب الرسول: مش عاوزين يقولوا أى تفاصيل.

وقال عشاوى: المسألة بالشكل ده تبقى مفيش فيها أمان والإخوان حاتبقى مخلب قط لأنه فى حالة الفشل إحنا اللى سندفع الثمن.. فى حالة النجاح هم اللى حايكلوها".

. يقول عبد الفتاح إسماعيل فى اعترافاته "أنه ذهب لاستشارة الهضيبي بشأن إعادة تنظيم الجماعة فقال له "أنا مقدرش أ منع حاجة لصالح الإسلام" (١٥٩).

وفيما يبدو أن سعيد رمضان الهارب بالخارج وزوج ابنة البنا كان

المصدر الأساسي للتمويل في هذه الفترة. وكان ينتقل بين أوروبا والقدس وبيروت وطهران وعواصم أخرى وكان يسافر بجواز سفر دبلوماسي من الأردن، وورد بتحقيقات القضية أنه "حاول أن يدبر من الخارج محاولة لنسف القطار الذي يستقله رئيس الجمهورية ومرافقوه وأرسل خصيصا لذلك سيارة مجهزة لهذا الغرض" (١٦٠).

. ونواصل رحلتنا مع سعيد رمضان فعندما قبض على الضابط الهارب زغلول عبد الرحمن وشحن في صندوق إلى مصر اعترف أثناء محاكمته أن جماعة مصر الحرة حصلت في إحدى المرات على دفعة قدرها ٢٥٠ ألف جنيه إسترليني من الملك سعود. وأن خلافا وقع مع سعيد رمضان على اقتسام هذا المبلغ ونصيب كل منهما فيه، خاصة أنهما كانا قد شكلا جبهة عمل مشتركة (١٦١).

- زار سعيد رمضان سيلان (سيريلانكا) وكان مضيفه هناك وزير الإسكان السيلاني، واحتجت المعارضة بشدة على هذه الزيارة وفي البرلمان قال قطب من أقطاب المعارضة: "إن المعلومات تؤكد أن سعيد رمضان جاسوس أمريكي، وإن المركز الإسلامي الذي أسسه في جنيف يعتمد في تمويله على عدد من المصادر من بينها مصادر أمريكية تدفع للمركز بحجة مقاومة الشيوعية" (١٦٢).

- اعترف السيد خطاب أن سعيد رمضان أرسل له ٥٠٠ جنيه مع فلسطيني يدعى محمد السماك وأنه سلمه خطة لنسف قطار عبد الناصر بلغم كهربائي، وطلب منه القيام ببعض تفجيرات بهدف إرباك الأمن (١٦٣).

وجاء في اعترافاته أيضا أنه تلقى أموالا ومفرقات من سعيد رمضان لحساب عملية لاغتيال الرئيس وأنه كان يتراسل معه برسائل شفرية وإن الشفرة كانت: المزرعة (عملية اغتيال الرئيس).

. الأدوات (الأسلحة).

. العمال (زملأوه في عملية نسف القطار).

. عبد الوارث (التمويل) (١٦٤).

. اعترف حسين توفيق فى التحقيق (وكان قد انضم إلى تنظيم سيد قطب فى آخر أيامه) بأن التنظيم حاول الاتصال بفرنسا عن طريق صديق قديم له من أيام قضية ابن عثمان ليقيم علاقات مع حكومتها، لكن الاتصال لم يتم حتى القبض عليهم^(١٦٥).

ونعود إلى محاولات إقامة التنظيم.. فقد تجمعت الشظايا قبل الإفراج عن سيد قطب . وشكلت مجموعة ذات قيادة خماسية:

. على عشاوى

. أحمد عبد المجيد

. صبرى عرفة

. عبد الفتاح إسماعيل

. مجدى عبد العزيز متولى.

ويقول عشاوى فى اعترافاته (وكان أول من أدلى باعترافات مفصلة على الجميع) أنه "فى الاجتماع الأول للمجموعة وصلت لهم نشرة مطبوعة وقيل لهم إنها من تأليف سيد قطب وأنها وصلت عن طريق إسماعيل الهضيبى ابن المرشد العام. وأنهم قد تلقوا برنامجا للتثقيف أعده سيد قطب يتضمن دراسة كتاب "فى ظلال القرآن" وبعض كتبه الأخرى وكتب شقيقه محمد قطب وكتب أبو الأعلى المودودى"^(١٦٦).

ويقول عباس السيسى فى التحقيق "كان برنامج التثقيف فى الأسر قراءة كتب مثل معالم فى الطريق. وفى ظلال القرآن" وهكذا خرج سيد قطب من السجن ليجد أن أفكاره قد مهدت له طريق قيادة الجميع، وقيادتهم وفق أفكاره، وهكذا "لم يعد الأمر مجرد مساعدة أسر السجناء، ولا إعادة تنظيم الجماعة، ولا الثأر من عبد الناصر وإنما إعداد العدة لإعادة نشر الإسلام وتجهيز مجموعات فدائية لرد العدوان والاستعداد للانقضاض على المجتمع الجاهلى"^(١٦٧).

وفى ملف القضية نقرأ نسخًا من النشرات التى كان تنظيم سيد قطب يصدرها،

وهى تدعو الناس إلى "معرفة دينهم ومعرفة وسائل المعركة ضد أعداء الدين وتحقيق مدلول لا إله إلا الله، وتكفير من لا يحكم بهذا المدلول، وأن الإخوان المسلمين قد قاموا لإعادة إنشاء الإسلام فى الأرض، وإعادة ألوهية الله فى الأرض، وأن للإخوان كينونتهم المنفصلة عن أية تشكيلات وطنية أو قومية أو عالمية، وأن الحقيقة مترجمة حركيًا وشرعيًا فى البيعة للمرشد وتعنى البيعة نشأة أمة منفصلة وإمارة لها وحدها حق السمع والطاعة" (١٦٨).

ونتأمل هذه العبارة. نتأملها جيدًا فهى نموذج نموذجى لمعنى ان سيد قطب قد مد الخط الإخوانى على استقامته. هم دوما يتحدثون عن البيعة للمرشد العام، ويصمتون عما تعنى هذه البيعة، لكن سيد قطب يقول أنها تعنى "نشأة أمة منفصلة وإمارة لها وحدها حق السمع والطاعة".
والتنظيم يقوم على جوهر وأساس أفكار سيد قطب.. يقول مبارك عبد العظيم فى تحقيق النيابة:

"س: ما مفهوم جماعة الإخوان فى نظام الحكم القائم؟

ج: نظام الحكم القائم لا يحكم بما أنزل الله وبالتالي فهو حسب كتاب الله يمثل طاغوت والمجتمع حاليا هو مجتمع جاهلى.

س: هل كان هذا مفهوم جميع أفراد الأسرة الذين ضممتهم؟

ج: حسب ما شرحته لهم، وحسب ما اقتنعوا به، كان هذا مفهومهم جميعا بلا استثناء" (١٦٩).

والكلمات الوحشية تستتبعها أفكار وحشية ثم أفعال أكثر توحشا.

فقد أعد سيد قطب خطة لنسف القناطر الخيرية "لأنه سيترتب على ذلك إغراق الدلتا بالكامل، وهذه الأرض أرض كفر يجب تطهيرها، ولو حدث ذلك فإنه سوف يشغل الحكومة بهذه الكارثة، ولا تستطيع استكمال حملة الاعتقالات التى كانت قد بدأت" (١٧٠)، ووضع خططا لنسف مطار القاهرة ومحطة كهرباء جنوب القاهرة كل ذلك بهدف إرباك النظام وتمكين الجماعة من تحقيق أهدافها.

وكان أول خيط يتكشف للأمن عن خطط جماعة سيد قطب قد بدأ أوائل يوليو ١٩٦٥ بملاحظة أجهزة الأمن لحركة غير عادية لتهريب وتخزين الأسلحة في القاهرة وعدد من القرى، ومن ثم شكلت مجموعة خاصة لمتابعة هذا الأمر^(١٧١). وبدأت الحملة يوم ٢٩ يوليو ١٩٦٥ بالقبض على محمد قطب ثم توالى عمليات القبض. وفي ٩ أغسطس قبض على سيد قطب. واستخدمت الشرطة العسكرية عنفاً شديداً ضد سكان قرية كرداسة المعقل الإخواني والتي كانت نقطة النهاية لشبكة القوافل التي تأتي من السودان والتي كثيراً ما تقوم بتهريب الأسلحة^(١٧٢).

أما لماذا وضع الأمر في أيدي الشرطة والمخابرات العسكرية؟ فإن البعض ومنهم اللواء فؤاد علام يقول إن السبب هو وجود بعض رجال القوات المسلحة بين المتهمين مثل إسماعيل الفيومي الذي اتهم بمحاولة اغتيال عبد الناصر وتوفي خلال التحقيق معه. بينما يرى البعض أن المشير وشمس بدران كانا يريدان إيهام أو إقناع عبد الناصر بأنهما القادران على حمايته وحماية النظام وليس الأمن العام أو المخابرات العامة.

وقع الجميع في قبضة قاسية. وانهار الجميع. اعترف الجميع على الجميع، ولم يجد سيد قطب بداً من أن يعترف هو أيضاً بكل شيء وعلى كل شيء^(١٧٣).

وفي أيام سابقة كتب سيد قطب يقول وكأنه يتحدث عن حلم جميل: "ويات هذا الركب الكريم أنوسا مألوفاً، لا موحشاً ولا مخوفاً. إنهم زمرة من موكب موصول في طريق معروف، وليسوا مجموعة شاردة في تيه مقطوع. وأنهم ليمضون من نقطة البدء إلى نقطة الختام، وفق سنة جارية، لا يمضون هكذا جزافاً يتبعون الصدفة العابرة"^(١٧٤).

ويمضى الحلم في كلمات ما أسهل أن يقال طالما كانت مجرد كلمات: "لقد كان القرآن ينشئ قلوباً يعدها لحمل الأمانة، وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع، وهي تبذل كل شيء، وتحتمل كل شيء،

أى شىء فى هذه الأرض، ولا تنتظر إلا إلى الآخرة ولا ترجو إلا رضوان الله. قلوبًا مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها فى نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية حتى الموت» (١٧٥).

ترى هل تذكر سيد قطب هذه الكلمات وهو فى زنزانته ينتظر تنفيذ حكم الإعدام بعد أن انهيار كل رجاله، واعترفوا جميعا بجميع ما يعرفون، وعلى جميع من يعرفون؟

ترى ماذا كانت مشاعره؟

وأعود لأستعيد ذات الصورة. حسن البنا الذى تباهى يوما برجاله وأسماءهم "رهبان الليل وفرسان النهار" ثم عاد وتحت وطأة الأحداث ليقول إنهم "ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين".

هى ذات المأساة.

مأساة الفكرة الخاطئة التى تقفاد صاحبها نحو خطأ يتلوه خطأ حتى تكون النهاية المريرة؟

لكننى رغم كل شىء لم أملك نفسى أن أشفق على مفكر كان يمكن أن يكون شيئًا آخر، مختلفا تماما عما انساق إليه سيد قطب. لكن هذا الذى كان.

وبرغم رحيل سيد قطب المحزن وربما بسببه أصبحت كتبه حجة ومرجعًا لكل من تلاه من متأسلمين ربما فى كل أنحاء العالم.

وكانهم جميعا كانوا ينتظرون، أو حتى يتمنون شهيدًا كى يتعلقوا بأذياله، معلنين انتسابهم إليه، شاء أم أبى.

الهوامش

- (١) التوبة: ١١١.
- (٢) سيد قطب . معركتنا مع اليهود . ص ٦٣ .
- (٣) صفوت منصور . المنهج الفكرى للعمل الإسلامى . الإخوان المسلمون . ص ٩٣ .
- (٤) المرجع السابق: ص ٩٨ .
- (٥) صلاح شادى . الشهيدان .. حسن البنا وسيد قطب . ص ٧٧ .
- (٦) زينب الغزالى . أيام من حياتى . ص ٣٦ .
- (٧) عادل حمودة . سيد قطب من القرية إلى المشنقة . سيرة الألب الروحى لجماعات العنف (١٩٩٦) . القاهرة . ص ٥٠ .
- (٨) سيد قطب . طفل القرية . (١٩٤٥) . القاهرة . ص ٢ .
- (٩) سيد قطب . كتب وشخصيات . القاهرة . ص ١٥٥ .
- (١٠) عادل حمودة . المرجع السابق: ص ٤٩ .
- (١١) سيد قطب . كتب وشخصيات . المرجع السابق، ص ٧٣ .
- (١٢) المرجع السابق: ص ٧٥ .
- (١٣) الرسالة . ١٨ يوليو ١٩٣٨ . مقال لسيد قطب .
- (١٤) الهلال . سبتمبر ١٩٨٦ مقال سليمان فياض بعنوان "سيد قطب بين النقد الأدبى وجاهلية القرن العشرين" .
- (١٥) حلمى النمنم . سيد قطب وثورة يوليو (١٩٩٩) القاهرة . ص ٣٥ .
- (١٦) عباس خضر . هؤلاء عرفتهم . سلسلة اقرأ . مارس ١٩٨٣ . ص ٥٦ .
- (١٧) محمود عبد الحليم . الإخوان المسلمون . أحداث صنعت التاريخ . (١٩٧٩) . القاهرة . ج ١ . ص ١٩٠ .
- (١٨) شريف يونس . سيد قطب وأثره فى الفكر السياسى فى مصر . رسالة ماجستير غير منشورة .
- (١٩) البلاغ (الأسبوعى) . أعداد أبريل . مايو ١٩٢٩ .
- (٢٠) الهلال . أكتوبر ١٩٨٦ . مقال د. الطاهر مكي بعنوان "سيد قطب وثلاث رسائل لم تنشر بعده" .
- (٢١) عادل حمودة . المرجع السابق . ص ١٥ .
- (٢٢) سيد قطب . معالم فى الطريق . طبع دار الشروق (١٩٨٠) ص ١٤٣ .
- (٢٣) عادل حمودة . المرجع السابق . ص ٧ .
- (٢٤) المرجع السابق .
- (٢٥) عادل حمودة . المرجع السابق . ص ٨ .
- (٢٦) د. حسن حنفى . الدين والثورة فى مصر ١٩٥٢ . ١٩٨١ . ج ٦ (١٩٨٩) ص ٤٤ .
- (٢٧) سيد قطب . لماذا اعدمونى . جريدة المسلمون . العدد الثانى ٢٢ فبراير ١٩٨٥ .

- (٢٨) حلمى النمنم . المرجع السابق . ص ٧ .
- (٢٩) المرجع السابق . ص ٢٢ .
- (٣٠) نجيب محفوظ . المرايا .
- (٣١) حلمى النمنم . المرجع السابق . ص ٨ .
- (٣٢) سيد قطب . فى ظلال القرآن . تفسير سورة الأنعام . ص ١٠١٥ .
- (٣٣) الشعب . ١٨ نوفمبر ١٩٨٦ . مقال الشيخ يوسف القرضاوى بعنوان: ملاحظات وتعليقات على آراء الشهيد سيد قطب .
- (٣٤) القاهرة: ٢٠٠٣/١١/١٧ .
- (٣٥) د. الطاهر مكي . مجلة الهلال . المرجع السابق .
- (٣٦) عادل حمودة . المرجع السابق ص ٨٥ .
- (٣٧) على الدالى . جذور الإرهاب . القصة الحقيقية للإخوان . ج ١ (١٩٩٣) القاهرة . ٤٠ .
- (٣٨) محكمة الشعب . ج ١ . أقوال سيد قطب . ص ٢٥٨ .
- (٣٩) المرجع السابق . أقوال يوسف طلعت .
- (٤٠) كاريمان محمود إبراهيم المغربى . الإخوان المسلمون: من حسن البنا إلى سيد قطب . القاهرة (١٩٩٧) .
- (٤١) ملف القضية ١٢ لسنة ١٩٦٥ أمن دولة عليا . محضر أقوال زينب الغزالى . ج ٨ . ص ٢٧٦٢ .
- (٤٢) المرجع السابق: ص ٢٧٦٣ .
- (٤٣) المسلمون . لماذا أعدموني؟ المرجع السابق .
- (٤٤) ملف القضية ١٢ لسنة ١٩٦٥ أمن دولة عليا المرجع السابق . محضر أقوال أحمد عبد المجيد عبد السمیع . ج ٦ . ص ٥٢٩ .
- (٤٥) عمر التلمسانى . ذكريات لا منكرات .
- (٤٦) أحمد رائف . البوابة السوداء . ط ١٤ . (١٩٨٨) . القاهرة . ص ٢٤٣ .
- (٤٧) على عشاوى . التاريخ السرى للإخوان . (١٩٩٣) . القاهرة . ص ٧ .
- (٤٨) عادل حمودة . المرجع السابق . ص ١٤٣ .
- (٤٩) حلمى النمنم . المرجع السابق . ص ١٣٢ .
- (٥٠) المسلمون . لماذا أعدموني . المرجع السابق .
- (٥١) على عشاوى . المرجع السابق .
- (٥٢) محضر أقوال على عشاوى أمام النيابة العسكرية . ص ٢٥٩ .
- (٥٣) المرجع السابق: ص ٢٢٣ .
- (٥٤) زينب الغزالى . أيام من حياتى . المرجع السابق . ص ٣٥١ .
- (٥٥) راشد البراوى . حقيقة الانقلاب الأخير فى مصر .
- (٥٦) روز اليوسف . ١٩ أغسطس ١٩٥٢ . مقال لسيد قطب .
- (٥٧) الثقافة . ٤ أغسطس ١٩٥٢ . مقال محمد فريد أبو حديد بعنوان "هذه الثورة" .
- (٥٨) الأخبار . ٨ أغسطس ١٩٥٢ . مقال لسيد قطب بعنوان "استجواب إلى البطل محمد نجيب" .

- (٥٩) الأخبار . ١٥ أغسطس ١٩٥٢ . مقال لسيد قطب .
- (٦٠) روز اليوسف . ١٩ أغسطس ١٩٥٢ . مقال لسيد قطب .
- (٦١) روز اليوسف . ٢٦ أغسطس ١٩٥٢ . مقال لسيد قطب .
- (٦٢) روز اليوسف . ٢٩ سبتمبر ١٩٥٢ . مقال لسيد قطب .
- (٦٣) المصرى . ٢٤ سبتمبر ١٩٥٢ . افتتاحية لأحمد أبو الفتح .
- (٦٤) الرسالة . ٢٢ سبتمبر ١٩٥٢ . مقال لسيد قطب بعنوان "أخسوا هذه الأصوات النجسة" .
- (٦٥) نقلا عن: أمين عز الدين، تاريخ الطبقة العاملة منذ نشوئها وحتى ١٩٥٢ . ص ٨٠٩ .
- (٦٦) رسالة خطية موجهة من خالد محبى الدين عضو مجلس الثورة إلى حضرة المحترم جمال عبد الناصر وكيل مجلس الثورة . مؤرخة فى ١/٣/١٩٥٣ . نقلاً عن: خالد محبى الدين . والآن اتكلم .
- (٦٧) الثقافة . ٨ ديسمبر ١٩٥٢ . مقال للناقد عز الدين إسماعيل .
- (٦٨) روز اليوسف . ٢٩ ديسمبر ١٩٥٢ . مقال لإحسان عبد القدوس .
- (٦٩) روز اليوسف . ٩ فبراير ١٩٥٣ . مقال لإحسان عبد القدوس .
- (٧٠) روز اليوسف . ١٠ سبتمبر ١٩٥٢ . مقال لسيد قطب .
- (٧١) محمد توفيق بركات . سيد قطب . خلاصة حياته، منهجه فى الحركة، النقد الموجه إليه . طبعة مكة المكرمة (د.ت) ص ١٦ .
- (٧٢) جيل كليل . الفرعون والنبي، التطرف الدينى فى مصر . ترجمة أحمد خضر . القاهرة (١٩٨٨) ص ٣٩ .
- (٧٣) فاروق عبد السلام . فقه حركة الإخوان فى الميزان . القاهرة (د.ت) ص ١٨ .
- (٧٤) حسن البنا . رسالة التعليم . ص ١٢ .
- (٧٥) عبد القادر عودة . التشريع الجنائى الإسلامى . ج ٢ . ص ٧١ .
- (٧٦) د. على جريشة . أصول الشريعة الإسلامية . ص ٤٩ .
- (٧٧) الفكر الجديد . ١٥ يناير ١٩٤٨ . مقال لسيد قطب .
- (٧٨) سيد قطب . معركة الإسلام والرأسمالية . ط ٨ . القاهرة (١٩٨٢) ص ٧٥ .
- (٧٩) المرجع السابق: ص ٢٣ .
- (٨٠) سيد قطب . التصوير الفنى فى القرآن . ط ٦ . القاهرة (١٩٨٠) ص ٧ .
- (٨١) سيد قطب . مقال: شبهات حول الإسلام . نقلا عن عادل حمودة . المرجع السابق: ص ٣٤ .
- (٨٢) الفكر الجديد . ٥ فبراير ١٩٤٨ . مقال لسيد قطب .
- (٨٣) سيد قطب . معركة الإسلام والرأسمالية . المرجع السابق . ص ١٦ .
- (٨٤) نقلاً عن: عادل حمودة . المرجع السابق . ص ١٠٥ .
- (٨٥) سيد قطب . نحو مجتمع إسلامى . ط ٨ . القاهرة (١٩٨٨) ص ٦٠ .
- (٨٦) المرجع السابق: ص ٤٦ .
- (٨٧) المرجع السابق: ص ٦١ .
- (٨٨) المرجع السابق: ص ٢١ .
- (٨٩) المرجع السابق: ص ٣٣ .

- (٩٠) سيد قطب . السلام العالمى والإسلام . ط١٠ . القاهرة (١٩٩٢) ص ٣٦ .
- (٩١) المرجع السابق: ص ١٧٠ .
- (٩٢) سيد قطب . المستقبل لهذا الدين . ص ٤٨ .
- (٩٣) سيد قطب . العدالة الاجتماعية فى الإسلام . القاهرة (١٩٤٩) ص ٥٢ .
- (٩٤) د. سمير أمين . أزمة المجتمع العربى . القاهرة (١٩٨٥) ص ٩٢ .
- (٩٥) سيد قطب . خصائص التصور الإسلامى . ص ٦٧ .
- (٩٦) سيد قطب . الإسلام ومشكلات الحضارة . ص ١٨٤ .
- (٩٧) المرجع السابق: ص ١٨٠ .
- (٩٨) المرجع السابق: ص ٨٨ .
- (٩٩) سيد قطب . فى ظلال القرآن . ج ١ ، ص ١٠ .
- (١٠٠) المرجع السابق . ج ٨ . ص ١٠٢٣ .
- (١٠١) المرجع السابق . ج ٧ . ص ٩٣٨ .
- (١٠٢) المرجع السابق . ج ٧ . ص ٩٣٩ .
- (١٠٣) المرجع السابق . ج ١٠ . ص ١١٦ (ترقيم الصفحات مستقل فى كل جزء فى بعض الطبعات) .
- (١٠٤) المرجع السابق . ج ١٣ . ص ١٤٢ .
- (١٠٥) راجع للمقارنة . فى ظلال القرآن . ج ٩ . ص ١٦٧ ومعالم فى الطريق . ص ٥٧ .
- (١٠٦) حلمى النمنم . المرجع السابق: ١٤٥ .
- (١٠٧) عادل حمودة . المرجع السابق: ١٤٢ .
- (١٠٨) المرجع السابق: ص ١٤٣ .
- (١٠٩) المرجع السابق: ١٤٤ .
- (١١٠) كاريمان محمود المغربى . المرجع السابق . مقابلة مع الأستاذ فريد عبد الخالق .
- (١١١) المرجع السابق . مقابلة مع الأستاذ مصطفى مشهور .
- (١١٢) سيد قطب . معالم فى الطريق ، ص ٦ .
- (١١٣) ص ٥ .
- (١١٤) ص ١٠ .
- (١١٥) ص ٢٢ .
- (١١٦) ص ١٣٥ .
- (١١٧) ص ١٤٦ .
- (١١٨) ص ١٤٦ .
- (١١٩) ص ١٥٠ .
- (١٢٠) ص ١٠٦ .
- (١٢١) ص ١٣٤ .
- (١٢٢) ص ٦٨ .

- (١٢٣) ص ٦٦.
- (١٢٤) ص ١٦٢.
- (١٢٥) ص ١١٦.
- (١٢٦) سيد قطب . خصائص التصور الإسلامى . ص ١٢٨.
- (١٢٧) سيد قطب . معالم فى الطريق . ص ١٧٥.
- (١٢٨) سيد قطب . فى ظلال القرآن . ج ١٠ . ص ٢٥.
- (١٢٩) المرجع السابق . ج ٨ . ص ٢٠٢.
- (١٣٠) عمر التلمسانى . ذكريات لا مذكرات . القاهرة (١٩٨٥).
- (١٣١) كريمان المغربى . المرجع السابق . ص ٣٥٤.
- (١٣٢) عمر التلمسانى . المرجع السابق.
- (١٣٣) ع . أبو عزه . مقال فى مجلة الشهاب . العدد ٢١ (١٩٧٣).
- (١٣٤) كريمان المغربى . المرجع السابق . حوار مع أحمد عادل كامل . ص ٣٥٤ .
- (١٣٥) المرجع السابق . حوار مع صالح أبو رقيق . ص ٣٥٤.
- (١٣٦) حسن الهضيبي . دعاة لا قضاة . طبعة الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية (١٩٧٧) . ص ١٨.
- (١٣٧) ص ٤٣.
- (١٣٨) ص ٤٦.
- (١٣٩) ص ٤٦.
- (١٤٠) ص ٨٣.
- (١٤١) ص ٨٤.
- (١٤٢) ص ٩٦.
- (١٤٣) ص ٩٧.
- (١٤٤) ص ٧٨.
- (١٤٥) لواء فؤاد علام . الإخوان وأنا . القاهرة (١٩٩٦) ص ٢٢١ وص ٢٢٢.
- (١٤٦) الشعب . ١١ . ١٨ . ٢٥ نوفمبر ١٩٨٦ مقالات الدكتور يوسف القرضاوى . المرجع السابق.
- (١٤٧) تقرير فضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف السبكى . رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف حول كتاب "معالم فى الطريق" لسيد قطب.
- (١٤٨) لواء فؤاد علام . المرجع السابق: ١٢٧ ٢.
- (١٤٩) المرجع السابق: ص ١٢٧.
- (١٥٠) المرجع السابق: ص ١٧١.
- (١٥١) سيد قطب . معالم فى الطريق . ص ٥٤.
- (١٥٢) الأهرام . ٩ سبتمبر ١٩٦٥.
- (١٥٣) كريمان المغربى : المرجع السابق . حوار مع صالح أبو رقيق . ص ٣٨٩.
- (١٥٤) ملف القضية المتهم فيها سيد قطب وآخرون . المرجع السابق ج ١١ . ص ١٠٥١.

- (١٥٥) نقلا عن: عادل حمودة . المرجع السابق . ص ١٨٥ .
- (١٥٦) ملف قضية سيد قطب ص ٢٠٨ .
- (١٥٧) مكتبة المركز القومى للدراسات القضائية . المتحف القضائى . مكتبى الميكروفيلم . صور ميكروفيلمية لملف قضية سيد قطب نستكمل بها الملفات الخطية الناقصة فى حوزتنا، كادر ١٥٥٥ . ١٥٥٣ .
- (١٥٨) ملف القضية . المرجع السابق . اعترافات على عشاوى . ص ٢٠٨ .
- (١٥٩) أحمد عبد المجيد . الإخوان وعبد الناصر . القصة الكاملة لتنظيم ١٩٥٦ . القاهرة (١٩٩١) . ص ٤٩ .
- (١٦٠) ملف القضية . الميكروفيلم . كادر ١٣٣ . ٥ .
- (١٦١) المرجع السابق . كادر ١١٢ . ١١٠ .
- (١٦٢) الأهرام . ١٠ سبتمبر ١٩٦٥ .
- (١٦٣) الأهرام . ٩ سبتمبر ١٩٦٥ .
- (١٦٤) ملف القضية . تحقيقات النيابة . الميكروفيلم . كادر ١٨٠ . ١٣٢ .
- (١٦٥) الأهرام ٢٩ سبتمبر ١٩٦٥ .
- (١٦٦) ملف القضية . ج ٣ . ص ٢١٠ اعترافات على عشاوى .
- (١٦٧) المرجع السابق . ج ١١ . ص ١٠٤٠ .
- (١٦٨) عادل حمودة . المرجع السابق .
- (١٦٩) ملف القضية . المرجع السابق .
- (١٧٠) المرجع السابق: ص ١١٧٠ .
- (١٧١) لواء فؤاد علام . المرجع السابق . ص ١٦٩ .
- (١٧٢) الأهرام . ٧ سبتمبر ١٩٦٥ .
- (١٧٣) كاريمان المغربى . المرجع السابق . ص ٤١٠ .
- (١٧٤) سيد قطب . فى ظلال القرآن . المرجع السابق . ص ١٦٢ .
- (١٧٥) سيد قطب . معالم فى الطريق . ص ١٨٣ .

الخبر

وعادة ما تكمن بين المبتدأ والخبر جملة يسميها اللغويون جملة مفيدة. لكن كل ما سبق من كتابة عبر كل صفحات الكتاب ليس سوى "جملة اعتراضية" أى جملة تستهدف الإيضاح أو الاستكمال أو التعريف بمضمون الجملة المفيدة.

وليس فى الأمر أية محاولة للتلاعب بنغمات اللغة. فنحن كنا ولم نزل نعتقد أن كل مسار وفكر وممارسات جماعة الإخوان هى مجرد عباءة أنجبت لنا ولغيرنا عبر بلدان عديدة، هذا التيار الذى اصطلحنا على تسميته بالمتأسلم تعبيراً وتأكيداً على انفصاله عن صحيح الإسلام.

فجماعة الإخوان فكرًا وممارسة وتاريخًا ليست سوى البداية لهذا الفكر الذى قادنا إلى ما نحن فيه الآن.

والنظر المدقق لما هو متداول من أفكار وأفعال متأسلمة هنا أو هناك، وربما فى أى ركن من أركان هذا العالم يكتشف أنها مجرد امتداد للفكر "القطبى" (أى فكر الأستاذ سيد قطب)، فكما امتد الخط الإخوانى على استقامته على يدى سيد قطب ليواصل تقديم الثمار المريرة، فقد امتد الخط القطبى على استقامته . ربما على غير ما أراد صاحبه . ليتحول إلى ما عانينا، ونعانى منه الآن من ثمار أشد مرارة.

فقد استهوت صورة الأستاذ والمفكر والإمام الشهيد المعلقة فى مشنقة ظالمة . وقد كانت ظالمة فعلا لأنها لم تقدم لصاحبها محاكمة عادلة . استهوت الكثيرين من المتطرفين، كى يمعنوا فى تطرفهم معلقين آثامهم فى عنق رجل يعلم الله وحده مدى ما كان يمكنه أن يقبل من هذه الأفعال، ومدى ما كان يمكنه أن يتقبل من هذا الفكر المتأسلم.

وهكذا وفى أرجاء مختلفة من العالم تتحول الأفكار القطبية إلى نسيج ظلامى قد تختلف مكوناته أو تتباين أشكاله وتتعدد ألوانه لكنه يبقى ودومًا محتفظًا بذات النكهة الإخوانية أو إن شئنا الدقة يبقى نابغًا منها، متشربًا بذات المياه المريرة. وهكذا فإن هذا الكتاب بمجمله ليس سوى جملة اعتراضية فى مسار الكتابة الممتدة بحثًا ودراسة لأسباب نشوء ويواعث تفجر التيارات المتأسلمة.

فمن تحت العباءة الإخوانية خرجت أفاع عديدة، استطلت بمظلتها، ونمت فى أحضانها الفكرية، ثم امتدت بالتأسلم إلى أقصى مداها، وربما تخطت حدوده، بل وحتى تطاولت عليه فى بعض الأحيان نقدًا أو تقريرًا، لكنها ومهما فعلت أو قالت تظل تستنشق ذات الرحيق الإخوانى القديم، ومهما حاولت أن تتبدى وكأنها الأكثر تشددًا أو بالدقة الأكثر تأسلاً.

وهكذا.. ما كان كل ما سبق من كتابة سوى مقدمة أو تمهيد لكتابة قادمة . إن امتدت بنا الأيام . عن هذه الأفاعى التى خرجت أو تخرجت من العباءة الإخوانية، لتشكل الجيل الثانى ثم الجيل الثالث آتيا إلينا متشخًا بدعاوى متأسلمة وضعت لبناتها الأولى هناك فى المنبع الإخوانى.

وتتعدد الأسماء والمسميات، شباب محمد (الفنية العسكرية)، الجماعة المسلمة (التكفير والهجرة)، جند الله، الناجون من النار، الجماعة الإسلامية، جماعة الجهاد، حزب التحرير الإسلامى، الوعد... إلخ.

ولا نملك إلا محاولة ملاحقتها جميعا باحثين ومدققين قدر طاقتنا فى الكتابات والكتابات المضادة والممارسات والممارسات المضادة.

.. وما من هدف من كل ذلك سوى أن نعيد الأحداث إلى أصولها ومنابعها . وأن نتمثل الفارق المتسع بين الإسلام وبين التأسلم.

فبهذا، وبهذا وحده يمكن فى اعتقادنا أن نتفهم معطيات هذا التيار ومواقفه ومنابعه كى نستطيع أن نصرخ وبأعلى صوتنا داعين الجميع لقول يفصل بين صحيح الإسلام وخاطئ التأسلم. مستعدين الحكمة القديمة "أنت لن تستطيع

الانتصار على خصم لم تتعرف بعد على ما فى داخل قلعة".
وما هذا كله إلا مجرد محاولة. لعلها تكون دعوة للأجدر والأكثر قدرة ومعرفة
وهم كثيرون أن يواصلوا العمل فى ساحتها حسب لوجه الإسلام الذى نريده ناصعا
كما هو، خاليا من بثور التأسلم التى ليست سوى عوارض طارئة لا تنتمى إلى
جوهره، بل تتعكس معه.
أو هذا ما نعتقد.

حسن البناء.. مسلحاً

الجزء الثاني

حسن البنا .. مسلحاً

أقوال هادية

- يحمل هذا العلم من كل خلف عدول ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

(حديث شريف)

- إذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك أنت، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا.

من وصية الرسول (ﷺ) إلى بريدة.

- الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن.

(حديث شريف)

- والله لا أقاتل حتى تأتونى بسيف له عنان وشفتان فيقول هذا مؤمن وهذا كافر.

(سعد بن أبي وقاص)

- ويل لمن لا يعرف قلعة خصمه من الداخل.

حكمة إغريقية

- إن الاغتيال باسم السماء كان وسيظل دوما لعبة من ألعاب السياسة.

فولتير

- إذا عطس حسن البنا في القاهرة، قال له أتباعه في أسوان يرحمكم الله يا مولانا.

العلامة أبو الحسن الندوى

- من أفتى الناس بمجرد النقل من الكتب متجاهلا اختلاف الناس في أعرافهم وعوائدهم وأزمئتهم وأحوالهم فقد ضل وأضل وكانت جنايته على الدين.

الإمام ابن القيم

- الإخوان لا يعتذرون.

الأستاذ مهدي عاكف

مرشد الإخوان السابق

ماذا؟

نكاد نتفق جميعاً على أن التعرف على حقيقة وحاضر ومستقبل جماعة ما يتطلب بالضرورة إلقاء نظرة على عمق البئر التى نبعت منها. ومن ثم كانت دراسة تاريخ الجماعات السياسية مقدمة ضرورية لأى فحص علمى لمقولاتها الحاضرة ولمستقبلها.

ويكون لازماً أيضاً التعرف على مدى قدرة هذه الجماعة على تجديد نفسها.. أقول نفسها أى ذاتها وليس مجرد التظاهر بمظهر جديد أو اتخاذ زى جديد. وهو تجديد يعنى النظر الانتقادى إلى مفردات تاريخ الجيل القديم من مؤسسى الجماعة وإلى ممارسات الجماعة ومناهجها وأفكارها.

هذا كله يتبدى ضرورى لدى النظر العلمى لحاضر ومستقبل أية جماعة سياسية. لكن هذه الضرورة تتضاعف إذ نحاول دراسة جماعة الإخوان المسلمين. فلأنها تقوم على أساس فرضية خاطئة، وهى أنها "جماعة المسلمين" وليست مجرد "جماعة من المسلمين"، ولأنها فى نظر أصحابها "جماعة الحق" .. "أهل الحل والعقد" ولأنها تقدس مؤسسها الأستاذ حسن البنا، تقدسه سيرة وأفعالا، وتعتبره بل وتعتبر نفسها كجماعة.. "معصومة". فإن كل ما كان من ماضيها هو فى رأيها صحيح، ويجب أن يستعاد كما كان.

فالجماعة لا تخطئ، وحتى عندما تكون أفعالهم الطائشة سبباً فى كارثة على مجمل الجماعة، فإن هذه الأفعال تبقى لازمة، فقط يتعين "الأخذ بالأسباب". أما النتائج المريرة التى ترتبت على هذه الأفعال فهى مجرد "ابتلاء" و"امتحان" لإيمانهم.

والأخذ بالأسباب يعنى عندهم مجرد توخى الحذر، لكن تكرار ما كان فى الماضى يبقى بالنسبة للجماعة أملاً وحلماً وأمنية.

ويبقى الأستاذ حسن البنا بالنسبة لأجيال الإخوان المتتابة شيئاً مقدساً، وتلتف حول اسمه هالات من المسميات "المرشد المؤسس" "الرجل النورانى" "القائد الإسلامى" "الإمام الشهيد" "الرجل القرآنى" "داعية الحق" .. إلخ.

وقد يكون من حق "الإخوان" أن يحترموا مؤسس جماعتهم فهذا حقهم وربما يكون واجبهم، لكن الاحترام الحقيقى لا يمنع فى اعتقادنا من إمعان النظر الانتقادى فى تراث الشيخ فكراً وممارسة.

غير أنهم ومن حيث المبدأ لا يعتقدون أن مرشدهم المؤسس قد أخطأ فى أى شىء، لسبب بسيط وهو أن نورانيته تقيه من أن يخطئ فى أى شىء. ولهذا السبب فإنهم يعيشون فى وهم استعادة الماضى وتكراره، وليس تصويبه. وإن حاولوا "التقية" فإنهم يحاولون التلوى بثياب قد تبدو جديدة لكنها تبقى ويبقون هم فى إفسار الماضى. وماضيهم فى اعتقادنا ملئ بالأخطاء.

ولهذا فإنهم يعودون دوماً لارتكاب ذات الأخطاء، أو حتى ذات الخطايا، يفعلونها وهم يستشعرون زهو استعادة الماضى الذهبى، وزهو التماثل مع المرشد المؤسس.

وكمثال قريب نجد أن الجماعة بزعامتها الجديدة تعود لتتركب ذات الأخطاء القديمة، وإن وضعتها فى آنية جديدة، فكما مد المرشد المؤسس أصابعه لتتلامس مع الإنجليز، وأحياناً مع الألمان يأتى المرشد العام الحالى ليمد كلتا يديه للأمريكيين محاولاً أن يستقوى بهم.

إنه ذات الخطأ، بل ذات الخطيئة، أن تمد يديك لأعداء الوطن، وأعداء الأمة، ومتى...؟ فى وقت تمارس فيه الإدارة الأمريكية كل أشكال الضغوط والعدوان، بل والامتهان لشعبنا وأوطاننا.

إنها ذات اللعبة القديمة التى تصور الأستاذ المرشد الأول أنه يتقنها، لعبة

اللعب بأوراق عدة ومتناقضة ليتلاعب بالجميع مستفيدا من الجميع، لكن الحصاد كان مريرا. فإذا تصور الأستاذ البنا أنه يتلاعب بالجميع، اكتشف وفي اللحظة الحاسمة أن الجميع يتلاعبون به. وكانت محنة قاسية له وللجماعة، انتهت باغتياله برصاصات تخيل هو لوقت طويل أنها رصاصات صديقه، وأنه قادر على أن يوجهها ضد خصومه.

وبرغم مرارة الدرس تعود الجماعة لتركب ذات الخطأ. وليس في الأمر غموض، فطالما ظلت "الجماعة" مصممة على عدم النظر الانتقادي لتاريخها، وخاصة لأخطائها الكبيرة والفادحة، ستظل ساحتها وأفكارها وممارساتها قابلة لأن تحتضن وأن تعزز ذات الأخطاء.

فالتبجيل، أو لنقل التقديس المبالغ فيه الذى يتعلق به أعضاء جماعة الإخوان لذكرى شيخهم، يجعل كل ما فعله مقدساً وصائباً فى نظر الأجيال المتعاقبة من عضوية الجماعة. ولأن الشيخ البنا قد ارتكب - فى اعتقادنا - أخطاء كثيرة عبر مسيرته السياسية الممتدة من ٢٨ إلى ١٩٤٩ - وهذا أمر طبيعى وإنسانى، فمن قال إنه معصوم؟ - فإن مثل هذه الأخطاء، بل وأفدح منها مؤهلة للتكرار.

ومن هنا تأتى قيمة هذه الدراسة فلعلها تمنحنا القدرة ونحن نعود إلى مسيرة المرشد الأول لأن نتعرف على عمق البئر التى يروى منها الإخوان الحاليون أخطاءهم، لعلهم يقنعون أنفسهم بضرورة مراجعة ما كان. فهم مصممون وبرغم كل ما كان، على اعتبار أن ما كان فى الماضى وكأنه تراث مقدس.

هكذا تبدو صورة "الإمام المرشد" مكتملة الأبعاد التاريخية، ويزداد إغراؤها للباحث لأنها تقدم لنا "الأصل" الذى يحاول الآتون بعده تكراره، دون أن يمتلكوا ذات الكفاءة أو ذات "الكاريزما".

ذات يوم سألتنى صحفى: متى يخون السياسى فكرته؟ وقلت: "يخونها عندما

يقدها، فالأفكار نبت إنسانى ولأنه إنسانى لا يمكن أن يكون مطلق الصحة".
كان هذا فى الماضى ويكون فى الحاضر وسيكون فى المستقبل. وقد حرص
أئمة المسلمين وفقهاؤهم على تأكيد ذلك.

- الإمام الشافعى قال: رأينا صواب يحتل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتل الصواب.
- الإمام أبو حنيفة قال: رأينا هذا هو أفضل ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأفضل
منه قبلناه.

- الإمام مالك قال: كل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد، ما عدا صاحب هذا القبر.
وأشار إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.

ونقارن ذلك بمقولة للأستاذ حسن البنا، إذ تحدث عن منهج جماعة الإخوان
فقال: "على كل مسلم أن يعتقد أن هذا المنهج كله من الإسلام، وأن كل نقص منه
نقص من الفكرة الإسلامية الصحيحة"^(١).

ونتأمل المفردات المطلقة "كل مسلم" "كله من الإسلام" "كل نقص منه".
ونتأمل المعنى والمغزى فالأستاذ البنا يرى أن برنامج جماعته كله من الإسلام،
فإن رأى إنساناً، أو تجاسر أن يزعم، بأن ثمة خطأ فى هذا البرنامج فإنه يعنى أن
الإسلام خطأ. وإن تجاسر بالقول بأن فيه نقصاً فإن ذلك يعنى نقص الفكرة
الإسلامية الصحيحة.

وكل تلاميذ الأستاذ البنا يفعلونها، فالأستاذ صالح عشاوى يقول "إن أى
اضطهاد للإخوان هو اضطهاد للدين ذاته"^(٢).

كذلك فعلها الأستاذ "عبد القادر عودة" إذ ألقت الحكومة القبض على عدد من
الإخوان فى عام ١٩٥٤ فوقف صائحا فى إحدى المظاهرات "الإسلام سجين".
والأمر ليس مجرد حماس لفظى، ولو كان كذلك لهان الأمر ولما أعرناه
اهتماماً. ذلك أن الجماعة ظلت على الدوام ولم تنزل مصممة على الخلط بين
"الدين المطلق الصحة وبين اجتهداها هى وهو اجتهد إنسانى ومن ثم فهو نسبى
الصحة".

وإذ تعتبر الجماعة أن منهاجها هو الدين ذاته فإن كل من يرى فيه عيباً يكون معادياً للإسلام ذاته، وكل من ينتقده يكون منتقداً للإسلام ذاته. ثم يكون ما يترتب على ذلك من مفردات ومن اتهامات.

وينسون أو يتناسون قول على بن أبى طالب: "القرآن لا ينطق وهو مكتوب، وإنما ينطق به البشر، وهو حمال أوجه".

فللقرآن عندهم فهم واحد، ووجه واحد.. هو ما يقولون هم به، وعلى الجميع الخضوع لما يقولون.. وإلا تم إخضاعهم.

وللإخوان تقاليد قديمة فى إخضاع المخالف، وهى تقاليد تبدأ باتهامه بالمروق والإلحاد وتنتهى باستخدام القوة.

والأمر لا خفاء فيه.. فهكذا كان دوماً.

وعندما أصدرت الجماعة مجلة النذير (١٣٥٨هـ - ٣٦ - ١٩٣٧م) حرص الشيخ "عبد الرحمن الساعاتى" والد المرشد العام الأستاذ حسن البنا على كتابة افتتاحية صاعقة قال فيها: "استعدوا يا جنود، وليأخذ كل منكم أهبتة، ويعد سلاحه، ولا يلتفت منكم أحد، وامضوا إلى حيث تؤمرون"، ثم: "خذوا هذه الأمة برفق فما أحوجها إلى العناية والتدليل، وصفوا لها الدواء فكم على ضفاف النيل من قلب مريض وجسم عليل، واعكفوا على إعدادة فى صيدليتيكم، ولتقم على إعطائه فرقة الإنقاذ منكم، فإذا الأمة أبت فأوثقوا يديها بالقيود وأثقلوا ظهرها بالحديد، وجرعوها الدواء بالقوة، وإن وجدتم فى جسمها عضواً خبيثاً فاقطعوه، أو سرطاناً خطيراً فأزيلوه".

"استعدوا يا جنود فكثير من أبناء هذا الشعب فى آذانهم وقر وفى عيونهم عمى" (٣).

هل تحتاج هذه العبارة إلى تفسير؟

- خذوا هذه الأمة برفق فما أحوجها إلى التدليل.

- صفوا لها الدواء - أعدوه فى صيدليتيكم - تعطيه فرقة الإنقاذ منكم، أى هم وحدهم يصفون الدواء ويصنعونه ويجرعونه للأمة.

فإن الأمة أبت؟، لا شئ سوى العنف.

وهكذا نرى أن الخلط بين الدين والرأى الإنسانى فى أمور الدين هو أمر مخيف لأنه الخطوة الأولى فى طريق العنف والإرهاب.

وهو جوهر الاستعلاء بأفكارهم وممارساتهم واعتبارهم المصدر الوحيد للصحة المطلقة.

ولأن أفكارهم هى وحدها. كانت، وتكون، وستكون صحيح الإسلام فإنها دوما صحيحة. ولا يمكن مراجعتها. بل ويتعين استعادتها.

وهذا ما يجعل كتابتنا عن الأستاذ حسن البنا أمراً ضرورياً لأنها تقدم مرآة للماضى والحاضر معاً، بل والمستقبل أيضاً.

إذا قرأنا فى وثيقة إخوانية كانت ضمن مضبوطات قضية سيارة الجيب، وهى مضبوطات تخص الجهاز السرى للجماعة، وهو بالمناسبة الجهاز الحاكم فى الجماعة والذى أفرز لها أكثر من مرشد عام (الأستاذ مصطفى مشهور والأستاذ مهدى عاكف)، وإذا قرأنا عبارات أذهلت وكيل النائب العام المحقق فى القضية المستشار عصام حسونة (وزير العدل فيما بعد) إذ تحدثت بصراحة مستندة إلى سرية الجهاز وسرية الوثيقة لنقول: "إن القتل الذى يعتبر جريمة فى الأحوال العادية، يفقد صفته هذه ويصبح فرضاً واجباً على الإنسان، إذا استعمل كوسيلة لتأييد الدعوة، وإن من يناوى الجماعة أو يحاول إخفات صوتها مهدر دمه وقاتله مثاب على ما فعله"^(٤).

إلى كل هذا التراث الفكرى يستند الأستاذ مهدى عاكف المرشد العام السابق إذ يصرح لمجلة المصور فى كبرياء لا يعرفه الإسلام "الإخوان لا يعتذرون". وهى تساوى "أن الإخوان لا يخطئون" و"الإخوان معصومون" وما هذا بصحيح ولو بأقل قدر.

وإذا كان الأمر متعلقاً بهم وحدهم فهذا شأنهم. لكنه متعلق بالرؤية الصحيحة للإسلام، ومتعلق بالوطن وأمنه واستقراره.

لأنهم إذ يرفضون أية رؤية نقدية لماضيهم، فإنهم وفي نفس الوقت يمجّدون ذلك الماضي ويسعون لاستعادته.

وتكون استعادته وبالا على الوطن كله.

وحتى في موضوع "الجهاز السري الإرهابي" الذي شكله الأستاذ البنا وهو في أوج تقربه من الملك فاروق ونظامه.. فإنهم يكررون دون ملل أنه إنما أنشئ للمحاربة في فلسطين. وطبعاً لا يمكن لأحد منهم أن يجيبك هل لم يزل هذا الجهاز موجوداً حتى الآن أم لا؟.

وقد ظل الأستاذ البنا، وكذلك أتباعه حتى اليوم - يبررون وجود الجهاز السري المسلح بالاستعداد للحرب في فلسطين، لكن الأستاذ أحمد عادل كمال وهو واحد من قادة ومؤسسي الجهاز السري يكشف لنا في مذكراته عن حقيقة هذا الأمر، وكيف أن موضوع فلسطين كان مجرد غطاء يتخفى خلفه هذا النشاط الإرهابي.

فهو يروى قصة القبض على مجموعة من أعضاء الجهاز السري في جبل المقطم خلال قيامهم بالتدريب على استعمال الأسلحة.. "وكان الترتيب أن يكون هناك بصفة دائمة وفي مكان مرتفع من يراقب المجال بمنظار مكبر، وكانت هناك حفر معدة ليوضع بها كل السلاح والذخيرة ويرد عليها لدى أول إشارة من الأخ الذي يتولى المراقبة وبهذا تبقى المجموعة في حالة معسكر عادي وليس معها ممنوعات، واستمر ذهاب المجموعات وعودتها بمعدل مرتين كل يوم ولمدة طويلة، ولكن حدث في ١٩ يناير ١٩٤٨ أن أغفل الأخ المكلف بالمراقبة أداء واجبه ففاجأ البوليس هذه المجموعة بسلاحها وقنابلها. وحتى حالة كهذه كان هناك إعداد لمواجهة فقد أجاب إخواننا المقبوض عليهم بأنهم متطوعون لقضية فلسطين، وهي إجابة كان متفق عليها مسبقاً" (أي إنهم لم يكونوا يتدربون لحساب القضية الفلسطينية فلو كان كذلك لما احتاج الأمر إلى اتفاق مسبق على هذه الإجابة).

ثم تكتمل أدوات الخديعة إذ يقول: "وفي نفس الوقت كانت هناك استمارات

تحرر بأسمائهم فى مركز التطوع للقضية الفلسطينية؛ (أى إنهم لم يكونوا متطوعين فعلاً).

ثم.. "كما تم الاتصال بالحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين وشرحنا له الأمر على حقيقته وكان متجاوباً معنا تماماً فأقر فى التحقيق بأن المقبوض عليهم متطوعون من أجل القضية الفلسطينية، وأن السلاح سلاح الهيئة العربية العليا، وبذلك أفرج عن الإخوان، وسلم السلاح إلى الهيئة العربية العليا"^(٥).

والحقيقة أن الأستاذ حسن البنا قد أتقن فن إقامة واجهات بريئة تختفى خلفها مكامن للإرهاب.. ونقرأ للأستاذ محمود الصباغ: "ولم يقتصر تفكير النظام الخاص على التدريب على الأسلحة والقنابل التقليدية، بل فكر فى صناعة المتفجرات التى لا تتوافر فى الأسواق مثل قطن البارود، وقد تم إنتاجه بنجاح، وكذلك ساعات التوقيت التى تحدد وقت انفجار العبوة الزمنية، فقد تم تطوير الساعات العادية إلى ساعات زمنية لتفجير العبوات"^(٦).

ولكن كيف وأين تمت صناعة قطن البارود؟

يقول الصباغ: "لقد اتجه تفكيرنا إلى إنتاج قطن البارود على نطاق واسع، وكان لا بد لذلك من مكبس هيدروليكى كبير من نفس الحجم المستخدم فى صناعة البلاط، ومن ثم اتجه تفكيرنا إلى إنشاء مصنع بلاط على أساس تجارى يضمن له صفة الاستمرار، وفى نفس الوقت يستخدم مكبسه فى إنتاج قوالب قطن البارود بالكميات التى تحتاج إليها العمليات. وقد قمت شخصياً بشراء المكبس الهيدروليكى من السوق، وتم إنشاء المصنع فى ميدان السكاكينى بالقاهرة بصفته أحد مصانع شركة المعاملات الإسلامية. وتعين كل عماله من أعضاء النظام الخاص، وأخذ فعلاً فى إنتاج أجود أنواع البلاط، وأقوى أنواع قوالب قطن البارود"^(٧).

ترى.. خلف أية واجهات بريئة يتخفى الآن الخطر الكامن فى هذه الجماعة؟

وعلى أى حال.. فإنك إذا شددت عليهم النكير حول ما ارتكبته الجماعة من إرهاب..

فإنهم يبادرون بالقول إن فضيلة المرشد المرحوم حسن البنا قد استنكر الأعمال الإرهابية، ثم يعودون إلى القول إنهم لم يرتكبوا أى عمل عنيف منذ عام ١٩٦٥.

ولنحاول فحص هاتين المقولتين ببعض من أمثلة مذكرين وملحين أنها مجرد أمثلة.

ولنبداً بحادث اغتيال المستشار أحمد الخازندار.. فالجميع الذين تحدثوا عن هذه الواقعة قالوا إن فضيلة المرشد بكى من فرط حزنه على اغتيال المستشار، كما أنه أدلى بأكثر من تصريح يستنكر قتل القاضى.

لكن تلميحات فى مذكرات الإخوان من أعضاء الجهاز السرى تشير إلى أن غضب الأستاذ البنا كان نابعاً من أن عبد الرحمن السندى قائد هذا الجهاز قد أعطى أمر القتل دون إذن من فضيلة المرشد.

وعليه تشكلت محكمة إخوانية لمحاكمة السندى، ويروى لنا وقائع المحاكمة واحد من قادة الجهاز السرى، وكان ضمن أعضاء المحكمة الإخوانية، وهو الأستاذ محمود الصباغ.. ونقرأ ما يثير الدهشة، وما هو أكثر من الدهشة:

"قال عبد الرحمن السندى إنه تصور أن عملية القتل سوف ترضى فضيلة المرشد، ولأن فضيلة المرشد يعلم عن السندى الصدق فقد أجهش بالبكاء" وعلى أى حال فإن هذه المحاكمة الهزلية قد انتهت بحكم هزلى هو أيضاً فقد جاء فيه نصاً: "تحقق الإخوان من أن الأخ عبد الرحمن السندى قد وقع فى فهم خاطئ وفى ممارسة غير مسبوقة من أعمال الإخوان، ورأوا أن يعتبر الحادث قتل خطأ، حيث لم يقصد عبد الرحمن ولا أحد من إخوانه سفك نفس بغير نفس، وإنما قصدوا قتل روح التبلد الوطنى فى بعض أفراد الطبقة المثقفة من شعب مصر أمثال الخازندار، ولما كان هؤلاء الإخوان قد ارتكبوا هذا الخطأ فى ظل انتمائهم إلى الإخوان المسلمين وبسببه، إذ لولا هذه الانتماء لما اجتمعوا على الإطلاق ليفكروا فى مثل هذا العمل أو غيره، فقد حق على الجماعة دفع الدية التى شرعها الإسلام كعقوبة على القتل الخطأ".

ثم يمضى الحكم إلى ما هو أكثر هزلاً: "وأن تعمل الهيئة كجماعة على إنقاذ حياة المتهمين البريئين (!) من حبل المشنقة بكل ما أوتيت من قوة، فدماء الإخوان ليست هدرا يمكن أن يفرط فيها أعضاء الجماعة فى غير فريضة واجبة يفرضها الإسلام". ثم وبعد ذلك: "ولما كانت جماعة الإخوان المسلمين جزءا من الشعب، وكانت الحكومة قد دفعت بالفعل ما يعادل الدية إلى ورثة المرحوم الخازندار بك حيث دفعت لهم من مال الشعب عشرة آلاف جنيه، فإن من الحق أن نقرر أن الدية قد دفعتها الدولة عن الجماعة وبقي على الإخوان إنقاذ حياة الضحيتين (!) محمود زينهم وحسن عبد الحافظ"^(٨).

فإذا أردنا مثالا آخر.. نأتى إلى محاولة نسف محكمة استئناف مصر كسبيل للتدمير أحرار قضية سيارة الجيب بكل ما فيها من وثائق تدين الجماعة. فعلى أثر هذه المحاولة الفاشلة أصدر الأستاذ حسن البنا بياناً هاجم فيه مرتكبى الحادث هجوماً عنيفاً توجه بقوله إنهم "ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين" وأمام حدة الهجوم صدق البعض أقوال المرشد.

لكن الأستاذ صلاح شادى وكان رئيس قسم الوحدات (وهو جهاز سرى آخر يضم أعضاء الجماعة من رجال الجيش والبوليس) يسوق لنا فى مذكراته وبنعومة شديدة ما يوحى بأن الأستاذ البنا كان هو الأمر بهذه الجريمة، فيقول:

"أبلغنى الأخ عبد الحليم محمد أحمد أنه كان من ضمن الأشخاص المكلفين بعملية نسف محكمة الاستئناف. وأن المرحوم سيد فايز هو الذى أمرهم بنفسه بتنفيذها. ومن جهتى فإننى أثق تماماً فى صحة أقوال الأخ عبد الحليم محمد أحمد التى أكدها أيضاً شفيق عمق احترام سيد فايز لأوامر المرشد، كما أثق تماماً فى أنس الذى قام بمحاولة النسف وهذه شهادة مسلمين عدلين"^(٩).

وباختصار.. فإن الأستاذ صلاح شادى يحاول وبأسلوب رقيق ومغلف أن يتهم مرشده وإمامه بأنه الأمر بمحاولة إرهابية، ثم عاد فوصف مرتكبيها بأنهم ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين.

أما الحجة الأخرى وهي أن الجماعة لم ترتكب عملاً إرهابياً منذ عام ١٩٦٥ فهي مجرد محاولة للطعن بالتقادم. والتقادم معروف في القانون الوضعي الذي سنرى أن الإخوان يرفضونه أو شيءنا الدقة يعلنون التزامهم به على مضض ومن قبيل أن "الضرورات تبيح المحظورات".

لكن الإسلام إذ يتطلب التوبة من الذنوب فإنه لا يخضعها للتقادم إذ إن مرتكب الخطيئة ما لم يتب توبة نصوحاً سيظل إثمه معلقاً في عنقه حتى يحاسب عليه يوم القيامة.

والحقيقة إن التوبة في الإسلام ليست مجرد توبة باطنية، فإن الخطأ إذا ما وقع علنا ودعا صاحبه الناس إلى أن يحذوا حذوه، فإن التوبة الحقيقية تتطلب العلانية كي يرتفع عن الآثم إثم من اتبعوه إذ صدقوه وفعلوا فعلته. لكن ما حيلتنا.. "الإخوان لا يخطئون" ولهذا "فهم لا يعتذرون".

وقد أتقن الأستاذ البنا فنون المناورة بين القوى السياسية المختلفة، أو بالدقة تصور أنه أتقنها.

وكانت خطته في ذلك ثابتة لا تتغير، فما إن يشعر بأن أحد أركان النظام يعاني من ضغوط شعبية حتى يتقرب منه زاعماً أنه سيقدم له غطاء إسلامياً وجماهيرياً. ومن هذه العلاقات غير المتوازنة استطاع البنا أن يحقق الكثير لجماعته.

ففي مطلع الثلاثينيات كان الملك فؤاد يعاني من غضب شعبي عارم لاعتماده على حكومات الأقلية واعتدائه على دستور ١٩٢٣، وخضوعه المهين للاحتلال وتقدم البنا ليمنح الملك المكروه شعبياً مبايعته وتأييده.

وسوف تشهد صفحات هذه الدراسة كيف قدم حسن البنا ورجاله كل التأييد والدعم للملك فاروق، وكيف شكلوا له سياجاً يحميه من جماهيرية حزب الوفد الذي كان يعارض تنامي سلطة القصر على حساب ما يقرره الدستور.. لكننا في هذه

المقدمة سنحاول فقط أن نكشف الغطاء عن حقيقة هذا التأييد خاصة أن جميع الباحثين بمن فيهم المؤرخون المعتمدون من جماعة الإخوان قد أكدوا أنه خلال فترة "شهر العسل" هذه بين البنا والقصر انتهز البنا الفرصة ليتخذ من هذه العلاقة غطاءً يخفى خلفه عملية تأسيس الجهاز السرى المسلح.. والذي حاول أن يستخدمه فيما بعد لتقويض النظام الملكى الذى تظاهر بأنه يحميه.

ويحاول الأستاذ صلاح شادى أن يفسر لنا أسباب اقتراب الأستاذ البنا من الملك فاروق، وسعيه لمقابلة الملك عام ١٩٤٥، أى فى زمن كان الشعب المصرى يشن هجوماً ضارياً على الملك ووطنه ويعتبره رمزاً للفساد والإفساد فيقول: "لقد كانت فطنته تهديه دائماً لتجنب العثار فى هذه المسيرة المليئة بالأشواك من كل جانب، وكان يعتقد أن مسئولية الداعية نحو الناس لا تنقطع إلا بانقطاع وسائل التبليغ"، ومن ثم فقد كان "يعمل فى كل وقت على التأثير على الملك حتى يحمله على انتهاج سياسة إسلامية تتسق مع دعوته، وكان يظن أن لقاءه معه سيحقق له هذا الأمل".

إلى هنا والأمر لا يعدو أن يكون اجتهداً سياسياً، قد يكون خاطئاً لكنه اجتهد على أية حال. لكن الأستاذ صلاح شادى لا يلبث أن يكشف الغطاء عن مراوغة واضحة فيقول: "إن حسن البنا لم يحمل ولاءً للملك ولا للنظم القائمة"^(١).

ونعود فنراجع كل أساليب التملق التى ساقها حسن البنا تقرباً إلى الملك وحاشيته، ثم نفسرها بهذه العبارة.

فحسن البنا الذى أمر الآلاف من أتباعه كى يحتشدوا فى ساحة قصر عابدين هاتفين "الله مع الملك" ومعلنين له "تهبك بيعتنا" لم يكن فى نظر أحد المقربين منه "يحمل ولاءً للملك ولا للنظم القائمة".

وعندما كان الطاغية إسماعيل صدقى يجهد نفسه فى محاولة ضرب الحركة الوطنية المصرية وفيما كانت الجماهير تغلى غضباً منه ومن جرائمه.. أعلن حسن البنا تأييده لصدقى ونال مقابل ذلك الكثير.

وعن هذه العلاقة الخاصة بين الأستاذ البنا وبين الطاغية إسماعيل صدقي يحاول صلاح شادى أن يجد مبرراً لما لا يمكن تبريره "ومهما قيل حول التصريح لجريدة الإخوان بالظهور، أو شراء أوراق طباعتها بالسعر الرسمي، أو استعمال جولة الجماعة للمعسكرات الحكومية، فلا يمكن أن يجرى ذلك بدافع شراء موقف الإخوان إزاء سياسة الحكومة، حتى إذا قصدت الحكومة ذلك، لأن كل ما قدمته للإخوان لا يزيد شيئاً على الحق الطبيعي للجماعة"^(١١).

لكن السؤال الذى يبقى معلقاً دون إجابة: إذا كان هذا هو الحق الطبيعي فلماذا أعطاه إسماعيل صدقي للأستاذ البنا وحده؟ ولماذا كانت جريدته هى الاستثناء الوحيد فى الحصول على ورق صحف بالسعر الرسمي بينما الصحف الأخرى كانت تشتريه بأكثر من خمسة أضعاف هذا السعر؟

وهذا مجرد امتياز واحد من الامتيازات التى منحها صدقي للأستاذ البنا.

لكن من اعتاد على المناورة، ومن اعتمد عليها، يبقى مغرماً بها.

فبعد شهر عسل لم يدم طويلاً بين البنا وإسماعيل صدقي، وقع الخلاف، وقرر البنا تخويف صدقي وإشعاره بقوة الإخوان؛ فقرر القيام بعدة عمليات إرهابية، وكلف الجهاز السرى بذلك ويروى الأستاذ محمود الصباغ وكان واحداً من قادة الجهاز السرى فى تفاخر مثير للدهشة تفاصيل ما قاموا به:

"قمنا بتفجير قنابل فى جميع أقسام البوليس فى القاهرة فى يوم واحد هو ٣٠-١٢-١٩٤٦ حيث فجرنا أقسام الموسيقى والجمالية والأركية ومصر القديمة وعابدين ونقطة السلخانة ومركز إمبابية".

ثم تمتد عملية التخويف إلى حلفاء إسماعيل صدقي فى الحكم "وعمد النظام الخاص إلى إرهاب الحزبين اللذين منحا صدقي باشا الأغلبية البرلمانية، فألقى قنبلة حارقة على سيارة محمد حسين هيكى باشا وقام بذلك الإخوان أحمد البساطى ومحمد مالك، وكان تقرر إلقاء قنبلة على سيارة النقراشى باشا ولكن لم يتم التعرف على السيارة"^(١٢).

وهكذا ناور حسن البنا - أو خيل إليه - بين الجميع، وكسب من الجميع لكنه وفى نهاية الأمر وعندما كانت محنة الشيخ ومحنة الجماعة اكتشف وإن كان متأخراً جداً.. أنه إذ تصور أنه يتلاعب بالجميع كان الجميع يتلاعبون به. والغريب أن تابعيه وتابعى تابعيه حتى الجيل الحالى من الإخوان لا يملون من تكرار هذه اللعبة غير المبدئية، التى أثبتت دوماً أنها لعبة خاسرة.

والحقيقة أن "الإسلام" الذى دعا الأستاذ حسن البنا رجاله إليه هو إلام من نوع خاص جداً.

إسلام لا يستند إلى الدراسة والمعرفة، ولا حتى إلى حفظ القرآن الكريم، ولا محاولة تفهم التعاليم والأوامر والنواهي: وإنما إلى مجرد قشور تكون مجرد المبرر للطاعة العمياء "فى المنشط والمكره".

وحجتنا فيما نقول هو مسلك الأستاذ البنا ورجاله إزاء مسألة التعمق فى دراسة الفقه الإسلامى.

الأستاذ محمود عبد الحليم فى كتابه "الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ - رؤية من الداخل"، وهو المرجع التاريخى المعتمد من جانب الجماعة (لأن المؤلف واحد من أوائل المؤسسين للجماعة ومن أقرب المقربين من الأستاذ البنا)، يقول: "كان الكثيرون من أصدقائه (حسن البنا)، ومن عارفى فضله من العلماء يحثونه على تأليف كتب فى التفسير وفى مختلف فنون الإسلام، ويلحون عليه فى ذلك حرصاً منهم على تزويد المكتبة الإسلامية بنظرات عميقة وأفكار غير مسبوقة، ولكنه كان يقول: دعونى من تأليف الكتب، فالمكتبة الإسلامية متخمة بالمؤلفات فى جميع العلوم والفنون، ومع هذا فإنها لم تغد المسلمين شيئاً (!) حين قعدت همهم وثبطت عزائمهم وركنوا إلى الدعة والخمول. والوقت الذى أضيعه (لاحظ أضيعه) فى تأليف كتاب، أستغله فى تأليف مئة شاب مسلم يضير كل منهم كتاباً حياً ناطقاً عاملاً مؤثراً. أرمى به بلداً (لاحظ أرمى) من البلاد فيؤلفها

كما ألف هو^(١٣).

ونحاول أن نتأمل هذه العبارات فهي كاشفة فالأستاذ البنا كان يقيم حزباً سياسياً مجرد حزب سياسى "يرمى" به البلاد، وما الإسلام إلا قشرة جاذبة. ويعود الأستاذ محمود عبد الحليم ليؤكد رؤية الأستاذ البنا قائلاً: "إن الإسلام شقان: أحدهما للمعلومات (!) والآخر للتنفيذ والتطبيق. ولم يشغل الشق الأول بكل ما فيه من حياة الرسول (ﷺ) وحياة الرعيل الأول معه إلا جزءاً من ألف جزء شغلها الشق الأخير"^(١٤).

ولعلها المرة الأولى التى نشهد فيها هذه الاستهانة بدراسة التعاليم والفقہ الإسلامى والذى أسماه سيادته "المعلومات" .. كما أنه لم يفسر لنا كيف سيكون التنفيذ بدون "معلومات". ثم يؤكد: "وما كان الصحابة رضوان الله عليهم، على علو قدرهم، يعرفون من الأحكام الفرعية فى الدين عُشر ما يعرفه الآن طلاب المراحل الأولى من الدراسة الأزهرية، ولكن حياتهم مع ذلك كانت ممارسة عملية لما تعلموه من المعلومات الأساسية القليلة من أحكام الدين، فكانوا يتحركون للدين ويسكنون للدين، ويفرحون للدين ويغضبون للدين"^(١٥)، ويمضى قائلاً: "فالإسلام ممارسة وعلم وصبر وجهاد قبل أن يكون معلومات يتعمق فى دراستها، ويتبحر فى الخوض فيها"^(١٦).

تحديداً هذا نوع "الأخ المسلم" الذى أراده الأستاذ حسن البنا..

أقل قدر من "المعلومات" عن الدين، ثم ممارسة عملية..

لكن الممارسة لا بد لها أن تستند إلى مرجعية.. والمرجعية هى "الطاعة" للمرشد فى المنشط والمكره. ولكى تكون الطاعة ممكنة فإنها تغطى بقشرة إسلامية، أو ما يسمونها "المعلومات الأساسية القليلة من أحكام الدين" ثم يكفيه بعد ذلك أن يتحرك، وبالدقة يجرى تحريكه لصالح الجماعة بدعى أنه يتحرك للدين.

ومن هنا كان بالإمكان إقناع شباب الجهاز السرى للإخوان بأن الإرهاب هو من الدين والقتل هو من الدين. وأن الغضب على أعداء "الجماعة" هو غضب للدين.

فالجهد بالدين كان عند الأستاذ البنا مقصوداً لذاته فما كان بالإمكان أن يقبل شاب عارف بأحكام الشرع وعليم بتعاليم الدين أن يكون أداة في يد الأستاذ المرشد، مجرد أداة تدار فتستدير بزعم أنها "تغضب" للدين بينما هي في واقع الأمر تغضب لصالح مصالح حزبية أو شخصية ضيقة.

وحتى حفظ القرآن لا ضرورة له.. بل لا قيمة له في نظرهم، وإذا نمضى مع الأستاذ محمود عبد الحليم لنقرأ ما يستثير ما هو أكثر من الدهشة: "لقد أمد الله تعالى في عمر عبد الله بن مسعود رضى الله عنه حتى رأى أجيالاً لا شك أنها كانت أحسن منا حالاً وأقرب إلى الدين منا، ومع ذلك قال عنهم: أنزل القرآن عليهم ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملاً، إن أحدكم ليقراً القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً، وقد أسقط العمل به" (١٧).

والآن وبعد الملاحظات السابقة يمكننا أن نحاول استطلاع حاضر ومستقبل جماعة الإخوان عبر التطلع إلى عمق البئر الإخواني حيث تكمن أفكار وممارسات وتراث الأستاذ حسن البنا. فلنحاول.

د. رفعت السعيد

الهوامش

- (١) حسن النبا - مذكرات الدعوة والداعية - ص ١٨٣.
- (٢) الدعوة - ٢٤ - ٤ - ١٩٥١ مقال للأستاذ صالح العشماوى.
- (٤) النذير - العدد الأول - أول المحرم ١٣٥٨ هـ. افتتاحية بقلم الشيخ عبد الرحمن الساعاتى.
- (٤) عصام حسونة ٢٣ يوليو وعبد الناصر - ص ٤٦.
- (٥) أحمد عادل كمال - النقط فوق الحروف - ص ١٥٤.
- (٦) محمود الصباغ - حقيقة الجهاز الخاص ودوره فى دعوة الإخوان المسلمين - ص ١٤٩.
- (مع ملاحظة أن الأستاذ مصطفى مشهور المرشد العام السابق للجماعة قد كتب مقدمة هذا الكتاب مقرظاً).
- (٧) المرجع السابق - ص ١٠٥.
- (٨) المرجع السابق - ص ٢٦٥.
- (٩) صلاح شادى - حصاد العمر - ص ١٣٠.
- (١٠) المرجع السابق - ص ٦٧.
- (١١) المرجع السابق - ص ٨٣.
- (١٢) محمود الصباغ - المرجع السابق - ص ٢٧٨.
- (١٣) محمود عبد الحليم - الإخوان المسلمون، أحداث صنعت التاريخ - رؤية من الداخل - ج ٢ - ص ٣٤٥.
- (١٤) المرجع السابق.
- (١٥) المرجع السابق ج ٢ - ص ٥.
- (١٦) المرجع السابق.
- (١٧) المرجع السابق - ص ٥.

الفصل الأول

مصر.. والجماعة

فى السنوات الأولى من القرن العشرين، كانت مصر تتأهب، وتوشك أن تتنفس بعد مأساة هزيمة العربيين. وباختصار.. كانت مصر تجد نفسها، تحقق ذاتها، أو على الأقل تجد القدرة لى تقرير ذلك.

وهكذا شهد مطلع القرن العشرين تحركاً حضارياً عارماً، حاول أصحابه - كل فى مجاله - أن يوقظ قطعة من الأمل فى وجدان هذا الشعب.

فالأحزاب السياسية بمختلف اتجاهاتها - تتوالد سريعاً، وبكثرة: حزب الأمة، حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية، الحزب الوطنى، الحزب الوطنى الحر، حزب المقاصد المشتركة للعمال، الحزب الاشتراكى المبارك... إلخ.

والصحافة تكاثرت وتنوعت، والمسرح شهد هو الآخر ازدهاراً، والتعليم ارتبط فى وجدان مصر بطموحها نحو الاستقلال، فنهضت القوى الوطنية بحركة تأسيس "الجامعة الأهلية" وبحركة التعليم اللئلى والحرفى.

والتنوير كمعركة، وكطموح.. كان هو أيضاً سببلاً أساسياً من سبل إيقاظ مصر، وبدأت عبارات مثل: حرية الفكر، حرية التعبير والاعتقاد، ترد على اللسان المصرى، ربما فى تردد لكنها كانت ترد على أى حال.. ولعل شبلى شميل، وهو واحد من رواد معركة التنوير - قد لخص طبيعة هذه المعركة فى عبارة واحدة، موجزة وقاطعة.. "الحقيقة أن تُقال، لا أن تُعلم".

فالكثيرون كانوا يعرفون كيف يتلمسون طريقهم نحو الحقيقة لكنهم لا يعرفون كيف يفتحون فهمهم بها، خشية المجابهة مع القوى الرجعية، وهى كثيرة وذات نفوذ. وكانت مصر بحاجة إلى "هزة" عنيفة كى تستيقظ، وتخلع عن عينيها غشاوة الهزيمة والاستسلام اليائس، ثم تنهض وتمضى من جديد. وتقدم الكثيرون من

المفكرين يحاولون الإسهام فى إحداث "الهزة" فى الوجدان المصرى. يقول شبلى شميل تعقيباً على الضوضاء الفكرية التى تلت صدور كتابه "فلسفة النشوء والارتقاء": "فهذه الرجة التى حصلت اليوم هى المقصودة منى فى ذلك الحين، لإيقاظ الأفكار من نومها العميق، والحركة مهما كانت خير من السكون"^(١).

ولم يكن ذلك الرعيل من رواد حركة التنوير بواهم أو بمبالغ فى قدراته أو قدرات مصر ذلك الحين، لكن هذه "الرجة" فى الأفكار كانت ضرورية، هكذا يؤكد شبلى شميل: "فما كنت أطمع بأن أرد الناس إلى فى هذا الزمن القصير، وأنا لا أجهل ما يحول دون ذلك من الصعوبات، بل إنى قصدت مباغته الأفكار للفتها إلى غير مألوفها، وإن كنت لا أجهل أن إلقاء حجر فى المستنقعات الراكدة لا يقلق الضفادع المطمئنة. إلا أنى لا أجهل أيضاً فعل العجين المخمر، فإن أقل ما يعلق بالعقل حينئذ من أكثر الأفكار المخالفة، ينمو فيها غالباً بسرعة الاختمار نفسه خصوصاً إذا صادف استعداداً فى النفوس كامناً فيها لكثرة البواعث الضاغطة عليه"^(٢).

وهكذا كان..

وإذا كان الحوار الفكرى بين المتعلمين أو مدعى العلم لا يزال منحصراً تماماً فى مجادلات سفسطائية تجاوزها الزمن من نوع "هل الأرض كروية؟.. وهل تدور؟" يكتب يعقوب صروف فى المقتطف قائلاً: "إن موضوع دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس صار أشهر من نار على علم وأوضح من الصبح لذى عينين، وتحققت صحته لكل ذى عقل سليم يطالع ويفهم"^(٣). لكن الدنيا تقوم لهذه الكلمات ولا تقعد.. فقد تصدى له رجال الدين معلنين تكفيره ومروقه، وخاضوا ضده معارك قلمية وخطابية، وجذبت هذه المعركة الكثير من الأطراف، حاول بعضها دحض العلوم الحديثة أصلاً باعتبارها "كفرًا وبهتانًا" وتبلور فى المقابل تيار من المتعلمين، يحاول أن يدفع هذه الهجمة عن العلوم الحديثة، ووجدوا أن السبيل الوحيد لذلك - كما يقول الأستاذ محمد عبد الغنى حسن - هو "إحكام المناورة لتأييد قضية

الموافقة بين العلم والدين حتى لا يتعطل - بحركة المحافظين - سير العلم الطبيعي وتقدمه في البلاد العربية التي كانت ولا تزال في أشد الحاجة إليه^(٤). وبينما "المحافظون" يشددون النكير على العلم الحديث وعلى حركة التنوير، والمعتدلون يلجأون إلى المناورة، إذا بفارس يقتحم الميدان شاهراً سيفه، ليقلب المائدة على الجميع.. طارحاً للنقاش موضوعاً جديداً تماماً لعل مجرد ذكره كان كافياً لأن يثير القشعريرة في أبدان المتزمتين والمعتدلين على السواء: "نظرية النشوء والارتقاء".

وربما كان شبلي محقاً عندما أكد أن الأمر يحتاج إلى "رجة" في الأذهان والعقول، لكن شجاعة الحقيقة تكمن في أن يتصدى هو لتحقيق هذه "الرجة" مقدماً نفسه للقارئ "إليك أيها القارئ العاقل، العاقل المتأمل، وما أطلب منك؛ علماً واسعاً وفلسفة بديعة وحكمة عميقة، بل أطلب منك عقلاً حلت قيوده، وتفتحت منافذه وأقام التفكير مقام الاعتقاد، والبحث مقام المقرر، يقدر مستنتجات العلم قدرها، ولا يبخس مستنبطات العقل حقها"^(٥).

وعندما يصدر شميل كتابه "نظرية النشوء والارتقاء" يشهق الجميع فرعاً من كتاب طبع منه خمسمائة نسخة فقط. وتتركز هجمات الجميع، المحافظون والمعتدلون معاً، ضد المؤلف الذي استمر مصمماً على مواصلة إقلاق ساكني مياه المستنقعات الراكدة، لكن شميل يرد عليهم في هدوء "لست أخشى تخطئة الناس لي إذا كنت أعرفني مصيباً، ولا يسرنى تصويبهم لي إذا كنت أعرفني مخطئاً"^(٦).

وتحدث "الرجة" المطلوبة، ويواكبها مفكرون كثيرون: "قرح أنطوان" في مجلة "الجامعة"، "سلامة موسى" بجهوده المتعددة الجوانب، "مصطفى حسنين المنصوري" بكتابات المستنيرة عن الاشتراكية، "ولي الدين يكن" بدفاعه عن الحرية، و"الشيخ عبد الرحمن الكواكبي" بنضاله ضد الطغيان... وغيرهم.

والهدف واضح.. أن يشرق على مصر مطلع القرن العشرين عصر تنوير جديد. أن يقال "الحقيقة"، أن يقف المفكر والعالم والمتقف والكاتب من الحضارة

والمجتمع والفلسفات والتقاليد موقفاً انتقادياً دون أن يتحسس رقبته مع كل كلمة يقولها.

ويتصدى البعض من رجال الدين لحركة التنوير هذه.. وتشهد مصر حركة إرهاب فكرى مخيفة، تناثرت فيها الاتهامات بالكفر والإلحاد، وأصبح التكفير هو السلاح الأساسى لإرهاب كل من يفتح فمه بكلمة جديدة، أو يحاول ذلك، ثم تتصاعد الحملة الشرسة لتصل إلى أسوأ مراحلها عندما تنتهز فرصة أن بعض دعاة حركة التنوير كانوا أقباطاً (سلامة موسى) أو مسيحيين شواماً (شبلى شميل - فرح أنطوان - نقولا حداد) لتلجأ - وبإيعاز من الحاكم "الماكر كرومر" - إلى شعارات الفتنة الطائفية بين المسلمين والأقباط من ناحية، وبين المسلمين والمسيحيين الشوام من ناحية أخرى.

وتعود مصر لتسمع أصواتاً مسمومة تتبادل التهجم على الأديان، والطعن فى معتقدها.

وتوشك إرهابية التنوير أن تختنق، وأن تقع فريسة للمخطط الاحتلالى الرجعى، عندما تتصاعد حملات الهجوم الدينى المتبادل إثر اغتيال الوردانى لبطرس غالى باشا، ويحاول المتعصبون تحويل الأمر من مجرد قيام وطنى يسلك مسلك الإرهاب باغتيال رئيس للوزراء يسلك مسلك الخيانة، إلى قيام مسلم بقتل قبطى.

وينفخ بعض رجال الدين المسلمين والأقباط معاً فى نيران الفتنة، فهم المستفيدون أولاً وأخيراً، والضحية أولاً وأخيراً هى معركة "التنوير" التى كانوا يخشونها خشية الموت. وفى مجابهة الخطر يتقدم دعاة التنوير خطوة فى الهجوم، وكتب شميل: "قنرى مما تقدم أن الدين نفسه ليس العقبة الحقيقية فى سبيل العمران، بل رجال الدين أنفسهم"^(٧). ويمضى شميل فى هجومه عنيفاً: "ولكن الأديان تتحول من النفع العام حتى تصوير وسائل للكسب فى يد أولئك الذين اتخذوها تجارةً من كل دين وملة، الذين علموا الناس حتى اليوم غير ما تأمرهم به الأديان. وكم قاموا يبيعون دينهم بدانق وفرطوا بمال الأيتام، وكم خدموا به أغراض عتاة حكامهم ليقسّموا

معهم، ولو داسوا الدين بالأقدام". والإدانة من جانب شميل موجّهة لدعاة الفتنة الطائفية من الجانبين: "يا مقلنسى الجهل ومعمى الضلال أين رأيتم فى أديانكم ما يسمح لكم بأن تزرعوا رؤوس أتباعكم الجاهلين ببذور التفريق بين الناس إلى حد التباغض". بل هو يمضى فى هجومه إلى ما هو أشد: "فلو قامت الإنسانية فى كل الدنيا ونسرت لحم رؤساء الأديان - الذين هم وحدهم المسئولون عن كل الفظائع التى ارتكبت ولا تزال ترتكب باسم الدين - نسرة نسرة لما وفّت حق الانتقام لما جنوه اليوم على الإنسان"^(٨).

ولم تكن المعركة معركة شميل وحده، بل معركة تيار متكامل يدعو للتتوير وللعلل.

فهناك كتابات ولى الدين يكن التى سارت على نفس المنهج، والتى حظيت بنفس القدر من الهجوم العنيف من الرجعيين من رجال الدين.. يقول ولى الدين يكن: "إن العامة تحب الشئ إذا حببه إليها زعماءها، وتبغضه إذا بغضه إليها زعماءها.. وزعماء العامة عندنا رجال الدين، وهؤلاء لا يرغبهم فى الشورى شئ مما هم منقطعون إليه.. فهم يحبون أن يظلوا متحكمين فى الرقاب، وأن يبقوا عيالاً على الأمة، وأن يلثم الناس أيديهم ويملاؤا أكياسهم"^(٩).

وعندما يتعرض الشيخ جميل الزهاوى لاضطهاد حاكم العراق لأنه دعا إلى تحرير المرأة ونزع حجابها، يكتب ولى الدين يكن.. "وبعد فيا أيها المسلمون.. أنا مسلم مثلكم.. يحزننى خسرانكم.. ويشركنى معكم مصرعكم إن هؤلاء الرجال الذين أثقلت هاماتهم العمائم أكثرهم لا يعقلون.. كان السلطان عبد الحميد يقتل الناس وينفيعهم وينهب الخزائن.. وكل هذا حرام فى دينكم فما قام فى وجهه واحد منهم ناصحاً أو رادعاً.. ولكنهم اليوم وقد وسعتهم بلاد الحرية يكرهون أن يروا حراً يتكلم.. فهم يهاجمون كل من لا يكون من فريقهم.. يملأون الدنيا صخباً وضجة.. يكفرون الساعل والماخط والآكل والشارب، حتى لقد زهدونا بالحياة وهم أشد الناس بها تعلقاً، فلا تجعلوا لهم سلطاناً عليكم فيكسبوا من خسرانكم ويسعدوا بشقائكم،

وأنتم لا تعلمون" (١٠).

ولعل هذه النماذج تكفى لتبين شراسة المعركة وعنفاها، ولعلنا لسنا بحاجة إلى أن نوضح أن رجال الدين من الطرفين المسلم والمسيحي قد ردوا على هذا الهجوم بما هو أعنف وأشد، ولعل الخاسر فى هذه المعركة الضارية كانت حركة التنوير فى مصر، ولعل الخسارة قد لامست الدين ذاته حيث صمم البعض من رجاله أن يضعوه - اعتسافاً - فى مواجهة كل جديد، وكل عقلاى، وكل علمى.

والمشكلة الحقيقية هى أن دعاة التنوير كانوا يجابهون وهم يخوضون معركتهم هذه سيلاً متراكماً من الكتابات "السلفية" التى تحيل الدين إلى أساطير تسحق كل ما فى العقل من قدرة على الفهم، وتحبط كل ما فيه من وعى أو علم.

الأستاذ محمود الشرقاوى يكتب مستجيراً^(١١): "وأى شقاء فكرى وروحى يجده دعاة التقدمية الفكرية فى عالمنا العربى عندما يرون فى بعض الكتب التى يطالعها الناس ويتناقلون ما فيها.. أن "توحاً" عليه السلام بنى سفينته من عظام حيوان يبلغ طوله مسافة ما بين الأرض والسماء ويبلغ عرضه مسيرة عام كامل؟ وأى شقاء للروح والعقل أكثر من أن يقرأ دعاة التقدمية فى الفكر الدينى ما يقرأه الناس فى عالمنا العربى كله، فيجدون فى كتاب من كتب التفسير للقرآن الكريم "حديثاً" منسوباً لحذيفة، ومرفوعاً للنبي (ﷺ)، يقول: "إن يأجوج ومأجوج أمة، وكل أمة أربعمئة أمة، لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف رجل ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح، وهم ولد آدم يعيشون فى خراب الأرض، وهم ثلاثة أصناف: صنف مثل شجرة الأرز، وصنف طوله وعرضه سواء عشرون ومائة، وهؤلاء لا تقوم لهم الجبال ولا الحديد، وصنف منهم يفرش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى.. لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه، مقدمتهم بالشام وساقاتهم فى خراسان يشربون آبار الأرض وبحيرة طبريا، ومنهم من تثبت له مخالب فى أظفارهم، وأضراسهم كأضراس السباع"^(١٢).

يخوض الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده معركة التنوير فإنه ينال هو أيضاً

هجوماً ضارياً من رجال الدين المتشددین بما دفعه إلى الأئین وهو علی فراش الموت:

ولست أبالی أن یقال محمد أبل

أم اکتظت علیه المآثم

ولکنه دین أردت صلاحه

أحاذر أن تقضى علیه العمام

وعلى أى حال، فلم تمض سوى سنوات قلائل حتى توجهت سهام الرجعيين إلى صدور أزهریین آخرين یتهمون لمجرد دعوتهم للتجديد والتتویر وإعمال العقل بالإلحاد والمروق.. الشیخ علی عبد الرازق بسبب كتابه "الإسلام وأصول الحكم"، والشیخ طه حسین لأنه عنى "بتطبيق الشك الديکارتى على دراسته للأدب العربى، ولم یتردد فى أن یتشكك فى أصالة الشعر الجاهلى، بل أن ینثر الشكوك حول بعض المسلمات الدينية وذلك فى كتابه "فى الشعر الجاهلى" الذى أصدره عام ١٩٢٦^(١٣) وخرجت مظاهرات الأزهریین الغاضبة تطالب برأس الشیخ طه وبحرق كتابه، ولعل المظاهرات كانت من العنف بحيث اضطر زعيم مستتير كسعد زغول أن یتراجع أمامها فیقول فى محاولة لتهدئتها: "هبوا أن رجلاً مجنوناً یهذى فى الطريق فهل یضیر العقلاء شىء من ذلك"^(١٤).

ولكن كان الأمر قاسياً على طه حسین ألا یجد الزعيم سبيلاً لإنقاذ رأسه من مقصلة المتعصیین إلا الدفع بجنونه.

وهكذا تقف الحركتان وجهاً لوجه وذلك بعد أن فقدت حركة التجديد والاستنارة واحداً من أهم فرسانها. الأستاذ الإمام الشیخ "محمد عبده"، الذى كان "أبداً داع إلى العقل یجب أن یحكم كما یحكم الدین، فالدین عرف بالعقل ولا بد من اجتهاد یعتمد على الدین وعلى العقل معاً حتى یستطیع المسلمون أن یواجهوا الأوضاع الجديدة فى المدنية الحديثة مقتبسين منها ما یفید وینفع، وإذا كان المسلمون لا یستطیعون أن یعیشوا فى عزلة فلا بد لهم من أن یتسلحوا بما یتسلح به غیرهم،

وأكبر سلاح فى الدنيا هو العلم" (١٥).

وبينما كانت مصر تحاول أن تجد ذاتها.. وإذ ترتفع صيحة "تحيا مصر" وشعار "مصر للمصريين" يكون من الغريب أن يستقبل بعض المتدينين ورجال الدين هذه الصيحة بالنفور والغضب. إذ اعتقدوا أن "المصرية" هى نقيض "الإسلامية"، وأن استقلال مصر هو مجرد مؤامرة ملحدة ضد الباب العالى العثمانى حامى حمى الإسلام والمسلمين.

وحتى فى صفوف الحزب الوطنى أكثر التجمعات "الوطنية" راديكالية كانت مسألة "الخلافة الإسلامية" وتتناقضها مع "المصرية" مسألة ملحة وفاعلة بل وتوشك أن تقسم الحزب ذاته.

وفى البداية أخذ مصطفى كامل فى المناورة بين السلطان العثمانى والإنجليز محاولاً أن يكسب لوطنه أى شىء. وكان يؤكد أنه "ما دامت الدولة العلية قوية سليمة دام أمل المصريين فى الخلاص كبيراً عظيماً" (١٦).

لكنه ما لبث أن أدرك وبوضوح أن استقلال مصر يعنى انتزاع حريتها ومقدراتها من الخليفة العثمانى ومن الإنجليز معاً، فصاح بأعلى صوته: "رمانا الطاعنون بأننا نريد أن نخرج الإنجليز من مصر لنعطيهما لتركيا، وما هذه التهمة إلا تصريح بأن معرفتنا لحقوق الأمم وواجباتها لم ترشحنا إلا أن نكون عبيداً أرقاء، فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها" (١٧).

لكن الشيخ عبد العزيز جاويش أحد أقطاب الحزب، ورئيس تحرير مجلته لفترة طويلة، كان يرى رأياً آخر إذ كان يؤكد فى حسم أنه "لا وطنية فى الإسلام" ويتمسك بشعار "الجامعة الإسلامية"، وهو اتجاه "ينادى بحق الأمة المصرية فى الحرية والدستور والجلاء فى ظل وحدة العالم الإسلامى ممثل فى الدولة العثمانية التى يتعين الحفاظ على وحدتها ومقاومة تمزيقها، فإن فى تمزيقها ضياع الوطن بأكمله" (١٨).

"وكان الحزب الوطنى يعانى كثيراً من هذا التمزق.. بل كانت دعوة الشيخ جاويش هذه خليفة بأن تفقد الحزب تأييد عناصر كثيرة"^(١٩). وكان محمد فريد خليفة مصطفى كامل يقاوم هذه الدعوة وينقدها نقداً شديداً، وهو يشير فى مذكراته إلى الشيخ جاويش قائلاً: "إن حبه للدولة العثمانية أدى به إلى نسيان مصر ومصالحها، فأصبح يقول إن مصر للمسلمين لا للمصريين وقد وصلت الحالة بالشيخ جاويش إلى أن ينصحنى بعدم حمل الدبوس الذى عملناه فى جنيف والمكتوب عليه "مصر للمصريين" والذى قررنا أن يكون شعار المصريّين المخلصين، وقال إن منظره فى صدرى وصدر إخوانى يغيظ العثمانيين، كما تغيظهم محافظتى على قومية مصر"^(٢٠).

وفى موضع آخر من مذكراته يقول محمد فريد: "إن جاويش لم يزل يحارب فكرة الوطنية فى الإسلام، وقد قال أخيراً فى برلين لأحمد بك أن يقلع عن فكرة الوطنية أو الجنسية المصرية قائلاً إنه لا وطنية فى الإسلام"^(٢١).

ولا تبدو أفكار الشيخ جاويش بعيدة عن كلمات كتبها الشيخ حسن البنا بعد قرابة ربع قرن.. "إن كل قطعة أرض ارتفعت فيها راية الإسلام هى وطن لكل مسلم يحتفظ به، ويعمل له، ويجاهد فى سبيله"^(٢٢).

وعندما قام "كمال أتاتورك" بثورته، فإنه لم يهز عرش السلطان الفاسد فحسب، بل هز وجدان الكثيرين ممن تعلقت أبصارهم وآمالهم بالخلافة العثمانية كحصن أول وأخير للمسلمين.

وإذا كان بعض الكتاب قد ألمح أن إنهاء الخلافة العثمانية قد مكن الكثيرين من دعاة التجديد والإصلاح من محاولة تقديم فهم إسلامى إصلاحى، ومكن بعض رجال الدين من مزج "العقيدة الدينية بالفكرة الوطنية، ومن أن يعبروا عن دعوتهم إلى الإصلاح بعبارات أكثر وضوحاً وصراحة عن ذى قبل"^(٢٣). وألمح آخر إلى أن انهيار الخلافة العثمانية "قد دمر الأسس الواقعية والجغرافية للجامعة الإسلامية وشجع النزعات الوطنية والقومية"^(٢٤)، بل "وشجع إلى حد ما ولمرحلة معينة

النزعات العلمانية ودفعها إلى السطح"^(٢٥). فإن انهيار الخلافة قد أوجد لدى البعض نزوعاً للعمل الدائب دعوة لها والأمل الذى لا يخبو فى استعدادتها.

وقد أحاطت بالدعوة إلى الخلافة شبهات موضوعية تتعلق بطموح الملك فؤاد وحاشيته من شيوخ الأزهر، الأمر الذى دفع أحد كبار شيوخ الأزهر وهو الشيخ "الأحمدى الظواهرى" إلى أن يقول: "لم يكن التمهيد لعقد مؤتمر للخلافة بالقاهرة يحضره مندوبون من جميع الأمم الإسلامية أمراً بسيطاً هيناً كما ظن علماء الأزهر فى بادئ الأمر. فقد امتد زمن الدعوة إليه من عام ١٩٢٤ إلى عام ١٩٢٦. أما سبب التأخير فيرجع إلى أنه قد دخلت نفوس كبار المسلمين وأمرائهم فى الأمم الإسلامية الأخرى شكوك من جهة مصر، فقد ظنوا أن علماء الأزهر إنما يقصدون من مؤتمر القاهرة الذى يدعون إليه أمراً آخر له باطن غير ظاهره، وأنهم إنما يثيرون مسألة حماية الخلافة لا خوفاً على الخلافة وإشفاقاً على كلمة الإسلام كما يدعون، بل لغرض آخر فى فؤاد أم موسى وهو نقل الخلافة من شاطئ البوسفور إلى شاطئ النيل، وضم أريكة الخلافة إلى أريكة الملك فى عابدين"^(٢٦).

ويمضى الشيخ الظواهرى: "ومن أجل ذلك كانت إجابات دول الإسلام على دعوة علماء الأزهر لعقد مؤتمر فى القاهرة إجابات فاترة، وكان معظمها استفساراً عن مرامى المؤتمر وغاياته، ومن الذى يراد تنصيبه خليفة بدلاً من الخليفة المعزول"^(٢٧). وينعقد مؤتمر الخلافة ليفشل.. وليقرر المجتمعون أنه ليس بإمكانهم "وهم أقلية بين شعوب الإسلام أن يتخذوا قراراً فى شأن يهم المسلمين جميعاً"^(٢٨).

وتكون قصة الخلافة سبباً فى معركة ضارية خاضها شيوخ أزهريون ضد شيخ أزهري. ففي أبريل ١٩٢٥ أصدر الشيخ على عبد الرازق القاضى الشرعى بمحكمة المنصورة كتابه الشهير "الإسلام وأصول الحكم" مؤكداً أن مبدأ فصل الدين عن الدولة يتطابق مع تعاليم القرآن والسنة، وأن الدين هو فى جوهره روحى خالص ليست له أى علاقة بالسلطة السياسية، كما أنه مجرد من السلطة التنفيذية الزمنية، ويرى أن مبدأ الخلافة لا يرتكز لا على القرآن الذى لم يشر إليه على الإطلاق، ولا

إجماع صحابة الرسول (ﷺ)، فقد كانت رسالة محمد دينية في كل شيء، وظلت بعيدة عن أى شكل من أشكال الحكم وعن أى سلطة تنفيذية" (٢٩).

وكان نصيب الشيخ رداً على كتابه هو ما نعرف من الاتهامات المقررة على كل داع للتجديد، وهى اتهامات أقلها المروق والكفر والإلحاد.. وقرار من هيئة كبار العلماء "حكمنا نحن شيخ الأزهر بإجماع أربعة وعشرين عالماً معنا من هيئة كبار العلماء بإخراج الشيخ على عبد الرازق أحد علماء الأزهر والقاضى الشرعى.. ومؤلف كتاب "الإسلام وأصول الحكم" من زمرة العلماء. تعلن الأسباب بعد إعدادها فيما بعد" (٣٠).

وتظل فكرة الخلافة حلمًا يداعب خيالات الكثيرين، ليس فقط ذلك الملك الساذج القابع فى قصر عابدين تحت رعاية المحتلين، ولا من تبعه من شيوخ الأزهر الذين غدوا أحلامه بأن يرث عرش الخلافة المنيع، وإنما أيضاً بعض الدعاة المتحمسين للإسلامية.. والذين تعلقت أبصارهم بفكرة "الخلافة" و"الجامعة الإسلامية" مؤمنين بأن الإسلام بذاته وطن، وأنه لا نجاة للمسلمين بغير خليفة لهم جميعاً.

ذلك أن الإسلام كعقيدة هو فى نظر البعض "محتوى سياسى والمجتمع الإسلامى هو ذاته الكومنولث الإسلامى أى "مجموعة الشعوب المسلمة"، والأمة الإسلامية هى أيضاً تكوين سياسى متكامل" (٣١).

وتكون من الصراعات - بالضرورة - واحدة من مكونات المناخ الفكرى الذى عاشه الفتى حسن البنا.

وكان هنالك أيضاً "التبشير" وجماعاته التى تناثرت فى أماكن عديدة فى مصر. ولقد قيل عن هذا الموضوع كلام كثير لعل أكثره صحة هو أن التبشير لم يكن أكثر من لعبة استعمارية تستهدف استفزاز المشاعر الإسلامية والانحراف بها عن مسارات الكفاح الطبيعى لتحرير الوطن إلى مسارات تستهلك قواها فى صراعات داخلية تبعد الكفاح عن مساره الطبيعى ضد الاستعمار.

وعلى أى حال فقد حدث " فى نهاية العشرينات أن استفز النشاط التبشيري مشاعر المسلمين فى مصر وكان لحوادث الغواية عن الدين أثر فى استنزاف مشاعر العديد من المسلمين".
وقد كان..

إذ توالى ردود الفعل باتجاه طائفى ومتعصب وتوترت مشاعر الكثيرين وضخمت نتائج عمليات التبشير بصورة مبالغ فيها، الأمر الذى يعنى أن الهدف الحقيقى من التبشير قد تحقق، فلنأخذ نظن أن أحداً تصور فعلاً أن التبشير كان خطة عملية أو منطقية تستهدف استقطاب أفراد من المسلمين باتجاه الديانة المسيحية.

فلا التجربة العملية، ولا الواقع الموضوعى، ولا الأرقام الفعلية، لا شىء من ذلك كله يشير مجرد إشارة لأى احتمال لنجاح حملات التبشير من هذه الزاوية. والحقيقة أن قصة التبشير هذه قد استخدمت استخداماً مبالغاً فيه، وبهدف تأجيج المشاعر الإسلامية ضد النصارى الذين يحاولون تنصير المسلمين.. وقد قمت بالبحث طويلاً فى صحف هذه الفترة وخاصة مرحلة بداية الثلاثينيات حيث التهمت هذه القضية فلم أجد حديثاً عن تحول مسلم إلى المسيحية، وإن كانت ثمة إشارات مبهمة حول حوادث اختفاء عدد من الشبان وإيماءات وإيحاءات باحتمال وجود سبب لذلك عبر عملية تغيير للدين لكنها حالات محدودة جداً.

وإن كانت هناك دلائل قوية حول عمليات نشطة لتحويل عديد من الأرثوذكس إلى الكاثوليكية أو البروتستنتية، وفى أماكن عديدة وخاصة فى مدن الصعيد المزدهمة بفقراء الأرثوذكس انتشرت مدارس "الفرير - الفرنسيسكان - السكركير - الجزويت ومدارس للإرساليات الأمريكية البروتستنتية وغيرها"، وعيادات ومستوصفات ومستشفيات استقطبت بخدماتها المجانية عديداً من المتعاملين معها.. ومن هنا يمكن القول إن أكثر عمليات التبشير كانت اختراقاً كاثوليكياً أو بروتستنتياً للكنيسة الأرثوذكسية.

وقد نفخت الجيوب الصهيونية التى تواجدت داخل الجالية اليهودية فى هذه النيران بهدف إشعال الفتنة.

فشنت صحيفة "إسرائيل" التى أنشأها "ألبرت موصيرى" عام ١٩٢٠ كجريدة صهيونية صرفة حملات غوغائية استهدفت تأجيج فتنة طائفية. وتوالى على صفحاتها مقالات بعنوان "كيف حاولوا تنصيرى؟" ثم بدأت فى تقديم معلومات لا نعرف مدى صحتها عن محاولات لتنصير طلبة يهود كانوا تلاميذ فى مدارس كاثوليكية.

ثم بدأت حملة جديدة حول محاولات لتنصير شبان من المسلمين، وبدأت حملات تهاجم الديانة المسيحية^(٣٢).

ويبدو أن حركة التبشير قد استغلت حالة الأزمة الاقتصادية التى تفاقمت فى مطلع الثلاثينيات، كما يبدو أنها قد جرى استغلالها من أجل تحويل نظر المصريين عن الأوضاع الاقتصادية والسياسية المتردية، كما جرى استغلالها من جانب العناصر السلفية لاستجلاب حالة من الضغط القوى على القوى الداعية للتححر الفكرى والعقلى.

ويقول د. محمد جابر الأنصارى: "إن حركة المبشرين قد اشتدت أثناء الأزمة المالية والسياسية فحولت إليها كثيراً من سخط الناس، فوق ما أثارته من غيره من الناقلين على الاستعمار"^(٣٣).

ونطالع بعضاً من محاولات استغلال هذا الأمر.. "اجتاحت العالم الإسلامى موجة من الذعر، ومن الإحساس بالخطر دعتة إلى التماسك، وإلى الاستجابة لنداء الداعين إلى الجامعة الإسلامية، وذلك على أثر اشتداد حملة التنصير فى ربوعه"^(٣٤).

وكما هو متوقع سارعت جماعة الإخوان لاستغلال هذا الأمر فرفعت رسالة إلى الملك فؤاد تقول فيها: "إلى سدة صاحب الجلالة الملكية حامى حمى الدين ونصير الإسلام والمسلمين عليك مصر المفدى يتقدم أعضاء مجلس الشورى العام للإخوان

المسلمين المجتمعين بمدينة الإسماعيلية بتاريخ ٢٢ صفر ١٣٥٢ هـ والممثلون خمسة عشر فرعاً من فروع جمعية الإخوان المسلمين برفع أصدق آيات الولاء والإخلاص لجلالة الملك المفدى وسمو ولى العهد المحبوب.. ويلجأون إلى جلاتكم راجين حماية شعبكم المخلص الأمين من عدوان المبشرين الصارخ على عقائده وأبنائه بتكفيرهم وتشريدهم، وإخفائهم وتزويجهم من غير أبناء دينهم. إن مصر زعيمة الشرق ورعية الملك المسلم العادل لا تقبل أن تكون يوماً من الأيام مباءة تبشير أو موطن تكفير، تستمد ذلك من غيرة مليكها وقوة إيمانها" (٣٥).

ويكشف المؤرخ المعتمد لجماعة الإخوان - محمود عبد الحليم - عن كيفية استغلال الإخوان لحركة التبشير فيقول بصراحة مثيرة للدهشة: "ولولا حركة التبشير ما استطاع حسن البنا أن يجمع على العمل الإسلامى هؤلاء الرجال الذين لم تكن تجمعهم جامعة ولا تربطهم رابطة. وجزى الله الشدائد كل خير، وكان من ثمرات ذلك أيضاً إنشاء جمعية تسمى جمعية "الشبان المسلمين" وأسندت رئاستها إلى رجل مسلم غيور هو الدكتور عبد الحميد سعيد" (٣٦).

وفى خضم ذلك كله كانت تنمو فكرة التناقض بين الحضارتين الشرقية والغربية، وكان البعض يثير هذا التناقض من منطلق وطنى، والبعض يثيره من منطلق إسلامى.

هكذا "الميكادو" قد علمنا

نجعل الأوطان أمأ وأبأ.

إنه فهم التيار الوطنى الذى يرفض "الغرب" ويتطلع شرقاً نحو حضارة تحقق الطموح الوطنى من خلال معطيات شرقية، كذلك كانت حركة "مصر الفتاة" تستلهم فى مطلع الثلاثينيات نهضة اليابان كنموذج للنهضة الشرقية المرجوة ومن منطلق معاد للاستعمار عموماً. كما تحدث سلامة موسى طويلاً عن الغاندية، وأسلوب مقاومة الاستعمار ببناء حركة اجتماعية ترفض استخدام منتجات الدول

الاستعمارية، وأن تعتمد على الذات فى إنتاج ما تحتاج إليه.

أما التيارات الإسلامية فقد كانت ترى "الشرقية" كدعوة ذات طابع ومنطلق دينى، يستهدف حشد جهود مسلمى الشرق ضد الدعاوى الغربية ومظاهر الحضارة الغربية.. "كانت الإسلامية بالنسبة للشيخ حسن البنا طريقاً للوصول إلى الأمم الآسيوية المسلمة.. وكانت تتمثل قول كبلنج "الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا"^(٣٧).

وكانت "الشرقية" بالنسبة للتيارات الإسلامية مدخلاً أو مخرجاً يتيح الهجوم على الغرب، وما هو غربى سواء فى ميادين الفكر أو الحضارة أو الثقافة أو غيرها. وكانت هذه التيارات ترى "أنه لا خلاص للعرب والمسلمين.. ولا فرصة أمام الشرق كى يحترم نفسه ما لم يتخلص من كل معطيات الحضارة الغربية، وأن يعتمد على نفسه وعلى رحمة الله الواسعة، ومن ثم يكون على المسلمين أن يقاوموا الأفكار الغربية لأنهم ليسوا فى حاجة إليها"^(٣٨).

ويؤكد حسن البنا هذا التيار فيقول: "إن المدنية الغربية التى تتباهى بعلومها والتى استطاعت أن تسيطر على العالم، تعاني الآن من الإفلاس والانحيار ذلك أن أسسها السياسية قد انهارت تحت وطأة الديكتاتورية، وأنظمتها الاقتصادية تتداعى بفعل الأزمة، وكيانها الاجتماعى متآكل، والناس يسيطرون عليهم الطمع والقهر"، ويؤكد: "لقد بدأت قيادة العالم شرقية، ثم أصبحت غربية، وها قد حان الحين لينهض الشرق من جديد"^(٣٩).

وهكذا تختلط - وربما عن عمد - فكرة "الشرقية" بالإسلامية، كسبيل للهجوم على الغرب من منطلق غير صحى وغير صحيح. فهو هجوم لا ينبعث من فهم واضح لمعنى الاستعمار، ولا يقود إلى أسلوب محدد لمجابهته.. فالاستعمار هو مجرد.. "صليبية - أوروبية"^(٤٠).

ومن ثم فإن الهجوم على الغرب قد اتخذ اتجاهاً غريباً؛ إذ تحول إلى الهجوم على كل من ينهل من ثقافة الغرب وعلومه، أو يدعو للتتوير مستفيداً من معطيات

حركة التنوير الغربية، وتتوجه السهام الحادة إلى شخصيات مثل طه حسين والشيخ على عبد الرازق والشيخ خالد محمد خالد متهمة إياهم بأنهم "خضعوا بوعى أو بغير وعى لغواية الثقافة الغربية الاستعمارية" (٤١).

هكذا فهمت "الشرقية" على وجهين، واستخدمت كسلاح ذى حدين لكنها كانت وفى ذلك الحين عنصراً فاعلاً فى تكوين المناخ الفكرى العام، إلى درجة تمكنها من أن تؤثر بلا شك فى وجدان ومشاعر ومنطلقات شاب سياسى ومتدين مثل حسن البنا.

وللسلفية والتجديد قصة تستحق وقفة هى الأخرى.. قصة تركزت حول موضوع الدين وتحديات العصر.

وكانت هذه القضية هى الشغل الشاغل لمصر.. لمجديديها، وسلفيها، ثوارها، ومعتدليها ورجعيها، وعلمائها ومفكرها ورجال الدين فيها، وذلك طوال الفترة من نهايات القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

وكانت العلاقة الشائكة والحمية بين الدين وتحديات العصر تتبلور - فى كثير من الأحيان - فى موضعين: العدالة الاجتماعية والموقف من العقل ومنجزات العلم الحديث.

والحقيقة أن الإسلام بطبيعته، وطبيعة الوضع الطبقي لشيوخته قد استطاع أن يجد حلاً لمسألة العلاقة بين الدين والعدل الاجتماعى، وكان "رفاعة الطهطاوى" و"الأفغانى والكواكبي" رواد هذه المعركة على أرض مصر.

الطهطاوى فى كتابه الرائع "مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية" كان يصيح بأعلى صوته "الأرض للزارعين" ويقول: "إن الفضائل جميعاً تعود إلى أصل واحد هو العدل العمومى والإنصاف المشترك" (٤٢).

وهو ينتقد الملاك لأنهم يتمتعون "فى العادة بالمتحصل من العمل، ولا يدفعون نظير العمل الجسيم إلا المقدار اليسير الذى لا يكافئ العمل" (٤٣).

ويأتى بعده الأفغانى لترتفع صحته أكثر فأكثر ولتتخذ ثوباً واضحاً تماماً: "أما الاشتراكية فى الإسلام فهى ملتزمة مع الدين الإسلامى" و"أول من عمل بالاشتراكية بعد التدين بالإسلام هم أكابر الخلفاء من الصحابة"، وهو يقدم تعريفاً شاملاً وتقدمياً للاشتراكية "فالاشتراكية هى التى ستؤدى حقاً مهضوماً لأكثرية من الشعب العامل".

وتكون صيحة الشيخ الكواكبى، أعلى هى الأخرى.. "إن النظام الطبيعى فى كل الحيوانات أن النوع الواحد منها لا يأكل بعضه بعضاً والإنسان يأكل الإنسان، ومن غريزتها أن تلتمس الرزق من الله أى موره الطبيعى، والإنسان حريص على التماسه من أخيه"^(٤٤).

ثم إن الكواكبى يمجّد العلم والعلوم العقلية "فالمستبد لا يخاف من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد لا اعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة وإنما يتلهى بها المتهوسون.. لكن ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الأمم أو سياسة المدنية.. وغيرها من العلوم الممزقة للغيوم.. المبسقة للشموس، المحرقة للرؤوس".

وهو يهاجم الأغنياء "فهم ربائط المستبد يذلهم فيئنون، ويستدرهم فينحنون، ولهذا يرسخ الذل فى الأمم التى يكثر أغنيائها، أما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة الذئب"^(٤٥). وهو يدعو صراحة إلى الاشتراكية باعتبارها "السّر فى نجاح الأمم المتمدنة"^(٤٦) ويقول: "إن الداء العام هو الفقر. ومن أعظم أسباب الفقر أن شريعتنا مبنية على أن فى أموال الأغنياء حقاً معلوماً للبائس والمحروم فيؤخذ من الأغنياء ويوزع على الفقراء.. لكن الحكومات الإسلامية قد قلبت الموضوع فصارت تجبى الأموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للأغنياء، وتحابى بها المسرفين"^(٤٧).

وتبقى القضية الأخرى - أى موقف الدين من العقل والعلم ومستجدات العصر، ولعل الأفغانى كان رائداً أيضاً.. فبعد كتابه "الرد على الدهريين" والذى هاجم فيه "النتشريين" (دعاة الطبيعة) والماديين، والذى اختص فيه نظرية التطور بهجومه

وتهكمه وإدانتته قائلاً: "إذا كان زعم داروين أن الإنسان كان قرداً، ثم عرض له التفتيح والتهذيب، صحيحاً.. فعلى زعم داروين هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلاً بمرور القرون ومر الدهور، وأن ينقلب الفيل برغوثاً كذلك" (٤٨). بعد هذا نجده يراجع نفسه في كتابه الآخر "خاطرات جمال الدين".

فقد سئل الأفغانى عن قول المعرى:

والذى حارت البرية فيه

حيوان مستحدث من جماد

وهل يقصد ما عناه داروين بنظرية "النشوء والارتقاء" فقال: "لا أعالى ولا أبالغ إذا قلت: "ليس على سطح الأرض شىء جديد بالجواهر والأصول. أما مقصد أبى العلاء فظاهر واضح وليس فيه خفاء، فهو يقصد النشوء والارتقاء. مهتدياً بما قاله العرب قبله بهذا المذهب، إذ قال أبو بكر بن بشرون فى رسالته لأبى السمح، عرضاً، فى بحث الكيمياء: "إن التراب يستحيل نباتاً، والنبات يستحيل حيواناً، وإن أرفع مواليد التراب (ومنه المعادن) النبات، وهو أدنى طبقات الحيوان، سلسلة تنتهى عند الإنسان" (٤٩).

لكن العطاء الحقيقى للأفغانى كان تلميذه محمد عبده. يقول مارسيل كولومب: "وليس من السهولة أن نوضح أثر هذين الرائدین (الأفغانى ومحمد عبده) على الجيل الذى تلاهما. ومع ذلك فثمة شىء مؤكد، ذلك أنه عندما تبذل المحاولات لجعل الدين يتوافق مع العلم الحديث، وعندما تتقبل فكرة إعادة النظر فى الشريعة الإسلامية كضرورة حتى تتناسق مع مقتضيات العصر، فلا بد أن ندخل فى اعتبارنا أن الأفغانى ومحمد عبده هما اللذان هيئا النفوس بالتدرج لتقبل مفهوم للدولة وللدين يختلف عن مفهومهما فى القرن السابق" (٥٠).

لكن محمد عبده كان يختلف عن أستاذه فى المسألتين الهامتين: العدل الاجتماعى، والموقف من العقل والعلم الحديث.

فى المسألة الأولى كان أكثر تخلفاً.. وفى الثانية كان أكثر تقدماً ولعل السبب واضح..

فالصراع الاجتماعى احتدم عنيفاً بعد أن طرد الأفغانى من مصر، وصار على كل مفكر أن يختار موقعه الاجتماعى والطبقة التى ينحاز إليها.. وما أصعب أن يختار متقف برجوازى صغير موقع الدفاع عن الكادحين.

فالشيخ محمد عبده يهاجم التطرف لدى الثوار العربيين، ويلومهم صراحة على انتمائهم للشعب والفقراء. بل هو يؤكد أنه انتقد حكومة رياض ومسلك الخديو توفيق "لكننى كنت ضد الثورة"، كنت أعتقد أنه يكفى جداً أن نحصل على دستور خلال خمس سنوات، وكنت أعارض أسلوب طرد رياض باشا، ومظاهرة عابدين، وكان سليمان باشا أباطة والشرعى باشا يؤيدانى ضد الثورة لكننا كنا جميعاً نطالب بالدستور^(٥١).

لكن الثورة قامت، ومس لهيبها شغاف قلب كل مصرى، واندفع الفلاحون ينخرطون فى سلك الجيش من أصحاب الجلايب المسلحين بأى شىء وهم يهتفون "الله ينصرك يا عربى".

ولم يكن أمام الشيخ محمد عبده إلا أن يقف معها محاولاً - قدر الإمكان - أن يحد من ثورتها. وفى ١٣ فبراير ١٨٨٣ أقامت جمعية "المقاصد الخيرية" حفلاً كبيراً ابتهاجاً بتشكيل وزارة العربيين برئاسة محمود سامى باشا البارودى، وفى حشد كبير من الأعيان وقف محمد عبده ليحذر "الثوار" من ثورتهم، وليحذر الأعيان من تساهلهم أو تغافلهم تجاه هذه الثورة.. قال محمد عبده: "إنه لم يعهد فى أمة من أمم الأرض أن الخواص والأغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس وإزالة امتيازاتهم واستثنائهم بالجاه والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم فى ذلك، فكيف حصل فى هذه المرة، ومن أهل هذا المجتمع؟ فهل تغيرت سنة الله فى الخلق، وانقلب سير العالم الإنسانى؟ أو بلغت فيكم الفضيلة حداً لم يبلغه أحد من العالمين حتى رضيتم واخترتم عن روية وبصيرة أن تشاركوا

سائر أمتكم فى جاهكم ومجدكم وتتساووا بالصعاليك حباً بالعدالة والإنسانية؟ أم تسيرون إلى حيث لا تدرون وتعملون ما لا تعلمون؟^(٥٢).

وبرغم هذا الموقف المتخالف من القضية الاجتماعية فإن محمد عبده يبرز بعد عدة أعوام رائداً من رواد التجديد والتطوير وإعمال العقل. فالعقل والتطوير كانا يصعدان معركتهما، ومنجزات العلم الحديث تفرض نفسها وبإلحاح على حياة المجتمع والأفراد طالبة إجابة صريحة و"فتوى شرعية" فى كل أمر جديد، وكانت فتاوى محمد عبده تتألق دوماً باتجاه متقدم.

وهو يبدأ معركته بتجريد رجال الدين من كهنوتهم الذى يحاولون أن يفرضوه على البشر قائلاً: "ليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة.. والدعوة إلى الخير والتفكير من الشر، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم.. كما خولها لأعلاهم يتناول بها أدناهم". والحقيقة أن محمد عبده كان يجابه مهمة صعبة، فمع نهايات القرن التاسع عشر تم وضع مجموعة القوانين الجديدة، التى تغطى مجال المعاملات المدنية ونظام العقوبات وذلك نقلاً عن القوانين الفرنسية، وتم إنشاء هيكل قضائى حديث، وانتشر التعليم الحديث أيضاً.. وهكذا كانت مصر وهى تقترب من روح العصر، وتتلامس مع المدنية الحديثة تتمايز فيها شخصيتان، ومؤسستان فى عديد من المجالات المهمة، مؤسسة دينية الطابع وأخرى مدنية التكوين والمحتوى.. مؤسستان للقضاء ومؤسستان للتعليم.. إلخ "مما فصل عن الأزهر أهم جانب من جوانب وظيفته الاجتماعية". "ومع نهايات القرن التاسع عشر وضع الصدع أمام المبصرين وغير المبصرين جميعاً.. وتم صدع مماثل فى المؤسسات الاجتماعية والمؤسسات الفكرية، وفى البناء الأخلاقى والسلوكى للأفراد. أمام هذه المشكلة قامت دعوة محمد عبده تحاول رتق هذا الفتق الذى يتسع ويدعو لتفكيك الفكر الإسلامى ليستوعب الحاجات المدنية للمجتمع، وليمكن الفكر الإسلامى من أن يقدم الأساس الأخلاقى والمعنوى بهذه الحياة المتطورة. وكانت وسيلته إلى ذلك الدعوة لتطوير

الأزهر وتنقيح مناهج التعليم فيه، وفتح باب الاجتهاد^(٥٣).

لكن الأزهر وقف من حركة محمد عبده موقف الرفض، بينما تلقفها التيار العقلاني وتمسك بها في مواجهة دعاة التقليد، وهكذا ازدادت الهوة اتساعاً بين حركة التجديد.. وبين الأزهر.

والحقيقة أن محمد عبده قد استفاد كثيراً من إقامته في أوروبا لفترة من الوقت. ولعل هذه الإقامة لم تكسبه استتارة وسعة أفق، ورغبة نهمة في الدفاع عن العقل والعلم فحسب، وإنما قدمت أمام عينيه نمطاً من السلوكيات ونموذجاً للحياة يختلف اختلافاً جذرياً عما يراه في أرض وطنه، ولعل ذلك هو الذى دفعه إلى الإعراب عن دهشته لأن "الكفرة يتصرفون كمسلمين بينما يتصرف المسلمون وكأنهم كفرة"^(٥٤).

ولعل هذا الموقف يتضح أيضاً من إعجابه الشديد بالفيلسوف الروسى "تولستوى"، فعندما كان محمد عبده مفتياً للديار المصرية كتب إلى "تولستوى" يقول: "أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوى: لم نحظ بمعرفة شخصك، ولكننا لم نحرّم التعارف بروحك.. سطع علينا نور من أفكارك، وأشرقت في آفاقنا شمس من آرائك ألقت بين نفوس العقلاء ونفسك.. فكما كنت بقولك هادياً للعقول، حاثاً بعلمك للعزائم والهمم، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى به الضالون، كان مثالك في العمل إماماً يقتدى به المرشدون"^(٥٥).

هكذا يتكلم مفتى الديار المصرية مع مفكر هو على أى حال غير مسلم، بل ومتهم من كنيسة بالإلحاد، وهكذا كان تقديره لحضارة الغرب وللأفكار الجديدة فيه. وكان المنطلق الأساسى لمحمد عبده هو تصميمه على "أن الإسلام لم يتعارض ولا يمكن أن يتعارض مع العلم فالعلم مثله مثل العقيدة يكشف للناس أسرار الطبيعة"^(٥٦).

وبينما كان "السلفيون" وظلوا حتى ما بعد زمن محمد عبده بأمد طويل يتتكرون للحضارة الغربية والثقافة الغربية، كان محمد عبده يرى أن مفتاح التقدم هو تبني

العلوم الغربية والثقافة. وقد أكد محمد عبده في إحدى مقالاته المبكرة "أن سر تفوق أوروبا يكمن في تفوقها في مضمار البحث العلمي، وإلى تقدم نظم التعليم فيها" (٥٧).

وبعد أن يؤكد محمد عبده ضرورة التلاصق مع الفكر الغربي الحديث، يخطو خطوة جديدة شائكة، ولكنها حاسمة فهو يدعو إلى تحديث الفكر الإسلامي، فقد كان يرى أن الإسلام لا يمكن أن يرسخ أقدامه عبر الأزمان إذا ما استمر معتمداً على التقليد. وكم هاجم محمد عبده دعاة التقليد وكم أكد "أنه بدون استخدام العقل سوف يتعذر على المسلمين إحراز أى تقدم أو تطور" (٥٨). وذلك في الوقت الذي كان يعاني فيه الآخرون من "عقدة" الخوف والرفض لكل ما هو قادم من الغرب. ولكل ما هو إعمال للعقل، باعتبار أنه تهديد أو إضعاف للإسلام. الأمر الذي أشعرهم بضرورة شن "هجوم مضاد" فتشبثوا بشعار الجامعة الإسلامية، وتهاافتوا على إدانة كل ما هو عقلى وعلمى أو جديد" (٥٩).

وفى هذا المناخ يمضى الأستاذ محمد عبده مفتى الديار المصرية ليصدر سلسلة من الفتاوى الشرعية تحاول أن تيسر على المسلمين مجاباتهم وتعاملاتهم مع حياة المدنية الحديثة. والحققة أن الأستاذ الإمام كان مطالباً بإصدار فتاوى شرعية فى مسائل معقدة مثل "أرباح الأموال المودعة فى البنوك وسعر الفائدة والتأمين على الحياة والشركات المساهمة وأرباحها.. وفى مسائل أخرى قد تبدو بسيطة لكنها من فرط بساطتها تلح على المسلم فى كل تعاملاته: "التصوير الفوتوغرافى" حلال أم حرام؟ واستخدام المعدات اللازمة للحياة العصرية حلال أم حرام؟ وهكذا ويصدر رجب ويعقل مفتوح مدرك لتبعات المفتى المستتير تجاه عصره، حاول محمد عبده أن يقدم إجابات توفق بين تعاليم الإسلام واحتياجات العصر.

وحتى فى المسائل الشديدة التعقيد التى قد يتحرج شيخ مسلم من البحث عن الجديد تجاهها، مثل: المرأة وعلاقاتها بالمجتمع وتحريرها ومسألة الحجاب... إلخ.

وتروج شائعات قوية عن إسهام الأستاذ الإمام في إعداد كتاب صديقه الحميم قاسم أمين عن تحرير المرأة.

ويمضى الأستاذ الإمام بعد رحلة مجيدة ليترك تلاميذ يختلفون اختلافاً شديداً حول تفسير تعاليمه.. ويقول الباحث مجيد خضوري: "إن البعض من تلاميذ الإمام قد حاول أن يطور تعاليمه، ويصل بها إلى نهايتها المنطقية، أى أن "ينفى" دور الإسلام كعقيدة تجاه المجتمع ككل، وأن يحصره تجاه الفرد وضميره ووعيه. وكان هذا البعض يرى أن الإسلام عقيدة حية ومن ثم يتعين عليها أن تتطور باستمرار، وأن النهاية الحتمية لهذا التطور هي علمانية المجتمع الإسلامى".

ويمضى خضوري قائلاً: إن هذه الآراء قد رفضت بشدة من جانب "مريدى الإمام من المحافظين وخصوصاً هؤلاء الذين كانوا - برغم ولائهم لشيخهم - إلا أنهم "كانوا يرون أنه قدم تنازلات غير ضرورية لصالح المدنية والتطور الحديث، وكان على رأس هؤلاء المحافظين المتشددین من أتباع محمد عبده صديقه وساعده الأيمن، الشيخ رشيد رضا"^(٦٠).

ورغم أن رشيد رضا كان أقرب المريدين إلى قلب الإمام فقد كان أكثرهم حرصاً على تفسير تعاليمه تفسيراً محافظاً ومتزماً إلى أبعد الحدود^(٦١).

وهكذا نجد أمامنا ثلاث مدارس.. وليس مدرستين فقط:

. التقليديون .. (المحافظون من شيوخ الأزهر).

. المجددون .. (الشيخ محمد عبده وتلاميذه المستتيريون).

. المجددون المحافظون .. (الشيخ رشيد رضا وتلاميذه).

وعن هذه المدرسة الأخيرة سنتحدث قليلاً لأنها ذات علاقة بموضوع بحثنا.

لقد قرر رشيد رضا فى بداية الأمر "أن يخوض معركتين لا معركة واحدة، معركة ضد علماء الأزهر الذين كان يريد أن ينتزعهم بعيداً عن نهجهم فى "التقليد" وعن تعصبهم المذهبى وأخرى ضد دعاة التفرنج، وكان رشيد رضا يشير دوماً إلى

خطورة كلا التيارين.. ويرفضهما معاً وبنفس الحدة^(٦٢).

وفى كتابه "الخلافة أو الإمامة العظمى" يهاجم الشيوخ "الذين ازوروا إلى زوايا مساجدهم أو جحور بيوتهم"، ويتهمهم بأنهم عاجزون عن أداء واجبهم، وعن الإبقاء على نقاء أقدس التقاليد وأنبلها، ويهاجم فى نفس الوقت دعاة التفرنج قائلًا: "إنه من الجنون أن نسعى إلى انتزاع مقومات الأمة الإسلامية الدينية والتاريخية، واستبدال مقومات أمة أخرى ومشخصاتها بها"^(٦٣).

ورويداً رويداً كان رشيد رضا يتخلى عن تعاليم الإمام، ويبتعد بهجمات العنيفة ضد دعوة "التجديد" عن معسكر أستاذه، بل لعله كان يقترب من معسكر خصوم الإمام من دعاة التقليد "فهو يدعو إلى العودة للمصادر الأولى وحدها، وبالنسبة له فإن العمل والجهد والأمل يتركز فى شىء واحد "الخلافة الإسلامية"، فهى الحكومة المثلى التى بدونها لا يمكن أن يتحسن حال البشرية"^(٦٤). "والدولة الإسلامية الأصلية هى فى الواقع خير الدول ليس بالنسبة للمسلمين فحسب ولكن بالنسبة لسائر البشر فهى وسط بين الجمود وبين حضارة الإفرنج المادية التى تفتك بها ميكروبات الفساد وأوبئة الهلاك فهى عرضة للزوال"^(٦٥)، وهو يبتعد كثيراً عن نهج أستاذه عندما يؤكد أن السيادة المطلقة فى الدولة هى "لأولى الأمر الذين أمر الله بطاعتهم"^(٦٦).

وهكذا تمضى دعوة الأستاذ الإمام على يد تلاميذه يضيّقون بتجديده وليبراليته، فيترجعون بها نحو "التقليد" و"المحافظة" ويستمر التراجع.

فتلاميذ التلاميذ.. أكثر محافظة.. وأكثر تمسكاً بضرورة العودة إلى التقليد. وقد تأثر الشيخ حسن البنا بالأستاذ الإمام، لكنه تأثر أكثر برشيد رضا.. وبالنسبة لجماعة الإخوان المسلمين كان رشيد رضا بمثابة "الأب الروحي" وإن كان الإخوان يقدمون حسن البنا فى صورة "أفغانى" عصره^(٦٧).

ولكن.. إذا كان أحد الإخوان قد قال إن الأفغانى كان مجرد "مؤذن أو هو مجرد صرخة" وأن رشيد رضا كان مجرد "مؤرخ أو هو مسجل" وأن المرشد كان

"بنا"^(٦٨)، فإن الشيخ حسن البنا يورد تقديراً محدوداً لهؤلاء الرواد جميعاً "قالأفغانى كان يرى المشكلات ويحذر منها. وكان محمد عبده يعلم ويفكر، ورشيد رضا يكتب أبحاثاً" لكنهم كانوا جميعاً فى نظره مجرد "مصلحين دينيين وأخلاقيين يفتقدون إلى الرؤية الإسلامية الشاملة"^(٦٩). وربما كان أحد تلاميذ الشيخ البنا أكثر وضوحاً فى تقديم هؤلاء الرواد فهو إذ يمايز بين دعوة محمد عبده ودعوة حسن البنا يقول: "إن دعوة الإخوان المسلمين تتميز عن غيرها بأنها تعنى الجهاد والنضال والعمل. وأنها ليست مجرد رسالة فلسفية"^(٧٠).

ومع ذلك فإنه يتعين علينا ألا ننسى أن الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا والد حسن البنا وأستاذه الأول كان تلميذاً من تلاميذ محمد عبده، وأن الطالب حسن البنا كان قارئاً مثابراً لمجلة "المنار"، ولعله مارس على صفحاتها أولى محاولاته فى الكتابة^(٧١).

وإذ استمر الشيخ رشيد رضا فى تراجعته عن "التجديد" حتى أصبح متمسكاً متمسكاً كاملاً "بالسلفية" مؤكداً أن السلف هم القادرون على فهم المغزى الحقيقى للمبادئ الإسلامية، كما أنزلت فى القرآن ووردت فى الحديث^(٧٢). فإنه يستحق أكثر من غيره من الرواد - الذين كانوا أكثر منه تألقاً - مديح وثناء الشيخ البنا، الذى وصف مجلة "المنار" بأنها قدمت أجل الخدمات للإسلام فى مصر وغيرها من البلدان^(٧٣). والذى تباهى بأن الشيخ رشيد رضا كان على وشك الانضمام لجماعة الإخوان المسلمين قبيل وفاته^(٧٤).

وهكذا يحدد الشيخ حسن البنا موقفه كامتداد أكثر "سلفية" للتيار السلفى من بين تلاميذ محمد عبده.

ويلخص ألبرت حورانى الموقف كله فى عبارة تقول: "إذا كان التاريخ هو ما تعيه ذاكرة الإنسان عن الماضى، فإن الماضى يظل بالنسبة للبعض أملاً يتعين الارتداد إليه، وبالنسبة لبعض المسلمين سيظل العصر الإسلامى الأول صورة وحيدة لما يجب أن يكون عليه العالم"^(٧٥).

وقد فهم البعض الدين فهماً ميكافيلياً. وحاول باستمرار استخدامه أداة في لعبة السياسة والصراع السياسى والاجتماعى.

وثمة عبارة أوردها توماس هوبز صاحب "الليفياتان" أو "الوحش" حول هذا الموضوع (أستميح القارئ ليس فقط فى أن أوردها بنصها، وإنما فى أن أطلب إليه أن يتذكرها من الآن فصاعداً، وهو يطالع صفحات هذا الكتاب. فلربما كانت هذه العبارة قادرة على تفسير الكثير من المواقف التى قد تبدو - فى إطار حسن النية - غير مبررة وغير منطقية).

ويقول توماس هوبز: "الدين هو مجرد مانعة للصواعق الاجتماعية، والكنيسة قوة أخرى من قوات الأمن التى تستخدمها الدولة لحفظ الاستقرار الاجتماعى، لا تختلف عن البوليس والجيش فى طبيعتها، ولكنها أفعل منهما أثراً وأوسع مدى، وربما أقل تكلفة، إنها تقيم على كل إنسان شرطياً ملازماً له داخله"^(٧٦).

وقد نختلف حول تفسير معطيات هذه العبارة، وقد نرفضها، لكنه يتعين علينا أن نستبقها فى ذاكرتنا لتفسير مواقف الكثير من القوى الرجعية تجاه الدين، ومحاولاتها استخدامه واستخدام بعض رجاله ومنظماته كأدوات فى صراعتها الاجتماعى.

وهكذا كان الأمر فى مصر منذ مطلع القرن العشرين، إذ استمرت المحاولات من جانب الاحتلال البريطانى، تارة، والقصر الملكى تارة أخرى، ثم أحزاب الأقليات - عندما نشأت - مرة ثالثة لاستقطاب القوى الدينية واستخدامها أداة "أقل تكلفة" من البوليس فى إحكام قبضتها على الإنسان المؤمن.. وإقامة "شرطى ملازم له فى داخله" يعمل دوماً على إخضاعه لصالحها فى كل مواقف الصراع السياسى والاجتماعى.

والأزهر قلعة الإسلام المكيمة ورمزه الشامخ فى العالم أجمع، من الطبيعى أن يظل محطاً لمؤامرات هذه القوى وإغراءاتها، وهدفاً لاستقطابه فى خضم هذه الصراعات.

وقد حرص الملك فؤاد منذ أن كان سلطاناً على أن يحكم قبضته على الأزهر، وعندما كانت لجنة الثلاثين تصوغ دستور ١٩٢٣ كانت عين فؤاد مركزة أساساً على موضوع العلاقة بين الملك وبين أهم مؤسستين فى ذلك الحين وهما: الأزهر والجيش.

وأنت نصوص المشروع الأول للدستور خالية من أى إشارة لسلطات الملك تجاه الأزهر الأمر الذى يعنى أن لجنة الدستور لم تر منح الملك أى سلطات استثنائية تجاه الأزهر، بل جعلت الإشراف عليه مثله مثل غيره من المؤسسات، للوزارة المسؤولة أمام البرلمان^(٧٧).. لكن مشروع لجنة الثلاثين قد خضع لتعديلات كثيرة، وبعد صراع مرير أسفرت المعركة عن نص يحال إلى قانون يصدر فيما بعد لينظم "الطريقة التى يباشر بها الملك سلطته.. فيما يختص بالمعاهد الدينية وتعيين الرؤساء الدينيين، وبالأوقاف التى تديرها وزارة الأوقاف، وعلى العموم المسائل الخاصة بالأديان المسموح بها فى البلاد"^(٧٨)، و"إذا لم توضع أحكام الشريعة، تستمر مباشرة هذه السلطة طبقاً للقواعد والعادات المعمول بها الآن"^(٧٩)، وهكذا استخلص الملك بهذا النص اعترافاً دستورياً بأن له سلطة خاصة فيما يتعلق بمسائل الأديان وإقراراً دستورياً ببقاء الوضع الراهن، حتى يصدر قانون جديد ينظم هذه السلطة.

ويعترف الشيخ الطواهرى - الذى عينه فؤاد شيخاً للأزهر - بأن الملك فؤاد "كان حريصاً على أن يعرف كل شىء عن الأزهر والمعاهد الدينية، فقد كان جلالته يعتبر هذه الناحية من الأمور المصرية الخاصة به يديرها جلالته بدون وساطة أحد من وزرائه"^(٨٠).

ولقد حاول الملك فؤاد - ونجح إلى حد كبير - فى استقطاب الأزهر لصفه فى مسائل الصراع السياسى، وبالذات فى خصومته ضد سعد زغلول الزعيم المحبوب من شعبه، والذى كان من المستحيل مقاومة مثل هذا النفوذ الذى يتمتع به بغير استقطاب مؤسسة كالأزهر إلى الصف المعاكس له.

وقد بدأت محاولات السراى باستقطاب عدد من شيوخ الأزهر، ثم فى تبنى بعض مطالب الأزهريين وإظهار حكومة سعد بمظهر الرافض لها، وتطور الأمر إلى مطالبة بعض شيوخ الأزهر بما أسموه رفع الوساطة بين الملك وشيوخ الأزهر "كما لا وساطة بين جلالة الملك وبين رئيس الوزراء، إذ لا يليق فى عهد جلالته الميمون أن يحال بين كبير رجال الدين وبين كبير رجال الدنيا"^(٨١)، وفى نوفمبر ١٩٢٤ تبرز ظاهرة جديدة، مظاهرة من طلاب الأزهر تتوجه لاستقبال الملك فؤاد لدى عودته من مصيفه بالإسكندرية وهى تهتف "يسقط سعد زغلول"، "لا رئيس إلا الملك" وتستمر مثل هذه المظاهرات يشجعها الملك وبوليسه والشيوخ من أصدقاء السراى.

وتزخر ملفات البوليس السياسى بتقارير وافية عن هذه المحاولات، ولنورد واحداً منها كنموذج:

محافضة القاهرة.

إدارة الضبط فرع "ب".

الموضوع: تقرير عن حالة الأزهر الشريف يوم ٤ فبراير ١٩٢٧ (نمرة ١٩٠ سياسى سرى).

مطلوب رد.

حضره صاحب المعالى كبير الأمناء لحضرة صاحب الجلالة الملك: أتشرف بإخبار معاليكم أنه كان بالأزهر أمس عدد كبير جداً لمناسبة صلاة الجمعة. فألقيت فيه الخطب الكثيرة طوال النهار وفى الليل أيضاً، وقد كانوا يصيحون بالنداءات الآتية من وقت لآخر "يحيا جلالة الملك - يحيا حسن نشأت باشا - يسقط البرلمان والحكومة وسعد باشا".

وقد كان البوليس مرابطاً على بعد من الجامع الأزهر، ولم تحصل مظاهرات ولم تقع حوادث.

وهذا لمعاليكم للمعلومية.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

تحريراً في ٥ فبراير ١٩٢٧ - حكمдар بوليس مصر. (٨٢).

ويعقب د. عبد العظيم رمضان على هذه العلاقة قائلاً: "استمرت علاقة التحالف بين القصر والأزهر طوال عهد الملك فؤاد وحتى نهاية حياته. ونظراً لأن القصر كان على علاقة تحالف أخرى مع الإنجليز، فلم يكن هناك مفر من أن يتأثر الأزهر بهذه العلاقة أيضاً. وحين اتجهت السياسة البريطانية في ربيع ١٩٣٥ تحت ضغط الحركة الوطنية إلى تقديم بعض الترضيات للجماهير المصرية، فرضت على الملك إخراج الشيخ الظواهري من منصب شيخ الأزهر، وتعيين الشيخ مصطفى المراغى مكانه ولم يجد مفرأ من إجابة الطلب، وكان الشيخ المراغى على صلة بالسلطات البريطانية منذ أن كان موظفاً كبيراً في السودان، وعندما نقل إلى مصر اتصل باللورد جورج لويد المندوب السامى البريطانى، وأصبح على علاقة وطيدة معه، إلى حد أنه لم يكن يمضى أسبوع دون أن يكون الشيخ مدعواً أو زائراً في دار المندوب السامى، كما حكى محمد شفيق رئيس القسم العربى بدار المندوب السامى" (٨٣).

وهكذا امتد التدخل فى شىءون الأزهر وفى أمور الدين، من الملك العاجز، إلى أحزاب الأقليات الفاشلة، إلى الإنجليز المحتلين.

فقط.. لنتذكر الأسطر السابقة ونحن نتابع فى صفحات قادمة علاقات الشيخ حسن البنا بالقصر، وبالشىخ المراغى، ونتابع مواقفه المتشددة تجاه الوفد والمتساهلة، بل والصديقة تجاه أحزاب الأقلية.

هل اللعبة تتكرر؟

لسنا نريد إجابة سريعة، فلننتظر تسلسل الأحداث، ولنترك للاستقصاء العلمى وليس للعاطفة الحكم والقرار.

الشيخ

المسرح الآن معد كي يظهر "البطل".

فبغير الصفحات السابقة يكون الحديث عن الشيخ حسن البنا حديثاً علمياً وموضوعياً أمراً مستحيلاً، ولقد تصور البعض بل وحاولوا كثيراً استخدام أسلوب السيرة الذاتية البحتة في التعريف بالقادة السياسيين ومنهم حسن البنا، ونعتقد أن هذا وإن كان أيسر السبل فإنه أكثرها بعداً عن الأسلوب العلمي لكتابة التاريخ. فعملية التأريخ لقائد سياسى ليست ممكنة بغير تقديم "بانوراما" واسعة وعميقة للمكونات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية لشخصيته ومنهجه وسلوكه.

والآن من هو إذن حسن البنا؟

ربما كانت الإجابة الأكثر دقة هي أنه نبت لهذه الصراعات في تلك الفترة:

- الصراع بين العلم وحركة التنوير عامة وبين القوى المحافظة.

- الصراع بين الوطنية المصرية وبين دعاة الخلافة الإسلامية.

- التبشير.. والتبشير المضاد.

- التناقض بين دعاة الحضارة الغربية وبين رافضيتها.

- الصدام بين "التجديد" و"التقليد".

- دور الدين ومؤسساته في لعبة السياسة.

من هذه الصراعات والتناقضات وفي خضمها نبتت شخصية حسن البنا وتفاعلت واتخذت مواقفها. ولهذا فإنه بغير بحثنا عن هذه الصراعات يوشك الحديث عن حسن البنا أن يكون مسطحاً وبغير عمق وأن يكون مجرد سرد لسيرة ذاتية معزولة عن أحداث مجتمعتها.

اختصار.. لقد كانت الصفحات السابقة حديثاً في صلب موضوعنا وليست

مقدمة.

ولا يبقى أمامنا كي نتعرف تعرفاً مبدئياً على الرجل سوى قليل من الكلمات

عنه^(٨٤).

- الاسم: حسن أحمد عبد الرحمن البنا "الساعاتى".

- تاريخ الميلاد: أكتوبر ١٩٠٦.

- محل الميلاد: المحمودية - بحيرة.

- مهنة الوالد: مأذون الناحية وإمام مسجد القرية، وقد مارس أيضاً مهنة

إصلاح الساعات ومن هنا كان لقب "الساعاتى".

وكان الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا واحداً من طلاب الأزهر على زمن الإمام محمد عبده، وهو واحد من الأزهريين الذين واصلوا طوال حياتهم الدراسة والبحث فى كتب الفقه.

وقد أنجب الشيخ أحمد خمسة أبناء أكبرهم "حسن" الذى حرص أبوه فيما بعد على أن يؤكد على أن مولده وطفولته قد أحاطت بهما هالات من الخوارق والكرامات، وعندما بلغ الطفل الثامنة من عمره دفع به أبوه إلى كتاب القرية حيث تتلمذ على يد أزهري شديد التدين وهو الشيخ محمد زهران.

ويحاول الوالد - بعد وفاة ابنه أن يضيف إلى الصورة الباهرة له فى أذهان مريديه من التفاصيل التى تبدو مبالغاً فيها، فالطفل ابن الثامنة ينزعج من منظر تمثال لامرأة شبه عارية فوق أحد زوارق النهر فى قريته فيلجأ للبوليس ويصمم على إزالة التمثال وينجح فيما أراد^(٨٥) فهل هذا منطقى؟

ومن الكتاب إلى المدرسة الابتدائية فى سن الثانية عشرة، وهناك التقى بمدرس متدين آخر ضمه إلى جماعة بالمدرسة اسمها "جماعة السلوك الاجتماعى" وهى جماعة استهدفت ترويض نفوس أعضائها من التلاميذ وإلزامهم بالتحلى بالأخلاق الحميدة فى سلوكهم اليومى والتعفف عن الشوائم أو مخالفة تعاليم الدين، وكانت الغرامات المالية المرهقة بالنسبة لتلاميذ فقراء هى سلاح الإرغام فى يد الجماعة.

وسرعان ما أصبح الفتى المتدين ابن الشيخ المتدين تلميذ معلم الكتاب شديد التدين رئيساً للجماعة، ولكنه سرعان ما اكتشف أيضاً ضعف منطلقات الجماعة فأسس مع عدد من زملائه الأكثر حماساً "جماعة النهى عن المنكر" وكان هدفها

فرض الالتزام بتعاليم الدين من خلال توجيه خطابات تهديد إلى من ترى أنهم من بين سكان المدينة، لا يلتزمون بهذه التعاليم.

وسريعاً تأتي الخطوة التالية.. فمن "جماعة النهى عن المنكر"، إلى جماعة صوفية اسمها "إخوان الحصافية".. وهكذا أصبح الفتى التلميذ بالمدرسة الابتدائية "صوفياً" يحضر حلقات الذكر ويهتز في صفوفها مع رجال أكبر منه سناً بكثير، لكنه يلتقى في حلقات الذكر بتلميذ صغير السن مثله هو أحمد السكري، ولعل التلميذين على حداثة سنهما قد وجدا أن "التطوح" في حلقات الذكر لا يكفى وأنه من الضروري القيام بعمل ما للحفاظ على تعاليم الدين ولمقاومة النشاط التبشيري الذي قيل إنه قد هبط إلى المدينة الصغيرة فأثار كثيراً من المشاعر فيها، وهكذا أسس التلميذان مع زمرة من زملائهما جمعية جديدة اسمها "جمعية الحصافية" ظلت تعتبر نفسها فرعاً من الجماعة الصوفية الكبيرة لكنها تتميز عنها بالعمل الجدى للحفاظ على تعاليم الدين، وعلى مقاومة البعثات التبشيرية. وأصبح حسن سكربتيراً للجمعية، وكان لا يزال في الثالثة عشرة من عمره.

ثم عام واحد أو عامان - إذن - قفز فيهما الفتى الصغير من "جماعة السلوك الاجتماعي" إلى "النهى عن المنكر" إلى حلقات الذكر الحصافية.. إلى "العمل الجاد" دفاعاً عن الإسلام.

عام آخر.. ويلتحق الفتى ابن الرابعة عشرة بمدرسة المعلمين الأولية في دمنهور حيث ينغمس أكثر فأكثر في النشاط الدينى وفي حلقات الذكر للحصافيين الأمر الذى يمكنه فى عام ١٩٢٢ من أن يصبح عضواً عاملاً فى صفوفهم. وبلغ به الحماس إلى درجة ارتدائه لبعض الوقت العباءة البيضاء والعمامة ذات الذؤابة.. وبدأ فى دراسة كتب الفقه الإسلامى، وفى هذه الأيام يصطدم الفتى بكتاب أبو حامد الغزالى "إحياء علوم الدين" ويصطدم بما يقوله الغزالى من أن التعليم يجب أن يقتصر على ما هو ضرورى "لتحقيق الواجبات الدينية واكتساب الرزق" ويتساءل الفتى فى حيرة عن مدى فائدة استمراره فى الدراسة بمدرسة المعلمين

الأولية. وبعد تردد واصل الفتى دراسته فى الدراسة بمدرسة المعلمين الأولية حتى تركها فى عام ١٩٢٣ ليلتحق بدار العلوم.

وهكذا يصل الفتى الحصافى الانتماء الريفى النزعة إلى قاهرة العشرينيات (٨٦). التى كانت تموج بصراعات حزبية مريرة، وبتيارات علمانية عارمة، وباتجاه قوى نحو المدنية الحديثة.. وفى أثناء ذلك كانت الثورة الكمالية تلهم الليبراليين ودعاة التجديد المزيد من الشجاعة، والمحافظين ودعاة الخلافة المزيد من السخط والتشدد.

وتلقت الفتى حوله بعين متشكك يرى فى كل ما حوله "إضعافاً لشأن الدين" (٨٧). وعن هذا الخضم العارم يكتب البنا عن حيرته هو وزملاؤه: "والله وحده يعلم كم أمضينا من ليالٍ لبحث حال الأمة، نحلل العلة ونفكر فى وسائل العلاج الممكنة ولقد بلغ بنا القلق درجة وصلنا معها إلى حد البكاء" (٨٨).. ولا ملاذ لفتى ريفى شديد التدين يشعر بالغرابة القائلة فى مدينة القاهرة سوى "الصوفية". ومن جديد يعود الفتى للاتصال بجمعية الحصافية وإلى جوارها ينضم إلى جمعية أخرى تنظم المحاضرات الإسلامية هى "جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية".

هو إذن صوفى يأخذ نفسه بالجد فى العبادات كغيره من أبناء جماعته، وهو باحث عن المعرفة الإسلامية يستمع إلى محاضراتها. ولكن ذلك لا يصلح حال القاهرة المتمردة أمام عينيه، تلك المدينة التى يشعر تجاهها بغربة قاتلة، وتجاه تصرفات جمهورها برفض قاطع. هنا تتكون النفحة الأساسية التى حركت وجدان الفتى طوال ما بقى من حياته "المسجد وحده لا يكفى"، فلا بد من رجال يهبون حياتهم "للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". ومنه ومن عدد من أصدقائه الطلاب فى دار العلوم، والأزهر تكونت مجموعات للوعظ والإرشاد فى المساجد والمقاهى وغيرها من التجمعات الشعبية. وكان هدف البنا المحدد هو سد هذه الهوة التى تفصل بين الحياة الفعلية للإنسان المسلم وبين التعاليم الإسلامية، وذلك بحثاً المسلم على أن يتكيف بحياته ويحصرها فى إطار هذه التعاليم. ومن القاهرة إلى

الريف انطلق الشبان الذين أصبح من الممكن اعتبارهم النواة الأولى لجماعة الإخوان المسلمين^(٨٩).

وفى هذه الأثناء كان الفتى الشيخ حائراً يبحث عن مشورة لدى الجيل الأكبر سناً من رجال الدين. وفى المكتبة السلفية تعرف على مديرها محيى الدين الخطيب، ثم تعرف على الشيخ رشيد رضا، وفريد وجدى وأحمد تيمور باشا محاولاً أن يستلهم من هؤلاء طريقاً جديداً للعمل من أجل الإسلام^(٩٠).

والتقى أيضاً بمشايع الأزهر فلم يعجبه منهم استسلامهم أمام التيارات غير الدينية. وبدأت علاقاته بهذه الفئة من الموظفين الدينيين - كما أسماهم هو - توترقه. فإذا كان شيوخ الأزهر على هذا الحال من الاستسلام فما هو السبيل؟ كان الفتى يدرك أنه لا بد من عمل ما. لا بد من طريقة ما لنشر الدعوة الإسلامية ومقاومة هذه التيارات الجارفة للمدنية الحديثة وللدعوى العلمية والعلمانية.

لكن واحداً ممن قابلهم لم يسد له نصحاً وافياً ولا إجابة شافية.

وفى السنة النهائية بدار العلوم طُلب إليه كتابة مقال مدرسى موضوعه "تحدث عن الآمال الكبيرة التى تراودك بعد إتمام دراستك. وبين كيف ستعد نفسك لتحقيق تلك الآمال".. وعبر الفتى عن طموحه ومشاعره فى هذا المقال قائلاً: "إن أفضل الناس هم أولئك الذين يحققون سعادتهم بتوفير سبل السعادة للآخرين والتفانى بالعمل الصادق فى خدمة الإنسانية، عن طريق التعليم وإسداء النصح".

ويسكب الفتى على الورق كل ما فى نفسه من مرارة "أننى أعتقد أن شعبى قد ابتعد عن أهداف إيمانه نتيجة للمراحل السياسية التى مر بها، والتأثيرات الاجتماعية التى تعرض لها، وتحت تأثير الحضارة الغربية والفلسفة المادية والتقاليد الإفرنجية". وهكذا فقد أصبح إيمان الشباب فاسداً وسادت بينهم مشاعر "الشك والحيرة، وبدلاً من الإيمان نفشى الإلحاد". وبعد كل هذا القدر من النقد لمجتمعه يقرر الفتى الشيخ إطار مستقبله "أن يكون ناصحاً ومعلماً، وأن يكرس نفسه لتعليم الأطفال بالنهار وآبائهم بالليل،

مبصراً إياهم بأهداف الدين والمصادر الأصلية لرفاهيتهم وسعادتهم فى الحياة ويتعهد بأن يمنح لهذه المهمة أقصى ما يمكنه من مثابرة ونكران ذات، ومن فهم ودراسة، "واهباً لذلك جسداً يتشوق لمواجهة المصاعب وروحاً نذرنا لله". ثم يختم مقاله بعبارة: "هذا عهد بينى وبين ربى" (٩١).

بهذه المشاعر يتخرج الفتى الشيخ حسن البنا فى كلية دار العلوم عام ١٩٢٧، ويعين مدرساً للغة العربية بمدرسة ابتدائية فى مدينة الإسماعيلية. وهكذا أعد المسرح.. وتهياً للبطل. ولا يبقى أماننا سوى أن نتابع الأحداث.

وفىما سبق من صفحات ألقينا حزمة ضوء مختصرة على صورة مصر "تلك الزمان" وحزمة أخرى على نشأة الشاب حسن البنا. فماذا لو التقطنا لهما صورة معاً؟ هنا سنكتشف أننا أمام رجل جديد. والجديد فى الأمر أنه رجل جديد تماماً، مختلف تماماً. فحسن البنا جاء مختلفاً عن كل من سبقوه من مفكرين إسلاميين من رفاة الطهطاوى إلى محمد عبده، وهو أيضاً مختلف عن كل من عاصره من السياسيين. وهو الذى لم يهتم بأن يتقف رجاله بأصول الشريعة وأحكامها كما فعل الآخرون، ومع ذلك فقد استطاع أن يقنعهم أو يوهمهم - سيان - أنهم حماة الدين ودعائه. وأنهم الأعلى إيماناً، والأكثر إسلاماً.. وأنهم "رهبان الليل وفرسان النهار". وفىما كانت مصر منهمكة فى مفردات محددة: الاستقلال الوطنى، الدستور، العدالة الاجتماعية.. وتخوض حول هذه المفردات معارك ضد الاحتلال تارة وضد الملك تارة، وتارة أخرى ضد الطبقات الغنية. قفز هذا الشاب بمفردات مختلفة وربما نقيضة فى بعض الأحيان.

الحزب تقابله كلمة "الجماعة" والاختيار لكلمة الجماعة اختيار مدروس وربما كان ماكرراً فهنا يمكن الخلط بين "الجماعة" كمنظمة أو جمعية وبين "الجماعة"

كمجموع من المسلمين.

وهنا - وعند الضرورة - يمكن الاستناد إلى الحديث الشريف "من خرج على الجماعة فاضربوه بحد السيف"، وهكذا فعل الأستاذ البنا تماماً، فلدى أول انشقاق ضده أمر بضرب المنشقين "علقة ساخنة" استناداً إلى الحديث الشريف.

والتحرك الحزبي يطلق عليه "الدعوة" والانضمام للجماعة هو والنضال سواء كان وطنياً أو سياسياً أو اجتماعياً حلت محله كلمة "الجهاد".

والصواب والخطأ حل محلها الحلال والحرام.

هذه النغمة الجديدة صنع منها حسن البنا بناء أعاد إلى الأذهان ما كان في الزمان القديم من تسييس للدين، أى استخدام للدين فى الصراع السياسى. ذلك الصراع الذى نشب منذ عثمان وبين على ومعاوية والذى تسترت المصالح القبلية والشخصية فيه برداء الدين وبادعاء أن هذا الطرف هو صحيح الدين وأن الآخر هو "الكافر".

طوى حسن البنا صفحات عديدة من التاريخ، وتجاهل كل الشعارات والمواقف والقيم السائدة. وتبدى جديداً. لكنه جديد سلفى. جديد يعود إلى الوراء، جديد يتخذ من الدين رداءً يتراوح به وجماعته بين الجماعة الدينية والحزب السياسى والجيش المسلح.. حسب الحاجة. وفى البداية صاح البنا "نحن سلفيون من أتباع الشيخ رشيد رضا" لكن سلفية الشيخ رشيد رضا أتت فى أوعية فكرية، وعبر صراعات إقليمية، أما سلفية الأستاذ البنا فقد تحولت إلى ما سنراه عبر الصفحات المقبلة.

الهوامش

- (١) د. شبلى شميل - فلسفة النشوء والارتقاء - الطبعة الثانية - مطبعة المقتطف (١٩١٠).
- (٢) المرجع السابق - ص ٢٨.
- (٣) المقتطف - مجموعة عام ١٨٧٦.
- (٤) محمد عبد الغنى حسن - عبد الله فكرى - سلسلة أعلام العرب - ص ١٩ وما بعدها.
- (٥) مجلة البصير - مجموعة عام ١٨٧٨ - مقال: "القضاء على القضاء".
- (٦) د. شبلى شميل - المرجع السابق - ص ٢٧.
- (٧) د. شبلى شميل - الجزء الثانى - من مجموعة كتاباته (١٩٠٨) ص ٦٢.
- (٨) الأخبار - مجموعة عام ١٩٠٩ مقال: ضحايا الجهل لشبلى شميل.
- (٩) ولى الدين يكن - المعلوم والمجهول - الجزء الثانى - ص ١٥٩.
- (١٠) ولى الدين يكن - التجاريف - ص ٢٣.
- (١١) مجلة الهلال - مجموعة ١٩٦٨.
- (١٢) تفسير الخطيب الشربيني - الجزء الثانى - ص ٣٢٨ - ٢٣١.
- (١٣) مارسيل كولومب - تطور مصر ١٩٢٤ - ١٩٥٠ - ترجمة زهير الشايب (١٩٧٢ ص ١٥٩).
- (١٤) الكاتب - يناير ١٩٧٤ - مقال صلاح عيسى بعنوان: طه حسين ومحنة العقلانية فى مصر.
- (١٥) الأخبار - ٢٧/٢/١٩٧٣ مقال الشيخ أحمد حسن الباقورى بعنوان: هذا الرجل لماذا يظل هدفاً للمهاجمين؟
- (16) Kamel -M-Egyptians et anglais _ paris, 2em édition (1906) p.181.
- (١٧) عدلى فهمى كامل - سيرة مصطفى كامل - الجزء الأول - ص ٣٧٨.
- (١٨) أنور الجندى - عبد العزيز جاويز - ص ٨٣.
- (19) Ahmed J -The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism - Oxford (1960) - p.78.
- (٢٠) محمد صبيح - مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية - ص ٣٨٩.
- (٢١) المرجع السابق.
- (٢٢) حسن البنا - قومية الإسلام "مقال".
- (23) Khadduri, M-Political Trends in The Arab World-London (1972)-p. 55.
- (24) Berger, M - The Arab Eorld Today - New york (1964) - p.318
- (25) Khadduri, Ibid - p.70.
- (٢٦) من مذكرات شيخ الإسلام الطواهرى - السياسة والأزهر - مطبعة الاعتماد (١٩٤٥) - ص ١١.
- (٢٧) المرجع السابق - ص ١٢٣.
- (٢٨) المرجع السابق - ص ٢١٧.
- (٢٩) على عبد الرازق - الإسلام وأصول الحكم - القاهرة (١٩٢٥).

- (٣٠) آخر ساعة مجموعة عام ١٩٧٠ - مقال محمود عوض بعنوان اتهام ملكى للشيخ بالإلحاد.
- (31) Von Grunebaum - Modern Islam, The Search For Cultural Identity - New York - p.65.
- (٣٢) إسرائيل - أعداد ١٧، ٣١ يوليو ١٩٣١ - ٥ فبراير ١٩٣٢.
- (٣٣) د. محمد جابر الأنصارى - تحولات الفكر والسياسة فى الشرق العربى، (١٩٣٠ - ١٩٧٠) - ص ١١٦.
- (٣٤) د. محمد محمد حسين - الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر - ج ٢ - ص ١٥٣.
- (٣٥) حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية - ص ١٤٧.
- (٣٦) محمود عبد الحليم - الإخوان المسلمون - أحداث صنعت التاريخ، رؤية من الداخل - ج ١ - ص ٣٦.
- (٣٧) محمد شوقى زكى - الإخوان المسلمون والمجتمع المصرى (١٩٥٤) - ص ٦٠.
- (38) Mitchell, R. - The Society Of Muslim Brothers - Oxford - London (1969).
- (٣٩) حسن البنا - الرسائل الثلاث - ص ٨٧ وما بعدها.
- (٤٠) الشهاب - ١٤ نوفمبر ١٩٤٧.
- (٤١) الشيخ محمد الغزالي - من هنا نعلم - ص ١٦٥.
- (٤٢) رفاة الطهطاوى - مناهج الأبواب المصرية فى مباحج الآداب العصرية - الطبعة الثانية - ص ١٣١.
- (٤٣) المرجع السابق - ص ٩٣.
- (٤٤) عبد الرحمن الكواكبي - طبائع الاستبداد فى مصارع الاستبعاد - مطبعة الدستور العثمانى (١٣١٣هـ) - ص ٥٩.
- (٤٥) المرجع السابق - ص ٥٠.
- (٤٦) المرجع السابق - ص ٦٩.
- (٤٧) عبد الرحمن الكواكبي: أم القرى - طبعة محمود أفندى طاهر صاحب جريدة العرب - ص ٤١.
- (٤٨) جمال الدين الأفغانى - الرد على الدهريين - ترجمة محمد عبده عارف أبى تراب - الطبعة الرابعة (١٩١٤).
- (٤٩) جمال الدين الأفغانى - خاطرات جمال الدين - أملاه على محمود باشا المخزومى - بيروت (١٩٣١).
- (٥٠) مارسيل كولومب - المرجع السابق - ص ١٥٧.
- (51) Blunt, W. - Secret History Of the English occupation of Egypt - London (1907) - p.493.
- (٥٢) د. على الحديدى - عبد الله النديم - ص ١٧٧.
- (٥٣) الكاتب - أغسطس ١٩٧٤ - مقال طارق البشرى بعنوان: الأزهر بين القصر والحركة الوطنية.
- (54) New Middle East, January - February 1975.
- Egypt in Search of Religious and political community. Article by deismnd Stewart.
- (٥٥) مجلة الإنذاعة والتلفزيون - ١٠/٧/١٩٧١ - مقال د. عثمان أمين بعنوان: "صفحة مجهولة من تاريخنا الفكرى".
- (56) Khadduri- Ibid - p.63.
- (57) Adams - Islam and Moderenismin Egypt - p39 and p. 135.
- (58) Khadduri- Ibid - p.61.
- (59) Khadduri- Ibid - p.56.
- (60) Ibid - p.65.

- (٦١) لمزيد من التفاصيل حول العلاقة بين تعاليم الشيخ محمد عبده وأفكار رشيد رضا راجع: سامى الدهان، قدامى ومعاصرون - القاهرة (١٩٦١) - ص ١٧٣ وما بعدها، وأيضاً إبراهيم العدوى - رشيد رضا.
- (٦٢) مارسيل كولومب - المرجع السابق - ص ١٨٦.
- (٦٣) رشيد رضا - الخلافة أو الإمامة العظمى - مطبعة المنار بمصر (١٣٤١ هـ) - ص ١٠١.
- (٦٤) المرجع السابق - ص ١١٦.
- (٦٥) المرجع السابق - ص ١٢٨.
- (٦٦) رشيد رضا - كتاب الوحي - ص ٢٣٩.
- (67) Smith, Wilfed Cstntwell- Islam in The Modern History (1957) - p.51.
- (٦٨) الدعوة - ٢٠-٢-١٥٩١.
- (٦٩) حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية - ص ٥٨.
- (٧٠) أحمد أنس الحجاجي، الرجل الذى أشعل الثورة (١٩٥٢) - ص ٤٣.
- (71) Mitchell - Ibid - p.322.
- (72) Khadduri- Ibid - p.67.
- (٧٣) مذكرات الدعوة والداعية - ص ٢٧٢.
- (٧٤) لمزيد من التفاصيل حول المقارنة بين أفكار رشيد رضا وحسن البنا راجع
- Safran, Nadav- Egypt in Search Of Political Community. (1960) -p.291.
- (75) Hourani, Albert - Arabic Thought in The Liberal Age .1789- 1939 - Oxford (1970).
- (٧٦) نقلاً عن د. لويس عوض - تاريخ الفكر المصرى الحديث - الجزء الثانى - كتاب الهلال عدد أبريل ١٩٦٩ - ص ٢٨٢.
- (٧٧) دستور ١٩٢٣م - ١٥٣.
- (٧٨) الكاتب - أغسطس ١٩٧٤ - مقال طارق البشرى بعنوان: الأزهر بين القصر والحركة الوطنية.
- (٧٩) من مذكرات شيخ الإسلام الظواهرى - المرجع السابق - ص ٧٩.
- (٨٠) الأخبار - ٤-١-١٩٢٤.
- (٨١) الأخبار - ١١-١١-١٩٢٤.
- (٨٢) جمال سليم - البوليس السياسى يحكم مصر - دار القاهرة للثقافة العربية - ص ٣١٥.
- (٨٣) صباح الخير - ٣١-٣-١٩٧٧. مقال د. عبد العظيم رمضان بعنوان: الدين فى الصراع السياسى.
- (٨٤) للمزيد من التفاصيل عن حياة حسن البنا:
- راجع: مذكرات الدعوة والداعية.
- موسى إسحاق الحسينى - الإخوان كبرى الحركات الإسلامية الحديثة.
- أعداد مجلة "الدعوة" الصادرة فى ذكرى وفاته فى ١٣ فبراير ١٩٥١، فبراير ١٩٥٢ و ١٠ فبراير ١٩٥٣، ١٦ فبراير ١٩٥٤.
- (٨٥) المصور ٢٩-٨-١٩٥٢ الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا - مقال أورد فيه الكثير من القصص المماثلة والتي تغمرها مبالغات ضخمة.

- (٨٦) محمد حبيب أحمد - نهضة الشعوب الإسلامية في العصر الحديث - ص ١٥ .
- (٨٧) أنور الجندي - قائد الدعوة حياة رجل وتاريخ مدرسة - ص ١٣٧ .
- (٨٨) حسن البنا - رسالة المؤتمر الخامس - ص ٧ .
- (٨٩) المرجع السابق ص ٧ .
- (٩٠) حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية - ص ٤٩ .
- (٩١) أحمد أنس الحجاجي - روح وريحان - ص ٨٥ .

الفصل الثانى

الشيخ البنا .. والجماعة

نحن الآن نقرب من نهاية العشرينيات.. ويمسك الشيخ البنا بقلمه ليصف هذه الفترة قائلاً: "إنه الوقت الذى تأرجحت فيه الأمة المصرية فى حياتها الاجتماعية بين إسلامها العزيز والذى ورثته وحمته وألفته، وعاشت به واعتز بها أربعة عشر قرناً كاملة، وبين هذا الغزو الغربى العنيف المسلح والمجهز بكل الأسلحة الماضية الفتاكة من المال والجاه والمظهر والمتعة ووسائل الدعاية"^(١).

وكانت محاولات الاستفزاز للمشاعر الإسلامية مستمرة، وتتداخل فيها عناصر مريبة، وقد رأينا كيف أن صحيفة "إسرائيل" لصاحبها "ألبرت موصيرى" وكانت جريدة صهيونية صرفة تجاهر بصهيونيتها^(٢) شنت حملاتها حول موضوع "التبشير" فنشرت سلسلة من المقالات التحريضية تحت عنوان "كيف حاولوا تبشيرى" تتحدث فيها عن محاولات تنصير التلاميذ اليهود والمسلمين فى المدارس الكاثوليكية^(٣)، وتتصاعد فى نفس الوقت الموسيقى المصاحبة من الجانب الآخر، حيث تمارس جماعات مشبوهة محاولات للتبشير، بل وشرذمة واستقطاب عدد من المسيحيين الأرثوذكس نحو الكاثوليكية أو مذاهب لم تكن معروفة فى مصر.

وكانت التجربة الدستورية تتعثر، والبناء الرأسمالى يتعثر أيضاً، والأزمة الاقتصادية العالمية تنعكس آثارها عنيفة على مصر لتشعر الجميع بالإحباط.. ويحاول البعض أن يجد فى "الإسلامية" مخرجاً من هذه الأزمات المتلاحقة.

وفى ١٩ سبتمبر ١٩٢٧ يبدأ العام الدراسى، ويكون على المدرس الشاب أن يرحل إلى مدينة جديدة تماماً، وهو يعترف بأنه لم يكن يعرف موقعها على الخريطة، وكل ما كان يعرفه عنها أنها ترتبط بقناة السويس، وأن فيها معسكرات للمحتلين الإنجليز^(٤).

وفى الإسماعيلية يهب الشاب حياته لتنفيذ الفكرة التى آمن بها والتى سجلها كتابه فى موضوع بحثه الذى قدمه لدار العلوم والذى أشرنا إليه سابقاً. كان يعلم

الأطفال نهائراً، وآباءهم ليلاً ومعظم هؤلاء الآباء عمال وموظفون صغار وتجار بسطاء^(٥)، ومن المدرسة إلى المسجد يلقي خطباً ومواعظ، ومن المسجد إلى المقاهي يتحدث ويخطب ويناقش، ومن خلال ذلك كله ينتقى أكثر الناس اهتماماً ليكون منهم مجموعة خاصة يمنحها المزيد من وقته وجهده.

ويحدد المدرس الشاب أسهم اتجاهه.. إنه يريد أن يمسك بمصادر النفوذ في المدينة وقد حدد هذه المصادر:

١- العلماء.

٢- مشايخ الطرق الصوفية.

٣- عليّة القوم.

٤- النوادي^(٦).

وكانت المدينة تعاني من السيطرة الأجنبية الكاملة، كل شيء للاحتلال ولشركة قناة السويس، حتى لافتات الشوارع مكتوبة بالإنجليزية، أما المصريون فلا يخصهم في هذه المدينة سوى "البؤس". وعلى أي حال فإن دعوة حسن البنا "لم تكن موجهة إلى كبار موظفي شركة القناة وإنما إلى العمال المطحونين وإلى الفقراء، وهؤلاء الذين عاشوا الحرمان في مواجهة الامتيازات الصارخة للمجتمع الأوروبي في المدينة، كانوا على أتم استعداد للإنصات لدعوة البنا"^(٧).

ولعل هذه المفارقة ذات مغزى، فالبنا يبحث عن الأعيان فيأتيه العمال.. وأغلب الظن أنهم أتوا إليه عبر الطرق الصوفية.

ورغم انهماك حسن البنا في عمله الجديد في الإسماعيلية، ورغم إحساسه بخصوبة التربة في الإسماعيلية وسرعة عطائها، فإنه لم يقطع علاقاته بالقاهرة. تلك المدينة التي لم ينس لها أبداً خطاياها.

وفي عام ١٩٢٧ أيضاً كانت هناك في القاهرة - ولنفس الأسباب التي حركت وجدان الشيخ الشاب في الإسماعيلية - حركة متقدمة بين بعض الدعاة الإسلاميين انعكست في تشكيل جمعيات دينية ذات طابع اجتماعي، تعمل على تربية الجيل

الجديد، وفقاً للتعاليم والأخلاقيات الإسلامية، ودونما خوض في الواجبات الملحة تجاه المجتمع ككل، وكانت أهم هذه الجمعيات "جمعية الشبان المسلمين"^(٨). وقد أسهم في تأسيس هذه الجماعة العديد من الشخصيات الإسلامية بعضها من رجال الحزب الوطني (عبد الحميد بك سعيد والشيخ عبد العزيز جاويش) وبعضها من تلاميذ الشيخ محمد عبده "أحمد تيمور باشا، ومحب الدين الخطيب ومحمد الخضر حسين"^(٩). والحقيقة أن جمعية الشبان المسلمين رغم أنها "قد رفعت شعارات دينية صريحة إلا أنها لم تهتم في نشاطها العملي بتعميق التعاليم الإسلامية، كذلك فإنها قد توجهت أساساً إلى الشبان ودوائر المتعلمين ولم تبذل أى جهد للتوجه نحو الجماهير، وكانت الحاجة ملحة في الدوائر الإسلامية إلى التركيز على العمل الديني في مواجهة التيارات العلمانية.. وهكذا تكونت جماعات عدة ذات واجهات إسلامية لكن أحداً منها لم يستطع أن يعمق جذوره، وأن يكسب تأييداً كذلك الذي كسبته جماعة الإخوان المسلمين"^(١٠).

وهكذا فإن حسن البناء، رغم اتصالاته بجماعة الشبان المسلمين وبرغم أنه كان مراسلاً في الإسماعيلية لمجلة "الفتح" التي أشرف على تحريرها محب الدين الخطيب أحد قادة الشبان المسلمين إلا أنه كان يشعر بالحاجة إلى تأسيس جماعة من نوع جديد.

وكانت اتصالاته في الإسماعيلية تتبلور في عدد محدود، ورغم جهده المكثف واتصالاته الواسعة.. تبلور الأمر في البداية في ستة من العاملين بالمعسكرات البريطانية.

كان ذلك في مارس ١٩٢٨.. عندما اجتمع البناء بالرجال الستة وقد حرص البناء أن يروي لنا قصة الاجتماع الأول، وأن يرويّه بأسلوب درامي يوحي بأن الدعوة قد نبعت من نفوس أتباعه وأنه لم يفرضها على أحد. لقد تجمع الرجال الستة.. وتوجهوا لحسن البناء، وبعد أن شكروه على ما بذله من جهد في تعليمهم وتعريفهم بأمور دينهم قالوا: "لقد سمعنا ووعينا وتأثرنا، ونحن لا نعرف السبيل العملي

للوصول إلى عزة الإسلام وخدمة ورفاهية المسلمين.. لقد سئمنا حياة الذل والقيد هذه.. وعار علينا أن نرى العرب والمسلمين بلا منزلة ولا كرامة إذ أنهم ليسوا أكثر من أجراء وتابعين للأجانب ونحن لا نملك شيئاً إلا دمنا وأرواحنا.. وقليل من المال، وإننا لنشعر بالعجز عن تفهم الطريق إلى العمل كما تفهمه أنت، ولا نعرف الطريق إلى خدمة الوطن والدين كما تعرفه أنت. وكل ما نرغب فيه الآن هو أن نقدم لك ما نملكه حتى نصبح في حل من المسؤولية أمام الله. ولكي تصبح أنت مسؤولاً أمامه عما يجب أن نقوم به، فإذا تعاهدت مجموعة أمام الله وبإخلاص على أن تحيا في سبيل دينها وأن تموت في سبيله، وعلى ألا تسعى إلا إلى ما في رضا، فسوف تضمن نجاحها وفلاحها مهما قل عدد أعضائها" (١١).

وتبدو الصورة الدرامية واضحة من فخامة الأسلوب وعمق الفكرة. ولعلها تبدو كذلك أيضاً عندما يؤكد الشيخ البنا في حرص على أن الدعوة قد جاءت ولم يطلبها، والبيعة قد أنته ولم يذهب إليها، وأنه حمل على كتفيه - دون أن يطلب لنفسه - مسؤولية القائد. وتبدو هذه العبارات الفخمة والحماسية مثيرة للحيرة إذا علمنا حقيقة أصحابها. ونطالع للأستاذ البنا: "وفي ذى القعدة ١٣٤٧ هـ (مارس ١٩٢٨) فيما أذكر زارني بالمنزل أولئك الإخوة الستة حافظ عبد الحميد (نجار) أحمد الحصري (حلاق) فؤاد إبراهيم (مكوجي) عبد الرحمن حسب الله (سائق) إسماعيل عز (جنائني) وزكي المغربي (عجلاتي)، وجلسوا يتحدثون إليّ وفي صوتهم قوة، وفي عيونهم بريق، وفي وجوههم سنا الإيمان والعزم وقالوا:..." (١٢).

فهل يمكن أن تكون هذه ألفاظ وعبارات صادرة من هؤلاء؟ إن الأستاذ حسن البنا قد أتقن دوماً فن إخراج المواقف والإيحاء بقوتها وفخامتها، لكنني أعتقد أنه لم يتقن فن صياغة الألفاظ وفق المستوى الثقافي والمعرفي واللغوي لأصحابها. ولكن ذلك كله يمكن أن يفهم في إطار التعبئة الروحية التي أتقن فنونها والتي اعتاد الإخوان أن يتقبلوها دون تردد، بل ودون تمحيص.

ويكاد "رينتشارد ميتشيل" أن يقرر ذات الفكرة فهو يتوقف أمام العبارات المتقنة

المنسوبة لهؤلاء العمال قائلاً: "لا يمكن التحقق مما قالوه بالفعل فى تلك المناسبة، أما ما نسب إليهم فهو جدير بالاهتمام لسببين أولهما: تلخيصه الدرامى الذى لا يخلو من دقة لمطامح الحركة وروحها، وثانيهما تعبيره بوضوح عما أصبح مصدراً رئيسياً لقوتها وهو طبيعة العلاقة بين القائد والأتباع"^(١٣).

وفى هذا الإطار يحرص البنا على أن قيادة الدعوة وسيطرته عليها وإمامته لها قد جاءت دون أن يطلبها، أو يسعى إليها، وهو ما نشك فيه كثيراً.

وتكتمل الصورة الدرامية عندما يتحدث البنا عن تأثيره العميق بكلمات الرجال الستة، وتهيبه من تحمل المسؤولية التى أقيت على عاتقه، وكيف أنهم أقسموا جميعاً على أن يكونوا "جنداً لرسالة الإسلام" وتباحثوا فى اسم للجماعة فقال البنا "نحن إخوة فى خدمة الإسلام ومن ثم فنحن الإخوان المسلمون"^(١٤).

ورغم اختلاف الشيخ البنا مع رؤية الجماعات الدينية السابقة إلا أنه قد أعلن عن نفسه فى البداية كجماعة دينية خالصة هدفها "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"^(١٥).

ويلاحظ أن البنا قد أكد أن جمعيته لم تكن فى البداية سوى امتداد للجمعية "الحصافية الخيرية" التى دعت إلى مكارم الأخلاق ومقاومة المنكرات وحملات التبشير "وقد كافحت الجمعية فى سبيل رسالتها مكافحة مشكورة وخلفتها فى هذا الكفاح جمعية الإخوان المسلمين"^(١٦). وكان البنا يؤكد فى البداية أن هدف جمعيته يتلخص فى "الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله، وتطهير العقول من الخرافات والأوهام، وإرجاع الناس إلى هدى الإسلام الحنيف"^(١٧).

ويلاحظ أحد الباحثين أن هذه الأهداف لم تكن تختلف مطلقاً عن هدف أى جماعة إسلامية خيرية^(١٨) ويعزز استنتاجه هذا برؤية لأحد مؤسسى الجماعة هو د. عبد الرحمن حسب الله فى ذكرياته التى يؤكد فيها أن الجماعة كانت فى البداية تمثل جمعية خيرية^(١٩).

لكن البنا يعود وبعد فترة ليؤكد "أيها الإخوان: أنتم لستم جمعية خيرية ولا حزباً سياسياً ولا هيئة موضوعية الأهداف محدودة المقاصد، ولكنكم روح جديد يسرى فى

قلب هذه الأمة ينجيهِ بالقرآن، ونور جديد يشرق فيبدد ظلام المادة بمعرفة الله^(٢٠).. إنها كلمات مطاطة لا يمكن لأى باحث أن يمسك بها.

ويلاحظ باحث آخر أن البنا كان يقدم لأتباعه مزيجاً من "التقاليد الصوفية المتجردة، مع الفكر العقائدى ولكن دون محتوى نظرى ولو حتى فى إطار إسلامى بحث"^(٢١).

وربما كان ذلك بسبب حرص البنا على عدم التمثه بجماعته، بمعنى عدم إعلان انتماء جماعته أو تفضيلها لمذهب من المذاهب الأربعة أو لغيرها من المدارس أو الحركات التى ظهرت على الامتداد التاريخى للعمل الإسلامى. فالمذاهب الأربعة واجبة الاحترام والاختلافات بينها يتعين النظر إليها بعين الحب والإخاء. فقد حرص البنا على ألا يدع مجالاً للاختلاف بين المسلمين إزاء دعوته^(٢٢).

وعلى أى حال فقد "نجحت جماعة الإخوان فى تقديم نفسها كحركة دينية واعتبرت نفسها البديل عن تعثر الاتجاهات العلمانية وتعثر أنماط وأنظمة الحكم والقيم الأوروبية "المستوردة" وقدمت نفسها على أنها القادرة على تقديم الحلول المحددة للقضايا الأيديولوجية والتناقضات الاجتماعية التى واجهت المجتمع المصرى فى ذلك الوقت، مؤكدة أن القرآن هو الأساس القوى لقيام مدينة فاضلة"^(٢٣).

وقبل أن نحاول فحص هذه المقولة تفصيلاً تلح علينا ملاحظة أوردها باحثة فى تاريخ الفكر السياسى المصرى؛ إذ لاحظت ذلك الحماس غير المعتاد الذى استقبلت به جريدة كـ"الأهرام" جماعة الإخوان المسلمين. فمنذ نشأة الجماعة و"الأهرام" تتابع بصورة غريبة نشاط الجماعة مقرظة ومؤيدة. فقد نشرت فى يناير ١٩٢٩ صورة للمؤسسين وعددهم اثنا عشر عضواً. وفى فبراير ١٩٢٩ خبر عن تأسيس فرع للجماعة فى أسبوط ثم خبر عن افتتاح فرع القاهرة فى شارع قصر العينى، وبعدها أخبار عدة عن تأسيس فروع فى نجع حمادى وبنها.. إلخ"^(٢٤).

ثم تعاود جريدة "الأهرام" التى اشتهرت بتحفظها التقليدى تجاه الجماعات الدينية

وخاصة الإسلامية منها، اهتمامها بل ودعايتها للجماعة: "إن الإخوان يقدمون للبيئة المصرية معهداً علمياً متكاملأ بإنشائهم قسماً ليلياً للغات الحية وآخر للفنون الجميلة نذكر منها الموسيقى الشرقية، وفن التمثيل من الناحية الأخلاقية، وأنشأت قسماً للحفر، بالإضافة إلى القسم الرياضى، وبجانب هذه الأقسام اهتمت الجماعة بتكوين مكتبة عامرة بالمؤلفات النفيسة والمطبوعات، مما جعلها مرجعاً وافياً بحاجة الأعضاء"^(٢٥).

ونتجاوز هذه الملاحظة.. ونتركها كعلامة استفهام.
ونحاول أن نتقدم فى بحثنا.. وأمامنا خطوتان مهمتان.
أن نلقى نظرة على هذا الرجل.. وأخرى على الجماعة.
فقد يتعين علينا أن نحذر من أن مجرد محاولة فصل الرجل عن الجماعة تشبه محاولة الجراح استخدام مشرطه بين عضلتين فى عضو واحد.
الرجل

ماذا يمكن أن يحدث عندما ينصهر فى بوتقة واحدة ولاء الصوفى لشيخه،
وبيعة المريد لإمامه، بوفاء السياسى لزعيمه؟

- الإجابة.. يحدث ذلك النوع الغريب من الحب الذى ربط كل إخوانى بالشيخ
حسن البنا.. "ارم بنا حيث شئىءت، فوالله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه
معك"^(٢٦) هكذا حدثه أحد أتباعه.

- "كان كل منا يشعر بأنه يقف منه موقف المريد من شيخه، وقد أسلم له القيادة
ليأخذ بيده إلى الله"^(٢٧) وهكذا تحدث عنه واحد من كبار قادة الإخوان.

- "كان يجلس على الحصير إذا كان المجلس أرضاً.. وفى آخر الصفوف إذا
اصطفت المقاعد للجلوس، منكشأً فلا يكاد يرى، متواضعاً فلا يكاد يُعرف، يلبس
فى غالب أحيانه الجلباب العادى من أرخص الأقمشة"^(٢٨) هكذا وصفه زعيم
إخوانى آخر.

- ويتحدث عنه كاتب أمريكى فيقول: "زرت هذا الأسبوع رجلاً قد يصبح أبرز

الرجال فى التاريخ المعاصر، وقد يختلف إذا كانت الحوادث أكبر منه، وذلك هو الشيخ حسن البنا زعيم الإخوان، كان الرجل خلاب المظهر، رقيق العبارة، بالرغم من أنه لا يعرف لغة أجنبية، لقد حاول أتباعه الذين كانوا يترجمون بينى وبينه أن يصوروا لى أهداف هذه الدعوة وأفاضوا فى الحديث على صورة لم تقنعى، وظل الرجل صامتاً حتى إذا بدت الحيرة على وجهى قال لهم: قولوا له شيئاً واحداً هل قرأت عن محمد؟ قلت نعم، قال هل عرفت ما دعا إليه وصنعه؟ قلت نعم، قال هذا ما نريده. لقد نظرت إلى هذا الرجل، سمته البسيطة، ومظهره العادى، وتقته التى لا حد لها بنفسه، وإيمانه العجيب بفكرته، وإنى أتوقع أن يجىء اليوم الذى سيطر فيه هذا الرجل على الزعامة الشعبية، وليس فى مصر وحدها، بل فى الشرق كله" (٢٩).

ويمضى الكاتب الأمريكى: "لقد حمل حسن البنا المصحف ووقف به فى طريق رجال الفكر الحديث" .. "وكان الرجل القرآنى يؤمن بأن الإسلام قوة نفسية قائمة فى ضمير الشرق وأنها تستطيع أن تمدّه بالحيوية التى تُمكن له فى الأرض". وهكذا يمكننا أن نجد العشرات والعشرات من الآراء التى تثير دهشة القارئ لما قد يلمحه فيها من مبالغة، والعجيب أن هذا القدر من الإفراط فى الحب لدى أتباع الشيخ يقابله مثله - وربما أكثر - من الخصومة والرفض لدى منائيه. أى رجل هذا؟

نعود مرة أخرى.. إلى فحص ملفه.

مدرس لغة عربية فى مدرسة ابتدائية بالإسماعيلية، وعندما بدأ نشاطه الواسع فى صفوف العمال والحرفيين خاض غمار هذا النشاط بحماس يفوق الوصف، وكان حماسه هذا يأسر أتباعه وخصومه معاً. كان لا يعرف اليأس ولا التعب، يقحم نفسه على المجلس، أى مجلس، محتتماً بدعوته إلى القرآن والدين.

قرر يوماً أن ينشئ فرعاً لجماعته فى "أبو صوير" فسافر إلى البلدة وحيداً، ولم يكن يعرف فيها أحداً ومضى فى الشارع يتفرس فى وجوه الناس فى الطرقات

والمقاهى والحوانيت حتى رأى صاحب دكان "وقوراً مهيباً سمحاً فيه صلاح وله منطق ولسان. ورأيت يبيع ويتحدث إلى زبائنه فتوسمت فيه الخير فسلمت عليه وجلست إليه وإلى من معه فى الدكان، وقدمت له نفسى والغرض الذى من أجله زرت "أبو صوير" وأنى توسمت فيه الخير ليحمل أعباء هذه الدعوة. وأخذت فى حديثى ألقت نظر الجالسين إلى نقاط أساسية: إلى سمو مقاصد الإسلام وعلو أحكامه وإلى ما فى المجتمع من فساد وشر وسوء، وإلى أن ذلك ناتج عن تركنا لأحكام الإسلام. وإلى وجوب الدعوة إلى تصحيح هذا الوضع وإلا كنا آثمين. لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبذل النصيحة فريضة واجبة وإلى أن الطريقة الفردية وحدها لا تكفى" (٣٠).

ويمكن القول إن رحلة أبو صوير هذه قد تكررت مئات بل وآلاف المرات، والشيخ الشاب يحمل حقيبة صغيرة فيها ملابسه يتجول من قرية لقرية، ويقصد أعيان القرى يقيم فى مضاييفهم، يتحدث ويناقش ويدعو، فإن لم يجد صدراً رجباً فالمسجد موجود فيه يستريح، وينام ويدعو الناس.

"وكان أعجب ما فى الرجل صبره على الرحلات فى الصعيد، هذه الرحلات التى لا تبدأ إلا فى فصل الصيف حيث تكون بلاد الوجه القبلى فى حالة غليان، وفى أحشائها ينتقل الرجل بالقطار والسيارة والدابة وفى القوارب وعلى الأقدام. وهناك تراه غاية فى القوة واعتدال المزاج. لا الشمس اللافة ولا متاعب الرحلة تؤثر فيه ولا يضيق بها". "وقد أمدته هذه الرحلات فى خمسة عشر عاماً زار خلالها أكثر من ألفى قرية، وزار كل قرية بضع مرات، بفيض غزير من العلم والفهم للتاريخ القريب والبعيد للأسر والعائلات والبيوتات وأحداثها وأمجادها وما ارتفع منها وما انخفض، وألوانها السياسية وأثرها فى قراها، ورضا الناس وبغضهم لها. وما بين البلاد أفراداً وأحزاباً وهيئات وطوائف من خلاقات أو حزازات. وكان يزور أحياناً بلداً من البلاد بلغت فيه الخصومة بين عائلتين مبلغها، وكل عائلة تود أن تستأثر به لتنتصر على الأخرى فيقصد إلى المسجد مباشرة، أو يغير

طريق سفره فلا يستقبله أحد إلا بعد أن يكون قد قصد إلى دار عامل فقير في البلد. وكنت إذا قلت له فلان "الحسنى" مثلاً أو "الحديدى" أو "الحمصانى"، قال لك: إن هذا الاسم تحمله خمس أسر أو أربع إحداها فى القاهرة، والثانية فى دمنهور والثالثة فى الزقازيق والرابعة فى.. فأيتها تقصد؟. وقد حدثنى أنه كان يدخل بلداً من البلاد أحياناً لا يعرف فيه أحداً فيقصد إلى المسجد فيصلى مع الناس ثم يتحدث بعد الصلاة عن الإسلام.. وأحياناً ينصرف الناس عنه فينام على حصير المسجد وقد وضع حقيبته تحت رأسه والتف بعباءته" (٣١).

وكانت هذه الشبكة الواسعة جداً من العلاقات الشخصية هى مصدر زعامة حسن البنا وهيمنته على الجماعة، فإن عشرات الآلاف من أعضاء الجماعة كانوا يفخرون بأنهم أصدقاء شخصيون للمرشد (٣٢) ومن هذه الصداقات وبها أقام المرشد جماعته وهيمن عليها. وعندما كانت الجماعة بصدد شراء المبنى الذى أصبح مركزاً عاماً لها وأشفق البعض من ضخامة الثمن المطلوب قال البنا ببساطته المعهودة: "إننى أعرف شخصياً عشرة آلاف من الإخوان المسلمين، كل منهم مستعد أن يعطينى أى شىء أطلبه منه. وقد غطى المبلغ خلال أسبوع".

وإذا كان البنا يجذب مرديه ببساطته وعلاقاته الشخصية.. فإن أتباعه قد بالغوا إلى حد كبير فى إضفاء هالات من الزعامة حوله.

فإذا كان هو قد اختار لنفسه لقب "مرشد" فإن أتباعه كانوا يطلقون عليه أسماء عدة، منها: "رجل الساعة - القائد الإسلامى - الأخ الروحى - المناضل العربى - المصلح الاجتماعى - المؤمن القوى - الرجل النورانى والرجل القرآنى" (٣٣). وإذا كانت دراسات عديدة قد أفاضت فى أسباب وبواعث قوة جماعة الإخوان المسلمين فإن كتاب ومفكرى الجماعة أنفسهم قد أكدوا أكثر من مرة "أن سر نجاح الحركة كان يكمن فى شخصية البنا" (٣٤) بل إن كاتباً آخر من مؤرخى الإخوان يقول: "إن سيطرة البنا على أتباعه كانت مطلقة وكاملة إلى درجة تصل إلى السحر" (٣٥).

وقد وصف الشيخ "أبو الحسن الندوى" طبيعة العلاقة بين المرشد وأتباعه قائلاً:

"إذا عطس المرشد في القاهرة قال له الإخوان في أسوان يرحمكم الله" وعندما مات البنا كتب أحد أتباعه قائلاً: "سأحيا وأموت مقيماً على ولائي لك" (٣٦).

لقد كان البنا زعيماً حقاً لا جدال في ذلك. ولقد أعد نفسه منذ البداية ليكون كذلك. فهو يقول: "يجب أن يكون الزعيم قد تربى ليكون كذلك، لا زعيماً خلّقه الضرورة وزعمته الحوادث فحسب، أو زعيماً حيث لا زعيم. إن زعماء خلقتهم الظروف، أرادوا أن يستعجلوا النتائج قبل الوسائل وخذعتهم غرارتهم بقيادة الشعوب ومكائد السياسة فظنوا السراب ماء" (٣٧).. ترى هل تذكر البنا هذه العبارة أثناء محنته، وإذ انفض الكثيرون من حوله؟

ومنذ البداية صمم المرشد على أن يعود أتباعه على الطاعة المطلقة. "أليست هي البيعة في المنشط والمكره"؟ وعندما كان المرشد يستعد لمغادرة الإسماعيلية منقولاً إلى القاهرة مدرساً بمدرسة "عباس" بالسبتية اختلف مع بعض أعضاء الجماعة هناك حول من يخلفه في قيادة الشعبة. ولابن البنا المختلفين معه لكنهم صمموا على اختلافهم وأبلغوا ضده النائب العام على أساس أنه قد بدد أموال الجماعة. فلما خرج من التحقيق بريئاً حاولوا ملاحقته بالاتهام لدى ناظر مدرسته بالقاهرة.. وهنا ظهرت لأول مرة قوة الردع المتستر بالدين في الجماعة حيث تجمع عدد من أصدقاء المرشد "واعتدوا على المنشقين بالضرب وقبض عليهم وقدموا للمحاكمة" (٣٨).

والغريب أن البنا يورد الواقعة دونما تحرج أو استتكار لأسلوب "التعدي" على الخصوم السياسيين. وبعد حادث مدرسة عباس الابتدائية بالسبتية. بدأ الضرب والاعتداء البدني على خصوم الجماعة أسلوباً معتمداً من الإخوان.

ويتحدث البنا عن هذا الاختلاف قائلاً: "الواقع أن هذا المظهر كان جديداً وغريباً على أوضاع الإخوان التي لم تعرف إلا الوحدة الكاملة والاندماج الكامل، فرأى أحدهم هو رأى جميعهم"، بل هو يؤكد أن المخالفين له قد تلبسهم الشيطان وزين لهم ذلك، ثم لا يلبث أن يسميهم بالخوارج، ثم يؤكد ضرورة أخذهم بالحزم

"فإن من يشق عصا الجمع، فاضربوه بالسيف كائناً من كان"، لكنه يتأسف "لأننا تأثرنا إلى حد كبير بالنظم المائعة التى يسترونها بألفاظ الديمقراطية والحرية الشخصية"^(٣٩).

ولنتأمل هذه العبارة فهى تلخص كل فلسفة الشيخ فى العمل التنظيمى وفى حقوق المختلفين معه فى رأى، وهى تشرع للإخوان الحق فى أن يضربوا المختلفين معهم فى رأى "بالسيف". ولعلمهم قد أطاعوا شيخهم كثيراً فى هذا الصدد.

وعلى أية حال فإن المرشد لم يكن ليخفى سيطرته المطلقة على الجماعة بل لعله كان حريصاً على إبرازها فهو يقول: "إن فرعى جمعية الإخوان بالمحمودية وشبراخيت سوف لا ينفعان كثيراً لأنهما أسسا بغير أسلوبى ولا ينفع فى بناء الدعوة إلا ما بنيت بنفسى وبجهود الإخوان الحقيقيين الذين يرون لى معهم شركة فى التهذيب والتعليم وهم قليلون"^(٤٠).

والأخ المثالى فى نظر المرشد هو من لا رأى مستقل له "والأخ الشيخ، له أساليبه الخاصة، وهو ينظر لى كأخ وزميل فلا يصغى لآرائى إلا قليلاً، ومن هذه الناحية يكون توحيد الفكر ضرباً من التعسر، فالاعتماد عليه مخاطرة كذلك"^(٤١)، وهو يشكو من رجاله "أننى أتمنى أن يكون إلى جانبى رجال يفهمون ويدبرون، وفأسلم إليهم هذا العمل وأرتاح بهم قليلاً، وأطمئن إلى مقدرتهم، ولكن أين هم؟"^(٤٢).

وهنا نجد أنفسنا ونحن نعود إلى قول مهم للبناء، فإذا كانت مجموعة الإسماعيلية قد تكونت من عدد من العمال، فإن البناء يؤكد لنا أن مؤسسى الجماعة هم أربعة من أخلص أصدقائه ويقول: "وليت وجهى شطر الأصدقاء والإخوان ممن جمعنى بهم عهد الطلب، وصدق الود والشعور بالواجب، فوجدت استعداداً حسناً وكان أسرعهم مبادرة إلى مشاركتى عبء التفكير، وأكثرهم اقتناعاً بوجوب العمل فى إسراع وهمة هم الأستاذ أحمد أفندى السكرى (وهو صديق طفولته وشريكه فى كل ما كان فى المحمودية)، والأخ المفضل المرحوم الشيخ حامد عسكرية، والأخ

الشيخ أحمد عبد الحميد، وكان عهد، وكان موثق، أن يعمل كل منا لهذه الغاية حتى يتحول العرف العام في الأمة إلى وجهة إسلامية صالحة^(٤٣).

وبعد قليل قال الشيخ حسن ما قال في حق أخلص خلصائه.

ففرع المحمودية لا ينفع رغم أن مسئوله ومؤسسه هو الصديق المخلص "أحمد السكري"، وكذلك فرع شبراخيت فإن مؤسسه ومسئوله هو الشيخ "المفضل" حامد عسكرية.

والأستاذ البنا لا يخفى السبب الحقيقي ولعله يورده ليكون رادعاً للآخرين فالأخ الشيخ عسكرية "ينظر لى كأخ وزميل، فلا يصغى لآرائى إلا قليلاً، ومن هذه الناحية يكون توحيد الفكر ضرباً من التعسر".

لا مجال في الدعوة لصداقة قديمة، بل هي الطاعة وحدها، والخضوع وحده. لكن أغرب ما كتبه البنا في هذا الصدد عبارة تستحق التأمل لأنها توضح طبيعة تقيييمه للمتعاونين معه من رجاله فهو يشكو من أنه يجد نفسه بين "ضعف الأمين وخبائة القوى" ونتأمل هذه العبارة، ولا نملك إلا الدهشة.

وكان البنا هو المنظم الأساسى للجماعة وصاحب نظريتها التنظيمية فصاغ الجماعة "فكراً وتنظيماً بما يجعلها مرتبطة به شخصياً، وما يجعله المسيطر الأوحد عليها، الممسك بأعنتها والموجه لنشاطها وقد استغل في ذلك عاملين، أولهما: الغموض المحيط بأهدافها وبطبيعتها وبمنهاجها العملى كدعوة سياسية، وثانيهما: بناء تنظيم الجماعة بطريقة تجعله صاحب الأمر وحده وتجعل سائر أجهزة التنظيم ومستوياته ولجانه كيانات استشارية يملك عليها الأمر، ويجب عليها له السمع والطاعة"^(٤٤).

وعندما اجتمع المؤتمر الثالث للإخوان ليحدد الهيكل التنظيمى للجماعة ويشكل هيئاتها المختلفة فإنه ينتهى إلى فقرة تقول: "وقد ترك المجتمعون لفضيلة المرشد العام تحديد مهمة كل هيئة من هذه الهيئات ووضع البيان الذى يوضح ذلك التحديد"^(٤٥)، وهكذا منح المؤتمر تفويضاً شاملاً للمرشد بالسيطرة على كل أجهزة

الجماعة وهيئاتها.

وكانت الهيئة التأسيسية لجماعة الإخوان تتكون من ١٥٠ عضواً "وهي بمثابة مجلس الشورى العام، والجمعية العمومية لمكتب الإرشاد وتضم من سبقوا للعمل للدعوة، وهي من يمنح العضوية لنفسها بمعنى أنها شكلت أولاً بالاقتدار، ثم تتولى هي اختيار الأعضاء لها، وينبنى الهيكل الأساسى للتنظيم على مبدأ الاختيار من أعلى" (٤٦).

وكان مكتب الإرشاد "يتكون من ١٢ عضواً، ٩ أعضاء من القاهرة، و ٣ من الأقاليم" (٤٧). ويشير بعض معارضى البنا إلى أن مكتب الإرشاد كان فى بداية الأمر مكوناً من عشرين عضواً فلما ثارت أزمة صهره عبد الحكيم عابدين والتهم الأخلاقية التى وجهت إليه استخدم البنا سلطته فى تخفيض عدد أعضاء مكتب الإرشاد إلى ١٢ عضواً ليسهل سيطرته على المكتب بعد أن يتخلص من خصوم صهره (٤٨). وعلى أية حال فإن كل تاريخ الجماعة يؤكد أن سلطات المرشد كانت مطلقة.

وعندما بدأ عبد المجيد حسن (قاتل النقراشى) يدلى باعترافاته قال: "قد أخبرنى عبد السميع الغنيمى الذى استقال من جماعة الإخوان أن سبب خروجه من الجماعة هو أن الأستاذ حسن البنا كان يفرض إرادته على مكتب الإرشاد العام" (٤٩).

وثمة شاهد آخر هو "صالح عشاوى" فهو يكتب قائلاً: "عند أول عهدى بعضوية مكتب الإرشاد ثار البحث: هل الشورى فى الإسلام ملزمة أم غير ملزمة؟ أى هل يتقيد فضيلة المرشد العام برأى مكتب الإرشاد أم أن المكتب هيئة استشارية للمرشد له أن يأخذ برأىها أو يخالفه إذا شاء؟. وكان رأى الإمام الشهيد أن الشورى، ليست ملزمة، وللمرشد أن يأخذ برأى المكتب ويجوز له أن يخالفه" (٥٠).

والغريب أن عشاوى يورد هذا الأمر مدحاً فى فضيلة المرشد الذى ما ضاق أبداً بمطالبة البعض بالديمقراطية، وإن كان قد حرمهم منها بحزم.

ولكن هناك شاهد ثالث من كوادر الإخوان سجل في صراحة - فريدة من نوعها - معارضته بل وتهكمه لأسلوب المرشد في السيطرة على الجماعة. يقول هنداوى دوير أحد قادة الجهاز السرى للإخوان فى شهادته أمام محكمة الشعب: "الأستاذ حسن البنا ترك ١٠٠ شخص أو أكثر كلهم قد بعض ولا يدينون له بالولاء. والأستاذ البنا كان غاوى بترينات.. يعنى المحل مثلاً فى الظاهر والبتريئة فى شارع فؤاد.. ومعنى ذلك أنه كان يضم إلى الجمعية التأسيسية أناساً لا صلة لهم بالإخوان المسلمين، فمثلاً جه واحد من النيابة خرج برشوة، وبصينا لقيناه فى الجمعية التأسيسية، والواقع أن الشيخ حسن البنا كان يضعهم فى الظل لأنه رجل عملاق. فلما الأستاذ البنا أخذ بهذه الصورة لم يكن للهيئة التأسيسية قوة إرادية أو أى صفة" (٥١).

ولم يكن ذلك غريباً على منطق الإخوان. فقد كانت أدبياتهم تؤكد أنه "يجب على الأخ أن يعد نفسه إعداداً تاماً ليلبى أمر القائد فى أية ناحية، وأن الدعوة تتطلب منا أن نكون جنوداً طائعين لقيادة موحدة لنا عليها الاستماع للنصيحة، ولها علينا الطاعة كل الطاعة فى المنشط والمكره" (٥٢).

وفى رسالة "التعاليم" التى صاغها المرشد جاء أنه يتعين على العضو "الثقة بالقائد والإخلاص والسمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره" (٥٣)، وقد كتب أحد قادة الإخوان مخاطباً المرشد قائلاً: "إن لك علينا الطاعة، وعلى هذا بايعنا وعاهدنا، ولنا فيك الثقة الكاملة وعندك الطمأنينة الشاملة" (٥٤).

ولكنه من حق الشيخ علينا أن نعود بالأمر إلى جذوره الأصلية. فالجوهر فى كل ذلك هو فكرة البيعة، وقسم البيعة عند الإخوان يقول "أعاهد الله العلى العظيم على التمسك بدعوة الإخوان المسلمين والجهاد فى سبيلها والقيام بشرائط عضويتها، والثقة التامة بقيادتها، والسمع والطاعة فى المنشط والمكره. وأقسم بالله العظيم على ذلك وأبائع عليه والله على ما أقول وكيل" (٥٥). والبيعة فى رأى المفكر الإسلامى ابن خلدون "هى العهد على الطاعة، كان المبايع يعاهد أميره على أن يسلم له

النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين، لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه من الأمر في المنشط والمكروه^(٥٦).

وتستند فكرة البيعة إلى حديثين شريفيين، الأول يقول: "من مات وليس في عنقه بيعة فقد مات ميتة جاهلية"، ويقول الثاني: "من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه أن استطاع فإن جاء آخر ونازعه فاضربوا عنق الآخر"^(٥٧).

ويحاول "أبو الأعلى المودودي" وهو واحد من أشهر المفكرين الإسلاميين في نظر الإخوان المسلمين أن يضع الإطار النظري لفكرة الخضوع للإمام فيقول: "لا ينتخب للإمرة إلا من كان المسلمون يتقون به وبسيرته ويطباعه وخلقه، فإذا انتخبوه فهو ولي الأمر المطاع في حكمه ولا يُعصى له أمر ولا نهى ويعتمد عليه في تنفيذ الأوامر اعتماداً كاملاً"، والمودودي لا يعتقد برأى الأغلبية "فالإسلام لا يجعل من كثرة الأصوات ميزاناً للحق والباطل، فإنه من الممكن في نظر الإسلام أن يكون الفرد أصوب رأياً وأحد بصرأ في مسألة من المسائل من سائر أعضاء المجلس، فإن كان الأمر كذلك فليس من الحق أن يرمى برأيه لأنه لا يؤيده جمع غفير، فالأمير له الحق أن يوافق الأقلية أو الأغلبية في رأيها، وكذلك له الحق في أن يخالف أعضاء المجلس كلهم ويقضى برأيه"^(٥٨).

ولم يفعل البنا أكثر من أنه قد سار على هذا المنهج.

وهكذا استمد البنا قوته المهيمنة على الجماعة.. من النظرية التي ألبست فكرة البيعة ثياب الخضوع المطلق، ومن إمساكه بزمام كل أمور الجماعة ما خفى منها وما ظهر. فقد علم عن المرشد أنه كان يخفى لنفسه وحده كثيراً من المصادر والشخصيات التي يستمد منها العون كلما أراد وبحيث "يكون في خفاء بعض علاقاته خفاء لبعض جوانب شخصيته عن الآخرين وخفاء لبعض مصادر قدرته ومصادر معرفته"^(٥٩). ويذكر السادات أن حسن البنا كان يجمع خلال الحرب السلاح ويخزنه بغير أن يطلع أقرب الناس من كبار الإخوان على ذلك. ويقول السادات: "إن حسن البنا وحده كان الرجل الذي يعد العدة لحركة الإخوان المسلمين

ويرسم سياستها ثم يحتفظ بها لنفسه، وإن أقرب الناس إليه لم يكن يعرف من خطته شيئاً، ولا من أهدافه شيئاً^(٦٠).

وكان الجهاز السرى والسلاح مصدرين جديدين من مصادر القوة الطاغية للشيخ. كذلك فإنه فى تنظيم كجماعة الإخوان المسلمين تكون الغيبية هى الأخرى سلاحاً فى إطلاق يد الإمام أو الشيخ.

يقول طارق البشرى فى إشارة إلى هذه المسألة: "وعندما يغيب عن الفرد الفهم وتصبح صور الماضى هى الرصيد الوحيد لديه. وإذا كان الهدف غير واضح فستكون وسيلته هى العمل الخارق للعادة غير المستند إلى فهم الواقع. وتتعلق الأبصار بالفكرة القديمة فكرة المهودية والإمام الذى سيملاً الأرض عدلاً ونوراً بعد أن امتلأت ظلماً وجوراً، ويفصل الأمل فى التحرر عن الواقع. وتكون غاية الإنسان هنا لا أن يشارك فى صنع مستقبله، ولكن أن يكل إلى غيره زعيماً أو إماماً رسم المستقبل وصنعه، ولهذا يبايعه على السمع والطاعة ويدرب نفسه على الانصياع لأوامره ونواهيه، ويجد تحقيق ذاته فى هذا الانصياع"^(٦١).

وتأتى هذه الهيمنة على الفرد من خلال تداخل الجماعة وعقيدتها فى شىء من الفرد ودخائل حياته وتسلسلها إلى كل وقائع حياته اليومية، فهى تتصحه بالتزام طريقة معينة متعلقة بصحته (المكيفات - التدخين - النظافة - الرياضة - الطعام) وبتعليمات متعلقة بثقافته "ماذا يقرأ ومتى وكيف؟" وتعليمات متعلقة بتعامله مع الناس (الحياء - التأثر - الشجاعة - الصدق - الوفاء... إلخ) وتعليمات متعلقة بتعاملاته المالية، وتعليمات حول علاقته بربه، وأخرى حول علاقته بالدعوة، وثالثة تحدد له واجبات ما قبل النوم، ورابعة تحدد له واجبات لحظات الاستيقاظ.

وكنموذج لهذا النوع من السيطرة قدم البنا لأعضاء جماعته ما أسماه "ورد الرابطة" وفيه يتلو الأخ الآية الكريمة فى تدبر كامل "قل اللهم مالك الملك، تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك

الخير إنك على كل شيء قدير"، ثم يدعو الدعاء المأثور بعد ذلك: "اللهم إن هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك، وأوان دعائك فاغفر لي"، ثم يستحضر صور من يعرف من إخوانه في ذهنه، ويستشعر الطلة الروحية بينه وبين من لم يعرفه منهم، ثم يدعو لهم بمثل هذا الدعاء: "اللهم أنك تعلم أن هذه القلوب قد اجتمعت على محبتك، والتقت على طاعتك، وتوحدت على دعوتك، وتعاهدت على نصره شريعتك، فوثق اللهم رابطتها وأدم ودها، واهدها سبلها واملاها بنورك الذى لا يخبو، واشرح صدرها بفيض الإيمان بك، وجميل التوكل عليك، وأحيها بمعرفتك، وأمتها على الشهادة فى سبيلك، أنت نعم المولى ونعم النصير. اللهم آمين وصلّ الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم" (٦٢).

والحقيقة فإن من يصدق كلمات كهذه ويردها يومياً ويترسب بعض منها ولو بأقل قدر فى نفسه، يتحول إلى طاقة مسخرة لخدمة الهدف السياسى الذى رمى الشيخ للوصول إليه، طاقة طيبة خاضعة يحركها وهم أن طاعة الإمام هى طاعة الله، وأن الإيمان بالجماعة هو جزء من الإيمان بالله، أما استحضار صور الإخوان خلال تلاوة الورد فإنه من الطبيعى أن تكون صورة الإمام هى الأولى وربما الوحيدة.

وهى صورة تحدث عنها الكثيرون من الإخوان، تحدثوا عن مبالغة غير محمودة - وربما غير مقبولة - فالأستاذ عبد الحليم يقول: "جاء حسن البنا فى وقت كانت فيه مصر مستكينة للاحتلال، وادعة مسترخية، والحكام يسبحون بحمد الاحتلال، والشعب يسبح بحمد الحكام، والأمة ميتة لا حراك بها، وفقد الجميع الإحساس بالظلم"، ولعل المتتبع لوقائع الحياة المصرية فى فترة نشوء حسن البنا يتذكر مفردات مثل: ثورة ١٩١٩ - زعامة سعد زغلول المهيبة - الصراع ضد القصر والاحتلال. فما كانت مصر نائمة ولا الأمة ميتة، لكن المثير لما هو أكثر من الدهشة أن يمضى الأستاذ محمود عبد الحليم قائلاً: "لم أقدر النبوة حق قدرها إلا لما رأيت هذا الرجل، وجلست إليه ولازمته وعاشرته" (٦٣).

ولست أدرى كيف يمكن لمسلم أن يصل فى تمجيده لقائد سياسى أو حتى دينى إلى مستوى يضاهى "النبوة"؟

وبعد أن يواصل امتداح البنا بمبالغات شديدة يقول: "كان حسن البنا هو الداعية الذى أهله الله تعالى بكل هذه المؤهلات، فأدى دوره أحسن أداء ثم ذهب إلى ربه بعد أن بهر العالم بإيمانه وصبره ولسانه وقلمه وعلمه وسعة أفقه، وقدرته على تكوين وصنع الرجال، وترك وراءه دعوة قد اكتمل شبابها ورسخت أقدامها، وأتت أكلها كل حين بإذن ربها"^(٦٣).

ويقول أحمد عادل كمال (أحد قادة الجهاز السرى للجماعة) "كان الإمام حسن البنا فى أحاديثه يرتفع إلى سماوات علا من الروحانية، وكان يقدم من نفسه نموذجاً سامياً ومثلاً عالياً للرجل الربانى.." "فكون إزاء إمام قل نظيره بين أئمة الهدى النادرين، فهو ولى من أولياء الله، وكان رضى الله عنه حاضر البديهة متمكناً من علمه، تسعفه الآيات يزفها، يؤيد ما يذهب إليه، فنسمعها ندية طرية كأنما يتنزل بها الوحي"^(٦٤) ومرة أخرى نتوقف فى دهشة أمام "كأنما يتنزل بها الوحي".

وعندما يعود البنا من الأراضى الحجازية يكتب أحد أتباعه: "عاد الرجل الذى تلتقى عند ساحته آمال الأمة الإسلامية وآلامها، وترجو على يديه استرداد عزها ومجدها. وترنو إليه متحفزة أبصارها، وتسلمه وتسلس له قيادها، نعم عاد الرجل الذى تعلق عليه أمة النيل كل أمل فى انتشالها من وهدة العبودية، ولم يبق فى كنانتها إلا هو.. نعم عاد صانع الرجال ومدرّب الأبطال، الداعى إلى الرشاد والهادى إلى السداد، رافع المشعل، وارد المنهل. نعم عاد أستاذنا الأجل وقائدنا المطاع"^(٦٥).

ويقول إخوانى آخر: "ولو علم النيل أنه سيسقى قرية المحمودية بمائه العذب الذى سينبت به الشيخ الطاهر النقى الورع الحصيف والزاهد المجاهد حسن البنا لكان له من براهين التيه على الزمان أعلى وأسمى مما قاله هيرودوت"^(٦٦).

هكذا حرص البنا، وحرص أتباعه على إقامة علاقة بينه وبينهم تتسم بالمبالغة الشديدة في تكريمه وفي الولاء له، ولواء يستولى على العضو، ويملك عليه نفسه فيجعله مطيعاً طاعة عمياء.. متصوراً أنه كلما ازداد طاعة وخضوعاً ازداد إيماناً، وازداد قرباً من طاعة الله.

وهكذا تحيط الجماعة بالفرد وتقيم من تعليماتها سياجاً يحصره تماماً في إطارها وتهيمن على كل نثریات حياته. وبالتدريج يشعر هو وكأنه يستمد وجوده المادى من الجماعة.. ومن إمامها. وإذا تحاصره فإنها تحتم على العضو "أن يتخلى عن صلته بأى هيئة أو جماعة لا يكون الاتصال بها فى مصلحة الدعوة"^(٦٧).

ويتم هذا كله فى مناخ يسوده عبق سلفى وتهويمات غيبية تحيط بالإمام والجماعة ومنشآتها وأفرادها. ويروى حسن البنا فى مذكرات الدعوة والداعية كيف أن أحد الشيوخ قد نصحه بأن يعمق عبق السلفية فى جماعته قائلاً: "يا أخى سم، فأقول وما أسمى يا سيد محمد؟ فيقول: سم إخوانك وأصحابك ومنشآتك قل لهذا أنك تشبه أبا بكر، ولهذا أنك تشبه عمر فإن هذا يبعث فيهم الحمية.. وسم منشآتك معهد حراء للبنين، مدرسة أمهات المؤمنين للبنات، نادى الخندق"، وأتقن الشيخ البنا فن إطلاق التسميات بصورة بعثت الفخر فى نفوس رجاله الذين أسماهم "رهبان الليل وفرسان النهار".

وفوق هذا كله كان الرجل خطيباً قادراً على أن يدير رؤوس أتباعه بحلو كلامه وبساطته وعمقه. وأن يحيط نفسه وكلماته برحيق إسلامى يؤثر فى نفوس هؤلاء الأتباع.

وكان "حديث الثلاثاء" وسيلة للهيمنة المباشرة على قلوب أتباعه.

"ومنذ عام ١٩٣٩ بدأ حسن البنا يعقد مساء كل ثلاثاء لقاءات مع أعضاء الجماعة فى المركز العام"^(٦٨) ليحدثهم عن أمور الدعوة وتاريخ الإسلام، وليحدثهم عن المشكلات الاقتصادية والاجتماعية من وجهة نظر إسلامية^(٦٩) وكان قادراً دوماً على أن يخلق رباطاً روحياً بينه وبين مستمعيه^(٧٠)، وبحديث الثلاثاء الذى

واظب حسن البناء عليه.. أصبح البناء بشخصه أقوى أداة تثقيف وإعلام في الجماعة^(٧١).

وقد ظل يوم الثلاثاء ذا تأثير خاص في نفوس أعضاء الجماعة جميعاً، يحتشدون بالآلاف في فناء المركز العام ثم يطلع عليهم الإمام "في جلبابه الأبيض، وعباءته البيضاء وعمامته الجليلة بينما تتطلق الحانجر بالهتاف.. الله أكبر والله الحمد"^(٧٢).

وفي خطبه كان البناء يقدم ردوداً سهلة وبسيطة في ظاهرها، ولكنها تستهدف الإمامان في تعميق المناخ السلفي، بل ويصل الأمر إلى تشبيه نفسه في بعض الأحيان بالرسول (ﷺ).. وقد سأله واحد من الحاضرين يوماً - وربما في محاولة لإحراجة - من أين ينفق؟ - وكان قد ترك وظيفته الحكومية - فقال في هدوء: "كان محمد يأكل من مال خديجة، وأنا أكل من مال أخى خديجة يقصد صهره"^(٧٣).

وبالنسبة للبناء كانت الخطابة سلاحاً مهماً، بل لعلها كانت أحد الشروط التي حددها كضرورة يتعين توافرها في أى كادر من كوادر الجماعة، بل لقد كان يشرف بنفسه على تعليم هؤلاء الكوادر فنون الخطابة الإسلامية. وفي عام ١٩٣٨ أشرف البناء بنفسه على أول "مدرسة للكادر" نظمتها الجماعة لتلقيّن الكوادر "الدعوة والإرشاد"^(٧٤).

ونواصل فحصنا لملف الشيخ بحثاً عن مختلف جوانب شخصيته، فنجد أنه استخدم المناورة أسلوباً لتعامله السياسى. فهم الحياة السياسية على أنها مناورات ودسائس، يتعين على كل من يخوضها أن يتقنها وأن يمارس هذه الأساليب بل وأن يتفوق على غيره في هذا الصدد.

وربما قاده ذلك إلى بعض "اللامبدئية" يلاحظها كل من تابع خطوات تحالفاته السياسية وتقلب تقلباته دون مبرر مقبول اللهم إلا المصلحة الذاتية. و"اللامبدئية" مغرية، تستدرج السياسى إلى الأسهل والأقرب لكنها تقوده في

النهاية إلى مواقع الخطر. وهى مغرية بمعنى أنها عندما يتلمسها الإنسان تحتويه وتقوده فى كل تصرفات حياته ابتداءً من العلاقة مع السلطة والرؤساء إلى أبسط نثریات الحياة.

يحكى صالح عشاوى، وهو واحد من المقربين من المرشد، أنه هاجم ذات مرة إحدى الهيئات الرسمية فطلبت إليه الحكومة أن يعتذر كتابة أو تقدمه إلى المحاكمة فرفض الاعتذار، ولكن الشيخ البنا نصحه قائلاً: "اكتب يا صالح ما يُطلب منك"، ويمضى صالح قائلاً: "لقد عرفت عن الإمام قوله: أوصى الذين يتعرضون للعمل العام ويرون أنفسهم عرضة للاحتكاك بالحكومات ألا يحرصوا على الكتابة فذلك أروح لأنفسهم وللناس، وأبعد عن فساد التعليقات وسوء التأويل" (٧٥).

إنه "الغموض" كمدرسة وخطة فى العمل السياسى سوف نرى آثارها فى صفحات قادمة. كذلك فإن قولته لصالح عشاوى هذه "اكتب يا صالح ما يطلب منك" تقودنا إلى أحد مفاتيح شخصية الشيخ.

وتذكرنا أنه هو نفسه قد كتب ذات يوم ما طلب منه. كتب يدين رجاله وهم رهن القيد ويصفهم بأنهم "ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين" مؤملاً وبموقف "لامبدئى" أن ينقذ بعضاً من بقايا الجماعة فى محنة ١٩٧٨. لكن الواقع أثبت أن خصومه كانوا أكثر منه ذكاءً، إذ أيقنوا أن خطوة واحدة إلى الخلف من القائد سوف تدمر الجيش كله وتدفع السجناء إلى الانهيار، والاعتراف. وقد كان.

ومرة أخرى نعود لملف الشيخ.

كانت الجماعة فى أيامها الأولى بالإسماعيلية تحاول أن تجمع تبرعات لبناء أول مقر لها، وجاءت أولى التبرعات من شركة قناة السويس خمسمائة جنيه (وتلك علامة استفهام نسجلها ونمضى) ويفزع بعض المخلصين من أتباعه ويتسألون حول جواز قبول تبرع من شركة استعمارية كشركة قناة السويس، وحول جواز بناء مقر للجماعة ومسجد بهذا المال، ويجد الشيخ المخرج السهل: "هذا مالنا لا مال

الخواجات، والقناة قناتنا والبحر بحرنا، والأرض أرضنا، وهؤلاء غاصبون اغتصبوا حقوقنا في غفلة من الزمن" (٧٦).

وكان البنا يستخدم في بعض الأحيان وسائل في الإقناع تكشف عن نفس المنهج. أغضبه الموقف السلبي لشيوخ الأزهر من جماعته ودعوته. فوجه حديثه إليهم قائلاً: "إن لم تريدوا أن تعملوا لله فاعملوا للدنيا وللرغيف الذي تأكلونه، فإنه إذا ضاع الإسلام في هذه الأمة ضاع الأزهر وضاع العلماء فلا تجدون ما تأكلون ولا ما تنفقون. فدافعوا عن كيانكم إن لم تدافعوا عن كيان الإسلام".. ونتأمل هذه الكلمات ولا نملك إلا الدهشة.

والشيخ يتخذ من التعليم الحديث موقفاً شديداً "السلفية"، بل هو يرتد بموقفه هذا إلى مواقف تناساها حتى السلفيون أنفسهم.. وفي خطابه الأول في مسجد الإخوان بالإسماعيلية حرص على الدعوة لإقامة دور للتعليم الديني مهاجماً مدارس التعليم الحديث واصفاً إياها بالمدارس المبتدعة التي يخرج منها الأبناء "وقد تسمت عقولهم بالأفكار الخبيثة الأفرنجية وحشيت أدمغتهم بالآراء الإلحادية وشبوا على التقليد والإباحية" (٧٧).

ونعود إلى علاقة الأتباع بالمرشد التي تترجم إلى مبالغات يتوقف عندها الباحث لا ليتساءل عن مدى صحتها، وإنما عن هذا الحماس في المبالغة في الحديث عن الشيخ ونقرأ: "لقد كانت شخصية حسن البنا جديدة على الناس، وعجب لها كل من رآها واتصل بها. كان فيه من الساسة ادعاءهم، ومن القادة قوتهم، ومن العلماء حججهم، ومن الصوفية إيمانهم، ومن الرياضيين حماسهم، ومن الفلاسفة مقاييسهم، ومن الخطباء لباقتهم، ومن الكتاب رصانتهم"، ثم هو فوق كل هذا "يعرف لغات الأزهريين والجامعيين والمهندسين والصوفية وأهل السنة، ويعرف لهجات الأقاليم في الدلتا وفي الصحراء وفي مصر الوسطى والعليا وتقاليدها، بل إنه يعرف لهجات الجزائريين والفتوات وأهالي بعض أحياء القاهرة.. وكان في حديثه إليهم يروى لهم من القصص ما يتفق مع ذوقهم وفنهم، بل كان

يعرف لغة اللصوص وقاطعى الطريق والقتلة وقد ألقى إليهم ذات مرة حديثاً!"^(٧٨). وإذا كان البناء قد أخذ من الأزهريين لغتهم وحججهم ومن الصوفيين إيمانهم فإنه لم يقبل منهم ولا من غيرهم مشاركة له ولجماعته فى كونها "جماعة المسلمين" أى أنها صاحبة الحق فى تمثيل مصالح جموع المسلمين. فالأزهريون قادتهم وجمهورهم فى نظر الشيخ "دينون رسميون" وكانت لهجته تجاه رجال الأزهر لهجة عدائية دوماً. وهو يحمل علماء الأزهر، بسلبيتهم وعزوفهم عن خدمة الإسلام خدمة حقيقية، جزءاً من مسئولية "تدهور أحوال الأمة الإسلامية"^(٧٩). "ولكن الشيخ كان حريصاً على ألا يخوض معركة سافرة وصريحة ضد رجال الأزهر وعلمائه وإن أتى بعض أتباعه ليفجر هذا الصراع عنيفاً معلناً أن فى مصر مجموعتين إسلاميتين: المجموعة الرسمية والمكونة من رجال الأزهر ومجموع "الجمعيات الإسلامية" وهما لا تلتقيان"^(٨٠) ويقول الشيخ محمد الغزالى، أحد قادة الإخوان "لقد نام علماء الأزهر وتبعهم المجتمع الإسلامى"^(٨١).

وإذا كان الشيخ البناء يرى أن فشل الأزهر فى رسالته يرجع إلى أنه يهتم بتخريج علماء حفظوا مواد العقيدة عن ظهر قلب ولم يستوعبوا روحياً^(٨٢) فإن محمد الغزالى قد تطرف إلى درجة القول إنه "يعرف رجالاً من شيوخ الأزهر يعيشون كما تعيش ديدان البلهارسيا والإنكلستوما من دماء الفلاحين البؤساء"^(٨٣).

أما "الصوفيون" فقد لاينهم الشيخ البناء، فهو منهم أولاً وأخيراً ومنهم عدد كبير من مريديه، وإن كان حذر منهم تحذيرات خفية.

وأتى الشيخ الغزالى ليكمل كعادته حلقة الهجوم فالصوفية فى نظره أو فى نظر جماعة الإخوان المسلمين "من بقايا عصور الإقطاع تستخدم لتخدير الجماهير"^(٨٤).

وكان الشيخ لم يكفه كل ما حازه من نفوذ وهيمنة على نفوس أتباعه، فقد لجأ بالإضافة إلى كل ما سبق إلى نسج هالات من الغموض والقداسة والخوارق حول نفسه. ولم يكن المرشد بالرجل الذى يقول ذلك بطريقة فجأة قد تأتى بعكس النتائج

المرجوة، بل يقول هذه المسائل عرضاً ودون تكلف، ولهذا كانت تأتي فعلها في نفوس الأتباع وتخلق حوله هالات من التقديس.

فكل الأمور مهما تعقدت تحل في سهولة ويسر، وحلول المشكلات تأتيه عفو خاطر بإلهام سماوى. حتى اسم الجماعة يأتيه بنوع من الإلهام. وكثيراً ما يستطيع رؤية المستقبل "رأى في نومه وهو طالب أنه يراجع صفحات سئل فيها فعلاً في امتحان الغد"، بل إنه يحكى عن نفسه قصصاً تفوق الخيال، حول تلك العناية غير المرئية التى أحاطت به دوماً تتجيه وتنقذه وترعاه، "وقع بيت عليه وعلى أخيه فلم ينجهما منه، إلا استناد السقف على حاجز السلم، وأنه وقع من ارتفاع ثمانية أمتار فأنجاه سقوطه فى ملطم المونة، وأنه امتد حريق إلى ثيابه وهو صغير فأغاثه رجال المطافئ، وجمحت به فرس تحت حاجز كاد يطيح برأسه فآلهمه الله فاستلقى على ظهره حتى اجتاز الحاجز" (٨٥).

وإذا لم يكن من حق الباحث أن يتساءل عن مدى صحة كل هذه الروايات والمعجزات، فإن من حقه أن يتساءل بأى هدف حرص الشيخ البنا أن يروى هذه القصص لأتباعه؟ وهذا سؤال مهم لأنه يحدد نوعية العلاقة التى أراد الشيخ أن يقيمها بينه وبين أتباعه. فأى شىء كان الشيخ يريد من رواياته هذه إن لم يكن تعمه إضفاء هالات من التقديس حول نفسه؟

أليس هو الرجل "الذى يحقق سيرة رسول الله، فى نفسه". كما قال عنه أخوه عبد الرحمن؟ (٨٦)، ولم يكن الشيخ حسن وأخوه عبد الرحمن وحدهما فى هذه المحاولة فأبوه أيضاً يروى قصصاً خيالية عن كرامات ابنه، الذى كان رضيعاً فى الشهر السادس من عمره يستغرق فى النوم مع والدته وتجنثم بجواره أفعى ممدودة الرأس إلى رأسه "وينجيك الله يا ولدى من شرها لإرادة سابقة فى علمه وأمر هو فيك بالغه" (٨٧).

وليس بإمكان أى باحث أن يتصور أن كل ذلك كان محض مصادفة. وقبل أن ننتهى من فحص ملف الرجل.. نعتقد أن من حقه علينا أن نؤكد أنه

كان يعرف من البداية أنه يسير هو وأتباعه فوق الشوك، وأن الذين لاينهم ولاينوه سوف يصطفون جميعاً ضده وضد دعوته.

ولعل وعيه بهذه الحقيقة يحسب له، ولعله يفسر لنا أيضاً بعض أسباب إصراره على الغموض والخفاء والعمل السرى والسلاح، وإحكام قبضته على الجماعة. يقول حسن البنا فى حديثه لأتباعه: "سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة فى طريقكم، وستجدون من أهل التدين من العلماء الرسميين من يستغرب فهمكم للإسلام، وينكر عليكم جهادكم فى سبيله، وسيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذو الجاه والسلطان. وستقف فى وجوهكم كل الحكومات على السواء، وستدخلون بذلك ولا شك فى التجربة والامتحان، فتسجنون، وتعتقلون، وتنتقلون، وتشردون، وتصادر مصالحكم وتفتش بيوتكم" (٨٨).
وقد كان.

وحتى بعد اغتياله يظل طيفه محلقاً فوق الجماعة وفوق أصدقائها وخصومها معاً، ويظل الموقف منه معيار الموقف من الحركة كلها.
فعندما قامت ثورة يوليو وخلال شهر العسل الطويل نسبياً بينها وبين الإخوان المسلمين كان الموقف من حسن البنا هو الدلالة والمؤشر.
فى الأيام الأولى للثورة زار اللواء محمد نجيب قبر الإمام الشهيد ووقف أمامه باكياً.

كذلك فقد قررت الثورة فتح ملف قضية اغتيال البنا.. وفى المحكمة وقف البكباشى "محمد التابعى" نائب الأحكام ليمجد الإمام الشهيد ويطالب برأس قاتليه قائلاً: "إن للمغفور له الشيخ حسن البنا دعوة استشهد فى سبيلها، تقوم على الإصلاح وترمى إلى التخليص من الاستعمار باعتباره رأس الفساد ومصدره" (٨٩)، لكن زمناً قليلاً يمضى، ثم تشهد نفس القاعة محاكمة الإخوان المسلمين وهجمات المدعى العام ضد الدعوة وضد مؤسسها.

وعندما يبدأ شهر "العسل" فى الانتهاء يحاول جمال عبد الناصر أن يستخدم

"الشيخ" ضد "الجماعة" ووسط الحملات العنيفة ضد "الهضيبي" المرشد الجديد وضد الجماعة ككل يتوجه جمال عبد الناصر فى صحبة عدد من أعضاء مجلس الثورة وعدد من الإخوان المسلمين الموالين له لزيارة قبر "الإمام الشهيد" مترحماً ومشيداً بالرجل وبأعماله^(٩٠).

وتبقى شخصية الإمام الشهيد، برغم كل الاستفاضة فى البحث، محلاً لتساؤلات تبحث عن إجابات. والإجابات مستعصية، ليس لأنها صعبة، وإنما لأن الشخصية مركبة، وصاحبها قادر دوماً على أن يقول ما يمكن أن يفهم على أكثر من وجه، وقادر دوماً على أن يفعل الشيء ونقيضه، وأن يلاين الخصوم ويغض القول مع الأصدقاء، وبالنسبة للآخرين جميعاً فإنه لا يمتلك صداقة دائمة ولا خصومة مستمرة.

الجماعة

وكانت الظروف ناضجة تماماً كى تنهض هذه المجموعة الصغيرة، وتتطلق، وتصبح كما أسميت بحق كبرى الحركات الإسلامية فى العصر الحديث. كانت مصر تتملل، وترفض قبضة الحكم الأوتوقراطى "وحكومات عميلة تماماً تزيج مستندة إلى نفوذ السراى والاحتلال حقوق حزب الأغلبية وتهدد الدستور الوليد، وحتى حزب الأغلبية يخضع هو أيضاً لأسلوب التهادن والتردد، والأزمة الاقتصادية تستحكم، والقضية الوطنية بغير حل. والناس جميعاً يستشعرون الرفض والحيرة معاً. وكان تكالب السياسيين المحترفين على الحكم بأى ثمن وما أتبعه من كراهة الكثيرين للنموذج الدستورى القائم فرصة أمام الإخوان المسلمين لكى يجذبوا إلى صفوفهم مئات الآلاف من الأتباع"^(٩١).

ومن هذا الإحساس العارم بالرفض وعدم الرضا بما هو قائم نجحت دعوة الإخوان المسلمين^(٩٢).

وكانت المعركة بين السراى والحكومة حول الأزهر تحتدم ثم "ولفترة قصيرة

(١٩٢٩ - ١٩٣٠) تنتزع الوزارة من السراى منصب شيخ الأزهر^(٩٣). ثم يعود القصر فينتزع الهيمنة على الأزهر، ويتداخل الاحتلال أيضاً فى هذه الهيمنة، وهكذا يبدو رجال الدين التقليديون فى مظهر العاجز، الأمر الذى يحث المسلم المتحمس على البحث عن محتوى جديد.

"والحقيقة أن المجتمع الحديث والدولة الحديثة قد وضعت المسلم المتدين وسط متناقضات عديدة"^(٩٤) هكذا يقول أحد الباحثين ويستخلص من ذلك أحد أسباب نجاح دعوة الإخوان وانتشارها.

"وربما كانت جماعة الإخوان المسلمين أولى الهيئات المنظمة التى قدمت تصوراً يستهدف تغيير النظام السياسى التقليدى فى مصر تغييراً شاملاً"^(٩٥). هكذا أكد باحث آخر. واستخلص من ذلك أحد أسباب انتشارها.

لكن الإخوان المسلمين لم يحاولوا مجرد تعديل أو إصلاح النظام "بل قدموا أنفسهم كبديل قادر على أن يلعب دور ما يمكن أن يسموا بالسياسيين العلمانيين، ومن ثم كبديل لكل النموذج "المستورد" من أوروبا لتنظيم المجتمع والحكومة، ورفضوا بشكل قاطع كل منجزاته ومؤسساته"^(٩٦) ولعل ذلك قد خلق الكثير من الصعوبات أمامهم.

وبعد هذه الأسطر التى عكست آراء عدة من الباحثين فى وضعية جماعة الإخوان المسلمين نعود إلى المجموعة الصغيرة من الرجال التى التفت حول الشيخ البنا فى الإسماعيلية، ونحاول أن نسير معها خطوة خطوة.

كانت البداية كما قلنا فى شهر ذى القعدة من عام ١٣٤٧ هـ (مارس ١٩٢٨)^(٩٧) واتخذت الجماعة مقراً لها فى أحد المنازل القديمة بالإسماعيلية.

وفتح البنا باب التبرع لبناء مقر لجماعته وكان أكبر المتبرعين وأسرعهم هو مدير شركة قناة السويس وقد تبرع بمبلغ كبير بمقاييس هذا العصر وهو خمسمائة جنيه.

وكان قبول البنا لتبرع شركة القناة مثاراً لأقاويل وخلافات وإنشاقات.. وفى

البداية أعلن البنا أن الهدف من جمع التبرعات هو بناء مسجد ومقر للجماعة ومدرسة. وبالفعل تقابل البارون دى بنوا مدير شركة قناة السويس مع حسن البنا، وطلب منه رسماً ومذكرة بالمشروع. وقدم البنا رسماً، وجاء التبرع.

وهنا ثارت تساؤلات بعض المتشددين، الذين كان البنا أول من لقنهم فنون التشدد ضد الغرب والغربيين، والمسيحية والمسيحيين وكل ما يأتى منهم. وكان السؤال عن مدى شرعية بناء مسجد بمال الخواجات؟

وقد واجه حسن البنا العاصفة كما اعتاد فيما بعد متمسكاً برأيه، مصمماً على موقفه وحتى لو وقف الجميع ضده.

ويقول: "لقد أثار هذا التبرع كثيراً من الأقاويل وانطلقت الشائعات تملأ الجو: الإخوان المسلمون يبنون المسجد بمال الخواجات وآزرتها الفتاوى الباطلة ممن يعلم وممن لا يعلم. وأخذنا نقنع الجمهور بأن هذه خرافة، فهذا مالنا لا مال الخواجات، والقناة قناتنا، والبحر بحرنا، والأرض أرضنا وهؤلاء غاصبون فى غفلة من الزمن"، لكنه ما يلبث أن أكد ولا أدري كيف "أن المسجد لم توضع فيه أموال الخواجات وإنما وضعت فى دار الإخوان بالذات"^(٩٨).

وتطاييرت الشكاوى ضد البنا حتى وصلت إلى رئيس الوزراء وكان آنذاك الطاغية إسماعيل صدقى الذى سارع بطلب التحقيق فى أمر هذا الشيخ وأمر هذه الجماعة. وقام بالتحقيق فى الأمر ناظر المدرسة التى يعمل فيها البنا، وقاضى المحكمة الأهلية ووكيل النيابة ومأمور المركز.

وهو تحقيق عرفى انتهى بأن البنا موال للنظام وللحكومة ولجلالة الملك. وقال التقرير: "أنه تم الاطلاع على كراسات التلاميذ فوجدوا أن أول قطعة إملاء أُمليت على التلاميذ كانت عن زيارة الملك فؤاد إلى القناة فى رحلة من بورسعيد إلى الإسمايلية وفيها ثناء على الملك وتعداد لمآثره وأرفق بالتقرير كراسة لأحد التلاميذ"^(٩٩).

ويتوقف بعض الباحثين عند وثوب الدكاتاتور صدقى إلى رئاسة الوزراء

(١٩٣٠) كعلامة طريق مهمة في تاريخ الجماعة، فمن ناحية كان إجهاض التجربة الدستورية على يد صدقى "كفياً بنشوء النزاعات السياسية المتطرفة التى ترفض النموذج السياسى القائم ككل" (١٠٠). ومن جهة ثانية كانت فكرة الداهية صدقى فى تشجيع الجماعة وحثها للتعاون معه ومع السراى فى مواجهة الوفد.

والحقيقة أن الشيخ البنا لم يخف هذه العلاقة التى نشأت بينه وبين إسماعيل صدقى، وإن كان قد أكد أنه تلقى من صدقى عرضاً بمساعدة مالية مغرية مقابل إعلان الإخوان المسلمين تأييدهم له ومناهضتهم لحزب الوفد. وأنه قد رفض هذا العرض الذى قدم له من خلال شقيقه عبد الرحمن (١٠١).

والشئ المهم هنا فى نظر الباحث أن الداهية صدقى قد التقط الخيط، وسواء نجح فى إقامة علاقة خاصة مع الإخوان أم لم ينجح، فإن نجاحه الحقيقى كان يكمن فى مجرد الفكرة التى أصبحت محل اهتمام لاحق من قبل أجهزة السلطة المختلفة.

وبعد إجازة العام الدراسى ١٩٣٢ انتقل حسن البنا إلى القاهرة بناء على طلبه، ليجد له مجموعة من الأعضاء تحاول هى الأخرى أن تنشط وليجد أن شقيقه الأصغر عبد الرحمن يرأس جماعة صغيرة اسمها "جماعة الثقافة الإسلامية" وتتدمج المجموعتان معاً لتؤسسا أول شعبة للإخوان المسلمس بالقاهرة.

وهكذا تدب حياة جديدة فى صفوف الجماعة بتواجدها فى قلب الحركة الإسلامية والسياسية فى العاصمة.. وإن كان تواجداً محدداً للغاية.

وأعلنت شعبة الإسماعيلية - بعد أن تخلصت من المنشقين - انتقال المركز العام للجماعة إلى القاهرة حيث يوجد الإمام. ويشهد المقر المتواضع بالقاهرة نشاطاً جماً كان محوره وعموده الفقرى الشيخ البنا. كان يومه ويوم الجماعة يسير كالتالى: فى الصباح الباكر يتوجه الشيخ إلى المركز العام، ثم يتوجه إلى المدرسة ليمارس نشاطه الوظيفى ثم يعود من المدرسة إلى المركز العام. ثم يرتاح فى منزله قليلاً ليعود مرة أخرى إلى المركز. وطوال هذا الوقت كان الشيخ يوجه أعمال

الجماعة التنظيمية والإدارية والثقافية، ويلقى المحاضرات، ويتحدث إلى الزوار الذين كانوا يأتون إلى المقر بدافع الرغبة في المعرفة أو حتى بدافع الفضول. وقد خصص الشيخ الفترة ما بين صلاة المغرب وصلاة العشاء لإلقاء محاضرات في تفسير القرآن، وكان معظم مستمعيه من سكان الحى من الحرفيين والتجار الصغار وبسطاء القوم الذين يصفهم أحد قادة الإخوان بأنهم كانوا قوماً "بلا تعليم وبلا رغبة فى التعلم" (١٠٢). لكن هؤلاء القوم سرعان ما استجابوا لدعوة الشيخ وتكون منهم الوعاء الأساسى لعضوية الإخوان المسلمين.

وقد جذبت الجماعة أول ما جذبت "سكان المناطق الفقيرة الذين كانوا يعانون من الوحدة والغربة فى مدينة القاهرة، والمهاجرين الوافدين إلى العاصمة الذين وجدوا الراحة النفسية فى اجتماعاتها، وفى تأدية الصلوات جماعة. وقد قامت فروع الجماعة بالنسبة إلى هؤلاء مقام التجمعات الصوفية وطوائف العمال القديمة" (١٠٣). ويمكن القول إن القاعدة الأساسية للجماعة كانت فى هذه المرحلة مكونة أساساً "من أصحاب الحرف الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى الدنيا ومن صغار التجار" (١٠٤).

وبعد عام واحد من انتقال المركز العام إلى القاهرة كان للجماعة شعب عديدة فى مختلف أرجاء مصر (١٠٥).

لكن الباحثين فى تاريخ الجماعة يلاحظون أن هذا الإتساع قد صاحبه تغيير فى التركيب الاجتماعى "الطبقي" لعضوية الجماعة، فمع التطورات السياسية والاقتصادية التى طرأت على المجتمع المصرى فى الثلاثينيات ومع اتسام تصرفات قيادة حزب الوفد بالتهادن - إلى حد ما - فيما يتعلق بالقضية الوطنية (١٠٦) اندفعت قوى كانت فى الأساس من جماهير الوفد إلى صفوف الجماعات الأكثر تشدداً مثل الإخوان المسلمين ومصر الفتاة والشيوعيين. ويصف أحد الباحثين جمهور الحاضرين فى حديث الثلاثاء فى ذلك الوقت فيشير إلى وجود القوى التى أشرنا إليها فيما سبق والتى يميز أصحابها بأنهم يرتدون

"الجاليب" لكنه يؤكد "أن الغالبية الساحقة من الحاضرين كانت من الطلاب والموظفين والمدرسين والمهنيين" (١٠٧).

وهكذا تغير الزى السائد من "الجلابية" إلى "البدة" وكان ذلك إيذاناً بتطور جديد فى علاقات الجماعة وأساليب عملها.

ورويداً رويداً تستقر الجماعة، وتنتقل بمقرها وجمهورها من أزقة القاهرة الضيقة إلى مناخ أرحب وجمهور أوسع، ويمتلئ المركز العام بالموظفين المتفرغين بعد الظهر، والذين يتلقون مرتبات نظير تفرغهم هذا، وهو ما يوحى باتساع نشاط الجماعة.

لكننا لم نزل بحاجة إلى بعض التأمل المتأنى فى أسلوب البناء، وصعوباته، وفى بطء شديد اجتهد البنا فى بناء الجماعة باذلاً فى ذلك جهداً خارقاً..

ومن الإسماعيلية إلى أبو صير، ثم إلى المناطق المحيطة بالإسماعيلية ومنطقة القتال "فافتتح شعبة فى بورسعيد"، ثم فى بعض قرى ومدن البحر الصغير فى المنزلة والجمالية وجديدة المنزلة. ويلاحظ أن هذه الشعب كان يتصدرها وجهاء الريف وأغنياء القرى بل والإقطاعيون وبعض خريجي الأزهر. فرأس شعبة المنزلة الشيخ مصطفى الطير وهو شيخ أزهرى وتأسست شعبة الجمالية فى منزل آل عبد اللطيف، وجديدة المنزلة فى بيت آل الطويلة وهم من وجهاء الريف" (١٠٨).

ويكمل البنا "وتوالى الزيارات بعد ذلك لهذا الإقليم وكثرت شعبه برعاية كرام الناس" (١٠٩) ويورد كأمثلة آل سويلم ببرمبال، وآل قداح بميت سليل وآل الهوارى بالكفر الجديد.

ونتوقف هنا أمام ملاحظتين، الأولى هى: مساندة عدد من وجهاء الريف للبنا، وهو ما يعنى أن بعض العائلات الريفية، قد انشقت عن الوفد سواء انحيازاً لأحزاب الأقلية، أو طلباً لحماية الحكومة لها من مخاطر الرهونات التى انهالت على أراضيها لتهددها بالإفلاس، وهى حماية أتقن إسماعيل صدقى فن استخدامها سعيّاً وراء تفتيت المقاومة الوفدية لسياسته، قد اقتربت من هذه الجماعة.

وبرغم كل ذلك ظلت حركة جماعة الإخوان مجمدة تقريباً، وضعيفة إلى حد كبير، فقد كان "الوفد" هو الحزب القادر على التأثير الواسع فى نفوس المصريين سواء من أبناء الطبقات الوسطى ريفاً وحضرراً أو من عامة الشعب، كذلك كانت الجماهير لم تزل تتشكك فى هذا الشيخ وفى أتباعه، ونقرأ "وقد استمر الإخوان فى فترة الثلاثينيات فى حالة تجمد أو نمو بطيء جداً، رغم كل المظاهر والأساليب التى حاول بها حسن البنا أن ينقل الدعوة إلى طور جديد. ومن هذه الأساليب إصدار مجلة "النذير" وإصدار شارة خاصة بالإخوة، والاتصال بالتجمعات المهنية وخاصة نقابة معلمى الإلزامى، وعقد المؤتمرات الإخوانية"^(١١٠).

وظلت الجماعة تنتقل بمقرها من جحر إلى جحر فى أضيق حارات القاهرة "حارة الروم - سوق السلاح - عطفة نافع - حارة الشماشرجى - وكان أستاذنا المرشد حفظه الله يقول على سبيل التندر والتفكه أننا نسكن فى أحشاء القاهرة وكنت أزيد بقولى وفى الأحشاء الدقاق يا فضيلة الأستاذ"^(١١١) هكذا تحدث شقيقه. وتتبدى الصورة أكثر تواضعاً عندما يتحدث ذات الشقيق عن نشاط مبكر للجماعة قائلاً: "لا أنسى حارة الروم وزاوية المغاربة التى كنا نضع فيها المئة كرسى وكرسى. هذه الكراسى كراسى بلدى من القش ثمن الواحد منها تسعة قروش، ولم نستطع دفع ثمنها مرة واحدة، بل على أقساط وكان الثمن تسعة جنيهات وأخذنا كرسياً "على البيعة" ولم يكن لنا فى المنزل إلا فناؤه الكبير نضع فيه الكراسى كل يوم اثنين ثم نجمعها لنخزنها فى زاوية المغاربة بحارة الذهنى بحارة الروم"^(١١٢).

ثم خطوة أخرى إلى الأمام إذ حاول البنا عبثاً أن يصل إلى الجماهير. فاستأجر مقراً فى الناصرية بالقرب من ميدان العتبة الخضراء أى فى قلب القاهرة. ويقول أحد قدامى الإخوان: "وكان الإخوان إلى ما قبل الانتقال إلى هذا المقر الجديد من الضالة فى العدد ومن الاختفاء فى المكان بحيث لم يكن يحسب لهم حساب ولا يكاد يحس بوجودهم أحد، وكانوا ذائبين فى المجتمع، وكانت صلتهم بالقاهرة التى يعيشون فيها شبه مقطوعة، ووجودهم مقصوراً على شعبهم القليلة فى منطقة القنال

وما حولها، وقد حاول الأستاذ المرشد سدى إشعار القاهرة بوجود الإخوان بمحاضرات يعلن عنها بدعوات وبمنشورات حتى وصل به الأمر أن انتهز فرصة إقبال شهر ربيع الأول فأعلن عن محاضرات يلقيها كل ليلة بالمركز العام بالناصرية، وطبع آلاف الإعلانات عن هذه السلسلة من المحاضرات. وكنا نذهب جميعاً كل ليلة إلى مسجد السيدة زينب نؤدى صلاة العشاء ثم نخرج من المسجد ونصطف صفوفاً يتقدمنا الأستاذ المرشد ينشد نشيداً من أناشيد المولد النبوى ونحن نردده من بعده فى صوت جهورى جماعى يلفت النظر. وكانت الفاصلة التى نرددها هى هذا البيت:

صلى الإله على النور الذى ظهرا

لنا بشهر ربيع الأول اشتها

وكان الناس يجتمعون فعلاً علينا ويسيرون معنا فى الطريق ونحن ننشد بنغمة محبوبة، وأفراد منا يوزعون المنشورات على الناس والمحلات على الجانبين حتى إذا وصلنا إلى دار المركز العام لم يدخل معنا إلا عدد قليل لا يسمن ولا يغنى من جوع" (١١٣).

ولعل واحداً من أسباب هذه العزلة الخانقة ما يورده الأستاذ عمر التلمسانى قائلاً: "أهداف الإخوان المسلمين ظلت غامضة على أعضاء الجماعة ولم يتبنوا أهدافها ومراميها إلا فى أواخر الثلاثينيات" (١١٤).

لكن نهايات الثلاثينيات شهدت تطوراً نوعياً، وقفزة هائلة فى نشاط الجماعة، وفى علاقاتها بقيمة النظام و جماهير الشعب على السواء.

إنها مسألة تحتاج إلى معالجة خاصة: ذلك أن الكثيرين يفسرون ذلك بتقارب الجماعة مع القصر الملكى ومع الثالث الذى سيطر على الملك الشاب آنذاك، ثالث "على ماهر - الشيخ المراغى - كامل البندارى باشا".

وستكون هذه العلاقة محلاً للدراسة فى صفحات قادمة. فلنبق حيث نحن نحاول أن نتابع عملية بناء الهيكل التنظيمى للجماعة.

"بدأت القاهرة ومدن القطر المختلفة تشهد رجالاً يرتدون زياً جديداً عبارة عن "شال" يضعونه فوق الكتفين وعليه شارة الجماعة، وفي البداية كان لون الشارة أخضر ثم ما لبثت أن أصبح أبيض، وكثيراً ما كان "الدعاة" من أعضاء الإخوان المسلمين يزودون هذا الشال بجيب كبير يتدلى على الصدر يوضع فيه مصحف ظاهر" (١١٥).

وإذا كان هذا الزى - بما يتكلفه من مال ومن مظهر وقور - قد اقتصر على الميسورين من أعضاء الجماعة، فإن تعليمات الجماعة لأعضائها كانت تحتم في مطلع الثلاثينيات أن يضع العضو في خنصر اليد اليمنى خاتماً من الفضة ذى عشرة أضلاع ترمز إلى الآية الكريمة (قل تعالوا أتل ما حرم ركم عليكم ألا تشرکوا به شيئاً) وبه سيفان متقاطعان ومصحف" (١١٦).

ويشير بعض الباحثين إلى أن هذا الزى الإخواني كان أول استخدام مصرى لفكرة الزى الحزبي الموحد التي سرعان ما انتشرت في مصر في منتصف الثلاثينيات في صورة القمصان الملونة والتي كانت امتداداً أو تقليداً لزي التنظيمات الفاشية والنازية التي اجتاحت أوروبا في ذلك الحين.

وعلى أى حال فإن اتساع عضوية الجماعة قد جعل من المستحيل إلزام الجميع بزي أو شارات معينة.. وهكذا نسيت هذه العادة.

ومع استقرار الجماعة تعقد مؤتمرها الأول في مايو ١٩٣٣، وقد تركزت أعمال المؤتمر في بحث النشاط الذى تمارسه البعثات التبشيرية المسيحية وكيفية مواجهتها، وقرر المؤتمر توجيه رسالة إلى الملك فؤاد يطالب فيها بضرورة إخضاع نشاط هذه البعثات الأجنبية لرقابة حكومية فعالة (١١٧).

وفي نفس العام يعقد الإخوان المسلمون المؤتمر الثانى لجماعتهم والذى خصص لدراسة مسائل التنقيف والدعوة. وقرر المؤتمر تأسيس شركة صغيرة لإنشاء مطبعة خاصة بالإخوان المسلمين (١١٨) وكالعادة كان البنا هو صاحب الفكرة وهو المحرك الأساسى فى تنفيذها.

وبجهد مكثف منه أثمرت نتائج المؤتمر الثانى مجلة أسبوعية هى "الإخوان المسلمون" لكنها لم تستمر طويلاً. ثم صدرت "النذير" كلسان حال الجماعة، ولكنها ما لبثت أن انشقت عن الجماعة. لكن أهم ما أسفر عنه هذا التوجه نحو الدعوة والإعلام هو سلسلة الرسائل التى كتبها حسن البنا شارحاً فيها أهداف الجماعة وأساليبها ورؤيتها للمجتمع المصرى ولمشاكله وللدعوة الإسلامية وطرق تعزيزها، وقد كانت هذه الرسائل وظلت لأمد طويل - وحتى الآن - الأساس النظرى والفكرى لجماعة الإخوان المسلمين.

وهكذا قفز البنا بجماعته القفزة الأولى نحو الصعود. وهو توسيع نطاق الدعوة والإعلام وتنشيط خطوط الاتصال بين الحركة وال جماهير.

وبعد الإعلام يأتى التنظيم فقد كان الشيخ منطقياً ومرتباً فى تفكيره، وهكذا تحدت مهام المؤتمر الثالث الذى عقد فى مارس ١٩٣٥ حيث بدأ المرشد يضع قواعد العمل التنظيمى فبعد توسيع نطاق الدعوة والاتصالات والإعلام لا بد من ضوابط للعضوية. ولا بد من بناء حزبى محكم وإلا هددت الجماعة بأن تصبح مثل غيرها من الهيئات والأحزاب التى تواجدت فى ذلك الحين.. مجرد لاقطة وجماهير - قلت أو كثرت - ثم تنظيم هلامى غير محدد المعالم. وصاغ الشيخ شروط العضوية ومراتبها ودور العضو فى كل مرتبة، وأهم من هذا أنه وضع النواة الأولى لتنظيم "الجوالة" الذى لعب فيما بعد دوراً حاسماً فى تاريخ الجماعة.

ويحدد المرشد كتابة وبشكل واضح وصارم شروط العضوية ومراتبها: "على العضو الراغب فى الانضمام أن يتحلى بالأخلاق والسمعة الحسنة والسلوك المتين، ويكون لديه الاستعداد للطاعة التامة وتنفيذ ما يلقى عليه من أوامر. وهو فى هذه المرحلة يكون أخاً مساعداً، وإذا أعلن استعداداه ووقع استمارة العضوية وتعهد بالتزام الطاعات، وعكف عن المحرمات وحضر الاجتماعات الأسبوعية يصير أخاً منتسباً، ويرتفع بعد ذلك لأن يصبح أخاً عاملاً إذا ما أضاف لسابق الواجبات والصفات قدرة على دراسة عقيدة الإخوان، وتعهد بالورد القرآنى،

وحضر مجالس القرآن الأسبوعية، وكذلك إذا ما اشترك في صندوق الحج وانضم إلى فرق الرحلات ما دامت سنه تسمح بذلك، عليه في هذه المرحلة أن يلتزم التحدث بالعربية الفصحى بقدر المستطاع، مع عمله الدائم على تنقيف نفسه في الشؤون الاجتماعية العامة وحفظه للأربعين حديثاً نبوياً. أما الدرجة الرابعة وهي أسمى الدرجات فهي درجة الجهاد، وهي من حق الأخ العامل والذي يثبت لمكتب الإرشاد محافظته ومواظبته على كل الواجبات السابقة، ويصبح بذلك داعية مجاهداً. والداعية مرتبة سامية إذ لا بد أن يكون مؤمناً بفكرة يدعو إليها بالكتابة والخطابة والحديث العادى والعمل الجدى فى سيرته الخاصة والعامة بكل ما يستطيع من وسائل الدعاية، كما يتحلى بالبلاغة فيكون محدثاً وقدوة يؤثر فى الناس بعمله وشخصه^(١١٩).

وهكذا وضع البنا أسس تنظيم حديدي محكم استطاع أن يخوض به التجربة التى حلم كثيراً بها.

كذلك وافق المؤتمر الثالث على "عقيدة الجماعة" التى تقول:

١ - "أعتقد أن الأمر كله لله، وأن سيدنا محمد (ﷺ) خاتم رسله للناس كافة، وأن الجزاء حق، وأن القرآن كتاب الله، وأن الإسلام قانون شامل لنظام الدنيا والآخرة، وأتعهد بأن أرتب على نفسى حزياً من القرآن الكريم، وأن أتمسك بسنته المطهرة، وأن أدرس السيرة النبوية وتاريخ الصحابة.

٢ - أعتقد أن الاستقامة والفضيلة والعلم من أركان الإسلام.

وأتعهد بأن أكون مستقيماً أؤدى العبادات وأبتعد عن المنكرات: وأن أتحلى بالأخلاق الحسنة، وأتخلى عن الأخلاق السيئة، وأتحرى العادات الإسلامية ما استطعت، وأن أؤثر المحبة والود على التحاكم والنقاضى، فلا ألجأ إلى القضاء إلا مضطراً، وأعتر بشعائر الإسلام ولغته وأعمل على بث العلوم والمعارف النافعة فى طبقات الأمة.

٣ - "أعتقد أن المسلم مطالب بالعمل والكسب والتكسب، وأن فى ماله حقاً

مفروضاً للسائل والمحروم، وأتعهد بأن أعمل لكسب عيشي وأقتصد لمستقبلي وأؤدي زكاة مالي وأخصص جزءاً من إيرادي لأعمال البر والخير، وأشجع كل مشروع اقتصادي نافع، وأقدم منتجات بلادي وبنى ديني ووطنى.. ولا أتعامل بالربا فى شأن من شؤنى.. ولا أتورط فى الكماليات فوق طاقتى.

٤ - أعتقد أن المسلم مسئول عن أسرته. وأن من واجبه أن يحافظ على صحتها وعقائدها وأخلاقها. وأتعهد بأن أعمل لذلك جهدى وأن أثبت تعاليم الإسلام فى أفراد أسرتى. ولا أدخل أبنائى مدرسة لا تحفظ عقائدهم وأخلاقهم وأقاطع كل الصحف والنشرات والكتب والهيئات والفرق والأندية التى تتاوى تعاليم الإسلام.

٥ - أعتقد أن من واجب المسلم إحياء مجد الإسلام بإنهاض شعوبه وإعادة تشريعه، وإن راية الإسلام يجب أن تسود البشر. وإن مهمة كل مسلم تربية العالم على قواعد الإسلام وأتعهد بأن أجاهد فى سبيل أداء هذه الرسالة ما حييت وأضحى فى سبيلها بكل ما أملك^(١٢٠).

ولقد تعمدت أن أورد النص كاملاً، ولا يملك الباحث إلا أن يسجل ملاحظة واحدة وهى أن النص أخلاقي صرف، ولا بأس من ذلك، بل وهو مفيد فى إطار دعوة دينية صرفة. لكنه لا يتضمن كلمة واحدة عن الاستعمار ولا عن القضية الوطنية فى بلد يهيمن الاحتلال على مقدراته. ولا كلمة دفاع واحدة عن الفقراء ولا حل واحد لمشكلة من مشكلات مصر أو شعبها وباختصار هو مجرد اقتباسات أخلاقية تصلح أهدافاً لأى مسلم فى أى بلد، وفى أى زمان.

لكن أخطر ما فى الموضوع هو قرار المؤتمر بأنه "على كل مسلم أن يعتقد أن هذا المنهج كله من الإسلام وأن كل نقص منه هو نقص من الفكرة الإسلامية الصحيحة ذاتها"^(١٢١)، ويلاحظ أحد الباحثين خطورة هذا المبدأ ويرى "أن الجماعة تصدر به الدين لمصلحتها وبهذا لا تصبح مجرد جمعية تطبق الدين كما يحاول غيرها أن يفعل، وإنما تؤكد أن منهجها وحده هو الإسلام الصحيح ومن ثم فإن من يقف ضدها كجماعة يكون خارجاً على الإسلام ذاته. إنه مبدأ يسعى للسيطرة على

الإسلام لا للاتصاف به فقط" (١٢٢).

وإذ يحاول بعض أتباعه من الشباب "المتسرعين والقلقين" رفض المنهج المتأنى والحذر الذى يرسمه الشيخ بعناية وحرص فإنه يحدثهم قائلاً: إن الطريق ما زال طويلاً وشاقاً ويحدد لهم توقيت الهجوم العام وقواته. "فى الوقت الذى يكون فيه منكم - معشر الإخوان المسلمين - ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسياً وروحياً بالإيمان والعقيدة، وفكرياً بالعلم والثقافة، وجسماً بالتدريب والرياضة، فى هذا الوقت طالبونى بأن أخوض بكم لجاج البحار وأقتحم بكم عنان السماء، وأغزو بكم كل عنيد جبار، فأنى فاعل إن شاء الله" (١٢٣) إنه الشيخ فى طوره الجديد، أو يمكن تسميته طور ما بعد المؤتمر الخامس. وهكذا يكون الجيش مستعداً.

وقد يلاحظ القارئ أننا لم نشر للمؤتمر الرابع للجماعة.. فقد عقد هذا المؤتمر فى عام ١٩٣٦ لكنه قد خصص فقط للاحتفال بتتويج الملك فاروق. ولذلك قصة أخرى سوف نوردها فى الفصل القادم.

نحن الآن نفتح صفحة جديدة.

صفحة ما بعد المؤتمر الخامس.

كل ما قبل ذلك كان تحضيراً وإعداداً.. أما اليوم فهو القول الفصل، هو بدء التنفيذ. فقد كان كل ما سبق مجرد إعداد للثلاثمائة كتيبة استعداداً لخوض لجاج البحر، واقتحام عنان السماء.

ولعله من الضرورى هنا أن نلقى نظرة على البناء التنظيمى الذى ابتدعه وأقام أسسه بنجاح تام الشيخ حسن البنا.

كانت الجواله هى أول عمل تنظيمى خاص أقامه البنا، ولعلها كانت فى البداية محاولة البلورة للنشاط الرياضى والاجتماعى الذى اهتم به الشيخ غاية الاهتمام قائلاً إنه يقتدى بالحديث الشريف "المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف" وبالحكمة البليغة "العقل السليم فى الجسم السليم" (١٢٤).

وفى أعقاب المؤتمر الثالث للجماعة (١٩٣٥) زاد الاهتمام بصورة مكثفة بفرق الجواله، واعتبرت تنظيمياً مستقلاً ذا هيكل مستقل تابع مباشرة للمركز العام. ولعلها أصبحت فى ذلك الحين محط اهتمام أكبر من الشيخ فقد بدأت القمصان الملونة الخضراء "مصر الفتاة" والزرقاء "الوفد" تملأ شوارع القاهرة والمدن الأخرى وتستخدم من أجل الردع السياسى والردع المضاد.

وكان لا بد لجماعة كالأخوان من فريق للردع خاص بها. ولعل الشيخ كان أكثر من أتقن ذلك من قادة العمل السياسى المصريين.

وفى عام ١٩٣٩ عين البنا واحداً من أخلص رجاله - هو محمود لبيب (ضابط سابق بالجيش) قائداً عاماً لفرق الجواله وكون لها مجلس قيادة من سبعة أشخاص. وباختصار كانت فرق الجواله هى الوعاء الذى يستوعب أخلص شباب الجماعة وأكثرهم ولاءً كى يصقلهم ويدربهم، ويعودهم على الطاعة التامة والتفانى المطلق. ولعل الشيخ وهو يصوغ جنينيات هذا الوعاء، كان يدرك أن ثمة خطوة أخرى قادمة هى اختيار أخلص هؤلاء الخالصاء، وأنشط هؤلاء النشطاء فى وعاء سرى تماماً هو "الجهاز الخاص" .. لكن لذلك قصة أخرى.

والمهم أن فرق الجواله قد نشطت واتسعت وامتد عملها إلى مجالات عدة فى الريف والمدينة ابتداء من محو الأمية ومقاومة الكوليرا وخدمة البيئة، إلى ردع الخصوم السياسيين، إلى المشاركة فى الاحتفالات العامة كجيش خاص بجماعة الإخوان المسلمين، وفى عام ١٩٤٨ كان عدد أعضاء فرق الجواله من الإخوان المسلمين ٤٠٠٠٠ عضو.

ولقد أثارت فرق الجواله هذه الكثير من الجدل فالهيئة العامة للكشافة قاومت فى بداية الأمر نشاطها، فقانونها يؤكد أن الكشف لا يتداخل فى السياسة. والأحزاب الأخرى قاومتها واعتبرتها نهجاً "فاشياً" فى التنظيم.

وبرغم ذلك فقد نجح البنا فى أن يفلت بجوالته وأن يحميها من أية محاولة لحلها، كما نجح فى أن يبرز شباب جماعته فى صورة زاهية تماماً. فقد كانوا

حريصين دوماً على خدمة الجمهور، وقدموا بالفعل خدمات مهمة وخاصة في أوقات المحن العامة كوباء الكوليرا والملاريا.

ومع "الجوالة" كانت "الكتائب" أو "كتائب أنصار الله". فـ"الجوالة" للرياضة والشباب والخدمة العامة أما "الكتائب" فهي مجموعات تضم كل منها أربعين عضواً من الأعضاء النشطين في الجماعة يلتقون معاً ليلة كل أسبوع حيث يقضون أكثر الليل في العبادة وتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الأوراد. وكان الهدف الأساسي الذي وضعه الشيخ لهذه الكتائب هو ربط العضو بالجماعة، وتطوير علاقته بها من علاقة "انتماء" إلى علاقة "إيمان" فهو يعبد الله في إطارها وبين صفوفها.

ولعل فكرة هذه الأمسيات الدينية، ذات العبادة المكثفة قد واثت الشيخ من خلال انتمائه السابق للصوفيين. كذلك كانت الكتائب وعاء يختبر فيه الرجل رجاله، ويفرز من بينهم من هو أكثر إخلاصاً وولاءً. وكان شعار الكتائب: "العمل - الطاعة - الصمت" ^(١٢٥) ونتأمل.. العمل والطاعة نعم ولكن لماذا "الصمت"؟ وأى حاجة للصمت في ليال ليس فيها سوى التعبّد وذكر الله؟ لقد كان الرجل ينتقى من أخلص خلصائه رجلاً لعل لعمل جديد هو "الجهاز الخاص".

وبعد فترة استنفدت "كتائب أنصار الله" غرضها بالنسبة للشيخ الفذ الذي استشعر أنه قد انتقى ما شاء من رجال، وأنه قد آن الأوان لوضع نظام يشمل أعضاء الجماعة جميعاً وكان نظام الأسر.

وقد بدأ تنفيذ هذا النظام في عام ١٩٤٣ في ظل التزايد الواسع للعضوية وما صاحب بعض فترات الحرب العالمية من ضغوط على الجماعة ^(١٢٦) وفي بداية الأمر سمى "نظام الأسر التعاوني" ثم أصبح اسمه "نظام الأسر" وتقوم الفكرة التي وضعها الشيخ البنا على أساس تجميع الأعضاء النشطين في كل شعبة وتقسيمهم إلى مجموعات كل مجموعة لا تزيد على خمسة أعضاء "أصبحت عشرة فيما بعد" ^(١٢٧)، وتسمى المجموعة أسرة وتنتخب كل أسرة رئيساً يسمى "نقيباً" ويقوم بتمثيل مجموعته أمام قيادة الفرع. وتعتبر الأسرة وحدة متكاملة مسؤولة مسؤولية

جماعية عما تكلف به. وتكون كل أربع أسر "عشيرة" يرأسها "تقيب" الأسرة الأولى من أسر العشيرة. وتكون كل خمس عشائر "رهط" و"الكتيبة" تضم خمسة "رهوط" (١٢٨).

وهكذا وصل البنا إلى الطموح التنظيمي الذي يريد والذي حلم به، فقد نجح نظام الأسر في أن يحيل الجماعة كلها إلى شبكة متصلة الحلقات متماسكة الفعل ورد الفعل، قادرة على أن تستجيب -وعلى الفور- لإرشادات وتوجيهات القائد. وفي المركز العام كان "قسم الأسر" تحت إشراف مباشر من "المرشد" وحركة "الأسر" أقوى جهاز في الجماعة، بل وأقوى جهاز سياسى فى مصر كلها فى ذلك الحين.

والأسرة تعقد اجتماعات أسبوعية حيث تمارس معاً العبادات، وتقرأ القرآن والأوراد، ويقدم كل عضو حساباً عن نشاطه وعمله وماليته. وكان البنا يحث الإخوان "على أن يعززوا علاقات الأخوة فى إطار الأسرة الإخوانية. فاجتماعات "الأسرة" الأسبوعية تعقد خارج الشعبة ويستحسن أن تعقد فى منازل أعضائها بالتناوب، وبخلاف الاجتماعات الأسبوعية كان على الأسرة أن تنظم أمسية إسلامية كل شهر، ويستحسن أن تقضيها فى مكان خلوى حيث ينامون ويقرأون معاً، وتحل مشكلاتها المالية فيما بينها، وعلى أساس نظام "التكافل" الإسلامى إذ تحتفظ الأسرة بصندوق تعاونى تضم إليه تبرعات أعضائها ترسل الأسرة خمس إيرادها إلى الشعبة لتمول منه المشاريع الاجتماعية التى تديرها الشعبة.

وقد حرص البنا على تعزيز نظام الأسر كسبيل لارتباط العضو بالجماعة ليس فقط سياسياً وإنما اجتماعياً واقتصادياً. كما حرص على أن تصبح الجماعة موئل العضو وأسرته ودرعه ومحط آماله. وكان يروى دوماً كيف "فقد أحد أعضاء الجماعة مورد رزقه فقدم له أخ فى الأسرة نصف مرتبه، فلما سئل: كيف تعيش بنصف راتب؟ أجاب: وكيف يعيش أخى بلا دخل؟".

وقد أوصى البنا الإخوان بأن يقيموا نظام "الأسر" على أساس أعمدة ثلاثة: التعارف -التكافل - مستلهمين الآية الكريمة "واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا

تفرقوا" والحديث الشريف "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً" (١٢٩).

وتتجلى براعة البناء كمنظم في أنه قد ربط بالجماعة وأهدافها كل عضو فيها.. ومنحه القدرة على العمل في إطارها فأصبحت "الإخوانية" أسلوباً للحياة (١٣٠).

هكذا يكون الجيش مستعداً. الأعضاء منتظمون في "الأسر" تشدهم إلى المرشد برباط وثيق، والشبان الأكثر حيوية والأكثر إخلاصاً منتظمون في فرق "الجوالة" يتدربون ويتعودون الطاعة التامة والتفاني في الإخلاص لبيعتهم للمرشد. وفوق هذا هناك الجهاز الخاص المدرب والمسلح والمجهز تجهيزاً عالياً ليكون أداة الردع التي لا يعرف أحد عنها شيئاً سوى المرشد نفسه. وبهذا يحكم المرشد قبضته تماماً على الجماعة كلها.

وإلى المجال الصعب بالنسبة لأي مسلم "سلفي" وهو مجال العمل وسط النساء وتنظيمهن، وصلت اهتمامات البناء، فمنذ البدايات الأولى في الإسماعيلية اهتم البناء بالعمل وسط الأخوات محاولاً برغم تمسكه بالحجاب، وبضرورة استقرار المرأة في البيت، أن يجد لجماعته موضع قدم في الحركة النسائية. ذلك أن البناء كان يؤكد وباستمرار أهمية الدور الذي تلعبه "الأسرة الإسلامية" في تنشئة جيل مسلم، فكيف يمكن تصور "أسرة إسلامية" بغير "أخوات مسلمات"؟

وهكذا كان من بين مشاريعه الأولى وهو لم يزل بعد في الإسماعيلية تأسيس مدرسة أمهات المؤمنين، وفي أبريل ١٩٣٣ أصبحت هذه المدرسة أول فرع رسمي للأخوات المسلمات (١٣١).

لكن العمل وسط النساء ظلت تعرقله التوجهات السلفية للجماعة تجاه قضية تحرير المرأة وحققها في العمل وتجاه الحجاب وقضية الأحوال الشخصية، وتعرقله أيضاً مقاومة وتأفف بعض أعضاء الجماعة من العمل وسط "الحريم". وهكذا مضت سنوات عشر كاملة على تأسيس الفرع الأول للأخوات المسلمات بالإسماعيلية قبل أن تتكون قيادة مركزية "للأخوات المسلمات" بالمركز العام. وبدفع خاص من جانب الشيخ البناء تحقق الأخوات المسلمات نجاحاً يعتبر بمقاييس

الأربعينيات وبمقاييس العمل النسائي كبيراً، فقد وصل عدد الأخوات المسلمات عام ١٩٤٨ رقماً عالمياً هو خمسة آلاف عضوة^(١٣٢) لكن الملاحظة المهمة هي أن الإخوان إذ حققوا في الجامعات نجاحاً باهراً وسط طلاب الجامعات في الأربعينيات إلا أن عدد الطالبات المحجبات في الجامعة كان ضئيلاً جداً إلى درجة لافتة للنظر.. إذ يبدو أن الفتيات المتعلّقات كن يتصورن دعوة الإخوان دعوة سلفية تعود بالمرأة إلى عصر الحريم^(١٣٣).

وفي أيام "المحنة الأولى" (١٩٤٨ - ١٩٥٠) وما تلاها من محن لعبت الأخوات المسلمات دوراً مهماً في رعاية أسر المعتقلين وفي تأمين الاتصال بين سجناء الإخوان في مختلف السجون وبينهم وبين من بقى من الإخوان في الخارج. ومن صفوف الأخوات المسلمات لمعت بعض أسماء وبرز أحد هذه الأسماء الأخت زينب الغزالي ليلمع في قمة قيادة الدعوة.

وإذ يستعد الجيش لمرحلة التنفيذ فلا بد من جهاز إعلامي قوى، ولهذا حرص البنا على أن يوصى الإخوان "بأن يتعلموا من الغرب فنون الدعاية"^(١٣٤). وكانت المطبعة الصغيرة التي أسسها البنا بعد المؤتمر الثاني للجماعة مستمرة في طبع رسائله إلى الإخوان والتي أصبحت سلاحاً إعلامياً على قطاعات كبيرة من التيارات الإسلامية، ورويداً وريداً تنمو المطبعة الصغيرة بفضل الاهتمام الذي منحه لها المرشد لتصبح واحدة من أهم المشروعات الاقتصادية للجماعة^(١٣٥).

ورغم البداية المتواضعة فقد نجح البنا في أن يصدر أول مجلة إخوانية تحمل دعوته إلى الجمهور. وكانت مجلة "الإخوان المسلمون" الأسبوعية التي صدرت لتعلن أنها صوت دعوة الحق والقوة والحرية. وكانت المجلة مملوكة لواحد من كبار السلفيين الذين أثروا تأثيراً كبيراً في المرشد عندما كان طالباً، وهو الشيخ محب الدين الخطيب صاحب المكتبة السلفية وبجنهين فقط وافق الخطيب على مشاركته له في إصدار هذه المجلة باسم "الجماعة" وصدر العدد الأول في مايو ١٩٣٣

لتكون أول مجلة تصدر عن الجماعة، ولتستمر في الصدور أربعة أعوام كاملة^(١٣٦).

ومع مرحلة التنفيذ كان لا بد للجماعة من سلاح إعلامي جديد "الذير" التي كان لها من اسمها الكثير والتي كانت "إعلاناً" صريحاً وصارماً من الشيخ لكل سياسى مصر بأن "الإخوان المسلمون" اقتحموا ميدان السياسة.

لكن "الذير" أصبح سلاحاً في يد المنقسمين على الشيخ، فتكون هي ورئيس تحريرها وصاحب امتيازها ومنذ عام ١٩٣٩ لسان حال المنشقين الذين أسموا أنفسهم "شباب سيدنا محمد"^(١٣٧) ويستخدم البنا علاقاته الوثيقة بالشيخ رشيد رضا وبأسرته، ليحصل على مجلة "المنار" التي تعثر صدورها بعد وفاة الشيخ رشيد عام ١٩٣٥، ويصدرها البنا باسم جماعته منذ عام ١٩٣٩ حيث أصدر منها ستة أعداد. إلى أن ألغت الحكومة ترخيص المجلة كجزء من ضغطها على جماعة الإخوان وألغت في نفس الوقت مجلة إقليمية كانت تصدر عن الجماعة باسم "التعارف"^(١٣٨).

لكن شهر العسل يعود سريعاً، ويجد المرشد سبيلاً للصالح مع الحكام. وفي عام ١٩٤٢، وكجزء من المصالحة العامة، وكتعبير عن مصالحة جديدة بين الوفد والإخوان تنهض الجماعة من جديد لتصدر في أغسطس ١٩٤٢ مجلتها الأسبوعية "الإخوان المسلمون" التي صدرت في بداية الأمر كل أسبوعين.. وفي مايو ١٩٤٦ صدرت "الإخوان المسلمون" يومية معززة وجودها وتمويلها بعلاقة حميمة مع إسماعيل صدقي وحكومات الأقلية والسراى وواصلت صدورها حتى حل الجماعة في ديسمبر ١٩٤٨.

وفي نوفمبر ١٩٤٧ أصدرت الجماعة مجلة شهرية للدراسات الإسلامية باسم "الشهاب" لعلها أقرب ما تكون إلى "منار" الشيخ رشيد رضا. كذلك أصدرت الجماعة مجلة طلابية كانت توزع أساساً على طلاب الجامعات^(١٣٩).

وإذ رفض البنا التعليم الحديث باعتباره انعكاساً غريباً مرفوضاً يعلم التلاميذ

الضلال والعلمانية، وإذ رفض التعليم الأزهرى باعتباره مجرد حفظ لموضوعات دينية وأنه خال من الاهتمام الروحى والوجدانى.. فقد حلم بتعليم من نوع جديد. وكعادته عندما يقتحم أى ميدان يبدأ بمشروع صغير ثم يبذل من طاقته وجهده ما يجعل أى صغير كبيراً.

وبدأت المؤسسة التعليمية للإخوان المسلمين منذ الأيام الأولى فى الإسماعيلية كنموذج يقدمه الشيخ لنوعية جديدة من التعليم تستهدف نهضة الإسلام وتستهدف نقد التعليم الحديث ودحضه باعتباره "تعليماً علمانياً"^(١٤٠).

وفى عام ١٩٣٥ شكلت الجماعة وفداً لزيارة رئيس الوزراء ووزير المعارف العمومية وممثلى الأحزاب السياسية للمطالبة بتعديل أسس التعليم تعديلاً جذرياً بحيث يقوم على أسس إسلامية حقة^(١٤١) وقد سجلت الجماعة أكثر من مرة انتقادها المبرر للحكومة المصرية لكونها حكومة بلد إسلامى وتسمح فى نفس الوقت للبعثات المسيحية بافتتاح مدارس، ولأن مدارس الحكومة تدرس تاريخ أوروبا ولا تدرس تاريخ الإسلام^(١٤٢) ونلاحظ أنه فى عام ١٩٤٨ خاضت صحف الجماعة وشعبها معركة عنيفة ضد المدارس الكاثوليكية. وقد أرسل الأب "هنرى عيروط" إلى جريدة الإخوان المسلمين رسالة يرد فيها على هذا الهجوم لكن الجريدة لم تنشر هذه الرسالة. وأخيراً نجح الأب عيروط فى مقابلة الشيخ حسن البنا، ونشرت جريدة "الإخوان المسلمون" موضوعاً عن هذه المقابلة ركزت فيه على ضرورة اتحاد رجال الأديان ضد الإلحاد والملحدين^(١٤٣).

وفى عام ١٩٣٨ وعندما طلب وزير المعارف العمومية إلى شيخ الأزهر تقريراً عن توحيد نظامى التعليم الأزهرى والحديث أسهم حسن البنا فى هذا التقرير بتقرير تفصيلى وجهه فى شكل رسالة إلى الوزير أكد فيها أن هزيمة "العلمانية" لن تكون بغير إتيان رجال الدين لمختلف فروع العلوم والمعرفة. ومن ثم فقد أكد البنا أنه لا يريد تعليمًا إسلاميًا صرفاً، ولا علمانيًا صرفاً وإنما مزيج من الاثنين^(١٤٤).

وفى عام ١٩٤٦ بدأ البنا يولى شبكة التعليم الإخوانية اهتماماً خاصاً حيث

تكونت لجنة تشرف على تأسيس المدارس الابتدائية والثانوية للبنين والبنات، ثم تكونت لجنة الشؤون الثقافية^(١٤٥) ودعا البنا أنصاره للتبرع لها. وانهاالت التبرعات. ويلاحظ أن إحدى القوائم قد ضمت تبرعاً بخمسة آلاف جنيه مع وعد تبرع بألف جنيه أخرى لكل مدرسة تؤسسها الجماعة. وفي عام ١٩٤٦ كان وزير المعارف محمد حسن العشماوى صديقاً للشيخ حسن البنا فوجه رسالة رسمية للجماعة يدعوها إلى المساهمة فى مشاريع الوزارة لمحو الأمية وتعميم التعليم. وقدمت الوزارة معونة ٧٥ قرشاً مقابل كل تلميذ يدرس فى مدارسها ثم قدمت لها الكتب والأدوات اللازمة لمدارسها مجاناً، ثم قررت الوزارة تغطية نفقات هذه المدارس بالكامل. وقد قدمت لها اعترافاً رسمياً. ثم عمد البنا إلى تأسيس شركات مساهمة لتأسيس المدارس وقد نجحت الفكرة أيضاً.

واتسعت شبكة المدارس الإخوانية إلى درجة أن الشيخ البنا، قد أكد أن كل شعبة من شعب جماعته الألفين أسست مدرسة أو أكثر^(١٤٦) ولبد لنا من أن ندرك أثر ذلك فى انتشار الجماعة ونفوذها فى صفوف التلاميذ وأولياء الأمور والمدرسين والمدارس.

وأسهمت الجماعة أيضاً فى مختلف أوجه النشاط الاجتماعى. وقد أشرنا إلى دور فرق الجواله الإخوانية فى مقاومة الملاريا والكوليرا، كذلك قد وجه البنا جماعته لتأسيس قسم طبى عام ١٩٤٤. ثم افتتح الشيخ البنا عيادة طبية وأجزاخانة ومستشفى صغير بلغ عد المترددين عليه ٥١٣٠ مريضاً فى عام ١٩٤٧. وقد وصلت ميزانية القسم الطبى فى عام ١٩٤٨ إلى ٢٣٠٠٠ جنيه.

وفى ميدان الخدمات الاجتماعية بدأت الجماعة نشاطاً ملحوظاً، وفى عام ١٩٤٦ كان لها ١٠٢ فرع للخدمات الاجتماعية زادت فى عام ١٩٤٨ إلى ٥٠٠ فرع.

وحتى تستطيع هذه الفروع الاستفادة من المعونات المالية الكبيرة التى تقدمها وزارة الشؤون الاجتماعية لمثل هذا النشاط، والذى يتعين عليه وفقاً للقانون ألا يرتبط بأى جماعة سياسية - كونت الجماعة فرعاً مستقلاً عنها للإشراف على هذا النشاط.

وهكذا امتدت يد الجماعة إلى مختلف جوانب الحياة فى المجتمع المصرى وأصبحت مؤسساتها التعليمية والصحية والاجتماعية ركائز بالغة الأهمية تعزز مكانتها وتضخ إليها فى ذات الوقت أموالاً تحصل عليها عبر القنوات الحكومية.

والسؤال الملح والمحير هو: كيف استطاع البنا أن يمول كل هذه المشروعات؟ وكيف استطاع أن يدبر الموارد المالية الكافية لجماعة تمتد شعبها لتغطى أنحاء مصر، ولتفرق الجواله بملابسها ومعدات، وللمدارس والمستشفيات والمشاكل والمصانع والشركات والمؤسسات؟ وهذه المجموعة الهائلة من المتفرغين والسياسيين والإداريين، وفوق هذا وذاك الجهاز السرى بمخابئه وأسلحته وأفراده؟

وعند صدور قرار حل الجماعة لاحظ الجميع أن إجمالى أصول الجماعة.. من ممتلكات وشعب وأساسات شركات ومدارس ومصانع ومزارع ومشاكل ومستشفيات... إلخ قد وصل رقماً خيالياً بالنسبة لحزب سياسى أياً كانت جماهيريته خصوصاً إذا ما كان التركيب الطبقي لهذه العضوية ينزح نحو البرجوازية الصغيرة من الطلاب، والفلاحين، والحرفيين، وصغار الموظفين. وهؤلاء جميعاً ليسوا فى مستوى مالى يمكنهم من تغطية هذه النفقات.

ولتفسير أو حتى تبرير ذلك يتعين أن تستعيد بعض المعلومات:

- تبرع شركة قناة السويس الاستعمارية للجماعة. واعتبار قبول البنا له نموذجاً لموقف تكرر أو قيل أنه تكرر.

- إقرار الشيخ البنا بأن إسماعيل صدقى قد عرض عليه معونة مالية مقابل خدمات سياسية من الجماعة "وأن البنا قد أكد عدم قبوله هذه المساعدة" فى حين أقر الجميع بحصول الجماعة على دعم كبير فى حصص ورق مدعوم لصحف الجماعة وتمويل كبير للأنشطة التعليمية والاجتماعية.

- إن معظم الخلافات التى ثارت فى صفوف الجماعة قد اتخذت من موضوع التمويل ومصادره مادة للهجوم على الشيخ البنا فمنذ انقسام الإسماعيلية وحتى انقسام "شباب سيدنا محمد" ثم انقسام السكرى كانت المسائل المالية عنصراً مشتركاً.

- إن الشيخ البنا إذ أحكم قبضته على كل أوجه نشاط الجماعة، انفرد تماماً وبشكل خاص بموضوع المالية.

- إن كثيراً من حملات التبرعات كان ينظمها الشيخ البنا كانت تغطي سريعاً، وبطاقات تفوق الإمكانيات المالية المحدودة لأعضاء غاليبيتهم العظمى من محدودى الدخل، بما يوحى بأن فتح باب التبرع كان فى أغلب الأحيان غطاءً لتمويل غير مرئى.

كذلك فإن الكثيرين من الإقطاعيين والرأسماليين قد قدموا تبرعات مالية وعينية للجماعة مبررين ذلك بتشجيع الجماعة على محاربة الشيوعية^(١٤٧).

- إن اتهامات كثيرة قد ترددت فى أن تمويلًا خاصاً قد تعاطته الجماعة من الإنجليز تارة ومن الألمان تارة أخرى^(١٤٨).

والحقيقة أن وثائق مودعة فى الأرشيف العام البريطانى تشير إلى دعم مالى كبير من ألمانيا النازية. وهو ما سوف نشير إليه فيما بعد، إلا أن البحث المدقق يكتفى بطرح هذه التساؤلات ما لم يجد إجابة مؤكدة. ومعها يستمر أيضاً فى طرح سؤال هو: من أين إذن كل هذا السيل المتدفق من التمويل؟

ولكى نؤكد أن هذا السؤال الأخير فى محله تماماً، فإننا نقدم مجرد نموذج محدود جداً من استثمارات جماعة الإخوان المسلمين:

- شركة الإخوان للصحافة ورأسمالها ٥٠٠٠٠ ألف جنيه.

- شركة الإخوان للطباعة ورأسمالها ٧٠٠٠ جنيه.

- شركة الإعلانات العربية، ويقال إن رأسمالها قد بلغ ١٠٠٠٠٠ جنيه^(١٤٩).

- شركة المعاملات الإسلامية وقد بلغ رأس مالها عام ١٩٤٦م ٣٠٠٠٠ ألف

جنيه^(١٥٠). وقد امتلكت عديداً من المصانع منها على سبيل المثال مصنع البلاط الذى اتخذ غطاء لصناعة أخطر المواد المتفجرة التى امتلكتها الجماعة وهى قطن البارود.

- الشركة العربية للمناجم والمحاجر ورأسمالها ٦٠٠٠٠ جنيه.

- شركة الإخوان المسلمين للغزل ورأسمالها ٨٠٠٠ جنيه.
- شركة التجارة والأشغال الهندسية ورأسمالها ١٤٠٠٠ جنيه.
- شركة التوكيلات التجارية بالسويس "لم نصل إلى رقم رأسمالها".
- شركة مزرعة العركى "وكانت تمتلك ٨٠٠ فدان" (١٥١).

من أين أتت الجماعة بكل هذه الأموال؟

سؤال يفرض نفسه.. فالأرقام كبيرة جداً خصوصاً إذا ما أضفنا إليها الأصول الأخرى كالمدارس والمقار والمشاعل.. والعيادات والمستوصفات.. إلخ. والإجابة المباشرة صعبة، إلا إذا وجد الباحث الجرأة فى استصدار أحكام قاطعة مستنداً فقط إلى الشبهات القوية. وليس أمامنا سوى أن نواصل البحث. فلعلنا فى فصل قادم نجد المزيد من الضوء نسلطه حول منطقة الغموض هذه فى تاريخ الرجل وتاريخ الجماعة.

الهوامش

- (١) حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية - ص ٤٩.
- (٢) طارق البشرى الحركة السياسية في مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢ (١٩٧٢).
- (٤) "إسرائيل" ١٩٣١/٧/٣١.
- (٤) حسن البنا - المرجع السابق - ص ١٨.
- (٥) فتحي العسال - حسن البنا كما عرفته - ص ٥٤.
- (٦) حسن البنا - المرجع السابق - ص ٢٢.
- (7) Khadduri Ibid - p.74.
- (٨) المرجع السابق - ص ٧.
- (٩) لمزيد من التفاصيل عن جماعة الشبان المسلمين راجع:
Heyworth - Dunne.J - Religious and Political Trends in Egypt, (1950) p.11 -14.
- (10) Khadduri - Ibid - p. 70.
- (١١) حسن البنا - المرجع السابق - ص ٧٣-٧٤.
- (١٢) حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية - ص ٧٢.
- (١٣) ريتشارد ميتشيل - الإخوان المسلمون "الترجمة العربية" - ج ١ - ص ٣١.
- (١٤) موسى إسحاق الحسيني - المرجع السابق - ص ١٧.
- (١٥) د. يونان لبيب رزق - الأحزاب المصرية قبل ثورة ١٩٥٢ (١٩٧٧) - ص ٨٨.
- (١٦) حسن البنا - المرجع السابق - ص ١٦.
- (١٧) المرجع السابق - ص ١٤٢.
- (١٨) السيد محمد عشاوى (دكتور) - تاريخ الفكر السياسى المصرى ١٩٤٥ - ١٩٥٢.
- (١٩) المرجع السابق - ص ١١٢.
- (٢٠) حسن البنا - بين الأمس واليوم - ص ٢١.
- (21) Gibb,W.A.R -Modern Trends In Islam (1947) - p.7.
- (٢٢) حسن البنا - المرجع السابق - ص ٩.
- (٢٣) السيد محمد عشاوى - المرجع السابق - ص ٤٠٠.
- (٢٤) آمال كامل بيومى - التيارات السياسية فى مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢ - رسالة ماجستير غير منشورة - ص ٢٥.
- (٢٥) الأهرام - ٢٠ يناير ١٩٣٠.
- (٢٦) مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين (١٣٥٧هـ) (من خطاب لمحمود الجندى جمعة عضو مكتب الإرشاد العام).
- (٢٧) الدعوة - ١٥ فبراير ١٩٥٣ - حسن العشاوى بعنوان: ماذا أقول عن حسن البنا؟

- (٢٨) الدعوة - ١٥ فبراير ١٩٥٥ - مقال عبد الرحمن البنا - بعنوان: الرجل الذى لم يحمل ضغناً.
- (٢٩) الهلال - أبريل ١٩٧٧ - رأى كاتب أمريكى فى حسن البنا - بقلم روبرت جاكسون - ترجمة أنور الجندى.
- (٣٠) حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية - المرجع السابق - ص ١٠٠.
- (٣١) الهلال - أبريل ١٩٧٧ - رأى كاتب أمريكى فى حسن البنا - المرجع السابق.
- (٣٢) الرسالة - ٢٨ أبريل ١٩٥٢.
- (33) Mitchell - Ibid - p.297.
- (٣٤) فتحى العسال - حسن البنا كما عرفت - المرجع السابق.
- (٣٥) موسى إسحق الحسينى - المرجع السابق - ص ٥٤.
- (٣٦) أبو الحسن الندوى - مذكرات سائح فى الشرق العربى - (١٩٤٥) ص ٤.
- (٣٧) أحمد أنس الحجاجى - الرجل الذى أشعل الثورة - (١٩٥٢) ص ٤.
- (٣٨) حسن البنا - المرجع السابق - ص ١٤٦.
- (٣٩) المرجع السابق - ص ١٦٦.
- (٤٠) المرجع السابق - ص ١٢٤.
- (٤١) المرجع السابق - ص ١٥١.
- (٤٢) المرجع السابق - ص ١٤٢.
- (٤٣) حسن البنا - مجموعة رسائل الإمام الشهيد - ص ١٥٠.
- (٤٤) طارق البشرى - المرجع السابق - ص ٣٦٧.
- (٤٥) قانون النظام الأساسى لهيئة الإخوان المسلمين العامة - م ١٩ - ص ١٦.
- (٤٦) محمد شوقى زكى - الإخوان المسلمون والمجتمع المصرى - (١٩٥٤).
- (٤٧) حسن البنا - المرجع السابق - ص ٢٠٦.
- (٤٨) الجمهورية ٢٣ سبتمبر ١٩٥٤.
- (٤٩) لطفى عثمان - قضية مقتل النقراشى باشا - القاهرة (١٩٥٠) ص ٣٧.
- (٥٠) الدعوة ١٢/٢/١٩٥٢ - مقال صالح عشاوى.
- (٥١) محكمة الشعب - الجزء الأول - المحاكمات التى تمت من ٩-١٣ نوفمبر ١٩٥٤، محاكمة محمود عبد اللطيف، شهادة هندأوى دوير - ص ٣٣.
- (٥٢) الإخوان المسلمون "الأسبوعية" ٢٦/١٠/١٩٤٦ - حديث الأسبوع.
- (٥٣) حسن البنا - رسالة التعاليم.
- (٥٤) أنور الجندى - الإخوان المسلمون فى ميزان الحق - ص ٦٩.
- (٥٥) قانون النظام الأساسى لهيئة الإخوان المسلمين وشعبها طبقاً للتعديل الذى أقرته الجمعية العمومية باجتماعها غير العادى ٣٠ يناير ١٩٤٨ ص ٧.
- (٥٦) د. حسين فوزى النجار - الإسلام والسياسة - القاهرة ١٩٧٧ ص ١٧٤.
- (٥٧) المرجع السابق - ص ١٤٣.
- (٥٨) أبو الأعلى المودودى - نظرية الإسلام السياسية - القاهرة ١٩٧٧ ص ٢٩، ٣٠.

- (٥٩) إسحق موسى الحسينى - المرجع السابق - ص ١١٤.
- (٦٠) أنور السادات - أسرار الثورة المصرية - ص ٦٦.
- (٦١) طارق البشرى - المرجع السابق - ص ٦٩.
- (٦٢) المأثورات وورد الرابطة للإمام الشهيد حسن البنا - هدية مجلة الدعوة - أغسطس ١٩٧٦.
- (٦٣) محمود عبد الحليم - الإخوان المسلمون - أحداث صنعت التاريخ - ج ١ - ص ٥٤.
- (٦٤) المرجع السابق - ج ٢ - ص ٤٦٥.
- (٦٥) أحمد عادل كمال - النقط فوق الحروف - الإخوان المسلمون والنظام الخاص - ص ٦٦.
- (٦٦) مجلة الإخوان المسلمون "الأسبوعية" ١٣ محرم ١٣٦٥ هـ - ٧ ديسمبر ١٩٤٦ - مقال بقلم "أمين".
- (٦٧) د. رؤوف شلبى - الشيخ حسن البنا ومدرسة الإخوان المسلمون - ص ٢٣.
- (٦٨) عبد الباسط البنا - تاج الإسلام وملحمة الإمام - والقاهرة (١٩٥٢) ص ٢.
- (٦٩) عبد الخبير الخولى - قائد الدعوة الإسلامية - حسن البنا (١٩٥٢) ص ٢١.
- (٧٠) محمد لبيب البوهى - الإيمان والرجل - القاهرة (١٩٥٠) ص ٥٩.
- (71) Mitchell - Ibid - p.189
- (٧٢) الهلال - أبريل ١٩٧٧ - رأى كاتب أمريكى.. المرجع السابق.
- (٧٣) المرجع السابق.
- (74) Mitchell - Ibid - p.190.
- (٧٥) الدعوة ٢٢ أبريل ١٩٥٢.
- (٧٦) حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية - المرجع السابق - ص ٩٦.
- (٧٧) المرجع السابق - ص ١٣٨.
- (٧٨) الهلال - مايو ١٩٧٧ - مقال: حسن البنا فى رأى كاتب أمريكى - المرجع السابق.
- (٧٩) مجلة الشباب - ١٤ نوفمبر ١٩٤٧ - ص ٣. وراجع أيضاً أحمد أنس الحاجى - رسالة من المريخ - ص ٥٦.
- (٨٠) محمد الغزالى، الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين - ط ٣ (١٩٥٣) - ص ٢٦.
- (٨١) محمد الغزالى - فى موكب الدعوة - (١٩٥٠) - ص ١٢.
- (٨٢) محمد الغزالى - الإسلام والاستبداد السياسى - القاهرة (١٩٥٠) - ص ١٢.
- (٨٣) المرجع السابق
- (٨٤) محمد الغزالى - الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين - المرجع السابق - ص ٢٧.
- (٨٥) الإخوان المسلمون - العدد الممتاز الصادر فى عام ١٩٤٨ بمناسبة مرور عشرين عاماً على تأسيس الجماعة.
- (٨٦) فتحي العسال - المرجع السابق - ص ١٢٠.
- (٨٧) المرجع السابق - ص ١٢٧.
- (٨٨) حسن البنا - بين الأمس واليوم.
- (٨٩) محاكمات الثورة - الكتاب الأول - محاكمة إبراهيم عبد الهادى - ص ١٧٩.
- (٩٠) الجمهورية ١٣ فبراير ١٩٥٤.

(91) Vatikiotis – The Modern History of Egypt – p.323.

(92) Khadduri Ibid – p.73.

(93) Grunedaum – Ibid – p.186.

(94) Ibid – p.247.

(95) Wheelok, Keith – Nasser New Egypt – london (1960) –p.3.

(96) Vatikiotis – Ibid – p.323.

(٩٧) هكذا أورد الشيخ حسن البنا التاريخيين معاً، لكن أحد الباحثين فى تاريخ الجماعة وهو روزنتال فى مقاله "الإخوان المسلمون فى مصر" المنشور فى مجلة "عالم الإسلام" عدد أكتوبر ١٩٤٧، اكتشف عند مقارنة التقويمين الهجرى والميلادى أن ذا القعدة ١٣٤٧هـ يوافق شهرى أبريل - مايو ١٩٢٩م. ونلاحظ أيضاً أن الجماعة قد احتفلت بعيد تأسيسها العاشر فى يناير ١٩٣٩ مما يرجح أن تاريخ التأسيس هو عام ١٩٢٩ فعلاً. لكن الجماعة عادت فاحتفلت بالذكرى العشرين لتأسيسها فى سبتمبر ١٩٤٨ الأمر الذى عاد بنا إلى ترجيح عام ١٩٢٨ خاصة أنه هو التاريخ المذكور فى المادة الأولى من النظام الأساسى للهيئة العامة للإخوان المسلمين - ص ٥.

(٩٨) حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية - ص ٩١.

(٩٩) المرجع السابق - ص ٨٦.

(100) Vatikiotis – Ibid – p.262.

(١٠١) حسن البنا - المرجع السابق - ص ١٠٩.

(١٠٢) لبيب البوهى - الإيمان والرجل - ص ١٠.

(103) N.Safran, Egypt in Search of Political Community – (1961) – p.202.

(١٠٤) ليوناردو بايندر - الثورة العقائدية فى الشرق الأوسط - تعريب خيرى حماد - القاهرة (١٩٦٦) - ص ٧٨.

(١٠٥) د. إسحق موسى الحسينى - المرجع السابق - ص ٢١.

(١٠٦) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع: د. رفعت السعيد - مصطفى النحاس السياسى والزعيم والمناضل - دار القضايا - بيروت (١٩٧٦).

(107) Peters Donald – The Moslem Brotherhood, Terrorists of Zealots –Reporter – vlli (17 Mar. 1953) – p.8.

(١٠٨) السيد يوسف - الإخوان المسلمون، هل هى صحوة إسلامية؟ - ج ١ - (١٩٩٤) - ص ١٦٥.

(١٠٩) حسن البنا - المرجع السابق - ص ١٠٠.

(١١٠) السيد يوسف - المرجع السابق - ص ١٧٤.

(١١١) الإخوان المسلمون - ٥ سبتمبر ١٩٤٨ مقال بقلم الأستاذ محمد البنا.

(١١٢) المرجع السابق.

(١١٣) محمود عبد الحليم - الإخوان المسلمون، أحداث صنعت التاريخ - المرجع السابق - ج ١ - ص ١١٠.

(١١٤) إبراهيم قاعد - عمر التلمسانى شاهداً على العصر - ص ٣٩.

(١١٥) عبد الباسط البنا - المرجع السابق.

- (١١٦) حسن البنا - المرجع السابق - ص ٢١٧.
- (١١٧) عبد الباسط البنا - المرجع السابق - ص ٢٦.
- (١١٨) المرجع السابق - ص ١٤٥.
- (١١٩) حسن البنا - تذكرة الداعي - مقال بمجلة الإخوان الشهرية العدد التاسع.
- (١٢٠) د. يونان لبيب رزق - المرجع السابق - ص ١٠٧.
- (١٢١) حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية - ص ١٨٣.
- (١٢٢) طارق البشري - المرجع السابق - ص ٥٢ - "يلاحظ أن هذه العبارات وأمثالها قد حذفت من الطبعة الثانية للكتاب".
- (١٢٣) حسن البنا - رسالة المؤتمر الخامس - ص ٢٤.
- (١٢٤) محمد شوقي زكي - المرجع السابق - ص ١٢١.
- (١٢٥) الدعوة ١٥ أبريل ١٩٥١.

(126) Mitchell - Ibid - p.196.

- (١٢٧) نظام الأسر: نشأته وأهدافه - ص ١٨.
- (١٢٨) المرجع السابق - ص ١٨.
- (١٢٩) الموجع السابق - ص ١٥.
- (١٣٠) رضوان محمد رضوان - المأثورات.
- (١٣١) أحمد أنس الحجاجي - روح وريحان - المرجع السابق - ص ٢٠٠.
- (١٣٢) لمزيد من التفاصيل راجع: الأخوات المسلمات - الرسالة الأولى - القاهرة ١٩٥١.

(133) Mitchell - Ibid - p.173

- (١٣٤) حسن البنا - الرسائل الثلاث - ص ١١.
- (١٣٥) الدعوة ١٢ فبراير ١٩٥٢.

(136) Mitchell - Ibid - p.185

- (١٣٧) حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية - ص ١٤٩.

(138) Mitchell - Ibid - p.57

(139) Vatikiotis - Ibid - p.361

(140) Mitchell - p.284.

- (١٤١) عبد القادر عودة - الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه - المرجع السابق.
- (١٤٢) الإخوان المسلمون ٥ أغسطس ١٩٤٨.
- (١٤٣) الإخوان المسلمون ١٧ يوليو ١٩٤٦.
- (١٤٤) الإخوان المسلمون ١٠ يوليو ١٩٤٨.
- (١٤٥) حسن البنا - قول فصل - ص ٣٤.

(146) Mitchell - Ibid - p.182.

(147) Ibid - p.182.

(148) Heyworth – Dunne – Ibid – p.57.

(149) Mitchell – Ibid – p.275.

(150) Mitchell – Ibid – p.275.

(١٥١) المصور ١١/١١/١٩٥٥.

الفصل الثالث

الجماعة فى غمرة السياسة

وفى السياسة كما فى القضايا الاجتماعية لعبت المناورة والمدارة، والأقوال المطاطة التى تحتل أكثر من معنى الدور الأساسى فى كتابات وممارسات الأستاذ البنا وجماعته.

وإذا كانت السياسة هى المحور الأساسى، بل الهدف الأساسى للشيخ، فإن مجال المناورة فيها كان أكثر رحابة وأكثر سهولة، لكن الانحياز أو عدم الانحياز أو المناورة فى القضايا الاجتماعية كان أكثر صعوبة، بل أكثر خطراً على علاقات الشيخ بقوى اجتماعية كانت تلهب صراعاتها فيما بينها فى حين أن الشيخ كان يريد أن يكون معها جميعاً، بل يريد لها أن تكون جميعها معه.

لقد كان الشيخ البنا بحاجة إلى طرفى الصراع معاً: الأغنياء والفقراء - كبار الملاك والفلاحين - الرأسماليين والعمال. فالفقراء هم قاعدته الأساسية، والأغنياء وكبار رجال الدولة هم رافعته، وقد أراد البنا أن يحتفظ بالقاعدة والرافعة معاً. واحتاج ذلك منه الكثير من المناورة والمدارة وأحياناً التلاعب، دون جدوى.

وإذا كان البنا قد تجنب فى البداية، أو بالدقة تظاهر بعدم الاهتمام بالسياسة إلا أنه استشعر بعضاً من القوة التى استمدّها من دفء علاقته التى أصبحت حميمة بالقصر الملكى فقد بادر بإظهار أظافر سياسية بدأت فى تلوين توجهات الدعوة والطفو بها فى ساحة الفعل السياسى.

وفى العدد الأول من مجلة "النذير" يخاطب البنا رجاله: "لقد انتقلنا من دعوة الكلام وحده إلى دعوة الكلام المصحوب بالعمل"، ويشير إلى الأحزاب السياسية قائلاً: "ستخاصمون هؤلاء جميعاً، فى الحكم وخارجه خصومة شديدة لديدة إن لم يستجيبوا لكم"^(١).

وهو يعلن افتراقه عن الجميع "إلى الآن أيها الإخوان لم تخاصموا حزباً ولا

هيئة، كما أنكم لم تنضموا إليهم. ولقد تقول الناس عليكم فمن قائل إنكم وفديون نحاسيون، ومن قائل إنكم سعديون ماهريون، ومن قائل إنكم أحرار دستوريون، أو إنكم بالحزب الوطنى متصلون، أو لمصر الفتاة منتسبون إلى غير ذلك، وإنكم لبريئون فما اتبعتم غير رسوله زعيماً وما اتخذتم سوى الإسلام غاية، فدعوا الناس جانباً وخذوا فى الجد، والزمن كفى بكشف الحقائق" (٢).

ويأتى الزمن. البنا يستشعر بعضاً من القوة، وجماعته تمتك بعضاً من الركائز، فيقرر البنا أن يتحدث بكلمات عامة ومطاطة عن جماعته التى كانت ولم تزل غامضة فى أذهان الكثيرين، بل حتى فى أذهان رجالها أنفسهم. البنا يحاول أن يقدم نفسه وجماعته للآخرين "يقولون نحن فى حيرة من أمر الإخوان المسلمين، أهى طريقة صوفية أم جمعية خيرية، أم حزب سياسى، وأى شىء يقصدون، وفى أى طريق يسيرون؟! أما نحن الإخوان فقد تجاهلنا هذه المسميات وأخذنا فى الطريق الأول الذى لا يصلح أمر الناس إلا عليه، الدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله، ونهجنا منهج الإسلام، ووسيلتنا إيمان ومحبة وعمل" (٣).

لكن البنا لم يفتح نوافذ جماعته أمام أحد، فيظل يراوغ بالكلمات التى لا تحمل مضموناً محدداً ويسأل: "هل نحن طريقة صوفية أم جمعية خيرية أم مؤسسة اجتماعية أم حزب سياسى؟ نحن دعوة القرآن، ودعوة الحق الشاملة الجامعة، نحن نجمع بين كل خير" (٤) لكنه يعود فيقول: "إن الإخوان دعوة سلفية، طريقة صوفية، هيئة سياسية، جماعة رياضية، رابطة علمية ثقافية، شركة اقتصادية، فكرة اجتماعية" (٥) ثم - ويا للغرابة - لا يلبث أن يصيح فى رجاله: "أيها الإخوان لستم جمعية خيرية، ولا حزباً سياسياً، ولا هيئة موضوعية الأغراض محدودة المقاصد، ولكنكم روح جديد، ونور جديد، وصوت داو" (٦) ولقد يتصور البعض أن فى هذا نوعاً من التخبط، لكننى أعتقد أنه تخبط مقصود لذاته، ومخطط بشكل محكم لكى تظل الجماعة قادرة على التعامل على أى وجه، ومع أى محيط، وكى يمكنها أن تتقلب لتتلاءم مع أى تقليب.

وفى محضر النيابة تحدث عبد المجيد حسن قاتل النقراشى باشا، محاولاً أن يوضح طبيعة الجماعة: "الإسلام عقيدة وعبادة، ووطن وجنسية، وسياسة وقوة، وثقافة وقانون بمعنى أنه فى عهد المسلمين الزوائل ما كانش فيه حاجة اسمها سياسة فكان الحاكم هو الرمام وهو الحاكم فى الوقت ذاته، وهو قائد الجيوش، يتفرغ للسياسة والدين على أساس أن السياسة جزء من الدين" (٧).

إنه مجرد تكرار لأقوال المرشد الذى قال: "أيها الناس، الإسلام فكرة وعقيدة ونظام ومنهاج لا يحده موضع ولا يقيده جنس ولا يقف دونه حاجز جغرافى ولا ينتهى بأمر، حتى يرث الله الأرض ومن عليها" (٨). وقال فى موضع آخر: "ليس هناك شىء اسمه دين وشىء اسمه سياسة إنها بدعة أوروبية" (٩)، ثم يقول: "أستطيع أن أجهر فى صراحة بأن المسلم لا يتم إسلامه إلا إذا كان سياسياً بعيد النظر فى شئون أمته مهتماً بها غيوراً عليها، وإن على كل جمعية إسلامية أن تضع فى رأس برامجها الاهتمام بشئون أمتها السياسية، وإلا كانت تحتاج إلى فهم معنى الإسلام" (١٠).

وهكذا تكشف الجماعة بعضاً من أوراقها، مجرد بعض من أوراقها، وليس كل الأوراق.

ومع المايسترو تعزف الجوقة ذات الألحان فيقول أحد قادة الإخوان: "لقد كان رسولنا الكريم يوقع المعاهدات ويباشر المفاوضات ويراسل الملوك ويسير الجيوش فى الوقت الذى كان فيه رجلاً يصلى بالناس ويقيم شعائر الإسلام، فهل كان فى هذا رجلاً سياسياً؟ نعم، كان كذلك ونحن من بعده نسير على مناهجه، ونعتقد أن السياسة على قواعد الإسلام وإعلاء كلمة الله من صميم فكرتنا" (١١).

ويقول آخر أتحسب أن المسلم الذى يرضى بحياتنا اليوم ويتفرغ للعبادة ويترك الدنيا والسياسة للعزة والاثمين والدخلاء والمستعمرين يسمى مسلماً؟ كلا إنه ليس بمسلم" (١٢) وهى عبارة تكاد تكون منقولة نصاً من أحد مقالات البنا.

لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة فسرعان ما تخفى الجماعة أظافرها السياسية

ونكتفى بالحديث الدينى، وهكذا فى مراوغة استمرت سنوات عدة.

ولا يكون أمام أى باحث مهما كان محايداً إلا أن يفترض أن الشيخ كان يعتمد وبشكل ظاهر الخلط والمراوغة. وتصف باحثة غربية هذا الأسلوب بأنه "أسلوب ذو فاعلية واقتدار فهو يؤكد على الطابع الدينى للجماعة إذا ما جابهه فى الحكومة رئيس قوى، ولكنه لا يلبث أن ينغمس فى الصراعات السياسية إذا ما وجد أمامه رئيساً ضعيفاً للحكومة"^(١٣)، ويأتى باحث مصرى ليعلق على هذا الموقف فيقول: "وهكذا استطاع البنا أن يراوغ الحكومات والأحزاب والرأى العام بوجهى الدعوة، وكان هذا الغموض يحل مشكلة أخرى للجماعة، فهى تنظيم سياسى، أى حزب يسعى للسلطة بينما تتنادى بالقضاء على الحزبية وإلغاء كل الأحزاب. ثم كان هذا الغموض أيضاً يعفى الجماعة من تحديد الأهداف الواضحة فيما يتعلق بالقضايا السياسية الجوهرية التى تواجه الأمة كالمسألة الوطنية، ومشاكل نظام الحكم الداخلى، ويعفيها من تفسير الموقف العملى الذى تتخذه فى كل مناسبة، ويمنحها القدرة على أن تطرح للناس موضوعاً أو مشكلة مغايرة تماماً لما يشغل الجميع من مشاكل سياسية حادة فى أى لحظة"^(١٤).

ولعله من المفيد وقبل أن نخوض مع الشيخ حسن البنا بحر السياسة المتلاطم الأمواج المختلط المواقف أن نشير إلى معارضات قوية ذات وزن إسلامى حقيقى حاولت أن تفند فكرة الشيخ وجماعته من قضية الدين والسياسة.

يقول الباحث المدقق د. حسين فوزى النجار: "يضع محمد مبادئ للحكم والسياسة، ولكنه لا يضع نظاماً للحكم ولا يتخذ فى السياسة قاعدة أو أسلوباً إلا ما يتفق مع مبادئ الأخلاق وهدى الرسالة وخير المسلمين"، ويرد على مقولة الشيخ حسن البنا من أن النبى كان يجمع بين مهمة رجل الدين ورجل الدولة فيقول: "من الخطأ أن نقول إن محمداً كان يسوس أمور الدين إلى جانب قيامه بشىء من الجماعة الإسلامية، فإذا حق لنا أن نقول: إنه قام مع الصحابة بسياسة المسلمين، فما كان فى أمور الدين إلا مبعوثاً واختاره الله لتبليغ رسالته إلى العالمين"^(١٥).

ويقول "لقد تحولت الجماعة الإسلامية غداة التناميها بالمدينة إلى جماعة سياسية بحكم ما واجهت من ظروف حياتها الجديدة، ولعل ذلك كان من أسباب الخلط بين فكرتي الدين والدولة في الإسلام، ولم يجمع النبي بينهما، ولم يأت في القرآن ما يشير إلى إقامة الدولة، وإن ورد فيه ما يشير إلى الأمة الإسلامية بمعنى الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" (١٦).

ويؤكد أن "التشريع الإسلامي تشريع للحياة والحضارة وليس تشريعاً للدولة" (١٧). والحديث عن خطأ فكرة الخلط بين الدين والسياسة طويل وملء بالحجج والأسانيد. فقط أردنا بهذا المثال الإشارة إلى أن دعوة الشيخ لم تمر بغير معارضة من الباحثين الإسلاميين.

ولنعد إلى مقولة البنا عن الدين والسياسة، ولنسجل ملاحظتنا سريعاً على مواقف العملية.

فالبنا إذ يعلن نفسه كزعيم سياسى، ويقدم جماعته كهيئة سياسية لا يستتكمف من أن يحرم الآخرين جميعاً من حق العمل السياسى، "لقد آن الأوان أن ترتفع الأصوات بالقضاء على نظام الحزبية فى مصر. وأن يستبدل به نظام تجتمع فيه الكلمة، وتتوافر فيه جهود الأمة حول منهاج قومى إسلامى صالح" (١٨).

والشئ الذى قد يبدو محيراً للباحث المحايد هو أن البنا كان يؤكد أن الأحزاب والنظام الحزبى ليسا ضروريين لقيام حكومة تمثل الشعب؛ إذ يمكن لهذه الحكومة أن تقوم بدون حزبية ذلك لأن الأحزاب تقسم الأمة ولا تتفق مع المنهج الإسلامى (١٩).

وإذ يدعو البنا صراحة إلى حل كل الأحزاب القائمة فإنه لا يجد غضاضة فى أن يطالب الجميع بأن يفسحوا له الطريق وحده؛ "فحل الأحزاب السياسية سيتلوه قيام حزب واحد على أساس برنامج إسلامى إصلاحى" (٢٠). ولعله يبدو غريباً أن يمعن البنا فى فكرة تصفية كل الأحزاب السياسية ما عدا حزبه إلى درجة الاستشهاد بتجربة الحزب الواحد فى روسيا وتركيا وكلاهما دولتين لا ترضى

جماعة الإخوان عن نهجها^(٢١).

وتستمر علامات الاستفهام وعلامات التعجب فى التراكم، ولا نملك إلا أن نمضى مع رحلة الشيخ السياسى لنسجل ملاحظتنا.

قالبنا يقدم نفسه كحزب سياسى يريد السلطة، بل ويؤكد أكثر من مرة أنه لن يسعى إلى السلطة وإنما السلطة هى التى ستسعى إليه "فنحن لا نسعى للحكم، ولكن هو الذى سيسعى إلينا فيما نعتقد. وحينئذ نفكر فى تحديد موقفنا منه، أنقبله أم نرفضه"^(٢٢)، لكنه مع ذلك لا يقدم أى برنامج سياسى، بل لعله قد تهرب كثيراً من تحديد أى موقف سياسى واضح من أى قضية قومية أو وطنية أو اجتماعية.

وإذا ما سئل كأى زعيم سياسى عن برنامجه أجاب: "نحن مسلمون وكفى، ومنهاجنا منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم وكفى، وعقيدتنا مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله وكفى"^(٢٣)، ثم هو لا يزيد الأمر تفصيلاً، فإذا أبدى البعض شكوكه حول إمكانية العمل السياسى دون برنامج سياسى اتهمه الشيخ بأنه "مريض القلب، سيئ الظن، فهو يطعن ويتجنى ويتلمس للبراءة العيب، وكلا الأمرين وبال على صاحبه وهلاك للمتصف به"^(٢٤).

غير أن الأمر ليس بهذه السهولة، إذ لا يمكن لرئيس جماعة سياسية أن يقتحم ميدان العمل السياسى معلناً أن الإسلام "طاعة وحكم ومصحف وسيف" دون أن يدفع الجميع إلى التساؤل حول من الذى سيستعمل السيف؟ وضد من؟ ولعل التساؤلات بدت فى محلها تماماً عندما استخدم السيف بالفعل أسلوباً فى تعاملات الجماعة مع خصومها.

والإخوان لا ينكرون حقيقة أنهم جماعة سياسية بغير برنامج سياسى.

يجيب واحد من قادة الإخوان المسلمين "هنداوى دوير" فى شهادة له أمام المحكمة، رداً على سؤال المدعى: ألم تضعوا أبحاثاً عن كيفية الحكم بالإسلام؟ قائلاً: "أيام الأستاذ البنا طلبت منه أن يكتب فى هذا فقال لى، أذكر بالضبط أنه قال لى إن إحنا شعبنا كتب وكتابات، وإن المكتبة الإسلامية مليئة، وأن مهمتنا

مش إننا نعمل كتب بل مهمتنا إننا نعمل رجالة".

"ويعود المدعى ليسأله: يعنى مفيش تحديد ولا نص؟

فيجيب: الواقع إن الإخوان لم يعدوا هذا الدستور. وأنا قلت لحضراتكم إننى قلت للأستاذ البنا إحنا عاوزينك تفضى شوية على أساس إنك تكتب لنا إيه اللي يطبقه الإخوان. وأذكر أنه قال فى مناسبة ما أن الناس يجتمعون على مبادئ إسلامية ولو تعرضنا للتفاصيل فيمكن يجىء فقيه ويختلف معنا وجايز نستهلك فى مسائل فرعية" (٢٥).

ويؤكد قائد آخر من قواد الجماعة هذه الفكرة، ويؤكد أن انعدام البرنامج كان أمراً مقصوداً. يقول منير الدلة عضو مكتب الإرشاد العام فى شهادته أمام محكمة الشعب خلال محاكمة الأستاذ المرشد حسن الهضيبي:

- وكيل النائب العام: هل لجمعية الإخوان برنامج لنظام الحكم؟
- الشاهد: ليس لجماعة الإخوان برنامج مفصل لنظام الحكم.
- وكيل النائب العام: على أى أساس تقوم دعوتهم؟
- الشاهد: الجمعية أو الهيئة تتادى بالدعوة الإسلامية، وتدعو إلى الفكرة العامة الإسلامية، الفكرة الإسلامية كفكرة عامة، ولا تضع نظاماً محدداً دقيقاً يسمى نظام الحكم الإسلامى. ولكنها ترسم خطوطاً عريضة إذا تحققت وجد نظام الحكم الإسلامى، ويمكن يوجد داخل هذه الخطوط عدة أنظمة تبقى كلها إسلامية، إذا كان متوافر فيها الشروط العامة التى يضعها الإسلام، أما اختيار نظام معين وتسميته أنه نظام إسلامى فهذه فكرة دقيقة، وهذا هو ربما من الأسباب التى دعت الجمعية بالألا ترسم صورة وتفرضها بتسميتها أنها نظام الحكم الإسلامى واكتفت ببيان الدعوة الإسلامية أو الأسس الإسلامية فى الناحية السياسية مطالبة به فى منحى الحياة العامة.

- وكيل النائب العام: ونظام الحكم فى مصر هل يخالف الإسلام؟
- الشاهد: الإسلام يضع القواعد العامة، والحكم يبقى إسلامى إذا كان فيه

شورى بأى صورة من الصور ومافيش صورة محددة، وما دام قائماً على العدالة ومسئولية الحاكم عن أعماله الفردية، هذه المعانى لو تتوفر يبقى نظام إسلامى. وإذا استكمل الوضع الدستورى فى الوضع الحالى أى لما يستكمل نظام الشورى بإعادة الحياة النيابية يبقى الوضع إسلامى" (٢٦).

ونتوقف أمام أكثر من علامة استفهام ترد فى شهادة عضو مكتب الإرشاد العام. "لا نظام إسلامى واحد محدد بل يمكن أن يوجد داخل هذه الخطوط عدة أنظمة تبقى كلها إسلامية!"

"اختيار نظام معين وتسميته أنه نظام إسلامى فهذه فكرة دقيقة!"
"نظام الحكم الذى كان قائماً فى مصر عام ١٩٥٤ نظام إسلامى فقط تنقصه (الشورى)!"

ولعله من حق الجماعة علينا أن نفحص هذه الأفكار فلقد تكون كلاماً أرسل من سجين رهن القيد، كما اعتاد الكثير من الإخوان أن يفعلوا فى اعترافاتهم. ولهذا فلعله من الضرورى أن نتلمس نحن وعبر المراجع الإخوانية حقيقة "النظام الإسلامى" الذى دعا الإخوان المسلمون إليه.

يقول الشيخ حسن البنا فى رسالته الحاسمة إلى الزعماء المصريين فى عام ١٩٣٨ والمعنونة "نحو النور": "لا بد من جديد فى هذه الأمة، هذا الجديد هو تغيير النظم المرقعة المهلهلة التى لم تجن منها الأمة غير الانشقاق والفرقة. وهو تعديل الدستور المصرى تعديلاً جوهرياً بحيث توحد فيه السلطات".

وفى رسالة المؤتمر الخامس يقول البنا: "إن من نصوص الدستور المصرى ما يراه الإخوان المسلمون مبهماً غامضاً يدع مجالاً واسعاً للتأويل والتفسير الذى تمليه الغايات والأهواء، فهى فى حاجة إلى وضوح وإلى جديد وبيان. هذه واحدة، والثانية هى أن طريقة التنفيذ التى يطبق بها الدستور طريقة أثبتت التجارب فشلها وجنت منها الأمة الأضرار لا المنافع فهى فى حاجة شديدة إلى تحديد وإلى تعديل يحقق المقصود ويفى بالغاية، ولا بد أن تكون فينا الشجاعة الكافية لمواجهة الأخطار

والعمل على تعديلها. أما الأمثلة التفصيلية والأدلة الوافية ووصف طرائق العلاج والإصلاح ففي رسالة خاصة إن شاء الله^(٢٧). لكن البنا سرعان ما يتراجع خوفاً من أن يتهم بمناهضته للدستور أو لعله قد تلقى تأنيباً وتحذيراً ممن كان يخشاهم ويخشى أى تصادم معهم أى رجال القصر، ومن ثم يعود متراجعاً: "إن الدستور بروحه وأهدافه العامة لا يتناقض مع القرآن من حيث الشورى وتقرير سلطة وكفالة الحريات. وأن ما يحتاج إلى تعديل منه يمكن أن يعدل بالطريقة التى رسمها الدستور ذاته"^(٢٨).

بل هو يواصل تراجعه إلى درجة تثير الدهشة: "ما كان لجماعة الإخوان المسلمين أن تنكر الاحترام الواجب للدستور باعتباره نظام الحكم المقرر فى مصر، ولا أن تحاول الطعن فيه أو إثارة الناس ضده وحضهم على كراهيته، ما كان لها أن تفعل ذلك وهى جماعة مؤمنة مخلصه تعلم أن إهاجة العامة ثورة، وأن الثورة فتنة، وأن الفتنة فى النار"^(٢٩).

لماذا كل هذه القعقة إذن؟ ولماذا الحديث عن الجهاد وعن النظام الإسلامى وعن التغيير الجذرى، إذا كان النظام القائم سواء فى عهد "جلالة الملك" فاروق "صديق الإخوان" أو فى عهد جمال عبد الناصر "عدوهم" مقبولاً من جانبهم. ولا ينكرون "الاحترام الواجب له، باعتباره نظاماً للحكم المقرر؟"

لقد خشى الشيخ البنا التصادم مع السلطة وخشى الثورة فأوقع نفسه بنفسه بين شقى الرحى، يريد ولا يريد، طالب بنظام إسلامى وبالجهاد بحد السيف من أجل تحقيقه، ثم يقبل ما هو قائم، ولا يحاول الطعن فيه أو إثارة الناس ضده.

والدهشة لم تملكنا وحدنا من هذا الموقف المتناقض. فالباحث الأمريكى "ريتشارد ميتشل" يعرب عن دهشته قائلاً: "دعا البنا إلى النظام الإسلامى، لكنه استخدم هذا التعبير استخداماً مطاطاً وأحياناً عنى به الدولة الإسلامية، وعلى أية حال فقد قال البنا، وأكد الهضيبى من بعده هما وعدد من كتاب الإخوان أن النظام الدستورى البرلمانى القائم فى مصر يمكنه إذا ما أدخلت عليه بعض إصلاحات أن

يلبى المتطلبات السياسية للدولة الإسلامية"، ويواصل ميتشل تعليقه قائلاً: "وإذا كان هذا صحيحاً فإن النشاط السياسى للإخوان المسلمين إنما يهدف إلى شىء آخر غير الإطاحة بالنظام القائم"^(٣٠). لكن باحثاً أمريكياً آخر يرى أن كل هذه الأقوال كانت "مجرد ستار من الدخان يخفى سعى الإخوان للانقضاض على النظام، ذلك أن أحداً لا يختلف فى أن النظام المطبق فى مصر لا يجعل منها دولة إسلامية"^(٣١)، والأمر لا يقتصر فقط على الدستور وإنما يمتد أيضاً إلى "القانون"، فقد أكد الإخوان فى أكثر من موضع ولسان جهابذة من قادتهم أن القانون المطبق فى مصر - باستثناء بعض النصوص - يتفق مع نصوص الشريعة ولا يتناقض مع مبادئ الشريعة العامة^(٣٢). وقد أكد هذا الموقف بتفصيل واف وإسهاب الأستاذ حسن الهضيبى أثناء محاكمته عندما قال إنه عندما كان يطبق القانون المدنى وهو قاض لم يكن يناقض الشريعة الإسلامية.

وتساءل الكثيرون وهم على حق تماماً "إذا ما كان الأمر كذلك، فلماذا إذن إصرار الإخوان على تطبيق الشريعة الإسلامية؟"^(٣٣).

وإذا كان البنا قد حاذر أشد الحذر من إبداء رأيه فى التطبيق التفصيلى للشريعة الإسلامية حرصاً على ألا يؤدى بخوضه فى هذا الأمر إلى الفرقة والخلاف، أو إلى التصادم مع النظام القائم أو حتى القول باحتمال هذا التصادم، فإن بعض أتباعه من قادة حركة الإخوان ومفكرها قد قللوا من التناقض بين الشرعية الإسلامية وبين النظام القائم ولكن لصالح هذا النظام وتبريراً له.

ويؤكد سيد قطب قبل أن يتحول إلى طريق التطرف أن "السلطات الممنوحة لولى الأمر تعطيه حق التشريع مهتدياً بمسألتين: المصلحة المرسله وسد الذرائع"^(٣٤)، ولا بد لنا أن نعيد ونكرر تساؤلنا فيم إذن كل الضجة عن العودة للنظام الإسلامى وعن جاهلية النظام الذى كان قائماً فى الأربعينيات أو فيما بعدها، إذا كان الإخوان المسلمون قادرين دوماً على التلون بأفكارهم ومبادئهم فهى تارة تتفق مع ما هو قائم، وتارة تطالب بإدخال تعديلات طفيفة عليه، وتارة ترفضه

لأنه جاهلى وضلال، وكل ضلالة فى النار، ولا مبرر ولا معيار لقفز الجماعة من موقف سوى المصلحة الآنية، الأمر الذى يثير رغبة الباحث فى مدى جدية الشعارات التى ترفعها الجماعة أو تدعو لها.

وحتى التعديلات التى طرحها الشيخ البنا على البناء الدستورى فى ظل النظام الملكى لم تكن تتعدى "موضوع الشورى" ولكن ما هو رأيه فى الشورى؟ إنه يرى "أن أهل الشورى يكونون إما من رجال الدين، وإما من الرجال المتمرسين على القيادة مثل رؤساء العائلات والقبائل، ولا تكون الانتخابات بمقبولة إلا إذا ما أسفرت عن اختيار أناس من هذين الصنفين" (٣٥).

وهكذا يرتد الشيخ حسن البنا بتعديله المقترح إلى ما هو أسوأ من قانون الانتخابات المطبق، ويعود به إلى المفاهيم الإقطاعية المتخلفة والتى لا تثق فى جمهور المواطنين الذين أكد الإسلام على حقوقهم المتساوية مع الآخرين - وجعلهم سواسية كأسنان المشط- وإنما تركز ثقته وطموحها فى رؤوس العائلات الكبيرة وشيوخ القبائل.. إلخ!

ومع ذلك فإن الإخوان المسلمين يرون أن "الشعب ليس حراً فى اختيار نظام الحكم الذى يريده فالمواطنون معرضون للخطيئة ما لم يلزموا أنفسهم بحكومة تقوم على أسس دينية" (٣٦).

وليس هذا غريباً "قأبو الأعلى المودودى" وهو واحد من المفكرين الذين يقدرهم الإخوان تقديراً عالياً يرفض الفكرة الديمقراطية من أساسها بل ويعتبر أن منح السلطة للجماهير وحتى للأغلبية المطلقة من هذه الجماهير مفسدة ومروقة. ولنتابع كلمات الفيلسوف المعتمد من جماعة الإخوان المسلمين: "أن المبدأ الرئيسى للديمقراطية الجديدة أن الناس نبذ أنفسهم حكمهم وتشريعهم، وإلى أنفسهم كل التصرف فى القوانين، يضعونها كما يشاءون". وإذ يستنكر المودودى ذلك فإنه يوجه إهانته المباشرة لمجموع الشعب قائلاً: "ومن البديهي أنه إذا كانت قوانين الحياة الاجتماعية كلها تابعة للرأى العام وكانت الحكومة كالعبد لآلة هذه

الديمقراطية الجديدة، فلا يمكن لسلطات القانون والسياسة أن تصون المجتمع عن الانحلال الخلقى، بل هى تعود بنفسها عوناً على إفساد المجتمع ودفعه إلى المهالك. ولا يكون للحق والخير والصالح مقياس غير كثرة الأصوات لصالح هذا الجانب أو ذاك. وأن اقتراحاً مهماً بلغ خبثه وضرره إن كان قد نال من رضى العامة ما يكسبه ٥١ صوتاً فى المئة فلا شئ يمنعه من أن يسمو إلى مرتبة الشرع" (٣٧).

ولا نملك سوى علامات استفهام أخرى؟

لكن النذير الذى اقتحم الميدان شاهراً سيفه يتقدم تارة عندما يستشعر ضعف النظام ثم يتراجع عند الضرورة وهكذا، كر وفر فى أسلوب مكرر ويبدو أنه مرسوم مسبقاً.

وفى بداية ١٩٤٥ يدعو البنا الجمعية العمومية للإخوان المسلمين ويقترح بنفسه إدخال تعديلات على قانون النظام الأساسى، فيضاف إلى المادة الرابعة من الباب الثانى فقرة تقول: "يؤثر الإخوان دائماً التدرج والتطور والعمل المنتج والتعاون مع كل محب للخير والحق، ولا يريدون سوءاً بأحد مهما كان دينه أو جنسيته أو وطنه" (٣٨).

وفى عام ١٩٤٨ يخطو الرجل خطوة أخرى فى طريق التعمية إذ اقترح بنفسه تعديل المادة الثالثة من قانون النظام الأساسى بحيث أضاف إليها: "يعتمد الإخوان فى تحقيق أغراضهم على وسائل الدعوة والتربية والتوجيه والعمل وكل وسيلة أخرى مشروعة" (٣٩).

ولا بد من وقفة تأمل، فهل كان هذا التراجع حقيقياً؟ أم أن الشيخ كان يطبق مبدأ "الحرب خدعة" وأنه فى الوقت الذى كان يسلح فيه جيشه السرى بالقنابل والديناميت والمدافع ويستعد به لأكبر حملة إرهاب شهدتها تاريخ مصر الحديث كان يحاول أن يبث الطمأنينة فى قلوب خصومه؟ إذا جاز لنا الترجيح فإننا نرجح الاحتمال الأخير، خاصة وأن هذه التعديلات المظهرية أتت فى وقت كان فيه

الجهاز السرى قد أكمل استعداداه وتسليحه.

ونعود مرة أخرى لنحاول أن نبحث فى موضوع البرنامج المفتقد.

الشيخ يعد ويعد بأنه سيقدم برنامجاً ولا يفى بوعده، وقد قرأنا له فى صفحات سابقة أكثر من وعد ولم يف به. وها هو وعد آخر، ففى رسالته "إلى أى شىء ندعو الناس" أشار المرشد إلى قضايا العصر قائلاً: "إن العالمية والقومية والاشتراكية والرأسمالية والبلشفية والحرب وتوزيع الثروة الصلة بين لمالك والمستهلك كلها مسائل خاض فيها الإسلام". ثم عاد الشيخ فقال: "إن المقام لا يسمح بالتفصيل فإن الأمر يحتاج لجولات نعد بأن نفصل فيها القول"^(٤٠)، ولم يف البنا بوعده أبداً "ذلك أن البنا كان دائماً غامضاً فى حديثه عن الاقتراحات التفصيلية المتعلقة بالحكومة الإسلامية، وأنه لم يحدث مطلقاً أن شرح نواياه بوضوح"^(٤١).

ولا يبقى أمام الباحث الراغب فى الوصول إلى الحقيقة، المصمم على فك طلاسم الغموض المفتعل سوى أن ينبش فى المواقف العملية بحثاً عن البرنامج الذى اختاره البنا بنفسه. فإذا كان البرنامج كوثيقة سياسية لم يكتب أبداً بواسطة الشيخ فإن مجموع خطواته العملية يشكل برنامجه الفعلى.

فلنسر خطوة خطوة مع الشيخ نتأمل تصرفاته ومواقفه من الأحداث والطبقات والقضايا لعلنا نفهم حقيقة برنامجه الذى أراد وعن عمد وإصرار أن يخفيه. إن الشيخ البنا ينصح أتباعه قائلاً: "اشغلوا الناس عن الفكرة الباطلة بالفكرة الصحيحة"^(٤٢)، أى أنه يتعمد ألا ينقد ما فى أفكار الغير من خطأ وإنما ينقدها من خلال تقديم بديل.

فما هو البديل الذى قدمه الشيخ؟

نفياً لدستور ١٩٢٣ نادى الإخوان "القرآن دستورنا".

ونفياً للزعامات السياسية (النحاس باشا أساساً) نادى "الرسول زعيمنا".

ونفياً للمصرية والنضال المصرى رفعوا أعلام "الخلافة الإسلامية".

ونفياً للنضال المشترك مع الشعوب الأخرى ينادى البنا "أن الدور عليكم فى

قيادة الأمم وسيادة الشعوب وتلك الأيام نداولها بين الناس" (٤٣).

ونفياً لأى نضال اجتماعى ضد ثراء الأثرياء الرأسماليين يقول الشيخ البنا: "أما موقف الإسلام من الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال، فليس بيننا وبينهم إلا أداء الزكاة" (٤٤).

وطوال الأربعينيات وبينما كانت مصر كلها تغلّى بالنضال ضد الاستعمار، والمظاهرات تملأ الشوارع مطالبة بالجلء، والجامعة تلتهب بالعمل الثورى ضد الاحتلال وعلمائه نجد مؤتمر طلاب الإخوان ينحرف بالقضية كلها نحو ضرورة التركيز على "استرجاع الخلافة الضائعة" (٤٥).

وفى رسالة "نحو النور" يورد البنا ما أسماه بالموبيقات العشر ويضع الاستعمار على رأسها، ثم يورد خمسين مطلباً من المطالب العملية للدعوة تحت عنوان "بعض خطوات الإصلاح العملى" ولم يرد بها مطلب واحد يتعلق بالقضية الوطنية أو بالجلء أو بالاستقلال أو بمقاومة الاستعمار، كل ما هناك عبارة تقول: "تقوية الروابط بين الأقطار الإسلامية جميعاً وبخاصة العربية منها تمهيداً للتفكير الجدى العملى فى شأن الخلافة الضائعة" (٤٦).

وفى العيد العاشر للجماعة (١٩٣٨) أكد حسن البنا أن الإخوان يعطون الأولوية لاسترداد الخلافة. وفى رسالته "إلى أى شىء ندعو الناس" تحدث البنا عن الوطن الإسلامى قائلاً إنه ما يسمو عن حدود الوطنية الجغرافية، والوطنية الدموية، إلى وطنية المبادئ (٤٧).

ولعل من حقنا أن نسأل هل كان الإخوان بكل ما علقوه من آمال على الملك الفاسد فاروق كما أكد البنا نفسه عندما قال "إن لنا فى جلالة الملك المسلم أيده الله أملاً" (٤٨) ويكل ما قام بينهم وبين القصر من علاقات سنشير إلى بعضها فى صفحات قادمة، هل كانوا وهم يتحدثون عن الخلافة الضائعة يلوحون بها للملك فاروق؟ أم أى خليفة آخر كانوا يريدون؟

وما يدفعنا لهذا السؤال هو إصرار الإخوان ومرشدهم على أن القضية المحورية

كانت استعادة الخلافة، ولم يقولوا أى خليفة يريدون، بل ولم يسعوا إلى أى تغيير "داخلى" يمكن من قيام خليفة مسلم حقاً وصالح حقاً.

أما أن يترك "الداخل" كما هو، بل يمتدح الملك ويصفق له ويحتفل بعيد ميلاده وعيد جلوسه احتفالات يسودها التملق. ثم تكون المهمة الأولى استعادة الخلافة الضائعة. فهو أمر يثير الدهشة ولا يمنحنا الفرصة لأى إجابة أخرى.

وإذا كان شعار "الخلافة الإسلامية" يوضع فى مجابهة "الوطنية" ويتخطاه فى الأولوية لدى الإخوان، فقد وضعوه أيضاً فى مجابهة القومية العربية. يقول "أبو الحسن الندوى" وهو أيضاً من المفكرين الإسلاميين الذين اهتدى الإخوان بأفكارهم: "وظل هذا الصفاء قائماً ودامت هذه الثقة لا يضعفها شىء ما دام العرب مخلصين للإسلام متجربين له.. لا يعدلون بالقومية الإسلامية قومية، وبرسالة الإسلام والدعوة إليه رسالة ودعوة، ولا يتحمسون لغير الإسلام، فلما تغيرت أخلاقهم فى العهد الأخير، وقامت فيهم الدعوة إلى القومية العربية وتبنوا واحتضنوا دعوات أخرى وتحمسوا لها تزعزعت ثقة الشعوب غير العربية بهم، وتغيرت نظرة العالم إليهم" (٤٩).

ويسير حسن البنا على نفس النهج فهو يقبل العروبة "كرابطة حضارية وليس كقومية" وهو يرى فى العروبة "وحدة روحية بسرطان الإسلام فى عنق أبنائها جميعاً" (٥٠).

وحتى القضية الفلسطينية كانت الجماعة تنظر إليها بمنظار دينى وليس بمنظار قومى. يقول طارق البشرى: "وقد استطاعت حركة الإخوان المسلمين أن تخاطب هذا الجانب فى المصريين ومن ثم تحويل الفعل المعادى للصهيونية لصالحها، لا باعتبار أن المعركة تقوم بين الصهيونية والحركة الوطنية العربية، ولكن باعتبارها معركة بين اليهود والإسلام، وأحييت بهذا ما كان قد انحسم من قضايا الخلافة والجامعة وبنيت لنفسها باسم الدين ركيزة فى مواجهة الحركة الوطنية، وأثارت ثنائية مفتعلة فى حياة مصر السياسية هى ثنائية الدين والوطن" (٥١).

أما موقف الإخوان من قضايا العالم والسياسة الخارجية فقد كان مثيراً للدهشة إذ يقول ميتشل إنهم كانوا يرون في استمرار الحرب الباردة عنصراً مفيداً للإسلام والأمة الإسلامية إذ يتيح لها الفرصة في الوساطة بين المعسكرين الرأسمالي والشيوعي^(٥٢)، ويثير الدهشة أيضاً ما كتبه "سيد قطب" أحد قادة الإخوان من أن المسلمين بحاجة مؤقتة إلى المعسكر الشيوعي ليخيفوا به الطغاة والمستغلين^(٥٣).

ولنمض مع الجماعة والشيخ مرة أخرى محاولين أن نستشف "البرنامج" من خضم التعاملات والمواقف اليومية. وإذا استخلصنا مجمل مواقف الإخوان من القضية الوطنية والقومية العربية بما يحدد "تهجهم" و"برنامجهم" في هذا الصدد، نتجه إلى المشكلات الداخلية لمصر وإلى القضايا الاجتماعية الملحة.

وإذا كان الشيخ البنا قد أورد في مآثوراته مجموعات بين الأدعية ليردها الإخوان منها "اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر"^(٥٤) فقد رأينا كيف انتهى الأمر بأن كل ما هو مطلوب من الرأسماليين هو أداء الزكاة.

وفي "مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي" يطالب حسن البنا "بإحلال رأس المال المحلي محل رأس المال الأجنبي" وهي خطوة لا بأس بها، لكنها كانت أيضاً مطلباً للرأسماليين الذين يريدون الانفراد بالسوق، وعندما يناقش المشكلة الزراعية يطالب بتحديد حد أقصى للملكية الزراعية (لا يورد هذا الحد) على أن يقوم الملاك "ببيع" ما يزيد عن هذا الحد بأسعار معقولة ومقسطة على آمد طويلة لفقراء ومعدمي الفلاحين^(٥٥).

ولا بأس بهذا أيضاً لكننا نلاحظ تخلفه عن النظرات الإصلاحية التي كانت سائدة في صفوف كبار الملاك في مصر الأربعينيات مثل مشروعات "ميريت غالى" ومحمد خطاب". ولعل الجماعة لم تحتل حتى مثل هذه المواقف المتواضعة، فإذا بها عندما يحين الجد وتبدأ ثورة يوليو ١٩٥٢ في تطبيق إصلاحها الزراعي تتراجع عن موقفها القديم وتقدم اقتراحات أكثر تخلفاً.

ويلاحظ أحد الباحثين أن "ثمة تناقضاً يحكم الفكر الاقتصادي للبننا فهو يسمح للأفراد بامتلاك واستغلال الثروة (رأس المال) لكنه فى نفس الوقت يحرم الفائدة" ذلك أن البننا "يرى أن الفائدة مثل الربا محرمة" (٥٦).

ولنأت الآن إلى نقطة جديدة، ما هو موقف البننا من الطبقة العاملة ومشاكلها وصراعاتها؟ وللوهلة الأولى يلاحظ الباحث فى أدبيات الإخوان عبارات لغوية مؤثرة مثل: وفد على دار المركز العام كثير من العمال ينزفون سخين الدمع ويعرضون ما يقاسون، إن أحوالهم تفتت الأكباد وتدمى القلوب (٥٧)، ولكنه يلاحظ أيضاً أن الشيخ البننا يقول فى محاضرة أعدها لقسم العمال بالجماعة أن على العمال أن يتذكروا دوماً "واجبهم نحو الله ونحو أنفسهم ونحو صاحب العمل" (٥٨).

والحقيقة أن قسم العمال فى الجماعة قد نشط نشاطاً واسعاً وحاول إقامة نقابات عمالية تستوحي أفكار ومبادئ الجماعة. وفى منتصف الأربعينيات أثمرت هذه الجهود نفوذاً ملحوظاً فى صفوف عمال النقل، وتنتشر جريدة الإخوان أن عمال النقل قد قرروا تأسيس نقابة تعمل "على هدى رسالة الإخوان المسلمين" (٥٩). وكان للجماعة بعض النفوذ فى صفوف عمال البترول بالسويس وعمال النسيج (٦٠).

وبرغم أن نفوذ الإخوان وسط الطبقة العاملة لم يكن كبيراً إلا أنه من المفيد أن نلقى بعض الضوء على كيفية توجيه الشيخ والجماعة للعمال الإخوانيين.

إن أى دارس لتاريخ الحركة العمالية المصرية يكتشف على الفور حقيقة هذا الدور، وهو أن الإخوان وعمالهم كانوا فى جبهة خصوم حركة الطبقة العاملة. فقد قاوموا حق "الإضراب" الذى كان سلاح العمال الوحيد فى ظل مجتمع يخيم عليه استغلال رأسمالى بشع وحكم عميل، ذلك أنهم اعتبروا أن الامتناع عن العمل والإضراب "هو أمر مخل بروابط الإخاء بين المسلمين ومثير للجفاء بين فرقهم" (٦١) (٦٢).

وفى شبرا الخيمة حيث نظم العمال إضرابهم الكبير (١٩٤٥) الذى يعتبر نقطة تحول فى تاريخ النضال العمالى ناور العمال الإخوانيون فشاركوا فى الإضراب

بهدف تخريبه من الداخل فلما فشلوا انسحبوا منه وحاولت جريدة الإخوان أن تبرر ذلك قائلة "لا بد للعامل فى هذه المنطقة (شبرا الخيمة) من سلاحين هما قوة الإيمان وحسن الخلق فتقوم الصلة بين العامل وصاحب العمل على الاحترام والعطف المتبادلين وهذه هى أنجح الوسائل"، وإذ يدesh البعض من إقحام الإيمان والخلق كأسلحة وحيدة للعمال فى معركتهم ضد الرأسمالية تحاول الجريدة أن تبرر ذلك وتحذر من خطر اليسار "الإخلاص هو العلاج الحاسم، فكتابتنا بيميننا وكتابهم بشمالهم". ومن الانسحاب من الإضراب إلى تخريبه إلى إبلاغ البوليس عن قيادته، الأمر الذى دفع القيادات العمالية من الوفديين والشيوعيين إلى توجيه حملات إعلامية ضد جماعة الإخوان متهمين إياها "بالعمل فى خدمة الرأسماليين والمستغلين، وفى خدمة الطاغية صدقى وحكومات الأقلية"^(٦٣).

والحقيقة أن موضوع قيام الإخوان (عمالا وغير عمال) بإبلاغ السلطات عن نشاط القوى المعادية لهم والتجسس عليها قد تردد بكثرة، بل وقد اعترف به الإخوان أنفسهم.

يقول أحد قادة الإخوان "صلاح الدين على أبو الخير" فى شهادته أمام محكمة الشعب: "إن قسم الأخبار فى الجماعة كان يقوم بجمع الأخبار المهمة التى تهتم الجماعة، ويرضه نشوف أى حاجة.. إفرض فيه خلية شيوعية مثلاً، وأنا أعرف إن الإخوان ضبطوا عدة خلايا"^(٦٤)، ولكن جهودهم فى هذا الصدد قد تركزت فى مجال النشاط العمالى حيث كانت أعين واهتمامات أجهزة الأمن والسراى وكل القوى الرجعية مركزة أيضاً^(٦٥)، الأمر الذى أضر بنشاط الإخوان فى صفوف العمال ضرراً بليغاً ووصل به قرابة عام ١٩٤٨ إلى ما يشبه التصفية^(٦٦).

وهكذا نجد أن الأستاذ البنا قد حاول عبثاً أن يجد لنفسه سبيلاً للمناورة لكنه فشل. فهو يريد أن يكسب لجماعته جماهيرية وسط جموع العمال، لكنه لا يريد أن يفقد مساندة القصر وكبار الملاك والرأسماليين فاتخذ موقفاً يمكن القول إنه "وسط وبأنه مرن" وبأنه يفصل بين القول والممارسة الفعلية.

واكتسب هذا الموقف مزيداً من المرونة أو بالدقة الغموض إذ رفض فى الواقع إعلان أى برنامج سياسى أو اقتصادى محدد وواضح واكتفى بالعموميات مثل "القرآن دستورنا".

لكن واقع الحياة كان يفرض على الجماعة أن تحدد موقفاً من مجمل البنية الاجتماعية والاقتصادية. فاضطرت إلى ذلك واتخذت من الوسطية والمرونة سبيلاً لتلافى أى اختيار واضح وصريح بين العمال وبين مستغليهم.

وسنحاول وبإيجاز شديد تلمس الأسلوب الذى حددت به الجماعة ومفكروها "الموقف الفكرى" من القضية الاجتماعية ومن الطبقة العاملة.

يقول أحد كبار مفكرى الجماعة الشيخ محمد الغزالى: إن الإسلام يطرح نظاماً اقتصادياً يمكن تسميته بالنظام الوسيط. وهو لا يتردد فى القول إن مثل هذا النظام "قد طبق بأشكال مختلفة بإشراف الحكومة على مصالح الشركات الكبرى إشرافاً مباشراً، وهو ما اعتبره وسطاً بين تعطيل مبدأ الملكية وبين إطلاقه"^(٦٧).

بينما يقول مفكر آخر من مفكرى الجماعة هو سيد قطب: "إن النظام الإسلامى ليس هو الرق، وليس هو الإقطاع وليس هو الشيوعية، إن النظام الإسلامى هو فقط النظام الإسلامى"^(٦٨).

إن عبارة سيد قطب هذه نموذج دقيق لأسلوب عرض جماعة الإخوان لأفكارها خاصة فى المجال الاجتماعى فهى تكتفى بنفى صفات محددة دون أن توضح تحديداً ماذا تريد هى. لكننا نلاحظ أن قطب لم ينف صفة "الرأسمالية" عن النظام الإسلامى، ربما لأنهم كعادتهم لم يريدوا تصادماً مع الرأسمالية.

وتحاول مجلة الدعوة أن تضيف ظلالاً غيبية على موضوع الملكية ذاته "فالإسلام لا يعرف الملكية وإن كان يعرف الحياة، إذ قررت المذهبية الإسلامية أن هذا الكون مرده إلى خالق واحد، وأنه وحده مالك الملك بما فيه من مادة وروح. فالإنسان ليس مالكاً أصيلاً لأى شىء لا لذاته أو جسده أو لزرع أو ضرع أو ماء أو هواء، وإنما هو خليفة الله سبحانه فى ملكه"^(٦٩).

وإذا كانت "الملكية" لله وحده والإنسان مستخلف فيها: فإن الاستغلال ليس ملازماً للملكية.

فالشيخ "البهي الخولي" الذي كلف بإعداد البرنامج التثقيفي للجماعة يقول: "إن مقاومة الاستغلال لا تكون بإلغاء الملكية بل بإقامة السلطة العادلة، أما الملكية ذاتها فليس من طبيعتها أن تبيح هذا العدوان، فقد يملك الإنسان ولا يظلم، وقد يملك ويكون محسناً كريماً. ومن ثم فالملكية ليست بحاجة إلى معالجة أو مقاومة، وإنما إلى تهذيب" (٧٠).

ووفق هذه المرتكزات الفكرية تقدم الجماعة أفكارها ومواقفها. ويقول حسن البنا في رسالته المعنونة "مشكلاتنا الداخلية في ضوء النظام الإسلامي":

"إن التفاوت عظيم، واللبون شاسع، والفرق كبير بين الطبقات المختلفة في هذا الشعب، فثراء فاحش وفقير مدقع"، وقد يتصور القارئ أن الجملة التالية ستكون دفاعاً عن العمال أو فقراء الفلاحين لكنها تأتي دفاعاً عن الطبقة الوسطى: "الطبقة المتوسطة تكاد تكون معدمة، والذي نسميه نحن الطبقة المتوسطة ليس إلا مجموعة من الفقراء المعوزين وإن كنا نسميهم متوسطين على قاعدة بعض الضرر أهون من بعض" (٧١).

ويحدد البنا قواعد للنظام الاقتصادي الإسلامي من بينها:

. اعتبار المال الصالح قوام الحياة ووجوب الحرص عليه.

- تقرير حرمة المال واحترام الملكية الخاصة ما لم تتعارض مع المصلحة العامة. ويستند البنا في تأكيد تحريم مصادرة المال إلى الحديث النبوي "كل المسلم على المسلم حرام، دمه وعرضه وماله".

ويمضي البنا قائلاً: "لقد امتدح الإسلام المال الصالح وأوجب الحرص عليه وحسن تدبيره وتثمينه وأشاد بمنزلة الغنى الشاكر الذي يستخدم ماله في نفع الناس ورضاء الله" (٧٢).

ويشير أحد مؤرخي الجماعة إلى تعمدتها الحديث الغامض عن مشاكل العمال وعن حلول هذه المشاكل فيقول: "التزمت الجماعة بالفكر والمصطلحات الشمولية ولم تلجأ إلى التحليل الطبقي، لذلك فقد اقتصر اهتمامها بالقضايا العمالية على إظهار شعور الاستياء مما يعانيه العمال من الفقر والمرض وما يلاقونه من اضطهاد من جانب أصحاب الأعمال واكتفت بالمطالبة بتحسين أحوالهم وتشغيل العاطلين منهم" (٧٣).

وبعد أسبوع واحد من ثورة يوليو نشرت الجماعة ما يمكن اعتباره برنامجاً سياسياً، واقتصادياً، ولعلها فعلت ذلك بهدف احتواء القيادة الجديدة أو تحت ضغطها. وكذلك لمحاولة كسب جماهيرية وسط الشارع المصرى الذى كان ثوار يوليو ومؤيدوهم يكسبون مواقع هامة فيه. وقد جاء فى هذا البرنامج:

"العمل فرض على القادر عليه، ولا يجوز له أن يتخلى عنه، ولا يجوز إعانة رجل لا يعمل وهو قادر، بل يحمل على العمل حملاً، ويجب على ولى الأمر أن يساعد على إيجاد عمل له، فإذا لم يجد عملاً أصلاً، أو كان عمله لا يفيقه أو كان غير قادر عليه، وجب على ولى الأمر أن يتدخل ليحقق له ضرورات الحياة بالزكاة، فإن لم تكف الزكاة لتوفير الحاجات الضرورية وجب على من عنده فضل مال أن يرده على الفقراء حتى يستوفوا حاجاتهم، فإن لم يفعلوا أجبرتهم الحكومة على ذلك واتخذت من التشريعات ما يكفل إصلاح حال المجتمع بقدر ظهور الحاجات وبروز الضروريات. كذلك يجب استكمال التشريعات العمالية بإعادة النظر فى التشريعات العمالية الحالية لتشمل كل فئات العمال بما فيهم العمال الزراعيون ولتكفل للعامل وأسرته التأمينات الكافية ضد البطالة والإصابات والعجز، مع مراعاة جعل الانتساب للنقابات إجبارياً وإباحة تكوين الاتحادات النقابية وتحديد أجور العمال وفق المبادئ الإسلامية" (٧٤).

إنه تطور مفاجئ فى موقف الجماعة تحاول به التقرب من العمال والفقراء عموماً والمزايدة على شعارات ثوار يوليو.

ويواصل الإخوان عملية المزايدة، ففي احتفالهم بالمولد النبوى عام ١٩٥٢ وفى حضور محمد نجيب وجمال عبد الناصر ألقى المرشد العام للجماعة المستشار الهضيبي كلمة قال فيها: "كل إنسان عليه واجب الحصول على عيشه عن طريق العمل الحلال بحسب ما تؤهله له مواهبه، ويجبر على العمل إذا هو قعد عنه، وإذا كان عمل العامل لا يكفيه، أو لم يجد عملاً أصلاً أو كان غير قادر على العمل فهو فى كفالة المسلمين جميعاً أى فى كفالة الدولة تمده بما يحتاج إليه من حاجاته الضرورية"^(٧٥).

لكن ذلك كله يبقى فى العموميات فالإخوان لم يخرجوا أبداً عن إطار العموميات فى حديثهم السياسى والاجتماعى وإن كان لا بد من تخصيص فهو ليس فى صف العمال ولا فى صالحهم. وهو ما نتذكره من أقوال للأستاذ حسن البنا سبقت الإشارة إليها. مثل "إن على العمال أن يتذكروا دوماً واجبهـم نحو الله ونحو أنفسهم ونحو صاحب العمل". ومن أن "الإضراب" أمر مـخل بروابط الرخاء بين المسلمين ومثير للجفاء بين فرقهم".

وعندما تزايدت حدة أزمة البطالة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية شكل "قسم العمال" بالجماعة لجنة لشىءون العاطلين درست المشكلة ثم تقدمت باقتراح غريب هو "إعادة العمال الذين نزحوا من قراهم إبان الحرب للعمل فى المدن، إلى قراهم الأصلية"^(٧٦).

ولا بد هنا من الإشارة إلى مسألة مهمة تشكل محور الموقف الفكرى للجماعة من القضية العمالية. فقد هاجم الإخوان وبحماس شديد الرأسماليين الأجانب (وكان كثير منهم من اليهود) ووصفهم "بالاستعمار الاقتصادى" وطالبوا بتوجيه ضربات شديدة لهم، بل لقد تطور الأمر عام ١٩٤٩ إلى نـسف مصانعهم وشركاتهم لكنهم فى نفس الوقت لم يهاجموا على الإطلاق الرأسماليين المصريين.

إن وثيقة بريطانية تلمح إلى هذه المفارقة بذكاء، فبعد مقتل حسن البنا أعدت السفارة البريطانية تقريراً لوزارة الخارجية البريطانية جاء فيه: "كان حسن البنا

يستهدف مساندة العمال المصريين ضد أصحاب الأعمال الأجانب، لكنه لم يكن ضد أصحاب الأعمال المسلمين^(٧٧).

ويحدد "محمد شريف" مسئول مكتب العمال بالجماعة الهدف الأساسى للجماعة من العمل وسط جماهير العمال "أكد محمد شريف أن معاداة الشيوعية كانت أحد هدفين أساسيين استهدفتها الجماعة من عملها المنظم فى صفوف الطبقة العاملة أما الهدف الآخر فهو السعى لنشر دعوة الإسلام فى الأوساط العمالية"^(٧٨). ويمكن القول بأن الظروف كانت مواتية كى يمارس الإخوان دوراً أزيد بكثير مما فعلوا.

فهناك أولاً المشاعر الدينية المسيطرة على جماهير العمال والتي يمكن استغلالها فى حشد جماهير العمال باتجاه الجماعة.

وهناك أيضاً الفراغ السياسى فى صفوف الطبقة العاملة فى مطلع الثلاثينيات عند نشأة الجماعة. أما التشكيلات النقابية فى ذلك الحين فقد كانت شكلية تابعة بشكل مباشر للأحزاب وكلها غير عمالية، أو تابعة للقصر الملكى، وتولى رئاستها بكوات وباشاوات بل وأحد نبلاء الأسرة المالكة. وكانت الظروف الاقتصادية والاجتماعية تدفع بالعمال إلى العمل المباشر، لكننا نعتقد أن المناورة السياسية والمراهنه على القصر الملكى وعلى عدم إغضاب كبار الملاك والرأسماليين بالإضافة إلى الفكر المنطلق كل ذلك أدى بالجماعة إلى العجز عن الاستفادة من كل هذه الممكّنات.

وبرغم ذلك فلا بد لنا أن نلاحظ وباهتمام أن أول من انضم إلى حسن البنا فى عملية تأسيس الجماعة كانوا ستة من العمال لكن الإسهام المكثف فى عملية التأسيس لم يتواصل معه تواجد جدى للجماعة فى صفوف العمال.

وعلى أى حال فقد تطور موقف الإخوان إزاء الطبقة العاملة من الاتصالات الفردية إلى العمل المباشر والمنظم. وشهد عام ١٩٣٨ بداية هذا التوجه ففى ٢٢ أغسطس ١٩٣٨ "التقى بالمركز العام للجماعة مجموعة من العمال "المتعلمين" وتداولوا الأوضاع السيئة التى تعيشها الحركة العمالية وحول إمكانية تأسيس حزب

عمالى" (٧٩)، ويعلق أحد الباحثين على هذه المحاولة قائلاً: "ويبدو أن هذا الحزب قد تكون من عدد محدود لفترة وجيزة، واتخذ له مقراً فى المركز العام للجماعة. ويبدو أنه كان مجرد واحدة من المناورات التى حاكها القصر ضد الوفد" (٨٠) وبعد عدة أشهر من هذه المحاولة الفاشلة أى فى عام ١٩٣٩ أضرب ثمانية عمال من قادة العمال بمدينة المحلة الكبرى عن الطعام احتجاجاً على سوء أحوال الطبقة العاملة ومطالبين الحكومة بإصدار تشريع يسمح بحق التنظيم النقابى وقد اهتمت مجلة النذير (لسان حال الجماعة فى ذلك الوقت) بهذا الإضراب بالرغم من أن المضربين كانوا يساريين أو قريبيين من اليسار، وهاجمت الحكومات المصرية المتعاقبة لأنها لم تف بوعودها للعمال وطالبت الوزارة بإصدار تشريعات منصفة لهم، لكنها فى الوقت نفسه هاجمت الإضراب كوسيلة وكأسلوب، وأكدت أنه يتنافى مع تعاليم الإسلام (٨١).

وفى أغسطس ١٩٤٢ صدر العدد الأول من جريدة "الإخوان المسلمون" ليعلن تأسيس "قسم الشؤون الاجتماعية" بالجماعة، بما يعنى بداية اهتمام منظم ومنتظم بهذه المسألة.

ويلاحظ مؤلفا كتاب "العمال على ضفاف النيل"، "أن المقالات التى نشرت عن الإصلاح الاجتماعى منذ ذلك التاريخ وحتى لحظة التوقف المؤقت للجريدة فى يناير ١٩٤٤ كانت مقالات عامة ومجردة، تعكس فقط الرؤية الإسلامية الاجتماعية. ولم نجد بينها مقالاً واحداً يمتلك رؤية محددة حول مسألة عمالية محددة" (٨٢).

لكن الجريدة عاودت الصدور فى ديسمبر ١٩٤٤، عادت بتوجه جديد ومباشر نحو الطبقة العاملة. واتسمت مقالاتها عموماً بالبساطة والشعبية والنبرة السياسية والاجتماعية الأكثر حدة. وتوافق ذلك مع توجه الجماعة لعمل نشط وسط العمال. وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة أسست الجماعة "قسم العمال" بالمركز العام، لكنها حرصت على التأكيد بأن "الغرض من إنشاء هذا القسم ليس

التدخل فى شىء من العمال النقابية، ولا التنافس مع الهيئات العمالية أو التعرض للعمال فى مصانعهم أو شركاتهم، ولكنه أنشئ بغرض توصيل الدعوة إلى نفوسهم وحتى يكون دافعاً لمتسكهم بتعاليم الدين" (٨٣).

ويؤكد بعض الباحثين والخصوم السياسيين للإخوان أن الجماعة وجريدتها كانت تبالغ إلى حد كبير فى نشر معلومات عن النشاط الإخوانى وسط العمال. وكمثال على ذلك نرى الواقعة التالية:

فى أعقاب تأسيس "اللجنة الوطنية للعمال والطلبة" (وهى تجمع جماهيرى ضم ممثلى الوفد والعناصر الطلابية والعمالية اليسارية وقاد تحركاً وطنياً واسعاً ضد قوات الاحتلال، فى مظاهرات صاحبة فى ٢١ فبراير و ٤ مارس ١٩٤٦) وفى محاولة لتكريس الانشقاق عن هذه اللجنة ذات الطبيعة الجبهوية الواسعة، ولإثبات أن الإخوان (الذين انشقوا عن هذه اللجنة وأعلنوا وتحت راية حليفهم القديم على ماهر باشا تأسيس ما أسموه الجبهة القومية) يمتلكون تأييداً ما وسط العمال، نشرت جريدة الإخوان فى ١٩ مارس ١٩٤٦ أنه قد تأسست لجان تابعة للجماعة فى مختلف مصانع منطقة شبرا الخيمة (كبرى المناطق الصناعية بالقاهرة) وتأسيس لجنة عليا لمندوبى هذه المصانع. وعلى الأثر أصدر قادة اللجنة الوطنية العامة لعمال شبرا الخيمة (إحدى القوى الأساسية المكونة للجنة الوطنية للعمال والطلبة) بياناً جاء فيه: "نشرت جريدة الإخوان المسلمين أنه قد تألفت لجنة فى كل مصنع من مصانع شبرا الخيمة، وتألفت لجنة عليا من هذه اللجان، والحقيقة أنه لم تتألف لجان برغم المساعى الشديدة لهذه الجماعة، ولقد ذهبنا نحن ممثلى العمال لمقابلة المسئولين فى الجماعة عن هذه المحاولات التى تتم فى مواجهة نقابات العمال فلم نظفر بجواب مقنع بل وجدناهم يتكلمون بلغة المستعمر وأصحاب الأعمال. وأمام هذا أعلننا لهم عدم موافقتنا على تشكيل أى لجنة، وهذه حقيقة نعلنها للرأى العام" (٨٤).

كذلك أصدر التشكيل النقابى الأساسى فى مصر فى ذلك الحين "مؤتمر نقابات

عمال الشركات الأهلية" بياناً جاء فيه: "ودأبت جماعة الإخوان المسلمين منذ فجر البعث الوطنى الحالى على بث الدسائس وتدبير المؤامرات التى ترمى فى مجموعها إلى القضاء على الحركة الوطنية أو تحويلها عن أهدافها مما لا يخدم غير الاستعمار. ولما كانت اللجنة الوطنية للعمال والطلبة هى اللجنة الشرعية الممثلة للطلبة والعمال والموظفين، والمنتخبة انتخاباً ديمقراطياً، والمنظمة لكفاح طوائف الشعب حتى يقضى على الاستعمار، فقد دبر الإخوان مؤامراتهم خاصة ضد اللجنة وبدأوا فى إعلان تكوين لجان خاصة بهم وسط العمال، ويعلن المؤتمر أنه والهيئات الوطنية للعمال والطلبة، يحذرون الزملاء العمال من الانضمام إلى أى لجنة تؤلفها جماعة الإخوان المسلمين. وكل عامل ينضم إلى أى لجنة من لجانها لا يمثل إلا نفسه.

- لتحيا اللجنة الوطنية للعمال والطلبة.

- لتسقط الفاشية.

- ليسقط الاستعمار" (٨٥).

وقد أثبتت الأحداث اللاحقة أنه لا صحة لما أعلنته جريدة الجماعة من تأسيس لجان فى المصانع بشبرا الخيمة تابعة للجماعة إذ لم يبرز أى نشاط لهذه اللجان، وإن كانت الجماعة قد ظلت تمتلك تواجداً محدوداً فى مصانع هذه المنطقة.

ويؤكد مؤلفا "العمال على ضفاف النيل"، "إن قادة عمال النسيج فى شبرا الخيمة الذين تمسكوا بالخط السياسى للجنة الوطنية للعمال والطلبة لم يخفوا عداؤهم لمحاولات التسلل الإخوانية فى صفوفهم" (٨٦).

إن مواجهة العداة التى تصاعدت ضد الإخوان لم تكن فقط بسبب الممارسات السياسية المعادية للمشاعر الوطنية، والتى وقفت بالإخوان فى صف رئيس الوزراء الطاغية إسماعيل صدقى وضد حركة الجماهير الشعبية المعادية للاستعمار بقيادة اللجنة الوطنية للعمال والطلبة، وإنما كانت بسبب ممارسات محددة ضد مصالح العمال المباشرة. وكنموذج لهذه الممارسات يذكر الباحثون فى تاريخ هذه الفترة،

إضراب عمال شبرا الخيمة الشهير. ففي سبتمبر ١٩٤٥ خاض العمال إضراباً شاملاً وناجحاً في منطقة شبرا الخيمة حيث توقفت كل مصانع المنطقة عن العمل، وتشكلت قيادة سرية للإضراب عجز البوليس عن الوصول إليها، وفي البداية أيدت جماعة الإخوان الإضراب لكنها ما لبثت أن انسحبت منه وبدأت حملتها ضده بل لقد أرسلت وفوداً من دعائها إلى المنطقة لإقناع العمال بالعدول عن الإضراب بحجة أن الدين يحرم الإضراب لأن فيه خسارة لأصحاب المصانع من المسلمين^(٨٧).

وعاد عمال شبرا الخيمة إلى الإضراب من جديد، في إضراب أكثر شمولاً وأكثر تنظيماً استمر طوال شهرى مايو - يونيو ١٩٤٦، ومنذ البداية وقف الإخوان ضد الإضراب، واتهم قادة الإضراب - وأيدتهم في ذلك صحف الوفد - أعضاء جماعة الإخوان "بأنهم قد سلموا البوليس قوائم بأسماء وعناوين القادة السريين للإضراب. ونتيجة لهذه المعلومات ألقى القبض على أكثر من مائة من القادة العماليين"^(٨٨). لكن الإضراب استمر رغم ذلك.

وصمم أصحاب المصانع على عدم السماح للعمال بالعودة للعمل إلا إذا تعهدوا كتابة بعدم العودة للإضراب وأيدت جريدة الإخوان ذلك ودعت العمال "إلى إنهاء الإضراب والتوقيع على التعهد الذى طلبه منهم أصحاب المصانع ومكتب العمل بعدم اللجوء إلى سلاح الإضراب فى المستقبل"، وقالت الجريدة أنها "تأمل بعد عودة العمال للعمل وتوقيعهم على التعهد المطلوب أن تعمل الحكومة على حل مشاكل العمال"^(٨٩).

بل إن جريدة الجماعة تواطأت مع السلطات فى محاولة تخريب الإضراب فنشرت خبراً غير صحيح يستهدف تصفية الإضراب، فقالت: "إن وفداً من عمال شبرا الخيمة أعلن اعتزام العمال إنهاء الإضراب"^(٩٠)، وردت عليها إحدى صحف حزب الوفد ببيان لقيادة الإضراب نفت فيه هذه الواقعة. وأكدت أن الإخوان يتجسسون فى صفوف العمال لحساب البوليس^(٩١).

وواصلت صحيفة الجماعة الدفاع عن موقف ملن وصريح يستهدف تصفية الإضراب وأكدت أن منظمى الإضراب "همجيون محترفون" (٩٢).

وعندما انتهى الإضراب وبدأت الحكومة وأصحاب الأعمال هجومهم العام على العمال وصدر قرار بحل نقابة العمال بالمنطقة، قرر العمال الامتناع عن تشكيل نقابة جديدة واللجوء إلى القضاء لطلب إلغاء قرار الحل، وكان معلوماً بوضوح أن تشكيل نقابة جديدة يعنى شطب القضية، ولكن الإخوان أعلنوا تشكيل نقابة جديدة لعمال شبرا الخيمة، ووجهوا بذلك ضربة شديدة للتقاليد النقابية (٩٣). وقد أكد العمال رفضهم لهذه الخطوة بمقاطعتهم لهذه النقابة التى لم يزد عدد أعضائها عن ٢٠٠ عضو كانت كافية تماماً لعزل الوجود الإخوانى عن جماهير العمال برغم جاذبية الدين وتغلغله الشديد فى صفوفهم، وفى هذا الصدد يقول مؤلفا "العمال على ضفاف النيل" (٩٤)، "إن الظروف الموضوعية للطبقة العاملة وأسلوب وتصرفات جماعة الإخوان المسلمين فى صفوف هذه الطبقة قد لعبت دوراً حاسماً فى فرض محدودية واضحة لدور الإسلام السياسى فى حركة العمال المصريين". ويؤكد Michell ذلك أيضاً قائلاً إن عام ١٩٤٨ قد شهد تصفية شاملة لنفوذ الجماعة وسط العمال (٩٦).

لكن الإخوان وبرغم ذلك كانوا يمتلكون مقومات أخرى لتحقيق تواجد ما فى صفوف العمال، فالإخوان جماعة غنية حسنة التمويل ومن ثم بدأت فى تأسيس العديد من المصانع التى حرصت ألا يعمل فيها إلا أعضاء فى الجماعة. وفى سبتمبر ١٩٤٨ أسست الجماعة "مصنع الإخوان المسلمين للغزل والنسيج بشبرا الخيمة، ونظراً للأهمية البالغة لمنطقة شبرا الخيمة فقد تولى إدارة المصنع محمد شريف رئيس قسم العمال بالجماعة وكان المصنع يضم ٤٠ آلة و ٦٠ عاملاً" (٩٧).

ولم يكن هذا المصنع وحده، ففي ديسمبر ١٩٤٨ كانت الجماعة تمتلك العديد من الشركات والمؤسسات الصناعية والزراعية والتجارية أشرنا إليها سابقاً. وكان العاملون بهذه الشركات جميعاً يشكلون قاعدة مضمونة للجماعة، كما أن

ثراء الجماعة قد مكنها من إعطاء مزايا للعمال الأعضاء فيها، وتؤكد جريدة الإخوان أن "قرع شبرا الخيمة فى قسم العمال كان يصرف للعمال المتعطلين من أعضاء الجماعة كامل مرتباتهم" (٩٨).

ولعله مما يثير الدهشة أن يؤكد نقابى يسارى وهو محمد متولى الشعراوى أحد قادة النشاط النقابى فى شركة مصر للغزل الرفيع بكفر الدوار أنه فى عام ١٩٤٨ وعندما بدأ نشاطه النقابى يتسبب فى تصادمه مع الشركة انضم لجماعة الإخوان وسدد اشتراك شهرين كى يحصل على ضمانات مالية لمستقبله (٩٩).

كذلك استخدمت الجماعة مختلف أشكال الضغط لضم العمال لصفوفها، وتنتشر إحدى الصحف الوفدية "أن أحد رؤساء العمال فى شركة النيل بشبرا الخيمة وكان من الإخوان المسلمين حاول أن يضم أحد قادة العمال للجماعة فلما رفض فصله من العمل، وهنا قام العمال بالاعتصام فى المصنع مطالبين بعودة زميلهم للعمل" (١٠٠).

ويقرر القادة النقابيون فى شبرا الخيمة أنه فى أعقاب إسهام الإخوان فى إفشال الإضراب الكبير (١٩٤٦) بدأ أصحاب المصانع فى تعيين العديد من الإخوان كرؤساء للعمال ليضمنوا خضوعهم لأى توجه مطلبى وسط العمال، وقد مكن ذلك الجماعة من استقطاب عدد محدود من العمال وإن كان قد أكسبها كراهية ونفوراً وسط الجموع العمالية.

ولعل أحد الأدلة المهمة على ضعف النشاط العمالى للجماعة أن المذكرة تشير إلى نشاطها وسط الطلبة والموظفين والفلاحين ولا إشارة واحدة للنشاط وسط العمال. إن ثلاثة عشر بنداً تتضمنها المذكرة تفصيلاً أنشطة الجماعة فى مختلف مناحى الحياة ولا إشارة واحدة عن النشاط وسط العمال (١٠١).

ويفسر البعض ذلك بأن نشاط الجماعة وسط العمال كان دوماً فى خدمة أجهزة الأمن وبالتنسيق معها.

وعندما عادت الجماعة للنشاط فى نهاية ١٩٥٠ حاولت أن تتخطى المد

الوطني الملتهب والذي اتخذ منحى ثورياً. وأن تتكلم بلغته كى تكسب موقعاً ما وسط صفوف العمال. فكتب سيد قطب كثيراً عن اشتراكية الإسلام. وتنتشر مجلة "الدعوة" مقالات ملتهبة تهاجم الرأسماليين لأول مرة وتدافع عن حق العمال فى الإضراب (بعد أن أكدوا من قبل أنه ضد تعاليم الإسلام). وثمة مقال لمحمد الخولى بعنوان "أيها الرأسماليين لا تحاربوا النقابات" يهاجم فيه قانون ١٩٤٠ لأنه يحرم تكوين اتحادات عمالية، كما أنه يحرم العمال من حق الإضراب الذى هو سلاحهم الوحيد فى مواجهة بطش الرأسماليين بهم وبحقوقهم^(١٠٢).

لكن هذا الموقف الجديد لم يستمر سوى فترة قصيرة جداً ولم يثمر نفوذاً ما وسط العمال، وبدت الجماعة وكأنها تفقد أملها فى هذه الطبقة وفى وجود نفوذ حقيقى لها فى صفوفها، ومن ثم راهنت ومن جديد على القوى الأخرى.

وعندما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢، كانت تتنازعها مواقف متعددة إزاء قضية الطبقة العاملة، واختار الإخوان الانحياز إلى أكثر العناصر محافظة وعداء لحقوق العمال.

وفى الأيام الأولى للثورة تولى د. محمد فؤاد جلال وزارة الشؤون الاجتماعية وهو معروف بأنه من رجال "جمعية الفلاح" ذات التوجه اليمينى الواضح وكان يشرف على أعمال الوزارة من قبل مجلس الثورة الضابط عبد المنعم أمين. وكان رئيس المحكمة العسكرية التى حاكمت العاملين خميس والبقري بتهمة تنظيم إضراب فى كفر الدوار وحكمت عليهما بالإعدام، ومع هذين الاثنين بالتحديد عمل كمساعد ومستشار للشىءون العمالية سيد قطب أحد قادة الإخوان المسلمين.

ويروى فتحى كامل وهو قائد نقابى مخضرم كيف أنه ذهب إلى وزارة الشؤون الاجتماعية ليتفاوض بشأن تكوين اتحاد عام للعمال. وحضر الاجتماع الوزير محمد فؤاد جلال، والضابط عبد المنعم أمين عضو مجلس قيادة الثورة وشخص لم يعرفه أول الأمر ثم عرف فيما بعد أنه سيد قطب، ويقول فتحى كامل أن سيد قطب كان أكثر الحاضرين رفضاً لفكرة الاتحاد العام، وأكد أن النقابات بحاجة أولاً

إلى أن تظهر صفوفها من الشيوعيين والمتطرفين من النقابيين" (١٠٣).

ولعله من الضروري الإشارة إلى أن الجماعة بينما كانت تتخذ من خلف الستار مواقف معادية للعمال، كانت وفي هذه الفترة بالذات - وكما رأينا من قبل - تتخذ مواقف المزايدة على الجميع مدعية الدفاع عن العمال.

وقد أدت النصائح الإخوانية (سيد قطب) لوزير الشؤون الاجتماعية إلى فرض توجهات معادية للعمال ومنها الإصرار على بقاء المادة ٣٩ من قانون العمل الفردى التى كانت تجيز الفصل التعسفى للعمال الأمر الذى دفع خالد محيى الدين عضو مجلس قيادة الثورة آنذاك إلى تقديم استقالته احتجاجاً، وجاء فى خطاب استقالته: "إننى قد فقدت القوة الدافعة على العمل نتيجة أننى أرى أن أقل ما كانت تصبو إليه نفسى من أفكار ومبادئ لا أستطيع تنفيذها"، ويعلن فى الاستقالة رفضه "لهذه المادة التى اعتبرها ظلماً فادحاً على فئة العمال التى تعتبر العمود الفقر لأى أمة تريد أن تبنى مكانها اللائق بين الأمم" (١٠٤).

ومرة أخرى يهزم التوجه الإخوانى إزاء العمال فقد استطاعت استقالة خالد محيى الدين أن تستقطب إلى جانبه جمال عبد الناصر الذى كان متغيباً عن الجلسة التى اتخذت القرار، وعقدت جلسة جديدة وتم اتخاذ موقف جديد وبدأ نفوذ سيد قطب يتقلص فى مجال وزارة الشؤون الاجتماعية، وما لبث أن أبعد عن موقعه.

ولعل مواقف كهذه انعكست بالسلب أيضاً على علاقة الإخوان بالعمال.

ويمكن القول بأن هذه العلاقة ظلت وحتى الآن محدودة جداً.

ولعل ذلك ليس منفصلاً عن مجمل مواقف الجماعة سواء الفكرية أو العملية.

- ١- التنوير - العدد الأول - المرجع السابق - مقال للأستاذ حسن البنا.
- ٢- حسن البنا - مذكرات الدعوة والدعاة - ص ١٥٢.
- ٣- مجلة الإخوان المسلمون - نوفمبر ١٩٤٤ - مقال لحين البنا بعنوان: "نحن".
- ٤ - أنور الجندى - الإخوان المسلمون فى ميزان الحق - ص ١١.
- ٥- المرجع السابق - ص ١٥.
- ٦- المرجع السابق - ص ٥١.
- ٧- محضر تحقيق النيابة فى القضية ٥١ لسنة ١٩٤٩ والخاصة بمقتل محمود فهمى النقراشى باشا - أقوال المتهم عبد المجيد حسن - ص ١٤.
- ٨- حسن البنا - الإخوان المسلمون تحت راية القرآن - ص ٢٦.
- ٩- التنوير - العدد العاشر - مقال للأستاذ حسن البنا.
- ١٠- الإخوان المسلمون - ١٦-٤-١٩٤٦- مقال للأستاذ حسن البنا بعنوان: الإسلام سياسة وحكم.
- ١١- الإخوان المسلمون الأسبوعية ٤-٣-١٩٤٥ مقال بقلم الصاوى محمد عوض بعنوان: هل السياسة من صميم فكرتنا؟
- ١٢- الإخوان المسلمون - المرجع السابق، مقال حنفى محمود بدير - بعنوان: بين السياسة والدين.
- 13- Harris, Christina, Nationalism and Revolution in Egypt. The Role of Muslim Brotherhood - 1964- P.182.
- ١٤- طارق البشرى - المرجع السابق - ص ٥٤.
- ١٥- حسين فوزى النجار - المرجع السابق - ص ٦٧.
- ١٦- المرجع السابق - ص ١٤٨.
- ١٧- المرجع السابق - ص ٢٥٠.
- ١٨- الإخوان المسلمون الأسبوعية ٩-٤-١٩٤٦- مقال لحسن البنا.
- ١٩- حسن البنا - مشكلاتنا الداخلية فى ضوء النظام الإسلامى - ص ٤١.
- ٢٠- حسن البنا - الرسائل الثلاث - ص ١١٢.
- ٢١- الإخوان المسلمون ٢٢-٧-١٩٤٦ - مقال لحسن البنا.
- ٢٢- المصور - ١-٣-١٩٤٦.
- ٢٣- حسن البنا - مذكرات الدعوة والدعاة - ص ٥٣.
- ٢٤- المرجع السابق.
- ٢٥- محكمة الشعب - الجزء الأول - محاكمة محمود عبد اللطيف - شهادة هنداوى دوير - ص ٦٣.
- ٢٦- محكمة الشعب - الجزء السادس - المحاكمات التى تمت من ٢٢ إلى ٢٥ نوفمبر ١٩٥٤ - محاكمة حسن الهضيبي - شهادة منير الدله - ص ٨، ١٢.

- ٢٧- حسن البنا - نحو النور .
- ٢٨- حسن البنا - رسالة المؤتمر الخامس .
- ٢٩- النذير - العدد ٣٣ - حسن البنا - مقال بعنوان الإخوان المسلمون والدستور المصري .
- 30- Michell Ibid - P.236.
- 31- Safran Ibid - P.290.
- ٣٢- راجع لمزيد من التفصيل: عبد القادر عودة - الإسلام بين جهل أبنائه وعجز زعمائه (١٩٥٢) - ص ٢٣ .
- ٣٣- لمزيد من التفاصيل راجع: الإخوان المسلمون ٢٩-٧-١٩٥٤ .
- وأيضاً: محمد عبد الله السمان - الإسلام المصفى (١٩٥٤) .
- ٣٤- سيد قطب - العدالة الاجتماعية في الإسلام - ص ٦٢ .
- ٣٥- حسن البنا - مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي - ص ٦٠ .
- 36- Khadduri, Ibid P.79.
- ٣٧- أبو الأعلى المودودي - الحجاب - بيروت - ص ٧٢ .
- ٣٨- قرارات الجمعية العمومية لجماعة الإخوان المسلمين - ١٩٤٥ .
- ٤٠- حسن البنا - إلى أى شيء ندعو الناس؟ .
- 41- Harris -Ibid- P.162.
- ٤٢- حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية - ص ١١٥ .
- ٤٣- أنور الجندى - الإخوان المسلمون في ميزان الحق - ص ٢٨ .
- ٤٤- طارق البشرى - المرجع السابق - ص ٦٩ .
- ٤٥- مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين - ص ٤٠ .
- ٤٦- حسن البنا - نحو النور .
- ٤٧- حسن البنا - إلى أى شيء ندعو الناس؟ .
- ٤٨- النذير - العدد الأول - مايو ١٩٣٨ .
- ٤٩- أبو الحسن الندوى - كيف دخل العرب التاريخ؟ - ط ٢ - ١٩٧٥ - ص ٢٠ .
- ٥٠- أنيس الصايغ - الفكرة العربية في مصر - ص ٢٠٠ .
- ٥١- طارق البشرى - المرجع السابق - ص ٢٥١ .
- 52- Michell -Ibid - P.271.
- ٥٣- سيد قطب - السلام العالمى والإسلام - ١٩٥١ - ص ١٦٧ .
- ٥٤- حسن البنا (الإمام الشهيد) - المأثورات - ط ٢ - دار الشباب ١٩٧٥ - ص ٣٤ .
- ٥٥- حسن البنا - مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي - ص ٨٣ .
- 56- Michell -Ibid - P.271.
- ٥٧- الإخوان المسلمون - ٧-٥-١٩٤٦ .
- ٥٨- الإخوان المسلمون - ٢٤-٨-١٩٦٤ .
- ٥٩- الإخوان المسلمون - ١٩-٦-١٩٤٦ .

60- Wandley, William J. -The Labour Movement in Egypt - Middle East Journal iii (July 1949) -P.277.

٦١- أمين عز الدين - تاريخ الطبقة العاملة المصرية منذ نشوئها وحتى الآن - ص ١٧٦.

٦٢- الإخوان المسلمون - ٢٠-٦-١٩٤٦.

63- Bohems, Jacob, Les Freres Musulmans- Monde non- Chretien - XXVI - June 1953 -P.211.

٦٤- محكمة الشعب - الجزء الثاني - المرجع السابق - ص ٢٩.

٦٥- لمزيد من التفاصيل راجع:

Badaoui, Zaki- Les Proplemes du Travail et Les Organisations Ouvriers.

66- Michell -Ibid - P.282.

٦٧- الشيخ محمد الغزالي - الإسلام والأوضاع الاقتصادية - ١٩٥٢.

٦٨- مجلة المسلمون - مارس ١٩٥٣ - مقال للأستاذ سيد قطب.

٦٩- الدعوة - العدد الأول - ١٩٥١.

٧٠- البرنامج التثقيفي لجماعة الإخوان المسلمون - محاضرة التثقيف الاقتصادي إعداد البيه الخولي.

٧١- حسن البنا- مجموعة الرسائل - رسالة مشكلاتنا الداخلية في ضوء النظام الإسلامي- ص ٤٢٠.

٧٢- المرجع السابق - ص ٤٢٥.

٧٣- د.زكريا البيومي - الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية - ١٩٧٩ - ص ٣٠٤.

٧٤- صفح ٢-٨-١٩٥٢ - نقلاً عن: محمود عبد الحليم - الإخوان أحداث صنعت التاريخ- ج ٣ - ص ١٢١.

٧٥- المرجع السابق - ص ٩٠.

٧٦- الإخوان المسلمون ١٨-٨-١٩٤٦.

77- F.O.371 -73474- 13467. (1949).

78- Bein in and Lockman - Workers on The Nile - 1987 - Interview with M.Sharif - P.361.

٧٩- حسن البنا - منكرات الدعوة والداعية - ص ٥٣.

٨٠- شبرا - ٢٥-٨-١٩٣٨.

٨١- النذير - ١٩-٦-١٩٣٩.

82- Bein in - Ibid - P.366.

٨٣- الإخوان المسلمون ٢٨- يونيو ١٩٤٥.

٨٤- محمد حسن أحمد - اسم سرى - الإخوان في الميزان ١٩٤٦ - ص ٩٨.

٨٥- المرجع السابق - ص ١٠١.

86- Bein in - Ibid - P.371.

٨٧- محمد حسن أحمد - المرجع السابق - ص ٩١.

٨٨- الوفد المصري - ٣١ مايو ١٩٤٦.

٨٩- الإخوان المسلمون - ٢ يونيو ١٩٤٦.

٩٠- الإخوان المسلمون - ٢ فبراير ١٩٤٦.

٩١- الوفد المصرى - ٣ يونيو ١٩٤٦.

٩٢- الإخوان المسلمون - ٣ يونيو ١٩٤٦.

٩٣- الجماهير - ٥ مايو ١٩٤٧.

94- Beinín - Ibid - P.365.

96- Michell - Ibid - P.282.

٩٧- المصور - ١١ نوفمبر ١٩٥٥.

٩٨- الإخوان المسلمون - ١٣ مايو ١٩٤٥.

99- Beinín - Ibid - P.379.

١٠٠- الوفد المصرى ٢١ مايو ١٩٤٦.

١٠١- المذكرة التفسيرية للأمر العسكرى رقم ٦٣ لسنة ١٩٤٨ بحل جماعة الإخوان المسلمين - مقدمة من عبد

الرحمن بك عمار وكيل وزارة الداخلية.

١٠٢- الدعوة - ٢٨ أغسطس ١٩٥١.

١٠٣- أمين عز الدين - تاريخ الطبقة العاملة منذ نشوءها وحتى الآن - ص ٨٠٩.

١٠٤- رسالة خطية موجهة من خالد محيى الدين عضو مجلس الثورة إلى حضرة المحترم جمال عبد الناصر وكيل

مجلس الثورة - مؤرخة ١-٣-١٩٥٣ (مسودة خطية).

الفصل الرابع

لعبة المصالح المشتركة مع الطاغوت

ولا بد أن الأستاذ حسن البنا قد تأمل الخريطة السياسية في مصر في الثلاثينيات، تأملها وأطال التأمل في مختلف تضاريسها، ثم اختار.

وكان اختياره على ماهر باشا. وعلى ماهر شخصية طموح لعبت أدواراً بالغة الخطورة في الحياة السياسية المصرية، وكان يناصب الوفد العداء، ويحتقر أحزاب الأقلية، ويحاول أن يتلاعب بها، وأن يصوغ من ذلك معادلة تحاول تعبئة الجماهير المصرية في صف السراى.

ومعه في ذلك كله حسن البنا الذى اتخذ من علاقته بعلى ماهر سلماً سريعاً ليجعل من جماعته التى كانت تعاني - كما رأينا فى صفحات سابقة - من عزلة خانقة، تنظيماً ملء السمع والبصر.

وعلى نغمات على ماهر بدأت جماعة الإخوان تتحرك سريعاً فى الساحة المصرية.

ونتحدث قليلاً عن على ماهر، يقول عنه "دايفيد كيلي" رجل المخابرات البريطانية العتيد ومستشار دار المندوب السامى: "وقع فاروق فى مرحلة مبكرة من حياته تحت نفوذ على ماهر باشا الذى أصبح صاحب النفوذ الأول فى السراى، إن على ماهر رجل ذكى جداً، لكنه كان طموحاً جداً، وكان طموحه يستهلكه، ولهذا فقد سارع فى أن يصب فى نفس الملك الجديد ذات الكراهية التى كانت تملأ نفس والده ضد الوفد"^(١).

ويكتب السفير البريطانى لوزارته تقريراً عن على ماهر يقول فيه "وعلى الرغم من أنه بقى الجانب الأكبر من عام ١٩٣٧ بعيداً عن المناصب الحكومية، إلا أن الملك فاروق كان يستشير، وهكذا فإنه بعمله من خلف الكواليس استطاع أن يحقق لنفسه نفوذاً كبيراً على سياسة القصر"^(٢).

ورغم أن على ماهر كان يتظاهر دوماً بصداقته للإنجليز فقد كان على علاقات سرية وثيقة بالألمان.

وفى القضية التى اشتهرت باسم قضية الاغتيالات السياسية، وقف على ماهر ليدلى بشهادته متباهياً بأنه كان صديقاً للإنجليز، وإنه على ولاء تام لهم، "والمجاملات الشخصية كانت لأقصى الحدود".

ولكن، وعندما تصاعد المد الفاشى وتصور البعض من الساسة أن الألمان قادمون استعدوا وعلى رأسهم على ماهر لاستقبال السيد الجديد. يقول الدكتور "الطيب الناصر" فى مذكراته: "إن "الكونت ماتزوليني" آخر وزير مفوض لإيطاليا الفاشية فى مصر قد أبلغه أنه اتفق شخصياً مع على ماهر على أن تثور مصر على الإنجليز فى الوقت المناسب لتمهيد السبيل لجيوش المحور"^(٣).

وتتفيذاً لهذا المخطط، وفى أعقاب الهجوم العنيف والذى تبدى كاسحاً باتجاه مصر، واستولى على بنى غازى فى ٢٩ يناير ١٩٤٢ قامت فى مصر مظاهرات أغلبها من الأزهريين (بتأثير من الشيخ المراعى حليف على ماهر) وتعالى هتافاتها "إلى الأمام يا روميل" و"على ماهر رجل الساعة". ثم يضع "جورج كيرك" علامة استفهام كبيرة عندما يقول "إن المخابرات البريطانية اكتشفت فى الوثائق الألمانية بعد الحرب أن على ماهر كان يحصل على مبالغ مالية عن طريق بنك درسدن"^(٤).

هذا هو على ماهر الذى فتح الباب الملكى أمام حسن البناء، ومنحه دعماً سياسياً ومادياً غير محدود وتحول به وبجماعته من رجل مغمر وجماعة مغمرة إلى قوة سياسية وجماهيرية ذات خطر.

والحقيقة أن على ماهر كانت تحركه رغبة نهمة فى تدمير حزب الوفد وتقليص جماهيريته. ومن ثم فقد سعى إلى ضخ الدماء فى جماعتي الإخوان ومصر الفتاة كى يحركهما ضد الوفد، ويستقطب من خلالهما جماهير الشباب التى اعتادت على أن تكون وفدية.

ويبقى أن نتأمل جيداً المفردات السابقة، فيها ومن خلالها تحرك البنا فى طريق العلاقات المشبوهة مع الاحتلال ومع الألمان.

ولنبداً بمسألة العلاقة مع الألمان. فقد بدأ الإخوان فى دعم التوجه نحو ألمانيا مستفيدين من كراهية الشعب للإنجليز ورداً على هذا التوجه يكتب عباس العقاد: "فى مصر دعوة دكتاتورية ليس فى ذلك جدال، والذين يقومون بهذه الدعوة ويقبضون المال من أصحابها هم الذين يشنون الغارة على الدول الديمقراطية ويثيرون الشعور عليها باسم الدين، وباسم سوريا وفلسطين، ولا يثيرون الشعور على الدول الأخرى (ألمانيا وإيطاليا) باسم ألبانيا وبرقة وطرابلس والصومال. ويسير علينا بعد ما تقدم أن نعرف من أين تتلقى تلك الجماعات المتدينة أزوادها ونفقاتها، إنها جاسوسية مأجورة تتوارى بالإسلام للإيقاع ببلاد الإسلام. لأن سيادة الدكتاتورية لن تنتهى إلى مصلحة المسلمين ولا إلى سيادة المسلمين وإنما تنتهى إلى ضياع المسلمين"^(٥).

ويكون تقارب القصر الملكى مع المحور ثمرة لجهود على ماهر، ولا شك أن فاروق قد تشجع فى السير فى هذا الاتجاه إذ وجد دعماً جماهيرياً من جماعته الإخوان ومصر الفتاة.

وفى ٢٣ فبراير ١٩٣٩ كتب "الكونت شيانو" وزير خارجية إيطاليا فى مذكراته الخاصة إنه "تلقى نبأ من أتوليكو السفير الإيطالى فى برلين عن مقابلة جرت بينه وبين "مراد سيد أحمد باشا" وزير مصر المفوض فى برلين استفسر فيها الوزير المصرى باسم مليكه عما إذا كان المحور سيكون على استعداد لمساندته إذا أعلنت مصر حيادها، وترتب على ذلك تدخل مباشر أو غير مباشر من جانب بريطانيا"^(٦).

وتتواصل العلاقات، وتتعدد سبلها. ففي ١٤ أبريل ١٩٤١ اتصل "يوسف ذو الفقار باشا" (والد الملكة فريدة وسفير مصر فى طهران) بالسفير الألمانى لدى طهران راجياً إياه أن يبلغ هتلر "أن فاروق وشعبه لا يرغبون فى الحرب ضد ألمانيا، وأنهم يأملون فى رؤية القوات الألمانية منتصرة ومحررة لهم من الاحتلال

البريطاني^(٧) ثم "فى ٢٩ يونيو ١٩٤١ أرسل فاروق برقية إلى السفير المصرى فى طهران يطلب منه أن يبلغ السفير الألمانى أن لديه معلومات تشير إلى أن الإنجليز سيحتلون مناطق البترول الإيرانية لكى يحموها من الهجوم الألمانى من ناحية روسيا"^(٨).

وكان "عزيز المصرى باشا" صديق وحليف على ماهر، والمتطلع إلى علاقة مع المحور بهدف طرد الإنجليز من مصر هو صاحب فكرة توحيد جماعتى الإخوان ومصر الفتاة معاً فى حزب إسلامى منظم على النمط الفاشى ومدعوماً بنفوذ القصر، ليعلن العداء للإنجليز الذين يحتلون الوطن"^(٩).

وقد تحمس أحمد حسين لهذه الفكرة، وتمهيداً لها أعلن تغيير اسم حزبه إلى "الحزب الوطنى الإسلامى". ويبدو أن ضغوط عزيز المصرى وعلى ماهر تزايدت على البنا بما دفعه إلى أن يفرد فى "رسالة المؤتمر الخامس" باباً خاصاً بعنوان "الإخوان ومصر الفتاة" جاء فيه: "إن كثيراً من الناس يودون لو اتحدت جماعة مصر الفتاة مع الإخوان المسلمين وهذا شعور ما من شك فى أنه جميل نبيل، فليس أجمل من الوحدة والتعاون على الخير، ولكن هناك من الأمور ما ليس يفصل فيها إلا الزمن وحده، فلنترك للزمن أداء مهمته، وإصدار حكمه، وهو خير كفيل للصقل والتمييز. وليس معنى هذا أن الإخوان سيحاربون مصر الفتاة بل إنه ليسرنا أن يوفق كل عامل للخير، ولا يحب الإخوان أن يخطوا البناء بهدم، وفى ميدان الجهاد متسع للجميع"^(١٠).

وهكذا استخدم البنا كل خبرته فى المناورة ليرفض مبدأ الوحدة مع مصر الفتاة. وإن كان قد قبل الشق الآخر وهو العمل لصالح القصر، العداء للوفد، والتقارب مع الألمان.

وقد وثق حسن البنا علاقته بعزيز باشا المصرى، ولدى عودة عزيز باشا من لندن عام ١٩٣٧ توجه حسن البنا على رأس وفد من كبار الإخوان لاستقباله فى المطار^(١١).

وفى عام ١٩٤٠ نجح حسن البنا فى ترتيب لقاء سرى بين عزيز المصرى وعدد من ضباط الجيش فى عيادة طبيب من الإخوان هو د. إبراهيم حسن^(١٢).

وقد أدت هذه العلاقات بين البنا من ناحية وعلى ماهر وعزيز المصرى من ناحية إلى حدوث انشقاق خطير فى جماعة الإخوان، ووجه المخالفون لهذا الاتجاه إنذاراً للبنا بضرورة قطع علاقاته بعلى ماهر^(١٣)، لكن البنا يتمسك بموقفه، ويصدر قراراً بفصل كل معارضيه من صفوف الجماعة، بل ويهددهم بإبلاغ البوليس؟ والحقيقة أن شواهد عديدة أكدت أن البوليس كان يمنح البنا اهتماماً وحماية بتعليمات عليا^(١٤). وتقول باحثة فى تاريخ الجماعة: "إن هذه الأيام قد شهدت أكثر فأكثر الطابع الديكتاتورى لتصرفات حسن البنا تجاه مخالفيه من أعضاء الجماعة، وأصبح واضحاً تصميمه على أن يحدد وحده التوجه السياسى للجماعة"^(١٥)، ولعل هذا توجه طبيعى فى جماعة كهذه وفى ظروف سياسية كهذه يصعب كثيراً إقناع الأعضاء بتوجه لصالح القصر ولصالح المحور.

المهم انقسم المخالفون، وكونوا جماعة "شباب سيدنا محمد" واستولوا على مجلة "النذير" فقد كان ترخيصها مملوكاً لواحد منهم. وظلوا لفترة طويلة يهاجمون البنا مؤكدين أنه حصل على أموال طائلة من على ماهر^(١٦).

ويكتب أحد زعماء هذا الانشقاق (الأستاذ محمود أبو زيد عثمان) فى مجلة النذير محدداً أوجه الخلاف مع البنا قائلاً إنها: موالاة البنا للقصر وعلى ماهر - التلاعب بأموال الجماعة - رفض مبدأ الشورى - حماية بعض الشخصيات غير الأخلاقية (صهره الشيخ عبد الحكيم عابدين)^(١٧).

ولأن كل شىء يجب أن يكتسى برداء إسلامى عند حسن البنا، فإن تقلبات المواقف السياسية، ومناوراتها كانت تكتسى هى أيضاً برداء الإسلام، وحتى العلاقات المريبة بأعداء الوطن كانت كذلك.

وفى مجلة "النذير" قبل أن تخرج عن يديه زف حسن البنا لقرائه ما يبرر به علاقته بالنازيين والفاشست قائلاً: "ذكرت بعض الصحف إن إيطاليا وألمانيا تفكران

فى اعتناق الإسلام، وقررت إيطاليا تدريس اللغة العربية فى مدارسها الثانوية بصفة رسمية وإجبارية، ومن قبل سمعنا تفكير اليابان فى الإسلام، وقد تجددت هذه الإشاعة فى هذه الأيام، ولا شك أن هذه الدول الثلاث قد وضعت فى برنامجها التقرب التام إلى العالم الإسلامى، والتودد إلى العرب والمسلمين، وقدمت لذلك مقدمات كبناء المساجد ودعوة الشباب العربى إلى المدن والعواصم عندهم"، ثم: "وهذا استعداد طيب تعلنه هذه الدول، إذا أضفنا إليه موقف الدول المسيحية منها من الكنيسة، وخروجها على تعاليمها، وموقف البابا، وأضفنا إلى ذلك كله أن هذه الدول إنما تعجبها القوة والكرامة والفتوة والسيادة، وأن هذه هى شعائر الإسلام".

ويضيف: وكأنما ينسب هذا الفضل الوهمى إلى نفسه: "لقد كتب الإخوان المسلمون إلى ملوك المسلمين وأمرائهم وعلمائهم وحكامهم بوجوب التبليغ رسمياً إلى هذه الأمم باسم الإسلام"^(١٨). ولمزيد من حبك هذه الأكذوبة يكتب الأستاذ البنا - وفى ذات العدد- رسالة إلى شيخ الجامع الأزهر يدعوه فيها إلى "تبليغ ألمانيا وإيطاليا واليابان بالإسلام، وضرورة دراسة الإسلام دراسة علمية صحيحة، مع إمدادهم بالعلماء لشرح مفهوم الإسلام، أو أن تمنحنا حق التبشير بالإسلام وحق إقامة المؤسسات الإسلامية"^(١٩). ثم كانت الشائعة التى تناثرت فى كل أرجاء مصر عن إشهار هتلر لإسلامه وعن أنه تسمى باسم "الحاج محمد هتلر".

وهذه الأكذوبة التى تفوق كل ما يمكن أن يتصوره عاقل يمكن اتخاذها نموذجاً للمدى الذى يمكن أن تصل إليه عملية تسييس الدين، أو طلاء المواقف السياسية الخاطئة، بل والمعادية لمصالح الوطن بطلاء دينى زائف، كى تكسى الخيانة ببريق دينى.

فقيم كان ذلك كله؟ تناثرت شائعات بأن البنا لم يعد يكتفى بالعلاقة مع ممثلى ألمانيا فى السياسة المصرية على ماهر وعزيز المصرى، وإنما أقام بنفسه ولنفسه جسوراً مع الألمان أمدته بدعم مالى كبير يمكنه أن يفسر الإمكانات المالية التى

انهالت فجأة على البناء، والتي كان يغطيها بالدعوة، لفتح باب التبرع، ثم يعلن بعدها بأيام قليلة أن التبرعات فاضت عن المطلوب. وقد فعلها الأستاذ البنا مرات عديدة منها الدعوة لجمع ٨٥٠٠ جنيه لشراء مقر للجماعة، ثم بعدها بيومين أعلن أن المبلغ المطلوب قد تمت تغطيته.

وتتحول الشائعات إلى تقارير رسمية: "ففى لقاء بين السير والتر سمارت المستشار الشرقى للسفارة البريطانية مع وكيل وزارة الداخلية المصرية حسن باشا رفعت صرح وكيل وزارة الداخلية بأن معلوماته تقول أن الأستاذ البنا قد تلقى إعانات مالية من الإيطاليين والألمان والقصر"، وفى زيارة أخرى يكرر محمود غزالى مدير الأمن العام ذات الاتهام وإن كان قد أضاف إليه أن "الأستاذ البنا قد احتفظ ببعض من هذه الأموال لنفسه شخصياً" (٢٠).

وتظل هذه الاتهامات معلقة بلا دليل جدى، ونظل نحن معتنقين أنها مجرد ادعاءات أو إشاعات سياسية يطلقها الأمن ليبرر بها مواقف ما، ضد خصم سياسى.

حتى أتيج لنا أن نمتلك وثائق ربما تؤكد صحة هذه الاتهامات. أخيراً وبالمصادفة، وخلال البحث فى الأرشيف العام للخارجية البريطانية يتم العثور على برقيتين من السفير البريطانى إلى وزارة خارجيته تحتويان على ترجمة إنجليزية لبعض أوراق مكتوبة بالألمانية ضبطت لدى "ولهلم ستلبوجن" Herr Wilhelm Stellbogen ونقرأ:

.23342-O 371.F

١٩٣٩-١٠-٢٢

مكتب الأمن العسكرى - مصر

الهـر ولهلم ستلبوجن مدير مكتب الدعاية النازية (D.N.B) بمصر، بالإضافة إلى توليه مسئولية الملحق الصحفى بالبعثة الألمانية بمصر بشكل مؤقت، وهو لا يتمتع بأية صفة دبلوماسية.

عشر عنده لدى تفتيشه على مذكرة مكتوبة بالاختزال ومؤرخة في ١٨ أغسطس (والمعتقد أنها كتبت عام ١٩٣٩) تقول:

- "لقد أرسلت البعثة إلى حسن البنا (الإخوان المسلمين) مرة أخرى ذات المبلغ بذات الطريقة" لكن الإخوان المسلمين طلبوا مزيداً من المال رغم أنني سلمتهم مبلغ الألفى جنيهه التي وصلت باسمهم من ألمانيا، والتي وعدناهم بها.

ثم ترجمة لورقة أخرى مكتوبة بالآلة الكاتبة الألمانية مؤرخة ٨/١٦ تقول:

- إن دفعة جديدة من الأموال لجماعة الإخوان المسلمين قد أصبحت في اعتقادي ضرورية جداً. لا بد من الاتصال ببرلين فوراً عن طريق البعثة لطلب ميزانية إضافية. إن المحادثة التي جرت مع ح. ب (حسن البنا) حول المسألة "ب" كانت مرضية تماماً وقد أعرب "Goeba" عن كامل رضائه عنها.

أما البرقية الثانية فتتضمن ترجمة عن الألمانية لأوراق أخرى ضبطت لدى ذات الشخص وفيها:

F.O 371-23342

مكتب الأمن العسكرى - مصر

عشر لدى المذكور على المذكرات التالية:

١ - لقد أكد مؤتمر الإخوان المسلمين أن الوضع الراهن سيئ للغاية، وأعلنوا باسم العرب أن القتال في فلسطين هو حرب مقدسة، وأن واجب كل مصرى هو مساعدة المقاتلين هناك.

٢ - قرر المؤتمر البدء في حملة تبرعات لدعم القتال في فلسطين .

- "مذكرة بالاختزال تقول: أرسلت البعثة مرة أخرى لحسن البنا ذات المبلغ بذات الطريقة. هؤلاء الناس يمكنهم فعل أشياء كثيرة".

ومثل هذه الوثائق لا تحتاج إلى أى تعليق.

ويكون طبيعياً أن يستشعر الإنجليز الخطر من علاقة كهذه. وما إن تمكنوا من الإطاحة بحكومة على ماهر باشا حتى بدأوا فى الضغط على رئيس الوزراء الجديد

"حسين سرى باشا" لاتخاذ إجراء ضد حسن البنا، ويروى د. محمد حسين هيكل، وكان آنذاك وزيراً للمعارف، في مذكراته: "أبلغت السلطات البريطانية حسين سرى باشا أن حسن البنا يعمل لحساب المحور ورأت ضرورة الحد من نشاطه، ورأى سرى باشا أن ينقل الرجل من القاهرة إلى الصعيد، فحدثني في هذا الأمر وطلب إليّ نقله إلى قنا ولم أجد بأساً من إجابة طلبه"^(٢١)، لكن الأمر ما لبث أن ألغى فوراً بأمر من القصر الملكي.

لكن السلطة البريطانية عادت فطلبت القبض على حسن البنا وأحمد السكري وعبد الحكيم عابدين وعدد آخر من الإخوان^(٢٢) وبالفعل ألقى القبض عليهم في ١٩ أكتوبر ١٩٤١.

ويروى شاهد عيان وهو الأستاذ "أحمد حسين" زعيم "مصر الفتاة"، وكان معتقلاً معهم في معتقل الزيتون: "اعتقل حسن البنا وقادة الإخوان في مستهل الحرب كغيرهم، فما راع المعتقلين إلا أن حضر إلى المعتقل الأستاذ حامد جودة (الوزير السعدى فى حكومة حسين سرى باشا) واجتمع بحسن البنا عدة ساعات، ثم ما لبث أن أفرج عنه بعد عدة أيام"، ويفسر أحمد حسين ذلك بأنه تعبير عن رغبة حزب السعديين فى استغلال حركة الإخوان لدعم نفوذه.

ويقول: "وخرج الشيخ من المعتقل وقد ازداد جاهاً ونفوذاً، ومضى فى دعوته حراً طليقاً يجوب البلاد، يؤلب الشعب وينظم الاجتماعات، واشتهر فى البلاد أن الإخوان المسلمين فى حماية الحكومة وفى حماية السعديين بصفة خاصة"^(٢٣).

لكن جورج كيرك يقول: "إن الإفراج عن حسن البنا قد تمّ بضغط من القصر الذى ساد الاعتقاد أنه يقدم للبنا مساعدات مالية شخصية"^(٢٤)، ويعزز هذا الرأى الأستاذ "محمد صبيح" أحد قادة "مصر الفتاة" الذى قال فى مناقشة مع د. عبد العظيم رمضان: "إن فاروق قد حمى حسن البنا، وضغط للإفراج عنه"^(٢٥).

ومن الألمان إلى الإنجليز . فلقد استمر البنا دوماً فى حالة بحث عن حاضنة تمدّه

بالمال وتضفى عليه حماية ومساندة، وكالعادة، فإن البنا لم يجد ما يبرر أن يرتقى فى أحضان طرف واحد، فلا بأس من يد تمتد هنا وأخرى تمتد هناك.

ففى عام ١٩٣٧ يصدر الأستاذ البنا رسالة "تحو النور" وقد مثلت بدايات اقتحامه ميدان السياسة، وقد اشتملت هذه الرسالة على خمسين نقطة تمثل رؤية البنا للإصلاح. تناولت كثيراً من المسائل مثل: "القضاء على الحزبية وتوجيه قوى الأمة السياسية فى وجهة واحدة - تقوية الروابط بين الأقطار الإسلامية وخاصة العربية منها تمهيداً للتفكير الجدى والعمل فى شأن الخلافة الضائعة - إعادة النظر فى مناهج تعليم البنات ووجوب التفريق بينها وبين مناهج الصبيان فى كثير من مراحل التعليم"^(٢٦)... وهكذا أشياء كثيرة فى نواح متعددة، ولكن لا حرف واحد عن الاستعمار أو ضد الاحتلال.

ويلحق "صلاح عيسى" على تكتيك الإخوان إزاء الاحتلال البريطانى قائلاً: "ثبت أن ذكاء الإخوان السياسى فوق مستوى الشبهات. وهو ما تأكد من الطريقة التى تعاملوا بها مع الاحتلال، إذ تعاملوا معه بحجمهم الحقيقى لا بأهدافهم التى أعلنوها تدريجياً وفيما بعد. وكما نجحوا فى خديعة شركة قناة السويس وحصلوا منها على منحة وصلت إلى خمسمائة جنيه، رغم أنها شركة تعمل لمصلحة الاحتلال، فقد آثروا أن يكفوا عن أى نشاط سياسى خلال سنوات الحرب يعرضهم للعصف بهم، بل على العكس أخذوا فرصة للانتشار والتوسع وتصرفوا بذكاء جعل سلطات الاحتلال الإنجليزى فى مصر ترضى عنهم رضاء تاماً، ففى بداية الحرب العالمية الثانية ضيقت هذه السلطات على كل القوى السياسية الوطنية ولم ينج من هؤلاء سوى الإخوان"^(٢٧).

ونلاحظ هنا أن السفارة البريطانية التى لم تتعود التراجع عن قراراتها ضد خصومها السياسيين وخاصة فى فترة الحرب قد تراجعت أو تظاهرت بأنها تتراجع مرتين أمام القصر الملكى لحماية حسن البنا. فهل كان هذا الشد والجذب، أو لنقل هذه المرونة بداية لعلاقة من نوع خاص؟

وعلى أية حال فقد مضى البنا ينسج لنفسه علاقات أخرى مع قوى أخرى غير ألمانيا، هى تحديداً النقيض، أى الاحتلال البريطانى. ونقرأ فى بحث عن جماعة، الإخوان يقول

Heyworth Dune استناداً إلى ما أسماه مصدر إخوانى كان على علاقة بالسفارة البريطانية: "إن حسن البنا قد ألمح خلال الاتصالات مع السفارة ومن خلال عناصر وسيطة أنه على استعداد للتعاون، وأنه سيكون سعيداً لو أن مساعدة مالية قدمت إليه"^(٢٨). ويلاحظ باحث آخر أن البنا قد تسحب من علاقته مع الألمان فى الوقت المناسب "ولم يسمح لرجاله بأن يشاركوا فى المظاهرات التى هتفت عام ١٩٤٢ إلى الأمام يا روميل"^(٢٩).

ولأننا لا نأخذ بالشبهات فإننا نلجأ إلى المواقف السياسية الفعلية فهى الأكثر قدرة على التعبير عن حقيقة ما كان. فعندما وضعت الحرب العالمية الثانية نقطة نهايتها كتب حسن البنا ليطالب الدول الغربية بمنح الشعوب العربية حريتها واستقلالها ثم يقول: "إن الشعوب العربية والإسلامية تدرك إنه من المستحيل الآن على أمة من الأمم أن تعيش فى معزل عن العالم. ولهذا فهى مستعدة تمام الاستعداد للتعاون مع غيرها، بل إنها لتذهب فى هذا التعاون إلى أبعد حدوده"^(٣٠).

ثم يلتقى الأستاذ البنا مستر "سينسر" المراسل الحربى الأمريكى ويدلى له بحديث نشرته مجلة الإخوان المسلمين وفيه أبدى البنا استعدادة للتحالف العسكرى مع الغرب، وقال: "أحب أن يفهم الغربيون إنه إذا أعطيت الحريات لنا بواسطة الدول الغربية فسوف نستغنى نحن عن الغرب فى تقوية كياننا"^(٣١).

"وعبر قنوات عديدة تقارب البنا مع الإنجليز ومن هذه القنوات الأمير محمد على ولى العهد الذى ظل على الدوام ورغم تقلبات الملك فاروق مقيماً على عهد الولاء للإنجليز. وكتعبير عن صداقة جديدة أهدى ولى العهد مكتبة إسلامية ضخمة للمركز العام للإخوان المسلمين فى الحلمية الجديدة"^(٣٢).

ونتوقف فقط لنتأمل، فحسن البنا الذى ظل على مدى طويل على علاقة وثيقة جداً بالملك فاروق، كان أيضاً على علاقة حميمة مع خصمه الدائم واللدود الأمير محمد على.

ثم بدأ البنا فى تقديم خدمات فعلية للإنجليز. ولتقديم البرهان على قدرته على تقديم

تلك الخدمات على مستوى جماهيرى اتفق البناء مع وزارة الداخلية على تحجيم المظاهرات التى كان مقرراً أن تتدلع يوم ٢ نوفمبر ١٩٤٥ بمناسبة ذكرى وعد بلفور، وقام البناء بنفسه بنصح المتظاهرين بالانصراف والتفرق. وبهذه المناسبة يكتب "الترسمارت" المستشار الشرقى للسفارة البريطانية: "يشعر الوفد بالسخط تجاه موقف الإخوان الذين قاموا بتهدئة أعمال الشغب التى وقعت بين صفوف الطلاب، واعتبر الوفد هذا الموقف نوعاً من الخيانة. وعلى أية حال فإن حكومة النقرشى تبدو كما لو أنها قد نجحت فى استمالة الإخوان، إن سياسة الإخوان تتحاشى وقوع أى صدام مع الحكومات المتعاقبة بينما يدعمون هم مواقعهم". ثم يقول: "وعلى نحو مشابه نجدهم يحاولون استمالتنا خوفاً من أن نقوم بالتحريض على أى عمل ضدهم" (٣٣).

كذلك فقد تحالف الإخوان حلفاً وثيقاً مع إسماعيل صدقى الذى كان حليفاً وثيق الصلة بالإنجليز. بل تعاونوا معه فى ترويج معاهدة صدقى - بيفن. ودون أدنى حرج يقف القائد الطلابى للإخوان "مصطفى مؤمن" معلناً تأييده لإسماعيل صدقى مستخدماً الآية الكريمة (واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان صديقاً نبياً).

وتروجاً لمعاهدة صدقى - بيفن التى رفضها الشعب المصرى رفضاً كاملاً وأسقطها وأسقط صاحبها تحدث الإخوان طويلاً فى تبريرها مستندين إلى "صلح الحديبية" (٣٤).

ويروى الأستاذ صلاح الشاهد وكان أحد العاملين فى القصر الملكى فى مذكراته: "عندما توصل صدقى باشا إلى مشروع اتفاقية صدقى - بيفن توهم أن الإخوان المسلمين يمثلون قاعدة شعبية ذات وزن فاستدعى المرشد العام بعد وصوله من لندن بساعتين، وأطلعته على مشروع الاتفاقية قبل أن يطلع عليها النقرشى وهيكىل المشاركون له فى الحكم، وحصل على موافقته على المشروع، ولما اشتدت المظاهرات الشعبية ضد هذه المعاهدة طلب صدقى باشا من المرشد العام أن يركب سيارة سليم زكى مساعد حكمدار القاهرة المكشوفة ليعمل على تهدئة المظاهرات، واستجاب المرشد العام لطلب صدقى باشا" (٣٥)، ودهش المصريون إذ شاهدوا صورة البناء تملأ صحف اليوم التالى وهو يركب سيارة سليم زكى محاولاً تهدئة المظاهرات، لكن هناك مفارقات بالغة الأهمية وبالغة

الدلالة، فالمناورة تستدعى مزيداً من المناورة، بل وقد تستدعى المناورة المضادة.

فما إن اختلف البنا مع إسماعيل صدقى حتى حرك جهازه السرى لنسف أقسام الشرطة وترويع العاصمة بهدف ترويع صدقى باشا، كما حرك جهازه السرى لنسف سيارتى شريكى صدقى فى الوزارة هيكل باشا والنقراشى، وهو ما طالعناه تفصيلاً فى صفحات سابقة.

أما المفارقة الأخرى والبالغة الدلالة فهى أن السيارة التى ركبها البنا صحبة سليم زكى خدمة لأهداف الأمن فى تهدئة المظاهرات، هى ذاتها التى تلقت فيما بعد قنبلة حارقة من أحد طلاب الإخوان لتحرق السيارة وتقتل سليم زكى.

ومرة أخرى نعود إلى علاقة البنا بالإنجليز، يقول ريتشارد ميتشل: "وبعد الإفراج عن البنا فى أكتوبر ١٩٤١ قامت اتصالات بين البنا وبين السفارة البريطانية ولا أحد يعلم من قام بهذا الاتصال ولا متى تم" (٣٦).

وعلى أية حال فإننا ولكى نكون منصفين نعود إلى كتابات الإخوان أنفسهم فهم يقولون ويلاحج إن "الاتصال قد تم بناء على طلب الإنجليز الذين خشوا من التقارب بين الإخوان والقصر، وبعد مناقشة أفكار وبرنامج الجماعة أبدى الطرف الإنجليزى استعداد السفارة البريطانية لتقديم مساعدة مالية للجماعة لمساعدتها على أداء رسالتها"، ثم يؤكدون أن الأستاذ البنا قد رفض ذلك، وقد سبق للإخوان أن اعترفوا بأن إسماعيل صدقى عرض عليهم مساعدة مالية لكنهم رفضوا.

ولكن لكى نقرب اقتراباً موضوعياً من الحقيقة يتعين علينا أن نتأمل سؤالاً كبيراً وملحاً:

لماذا الإنجليز بالذات.. ولماذا إسماعيل صدقى بالذات يعرضان مساعدات مالية للإخوان بالذات؟

هذا السؤال يحتاج إلى إجابة.

وعلى أية حال فإن فإن شهر العسل الإخوانى - الإنجليزى لم يكن بلا معنى فكرى ومغزى سياسى، فالمؤرخ الأكثر تأييداً لجماعة الإخوان "د. إسحق موسى الحسينى"

يقول مبرراً هذه العلاقة الإخوانية بالإنجليز: "إن تحرير وادي النيل كله من النفوذ الأجنبي كان مطلباً يلى فى الأهمية لدى الإخوان مطلب إقامة الحكومة الإسلامية"^(٣٧). وحتى أمريكا تلقت هى أيضاً غزلاً كثيراً من الإخوان. فالأستاذ مصطفى مؤمن يتوجه نحو أمريكا بأعلى صوت: "أيها الأمريكيون أنتم الشعب الحر وقواد الديمقراطية"^(٣٨). ولم يكن الأمر قاصراً على الأستاذ مصطفى مؤمن، فالأستاذ البنا لمح تصاعد النفوذ الأمريكى فى العالم بعد الحرب العالمية الثانية، ولاحظ اهتمام أمريكا بالأوضاع فى المنطقة، وفى مصر على وجه الخصوص، فقرر كعادته أن يجدف بقاربه فى اتجاه هذه القوة الصاعدة، وأن يناور معها هى الأخرى.

ويروى الأستاذ محسن محمد فى كتابه "من قتل حسن البنا" عديداً من النصوص المنقولة عن وثائق الخارجية الأمريكية المودعة بمكتبة الكونجرس نطالع بعضاً منها معاً.

"التقى الأستاذ حسن البنا مع "فيليب إيرلاند" السكرتير الأول للسفارة يوم ٢٩ أغسطس ١٩٤٧. وعندما أشار إيرلاند إلى المظاهرات الحاشدة التى وقعت هذه الأيام، أراد البنا أن يوهمه بقدرته على إشعال المظاهرات وإخمادها. فقال فى بساطة: "لن تكون هناك اضطرابات جديدة فإن بوسعى بدؤها وإنهاؤها، ورد عليه إيرلاند: من المشكوك فيه أن نتمكن من إنهاء الفتنة بعد اشتعالها"^(٣٩).

وقد استخدم البنا كأداة للتقارب مع أمريكا سلاحاً مهماً فهو عدو للشيعوية التى كانت قد ظهرت على سطح الأحداث المصرية آنذاك، مدركاً أن هذا الأمر شديد الإغراء بالنسبة للأمريكيين. وطلب البنا مقابلة ثانية مع إيرلاند وتم اللقاء فى بيت إيرلاند وحضره محمد الحلوجى من قيادات الجماعة والدكتور محمود عساف مدير إعلانات صحيفة الإخوان، وأشار حسن البنا "إلى خطر الشيوعية فى الشرق الأوسط وأن الإخوان المسلمين يحاربونها بكل الوسائل الممكنة، ويضطر أعضاء الجماعة أن يتركوا عملهم الأصلى لدخول الخلايا الشيوعية للحصول على المعلومات، وعندما يفعلون ذلك فإنهم يتركون وظائفهم وبذلك يفقدون مرتباتهم(!)، وإذا أمكن تعيينهم على أساس أنهم محققون

وباحثون فإن هذه المشكلة يسهل حلها". ثم اقترح "إنشاء مكتب مستقل مشترك بين الإخوان والحكومة الأمريكية لمحاربة الشيوعية"، وقال إيرلاند إنه فهم من هذا العرض أن تتولى الولايات المتحدة إدارة المكتب وأن يكون أعضاؤه - فى الأغلب - من الإخوان. وقال إيرلاند أنه رفض العرض فقال البنا "لا أريد إجابة الآن، ولكنى أرغب فقط فى عرض الفكرة وسيجرى محمود عساف معك محادثات تفصيلية".

لكن هذا الرفض الأمريكى أغضب البنا الذى قرر الضغط على أمريكا كي تقبل، فقد كان يتوقع مالأ وفيراً من مثل هذا المكتب. فنشرت جريدة الإخوان فى اليوم التالى مباشرة مقالاً بعنوان "أمريكا والعالم العربى" شنت فيه هجوماً عنيفاً على الأمريكيين.

وفيما كان إيرلاند فى زيارة لصديق مصرى، تعمد البنا أن يحضر المقابلة، وقال له إيرلاند: "أشعر بالدهشة لأنك عرضت بذل جهود مشتركة بين الإخوان والسفارة، وفى اليوم التالى مباشرة نشر عمر عزمى مقالاً فى جريدة الإخوان حمل فيه بعنف على أمريكا وسياستها ووصفها بأنها مخادعة، وهاجم نزاهة الأمريكيين عامة"، ورد البنا رداً "سابق التجهيز" قلل فيه من قيمة المقال وكاتبه وقال إنه مجرد رد فعل متحمس لما يشعر به الإخوان إزاء أسلوب أمريكا فى فلسطين، ثم قال، وهذا هو المهم: "وعلى العموم آمل ألا يؤثر هذا الحادث على اقتراحاتى السابقة"^(٤٠).

وتداهم الأحداث الجميع، فالجماعة كانت على أبواب محنتها، ولكن ما إن تستعيد الجماعة أنفاسها حتى تبدأ فى عام ١٩٥٣ محاولة جديدة للتقارب مع أمريكا وهى محاولة رتب لها المرشد العام الجديد المستشار حسن الهضيبي عن طريق شقيق زوج ابنته^(٤١).

ويبدو أن الأمريكيين فى كلتا الحالين لم يبتلعوا الطعم الإخوانى، فالتعليقات فى النصوص الكاملة للوثائق توحى أحياناً بعدم الثقة، وأحياناً أخرى باعتقادهم بأن الإخوان يبالغون فى قدراتهم أكثر من اللازم. وقد كان تعليق مندوب C.I.A على قول ممثل المستشار الهضيبي: "إن الإخوان يدرسون إمكانية إزاحة عبد الناصر وعبد الحكيم عامر من السلطة لاذعاً".

ولكن وإذ يتجدد موج الأحداث يبدو أن من حقنا أن نتساءل هل ستبتلع أمريكا الآن
الطعم الإخواني؟ والإجابة واضحة وهى نعم.
وعلى أية حال، فإن الإخوان الذين شربوا من بئر الأستاذ حسن البنا لم يزلوا يمارسون
ذات اللعبة فى المناورة رغم نتائجها المريرة. فهل هم لا يتعلمون؟ أم أنها جينات وراثية
إخوانية لا يمكن التخلص منها؟ أم هذا هو الاعتقاد بأن الجماعة لا تخطئ، ولم تخطئ؟

الهوامش

- (١) محمد عودة - سبعة باشاوات وصور أخرى - ص ١٥٤.
- (٢) الأهرام - ٢٠-٢-١٩٧٠ - رأى السفير البريطانى منذ ٣٠ عاماً فى ١٥٠ سياسياً مصرياً.
- (٣) مذكرات الدكتور الطيب الناصر - روزاليوسف ٢٣-١-١٩٥١.
- (٤) جورج كيرك - موجز تاريخ الشرق - ترجمة عمر السكندرى - ص ٣٤.
- (٥) الدستور ٢٧-٧-١٩٣٩ - مقال لعباس العقاد.
- 6) Count Galeazzo Ciano - Ciano's Diary - 1939 - 1943 London - P.321.
- (٧) الأهرام ٩-٢-١٩٧١ - دراسة للدكتور محمد أنيس بعنوان : ٤ فبراير ١٩٤٢.
- (٨) السياسة الدولية - أكتوبر ١٩٧١ - دراسة للدكتور عبد العظيم رمضان بعنوان : الاتصالات المصرية بدول المحور ٣٩-١٩٤٥.
- 9) Heyworth - Dune - Ibid - P.36
- (١٠) حسن البنا - رسالة المؤتمر الخامس - ص ٥٧.
- (١١) د. زكريا سليمان البيومى - الإخوان المسلمون بين عبد الناصر والسادات - من المنشية إلى المنصة - اتقاهرة ١٩٨٧ - ص ١٣.
- (١٢) المرجع السابق - ص ١٤.
- (١٣) طارق البشرى - المرجع السابق - ص ٤٨.
- 14) Heyworth - Dune - Ibid - P.39
- 15) Harris, Christina - Ibid - P.179
- 16) Michell - Ibid - P.17
- (١٨) النذير - ٤ ذى القعدة سنة ١٣٥٧ - العدد ٣٠ - مقال للأستاذ حسن البنا.
- (١٩) المرجع السابق.
- (٢٠) محسن محمد - من قتل حسن البنا - ص ٨٨.
- (٢١) د. محمد حسين هيكل - مذكرات فى السياسة المصرية - ج ٢ - ص ٢٠٨.
- (٢٢) د. عبد العظيم رمضان - الحركة الوطنية فى مصر - ج ٢ - بيروت - ص ١٢٨.
- (٢٣) أحمد حسين المحامى - مرافعة فى قضية اغتيال المرحوم فهمى النفرشى باشا - ١٩٤٩ - ص ٤١.
- (٢٤) جورج كيرك - المرجع السابق - ص ٣١٤.
- (٢٥) د. عبد العظيم رمضان - المرجع السابق - ص ١٤٥.
- (٢٦) حسن البنا - مجموعة رسائل الإمام الشهيد - رسالة نحو النور - ص ٧٤.
- (٢٧) ريتشارد ميتشل - الإخوان المسلمون والمجتمع المصرى - الترجمة العربية - مقدمة بقلم صلاح عيسى - ص ٢٢.
- 28) Heyworth - Dune - Ibid - P.38

29) Boehm, les Freres Muslmans- P.200

(٣٠) الإخوان المسلمون (الأسبوعية) - ٢٣ أغسطس ١٩٤٥ - مقال للأستاذ حسن البنا بعنوان: كلمتان بعد الهدنة العامة.

(٣١) الإخوان المسلمون (الأسبوعية) - ٢ فبراير ١٩٤٦.

(٣٢) محمد شوقي زكى - الإخوان المسلمون والمجتمع المصرى - ص ١٤٥.

(٣٣) محسن محمد - المرجع السابق - ص ٩١.

(٣٤) محمد جلال - مصريون لا طوائف ١٩٥١ - ص ٦١.

(٣٥) صلاح الشاهد - ذكرياتى فى عهدين ١٩٧٩ - ص ٤٨.

(٣٦) الإخوان المسلمون ٣١-٧-١٩٤٦ مقال لحسن البنا بعنوان نظام الأسر نشأته وأهدافه.

وأيضاً : الدعوة ٢٩-٥-١٩٥٤.

(٣٧) د. إسحق موسى الحسينى - المرجع السابق - ص ٩٤.

(٣٨) مصطفى مؤمن - صوت مصر - ص ٢٧١.

(٣٩) محسن محمد - المرجع السابق - ص ٢٠٤.

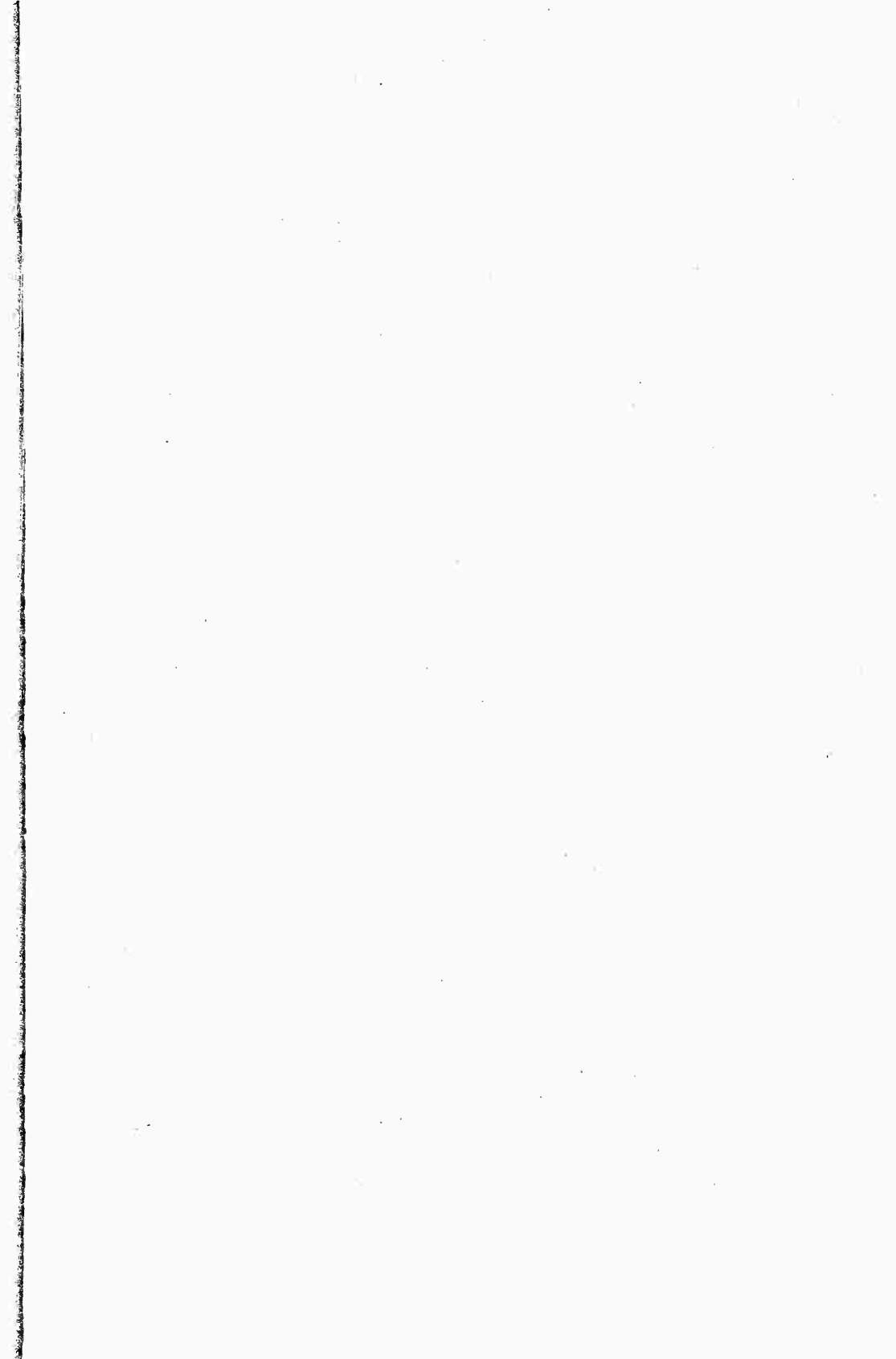
(٤٠) المرجع السابق - ص ٢١١-٢١٤.

(٤١) راجع تفاصيل هذه المحاولة فى الجزء الأول من هذه الدراسة: د. رفعت السعيد - الإرهاب المتأسلم - الجزء

الأول - الإخوان المسلمون - كتاب اليوم (٢٠٠٤).

الفصل الخامس

البنا والطاغوت .. من تلاعب بمن؟



ونعود إلى على ماهر باشا؛ فقد كان البداية. كان مفتاح العلاقة الفسيحة بين الشيخ البنا والملك، كان على ماهر عدواً لدوداً لحزب الوفد، وكان واحداً من دعائم القصر الملكي الأساسيين وللسببين معاً وجد في البنا ضالته. وتكاد المراجع في أغلبها تجمع على أن بداية العلاقة بين البنا وعلى ماهر كانت عام ١٩٣٥^(١).

والبنا من الناحية الأخرى كان حريصاً على توثيق علاقته بالقصر الملكي والاستناد إلى دعمه. كان ذلك منذ بداية تأسيس الجماعة. وقد رأينا في فصل سابق كيف تقرب من الملك فؤاد لكنه كان مجرد تأييد من مدرس مغمور وجماعة مغمورة. يقول أحد الباحثين: "بدأ حسن البنا دعوته وعينه على القصر الملكي، يحاول أن يرتبط به ويشد الرجال إليه ليقتنعه بأن من مصلحة العرش أن تكون جماعة الإخوان ركيزة له"^(٢).

ولأن على ماهر كان صاحب النفوذ الأول في عصر فاروق، فقد أدرك البنا أن مفتاح أبواب القصر بين يديه، ولهذا قرر أن يوثق علاقته به، ومهما كان الثمن الذي يدفعه. وإذا كانت إيماءات وربما ترتيبات على ماهر هي طريق البنا نحو الألمان، فإن على ماهر استطاع أن يغرس حسن البنا وجماعته بالكامل في حقل الولاء المفتوح والمبالغ فيه، وربما إلى درجة الفجاجة للقصر الملكي.

وإذا أردنا نموذجاً لهذه العلاقة المتينة بين البنا وماهر نطالع كنموذج واحداً من عشرات وربما أكثر من العشرات من أشكال العلاقات المميزة بين الطرفين، نطالع بعضاً مما كتبه البنا: "حضر على ماهر باشا ومعه عبد الرحمن عزام باشا مؤتمر فلسطين في لندن فودعهما الإخوان أحر وداع، وبعد حضوره ذهب وفد من الإخوان إلى المحطة لاستقباله وعلى رأسه الأستاذ أحمد السكري فهتف بحياته، وأمر الإخوان أن يهتفوا بحياته كذلك، فهتف بعضهم وامتنع الآخرون، وعادوا ثائرين، ورفعوا إلى احتجاجاً عنيفاً ذكروا فيه أن الإخوان ليسوا هتافين، وأنهم لم يهتفوا لأشخاص، وإنما

يذكرون الله وحده، ويهتفون لجهاد وأعمال، فطيبت خاطرهم بأن هذه تحية المسافر، وأننا لا نحى شخصاً، ولكن نحى عمله لفلسطين، فاحتسبوا عند الله فى سبيل فلسطين العربية"^(٣).

ويقول ميتشل إن هذه العلاقة المبالغ فيها مع على ماهر كانت سبباً فى إحداث انشقاق فى صفوف الجماعة، فقد عارضها البعض مستندين إلى قول سابق للبنا يؤكد أن من بين فضائل الجماعة ومن خصائصها الأساسية تجنب التورط مع الأكابر والأعلام والأحزاب والجماعات.. ولذلك فقد طالبوا بفصل أحمد السكرى محور العلاقة مع على ماهر، وكان يحرك بعض المنشقين فكرة الرفض لأن تصبح الجماعة أداة فى يد على ماهر والقصر لمحاربة الوفد"^(٤).

ويؤكد المؤرخ الإخوانى الأستاذ محمود عبد الحليم أن حسن البنا "كان يرى أن أقصر طريق لتحقيق أهداف الدعوة إنما يكون بالاتصال بالملك الشاب فاروق وإقناعه بأهداف الدعوة، وبأن انتماءه إليها سيصلح البلاد ويحفظ له عرشه، ومن أجل ذلك سعى البنا للاتصال برجل محايد كان يأنس فى رجاحة عقله وفى صدق وطنيته ونزاهته، وكان فى نفس الوقت من أقرب الشخصيات إلى الملك حيث كان أستاذه من قبل، ذلك هو على ماهر. وكان على ماهر من القلائل الذين يفهمون فكرة الإخوان ويقدرونها، كما يقدرון الأستاذ المرشد كل التقدير"^(٥)، وكان البنا جاهزاً لكل شىء، وأى شىء يرضى القصر ويفتح أبوابه أمامه.

وعندما توفى الملك فؤاد كتبت مجلة الإخوان تحت عنوان "مات الملك يحيا الملك": "مصر تفتقد اليوم بدرها فى الليلة الظلماء، ولا تجد النور الذى اعتادت أن تجد الهدى على سناه. فمن للفلاح والعامل، من للفقير يروى غلته ويشفى علته، ومن للدين الحنيف يرد عنه البدع، ومن للإسلام يعز شوكرته ويعلى كلمته، ومن للشرق العربى يؤسس وحدته ويرفع رايته؟"^(٦).

ثم توالى مقالات مجلة الإخوان فى الدعاء لفاروق ولى العهد، ودعوته للتمسك بالتقاليد الإسلامية التى كان يتحلى بها والده، وتصفه "بسمو النفس وعلو الهمة وأداء

فرائض الله، واتباع أوامره، واجتتاب نواهيه"^(٧)، وفي مقال آخر تصف المجلة الفتى صغير السن الذى لم يزل ولياً للعهد بأنه "المربى والأستاذ والمثل الأعلى"^(٨).

وفى هذه الأثناء كان الخلاف بين رجال القصر وحكومة الوفد على أشده. وفيما كانت الاستعدادات لتولية الملك، اقترح الأمير محمد على (الذى أصبح بتولية فاروق ملكاً ولياً للعهد) بأن يقام احتفال دينى تتم فيه مراسيم تولية الملك. حيث يعقد الاحتفال فى القلعة ويقوم شيخ الأزهر بتسليمه سيف جده محمد على. ولم يكن هذا الاقتراح سوى جزء من مخطط كامل رسمه الثالث المسيطر على القصر (على ماهر - الشيخ المراغى - كامل البندارى) لاحتواء الملك، وتقوية نفوذه وتقديمه فى صورة الملك الصالح المسلح بالدين فى مواجهة النحاس باشا المسلح بتأييد الشعب. لكن النحاس باشا يتمسك بأهداب ليبراليته ويرفض أن يتولى الملك بأسلوب إسلامى قائلاً فى خطاب عنيف أمام مجلس النواب: "إن هذا الاقتراح إقحام للدين فيما ليس من شىء عونه، وإيجاد سلطة دينية خاصة بجانب السلطة المدنية". وقال: "الإسلام لا يعرف سلطة روحية، وليس للرسول وساطة بين الله وعباده، وليس أحرص منى ولا من الحكومة التى أتشرف برئاستها على احترام وتنزيه الإسلام، كما أنه ليس أحرص منا على الالتزام بأحكام الدستور، ولكن الاحتفال بمباشرة جلالة الملك لسلطته الدستورية شىء آخر. فهو مجال وطنى يجب أن يتبارى فيه سائر المصريين مسلمين وغير مسلمين"^(٩).

ويأتى الرد سريعاً من حسن البناء، فيعقد وعلى وجه السرعة المؤتمر الرابع للجماعة معلناً وبصرحة تامة أن هدف المؤتمر الوحيد هو الاحتفال باعتلاء فاروق العرش.

ويصدر مكتب الإرشاد نشرة تقول: "قرر مكتب الإرشاد العام للإخوان المسلمين الاحتفال بحضور جلالة الملك المعظم فاروق الأول وتسلمه مهام ملكه السعيد وتقديم فروض التهئة والولاء بهذه المناسبة الميمونة"، وكان الملك قد وصل إلى الإسكندرية، وركب القطار الملكى إلى القاهرة وعلى طول الطريق احتشد الإخوان

وجوالتهم فى محطات السكة الحديد لتحية الملك. وعقد المؤتمر الرابع للترويج لهذا الاحتفال.

ولم تكن كل هذه الإمكانيات بعيدة عن دعم ونفوذ وتمويل على ماهر. ويصف حسن البنا فى مذكراته نقلاً عن مجلة الإخوان مسيرة ضخمة تحت عنوان "أقوى رجل فى العالم يحمل لواء الإخوان - حشد لم يسبق له نظير فى تاريخ مصر الحديثة - عشرون ألفاً أو يزيدون لتحية الملك"، ويقول: "هذه أول مرة فى التاريخ رأيت أو سمعت أن سارية اللواء تبلغ حوالى أربعة أمتار ونصف متر، وعليها رقعة فسيحة من القطيفة الخضراء وقد رسم عليها المصحف فى نصف دائرة هلالية، وكتب أعلاها: الله أكبر والله الحمد. ومن تحتها الإخوان المسلمون، وحمل هذا العلم "السيد بك نصير" بطل العالم فى حمل الأثقال"^(١٠)، وفيما يبدو أن سيد بك نصير قد تمت إعارته للإخوان لحمل هذا الثقل الكبير لأنه لم يحدث أن شارك لا قبلها ولا بعدها فى أنشطة الإخوان.

ويبقى فى هذا الصدد أن نشير إلى أن جماعة الإخوان لدى إعادة طبع كتاب الأستاذ البنا "مذكرات الدعوة والداعية" الذى أورد فيه فى طبعاته الأولى عديداً من حكايات وروايات وكتابات الولاء المفرط للملك فاروق قد حرصت على شطب كل ما له علاقة بهذا الأمر.

وفى المؤتمر الرابع برزت لأول مرة جولة الإخوان بزيتها الكاكى لتقوم بدور قوة النظام والأمن^(١١) وبعد احتفالات ومهرجانات ومسيرات مليئة بالبهجة تجمع الإخوان عند بوابات قصر عابدين هاتفين للملك "تهبك بيعتنا وولاءنا على كتاب الله وسنة رسوله"^(١٢).

وعندما وقع الخلاف بين الملك حديث العهد بالحكم وبين النحاس باشا قرر النحاس أن يروع الملك، فخرجت الجماهير الوفدية إلى الشارع هاتفة "النحاس أو الثورة" و "الشعب مع النحاس"، وسريعاً ما يثبت البنا جدارته بالولاء الفعلى للملك فتخرج جموع الإخوان هاتفة "الله مع الملك" وتباهى الإخوان كثيراً بأن جلالة الفاروق خرج

إلى شرفة القصر ست مرات ليحيى مظاهراتهم^(١٣)، وتقول جريدة البلاغ: "إن جلالة الملك كان بالغ السعادة بشعار الله مع الملك، وكان يردد نعم. الله معنا"^(١٤). ولعلها المرة الأولى التى تبرز فيها هذه المفارقة، ويتواجه فيها شعاران "الشعب مع النحاس" و "الله مع الملك".

وكان هذا بالضبط ما أراده على ماهر وما أراده القصر من حسن البناء. ولنعد إلى كتابات البناء التى مجدت الملك ومهدت السبيل لتعديده على الدستور. فهو يكتب تحت عنوان "حامى المصحف": "لأن ٣٠٠ مليون مسلم فى العالم تهفوا أرواحهم إلى الملك الفاضل الذى يبايعهم على أن يكون حامياً للمصحف فيبايعونه على أن يموتوا بين يديه جنوداً للمصحف. وأكبر الظن أن الله قد اختار لهذه الهداية العامة الفاروق، فعلى بركة الله يا جلالة الملك ومن ورائك أخلص جنودك"^(١٥). إنه يدغدغ أحلام الفتى الشاب الذى تولى العرش، ويلوح له بحلم الخلافة، بل ويمنحه هداية عامة منحها له الله على كل المسلمين. فماذا يريد الملك أكثر من ذلك؟ بل إن الأستاذ البناء يتجاوز كل الحدود عندما يشبه الملك بالرسول (ﷺ) فيوم شهد الملك فاروق الاحتفال بعيد الهجرة، قالت مجلة الإخوان إنه "أعاد صورة سالفة، صورة الرسول الكريم حينما طلع على أنصاره طلوع البدر"^(١٦).

ولقد أفرط البناء فى الكتابة مديحاً للملك، فقد كتب تحت عنوان "ملك يدعو وشعب يجيب" - "إلى جلالة الملك الصالح فاروق الأول من الإخوان المسلمين": "يا جلالة الملك الصالح العظيم، لقد دعوت فأسمعت، وناديت فأبلغت، ونصحت فأفصحت، وإن شعبك الذى عرفك مؤمناً صالحاً تقياً، ووثق بك مجاهداً فى سبيل إسعاده وإعزازه أميناً قوياً، وأن هذا الشباب الذى ناديت به فاستعد، ليعلن بهذه المناسبة السعيدة عظيم إخلاصه وولائه للعرش المفدى ويترقب بفارغ الصبر يوم الخلاص وساعة الإنقاذ. يا جلالة الملك الصالح العظيم: عرف فيك شعبك المنقذ له، والحارس لدينه، والساھر على رعاية مصالحه، والداعى إلى الخير والفضيلة فيه بالقول والعمل فأحبك من كل قلبه، وأخلص لعرشك من قرارة نفسه وعقد على عهدك

الرجاء وكنت عنده الرمز والأمل"، ثم طالبه "بصدور أمر ملكى بألا يكون فى مصر المسلمة إلا ما يتفق مع الإسلام، فإن مئة ألف شاب مؤمن تقى من شباب الإخوان المسلمين فى كل ناحية من نواحي القطر، ومن ورائهم هناك الشعب كله، يعملون فى جد وهدوء ونظام يترقبون هذه الساعة ليسعدوا بالشهادة بين يديك فى سبيل الله لنصرة الإسلام. إن الجنود على تمام الأهبة، وإن الكتائب معبأة، وقد طال بها الانتظار، واشتد شوقها إلى ميادين العمل والكفاح، فمتى تقام الصلاة، ومتى يتقدم الإمام" (١٧).

وتمتد المبالغة كما اعتاد الأستاذ البنا بلا حدود فعندما وجه الملك تحية إلى الشعب بمناسبة حلول شهر رمضان تقول مجلة "النذير": "إن الفاروق يحيى سنة الخلفاء الراشدين إذ يهنئ شعبه بحلول رمضان الكريم" (١٨).

واستمر البنا على سياسة الولاء للملك، وبالغ فى ذلك مبالغة دفعت الكثيرين لانتقاده، وإن كان هو وأنصاره قد اعتبروا ذلك نصراً كبيراً.

يقول المؤرخ الإخوانى الأستاذ محمود عبد الحليم: "إن على ماهر اتفاق مع فضيلة المرشد على أن يقوم الإخوان باستقبال الملك أمام مسجد سيدى جابر حين يذهب إليه لأداء صلاة الجمعة، وحضر مئة من الإخوان واصطفوا أمام المسجد وهم يلبسون ملابس الجلالة، وحضر الركب الملكى يتقدمه الملك وبجانبه على ماهر فحييناه هاتفين له وللإسلام فأخذ على ماهر بيد الأستاذ المرشد وقدمه لجلالة الملك فسلم عليه الأستاذ مصافحاً باحترام دون تقبيل يده. ورجعنا بعد صلاة الجمعة إلى معسكرنا الصيفى بالدخيلة، وكان الأستاذ البنا يشعر بالرضا النفسى لأنه أحس بأنه قد خطا الخطوة الأولى التى كان على الداعية المصلح أن يبدأ بها، وكنا نعتقد فى ذلك الوقت بسذاجتنا وحسن ظننا أن الله تعالى قد اختصر لنا الطريق، واختار لنا غير ذات الشوكة، وأن هذا الشاب يبدو وديعاً فى مظهره، وبجانبه الرجل العاقل على ماهر لا بد أنه سيتجه اتجاهاً إسلامياً فيسعد ويُسعد الناس" (١٩).

وكجزء من تأييد الملك ودعم نفوذه كان هجوم البنا على الأحزاب وهو ما يعنى

أساساً الهجوم على الحزب الأكبر والأخطر على نفوذ القصر أى حزب الوفد.. ونقرأ للأستاذ البنا: "لقد انعقد الإجماع على أن الأحزاب المصرية هى سيئة هذا الوطن الكبرى، وهى أساس الفساد الاجتماعى الذى نصطلى بناره الآن. وبما أن الأحزاب هى التى تقدم الشيوخ والنواب، وهى التى تسير الحكم فى الحياة النيابية، فإن من البديهي ألا يستقيم أمر الحكم وهذا من يسيرون دفته، وإذا كان الأمر كذلك فلا ندرى ما الذى يفرض على هذا الشعب الطيب المجاهد المناضل الكريم هذه الشيع والطوائف من الناس التى تسمى نفسها الأحزاب السياسية؟ إن الأمر خطير ولا مناص بعد الآن من أن تحل هذه الأحزاب جميعاً" (٢٠).

ويقول: "إن الإخوان يعتقدون من قرارة نفوسهم أن مصر لا يصلحها ولا ينقذها إلا أن تحل الأحزاب كلها، وتتألف هيئة وطنية عاملة تقود الأمة إلى الفوز وفق تعاليم القرآن الكريم. وبهذه المناسبة أقول إن الإخوان المسلمين يعتقدون عقم فكرة الائتلاف بين الأحزاب ويعتقدون أنها مسكّن لا علاج. والعلاج الحاسم الناجع أن تزول هذه الأحزاب مشكورة فقد أدت مهمتها وانتهت الظروف التى أوجدتها، ولكل زمان دولة ورجال كما يقولون" (٢١).

وبعد مثل هذا الهجوم الضارى على الأحزاب والحياة البرلمانية يمتلك الملك الجراءة فى تحدى الدستور محالاً أن يفترض لنفسه نفوذاً غير وارد فى الدستور. فيذيع خطاباً بالراديو بمناسبة رأس السنة الهجرية معلناً فيه توليه زمام الأمور بين يديه قائلاً: "إن ثقّتى وتوكلى على الله هو الذى يلهمنى تصريف الأمور ويوجهنى الوجهة الصحيحة" (٢٢).

ويرد النحاس محذراً من أى تعد على الدستور. لكن البنا يظل جاهزاً للدفاع عن الملك.

وكان الملك بدوره جاهزاً لمنح البنا وجماعته المزيد من التأييد والدعم. ويكتب السير "مايلز لامبسون" المندوب السامى البريطانى إلى وزارة خارجيته: "إن القصر الملكى قد بدأ يجد فى الإخوان أداة مفيدة، وأنه أصدر بنفسه أوامر

لمديرى الأقاليم بعدم التدخل فى أنشطة الإخوان، ولا شك أن الجماعة قد استفادت كثيراً من محاباة القصر لها كما نالت التأييد المادى والمعنوى من على ماهر^(٢٣).

ثم يتقلب البنا واحدة من تقلباته المعتادة، فما إن يصل الوفد إلى الحكم عقب حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ حتى يتحالف معه البنا صراحة.

وتكتب الأهرام: "استقبل مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء المرشد العام لجماعة الإخوان على رأس وفد من الجمعية، وقدم الأستاذ حسن البنا لرئيس الوزراء كتاباً يؤيد سياسة الوزارة، ومما قاله المرشد العام فى رسالته: "والواجب يقتضيها، والمصلحة تدعونا إلى أن ننفذ بإخلاص وحسن نية أحكام المعاهدة التى وقعناها بمحض اختيارنا وملء حريتنا وقصدنا من ورائها سلامة استقلالنا"^(٢٤)، وأعلن البنا أيضاً انسحابه من الترشيح للبرلمان إرضاء للنحاس باشا، ويفهم الإنجليز الرسالة، فالنحاس باشا يأتى والألمان يهزمون، ويتحول البنا، يترك على ماهر ليتحالف مع خصمه النحاس، ويترك حلفه مع الألمان ليتحالف مع عدوهم الإنجليز.

ويرضى الإنجليز، ويكتب السفير البريطانى إلى وزارة خارجيته: "كتب رئيس الإخوان المسلمين عند انسحابه من الترشيح للبرلمان خطاباً إلى رئيس الوزراء يعده بالتعاون مع الحكومة، مما يعنى ضمناً الولاء للمعاهدة الإنجليزية - المصرية وربما تم التوصل إلى هذه النتيجة بمزيج من الإرهاب والرشوة، ولكن قيمتها مشكوك فيها"^(٢٥).

ويغضب الملك من هذا التحالف مع الوفد، ويحاول الإخوان استرضاءه، فإذا أعاد النحاس باشا لهم مجلتهم "الإخوان المسلمون" على أن تصدر نصف شهرية وذلك بعد أن أغلقتها حكومة "حسين سرى باشا"، يكتب صالح عشاوى تحت عنوان "تحية عهد وأمل": "إن قلوب المسلمين وأبصارهم لتلتقى عند رمز كريم وملك عظيم، هو أمل المسلمين فى الوحدة وفى العزة وهو الفاروق حفظه الله ورعاه وأيده وقواه وأعز به دولة الإسلام حتى يعود على يديه مجد الدين وعزة المسلمين"^(٢٦).

لكن الملك لم يعد ترضيه مثل هذه الكلمات بينما المواقف تقف في تضاد معها. كذلك النحاس باشا لم يقبل من حيث المبدأ وجود حزب سياسى يتحدث باسم الدين، فأصدر فى سبتمبر ١٩٤٢ قراراً بمنع الاجتماعات العامة للإخوان. واستدعى "قواد سراج الدين" المرشد العام، وقال له: يا شيخ حسن البنا أنا عايز أعرف أنتم جماعة دينية أم حزب سياسى؟ إحنا ماعندناش مانع أبداً تكونوا حزب سياسى، ولا تتستروا بستر الدين، ولا تتخفوا فى زى الدين. أما أن تتستروا "الله أكبر والله الحمد" وفى نفس الوقت تقوموا بعمل سياسى وتباشروا السياسة الحزبية فهذا غير معقول، لأنه يخل بمبدأ تكافؤ الفرص بينكم وبين الأحزاب السياسية، وأنا كرجل سياسى حزبى لا أستطيع أن أهاجم جماعة دينية تنادى بشعارات دينية سامية، وإلا سأكون محل استنكار من الرأى العام". ويرد الشيخ البنا مستعيناً بكل قدراته على المناورة قائلاً: "نحن لم نفكر فى العمل بالسياسة، ونحن رجال دين فقط ورجال فكر دينى، وإذا كان قد صدر من بعض رجالنا أو من بعض شعبنا أى عمل يخالف هذا الخط أو يدل على اتجاه سياسى فأنا أستنكره وسأوقفه عند حده فوراً" (٢٧).

وينسى البنا كل إلحاحه على ضرورة اشتغال المسلم بالسياسة.. وينسى أنه قال شعراً:

الدين شىء والسياسة غيره دعوى نحاربها بكل سلاح

إنه الأسلوب المناور الذى اعتاد عليه البنا.

ولكنه لم يعد مجدياً؛ فالقصر غضب، والألمان هزموا، والإنجليز متشككون، والوفد لا يبتلع مناوراتهم ويمارس ضغوطاً عليهم.

ويبدو الأمر وكأن أبواب المناورة قد أغلقت فى وجه الأستاذ حسن البنا، لكنه لم يلبث أن يستغل تقلبات السياسة لصالحه.

فحكومة الوفد ترحل، وحكومات الأقلية بحاجة إليه، والإنجليز يفسحون صدرهم له خاصة بعد تأييده المطلق لمشروع معاهدة صدقى - بيفن. ولعمله الدائب لتفتيت الموج الوطنى العام. ورفض الإخوان الانضمام إلى اللجنة الوطنية للعمال والطلبة،

ولجؤهم من جديد إلى التحالف فيما سمي بالجبهة القومية مع على ماهر الذي أصبح صديقاً حميماً للإنجليز. كل ذلك فتح أمامهم آفاق مناورات جديدة.

ولكن يبقى الملك، ويبحث البنا بدأب عن قناة جديدة تمده بإمكانية تواصل جديد مع القصر، ويروى أنور السادات أن الشيخ حسن البنا قد ألح عليه إلحاحاً شديداً، أن يحاول ترتيب اتصال مع الملك عن طريق يوسف رشاد، وأن يوسف رشاد قد قابل البنا بناءً على موافقة الملك، ويضيف السادات أن "يوسف رشاد قد أفهمه فيما بعد، أن عام ١٩٤٦ قد شهد رضاء تاماً من الملك عن الشيخ البنا وأتباعه"، والحقيقة أن الأستاذ حسن البنا قد استحق عن جدارة بتصرفاته ومواقفه السياسية المعلنة هذا الرضاء الملكي.

وتمضى سياسة المناورة بصاحبها، يتصور بها أنه قادر على أن يتلاعب بالجميع، ولكنه وبعد فترة قصيرة لا يلبث أن يدفع هو وجماعته ثمناً باهظاً. ويكتشف أن الجميع كانوا يتلاعبون به إذ كان هو يتصور أنه يتلاعب بهم.

الهوامش:

- (١) مجلة الإخوان المسلمون ٩-٩-١٩٣٨.
- وايضاً : د. عبد العظيم رمضان - تطور الحركة الوطنية - المرجع السابق - ص ٣١٤.
- (٢) السيد يوسف - الإخوان المسلمون - هل هي صورة إسلامية؟ - ج ٦ - ص ١٩.
- (٣) حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية - المرجع السابق - ص ٢٦٦.
- 4) Heyworth - Dunne - Ibid - P.5
- (٥) محمود عبد الحليم - الإخوان المسلمون - المرجع السابق - ص ١٤٧.
- (٦) نقلاً عن: محسن محمد - من قتل حسن البنا؟ - المرجع السابق - ص ٢٠.
- (٧) مجلة الإخوان المسلمون ١٩-٥-١٩٣٦ مقال لطاهر العربي بعنوان: الناس على دين ملوكهم.
- (٨) مجلة الإخوان المسلمون ١٦-٦-١٩٣٦ مقال لطاهر العربي بعنوان: جلالة الفاروق المثل الأعلى لأمته.
- (٩) المصرى ٢٢-٢-١٩٣٧ ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع أيضاً:
- د. رفعت السعيد - مصطفى النحاس.. السياسى والزعيم المناضل ١٩٧٦ - ص ٧٦.
- (١٠) حسن البنا - المرجع السابق - ص ٢٣٤.
- 11) Heyworth - Dunne - Ibid - P.57
- (١٢) حسن البنا - المرجع السابق - ص ٢٥٢.
- (١٣) الأهرام: ٢٢-١٢-١٩٣٧.
- (١٤) البلاغ: ٢٢-١٢-١٩٣٧.
- (١٥) مجلة الإخوان المسلمون ٩-٢-١٩٣٧ مقال للأستاذ حسن البنا بعنوان: حامى المصحف.
- (١٦) حسن البنا - المرجع السابق - ص ٢٣٧.
- (١٧) النذير - فبراير ١٩٣٨ - مقال للأستاذ حسن البنا بعنوان: ملك يدعو وشعب يجيب.
- (١٨) النذير - نوفمبر ١٩٣٨.
- (١٩) محمود عبد الحليم - الإخوان المسلمون - المرجع السابق - ج ١ - ص ١٤٧.
- (٢٠) حسن البنا - مشكلاتنا في ضوء الإسلام - ص ٥٨.
- (٢١) حسن البنا - رسالة المؤتمر الخامس - ص ٥٦.
- (٢٢) مصر الفتاة: ٢٧-٣-١٩٣٩.
- (٢٣) محسن محمد - المرجع السابق - ص ٣٩.
- (٢٤) الأهرام - ٢٧ مارس ١٩٤٢.
- (٢٥) محسن محمد - المرجع السابق.
- (٢٦) الإخوان المسلمون (نصف شهرية) - ٢٩ أغسطس ١٩٤٢ - مقال للأستاذ صالح عشاوى بعنوان: تحية عهد وأمل.
- (٢٧) السيد يوسف - المرجع السابق - ص ٤٢.

الفصل السادس

من السياسة إلى الرصاص

"خطوتنا الثانية.. أيها الإخوان تجهزوا"

تحت هذا العنوان كتب البنا افتتاحية العدد الأول لمجلة "الذير" وفيها يقول: "إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن"، وقال إنه سوف يتوجه بدعوته إلى كل المسؤولين فإن أجابوا آزرهم، وإن لجأوا إلى المواربة والمراوغات "فنحن حرب على كل زعيم أو رئيس حزب أو هيئة لا تقوم على نصرة الإسلام، ولا تسير في الطرق إلى استعادة حكم الإسلام ومجد الإسلام"^(١).

ولقد رأينا كيف دعا الشيخ أيضاً إلى "الجهاد"، وكيف جعله الفاصل الذي يميز بين جماعته وبين الجماعات الإسلامية الأخرى.

وهكذا بدأ البنا رحلة شيخ مسلح نحو العمل السياسي.

وكان البنا يلح ويلح على هذه المألة ابتداء من عام ١٩٣٨ ويكثر من الحديث عنها نثراً وشعراً:

الدين شئ والسياسة غيره

دعوى نحاربها بكل سلاح

قد جاء طه عابداً ومجاهداً

دك الحصون وقص كل جناح^(٢).

والسكرتير العام للجماعة عبد الحكيم عابدين يبدو أكثر من شيخه حماساً في شعره عن السياسة المسلحة:

لنجرينها دماء جد تائرة

وثورة الحق لا يدرى لها أمد

أو يرجع الشرع دستوراً لأمتنا

فليحذر القوم أنى منذر صعد^(٣).

ولقد قلنا فيما سبق إن عام ١٩٣٨ كان البداية لمرحلة التنفيذ التي تلت في نظر

الشيخ مرحلتين سابقتين هما:

- التعريف "والدعوة عامة فى هذا الطور، وليست الطاعة التامة لازمة فيها، نظام الدعوة فى هذا الطور نظام الجمعيات الخيرية".

- والتكوين عن طريق استخلاص العناصر الصالحة لحمل أعباء الجهاد، ونظام الدعوة فى هذا الطور صوفى بحث من الناحية الروحية وعسكرى بحث من الناحية العملية". ونلاحظ "عسكرى بحث".

- أما التنفيذ: فهو المرحلة الثالثة، و"الدعوة فى هذا الطور جهاد وعمل متواصلان وامتحان وابتلاء"^(٤).

الجهاد يبدأ، والدعوة لا ترفع أعلامها فحسب وإنما تقترب من التنفيذ.. لكن كيف؟

وقبل أن نسأل كيف؟ نسأل لماذا؟ أو بالدقة نسأل ما جوهر الجهاد عند الشيخ البنا وكيف فهمه هو، وكيف أفهمه لأتباعه؟

تتبع الفكرة من تقسيم أولى، فقد قسم الشيخ البنا المسلمين إلى أربعة أقسام: مؤمن - متردد - نفعى - متحامل^(٥).

والمفهوم العلمى لمثل هذا التقسيم هو كما يقول ريتشارد ميتشل "إنه وفقاً لهذه النظرية فإنه ليس أمام أى مصرى إلا أن يضع نفسه فى أحد موضعين، فإما أن يكون عدواً للإخوان وإما أن يكون "مؤمناً" أى أن يكون أخاً مسلماً"^(٦).

وانطلاقاً من هذا التقسيم تكون جماعة الإخوان المسلمين هى ملتقى أو مصب المؤمنين، أى تكون بالمعنى الإسلامى التقليدى "جماعة المسلمين" وإمامها هو إمام أهل الحل والعقد فى الإسلام، والخروج على الإمام وعلى الجماعة هو خروج على "جماعة المسلمين" أى خروج على الإسلام ذاته. ولهذا فإن الشيخ البنا كان منذ الأيام الأولى لجماعته يرى أن أى معارض له من "الخوارج" ثم و"ضربوه بالسيف". ولكن كيف فهم الإخوان فكرة الجهاد؟

"الجهاد هو بذل كل جهد ممكن لاقتلاع جذور الطغيان والفساد فى الأرض، ولن

يُقدر الإنسان على اقتلاع الطغيان والفساد من حوله، إذا كان الطغيان والفساد يعيشان داخل نفسه، ومن هنا أمر المسلم أن يبدأ بجهاد النوازع في نفسه، ثم يثني بمجاهدة الطغيان والفساد في العالم كله، والمسلم لم يؤمر بمطلق جهاد يلقي به التبعة عن كاهله، وإنما أمر المسلم أن يكون دائماً على أهبة العمل والبذل فإن طلب دينه منه الجهد بذله، أو المال أنفقه، أو النفس قدمها مطمئناً. المسلم جندي للحق، مجهز النفس دائماً إن لم يكن مجهز اليد. وهو أن يعيش في الجهاد عملاً وتنفيذاً عاش الجهاد نية وقصدًا. والذي يعيش لنفسه ولدنياه بعيداً عن الجهاد - عملاً ونية - إنما هو المنافق الذي آمن لسانه ولم يؤمن قلبه، ليس بمسلم صادق الإسلام ذلك الذي يثاقل إلى الأرض، ويخلد إلى الراحة والدعة ويؤثر سلامة دنياه على سلامة دينه" (٧).

أما الشيخ البنا فهو يوجه حديثه إلى أتباعه قائلاً: "أيها الإخوان المسلمون، لقد قام هذا الدين بجهد أسلافكم على دعائم قوية من الإيمان بالله، والزهادة في متعة الحياة الفانية وإيثار دار الخلود، والتضحية بالدم والروح والمال في سبيل مناصرة الحق وحب الموت في سبيل الله" (٨).

ويقول في رسالته "نحو النور": "وتحتاج كذلك الأمم الناهضة إلى القوة وطبع أبنائها بطابع الجندية ولا سيما في هذه العصور التي لا يضمن فيها السلم إلا بالاستعداد للحرب، والتي صار شعار أبنائها جميعاً القوة أضمن طريق لإحقاق الحق. والإسلام لم يغفل هذه الناحية، بل جعلها فريضة محكمة من فرائضه، ولم يفرق بينها وبين الصلاة والصوم في شيء. وليس في الدنيا كلها نظام عنى بهذه الناحية، لا في القديم ولا في الحديث كما عنى بذلك الإسلام في القرآن وفي حديث رسول الله (ﷺ) وسيرته" (٩).

ويستند الشيخ البنا في دعوته إلى "الجهاد" بالمفهوم الذي وضعه موضع التنفيذ، إلى فهم نصي ومغلوط لعدد من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مثل:

- "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله

وعدوكم". وقوله تعالى: "كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم".

والآية الكريمة: "فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة".
والحديث الشريف: "والذى نفسى بيده لولا أن رجلاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عنى ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو فى سبيل الله، والذى نفسى بيده لوددت أنى أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل". رواه البخارى ومسلم.

وعن أبى هريرة أن رسول الله قال: "من لقى الله بغير أثر من جهاد لقى الله وفيه ثلثة". رواه الترمذى وابن ماجة.

وحديث شريف آخر: "من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق". رواه مسلم.

لكن الدعاة إلى صحيح الدين وإلى فهمه فهما يستند إلى أسباب النزول للآيات المحددة، وليس إلى المفهوم النصى للكلمات والحروف، وهو الفهم الأمثل الذى أخذ به أغلب الفقهاء الثقات، وأغلب الصحابة والذى عبر عنه على بن أبى طالب عندما قال: "القرآن لا ينطق وهو مكتوب وإنما ينطق به البشر وهو حمال أوجه". لديهم هم أيضاً رصيدهم، وهم يذكرونه دوماً بأنه يستخدم العنف ضد مسلمين لا يقلل اختلافهم فى الرأى معه ومع جماعته من درجة إسلامهم.

ويردون على حجج الشيخ بالآية الكريمة: "فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر".

وبالآية الكريمة: "ليس عليك هدام، ولكن الله يهدى من يشاء".
والحديث موجه إلى رسول الله، وله أيضاً وجهت الآية الكريمة: "أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين".

وله أيضاً: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين".

ويقول الله تعالى معلماً للمسلمين: "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن".
وحتى مع الطغاة والكفار: "أذهبوا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً لينا لعله
يتذكر أو يخشى".

وأحاديث شريفة كثيرة: "لا تروعوا المسلم فإن روعة المسلم ظلم عظيم".
وحديث شريف آخر: "من أخاف مؤمناً كان على الله ألا يؤمنه من إفزاع يوم
القيامة".

وحديث شريف ثالث: "لا يشر أحدكم إلى أخيه بسلاح، فإنه لا يدري لعل
الشیطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار".

ويقول الفخر الرازي في تفسيره، إن مسلمي مكة استأذنوا الرسول (ﷺ) في أن
يغتالوا سراً عدداً من المشركين الذين أمعنوا في إيقاع الأذى بالإسلام والمسلمين
فنهاهم الرسول قائلاً "الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن" ثم نزلت الآية الكريمة
مصدقة لهذا الموقف: "إن الله يدافع عن الذين آمنوا، إن الله لا يحب كل خوان
كفور" (الحج: ٣٨)(١٠).

ومن هنا فإن الآية الكريمة والحديث الشريف يشكلان موقفاً شرعياً واضحاً
ومتكاملاً يرفض الاغتيال وكل أشكال القتل غيلة للخصوم مهما كانت خصومتهم
مع المسلمين "ويتمشى هذا الموقف مع قيم الفروسية التي ترسخت لزمن طويل منذ
الجاهلية وحتى الإسلام، والتي تتمسك بالقتال وجهاً لوجه، ولا تقر ملاحقة الهارب،
وكان الفارس الجاهلي إذا قابل خصماً صاح به قبل أن يهاجمه: خذ حذرک إني
قاتلك"(١١).

وآيات كريمة عديدة وأحاديث شريفة كثيرة، وتفسيرات ومواقف فقهية تبرئ الإسلام
من تهمة الإرهاب والاضغاث والاضغاث والاضغاث، ومع ذلك يأبى الأستاذ البنا إلا أن
يمضي في طريق الإرهاب السياسي سائراً فوق الشوك هو وجماعته.

ويختتم البنا "رسالة الجهاد" موجهاً حديثه إلى أتباعه: "أيها الإخوان إن الأمة التي
تحسن صناعة الموت وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة يهب لها الله الحياة العزيزة

والنعيم الخالد فى الآخرة، وما الوهن الذى أذلنا إلا حب الدنيا وكراهية الموت، فأعدوا أنفسكم لعمل عظيم واحرصوا على الموت توهب لكم الحياة، واعلموا أن الموت لا بد منه وأنه لا يكون إلا مرة واحدة، فإن جعلتموها فى سبيل الله كان ذلك ربح الدنيا وثواب الآخرة، فاعملوا للموتة الكريمة تظفروا بالسعادة الكاملة. رزقنا الله وإياكم كرامة الاستشهاد فى سبيله" (١٢).

ويعد.. فهذه هى نظرية الشيخ فى الجهاد فكيف كان مساره؟ والإام انتهى؟

كانت الجواله هى البداية الحقيقية.

ولقد بذل البنا من جهده واهتمامه الكثير من أجل دعم الجواله والكشافة، والحقيقة أن الهدف الأساسى للجواله لم يكن مجرد تكوين أداة ردع منظمة على أساس عسكرى وانضباط صارم، وإنما كانت الجواله أيضاً "حقلًا" تتابع فيه أعين المرشد اليقظة العناصر الأكثر حماساً والأكثر إخلاصاً والأكثر طاعة وتلقظها لتودعها فى نواة خاصة.

وقد استخدم البنا "جوالته" كما رأينا فى مظاهرات صاخبة، كثيراً ما هتفت بحياة الملك، واستخدمها أيضاً فى حراسة تجولاته ومؤتمراته واجتماعاته، واستخدمها لإرهاب الخصوم السياسيين بالقوة البدنية فى أول الأمر، ثم بالرصاص والقنابل بعد ذلك، الأمر الذى دفع حزب الوفد إلى توجيه إنذار إلى حكومة صدقى فى عام ١٩٤٦ بأنها ما لم "تحل هذه التنظيمات شبه العسكرية فإنه سوف يأخذ القضية بين يديه ويعرف كيف يسكت دعاة العنف والشغب".

والغريب فى الأمر أن وجود الجواله كان فى ذاته أمراً منافياً للقانون، ففى ٨ مارس ١٩٣٨ أصدرت حكومة محمد محمود باشا قانوناً يحظر قيام "الجمعيات أو الجماعات التى يكون لها سواء من حيث تأليفها أو عملها أو من حيث تدريب أعضائها أو نظامها أو زعيم أو تجهيزهم صورة التشكيلات شبه العسكرية" (١٣). أى "أن جواله الإخوان كانت ضد القانون العام والخاص على السواء، ومع ذلك سمح

ببقاء هذا الجيش حتى فى وقت الحرب، فى الوقت الذى طبق فيه هذا القانون على فرق القمصان الزرق (الوفد) و فرق القمصان الخضر (مصر الفتاة)^(١٤). ولعل هذا يفسر حرص الشيخ البنا على استخدام الجواله استخداماً سافراً لصالح السراى والقوى الحاكمة، إذ بدون إشعار السلطة أن الجواله فى خدمتها.. تكون هذه الفرق عرضة للإلغاء وفقاً للقانون.

ويتساءل أحمد حسين فى مرافعته فى قضية اغتيال النقراشى باشا، وهو على حق تماماً، "عن السر الذى جاز به لدى الحكومة والبوليس أن يكون لجماعة الإخوان هذا الجيش من الجواله"، ويجب بأن "حكومات الأقلية هى من شجع على تكوين هذا الجيش، وقام بتمويله، باعتباره سلاحاً ضد الوفد الذى يريدون القضاء عليه بأى ثمن، ولو بالخروج على كل قانون وكل مألوف". ويمضى أحمد حسين فى مرافعته متهماً السلطات بأنها هى التى "أسلمت هؤلاء الشباب لهذه التنظيمات، ولهذه المظاهرات العسكرية التى زاد من روعتها أنها تجرى باسم الدين"^(١٥).

ولعله من المفيد والطريف أن نمضى مع أحمد حسين فى مرافعته التى يسجل فيها أن وزارة الشؤون الاجتماعية كانت تقدم إعانات مالية لشعب جماعة الإخوان المسلمين بحجة أنها تقوم بنشاط اجتماعى، وأن الشيخ البنا قد عين فى "لجنة التعليم العليا الحكومية"، وإن مجالس المديريات والبلديات كانت تسارع فى كل مكان إلى مساعدتها، ثم يروى واقعة غريبة.. "وحدث مرة فى قسم الخليفة أن منع مأمور القسم رشيد الغمراوى جواله الإخوان من السير فى منطقته واصطدم بهم تنفيذاً للتعليمات التى كانت لديه بمنع حصول أى تجمع، ولكن السلطات عاتبت المأمور على موقفه، وسمحت لجواله الإخوان بإقامة حفل ضخم أمام مبنى قسم الخليفة كمظهر للانتصار وفرض السلطان. وعندما حلت الجماعة عام ١٩٤٨، وجد بين الأوراق المضبوطة فى دورها إخطار موجه من إحدى شعبها (شعبة المحجر) إلى المرشد العام عن إزماعه عقد اجتماع لها كل خميس ومطالبتها المرشد باتخاذ الإجراءات الكفيلة بحرية انعقاد الاجتماع، وقد أشر المرشد على الورقة "بإخطار المحافظة

وبوليس قسم الخليفة باعتماد شعبة المحجر كيلا يتعرض أحد لاجتماعها"، ويعلق أحمد حسين بأن هذه التأشيرة أشبه ما تكون بتأشيرة وزير الداخلية لا رئيس جمعية^(١٦).

ويشير أحد قادة الجماعة إلى أن البنا قد كون مجلساً أعلى للجوالة من سبعة أعضاء برئاسته وعين الصاغ محمود لبيب مفتشاً عاماً، وبدأ المجلس نشاطه بإنشاء مدرسة للمدرّبين تخرج فيها ٣٥ مدرّياً بعد شهرين، ثم انطلق هؤلاء المدرّبون يشكلون الجماعات ويدربونها، وعند نهاية الحرب بلغ تعداد الجوالة ٤٥.٠٠٠ جوال^(١٧).

وما يهمننا في هذا الصدد هو أن البنا قد اهتم بالجوالة أساساً لأنها كانت حقلاً يلتقط منه رجال التنظيم السرى، ونتوقف عند اعتراف بالغ الأهمية من عبد المجيد حسن - قاتل النقراشي باشا - أدلى به أثناء التحقيق، إذ قال: "إن انتقاله من نظام الجوالة بالإخوان إلى النظام الخاص قد تم دون أن يحس تغييراً طرأ على وضعه لاتفاق النظامين في التدريبات وأسلوب التعامل والعلاقات داخل التنظيم"^(١٨).

وتلك هي القضية الأساسية.. الجوالة كانت مجرد وعاء أو مرحلة أو مصفاة تقود الأخ الأكثر انضباطاً والأكثر طاعة والأكثر حماساً.. إلى ما سمي النظام الخاص.

ومنذ أن بدأت مرحلة التنفيذ والشيخ البنا يرقب الجيش باهتمام بالغ ويبذل جهده في النقاط أكبر عدد ممكن من الضباط وضمهم إلى صفوف تنظيم سرى في جماعته.

وإمعاناً في السرية كان الشيخ يمسك بيده زمام الأمر.

وبدأت كوادر الجماعة في النقاط مجموعات من الضباط وتقديمهم واحداً واحداً وفي سرية تامة للمرشد.

"وفي هذا الوقت كان الشاب جمال عبد الناصر يقوم بأول ارتباطاته السياسية مع شاب أزهرى يكبره في السن بسبع أو ثمانى سنوات هو أحمد حسن الباقورى (عضو جماعة الإخوان المسلمين)"^(١٩).

ومجدى حسنين يقول: "كنت حتى ١٩٥٠ معروفاً بميولى للإخوان، وليس بميولى فقط، بل كنت على علاقة وثيقة بالمرحوم حسن البنا، وكنت أدرب أعداداً كبيرة من الإخوان" (٢٠).

وكذلك حسن إبراهيم الذى يقول: "كما قمنا بالاتصال مع الإخوان المسلمين من خلال الصاغ المتقاعد محمود لبيب وكان المرحوم حسن البنا يلتقى بنا" (٢١).

وخالد محيى الدين كان على علاقة لفترة من الوقت بالشيخ حسن البنا.. ويورد أحد الباحثين قائمة بأسماء أعضاء مجلس قيادة ثورة يوليو ١٩٥٢ وانتماءاتهم السياسية فيحدد الانتماءات التالية:

- عبد الحكيم عامر: إخوان مسلمين.

- كمال الدين حسين: إخوان مسلمين.

- جمال عبد الناصر: الوفد - إخوان مسلمين.

- أنور السادات: مصر الفتاة - إخوان مسلمين (٢٢).

ولفترة من الوقت كان أنور السادات ذا علاقة وثيقة بشكل خاص مع الشيخ حسن البنا وقد تحدث عنها تفصيلاً فى كتابه "صفحات مجهولة".

كذلك كان رشاد مهنا وحسين الشافعى على علاقة بالإخوان (٢٣).

ويقول الشيخ محمد فرغلى إن جمال عبد الناصر قد سئل فى أحد الاجتماعات التمهيدية للضباط الأحرار "هل نتوقع من الإخوان خيراً؟" وأجاب عبد الناصر "نعم خير كثير" (٢٤).

ويروى خالد محيى الدين فى حديث شخصى معه أن الضباط كانوا يلحقون مباشرة بتشكيل سرى خاص وأن مراسم انضمامهم كانت توحى بالسرية المطلقة حيث تتم البيعة فى غرفة مظلمة ويقسم الضباط على مصحف ومسدس.

وبعد فترة من الوقت تباعد أكثر هؤلاء الضباط الذين لم يجدوا فى حركة الإخوان تحقيقاً لطموحهم الوطنى، وكان تباعدهم فى فترة اللقاء السافر بين الجماعة والرجعية والسراى فى عامى ١٩٤٦-١٩٤٧.

لكن الجماعة استطاعت أن تحتفظ في صفوفها بعدد وإن كان محدوداً من الضباط مستفيدة من حماس البعض منهم للحرب في فلسطين، ومن موقفها إزاء هذه الحرب، وهكذا استطاع الشيخ البنا أن يوجد لنفسه ركيزة لا بأس بها في صفوف الجيش، وثمة أسماء بارزة في هذا الصدد مثل عبد المنعم عبد الرؤوف وأبو المكارم عبد الحى ومعروف الحضرى^(٢٥).

وإذا كان أحمد حمروش يؤكد في كتابه "قصة ثورة ٢٣ يوليو" أن كثيراً من الضباط قد انفضوا عن الجماعة إبان حرب فلسطين بسبب تدخل القيادة السياسية للجماعة في التكتيكات الفنية قتالياً، ضارباً لذلك مثلاً بالشيخ محمد فرغلى الذى كان قائداً لمتطوعى الإخوان في حرب فلسطين، والذى صمم على أن يهجم الإخوان على أعدائهم متراصين سنة عن رسول الله، الأمر الذى أوقع فيهم خسائر فادحة، والذى دفع عدداً من الضباط إلى التمرد على تعليمات الجماعة والانفضاض عنها^(٢٦)، فإن بعضاً آخر يقول: إن دور الإخوان في حرب فلسطين كان سبباً في تقاربهم أكثر فأكثر من مجموعات أوسع من الضباط.

والحقيقة أن الجهاز السرى كان مكوناً من شعبتين منفصلتين تماماً، الجهاز المدنى ويسمى النظام الخاص، وجهاز الجيش والبوليس ويسمى قسم الوحدات. وكان رئيس كل تشكيل يتصل بالمرشد العام مباشرة^(٢٧).

وتتبع أهمية تشكيل الجيش من أنه كان يكفل للجهاز السرى المدنى إمدادات الذخيرة والأسلحة والتدريب، وأنه كان النواة التى يؤمل بها البنا الوثوب إلى السلطة يوماً ما، والغريب أن السلطات قد أغضت عينها أيضاً عن نشاط الإخوان في الجيش، فأنور السادات يلتقى لأول مرة بالشيخ حسن البنا عندما حضر البنا إلى أحد معسكرات الجيش ليحضر احتفالاً بذكرى المولد وألقى فيه خطاباً وافياً جذب أنظار الضباط^(٢٨).

ويضيف السماح للبنا بالنشاط المكشوف في صفوف الجيش علامة استفهام كبيرة.

والسؤال هو: ماذا كان يريد البنا من هذا النشاط المكثف في صفوف الجيش؟
والحقيقة أن هذا السؤال قد وجه في اجتماع سرى عقد في جزيرة الشاى وحضره
ضابطان أحدهما جمال عبد الناصر والآخر الصاغ محمود لبيب المستشار
العسكرى للمرشد العام، ووجه جمال عبد الناصر السؤال وأجابه محمود لبيب: "علينا
أن نبدأ فى تكوين مجموعات من الضباط ذوى الإيمان والعقيدة، وعندما يحين الحين
نبرز جميعاً فى صف واحد لنتصدى لعدونا ونمنعه من محاربة دعوتنا"^(٢٩).

لكن ذلك كله يصب ويتجه نحو ما هو أهم: "النظام الخاص" الذى اشتهر باسم
"الجهاز السرى". ورغم أن الكثير من الباحثين لا يوردون تحديداً زمنياً لقيام هذا
الجهاز، الذى قام ونشأ ونشط فى سرية تامة حتى عن قيادات الجماعة ذاتها، ورغم
أن المنشقين الأول من صفوف الجماعة فى الإسماعيلية عام ١٩٣٠ قد اتهموا البنا
فيما اتهموه بأنه يقوم "بأعمال سرية"^(٣٠). ورغم أن المؤتمر الثالث للجماعة الذى
عقد فى ١٩٣٥ قد حدد مراتب العضوية بالأخ المساعد، والأخ المنتسب، والأخ
العامل ثم الأخ المجاهد.. وأن الأخ المجاهد لم يحدد له موقع على الخريطة
التنظيمية العلنية للجماعة، بما يوحى أن "المجاهدين" قد نظموا فى الجهاز
الخاص.. إلا أن أكثر الباحثين يرجحون أن النظام الخاص قد تكون فى أعقاب
المحنة الأولى فى وقت ما بين عام ١٩٤٢ و ١٩٤٣^(٣١). ولكن الشئ المؤكد أن
"الجهاز الخاص" لم ينشأ من فراغ فلا بد أن الشيخ الذى تابع فى حرص بالغ إعداد
شباب الجماعة عقائدياً وتربوياً ورياضياً وعسكرياً، والذى حدد مرتبة فى الهيكل
التنظيمى منذ عام ١٩٣٥ هى "الأخ المجاهد"، والذى أقام نظامى الكتائب والجمالة،
والذى أعلن للإخوان أنهم: سيخاصمون هؤلاء جميعاً (أى كل الساسة المصريين)..
أقول لا بد أنه كان وعلى أمد طويل يلتقط من هنا وهناك النماذج التى يريد لها جهازه
الخاص.

والحقيقة أن البنا كان حريصاً على "السرية" التامة فى تحركاته هذه، وكان يعتقد

أن الدعوة يتعين عليها أن تتحقق بالسرية حفاظاً على صمودها وضماناً لاستمرارها^(٣٢).

وقد رأينا كيف هدد البنا المنشقين عنه في عام ١٩٣٨ وتوعدهم إذا ما أفسحوا "أسرار" الجماعة.

ويلاحظ أن نشأة "النظام الخاص" قد صاحبها إحداث تغييرات جذرية في الهيكل التنظيمي للجماعة، الذي تقرر أن يسير في ثلاثة خطوط متوازية كل منها له أسلوبه وقواته ومنهاجه وقيادته:

- نظام الأسر: ويضم الأعضاء العاديين، وهو الوعاء الأساسي لعضوية الجماعة.

- نظام الجواله: ويضم الأعضاء الأكثر حماساً والأكثر استجابة والأكثر طاعة.

- النظام الخاص: وهو جهاز سرى مطلق السرية يتكون من شعبتين: التشكيل المدني وقسم الوحدات.

ويتبع الجهاز السرى عددًا من التشكيلات المتخصصة مثل "جهاز التسليح" و "جهاز الأخبار" ويعتبر الأخير بمثابة جهاز المخابرات الخاص للجماعة، وقد استخدم في الفترة الأولى للتسلل إلى صفوف التنظيمات الشيوعية وجمع أكبر قدر من المعلومات عنها^(٣٣).

وقد وضع البنا واحداً من أخلص خلصائه على رأس هذا الجهاز هو "عبد الرحمن السندی"، وكان محمود عبد الحليم قد تولى رئاسة الجهاز في البداية ثم تنحى عنها.

وينقسم "النظام" إلى "جماعات"، الجماعة مكونة من خمسة أشخاص، والشعبة بها عدة جماعات وكل جماعة يرأسها مسئول وتندرج على نظام هرمي يرأسه عبد الرحمن السندی، ومعظم هذا النظام في القاهرة، وقد توجد مراكز أو مناطق إدارية تخلو من هذا النظام مثل أسوان، وذلك لأنها بعيدة ولا يتيسر لها فهم أغراضه^(٣٤).

ويتدرب أعضاء الجهاز تدريباً عسكرياً قاسياً وعنيفاً ويعتادون الطاعة التامة والاستعداد للتضحية، "وبعد أن ينتهى التدريب يقسم العضو يمين البيعة: أقسم بالله العظيم أن أكون حارساً أميناً لمبادئ الإخوان مجاهداً فى سبيل الله على السمع والطاعة فى المعروف، وأن أجاهد نفسى ما استطعت" (٣٥).

وفى المراحل الأولى كان قسم البيعة يتم وفق مراسم خاصة (فى حجرة شبه مظلمة مفروشة بالحصير ويتم القسم على مصحف ومسدس) وكان يكتسب "مذاقاً" خاصاً إذ كان يتم عادة بين يدى الشيخ البنا نفسه.

ويتباهى أحد قادة الجهاز السرى "هنداوى دوير": "أنا أقسمت لحسن البنا شخصياً" (٣٦).

وقد منح البنا جهازه الخاص دفعة قوية واهتماماً زائداً فى أعقاب خروج د. إبراهيم حسن والسكرى وأتباعهما على الجماعة وتساعد هجماتهم على ديكتاتورية المرشد واستبداده وحده بالرأى، ولعله بذلك قد أحس بحاجته إلى جهاز محكم التصميم يتغلغل به نفوذه الشخصى فى كل أنحاء الجماعة، ولعل الجهاز كما أشار الكثيرون كان أيضاً لردع المعارضين فى الداخل كما كان أداة لحماية الدعوة وإرهاب خصومها.

وكان عضو الجهاز السرى يربى تربية خاصة، ويتم الهيمنة عليه عقائدياً بحيث تسيطر عليه فكرة "الجهاد" و"الشهادة فى سبيل الله"، وقد حرص البنا دوماً على أن يربط بين فكرة الجهاد وفكرة الموت فى سبيل الله. معلناً أن النهاية المثلى - والتي لا يوجد أفضل منها - هى الاستشهاد. ولعل المتابعة الدقيقة لكتابات الشيخ البنا تلاحظ استخدامه تعبيرات غريبة فى هذا الصدد.

ففى عام ١٩٣٧ كتب البنا مقالاً عن الجهاد أسماه "صناعة الموت"، وفى أوج نشاط الجهاز السرى وقوته أعاد البنا نشر المقال بعد أن غير العنوان ليصبح أكثر غرابة "فن الموت" (٣٧).

وهكذا، وبعد أن يتقن عضو الجهاز السرى "فن الموت"، يتقدم للعمل، فيقول

"محمود عبد اللطيف"، أثناء محاكمته بتهمة محاولة اغتيال "جمال عبد الناصر":

- المدعى: فهمت إيه الفكرة من النظام السرى؟

- المتهم: الفكرة هى الجهاد فى سبيل الله ودراسة القرآن والسيرة .. ده اللى فهمته.

- المدعى: الغرض منه إيه؟

- المتهم: الغرض منه محاربة أعداء الدعوة الإسلامية.

- المدعى: ما تعرفش الخطة، إنت رايح تقتل الرئيس مفكرتش تعمل إيه علشان تهرب؟

- المتهم: لا مفكرتش. وهنداوى قال لى الحرس بعد كدة سيطلق عليك النار وتموت .

- المدعى: كنت عارف أنك رايح تموت؟

- المتهم: أيوه.

- المدعى: مفكرتش فى طريقة للهرب؟

- المتهم: "لا" (٣٨).

ويلاحظ أيضاً أن الشيخ البنا قد بدأ على أثر تكوين الجهاز السرى فى إعداد بناء فكرى متكامل يضع عضو الجهاز السرى وجهاً لوجه أمام ما أسمى "بمشروعية الجهاد" التى تفرض على المسلم أن يقاتل كل من يعترض سبيل الدعوة، وكانت قمة نجاح البنا كداعية وكمُنظم أنه قد استطاع أن يغرس فى نفوس أعضاء هذا الجهاز أن الموت فى سبيل الدعوة سهل وبسيط ومرغوب فيه، وأن المؤمن المجاهد يخطو خطوة رائعة واحدة تنقله من حياة فانية إلى حياة باقية ينعم فيها بالجنة التى وعد بها الشهداء (٣٩).

وأعد البنا البرنامج الدراسى الجديد لإخوان الأسر وفقاً لهذه الفكرة وفى إطارها، كذلك كانت الاحتفالات الإسلامية مثل ذكرى "غزوة بدر" وغيرها، مناسبات مهمة لتكريس هذه الفكرة وغرسها باستمرار فى نفوس أعضاء الجماعة، وكان البنا يلح

دائماً على إقناع أعضاء الجهاز السرى بأنهم "جند الرحمن وحماة دينه" وأن على أكتافهم "وحدهم" سيكون خلاص الوطن الإسلامى والعقيدة الإسلامية، أليسوا هم "جماعة المسلمين" و"أهل الحل والعقد فى الإسلام".

هكذا تكون الجهاز، وبهذه المنطلقات تواجد واتسع ليصبح فى عام ١٩٤٨ مكوناً من حوالى ١٠٠٠ عضو^(٤٠) منظمين تنظيمياً غاية فى الدقة، مسلحين تسليحاً عالى الكفاءة، فى سبيل الدعوة وفى سبيل أداء ما يؤمرون به من مرشدهم.

ألم يقسموا له يمين الولاء؟ ألم يبايعوه على الطاعة التامة فى المنشط والمكره؟ وإذا كان النظام الخاص سرى، فقد ظل سرىاً حتى بالنسبة لقيادة الجماعة ذاتها. يقول أحد قادة الجهاز إبراهيم الطيب فى اعترافاته أمام المحكمة: "مكتب الإرشاد لم يكن يتعرض لمثل هذه المسائل (النظام الخاص) لأنها كانت تفهم على أساس المعمول به فى أيام الشيخ حسن البنا فكان ليس له (مكتب الإرشاد) أن يتدخل فى المسائل التى تعتبر مش من اختصاصه"^(٤١).

بل إن الكثيرين من هؤلاء القادة لم يكونوا يعلمون أصلاً بأمر وجود مثل هذا الجهاز إلا بعد أن نشأ بفترة طويلة. ويستفيد الدكتور خميس حميدة وكيل جماعة الإخوان فى اعترافاته أمام المحكمة من هذه الحقيقة فيزعم:

- المدعى: إيه مركزك فى الجماعة؟

- الشاهد: وكيل الإخوان المسلمين.

- المدعى: إيه معلوماتك عن النظام الخاص؟

- الشاهد: أيوه يا افندم دخلنا الإخوان المسلمين حوالى سنة ١٩٣٩-١٩٤٠

وبعد فترة لغاية سنة ١٩٤٦ فهمت من الأستاذ حسن البنا أن هناك شباباً من الإخوان يتدربون على السلاح.

وحيث إن التدريب لا يبيحه القانون فكانوا يأخذون بعضاً فى أماكن بعيدة فى قرى الصعيد أو فى المقطم ويتدربون، وهناك يجيلهم بعض ناس يفهمون فى هذه الأمور ويدربونهم سرّاً"^(٤٢).

ولأننا اعتدنا على أن الإخوان قيادة وقاعدة يقولون عند كل مأزق بغير الحقيقة، فإننا لا ندهش إذ نكتشف أن د. خميس حميدة كان يحاول أمام المحكمة أن ينفذ بجلده شخصياً وعلى حساب الحقيقة.

"الأستاذ محمود الصباغ أحد مؤسسي "النظام الخاص" يقول إن قادة "النظام الخاص" كانوا عشرة، خمسة من قيادة "النظام" وخمسة من قيادة "الجماعة" والخمسة الممثلون لقيادة الجماعة، بل لكبار قادتها هم "صالح عشاوى" - د. محمد خميس حميدة - الشيخ محمد فرغلي - د. عبد العزيز كامل - د. محمود عساف"^(٤٣).

كذلك كان د. خميس حميدة واحداً من اللجنة التي حاکمت (رقم ١) في الجهاز السرى لأنه أمر بتنفيذ عملية اغتيال المستشار "الخازندار" دون إذن من المرشد"^(٤٤). والحقيقة أن الإخوان جميعاً قد اتخذوا من موضوع "النظام الخاص" موقف الإنكار لمجرد وجوده، وظل الأستاذ حسن البنا ينفي دوماً مجرد وجود هذا الجهاز، ونقدم بعضاً من أمثلة، مؤكدين أنها مجرد قطرات من بحر لا ينفد من الأكاذيب - فعندما صدر قرار حل الجماعة في ٨-١٢-١٩٤٨ أرفقت به مذكرة تفسيرية، تضمنت بضعاً من الاتهامات ضد الجهاز الإرهابي للجماعة، ورد عليها الأستاذ البنا في كتيب أسمى "قول فصل" .. وسنقارن ما قاله البنا بما قاله فيما بعد بعض من تلاميذه بحثاً عن مدى الصدق في تراث هذه الجماعة.

- جاء في المذكرة التفسيرية: "كما وقعت بتاريخ ٢٤ ديسمبر ١٩٤٦ حوادث إلقاء قنابل انفجرت في عدة أماكن وضبط من مرتكبيها اثنان من هذه الجماعة، وأدين أحدهما"^(٤٥).

ويرد حسن البنا على هذا الاتهام قائلاً: "والشخص الذي أدين بمناسبة حوادث ٢٤ ديسمبر ١٩٤٦، لم يثبت أنه أمر بهذا من قبل الإخوان أو اشترك معه أحد منهم فتحميل الهيئة تبعة هذا التصرف لا حق فيه ولا مبرر له"^(٤٦).

ويشاء الله أن يأتي واحد من قادة الجهاز الإرهابي وأحد أقرب المقربين من الأستاذ البنا ليصدر كتاباً - فيما بعد - يتباهى بأن هذه العمليات بذاتها "تمت بتدبير

من الجهاز السرى، وأن جميع مرتكبيها كانوا أعضاء فيه" (٤٧).

وتتحدث المذكرة التفسيرية عن محاولة نسف فندق الملك جورج بالإسماعيلية واتهام أحد الإخوان فيها. ويرد الأستاذ البنا وعلى غير الحقيقة: "ثبت أن الذى اتهم فيها غير مسئول عن عمله وسقط الاتهام عنه، فهل تكون الجماعة مسئولة عن عمل شخص تبين أنه هو نفسه غير مسئول عن عمله؟" (٤٨).

لكن الأستاذ صلاح شادى رئيس قسم "الوحدات" وهو الجناح الإرهابى الخاص بضباط الجيش والبوليس يكذب قول المرشد العام إذ يقول الحقيقة متباهياً بها: "والنقى أمرنا داخل قسم الوحدات على القيام بعملية إرهاب داخل فندق الملك جورج، وكلفنا الأخ رفعت النجار من سلاح الطيران بالقيام بهذه العملية، بأن يحمل دوسيتها به مادة ناسفة يشعلها ثم يتركها فى ردهة الفندق"، ولكن الدوسية ينفجر فى يد الإرهابى ويصاب ويقبض عليه، ولما كانت التهمة ثابتة عليه تماماً فقد قررت الجماعة التحايل كعادتها: "وأحضرنا له بعض الإخوة المحامين الذين دفعوا بأن قدراته النفسية والعقلية لا تضعانه فى مستوى المسؤولية الجنائية" (٤٩).

أما حادث اغتيال المستشار الخازندار، فإن الأستاذ حسن البنا يدفع التهمة عن الجماعة أصلاً: "فكل ذنب الإخوان فيه أن أحد المتهمين شاع أنه سكرتير المرشد العام"، مجرد "شاع" فقط، وقد طالعنا من قبل كيف أن الأستاذ البنا رأس لجنة التحقيق وتيقن من أن جهازه الإرهابى هو الذى فعلها، وأن قرار الاغتيال اتخذه "رقم ١" فى الجهاز الأستاذ عبد الرحمن السندى.

وهم جميعاً كذلك، يكذبون وينسون الحقيقة عندما يصل الحديث إلى موضوع الجهاز السرى، فالمرشد العام الثانى المستشار حسن الهضيبي وإذا عرض عليه رأى يقول إنه لا يجوز أن يعمل فى الجهاز السرى أشخاص سبق القبض عليهم لأنهم أصبحوا مكشوفين لأجهزة الأمن، وافق وتحمس لذلك حفاظاً على سرية الجهاز الإرهابى. ثم ماذا؟ "واقترح المرشد بهذا الرأى، وبدأ يحكم خطوة بالإعلان عن عدم وجود هذا النظام داخل الجماعة. وفى نفس الوقت أبقى عليه، وعين يوسف طلعت

مسئولاً عن الجهاز" (٥٠).

وندقق العبارة مرة أخرى.. بدأ يحكم خطوة بالإعلان عن عدم وجود هذا النظام.. وفي الوقت نفسه أبقى عليه. هل تحتاج عبارة كهذه إلى وصف أو تعليق؟ بل إن كتابات رجال الجهاز الإرهابي تقول إن عدد أعضاء الجهاز عند حل الجماعة عام ١٩٤٨ كان ١٠٠٠ عضو، وعدده بعد أن أعلن المستشار الهضيبي "عدم وجوده" وصل إلى ١٣٠٠ عضو.

إنها الأكاذيب تلو الأكاذيب بحيث لا يكاد المرء يجد ما يصدقه في تأكيداتهم.

وكان التمسح في القضية الفلسطينية فرصة سانحة لتكوين هذا الجيش الإرهابي وتدريبه وتسليحه (تماماً كما فعل المتأسلمون المحدثون بحجة مساندة شعب أفغانستان).

وقد قرأنا في صفحات سابقة كيف قبض على بعض أعضاء الجهاز الإرهابي وهم يتدربون على السلاح في منطقة المقطم، وكيف اتخذوا من حرب فلسطين غطاءً كاذباً.

والحقيقة أن الشيخ حسن البنا قد استخدم بمهارة فائقة الشعور العربي والإسلامي المتصاعد عطفاً على الفلسطينيين فاعتلى الموجة لتعزيز وتسليح جهازه السري. وقد أدرك البنا هذه المسألة في وقت مبكر واستغلها منذ أحداث عام ١٩٣٦ في فلسطين؛ "فقد اعتبرها فرصة سانحة، ووجد فيها ضالته للعمل والتوسع، الأمر الذي أكسبه إعجاب الفلسطينيين والعرب المساندين لهم، وعطف مفتى فلسطين الحاج أمين الحسيني" (٥١).

وقد رأينا كيف قام مفتى فلسطين بحماية رجال الجهاز الإرهابي الذين قبض عليهم في المقطم، والادعاء على غير الحقيقة بأنهم متطوعون لحرب فلسطين. وما يعنينا في هذا الأمر هو أن القضية الفلسطينية قد أتاحت إمكانيات عدة أمام الإخوان، فمن خلال تأييدها اتضح البعد الإسلامي والعربي للجماعة، ومن خلالها

أيضاً أمكن للجماعة أن تمد نشاطاتها إلى المنطقة العربية كلها وانتشرت شعبيتها من فلسطين إلى سوريا إلى لبنان إلى غيرها من البلدان، لكن أكثر ما يعنينا في هذا المقام هو أن مساندة الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ ثم الاستعداد للمشاركة في حرب فلسطين ١٩٤٨ كانا الفرصة الذهبية أمام الشيخ البنا ليحشد ترسانة ضخمة من الأسلحة ويدرب رجاله علناً تحت ستار الإعداد لحرب فلسطين، مستفيداً في ذلك كله من تيار قومي جارف^(٥٢).

وفي المحاكمات التي جرت لأعضاء الجماعة عام ١٩٥٤ قيل الكثير حول تصرفات غير سليمة في الأموال التي جمعت باسم الجهاد في فلسطين، وحول تجميع السلاح بحجة حرب فلسطين ثم تخزينه في مخازن الجهاز السري واستخدامه في عمليات الإرهاب الداخلي^(٥٣)، ولأن الاتهامات بغير أدلة أو لأنها اعترافات قد تكون أنت تحت التعذيب فإننا لا نوردها ولا نعتد بها.

وعلى أية حال فإن حرب فلسطين التي كانت سبباً في كسب سياسى ضخم للجماعة، كانت هي بذاتها واحدة من أسباب محنتها الكبرى.

فإن هذه الحرب قد أوضحت - لكل من لم يكن يعرف - أن الجماعة تمتلك جيشاً مسلحاً بالفعل وأن هذا الجيش إذ يقاتل في فلسطين فإنه يمكنه أن يقاتل في مكان آخر، وربما في مصر.

ويقول أحمد حسين إن حرب فلسطين قد أمدت الإخوان "بفرصة ذهبية لحشد السلاح والتمرين على استعماله بدعوى أنه من أجل فلسطين"، وأن الإخوان "كان لديهم كميات من الأسلحة والذخائر جمعوها تحت ستار تجهيز المتطوعين إلى فلسطين وهم يعدونها لإحداث انقلاب في مصر بالقوة"^(٥٤). ويقول د. محمد حسين هيكل إنه خلال حرب فلسطين "قويت شوكة جماعة الإخوان فأصبحوا قوة يخشى بأسها"^(٥٥).

"وعندما صدر قرار حل الجماعة وقع المتطوعون من الإخوان في فلسطين في مأزق. فقد حاصرت مواقعهم قوات الجيش وخبرهم رئيس الأركان اللواء فؤاد صادق بين إلقاء السلاح والعودة لمصر أى للمعتقلات أو الخضوع للتام لقواته، وكان المتطوعون قد

تلّقوا رسالة من البنا يلح عليهم فيها الخضوع للنظام وعدم التصادم فاخترار أغلبهم هذا الحل، ويقوا فى فلسطين وأرسلوا إلى معسكرات الاعتقال فى الطور وهايكستب^(٥٦). ولنعد إلى الجهاز السرى مصدر قوة الشيخ ومصدر ضعفه، حلمه القديم، وكابوس الجماعة فى المحنة. ولنقلب صفحات هذا الجهاز بحثاً عن الفهم العملى لدى أعضائه عن فكرة الجهاد^(٥٧).

الهوامش:

- (١) النذير - العدد الأول - ٣٠ ربيع الأول ١٣٥٧ هـ.
- (٢) إسماعيل أحمد شافعى - الإخوان المسلمون - دعوة البعث والإنقاذ - مقتطفات من رسائل وخطب المرشد العام - مطبعة العميرى - بنى سويف - ص ٣.
- (٣) عبد الحكيم عابدين - البواكير - مجموعة شعرية - دار الصاوى للطبع والنشر - ص ٤٠.
- (٤) لطفى عثمان - المرجع السابق - ص ٩٠.
- (٥) حسن البنا - الرسائل الثلاث - ص ٦.
- 6) Michell - Ibid - P.319
- (٧) مجلة الدعوة - غرة جمادى الأولى - أبريل ١٩٧٧ - مقال د. يوسف القرضاوى: عنوان الجهاد فى الإسلام.
- (٨) حسن البنا - رسالة المؤتمر الخامس - ص ٦٣.
- (٩) حسن البنا - الرسائل الثلاث - ص ٩٣.
- (١٠) الفخر الرازى - التفسير الكبرى.
- (١١) هادى العلوى - الاغتيال السياسى فى الإسلام - بيروت ١٩٨٧ - ص ١٥.
- (١٢) حسن البنا - رسالة الجهاد - دار الكتاب العربى - القاهرة - ص ٣٧. وحول هذا الموضوع راجع أيضاً:
 - . محمد فهمى الطماوى - المجاهدين - القاهرة ١٩٥٢.
 - . أحمد نادر - القتال فى الإسلام - القاهرة ١٩٥٢.
 - (١٣) قانون رقم ١٧ لسنة ١٩٣٨.
 - (١٤) د. عبد العظيم رمضان - المرجع السابق - ج ٢ - ص ١٢٧.
 - (١٥) مرافعة أحمد حسين - المرجع السابق - ص ٤٢.
 - (١٦) المرجع السابق - ص ٤٢.
 - (١٧) عبد الغنى عابدين (السكرتير العام المساعد لجمعية الكشافة المصرية ووكيل عام جواله الإخوان المسلمين) - تقرير عن النشاط الكشفى لجماعة الإخوان المسلمين.
- 18) Lacouture, Jean -Nasser - New York -1973 -P.28.
- (١٩) جمال الشرقاوى - حريق القاهرة - دار الثقافة الجديدة - 1976 شهادة مسجلة لمجدى حسنين.
- (٢٠) روزاليوسف - ١١/٤/١٩٧٧ أحمد حمروش: اعترافات شهود يوليو.
- 21) Vatikiotis - Egyptian Army in Politecs - Ibid - P.47.
- 22) Michell - Ibid - P.89
- (٢٣) المصور - ٣١/١٠/١٩٥٤ مقالات للأستاذ حلمى سلام : قصة ثورة الجيش من المهد إلى المجد.
- (٢٤) محكمة الشعب - الجزء الرابع (محكمة محمود عبد اللطيف) شهادة محمد محمد فرغلى - ص ٧٦٦.
- (٢٥) أحمد حمروش - قصة ثورة ٢٣ يوليو - ج ١ - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت.
- 26) Khadduri - Ibid - P.76

(٢٧) محكمة الشعب - الجزء الثاني - شهادة السيد حسين أبو سالم - ص ٣٤٧.

(٢٨) حتى يعلم الناس : وهو كتيب أصدره قادة الإخوان في الأردن والعراق والسودان يحددون فيه مواقف الإخوان من ثورة يوليو - ١٩٥٤.

29) Michell - Ibid - P.29

30) Michell - Ibid - P.30

31) Ibid - P.30

(٣٢) أحمد أنس الحجاجي - الرجل الذي أشعل الثورة - ص 16-35 .

33) Michell - Ibid - P.31

(٣٤) محكمة الشعب الجزء الأول - المرجع السابق - شهادة هندواى دوير - ص ٣٢.

(٣٥) المرجع السابق - ص ١٢٦.

(٣٦) ثمة كتابات كثيرة عن الجهاز السرى ومهامه وأساليب عمله كلها تقريباً بمنهج معاد مثل:

- محمد التابعي - هؤلاء هم الإخوان - القاهرة ١٩٥٤.

- كمال كيره - محكمة الشعب.

- جرائم عصابة الإخوان (سلسلة كتب قومية). ويلاحظ افتقاد هذه الكتب جميعاً للبعد الأكاديمي والموضوعية في العرض والتحليل.

ثم أصدر عدد من الإخوان كتباً تمجد هذا الجهاز وتمجد ما قام به من أعمال ومنها:

- محمود عبد الحليم - الإخوان المسلمون - أحداث صنعت التاريخ - رؤية من الداخل - ثلاثة أجزاء.

- محمود الصباغ - حقيقة النظام الخاص ودوره في دعوة الإخوان المسلمين - ١٩٨٩.

- صلاح شادى - حصاد العمر - ١٩٨٧.

- أحمد عادل كمال - النقط فوق الحروف - الإخوان والنظام الخاص.

- عبد المنعم عبد الرؤوف - أرغمت فاروق على التنازل عن العرش.

وقد حفلت بالكثير عن نشاط النظام الخاص، ويلاحظ أن كلا منهم قد حاول أن يتسبب لنفسه دوراً كبيراً وربما مبالغاً فيه في الأعمال الإرهابية التى قام بها هذا الجهاز. الأمر الذى كشف كثيراً من العمل الإرهابى الذى سبق للجماعة ولالأستاذ البنا على وجه الخصوص أن أنكر علاقة الجماعة به. ثم أتت هذه الكتب لتقدم الدليل على عدم صحة هذا الإنكار.

(٣٧) الإخوان المسلمون ١٩٤٦/٨/١٦ - مقال للأستاذ حسن البنا بعنوان "قن الموت".

(٣٨) محكمة الشعب - الجزء الأول - المرجع السابق - ص ١١.

(٣٩) راجع فى هذا الصدد - محمد لبيب البوهى - مع شهداء الإسلام - القاهرة ١٩٥٢.

40) Michell - Ibid - P.205

(٤١) محكمة الشعب - الجزء الثالث - شهادة إبراهيم الطيب - ص ٥١٦.

(٤٢) محكمة الشعب - شهادة د. محمد خميس حميدة - ص ٥٥٧.

(٤٣) محمود الصباغ - حقيقة النظام الخاص ودوره في دعوة الإخوان المسلمين ١٩٨٩ - ص ٨١.

(٤٤) المرجع السابق - ص ٢٦٥.

(٤٥) قرار حل جماعة الإخوان المسلمين ١٩٤٨/١٢/٨ - المذكرة التفسيرية.

(٤٦) حسن البنا - قول فصل.

- (٤٧) أحمد عادل كمال - النقط فوق الحروف - ص ١٤٤.
- (٤٨) حسن البنا - المرجع السابق .
- (٤٩) صلاح شادى - حصاد العمر - المرجع السابق - ص ٣٣٩.
- (٥٠) صلاح شادى - المرجع السابق - ص ١٣٢.
- 51) Harris, Christina- Ibid -P.182
- (٥٢) لمزيد من التفاصيل حول دور الإخوان فى ثورة ١٩٣٦ بفلسطين . راجع :عبد الباسط البنا - تاج الإسلام وملحمة الإمام - القاهرة ١٩٥٢ - ص ٣٧.
- (٥٣) الجمهورية - ١٩٥٤/١١/٢٢ .
- (٥٤) أحمد حسين - واحتترقت القاهرة - ص ٣١٣-٣١٥.
- (٥٥) د.محمد حسين هيكل - مذكرات فى السياسة المصرية - ج ٢- ص ٣١٥.
- (٥٦) كامل إسماعيل شريف - الإخوان المسلمون فى حرب فلسطين - ط ٢ - ص ١٤٦ ١٨٥.
- (٥٧) لمزيد من التفاصيل عن نشأة الجهاز السرى وأساليب عمله وما قام به من أعمال راجع: الجزء الأول من هذه الدراسة، والمرجع السابق.

الفصل السابع

العنف المتبادل

وفى السياسة كما فى القصص الخرافية يحدث أن الصياد يخرج بيده المارد من القمم ثم يخشاه، وهكذا كان الأمر فى العلاقة بين القصر وحكام الأقلية وبين الشيخ البنا وجماعته.

لقد أطلق الصياد المارد ليخيف به الوفد وقوى اليسار وليستخدمه كأداة لحشد بعض القوى الجماهيرية تأييداً لسياسة ما كان لها أن تجد مؤيدين، فإذا ما انتصب الشيخ قائماً، وإذا ما استمد من سنده الدينى شموخاً، ومن تسليح جهازه السرى قوة، بدأ الصياد رحلة الخوف.

وبدأ يشعر أن الوفد يمكن التعامل معه بهذه الوسيلة أو تلك، وأن المعتقلات التى فتحت مصاريعها - بمباركة من الإخوان - لتستقبل الشيوعيين والتقدميين يمكن أن تلجم اليسار ولو مؤقتاً، لكن الجماعة المسلحة تبقى مشكلة بغير حل. وأصبح الشيخ المسلح مخيفاً حتى بالنسبة للرجعيين الذين أيدوه وأمدوه بالمال وتغاضوا عن تسليحه وتسليحه، وعن أشياء أخرى كثيرة، وكبار الملاك وكبار الرأسماليين الذين قبلوا من الإخوان تأسلمهم السلاح وهجومهم على التقدم، ودعوتهم للعمال بالتزام الخلق القويم، وعدم اللجوء إلى الإضراب، كانوا فى نهاية الأربعينيات فى حالة من الذعر البالغ دفعتهم إلى موقف متشنج يرفض أية دعوة إصلاحية أو حتى الحديث عنها همساً.

والإخوان المسلمون مطالبون فى نهاية الأمر بأن يقولوا ولو كلمة واحدة عن الأغنياء والفقراء، ولعلمهم قالوها بصورة واهنة ووضعوها بأسلوب حاولوا ألا يغضب أحداً "إن مهام جماعتنا التوسط بين الأغنياء الغافلين، والفقراء المعوزين بتنظيم الإحسان وجمع الصدقات لتوزع فى المواسم والأعياد"^(١).

وكلمات كهذه لا ترضى الفقراء ولعلها لا تحل مشاكلهم، لكنها أيضاً تغضب

"الأغنياء الغافلين" خصوصاً إذا ما كانوا ضيقى الأفق بطبعهم، وتفرض عليهم تطورات الصراعات المزيد من ضيق الأفق.

ويصرخ الباشا فى إحدى الروايات ساخطاً: "أنا عارف كويس اللي باقوله.. معندناش وقت للمناورات.. دى حاجات أكبر مننا كلنا.. بييجى أى واحد للحكم.. صاحبي ولا عدوى .. بس يخلصنا من المجرمين دول.. البلد بقت وسخة.. مليانة غش.. شيوعية على إخوان مسلمين على اشتراكية.. على وطنية .. على هباب أزرق .. صعاليك فاضيين ما عندهم حاجة يخافوا عليها .. حيخسروا إيه .. إحنا اللي حنسخر كل حاجة"^(٢).

ولعله يبدو غريباً أن يلجأ البحث الأكاديمي إلى استشهادات من قصص وروايات، لكن العبارة السابقة بالغة الدلالة. فهي تجسد فهم حكام مصر فى مرحلة فشلت فيها كل مناوراتهم وتصوروا أنه لا مخرج إلا عدوهم (الوفد) فالوفد خير من الثورة، وخير من الإخوان أصدقاء الأمس الذين يتمردون معتزين الآن بقوتهم وجيشهم المسلح.

وكانت حرب فلسطين سبباً آخر .

فقد باركت الرجعية المصرية الحرب فى فلسطين وشاركت فيها، وشجعت الإخوان على خوضها، وربما كانوا يأملون أن يكتفى الإخوان بخوضها "شعارات وكلمات" فإذا ما انقلبت الأمور جداً، وإذا أصبحت الحرب الفلسطينية تضع النظام فى مأزق غريب بين مناورة صنعها بيده ليسكت بها صوت المعارضة الشعبية ويمتصها فى منحنيات جانبية، وبين خشيته من تحدى قوى الاحتلال (السيد القديم)، وقوى الاستعمار الأمريكى (السيد الجديد والقابض على عنق السيد القديم) كان لا بد من أن تتحول الحرب الفلسطينية إلى مسرحية، وعلى خشبة المسرح لا يسمح مطلقاً لأى من الممثلين بأن يقلب المشاجرات المسرحية إلى صدام جاد.

وقد بدأت بوادر الصدام فى هذا الصدد "عندما رفض النقراشى سفر المتطوعين من أعضاء الجماعة إلى الجزء الشمالى من صحراء النقب فتسللت مجموعات منهم

إلى فلسطين من سيناء وبدأوا القتال الفعلى ومهاجمة المستعمرات اليهودية فى فبراير ١٩٤٨".

والإنجليز الذين هادنوا الشيخ وهادنهم يخونون العرب والإسلام فى فلسطين خيانة تجرح وتخرج كل من والاهم. ويدخل الميدان عنصر جديد.

فى فبراير ١٩٤٨ تهتز الرجعات العربية كلها إذ تقع محاولة انقلاب فى صنعاء ضد نظام الإمامة المتخلفة ويقتل الإمام وثلاثة من أبنائه.

ولقد هزت المحاولة الرجعات العربية جميعاً، التى كانت ترى فى أية محاولة للتغيير العنيف عدوى يمكن أن تنتشر على أرضها. ولقد دهش الجميع عندما وجدوا أن "أصابع" الإمام البنا ممتدة بعيداً حتى صنعاء، وعندما أعلنت جماعة الإخوان نفسها شريكاً فى الصراع اليمنى ووسيطاً بل وحكماً يملئ شروطه، ويتقدم بمطالب إصلاحية ويحدد المناصب التى يجب أن توزع على قادة الانقلاب الذين اتضح للجميع أنهم كانوا على علاقة وثيقة بالشيخ البنا، وهو أمر لم يحاول الشيخ أن يخفيه، بل لعله - فى بعض الأحيان - تعمد الزهو بهذه الحقيقة^(٣).

والحقيقة أن علاقة البنا باليمن علاقة قديمة، فعندما عقد فى لندن مؤتمر لبحث القضية الفلسطينية عام ١٩٣٨، أوفد الإمام يحيى ابنه سيف الإسلام أحمد ، وسيف الإسلام عبد الله، وأوفد البنا مع الأميرين واحداً من الإخوان يجيد الإنجليزية هو الأستاذ "محمود أبو السعود" ليكون سكرتيراً ومترجماً لهما. وحين أوفدت اليمن القاضى "حسين الكبسى" لحضور الجلسات التمهيدية لإنشاء جامعة الدول العربية عام ١٩٤٤ حرص الأستاذ البنا على الاتصال به بشكل دائم، كذلك اتصل طلاب الإخوان بناء على تعليمات محددة من المركز العام للجماعة بالطلاب اليمنيين الذين وفدوا لتلقى العلم بالقاهرة^(٤).

ويقول الأستاذ محمود عبد الحليم الذى وصفناه دوماً بأنه المؤرخ المعتمد للجماعة: "أستطيع أن أقرر أن فكرة إعداد الشعب اليمنى للثورة قد نبتت فى المركز

العام للإخوان" (٥).

ويقول أحد الباحثين في حركة المعارضة اليمنية: "ومن خلال الطلاب اليمنيين تحققت علاقة الإخوان بحركة المعارضة اليمنية، وترجع بداية هذه العلاقة إلى أواخر الثلاثينيات وقد التقى حسن البنا في أحد مواسم الحج بالمعارض اليمني "عبد الله الشماحي"، وتلازما طوال رحلة الحج في مكة والمدينة، واتفقا على التعاون بين الإخوان والمنظمات الدينية في اليمن، ووعده البنا بمساعدة الإخوان للعمل الوطني في اليمن" (٦).

لكن الأستاذ البنا كعادته دوماً يناور بين الأطراف جميعاً، فعندما حضر إلى القاهرة حفيد الإمام يحيى الأمير "سيف الإسلام البدر" للعلاج، وثق البنا علاقته به، ودعاه وعدد من طلاب الإخوان لقضاء يوم في الفيوم. وحرص البنا على أن يصحبه طوال هذه العلاقة الحميمة مع الأمير اليمني المجاهد الجزائري "الفضيل الورتلاني"، فلما تيقن من توثق العلاقة بينهما قرر أن يقيم موضع قدم إخوان في اليمن فسافر الورتلاني يرافقه د. أحمد فخرى كممثلين لشركة محمد سالم (أحد الرأسماليين الإخوان وزوج السيدة زينب الغزالي) وكان ذلك في أبريل ١٩٤٧.

وتنشر جريدة الإخوان تقريراً عن الوضع في اليمن بمقدمة حرص البنا على توقيعه بنفسه، وقال فيها: "إن العالم العربي والإسلامي كله رجاء في أن يسرع جلالة الإمام - مؤيداً مشكوراً - بإقرار النواحي الإصلاحية الإدارية والاقتصادية والاجتماعية التي تنهض بشعبه حتى لا يدع ثغرة ينفذ منها الاستعمار الأجنبي" (٧). ونشط الورتلاني تحت غطاء النشاط التجاري لشركة محمد سالم متقللاً في أرجاء اليمن دون أن يثير أى شكوك لدى الإمام، واستطاع الربط بين المعارضة اليمنية داخل وخارج اليمن وجماعة الإخوان (٨).

وتقول دراسة أكاديمية يمنية: "إن رسل الثورة راحت تحمل المعلومات إلى الشوار في عدن وإلى البنا في القاهرة، وانتهت الاتصالات بالموافقة على أن يكون "عبد الله الوزير" إماماً دستورياً لليمن، وكان البنا يرى أن اليمن أنسب بلد عربى لتحقيق قيام

دولته الدينية" (٩).

وقد نجح الورتلانى فى جمع كل المعارضين حول وثيقة أسميت "الميثاق الوطنى المقدس" وقد أعلنت فى ١٤ سبتمبر ١٩٤٧، وأكد الكثيرون أنها قد وضعت وصيغت بمعرفة ومباركة حسن البنا. "وقد وضع الورتلانى والبنا هذه الوثيقة ليكون اليمن نواة لدولة الإسلام، إذ نشأت وتمت ثورتها على مبادئ قرآنية" (١٠).

وتزهو جريدة الإخوان بأن الأمير إبراهيم بصفته قائد الحركة التحريرية فى اليمن ورئيس اللجنة السياسية للجمعية اليمانية الكبرى فى عدن قد أرسل إلى فضيلة المرشد يبلغه بقرار تفويضه بصورة عامة وشاملة فى أن يتحدث باسم الجمعية أمام الجامعة العربية وأمام غيرها من سائر الهيئات والحكومة، كزعيم مطلق التصرف". كما أرسل سموه إلى أمين الجامعة العربية بذلك، "وأرسل فضيلة المرشد رداً على الأمير يشكره على هذه الثقة راجياً أن يعينه الله على تحقيق هذه المهمة" (١١).

ويؤكد الدكتور "الصائدى": "لقد لعب الإخوان دوراً قيادياً بارزاً سواء فى تنشيط المعارضة وتوحيد أهدافها السياسية، أو فى الإعداد للانقلاب وتنفيذه ودعمه" (١٢).

لكن مناورات الشيخ البنا لا تنتهى، "فأحد قادة الثورة اتصل بريجنالد شامبيون الحاكم البريطانى لعدن ليبلغه بالثورة قبلها بأسبوع بموعد قيامها وباسم قائدها، ويطلب منه دعمه، وطلب منه طائرة لتلقى منشورات الثورة من الجو" (١٣).

الشيخ البنا يمتلئ غرورا بنفسه وبمناوراته وبجيше المسلح فيكشف أوراقاً ما كان لها أن تكشف، ويعلن أمام الملوك ومنهم، فاروق أنه نجح فى أن يدبر انقلاباً ضد نظام ملكى فى بلد عربى، فيثير بذلك هواجس كثيرة، كانت ضمن أسباب الانقضاء عليه.

وكثيراً ما يؤدى إدمان المناورة، واعتداد المناور بذكائه، إلى افتراض الغباء فى الآخرين، ومن ثم إلى الخطأ.

وتتواصل الأخطاء: قتل الخازندار، والقبض على مجموعة المقطم، ويكتشف

البوليس العلاقة بين أفراد الحادثين وبين جهاز سرى مسلح للجماعة، ويقبض على البنا لفترة قصيرة ثم يفرج عنه سريعاً، فلرجال أظافر تحميه^(١٤).

وإذ اشتعلت حرب فلسطين، وإذ أسهم الإخوان المسلمون في اشتعالها فقد أسهموا أيضاً - وبقدر متزايد - في إذكاء مشاعر عنصرية ضد اليهود المصريين، وحاولوا جهد طاقتهم تحويل المعركة من عرب ضد استعمار وصهاينة، إلى مسلمين ضد يهود.

وكان طبيعياً أن يسهم الجهاز الخاص المدمج حتى أسنانه بالسلاح والمستنقز المشاعر سواء بسبب تعثر مسيرة القتال في فلسطين وخيانة الحكومات العربية العميلة أو بسبب القبض على "إخوة الجهاد" الذين قتلوا الخازندار، كان طبيعياً أن يسهم في إذكاء نيران التعصب الدينى مستخدماً الديناميت.

وفى ٢٠ يونيو ١٩٤٨ اشتعلت النيران في بعض منازل حارة اليهود، وفى ١٩ يوليو تم تفجير محلى "شيكوريل وأركو" وهما مملوكان لتجار من اليهود.

وإذ توقع الهدنة الأولى في حرب فلسطين يستشعر الناس ريح الخيانة والتسليم، ويسرع الديناميت ليتكلم في الداخل ضد اليهود المصريين. وينسى الإخوان أنهم بذلك كانوا يقدمون خدمة جليلة للصهاينة الذين كانوا يسعون لتفجير اليهود المصريين إلى إسرائيل، فقد أسهم الإخوان في إقناع اليهود المصريين باستحالة إمكانية بقائهم في مصر.

ويكون الأسبوع الأخير من يوليو والأول من أغسطس هما أسبوعا الرعب في القاهرة حيث تتوالى الانفجارات في ممتلكات اليهود وتهتز المرة تلو الأخرى شوارع قلب العاصمة بتفجيرات عنيفة راح ضحيتها الكثيرون. وخلال أسبوعين دمرت محلات بنزاويون وجاتينيوي وشركة الدلتا التجارية ومحطة ماركوني للتلفاز اللاسلكي^(١٥). وفى ٢٢ سبتمبر دمرت عدة منازل في حارة اليهود ثم وقع انفجار عنيف في مبنى شركة الإعلانات الشرقية^(١٦)، ولسنا بحاجة إلى القول بأن الضحايا كانوا كثيرين وأنهم كانوا من الأبرياء.

وكانت أعين البوليس التى استيقظت مؤخراً قد اكتشفت أحد أطراف الخيط إذ ضبطت ترسانة سلاح ضخمة فى عزبة بالإسماعيلية يمتلكها الشيخ "محمد فرغلى" قائد كتائب الإخوان فى فلسطين.

وفى ١٥ نوفمبر ضبطت سيارة الجيب الشهيرة.

وتقول مصادر البوليس إن ضبط السيارة تم مصادفة، ولو أن الكثيرين يستبعدون ذلك، وعلى أية حال فإن واقعة السيارة الجيب قد وضعت يد البوليس فى ضربة من ضربات الحظ على اثنين وثلاثين من أهم كوادر الجهاز السرى وعلى وثائق وأرشفات الجهاز بأكمله بما فيها خططه وتشكيلاته وأسماء الكثيرين من قادته وأعضائه^(١٧).

وكان البنا قد أمضى معظم شهر أكتوبر وبضعة أيام من نوفمبر مؤدياً فريضة الحج، فما إن عاد حتى تعرض للقبض عليه بمقولة وجود دليل فى سيارة الجيب المضبوطة، وبمقولة مسئوليته المباشرة عن حادث نسف شركة الإعلانات، ثم أفرج عنه^(١٨).

وخرج البنا من السجن ليبدأ جهوداً لإيقاف عجلة الأحداث محاولاً إنقاذ الجماعة من الوقوع فريسة لنظام أصبح غير راض عنها، بل وراغب فى الخلاص منها. لكن سرعة الأحداث كانت تفوق قدرة الشيخ على الحركة.

والشيخ الذى اعتاد المناورة بالسياسة والسياسيين وجد نفسه محاصراً تماماً، عاجزاً عن الفعل، فالقصر والسعديون حلفاء الأمس القريب، والذين شجعوا الإخوان ونظروا لتحركهم باتجاه قضية فلسطين بعين الرضا بغية صرف الأنظار عن معركة الجلاء عن مصر، وعن قضايا الداخل المختلفة بدأوا يخونون قضية فلسطين كما خانوا من قبل قضية مصر.

والبنا الذى شحن نفوس أتباعه وإلى أقصى مدى بالمشاعر الإسلامية المتوترة تجاه قضية فلسطين يجد نفسه مطالباً إما بأن يواجه القصر والحكومة، وإما أن يواجه أتباعه. وحاول أن يتخذ موقفاً وسطاً ولعله راح ضحية هذه المحاولة.

وكان شباب الجامعة من الإخوان وغيرهم يغلى رفضاً للشروط المهينة التي خضعت لها الحكومة فى اتفاقية الهدنة فى فلسطين، ولعل البنا حاول أن يلعب بآخر أوراقه (نفوذه وسط طلاب الجامعة)، ليخفف قبضة الحكومة عن عنق الجماعة، وخرج البوليس ليردعهم كعادته هذه الأيام، ودارت معارك مسلحة أمام فناء كلية طب قصر العينى أحد مراكز القوة لطلاب الإخوان. واستخدم الإخوان المتفجرات، وإذ كان حكمدار العاصمة سليم زكى يقود المعركة من سيارته (تلك السيارة التى ركبها حسن البنا منذ أقل من عام ونصف ليهدى المتظاهرين ضد الحكومة)، سددت نحوه قنبلة أصابته إصابة مباشرة، واتهم بيان حكومى جماعة الإخوان المسلمين بقتله.

وعلى أثر ذلك، صدر قرار من الحاكم العسكرى (كانت الأحكام العرفية معلنه بسبب حرب فلسطين) بإيقاق صحيفة الجماعة، وحاول البنا يائساً إنقاذ الجماعة.. اتصل بكل أصدقائه وحتى بخصومه، ولعب بكل أوراقه، حاول الاتصال بالملك، وبإبراهيم عبد الهادى رئيس الديوان الملكى، وبعبد الرحمن عمار (صديقه الشخصى وصديق الجماعة) وكان وكيلاً لوزارة الداخلية.

ولأن الشيخ قد فقد أسباب قوته، بدأوا جميعاً يتلاعبون به، وفى الساعة العاشرة من مساء يوم ٨ ديسمبر اتصل به عبد الرحمن عمار، وأكد له أن شيئاً ما سيحدث لتحسين الموقف، وإنقاذ الجماعة.

واطمأن الشيخ وقبّع هو ومجموعة من أنصاره فى المركز العام ينتظرون "الإنقاذ" فإذا بالراديو يذيع عليهم قرار مجلس الوزراء بحل الجماعة بناء على مذكرة أعدها عبد الرحمن عمار نفسه.

وإذ حاول البعض الخروج من مقر المركز العام وجدوه محاصراً واقتحمه البوليس ليلقى القبض على كل من فيه باستثناء البنا، الذى ترك طليقاً بحجة أنه لم يصدر أمر باعتقاله^(١٩). وكانت حريته هذه عذابه ونهايته.

واشتملت مذكرة عبد الرحمن عمار المرفوعة إلى مجلس الوزراء بشأن طلب حل

جماعة الإخوان المسلمين على قرار اتهام طويل يعيد إلى الأذهان كل أعمال العنف التى ارتكبتها الجماعة، حتى تلك التى ارتكبتها بإيعاز من السلطات ولخدمة مصالحها.

وبناء على هذه المذكرة أصدر الحاكم العسكرى العام "محمود فهمى النقراشى باشا" قراراً عسكرياً من تسعة مواد تنص مادته الأولى: "تحل فوراً الجمعية المعروفة باسم جماعة الإخوان المسلمين بشعبها أينما وجدت، وتغلق الأمكنة المخصصة لنشاطها وتضبط جميع الأوراق والوثائق والسجلات والمطبوعات والمبالغ والأموال وعلى العموم الأشياء المملوكة للجمعية. ويحظر على أعضاء مجلس إدارة الجمعية المذكورة وشعبها ومديرها وأعضائها والمنتمين إليها بأية صفة كانت مواصلة نشاط الجمعية، وبوجه خاص عقد اجتماعات لها أو لإحدى شعبها أو تنظيم مثل هذه الاجتماعات أو الدعوة إليها أو جمع الإعانات أو الاشتراكات أو الشروع فى شىء من ذلك. ويعد من الاجتماعات المحظورة فى تطبيق هذا الحكم اجتماع خمسة فأكثر من الأشخاص الذين كانوا أعضاء بالجمعية المذكورة. كما يحظر على كل شخص طبيعى أو معنوى السماح باستعمال أى مكان تابع له لعقد مثل هذه الاجتماعات أو تقديم أى مساعدة أدبية أو مادية أخرى".

وتنص المادة الثالثة: "على كل شخص كان عضواً فى الجمعية المنحلة أو منتمياً لها وكان مؤتمناً على أوراق أو مستندات أو دفاتر أو سجلات أو أدوات أو أشياء من أى نوع كانت متعلقة بالجمعية أو بإحدى شعبها أن يقدم الأوراق والأشياء إلى مركز البوليس المقيم فى دائرته فى خلال خمسة أيام من تاريخ نشر هذا الأمر". أما المادة الرابعة فتتص على: "تعيين مندوب خاص مهمته استلام جميع أموال الجمعية المنحلة وتصفية ما يرى تصفيته ويخصص الناتج للأعمال الخيرية أو الاجتماعية التى يحددها وزير الشؤون".

ودارت ماكينة العنف البوليسى ضد الإخوان، هؤلاء الذين باركوا دورانها ضد خصومهم من الوفديين والتقدميين والشيوخيين، فإذا بغول الديكتاتورية يبتلعهم هم أيضاً.

والمعتقلات التي افتتحت في ظل مباركة الإخوان وتهليلهم يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ (بمناسبة حرب فلسطين) والتي استقبلت خصومهم السياسيين، أخذت تتسع كي تستقبل الألوف من أعضاء الإخوان.

وفصل ١٥٠ موظفاً وشرّد من القاهرة وحدها إلى الوجه القبلي ٥٠٠ موظف وأبعد عن كليات الجامعة والمدارس الثانوية نحواً من ألف طالب^(٢٠).

وحاول البنا جهد طاقته أن يوقف طوفان المحنة لكنه كان عاجزاً بالفعل. فالحكومة التي هادنها وهادنته كانت تضرب بعنف وقوة مصممة على تصفية الإخوان، ورفض النقراشي كل محاولات البنا للالتقاء به، والجماعة التي بناها الشيخ بعرقه وجهده، وشيدها بيديه لبنة لبنة عبر عشرين عاماً تتهار أمام عينيه، وجهازه السري تتقطع خطوط اتصاله، فقد كانت ضربة سيارة الجيب قاصمة بالنسبة لقيادة الجهاز السري وشبكات اتصالها^(٢١).

وفي ٢٨ ديسمبر وقعت الواقعة وصعدت المأساة إلى أعلى قممها؛ إذ قام طالب في الثالثة والعشرين من عمره (عبد المجيد أحمد حسن) بإطلاق رصاصتين محكمتي التصويب على رئيس الوزراء "محمود فهمي النقراشي باشا". وأين؟ داخل مبنى وزارة الداخلية.

وشيع أنصار الحكومة جثمان رئيس وزرائهم هاتفين في صراحة: "الموت لحسن البنا"^(٢٢).

وأتى إبراهيم عبد الهادي ليدبر ماكينة العنف الرسمي إلى أقصى مداها، ولتتسع دائرة الاعتقالات في صفوف الإخوان فتشمل ٤٠٠٠ معتقل^(٢٣)، وتعرض بعض المعتقلين لأقصى درجات التعذيب الوحشي الذي لم تعرف له مصر مثيلاً من قبل، وباختصار "كانت الستة أشهر التالية لتولى "إبراهيم عبد الهادي" الحكم، صورة راسخة في أذهان المصريين جميعاً للسلطة الرسمية العاشمة وقد اكتسب عبد الهادي لنفسه خلالها عداء كافة فئات الرأي العام المصري"^(٢٤).

وفي زنازين التعذيب الرهيبة - والتي تناولت المتهم وأسرتة رجالاً ونساء - كان

أقصى ما يؤلم الإخوان قيام أجهزة الأمن بتعليق الآية الكريمة (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الحياة الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم).

ولعل شكوكاً كثيرة قد ساورت هؤلاء الشبان من أعضاء الجهاز السرى وهم يعانون من التعذيب الوحشى فى جدوى عملية الإرهاب ضد خصومهم السياسيين، وفى مدى انطباق فكرة "الجهاد" على ما ارتكبه من أعمال، ولعل فتاوى مفتى الديار المصرية وبيانات شيخ الأزهر وهيئة كبار العلماء التى تدين أعمالهم قد أثرت فيهم كثيراً.

لكن الطامة الكبرى جاءت عندما استنكر الشيخ البنا نفسه هذه الأعمال واتهم القائمين بها بأنهم "ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين"، هنا انهار المتهمون جميعاً، فقد كان صمودهم واحتمالهم للتعذيب يستمد كل صلابته من "البيعة" التى أقسموا بها بين يدى الشيخ فى حجرة مظلمة، فإذا يتخلى الشيخ عنهم، وعن فكرة الجهاد كما لقنها هو لهم.. فماذا يبقى؟

ولقد صمد "عبد المجيد حسن" ثلاثة أسابيع كاملة فى مواجهة تعذيب وحشى ضده وضد أسرته لكنه ما لبث أن انهار تماماً عندما قرأ بيان الشيخ البنا الذى نشرته الصحف^(٢٥).

والحقيقة أن نزوع الإخوان إلى الإرهاب، كان خطأ فادحاً مكّن الخصوم من استخدام العنف الرسمى فى أقصى صورة ضدهم.

كذلك فقد عزلهم هذا الإرهاب عن الكثير من القوى التى اعتادت العطف عليهم أو النظر إلى دعوتهم بعين الرضا^(٢٦).

ومع ماكينة التعذيب كانت ماكينة الدعاية تدور لتجرم الجماعة وشيوخها ومنهجها وجهازها السرى:

- فتوى مفتى الديار المصرية تدين أفعال الجماعة وتتهم القائمين بها بالكفر.

- وبيان من هيئة كبار العلماء يدينهم.

- وبيان ثالث من شيخ الأزهر يدينهم هو أيضاً.

- وساهم فى حملة الإدانة لأعمال العنف والإرهاب الإخوانية - فى هذه الفترة

وما بعدها - مفكرون وكتاب يتمتعون باحترام جمهور الشعب العريض.

- د. طه حسين يقول: "ما هذه الأسلحة وما هذه الذخيرة التى تدخر فى بيوت

الأحياء وفى قبور الموتى؟ ما هذا المكر الذى يكمن، وما هذه الخطط التى تدبر،

وما هذا الكيد الذى يكاد، ولم كل هذا الشر، ولم كل هذا النكر، ولم رخصت حياة

المصريين؟ يقال إنها إنما رخصت بأمر الإسلام الذى لم يحرم شيئاً كما حرم القتل،

ولم ينه عن شىء كما نهى عن التعاون على الإثم والعدوان" (٢٧).

- وكامل الشناوى يقول: "إننى حزين أن يوجد إنسان واحد، لا جماعة منظمة،

يصنع الموت للناس ويحترف التخريب والتدمير، وإن قلبى ليقطر حزناً إذ كانت هذه

الجماعة ترتكب جرائمها باسم الإسلام، وتجد من يصدقون دعواها. إن الإسلام الذى

يقول كتابه الكريم (وجادلهم بالتى هى أحسن) لا يقر الجدل بالمسدسات والمدافع

والمنفجرات" (٢٨).

لكن استنكار الجهاز السرى وجرائمه لم يأت من خارج الجماعة فقط، بل لعل

البعض من الإخوان يزعم أن حسن البنا نفسه قد أدان الجهاز السرى قبل وفاته.

يقول القيادى الإخوانى "منير الدلة" فى شهادته أمام المحكمة: إن استنكار الجهاز

السرى وأعماله قد أتى أكثر ما أتى من داخلها، بل شيخها ومنشئها ومؤسس

الجهاز السرى نفسه.

"معنى الكلام ده أن الجهاز المفروض أنه يكون خاضعاً للمرشد، ولكن هو ما

كانش خاضع له، وإنه ارتكب الحوادث الللى ارتكبها من غير أمره، وفى فترة الحل

تجددت شكواه (البنا) ثانى مرة، وقال على حد تعبيره الحمد لله الللى اتحلت الجماعة

علشان نخلص من البلاوى دى ونصفيها" (٢٩)، هكذا وصل الأمر بالمرشد العام

الرجل الريانى والقرآنى والإمام بأن يعتبر الجماعة "بلوى" واجبة التصفية. وإذا ما

افترضنا صدق هذه الشهادة، فإن بقاء الجهاز السرى يعنى أن الجماعة تعشق الإرهاب بأكثر مما تعشق مؤسسها. وأنها تعتبره المبدأ الأهم والأول.

وإذ نترك هذه الشهادة الخطيرة، بما فيها من معلومات تثير الدهشة معلقة في مسئولية قائلها، نلاحظ أن ثمة شهادة أخرى تؤكدها، وهى شهادة السيدة منيرة عامر حرم صالح حرب باشا رئيس جمعية الشبان المسلمين والصديق الشخصى لحسن البنا. وفى شهادتها أمام المحقق فى قضية اغتيال حسن البنا بجلسة ١٨ نوفمبر ١٩٥٣ نقول: "الشيخ البنا كان يحضر لمقابلة صالح حرب باشا لكى يتفق مع الحكومة، وكان الوساطة بين الطرفين الأستاذ مصطفى مرعى، وأنا كنت أسمع أن الأستاذ البنا متألم، وسألته قال إنه بعد قتل الخازندار خرجت الأمور من بين يدي وأنا عاوز أمسكهم ولكن مش قادر" (٣٠).

ونمضى لنتابع مواقف بقية قادة الجماعة من أعمال الإرهاب، أقصد تلك المواقف التى اعترفوا بها أمام المحاكم وليس المواقف الحقيقية التى أضمرها ولم يزالوا.

يقول حسن الهضيبي خليفة حسن البنا فى اعترافاته أمام المحكمة: "لما جيت فى الإخوان المسلمين فى سنة ١٩٥١ تبين لى أن عندهم شىء اسمه النظام الخاص. فأنا سألت إيه الغرض من هذا النظام؟ وإيه مرماه؟ وتعملوا بيه إيه؟ خصوصاً بعدما ثبت أنه ارتكب جرائم قبل ذلك فى السنوات ٤٦-٤٧-٤٨، وكل هذه الجرائم التى ارتكبت طبعاً انحراف أو خروج عن الغرض الأصلى" (٣١).

وقائد ثالث من الإخوان "محمد عبد المعز محمد عبد الله" يقول فى شهادته أمام المحكمة:

"- الدفاع: قتل النقراشى حلال؟

- الشاهد: جريمة.

- الدفاع: وقتل الخازندار حرام؟

- الشاهد: أيوه.

- الدفاع: إسلام أم كفر؟

- الشاهد: كفر.

- الدفاع: وقايله؟

- الشاهد: يدخل النار.

- الدفاع: فى عهد من قتل الخازندار؟

- الشاهد: فى عهد حسن البنا.

- الدفاع: والنقراشى؟

- الشاهد: فى عهد حسن البنا.

- الدفاع: ومن يقر القتل كافر أم مسلم؟

- الشاهد: " (٣٢).

وقائد آخر من قادة الجماعة هو "محمود الحواتكى" يتكلم أمام المحكمة:

- الدفاع: هل اغتيال الخازندار من ضمن الأخطاء؟

- الشاهد: نعم.

- الدفاع: والذين ارتكبوا هذه الأخطاء مسلمين أم غير مسلمين؟

- الشاهد: انخلعت عنهم ربة الإيمان.

- الدفاع: هل تعتقد أن الذين يقرونهم ويوافقون على هذه الجرائم مسلمين أم غير

مسلمين؟

- الشاهد: غير مسلمين.

ومضى الشاهد فى اعترافاته مؤكداً أنه فى أيام حسن البنا كان الذى يخرج على

الجهاز السرى يقتل " (٣٣).

أما الدكتور "خميس حميدة" وكيل جماعة الإخوان فيجيب أمام المحكمة على

سؤال عن نشاط الجهاز السرى قائلاً:

- "الرئيس: وده صح؟

- الشاهد: غلط.

- الرئيس: غلط؟

- الشاهد: نعم.

- الرئيس: يفهم من كده إن جماعة الإخوان المسلمين غلط؟

- الشاهد: إلى أبعد حدود الغلط.

ويسأله الرئيس هل تعتبر عمل محمود عبد اللطيف (الذى حاول اغتيال جمال عبد الناصر) من الأعمال المضادة للجهادية، الإجرامية مثلاً؟
ويجيب وكيل جماعة الإخوان: "أنا أعتبر أن عمل محمود عبد اللطيف عمل إجرامى" (٣٤).

ونترك هذا الحديث إذ بإمكانه أن يطول بغير حد، فسلسلة اعترافات الإخوان أمام المحاكم لا تنتهى، فقط أردنا منه أن تثبت أن مقولة "الجهاد" التى قام على أساسها الجهاز السرى لم تكن واضحة وضوحاً كافياً ولا مستقرة استقراراً كافياً من كوادر الجماعة وقادتها. أو هكذا ادعوا أمام المحاكم.

والحقيقة أن الزهو عندما انطفأ، وعندما واجه الإخوان مصيرهم أمام سلطة الدولة، انهار الكثيرون مدلين باعترافات كاملة، كان أخطرها تطوعهم بإدانة فكرة الجهاز السرى وتكفير القائمين عليه. ولكن رغم هذا الإنكار والاستنكار يبقى الجهاز السرى راسخاً فى قلب الجماعة، بل وموجهاً لها ومهيماً على مقدراتها.

ونترك ذلك، ونعود إلى الشيخ فى محنته القاسية.

كان الشيخ البنا يعانى أكثر ما يعانى من حرته المفروضة عليه، وأكثر من مرة طالب خصومه بأن يضعوه فى المعتقل ولكنهم رفضوا، فقد اختمرت لديهم فكرة تصفية الشيخ، تصفيته سياسياً أولاً، وبعدها يصفى جسدياً.
وقد كان.

وفى حرته كان الشيخ أكثر عذاباً من أتباعه المسجونين، فقد تركوه محاصراً، عاجزاً، ضعيفاً، لقد انفرط عقد الجماعة، والجهاز السرى تقطعت خطوطه، والبنا

الشامخ ينهار، "ورهبان الليل وفرسان النهار" يتساقطون تحت آلة التعذيب ليدلوا
باعترافاتهم متكاملة تجر إلى الزنازين المزيد والمزيد من الإخوان.

أما هو فقد حاصروا بيته واعتقلوا كل من يقترب منه، وصادروا سيارته فلما ركب
سيارة صهره "عبد الحكيم عابدين" صادروها، وسحبوا خط تليفون منزله^(٣٥).

والشيخ الذى كان ملء السمع والبصر، أصبح يستجدى مقابلة مع رئيس الوزراء
مقدماً كل ما يستطيع من تنازلات، ويأبى رئيس الوزراء أن يقابله.

وبالنسبة لرجل كحسن البناء، يكون وضع كهذا هو قمة المأساة.

وتحرك الشيخ المهيب الجناح فى اتجاهين، أن يسجل دفاعه عن نفسه وعن
جماعته كتابية، وأن يحاول لعبة الوساطة والتنازل، لعله ينفذ شيئاً من تحت أنقاض
الجماعة.

وكتب الشيخ آخر رسائله "القول الفصل"^(٣٦) وشتان بينها وبين رسائله الأولى.

يبدأ البناء كتابته الحزينة قائلاً: "لقد سمع الرأى العام المصرى والعربى والإسلامى
قضية الإخوان المسلمين من جانب واحد، جانب الحكومة التى اعتدت على الهيئة
بإصدار أمر عسكري بحلها، وهو الجانب الذى يملك كل وسائل الدعاية من
الصحف الخاضعة للرقابة كل الخضوع، ومن الإذاعة التى تديرها وتهيمن عليها
القلة، ومن الخطباء فى المساجد الذين هم موظفون حكوميون. لكن الرأى العام لم
يسمع الطرف الآخر، لم يسمع من الإخوان الذين حرّموا كل وسائل الدفاع عن
أنفسهم فصودرت صحفهم وقصفت أقلامهم، وكمنّت أفواههم، واعتقل كل خطيب
لهم، واعتبر اجتماع كل خمسة منهم فى أى مكان جريمة، أقل عقوبة لها السجن
سنة أشهر. ولهذا كان من الواجب أن نتقدم بهذا البيان للرأى العام المصرى والعربى
والإسلامى وللضمير الإنسانى العالمى حتى لا يقع فى خطأ ما، ويظلم فى الحكم
ويحكم بسماع خصم واحد، وقد قيل: إذا جاءك خصم وعينه مقلوعة فلا تحكم له
حتى ترى خصمه فقد تكون عيناه الاثنتان مقلوعتين"^(٣٧).

أما الأسلحة فقد كرر الشيخ مقولة أنها "للمجاهدين من الإخوان المسلمين

والفلسطينيين والهيئة العليا الفلسطينية والحكومة نفسها تعرف ذلك".

واتهم البنا الحكومة أنها أصدرت قرار حل الجماعة تحت ضغط مذكرة ثلاثية تقدمت بها كل من بريطانيا وفرنسا وأمريكا بعد اجتماع لممثليها الدبلوماسيين بفايد في ٦ ديسمبر ١٩٤٨. وطالبت المذكرة بحل الجماعة.

وبعد أن سرد البنا أسباباً عديدة أخرى منها ستر الفشل في فلسطين والإعداد لمفاوضات جديدة مع الإنجليز عاد ليركز على ما أسماه بالأصابع الخفية والدسائس "من ذوى الغايات الذين خاصموا الدعوة من أول يوم وتريصوا بها كاليهودية العالمية والشيوعية الدولية والاستعمار وأنصار الإلحاد والإباحية".

وفى ختام "القول الفصل" قال البنا: "وسنجاهد في سبيل حقنا ما وسعنا الجهاد فإن أعوزتنا الحياة الشريفة العزيزة فلن يعوزنا الموت الكريم المجيد".

لكن "القول الفصل" بقى مخطوطاً ولم ير النور إلا بعد وفاة الشيخ.

قلنا إن الشيخ قد لجأ إلى الوساطة، والصحيح أنه قد وقع في مصيدة الوساطة، لقد استدرجوه خطوة خطوة، ليقدم تنازلاً إثر تنازل وفي النهاية اغتالوه.

وقد رفض عبد الهادي مقابلة الشيخ، ثم أحال الأمر إلى اثنين من أخلص أعوانه ليراوغا الشيخ ويستدرجاه أولاً إلى مصيدة التصفية السياسية.

ولنلق نظرة على الصائدين .. ثم على المصيدة.

- الصائدان: مصطفى بك مرعى وزكى باشا على.

- المصيدة: استدراج الشيخ إلى إصدار بيانات واتخاذ مواقف تدمر سمعته

السياسية وتظهره بمظهر الضعيف أمام أتباعه وجماهيره، وتؤدي إلى تدمير معنويات الإخوان المحتجزين، ثم في النهاية تصفيته جسدياً بعد أن يصفى سياسياً.

يقول المدعى نائب الأحكام أثناء محاكمة إبراهيم عبد الهادي أمام محكمة الثورة

بتهم من بينها تدبير اغتيال حسن البنا:

"ولم يكن المتهم (عبد الهادي) مطمئناً إلى أنه بما أجراه من اعتقالات ومن عزل المجنى عليه (حسن البنا) عن أنصاره عزلاً تاماً، بل ساوره الاعتقاد باحتمال أن

يكون لفريسته أنصار آخرون لم يتيسر لرجاله الكشف عنهم، ومن ثم فقد دس عليه بعض وزرائه في صورة من يفاوضونه لإعادة جماعته سيرتها الأولى في مقابل أن يكشف له عن كل رجالها توطئة لاعتقالهم.

فلما لم يؤد هذا البحث إلى إثبات وجود أنصار آخرين للمجنى عليه اطمأن المتهم إلى أن الفرصة واثته ليجهز على فريسته وهي مجردة من كل نصير^(٣٨).

لكن كيف كانت تجرى المفاوضات بين "الصاد" و "الصيد" وكيف كان الشيخ المقصوص الأجنحة يجر جراً إلى المصيدة؟

ولنستمع إلى شهادة أقرب المقربين إلى حسن البناء، "أخو خديجة" كما أسماه يوماً ما، صهره عبدالكريم منصور، إنه يستخدم نفس التعبير - بل لعلنا استعزناه منه - .. وعلاوة على ذلك استخدمت الحكومة الأستاذ مصطفى مرعى كأداة صيد، لأن مصطفى مرعى اتصل بصالح حرب وقال له أنا عاوز أفاوض الإمام الشهيد، وأخذ الأستاذ مصطفى مرعى بأساليب ملتوية ممقوتة يعمل على إبقاء الإمام الشهيد بالقاهرة موهماً إياه بأسلوب بهلواني بأن الحكومة ستلغى أمر الحل وتتصالح مع الإخوان وتعود الأمور إلى ما كانت عليه.

ويسأله رئيس المحكمة: قلت في كلامك أنه اتبع طرق ملتوية، فأيه الطرق الملتوية دى؟

ويجيب الشاهد: "أيوه حاقول لكم يا أفندم، هو كان بيوهم الإمام الشهيد أنهم جادون فى أن يعيدوا الإخوان المسلمين، ولكنه كان بيقول له بس لو سمحت تكتب بيان يثبت حسن نيتكم، وكان مصطفى مرعى يقول ألفاظ للإمام الشهيد، وكان الإمام الشهيد يعارض فى ألفاظ ملتوية كان يكتبها ويمليها مصطفى مرعى فيقوم يقول له: دى مسألة بسيطة إذا كان ده ثمن إعادة الإخوان، وإذا كان ثمن التفاهم مع الحكومة فإيه المانع من كتابته؟ وبمجرد ما كتب هذا البيان أخذه مصطفى مرعى وأعطاه لرئيس الحكومة وعدل فيه وجابه للإمام الشهيد وقعد يقول له اللفظ ده يدخل واللفظ ده لا يدخل. وهكذا قعد يعدل فى البيان. وبعد ذلك بمجرد ما أخذ البيان منه

أعطاه لقاتل النقراشى، وقال له شوف الشيخ حسن البنا أهو أصدر بياناً ضدك، وقد يستثير المتهم القاتل وكان من نتيجة هذا الأسلوب الذى اتخذه مصطفى مرعى أن قاتل النقراشى قعد ينكلم كلام كثير وأصبح أداة مطواعة فى يد التحقيق يقول ما يمليه عليه المحقق ورجال البوليس السياسى^(٣٩).

وهكذا عندما يتردى السياسى فى هاوية التنازلات، فلا عاصم. ويوقع البنا بياناً بعنوان "بيان للناس" استنكر فيه الشيخ أعمال رجاله ورفاق طريقه ودمغها بالإرهاب والخروج على تعاليم الإسلام^(٤٠).

وكان البنا يلح على ضرورة الإفراج عن بعض رجاله معلناً أنه "لا يستطيع أن ينكر الأخطاء التى ارتكبها الإخوان وأنها قد هزته إلى درجة أنه هو نفسه قد شعر بضرورة حل الجماعة"^(٤١). قال إن التحكم فى سير الأحداث يحتاج إلى رجال معينين يمكن للشيخ من خلالها السيطرة على الموقف. لكن عبد الهادى لم يقتنع بمنطق الشيخ ولم يكتف بالبيان الذى أصدره، وأخذ مصطفى مرعى يلح على ضرورة تسليم محطة الإذاعة السرية للإخوان وكل ما بقى لدى الإخوان من أسلحة. وبعد يومين من صدور "بيان للناس" قبض على أحد قادة الجهاز السرى وهو يحاول نفس محكمة استئناف مصر، ولنترك الحديث للشاهد الأول فى قضية اغتيال البنا "محمد يوسف الليثى" والذى كان فى هذا الوقت واحداً من القلائل الذين يلتقون حسن البنا، وهو أيضاً الذى حضر ساعة اغتياله، ويقول الشاهد: ".. وحصل حادث نفس محكمة الاستئناف وأنا قابلت الشيخ البنا، وكان متأثراً جداً من هذا الحادث، ولما عرف أنهم هم اللى عملوا الحادث زعل خالص ويكى وقال إنه لا تهمة الحكومة وإنما يهمة الشعب الذى يصدق إن الإخوان المسلمين إرهابيون، وقال أنه استعجب كيف حصل هذا الحادث، وحصلت بعد كده مفاوضات بينه وبين مصطفى مرعى بخصوص المعتقلين، وصالح حرب باشا اتصل بمرعى بيه علشان يجتمعوا بالشيخ البنا. وتفاهموا، ومرعى بيه قال للشيخ البنا تعمل بيان كما قلت لك فى الأول وأنت رفضت. لازم تعمل بيان، واتفاهموا على إصدار بيان بعنوان "ليسوا

إخواناً وليسوا مسلمين" ثم استمرت الاتصالات^(٤٢).

وهكذا وعندما يدخل الصيد إلى المصيدة تصبح التصرفات غير محسوبة، ولنقرأ ما خطه الشيخ البنا بيده:

"ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين".

"وقع هذا الحادث الجديد، حادث محاولة نسف مكتب سعادة النائب العام. وذكرت الجرائد أن مرتكبه من الإخوان المسلمين فشعرت بأنه من الواجب أن أعلن أن مرتكب هذا الجرم الفظيع وأمثاله من الجرائم لا يمكن أن يكون من الإخوان، ولا من المسلمين. لأن الإسلام يحرمها والأخوة تأباها وترفضها.

ومن المرجح بل من المحقق أنه أراد به أن يتحدى الكلمة التي نشرت قبل ذلك بيومين تحت عنوان "بيان للناس" ولكن مصر الأمانة لن تروعها هذه المحاولات الأثيمة. وسيتعاون هذا الشعب الحليم الفطرة مع حكومته الحريصة على أمنه في ظل جلالة الملك المعظم على القضاء على هذه الظاهرة الخطيرة.

وليعلم أولئك الصغار من العابثين أن خطابات التهديد التي يبعثون بها إلى كبار الرجال وغيرهم لن تزيد أحداً منهم إلا شعوراً بواجبه وحرصاً تاماً على أدائه. فليقلعوا عن هذه السفاسف ولينصرفوا إلى خدمة بلادهم كل من حدود عمله، إن كانوا يستطيعون عمل شيء نافع مفيد.

وانى لأعلن أنني منذ اليوم سأعتبر أى حادث من هذه الحوادث يقع من أى فرد سبق له اتصال بجماعة الإخوان موجهاً إلى شخصى، ولا يسعنى إزائه إلا أن أقدم نفسى للقصاص وأطلب إلى جهات الاختصاص تجريدى من جنسيتى المصرية التي لا يستحقها إلا الشرفاء الأبرياء، فليتدبر ذلك من يسمعون ويطيعون، وسيكشف التحقيق ولا شك عن الأصيل والدخيل. والله عاقبة الأمور.

"حسن البنا"

وهكذا امتص المفاوضون البرتقالة إلى آخر قطرة.

لكننا نعود فننتذكر رغم هذه الكلمات الدامية والباكية أن واحداً من أخلص

المقربين للأستاذ البنا وهو "صلاح شادى" أشار فى مذكراته "حصاد العمر" وبعبارات رقيقة إلى ما يوحى بأن هذه المحاولة قد تمت بموافقة المرشد بهدف تدمير الوثائق المضبوطة فى سيارة الجيب.

وعلى أية حال فقد كان الشيخ الذى فى قفص حريته يعانى أكثر من رجاله فى السجن، ويتعرض لضغوط مريعة عنيفة.. آلاف الأسر بلا عائل، وإخوانه فى السجن، وهو بلا حول ولا طول.

وبيانه الأول أثار استياء أعضاء الجماعة بالسجون ويقال إنهم وجهوا له رسالة يقولون فيها أنهم يعتقدون "أن البيان مدسوس فإن كان صحيحاً فإن يوم الحساب آت بعد الإفراج عنا"^(٤٣).

الرجل بين فكى كسرة البندق سجين ضغوط خصومه، وضغوط رجاله، لكنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً.

وماذا يبقى من الشيخ.

رجالهم فى السجن يبعثون له يهددونه، وهو يتهم أخلص خلصائه الذين أقسموا له على المصحف والمسند يمين الطاعة التامة فى المنشط والمكروه.. يتهم "رهبان الليل وفرسان النهار" بأنهم "ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين".

بل ويتردى إلى مديح الحكومة التى تعذب رجاله أشد العذاب ويقول إنها حريصة على أمن الشعب وطمأنينته "فى ظل جلالة الملك المعظم"، بل ويحرض الشعب على التعاون مع الحكومة "للقضاء على هذه الظاهرة الخطيرة".

"رهبان الليل وفرسان النهار" أصبحوا فى آخر بيان للشيخ "أولئك من العابثين وجهادهم أصبح "سفاسف".

ولا يبقى للشيخ ما يقوله سوى "إنه سيطلب تجريده من جنسيته المصرية التى لا يستحقها إلا الشرفاء الأبرياء".

وكان الوحيد من أصدقاء الماضى الذى يقبل أن يستقبله فى مكتبه الأستاذ "فتحى رضوان"، فقد طلب المرشد المهيض الجناح أن يعتزل فى عزبة الشيخ عبد

الله النبراوى بقلوب فاعتقل البوليس الشيخ النبراوى وقد تجاوز الثمانين من العمر، ثم طلب السفر إلى أسوان ليقيم عند صالح باشا حرب فرفض الأمن طلبه فسأل الأستاذ فتحى رضوان ماذا يفعل؟ وينقل الأستاذ محسن محمد الحوار:

"- البنا: ماذا أفعل؟

- رضوان: يا سيدى أرجو أن تصدقنى إذا قلت لك إن الحكومة والملك لا يطيقان مجرد وجودك ووجود جماعتك فى الدنيا.

- البنا: إذن ما العمل؟ هل أسلم بالأمر الواقع وأرتضيه؟ ليتهم يعتقلوننى ويريحوننى.

- رضوان: أرى رأى العين ما يدبر لك فهم ينتظرون أن تتاح لهم فرصة اقتناصك.

- البنا: وبماذا تتصحنى؟

- رضوان: لا تترك منزلك، أو أى مكان يمكنك أن تأوى إليه فلا تخرج منه أبداً، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً. وقد يتبدل الحال.

- البنا: وهل ينجى هذا الحذر من القدر؟

- رضوان: مطلقاً.

- البنا: وما الفائدة إذن؟

- رضوان: الفائدة ألا تشغل نفسك بما لا نفع فيه ولا جدوى منه ولا تسمع لرسل السلطة الذين يعبثون بك" (٤٤).

لكن المرشد المسكين لم يزل يلح. ويكتب إلى رئيس الوزراء راجياً أن يسمح لمصطفى مرعى بمقابلته لعلهما يجدان حلاً.. ولا يرد رئيس الوزراء. الشيخ المناور القادر على أن يتلاعب بالجميع انتهى ليتلاعب به الصغار وهو مستسلم مهيبض الجناح، كسير النفس.

ثم كانت النهاية..

قرر القتلة أن يطلقوا الرصاص على جثته.

سحبوا الحراسة المحيطة به، واستدرجوه إلى جلسة مفاوضات أخرى أو أخيرة، وأطلقوا عليه الرصاص.

ويبقى معلقاً للبحث الدقيق التاريخ الحقيقي لوفاة الإمام الشهيد المرشد العام الشيخ "حسن أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي".

هل هو يوم ١٢ فبراير ١٩٤٩ كما هو مثبت في شهادة الوفاة؟

أم هو يوم أصدر الشيخ بيانه "ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين"؟

أم هو يوم أصدر "بيان للناس"؟

أم قبل ذلك بكثير، يوم سمح لنفسه أن يدخل ميدان السياسة من باب الموالاتة للقصر ومخاصمة الشعب..؟

وقد أثبت التحقيق أن المدير الأساسي لمقتل الشيخ حسن البنا كان الملك فاروق.

وأكد الإخوان أنفسهم أكثر من مرة أن الشيخ "قد اغتيل في ١٢ فبراير ١٩٤٩

الموافق ١٤ ربيع ثانی سنة ١٣٦٨ هجرية يوم عيد ميلاد الملك السابق فاروق أحمد فؤاد فكان اغتياله هدية عيد ميلاد ملك جلب الدمار لشعبه" (٤٥).

بل لقد وصل الأمر بالجماعة إلى أنها طلبت رسمياً من المحكمة التي عقدت في

أعقاب ثورة يوليو لمحاكمة قتلة الشيخ حسن البنا، تقديم متهمين جدد على رأسهم الملك السابق فاروق وذلك باعتباره محرصاً وفاعلاً أصلياً.

ولأن القاتل الحقيقي كان فاروق.. فإن الباحث لا يستطيع أن يكتف دهشته - بل

ما هو أكثر من الدهشة - إذ يجد في سجل تشريفات قصر عابدين يوم ١٤ نوفمبر

١٩٥١، أسماء عديدة من قادة الإخوان، أتوا إلى أبواب قصر الملك ليعربوا - مرة

أخرى - لقاتل شيخهم، ربما عن ولائهم، وربما عن نسيانهم لدم شهيدهم، والتوقيعات ذات دلالة.

- خليفة الشيخ البنا.. المرشد الجديد حسن إسماعيل الهضيبي.

- أقارب الشيخ البنا.. شقيقه عبد الرحمن البنا عضو مكتب الإرشاد العام.

- وصهره عبد الحكيم عابدين سكرتير عام الجماعة.

- وأقرب المقربين إليه من رجاله:

- صالح عشاوى.

- عبد القادر عودة.

- حسين كمال الدين.

- محمد الغزالى.

- عبد العزيز كامل.

وكلهم أعضاء فى مكتب الإرشاد العام.

وحتى السكرتير الخاص للإمام الشهيد وكاتم أسرارهِ ورفيق رحلته الطويلة سعد

الدين الوليلى أتوا به معهم ليقع هو أيضاً معرباً عن ولاءهِ للملك فاروق!

وطوال رحلتنا مع هذه الدراسة، تراكمت علامات استفهام وعلامات تعجب كثيرة،

وتكون علامة التعجب الأخيرة مثاراً لما هو أكثر من الدهشة.. وتساؤلاً حول مدى

وفاء هؤلاء الموقعين لذكرى شيخهم وإمامهم ومرشدهم وشهيدهم.. وحول مدى صدق

ما يصيغون من تراويل الوفاء لشيخ نسوا ذكره على عتبات قصر قاتله!

أو هى دهشة معاكسة حول مدى صدق ما ساقوه من وفاء وولاء للملك، وحول

مدى صدق كلمات المداهنة والرياء التى اعتاد الإخوان تقديمها لخصومهم دون

تردد.. إنها المناورات الرديئة التى تقتاد السياسى فى نهاية الأمر، إلى ما اقتادت

إليه الأستاذ حسن البنا.

الهوامش:

- (١) حسن البنا - دعوتنا في طور جديد - دار الكتب العربى بمصر ١٩٥٤ - ص ٣٠ .
- (٢) فتحي غانم (رواية): الرجل الذى فقد ظله - الكتاب الثالث (ناجى) - سبتمبر - ١٩٦٩ ص ٣٠ .
- (٣) طارق البشرى: المرجع السابق - ص ٢٦٠ .
- (٤) لوجهة النظر المعادية لتحرك الإخوان فى اليمن - راجع: الإخوان والإرهاب - القاهرة ١٩٥٥ - ص ٤٢-٥١ .
- ولوجهة نظر الإخوان راجع : محمد الغزالى - من هنا نعلم - الطبعة الرابعة - الذى يمجّد الانقلاب كتحرّك إسلامى ضد حكم الكهانة - ص ١٠٦ . وراجع أيضاً: مجلة الباحث - ١٢/١٢/١٩٥٠ .
- (٥) محمود عبد الحليم - المرجع السابق - ج ١ - ص ٤٠١ .
- (٦) المرجع السابق - ص ٤٠٢ .
- (٧) د. أحمد فايد الصائدى - المعارضة اليمنية - رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة بون .
- (٨) الإخوان المسلمون - ١٩٤٨/٨/٣ .
- (٩) السيد يوسف - المرجع السابق - ج ٤ - ص ١٨٩ .
- (١٠) مركز الدراسات والبحوث اليمنى - ثورة ١٩٤٨ .
- (١١) أحمد حسن الشامى - رياح التغيير فى اليمن - ص ١٦ .
- (١٢) د. أحمد فايد الصائدى - المرجع السابق - وراجع أيضاً:
- محسن محمد - المرجع السابق - ص ٢٢٩ .
- (١٣) الإخوان المسلمون (اليومية) - ١٩٤٧/١٠/٢٠ .
- (١٤) محسن محمد - المرجع السابق - ص ٢٢٣ .
- (١٥) آخر ساعة - ١٩٤٨/١١/٢٤ .
- (١٦) المصرى - ٢٩، ٢٠، ٢١، يوليو ، ٤١ أغسطس ١٩٤٨ .
- 17) Resner, Lawrance - Eternal Stranger: The Pilgrt of Modern Jew from Bagdad to Casablanca. New York 1951 - P.116
- (١٨) قضايا الإخوان - قضية سيارة الجيب: الحثثيات ونص الحكم - دار الفكر الإسلامى - القاهرة ١٩٥١ .
- 19) Michell - Ibid - P.64
- (٢٠) الدعوة - غرة ربيع الأول ١٣٩٧ - فبراير ١٩٧٧ - تصريح لسعد الدين الوليلى - السكرتير الخاص للشيخ حسن البنا بعنوان "ما هى الأسرار الحقيقية فى قضية اغتيال الشيخ حسن البنا" .
- (٢١) راجع أسلوب صياغة البنا لكتابه الأخير حسن البنا - قول فصل .
- 22) Michell - Ibid - P.67
- (٢٣) المباحث - ١٩٥١/١/٢٣
- 24) Cahiers de L'orient Contemporaine - II 1949 - P.42
- 25) Michell - Ibid - P.67)
- 26) Michell - Ibid - P.78)

- (٢٧) جرائم عصاية الإخوان - المرجع السابق - ص ١٩٣.
- (٢٨) جرائم عصاية الإخوان - المرجع السابق - ص ١٩٣.
- (٢٩) محكمة الشعب - الجزء الثاني - محاكمة حسن الهضيبي - شهادة منبر الدولة - ص ١٢٣٤-١٢٣٧.
- (٣٠) محضر تحقيق النيابة فى قضية مقتل حسن البنا - الجناية ١٠٧١ - ١٩٥٢ - جلسة يوم ١٨ نوفمبر ١٩٥٣ - شهادة السيدة منيرة عامر - ص ٢٥٩ وما بعدها.
- (٣١) محكمة الشعب - الجزء الرابع - محاكمة محمود عبد اللطيف - شهادة المستشار حسن الهضيبي.
- (٣٢) محكمة الشعب - الجزء الثاني - محاكمة محمود عبد اللطيف - شهادة محمد عبد المعز محمد عبد الله - ص ٣٧٦.
- (٣٣) المرجع السابق - شهادة محمود الحواتكى - ص ٢٥٤.
- (٣٤) محكمة الشعب - الجزء الثالث - شهادة د. خميس حميدة - ص ٦٨٠.
- (٣٥) د. محمود جامع - وعرفت الإخوان - ٢٠٠٣ - ج ٥٣.
- (٣٦) طبعت مرات بعنوان "قول فصل" وأخرى بعنوان "القول الفصل".
- (٣٧) حسن البنا - قول فصل.
- (٣٨) محاكمات الثورة - الكتاب الأول - محاكمة إبراهيم عبد الهادى - ص ١٨١.
- (٣٩) المرجع السابق - ص ١٢٥.
- (٤٠) موسى إسحق الحسينى - المرجع السابق - ص ٣٦.
- (٤١) جمال سليم - البوليس السياسى يحكم مصر - القاهرة للثقافة العربية ١٩٧٦ - ص ١٩٩.
- (٤٢) محضر تحقيق النيابة فى قضية مقتل حسن البنا (الجناية ١٠٧١-١٩٥٢) - محضر أقوال محمد يوسف اللينثى - ص ٤٤.

43) Michell - Ibid - P.69

- (٤٤) محسن محمد - المرجع السابق - ص ٤٨٧.
- (٤٥) الدعوة - غرة ربيع الأول - فبراير ١٩٧٧ - ص ٣٨.

فهل تلد الثعابين إلا مثلها؟!

ويمضى الزمن، تتغير الوجوه، أو تتغير ملامحها التى تواجهنا بها.
تتغير اللهجة، وربما تتغير الآنية، لكن الشراب المرير يبقى كما هو، ذات الشراب
المرير.

وقادة الإخوان يدورون حول أنفسهم وحولنا، ويفعلونها كما فعلوها من قبل،
يتصورون أن إخفاء الحقيقة والقول بغيرها هو طوق نجاة. ولقد يكون كذلك، ولكن
مؤقتاً. فما لم تعد الجماعة النظر فى تاريخها الملوث بالدم ومغايرة الحقائق، والقائم
على جذور تناور ولا تمل من المناورة، وتدارى وتستمر فى المداراة، ستظل مؤهلة لأن
تفرز من تحت عباعتها مزيداً من الثعابين السامة، فماذا يمكن للثعابين أن تلد؟
فطالما لم تقم الجماعة بإعادة النظر فى جذورها الفقهية، وتنتقدها انتقاداً جاداً
وجدياً ستظل - وعلى الدوام - مؤهلة مهما كانت نوايا قيادتها، أو خبايا الصراعات فى
صفوفها، لأن تفرز مثل هذه الثعابين.

فماذا يمكن أن تنتظر من عضو يتلقن فى مناخ من الوجل والتأسلم: "إن قتل
أعداء الدعوة غيلة هو من شرائع الإسلام"، وأن "للمسلم أن يكذب القول على عدوه
حتى يتمكن منه فيقتله"، وأنه إذا الأمة أبت أن تستمع إلى ما يقولون "فكبلوا يديها
بالقيود، وأثقلوا ظهرها بالحديد، فإن الكثيرين من هذه الأمة فى عيونهم قذى وفى
آذانهم وقر".

ماذا تريد من عضو يوههم أو يتوهم أن ذلك كله وكثير من مثله هو من الإسلام، بل هو الإسلام ذاته؟

ولهذا ومع مضي الأيام نكتشف أن العباءة الإخوانية المظلمة تسرب لنا، أو تتسرب من تحتها ثعابين متأسلمة، تتماذى فى جهلها بحقيقة الإسلام، فنتأسلم وتفعل ما نعرفه، وما عانينا منه.

ويظل "الإخوان" على حالهم، يقدسون الماضى الملئ بالجرائم والملطخ بالدماء، يخوضون بحار المناورات التى ما أثمرت عليهم سوى وبال.. ويتمسكون بحبال الإنكار لما هو حقيقى، وينطقون بما هو غير حقيقى، ويتصورون أن فى ذلك نجاة لهم من مقصلة التاريخ ومن عذاب الآخرة.

فالتوبة عن الذنوب ليست مجرد تطهير للذات لكنها صيانة لها من عثار المستقبل، بل هى "صدقة" تطهرهم من هذا العثار، وهذا الفقه المتأسلم الذى تمدد فتمددت آثاره، وأنت أجيال تراه كالإسلام، بل وترى أنه الإسلام ذاته، فيكون كل ما يرتكبونه من جرائم وآثام معلقًا فى أعناق هؤلاء المبتدعين، الذين قالوا ببدعة إن قتل أعداء "الدعوة" (التى هى جماعتهم) غيلة هو من شرائع الإسلام، والذين تستروا بالتأسلم ليحققوا أهدافًا سياسية. ناسين أن إقحام الدين وهو المعطى السماوى الكلى الصحة فى ميدان الصراعات السياسية، يضر بالدين وبالسياسة معًا. وأن "الدين تسليم بالإيمان، وأن الرأى تسليم بالخصومة، فمن جعل الدين رأياً فقد جعله خصومة، ومن جعل الرأى ديناً فقد جعله شريعة".

وهكذا فما لم تتطهر الجماعة من فقه خاطئ، فقه متأسلم يصب فى طاحونة أعداء الإسلام والمسلمين إذ يقرر معهم وربما لحسابهم أن الإسلام دين يقر الإرهاب، ويقول به، فسوف تظل ليس فقط مثارًا لشكوكنا ورفضنا، بل وتظل . أيضًا . عبئًا على الإسلام والمسلمين.

وربما كان من حقنا أن نقارن بين جماعة الإخوان بأجيالها المتعاقبة وبإصرارها المستمر والمستमित على التمسك بكل ما كان رغم كل ما أتى عليهم وعلينا بل

وعلى الإسلام بسببه ونتيجة له، وبين شباب جماعة متأسلمة أخرى نشأت أيضاً من تحت عباءتهم وهى "الجماعة الإسلامية"، فهؤلاء راجعوا فقههم وقارنوه بصحيح الفقه، تأملوا فى تأسلمهم وناظروه بصحيح الإسلام ثم امتلكوا نقد الذات، ونقد الفقه المتأسلم وقدموا فقهاً جديداً خالياً من هذا التأسلم المقيت.

فمن هو الأفضل عند الله وعند الإسلام وعند الوطن؟ ولأن التأسلم يتواصل فإنه يحتاج إلى "التقية" لتبريره أو تمريره، ويحتاج إلى مخادعة الآخرين، بل هم يخدعون أنفسهم، وإن اقتصر الأمر عليهم فلا بأس فليظلوا يخادعون ويخدعون ما شاء لهم ذلك، لكن الأمر متعلق بالدين وبالوطن وبمستقبله.. ولهذا تستمر هذه الكتابة.

ولأن الثعابين ومهما قدمت نفسها بغشاء أملس وناعم تبقى ثعابين. وتلد ثعابين. فهل لها أن تلد غير ذلك؟. فإن الأقوال المموهة، والمعسولة، والمغلغة بتأسلم كاذب لا تغنيهم عن أفعال وثمار مريرة، بل وتزداد مرارة.

لنتذكر ونذكر الآخرين بأن بقاء الإخوان على نهجهم هذا وتمسكهم بفقههم المتأسلم لا يثمر ولن يثمر إلا إرهاباً وإرهابيين، ولن يأتى إلا بتأسلم ومتأسلمين. نسرد الوقائع، ننسبها لأصحابها، ونكتفى بذلك، لأننا نعتقد أن هذا السرد ليس تذكراً لما كان، وإنما إنذاراً بما سيكون، وليكون حافزاً لنا ولغيرنا لمواصلة الكتابة والبحث ليس لمواجهة جماعة نبئت كالعشب الضار فى التربة المصرية، وإنما انتقاء لما قد يكون من شرور، وتقليماً لأظافر ما كان لنا أن نلهو عنها ونتركها حتى تستحيل نصالاً مسمومة.

نسرد الوقائع.. ونكتفى بالسرد:

- "أثناء موسم الحج سنة ١٩٦٨، أرسل سعيد رمضان شريطاً مسجلاً مع أحد الحجاج إلى أحمد سيف الإسلام حسن البنا، ولكن المصدر سلمه لمباحث أمن الدولة، وتبين من الشريط أن سعيد رمضان أرسل له أموالاً، وطلب منه الاتصال

بمجموعة من الإخوان للعمل على إعادة إحياء التنظيم والاستعداد لأعمال أخرى سيكلف بها".

لواء فؤاد علام . الإخوان وأنا . ص ٢٦٢

- "بدأت معلوماتنا عن الشيخ عمر عبد الرحمن (أمير الجماعة الإسلامية، وأشهر فقهاء الإرهاب المتأسلم والأب الروحي لأسامة بن لادن) بدأت عام ١٩٦٨ بعد عودته من السعودية، ولقائه مع سعيد رمضان أكبر عناصر الإخوان بالخارج وصهر الأستاذ حسن البنا. وسلمه سعيد رمضان ٢٠ ألف دولار لتوصيلها لعبد المنعم البساطي مسئول الإخوان في الفيوم في ذلك الوقت، ورئيس التنظيم السري في المنطقة. وعندما عاد الشيخ عمر اتصل بعبد المنعم البساطي وأخبره أنه تسلم من سعيد رمضان مبلغ ١٥ ألف دولار واحتفظ لنفسه بالباقي".

لواء فؤاد علام . الإخوان وأنا . ص ٢٨٥

- "أول محاولة لاغتيال عبد الناصر بعد النكسة قادها صقر سليمان أبو بكر مقال من السويس، كان متعاطفًا مع الإخوان، وقام سعيد رمضان بتجنيدته أثناء تأديته لفريضة الحج. واتصل صقر لدى عودته بإحدى مجموعات الإخوان في السويس.. وقاموا بشراء متفجرات من حلوان.. ولكن أجهضت المحاولة".

لواء فؤاد علام . الإخوان وأنا . ص ٣٣٤

- "قام عضو جماعة الإخوان السيد سالم المقيم في ألمانيا بتجنيد شاب مصري مسيحي سافر للتدريب هناك ويدعى س. أ. عبد الملك وأقنعه بأن النظام في مصر فاشستي، وأغراه بسيارة مرسيدس هدية سينقلها إلى مصر وبداخلها بندقية مزودة بتيلسكوب ومخباءة بطريقة سرية، وزوده بمدفع منشورات دخل مصر لأول مرة وهو مثل صواريخ الاحتفالات، ويقوم بإطلاق نافورة من المنشورات على مساحة كيلو متر. ووصلت السيارة وبداخلها السلاح، وقام باستئجار غرفة في فندق إفرست بميدان رمسيس انتظارًا لوصول ركب الرئيس وإطلاق النيران عليه بالقرب من محطة كوبري

الليمون، واستعان المتهم باثنين من أصدقائه هما: "محمد السيد زارع ومحمد أبو الذهب" .. وقبل ساعة الصفر قبض عليهم وقدموا للمحاكمة".

لواء فؤاد علام . الإخوان وأنا . ص ٣٣٤

. "تردد اسم زينب الغزالي في اعترافات صالح سرية (قائد تنظيم شباب محمد المسمى إعلاميا بالفنية العسكرية) وتحدد دورها بالضبط في التنسيق بين جماعة الإخوان وصالح سرية. وقال صالح سرية إن زينب الغزالي اصططحته لمقابلة المستشار حسن الهضيبي المرشد العام. واعترفت زينب الغزالي أنها أمدت صالح سرية بمبلغ من المال قالت إنها لا تتذكره.. وقد أنكرت في النيابة اعترافاتها وواجهتها النيابة بصالح سرية الذى تعرف عليها وواجهها بدورها، ولكن شهر العسل بين السادات والإخوان كان قد بدأ وأفلتت زينب الغزالي".

لواء فؤاد علام . الإخوان وأنا . ص ٣٣٤

. "اتصل صالح سرية بالأخت زينب الغزالي، واستمر في زيارتها، والتقى عندها بطلال الأنصارى، واتفقا على وجوب إقامة جماعة إسلامية تسعى من خلال الجهاد إلى تغيير النظام القائم، وإقامة نظام إسلامي.. وأصبح طلال الأنصارى أميراً للجماعة فى الإسكندرية".

المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية "ندوة الحركات الدينية المتطرفة"

١٩٨٢/٥/١٢ بحث بعنوان "قراءة فى تحقيقات قضيتى الفنية العسكرية..

إعداد: منى العرينى . عبد الفتاح عبد النبى . محمد شومان" - ص ٢٣٠.

. "من المعلومات المهمة التى حصلت عليها بعد حادث المنصة أن الإخوان فى الخارج هم الذين مولوا الجماعات الإرهابية، وأكدت التحريات أن سالم عزام المسئول الإخوانى فى الخارج والذى كان يحمل عدة جوازات بينها جواز دبلوماسى لدولة عربية هو الذى مول العملية عن طريق ابن شقيقته أيمن الظواهرى وأمدّه بالأموال فى فترات متفاوتة حتى وصلت مائة ألف دولار فى السنة".

لواء فؤاد علام . الإخوان وأنا . ص ٣٣٤

- "أما نجوم الإخوان الذين انتشروا فى السبعينيات فقد لعبوا على الجميع، وأوهموا السادات بأنهم حلفاؤه واتصلوا من وراء ظهره بالجماعات المتطرفة وأمدوهم بالمال والدعم، وتم تكبيل مباحث أمن الدولة عن متابعة نشاطهم".

لواء فؤاد علام . الإخوان وأنا . ص ٣٣٤

- "لو قرأ السادات سطرًا واحدًا من ملف مؤامرات الإخوان المسلمين لأراحنا واستراح، ولما كانت مصر وقعت فيما وقعت فيه، ولما راح هو ضحيته فيما بعد".

لواء فؤاد علام . الإخوان وأنا . ص ٣٣٤

- "ولد عبد الله عزام فى قرية سيلة الحارثية فى لواء جنين عام ١٩٤١، وانخرط فى صفوف جماعة الإخوان وهو دون الخامسة عشرة من العمر، وشكل أول أسرة للإخوان فى قريته وهو لا يزال طالبًا فى الإعدادية. وكان للأستاذ حسن البنا تأثير كبير فى تكوين شخصيته، وكان يعتبر أن رسائل البنا تمثل مناهجًا وضع الأسس العامة للحركة الإسلامية فى كل زمان ومكان، ودأب على توزيع هذه الرسائل على شباب الإخوان وكان يدعوهم إلى حفظها. كما تأثر كثيرًا بفكر سيد قطب وكان يحفظ مقولاته عن ظهر قلب.

عمل بعد ذلك معيدًا بكلية الشريعة بالأردن، ثم عاد إلى مصر ليعد رسالة دكتوراة فى الأزهر، وعاش طوال فترة إعداد الدكتوراة مع آل قطب (حميدة ومحمد قطب) ومع مجموعات الإخوان الذين أفرج عنهم، ووثق علاقته بقيادات الإخوان. وبعد أن حصل على الدكتوراة فى الفقه عام ١٩٧٣ عاد إلى الأردن وفى ذهنه خطة إخوانية تتلخص فى أسلمة المجتمع عن طريق الجامعة. وبدأ فى تجنيد الطلاب إلى صفوف جماعة الإخوان، واتسع نشاطه إلى درجة أقلقَت السلطات الأردنية فصدر قرار عسكرى عام ١٩٨٠ بفصله من الجامعة.

عبد الرحيم على . حلف الإرهاب . تنظيم القاعدة من عبد الله عزام إلى أيمن

الظواهرى . ج ١ . ص ٢١

- "توجه عبد الله عزام من الأردن إلى السعودية، حيث عمل بفضل نفوذ الإخوان

هناك مدرسًا بجامعة الملك عبد العزيز بجدة عام ١٩٨١، وهناك التقى بكمال السنانيى أحد رجال النظام الخاص فى جماعة الإخوان. والذى كان قد زار أفغانستان من قبل موفدًا من قبل الجماعة للاطلاع على الوضع العام هناك وتحديد الدور الإخوانى، واتفق معه السنانيى على الذهاب إلى أفغانستان للقيام بالدعوة، وباستقبال الشباب الوافد إلى هنا.

وفى مايو ١٩٨٦ أنشأ عزام أول معسكر لتدريب "المجاهدين" العرب داخل الأراضى الأفغانية، وأطلق عليه "عرين الأسد" أو "المأسدة"، وكان هدفه تكوين قوة انتشار سريع مهمتها تقديم المساعدة القتالية لأية فئة مسلمة فى أى بقعة من العالم تضطهد من قبل قوة غاشمة.. ووضع القواعد الفقهية لذلك فى كتابه "الدفاع عن أراضى المسلمين أهم فروض الإيمان".

عبد الرحيم على . حلف الإرهاب . ص ١ . ص ٥
- يقول أيمن الظواهرى "كان ذهابى إلى أفغانستان هذه البلاد البعيدة بترتيب قدرى، فقد بدأت صلتى بأفغانستان صيف عام ١٩٨٠ حينما كنت أعمل بصفة مؤقتة مكان أحد زملائى فى مستوصف السيدة زينب التابع للجمعية الإسلامية وهى إحدى أنشطة الإخوان المسلمين. وفى إحدى الليالى كلمنى مدير المستوصف - وهو من الإخوان المسلمين - عن رأى فى السفر لباكستان للعمل فى المساعدة الجراحية للمهاجرين الأفغان، فوافقت على الفور إذ وجدت فى هذا العرض فرصة ذهبية للتعرف على ميدان من ميادين الجهاد، التى يمكن أن تكون رافدًا للجهاد وقاعدة فى مصر والعالم العربى، قلب العالم الإسلامى حيث تدور معركة الإسلام الأساسية".

أيمن الظواهرى . فرسان تحت راية النبى .

نقلًا عن الإنترنت

وهكذا تمتد الخيوط العنكبوتية التى تتبدى وكأنها خيوط جهنمية التشابك.. ويطلق عليها الإخوان دومًا عند أى تحاسب أنها ترتيبات قدرية أو مصادفات.

. زينب الغزالي . صالح سرية . طلال الأنصاري . الفنية العسكرية . عبد الله عزام .
كمال السناني . "المأسدة" أو "عرين الأسد" . أسامة بن لادن . تنظيم القاعدة .
. سالم عزام . أيمن الظواهري . اغتيال السادات
أية مجموعة من المصادفات هذه؟
وهل يمكن لعاقل أن يصدق أنها جميعًا مصادفات؟
ولأننا لا نحب أن نحاكم الضمائر أو نتكلم دون دليل قطعي، فإنه يتوجب
علينا، كما يتوجب على كل باحث أو كاتب أو مفكر أن يخوض البحث المدقق
والعلمي والموضوعي عن هذه العباءة السوداء، العنكبوتية التشابك وعن علاقاتها
بحالات الإرهاب المتأسلم هنا أو هناك.
ولهذا سيكون ثمة جزء ثالث، إن كانت ثمة بقية من أيام.

وثعابين الإرهاب تأتى من الجماعة

الجزء الثالث

وثعابين الإرهاب تأتي من الجماعة
صالح سريه... ولعبة الفنية العسكرية
شكري مصطفى... تكفير المجتمع

الجزء الثالث

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ
ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
يُحْسِنُونَ صُنْعًا) ((١٠٤)) [الكهف]

قرآن كريم

أنا الإله
لم أمر أحداً أن يفعل السوء
لكن قلوبهم هي التي أفسدت كل ما قلت
ورغم أن الإنسان اعتاد ارتكاب الخطيئة
فإن الرب يعرف دوماً الرحمة
لأن الإله في طيبة، لا يضع يومه كله في
الغضب

.....

قوة المرء في لسانه
والحديث الطيب أقوى من الحرب
القتل لا يفيد
لا تكن فظاً

.....

اختلت الموازين
اختفى الحق
البعض يحاول حتى خداع الآلهة
يذبحون الأوز كقربان
ويقدمونها للآلهة زاعمين أنها ثيران

من بردية فرعونية

ونواصل

وليس فى الأمر أية مبالغة. فالكاتب يعتقد أهمية الموضوع وخطورته. ويعتقد أن المعركة ضد "التأسلم" هى معركة من أجل مصر وشعبها وتراثها ومستقبلها. وهى أيضا معركة تستهدف تبرئة الإسلام والمسلمين من كل هذه الدعاوى المتأسلمة التى منحت الأعداء فرصة التهجم على الإسلام والمسلمين. ولأنه لا حيلة للعاشق فى عشقه. فلا حيلة لنا إزاء هذا الخطر سوى أن نحاول قدر الطاقة ولو بجهد المُقلّ دفع هذا الخطر، وإجلاء الحقيقة.

ومهما امتدت الكتابات سنظل بحاجة إلى مزيد. ليس فقط إلى مزيد من الكتب وإنما إلى مزيد من الكتاب. فالتأسلمون يأتون وقد ارتدوا ثياباً يزعمون - أو يعتقدون - أنها صحيح الإسلام. وباسم الدين يشهرون سيوفهم فى وجه الحقيقة، وفى وجه الدين وصحيحه، وفى وجه مصر ومستقبلها.

ولعلمهم يظنون أنهم يحسنون صنعا.. لكننى أظن أنهم رغم حسن ظنهم - هذا إن كانوا كذلك - سيقون كما وصفهم القرآن الكريم (بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا) (١٠٣)) [الكهف].

فهل ثمة أفدح من أن "يضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا"؟ وهل ثمة أخطر من مزج الخطأ بتهويمات توحى للنظر السطحى بأنها من صحيح الدين؟

ومثل هذه المحنة لا تؤذى أصحابها فحسب ولا من يشهرون سيوفهم ضد الدين لا هم... ولا نحن فقط، ولا مصر ومستقبلها فقط. وإنما هى تغذى النزعة المعادية للإسلام والمسلمين على نطاق العالم ، وتعطى للخصوم سلاحاً فى حربهم ضدنا.

فالدين.. كل دين هو منحة للهداية والاهتداء. وهو سلام ومحبة، فإن تحول إلى نصل وسيف على أيدي أولئك أو هؤلاء فإن الجريمة يقع وزرها على عاتق هؤلاء "الخارجين" عن صحيح الدين.

ويصبح من واجبنا جميعاً العمل على تصحيح المفاهيم. فرب حرب أهاجها قبيح الكلام كما يقول العرب القدامى. فالمفاهيم الخاطئة تغرى، لأنها ترتدى بريق التطرف والتشدد والتشدد بكلمات وعبارات تستهوى عقول وأحلام السذج، ولأنها تنتدى لمن لا يمعن النظر ويعمل العقل المتعقل وكأنها تشدد فى الدين وما هى سوى تأسلم.

ويقع الوزر هنا ليس على الدعاة إلى هذا التأسلم وحدهم ولا على الآتين إليهم منبهرين ببريق عبارات يخفى بريقها ما فيها من تباعد حقيقى عن صحيح الدين، وإنما على كل من عرف الحقيقة واكتفى بالصمت، اكتفى تباعداً أو تشاغلاً أو تخوفاً أو تمسكاً بالعصا من منتصفها. إثارةً للسلامة.. الآن أو مستقبلاً. والوزر هنا ثقیل فهو يمس الدين والدنيا، والعقيدة والإنسان، العقل والوطن. وويل لمن كان قادراً أن يمد يداً لإنقاذ هؤلاء جميعاً ولم يفعل.

وتمس هذه الكتابة مسألة بالغة الأهمية. هى علاقة جماعة الإخوان بمن أتوا من تحت عباءتها. وهم كل المتأسلمين. فعنقود الثمار المريرة نراه وعلى الدوام يهبط من هذه الجماعة، يأتى منها ويرتد إليها ويظل كذلك.

ولقد نقول الجماعة وما حيلتنا فيمن يتشدد من بين صفوفنا؟ ونقول.. ولماذا هم دوماً من قافلنكم؟ أليس لهذا الأمر من مغزى يستحق التأمل والدراسة؟ ونقول، بل ونكاد أن نؤكد أن الأمر سيظل هكذا حتى تأتوا إلى كلمة سواء.

حتى ماذا..؟ يسألون ونسأل. والإجابة واضحة وصريحة حتى تعلن الجماعة نقداً واضحاً وصريحاً لكل ما أفرزته من أفكار وأقوال وأعمال خاطئة كانت الجنين لكل ما يتولد عنه من تأسلم وإرهاب.

لكن جماعة الإخوان لا تتخيل أنها أخطأت. وحتى إن تأكدت من الخطأ والخطيئة فإنها لا تتقبل مبدأ انتقادها.

ولقد تكتفى بما أسمته "مراجعات" فتصدر كتابات جديدة قد تختلف في لغتها وحتى في أفكارها عما كان في الماضي، لكن الجديد - ويا للغرابة - ليس صحيحاً هو أيضاً.

والجماعة اعتادت أن تراكم مواقف متعددة وربما تكون متناقضة للموضوع الواحد. تحتفظ بهذا وذاك معاً رغم اختلافهما.. وتستخدم كلا حسب الحاجة.

وكنموذج لهذه المزاوغات.. نلاحظ أن المرشد العام السابق للجماعة الأستاذ مهدى عاكف سارع بإعلان مبادرة سياسية في ظلال زيارة مبعوث أمريكي للترويج لمشروع الشرق الأوسط الكبير. وجاءت المبادرة الإخوانية - ربما لسبب تعرفه قيادة الجماعة أو تطمح إليه - خالية من أى نقد لما يتعرض له الفلسطينيون من عسف وظلم. ولا نقد لجرائم شارون ضدهم ولا حديث عن الجرائم الأمريكية في العراق وفي أبو غريب وفي جوانتانامو ولا كلمة عن الانحياز الأمريكي السافر لإسرائيل والصهيونية.

وما إن وجهنا انتقاداً حاداً للمبادرة الإخوانية بصيغتها هذه. حتى أعادت الجماعة إصدارها وقد أضافت إليها ما كان واجباً أن يضاف. وهذا حسن. لكن الغريب أنها لم تشر إلى وجود إضافات أو تعديلات أو حذف.. وقد فعلت ذلك كله.

وهكذا أصبحت تحت أيدينا وثيقتان مختلفتان كل منهما تحمل عنواناً متماثلاً هو "نص" مبادرة المرشد العام.

وتبقى المتناقضات متراكمة دون أن ينفي أى منها الآخر تستخدم الجماعة أياً منها عند الحاجة.

ومثل هذا الأسلوب سواء في مجال الفكر الدينى أو الفكر السياسى يؤدي بأصحابه إلى المجازفة الدائمة بأن يكون لهم أكثر من موقف معلن، لا ينفي أى منه الآخر.

وفى مجال السياسة تبدو المجازفة قليلة الخطر، بل ويبدو الاحتفاظ بأكثر من موقف نوعاً من "الفهلوة" التى تتلاعب بكل المواقف وبكل الحبال. وإن كانت الثمار تبقى دوماً مريرة.

لكن الخطر الأكبر أن يحدث ذلك فى مجال الفكر الدينى، فتاريخ الجماعة ملئ بأخطاء أدت إلى أفعال إرهابية وإلى مواقف تقتاد صاحبها نحو الإرهاب. والجماعة تحتفظ بذلك كله ليس فى بطون الفعل عبر زمن طويل، وإنما أيضاً فى بطون كتب وكتابات تجعل من الإرهاب عملاً إسلامياً مجيداً. وتقدم ولائم مسمومة من أفكار متأسلمة شديدة الانحراف عن صحيح الدين. والأمثلة عديدة تبدأ من كتابات عتاة قادة الجهاز السرى الإرهابى للجماعة، وهى جميعاً تتباهى بما ارتكبوا من أعمال إرهابية، بل ويؤكد بعضها أن قتل عدو الدعوة غيلة هو من شرائع الإسلام. وكتابات مثل:

• النقط فوق الحروف - أحمد عادل كمال

• حصاد العمر - صلاح شادى

• حقيقة الجهاز الخاص ودوره فى جماعة الإخوان - محمود الصباغ

وجميعهم من قادة الجهاز السرى للجماعة.

وكتابات مثل كتاب الأستاذ سيد قطب "معالم فى الطريق"، وأجزاء "فى ظلال القرآن" الثلاثة عشر فى طبعته الثانية.

هذه كلها كتابات استحققت ولم تزل تستحق أن يجرى تبرؤ الجماعة منها عبر الإعلام صراحة وجهاراً نهاراً لأنها تأسلم وليست إسلاماً. وإعلان أن الجماعة تنتقدها وتعلن براءتها منها.

لكن الجماعة لم تفعل؟ لأنها فى الواقع لا تريد.

"قالجماعة لا تعتذر" هكذا أكد المرشد العام السابق الأستاذ مهدى عاكف. ولست أعرف لماذا؟ هل لأن الاعتذار عن الأخطاء وحتى الأخطاء الجسيمة ليس من شيم الجماعة؟ هل هو حلال أم حرام؟ أم لأن الجماعة "معصومة" لا تخطئ

ولم تخطئ طوال تاريخها؟ أم لأن تكوين جهاز سرى، وتخزين الأسلحة، والتدريب عليها، واستخدامها فى قتل ونسف واغتيال روع الأمنين كل ذلك كان ولم يزل صحيحاً فى نظرهم.. أم ماذا؟

إنه ذات المنهج.. مراكمة المواقف دون نفى الصحة عن أى منها تحسباً لاحتمال الاحتياج إلى الموقف القديم. والمأساة هنا أن تبقى الأعمال الإرهابية والكتابات والكتب التى تروج لها وتؤكد أنها من شريعة الإسلام تبقى متاحة لمن يقرأ، ومتاحة لمن يتأثر بها ويصدقها ثم يقلدها معتقداً أنه يفعل ما هو صائب. ومن هنا فقد عرف الإسلام ضرورة "التوبة".

والتوبة ليست مسألة باطنية. أن يتوب الإنسان عما فعل أو عما كتب وروج من أفعال خاطئة - يتوب عنها بينه وبين نفسه - بل يتحتم عليه أن يعلن توبته هذه، وأن يروج لها بقدر ما روج للأفكار والأفعال المتأسلمة وربما أكثر. كى يمحو من الذهن الأثر الضار لما فعل. وإلا فإن الأفكار المتأسلمة تبقى بعيدة عن الانتقاد والتصحيح والإدانة، تبقى فاعلة وقادرة على توليد أفعال إرهابية عبر إرهابيين يأتون دوماً من العبادة الإخوانية. ويقع الوزر كله على أصحاب هذا الفعل وذاك الفكر. أصحابه القدامى وأصحابه الجدد.

ويحاول "الإخوان" الهروب من مأزق "التوبة" أو "النقد الذاتى" بتعبيرنا الحديث مقدمين أنفسهم الآن فى ثياب بريئة. قائلين: نحن لم نرتكب فعلاً إرهابياً منذ عام ١٩٦٥، أى منذ القبض على الأستاذ سيد قطب وجماعته. ناسين أن سقوط الجريمة بالتقادم يحدث فقط فى القانون الوضعى الذى ينكره الكثيرون منهم. أما فى الوعاء الدينى فالخطأ يبقى خطأ والحرام يبقى حراماً مهما مضت الأزمنة على وقوعه... ويبقى معلقاً فى عنق صاحبه - ما لم يتب عنه - حتى يوم القيامة. ويبقى معلقاً فى عنقه أيضاً وزر كل من تبعه أو قلده أو سار على دربه لأنه لم يعلن توبته عما قال وعما فعل.

ولهذا فإننا سنظل نحاسب جماعة الإخوان، ونلقى على عاتقها بمسئولية الآتين

من تحت عبايتها، سواء الفكرية منها أو التنظيمية، حتى تعلن الجماعة علناً وجهاً نهاراً براءتها من كل ما كان من أخطاء أنت قولاً أو فعلاً عبر مسارها. فإن لم تفعل فإن عليها وزر ما فعلت ووزر من تبعها مصداقاً صحة ما ارتكبت. ونظل مطالبين بمطاردتها هي والآتين من عبايتها.

والمثير للدهشة أن دراسة عمق التاريخ الإسلامى يكشف لنا أن المتأسلمين الجدد ليسوا سوى متبعين لتراث متأسلمين قدامى هم "الخوارج". فهم يكادون أن يكونوا مجرد نسخة منهم سواء فى الفكر أو فى الفعل.

ولهذا تطلب البحث أن نفرد دراسة لفكر الخوارج ورؤيتهم فى التكفير ورأيهم فى ضرورة الهجرة. ومطالعنا لما قيل عن الخوارج وما قالوا وما فعلوا تكشف لنا تقارباً وربما تطابقاً مثيراً للدهشة بين ما يقوله متأسلمو اليوم وأسلافهم القدامى.

وهو أمر يستحق التأمل. ويستحق الإفصاح عنه لأنه ربما أسهم فى إقناع البعض بخطر هذا وخطئه. خاصة إذا ما لاحظنا تشابهاً بل وتطابقاً بين هؤلاء وأولئك سواء فى المسلك الفكرى أو العملى أو حتى الشخصى.

وهكذا يتجسد الخطر أمام أعيننا. فتاريخ الخوارج وما ارتكبوا من جرائم، وما أثاروه من انقسام فى صفوف المسلمين، وما روجوا من فكر آثم ومؤثم يكفى إن صحت المقارنة لكى يسلط الضوء على مخاطر التأسلم الحديث والمتأسلمين المحدثين.

وكما حدث فى الماضى.. يحدث فى الحاضر. تبرز فكرة مما لآلة هذه الأفكار والأفعال. والبحث عما أسمى بـ "المصالح المشتركة". وهى أفكار استخدمت من بعض حكام المسلمين فى صدر الإسلام استهدفت استخدام "الخوارج" ضد بعض الخصوم وسنرى أنه كما برع المتأسلمون القدامى فى استخدام أكذوبة "المصالح المشتركة" وإن مرحلياً فإن متأسلمى الحاضر أو الأمس القريب حاولوا الاستفادة منها". وربما استفادوا هم أيضاً مؤقتاً.

فقد ظل الأستاذ حسن البنا يلعب - أو يتقبل من النظام - لعبة المصالح المشتركة، بينه وبين القصر الملكي تارة، وبينه وبين أحزاب الأقلية أو حتى الاحتلال تارة أخرى. لكنه وبعد أمد ظن فيه أنه يتلاعب بالجميع، اكتشف وبعد فوات الوقت أنه كان أيضاً - وبرغم ما حقق من مكاسب وقتية - ألغوية في يد الجميع.. وانتهى الأمر بما نعرفه جميعاً.

كذلك تتعرض هذه الكتابة للعبة المصالح المشتركة التي لعبها الأستاذ عمر التلمساني وشكري مصطفى وغيرهما مع الحكم في فترة السبعينيات حتى كان ما كان. وهي تتشابه سواء في الفكر أو في الفعل أو في المصير مع الموجات المتأسلمة التي أتت بعدها.

وهي مسألة تستحق دراسة متأنية حاولنا أن نورد بعضاً منها، لكنها لم تزل بحاجة إلى استكشاف تفاصيلها وفك طلاسمها.. بحثاً عن العبرة والموعظة التي يمكن تلخيصها في عبارة شديدة الإيجاز وقوية "أن من يرى الثعابين السامة في بيته لن يلبث أن يتعرض لسمومها إذ تلدغه".

... هذه هي العبرة.

فهل نعتبر؟

هذا هو السؤال.

وما كان ما كتبناه في الماضي.. وكل هذه الكتابة التي بين أيدينا، وكل ما سوف نكتبه إن كان ثمة بقية من عمر.. سوى محاولة للتحذير من ذلك، والدعوة إلى مواجهة فكرية شاملة لهذا الفكر المتأسلم.

فهل نتعلم درس التاريخ.

سواء القديم منه أو الحديث؟

مرة أخرى.. هذا هو السؤال.. الذي يتعلق مصيرنا ومصير شعبنا ووطننا بالإجابة عنه، إجابة مستقيمة.

د. رفعت السعيد

التكفير والهجرة عبر التاريخ

صراع الأنظمة والمتأسلمين
من يختطف الإسلام لصالحه؟

التكفير عبر التاريخ

"والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها، والله ما هي من
كتاب الله ولا سنة نبيه. والله إنني لأرى حقاً يطفأ، وباطلاً
يحيى، وصادقاً مكذباً، وأثرة بغير تقى"

أبو ذر الغفارى

ما من أحد منهم أتى بجديد.

تشددوا إلى أقصى حدود التشدد، تنكروا للكثير والكثير مما قال به صحيح الإسلام. أباحوا واستباحوا دماءً وأموالاً أنكر الإسلام إباحتها. وظن البعض أنهم يأتون بجديد أو بعض من جديد. فقط، هم فتشوا في أرجاء الانحراف عن صحيح الدين وانتقوا منها الأسوأ والأبشع وأخذوا به.

فلا رجال الجهاز السرى لجماعة الإخوان وتحبيذهم لقتل مخالفى جماعتهم^(١) ولا سيد قطب صاحب دعاوى تكفير الحاكم والمحكوم^(٢)، ولا صالح سرية ولا شكرى مصطفى ولا أى ممن تبعوهم أتى بأى جديد.

فتاريخ الانحراف المتشدد الداعى للتكفير وللهجرة قديم قدم الأيام الأولى لإسلام المسلمين. وكل ما فعله المكفرون الجدد هو أنهم أزاحوا الصحيح جانباً وأتوا بالفاسد فاستخدموه ليعيثوا به فى الأرض فساداً.

يقول ابن الجوزى إن الأصل فى المروق من صحيح الإسلام هو الفكر الخارجى، وأن أول حديث للرسول (ﷺ) عن هؤلاء وفكرهم جاء بعد واقعة اعتراض "ذو الخويصرة التميمى" على قيام الرسول بتوزيع غنائم غزوة خيبر، وقيل الغنائم التى أرسلها الإمام على من اليمن حيث نشر الإسلام هناك.. فأقدم (ﷺ) بتوزيع الغنائم على أشخاص معدودين من صناديد العرب وسادتهم والحديثى العهد بالدخول فى الإسلام، وذلك لحكمة سياسية، "فقام إلى الرسول (ﷺ) رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناتئ الجبهة، كث اللحية، مشمر الإزار، ملحوق الرأس هو ذو الخويصرة التميمى وقال: اتق الله يا رسول الله، فرفع الرسول رأسه قائلاً: ويحك أبس أحق الناس أن يتقى الله أنا؟

ثم قال: "سيخرج من أصل هذا الدين قوم يقرءون القرآن ولا يجاوز حناجرهم،

يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية"، وفي رواية أخرى قال: "تحقر صلاة أحدكم في جنب صلاتهم، وصوم أحدكم في جنب صومهم، لكن لا يجاوز إيمانهم تراقيهم (أي حلوقهم)". ويمضى ابن جوزي قائلاً: "وهذا هو أول خارجي في الإسلام، وأتباع هذا الرجل هم الذين قاتلوا على بن أبي طالب كرم الله وجهه"^(٣).

نتأمل كلمات الرسول.. ونتمعن فيها لنكتشف أنها تنطبق على دعاة التكفير في زماننا، فهم يظهرون أعلى درجات الإيمان ويتظاهرون بالتمسك بأهداب الدين، ولكنهم كما قال الرسول: "يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية"، و"لا يجاوز إيمانهم تراقيهم".

ثم ينطلق فكر الخوارج بعد ذلك في خلاف مع الإمام على، وهو خلاف مصنوع ومصطنع، فقد دفعوا علياً دعفاً إلى قبول التحكيم، فعلى صاح بقومه محذراً من خديعة رفع جيش معاوية للمصاحف على أسنة الرماح مطالبين بالتحكيم، لكن زيداً بن فديك الخارجي صرخ في وجهه "أجب إلى كتاب الله، وإلا ألقينا برميتك إليهم"^(٤). لكن ابن فديك ورجاله ما لبثوا أن اتهموا علياً بالكفر لأنه قبل مبدأ التحكيم أي ذات ما أجبروه على فعله، وجادلوه قائلين "إن كنت تعلم أنك الإمام حقاً فلم رضيت بحكميهما، وإن كنت لا تعلم أنك الإمام حقاً فلم أمرتاً بالمحاربة؟ ثم انفصلوا عنه وكفروا علياً ومعاوية وعثمان وأصحاب الجمل بمن فيهم أم المؤمنين عائشة والحكمين وكل من رضى بالتحكيم من أهل صفين"^(٥).

ويقول شيخ السنة والجماعة أبو الحسن الأشعري: "وأجمعت الخوارج على إكفار على بن أبي طالب، وهم مختلفون هل كفره شرك أم لا"^(٦).

وتجمع المصادر كلها على أنه لم يكن "في جماعة الخوارج صحابي واحد"^(٧). ولكن هذه التوجهات الخارجة عن الإسلام وعن العقل تأتي على الدوام مكسوة بغلاف من تدين ظاهري، لعله أكثر ورعاً في ظاهره من كثير غيرهم من سائر المسلمين.

يقول عبد الله بن عباس وقد زارهم في حروراء قرب الكوفة لمجادلتهم: "قدخلت

على قوم لم أر أشد منهم اجتهداً؛ جباههم قرحة من السجود وأياديهم كأنها ثقل الإبل (أخفاف الإبل)، وعليهم قمص مرخصة (طاهرة) مشمرين، مسهمة وجوههم من السهر" (٨). ويقول جندب المرادي: "لما عدلنا إلى الخوارج ونحن مع علي كرم الله وجهه. وإذ انتهينا إلى معسكرهم فإذا لهم دوى كدوى النحل من قراءة القرآن" (٩)، ويقول ابن الجوزي إنهم كانوا يوظفون هذه المسحة الإيمانية في قتالهم ضد جيوش المسلمين فكانوا يصيحون ببعضهم أثناء القتال "تهياً للقاء الرب، الرواح الرواح إلى الجنة" (١٠).

ولعل أفضل تشبيه حديث لهم هو ما أورده فضيلة الشيخ أبو زهرة في كتابه "تاريخ الجدل" إذ قال: "هم كاليعاقبة في الثورة الفرنسية حيث نادوا بالحرية والإخاء والمساواة وباسمها ارتكبوا أفظع الشنائع في حق الأبرياء والأعداء، كذلك الخوارج استولوا على عقول الناس بخطاب مشحون بعبارات الإيمان والعدالة والحاكمية لله، والبراءة من الظلم والظالمين وباسمها أباحوا دماء المسلمين من الأبرياء ومن مخالفهم في الرأي".

وهم دوماً.. القدامى منهم والجدد يصورون لنا وربما لأنفسهم أنهم إنما يكفرون المسلمين ويسفكون دماءهم تقرباً إلى الله وتعبيراً عن إيمان عميق.

فعندما هاجمهم علي بن أبي طالب طالباً قتلة الصحابي الجليل عبد الله بن خباب وزوجته وجنينها، برز إليه أحد أمرائهم وهو حرقوص بن زهير البجلي المعروف بذي النديّة قائلاً: "يا ابن أبي طالب نحن لا نريد بقتلك إلا وجه الله والدار الآخرة، فرد عليه على قائلاً: بل منكم من قال الله عز وجل عنه: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً) (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً" (١٠٤) [الكهف] (١١).

ويورد ابن الجوزي حكاية عن القصاص من قاتل علي بن أبي طالب وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادي.. "فقد قطع عبد الله بن جعفر يديه ورجليه فلم يجزع ولم يتكلم، فكحل عينيه بمسمر محمى فلم يجزع، وجعل يقرأ: "اقرأ باسم ربك الذي

خلق، خلق الإنسان من علق حتى ختمها وإن عينيه لتسيلان، فعولج على قطع
لسانه فجزع، فقليل له لم جزعت فقال أكره أن أكون في الدنيا مواتاً لا أذكر
الله^(١٢).

بل إن عمران بن حطان وهو أحد غلاة أمراء الخوارج قال مادحاً ابن ملجم
على قتله لعل غيلة:

لله در المرادى الذى سفكت

كفاه مهجة شر الخلق إنسانا

أمسى عشية غشاه بضربته

مما جناه من الآثام عريانا

يا ضربة من تقى ما أراد بها

إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا

إنى لأذكره حياً فأحسبه

وفى البرية عند الله ميزنا

وهكذا هم دوماً، فى الماضى كما فى الحاضر يبررون لأنفسهم ما يرتكبون من
جرائم فيتهمون علياً كرم الله وجهه بأنه "شر الخلق إنساناً" وأن قاتله سيبلغ "من ذى
العرش رضواناً".

لكن صحيح الإسلام كان دوماً قادراً على الرد على هؤلاء الغلاة الذين
يتحدثون بما يشبه الإيمان، لكنه إيمان لا يجاوز حناجرهم.

ورداً على قصيدة عمران بن حطان فى مدح قاتل على، يقول الشاعر بكر بن
حماد التهرتى:

قل لابن ملجم والأقدار غالية

هدمت ويلك للإسلام أركاننا

قتلت أفضل من يمشى على قدم

وأول الناس إسلاماً وإيماناً

وأعلم الإنسان بالقرآن ثم بما

سن الرسول لنا شرعاً وتبينا

صهر النبي، ومولاه وناصره

أضحت مناقبه نوراً وبرهاناً^(١٣)

إنها المعركة الدائرة أبداً بين الإسلام والتأسلم.

ويمضى المتأسلمون يغرقون أكثر فأكثر فى مهاوى تأسلمهم ينحدرون من غلو إلى المزيد من الغلو فيصلون إلى حتمية الهجرة.

يقول أبو الحسن الأشعري: "ومن أكثر أمراء الخوارج تطرفاً نافع بن الأزرق الحنفى أمير الفرقة المسماة بالأزارقة، وقد أحدث إكفار من لم يهاجر إليه"^(١٤).

وتقول المصادر إن الأزارقة من غلاة الخوارج وعتاتهم، وإنهم قالوا بثمانى بدع: تكفير على بن أبى طالب، وتكفير معظم الصحابة، وتكفير القاعدين عن الهجرة إليهم، وإباحة قتل أطفال ونساء مخالفينهم فى رأى، وحكمهم بأن أطفال المشركين مخلصون فى النار مع آبائهم، وعدم جوازهم للتقية لا فى القول ولا فى العمل. وزعمت الأزارقة أن من أقام فى دار الكفر فهو كافر لا يسعه إلا الخروج. وقال زعيمهم نافع بن الأزرق: إننا اليوم بمنزلة المهاجرين بالمدينة، ولا يسع أحد من المسلمين التخلف عنا"^(١٥).

وبشكل عام فإن فرقاً عديدة من الخوارج منها الأزارقة والنجدات والعجاردة رأيت أن مخالفينهم فى رأى من المسلمين مشركون وكفرة، وأن القعدة أى المتخلفين عن اللحاق بهم والهجرة إليهم مشركون، حتى إن كانوا متفقين معهم فى رأى.

وقد أوجبوا امتحان من قصد معسكرهم مهاجراً ومدعياً أنه منهم بأن يأتوا إليه بأسير من مخالفينهم ويأمره بقتله، فإذا قتله صدقوه فى دعواه إنه منهم، وإن لم يقتله، قالوا إنه منافق ومشرك وقتلوه. وقالوا إن مخالفينهم مشركون يباح قتل نسائهم وأطفالهم ولا يلزم أداء الأمانات إليهم.

وأفتوا بضرورة الهجرة، قائلين نحن مشركون ما دما فى دار الشرك فإذا خرجنا فنحن مسلمون.

واعتمدوا فى أقاويلهم على نصوص قرآنية أخذوا بظاهر نصوصها فكانوا مثلاً يعتمدون على قوله تعالى فى قتل الأطفال : (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) (٢٧) [نوح] ، واستباحوا قتل الأبرياء مستندين إلى قصة الخضر عليه السلام وقتله للغلام فى سورة الكهف.

ويتمادى التأسلم، يتمادى حتى يأمر ابن الأزرق أتباعه بأنه "لا يحل لهم أن يجيبوا أحداً غيرهم إلى الصلاة إذا دعاهم إليها، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم ولا أن يتزوجوا منهم، ولا يتوارثوا مع غيرهم" (١٦).

.. ولا نهاية للمنحدر، فمن الخوارج فرقة العجاردة الذين أنكروا سورة يوسف ورفضوا اعتبارها جزءاً من القرآن زاعمين أنها قصة عشق موضوعة، وأنه لا يجوز أن تكون قصة عشق قى القرآن.

وفرقة الثعلبية "الذين يحرمون قول: "إن شاء الله" لأن فى هذا القول تشكيك فى الاعتقاد بقدرته تعالى. وفرقة "العازرية" التى استحلّت سفك دماء أهل الذمة والعهد" (١٧). نتأمل كل هذا القدر من الانحدار لنكتشف أن المتأسلمين المحدثين قد احطبوا منه شوكاً كثيراً وصاغوا منه فكرهم وأفعالهم.. ومن هنا يمكن القول وبدون مبالغة.. إن متأسلمى زماننا قد تتلمذوا على موائد متأسلمى الزمان القديم.. فكانوا شر خلف لشر سلف.

وإذ نأتى إلى زماننا الحديث باحثين عن النبع الميرى الذى بدأت منه الفتنة. وإذ تتجمع كتابات ودراسات وبحوث عن الأسباب الاجتماعية والثقافية والسياسية التى تسلفت عليها بواعث ظهور الخوارج الجدد، وهى كتابات وبحوث بالغة الأهمية لكنها من الكثرة بحيث تحتاج لأن نفرّد لها كتاباً خاصاً، فضلاً عن أنها ورغم أهميتها إلا أنها

ليست فى نهاية الأمر سوى عناصر ثانوية شجعت بواعث فكرية تعبر عن منحنى متأسلم ترسخ لدى قوى سياسية اتخذت من فكر الخوارج سبيلاً للسعى نحو الحكم. وهكذا كان الخوارج دوماً. سعاة نحو الحكم، هو كل مطامحهم، وفى سبيله استباحوا كل شىء وأى شىء.

يقول الشهرستاني إن خلاف الخوارج كان خلافاً حول "الإمامة" أى السلطة، ويقول "وأعظم خلاف بين الأمة الإسلامية خلاف الإمامة فى كل زمان" (١٨). ويمكن القول إن ذات الفكر وذات الهدف قد تجسد فى صورة الإرهاب المتأسلم فى زماننا الحديث، وإنه كما يقول أحد الكتاب المقربين من التيار الإسلامى: "بدأ يتكون تدريجياً داخل جماعة الإخوان عبر تكوين الجهاز الخاص، الذى مارس العنف فى النصف الثانى من الأربعينيات، وقام باغتيال النقرشى باشا (رئيس الوزراء) واستتبع ذلك اغتيال مضاد للشيخ حسن البنا ثم دخل العنف الدينى مرحلة جديدة مع ثورة يوليو ١٩٥٢م. وكان حادث المنشية (١٩٥٤) وأحداث ١٩٦٥ هما قمة العنف الدينى فى مصر خلال الحقبة الناصرية" (١٩).

ثم تتجدد بواعث الفتنة آتية دوماً من تحت العباءة الإخوانية. فمهما تعددت الأسماء والمسميات، ومهما تنوعت التوجهات فهى دوماً - وليست هذه مجرد مصادفات متراكمة بكثرة جاذبة للانتباه - تأتى من تحت العباءة السوداء التى ألقتها جماعة الإخوان على ساحة الفكر الإسلامى.

ويؤكد هذا رأى رفعت سيد أحمد الذى يقول بضرورة الرجوع "إلى الخلفية التاريخية العامة لانبعاث حركة الإحياء الإسلامى فى السبعينيات. فهى حركة ذات امتداد لأفكار وممارسات تنظيمات سابقة، ولم تكن مجرد رد فعل لأوضاع سياسية واقتصادية - مع التسليم بأهمية تلك الأوضاع فى تفسير مستوى صعود حركة الإحياء فى السبعينيات" (٢٠).

والعبارة السابقة بالغة الأهمية فهى تقول إن هذه الظواهر "امتداد لأفكار وممارسات تنظيمات سابقة". فأية أفكار وأية تنظيمات؟

يجيب الكاتب نفسه قائلاً: "ويشأن كتاب معالم فى الطريق يرى بعض الباحثين الغربيين أن هذا الكتاب يعتبر الأساس لفهم الحركة الإسلامية المعاصرة، ويرجع ذلك فى تقديرهم إلى أن وفاة حسن البنا (١٩٤٩) قد تركت فراغاً كبيراً فى جماعة الإخوان إلى أن جاء سيد قطب، فكان هو الرجل الذى ملأ الفراغ. فى كتابه معالم فى الطريق تمكن قطب من وضع الوثيقة الأساسية لأيدولوجية جماعة الإخوان المسلمين، بل أيدولوجية مجمل الحركة الإسلامية خلال فترة السبعينيات"^(٢١).

وإذا كان هذا الباحث المقرب من التيار الإسلامى قد أورد العبارة السابقة منسوبة إلى بعض الباحثين الغربيين فإنه يقدم هو نفسه الدليل على صحتها، وعلى أن أفكار الإخوان كانت المنبع الأساسى للخارج المحدثين. فيقول: "ويرى سيد قطب فى معالم فى الطريق أن الجهاد عن طريق طليعة مؤمنة، وجيل قرآنى هو الحل لتخليص المجتمع من حكم الطاغوت".

ثم يقول: "ويلاحظ أن هذه العبارة ذاتها هى التى كان يصف بها خالد الإسلامبولى وزملاؤه أنور السادات مستخدمين الألفاظ ذاتها تقريباً التى قالها سيد قطب بما يعنى أن تأثير ما قبل عام ١٩٦٤ قد ترك صداه عام ١٩٨١ مروراً بحقبة السبعينيات وهو تأثير يفسر إلى حد بعيد بعضاً من أسباب حركة الإحياء الإسلامى فى أكثر من دولة داخل العالم الإسلامى"^(٢٢).

والعبارة السابقة تحمل معنيين بالغى الأهمية..

أولهما: إن امتداد هذا التأسلم الإرهابى آت عبر أفكار جماعة الإخوان. وثانيهما: أن البعض لم يزل يتجاسر فيعتبر أن الإرهاب المتأسلم هو "حركة إحياء إسلامى".

إحياء إسلامى آت من أين؟ من صحيح إسلامنا أم من تأسلم الخوارج القدامى؟ وبغض النظر عن المتشابهات فى الألفاظ والأفكار والمصطلحات، فإن النظر للأفعال يقدم لنا تماثلاً مثيراً للدهشة بين متأسلمى الأمس وتابعيهم من متأسلمى زماننا.

الجميع من المتأسلمين المحدثين يقول بتكفير "المسلم" المخالف لرأيهم، أو حتى غير المنضم إلى جماعتهم، وغالبيتهم يكفرون الحاكم والمحكوم، وحتى لو كان المحكوم مكرهاً يقتل ثم يبعث يوم القيامة على نيته.

والجميع استباحوا دماء وأموال أهل الذمة والمستأمنين.

وفى الجزائر قتلوا نساء وأطفال مخالفيهم وحتى بقروا بطون الحوامل لقتل الأجنة تماماً كما فعل أسلافهم مع الصحابي الجليل عبد الله بن خباب وزوجته وجنينها. وتردى متأسلمو مصر إلى وهدة سحيقة فتجاوزوا كل حدود العقل، حتى إنهم حرّموا زراعة الخيار لأن شكله يعطى إحياءً جنسياً.

ونعود إلى مسلسل توالد التأسلم من العباءة الإخوانية.

ففى عام ١٩٥٨ بدأ نبيل البرعى وكان سجيناً إخوانياً فى الترويج علناً لفكرة تكفير الحاكم والمحكوم، وتكونت حوله حلقة من السجناء الإخوان منهم إسماعيل الطنطاوى ومحمد عبد العزيز الشرقاوى وحسن العلاوى وعلوى مصطفى^(٢٣). وهذه الأسماء سوف تتردد كثيراً فى فترات لاحقة.

وكالعادة وقعت انقسامات فى إطار هذه المجموعة التى أسمت نفسها، وهى لم تزل فى السجن "جماعة الجهاد" فانشق علوى مصطفى هو وعدد من الأعضاء ليكونوا تنظيمًا جديدًا تحت شعار محاربة اليهود فى سيناء.. وانضم إليهم فيما بعد الملازم عصام القمرى الذى لعب دوراً بالغ الأهمية فى تنظيم الجهاد. وقتل خلال عملية مطاردته بعد هروبه من السجن.

ونعود مرة أخرى إلى العباءة الإخوانية ليأتى من تحتها وafd آخر هو على عبده إسماعيل، وكان أيضاً سجيناً إخوانياً فى الستينيات وهو شقيق عبد الفتاح إسماعيل الذى شارك فى تأسيس المجموعة الإخوانية خارج السجن فى منتصف الستينيات التى تزعمها فيما بعد سيد قطب. وقد أعدم عبد الفتاح إسماعيل مع سيد قطب. بينما بدأ شقيقه فى السجن بالدعوة لتأسيس جماعة أسماها "جماعة المسلمين"

معلنا أنها نواة المجتمع المسلم الذى سيقوم على أنقاض مجتمع الكفر والجاهلية، ودعا لاعتزال المجتمع والهجرة منه حتى تصبح الجماعة ذات بأس فتعلن الجهاد وتطيح بحكم الطاغوت^(٢٤).

لكن على عبده إسماعيل ما لبث أن عدل فجأة عن هذه الأفكار "ففى يوم من أيام ١٩٦٩ أم على إسماعيل أفراد مجموعته فى الصلاة، ويعد أن سلم وأنهى الصلاة قام وخلع جلبابه قائلاً... إننى أخلع فكرة التكفير كما أخلع جلبابى هذا"^(٢٥).

فوجئ الجميع بهذا التحول المفاجئ واستجاب له أكثرهم.. إلا أن واحداً من أتباعه تمرد على "الأمير" وأعلن تصميمه على التمسك بذات الأفكار.. أفكار التكفير، وأفكار الهجرة. إنه شكرى مصطفى.

وهكذا مرة أخرى يأتينا بتنظيم جديد من تحت عباءة الإخوان هو "التكفير والهجرة".

لكن عباءة الإخوان لم تزل زاخرة بالمزيد فحسن الهلاوى الذى كان ضمن مجموعة سجناء الإخوان التى التفت حول نبيل البرعى، التقى بالدكتور صالح سرية (وهو عضو سابق فى الإخوان، وفى حزب التحرير الإسلامى بالأردن، الذى هو أيضاً أحد الروافد الإخوانية، تؤكد المصادر الأمنية أنه تلقى عندما جاء إلى مصر دعماً من الإخوان عبر السيدة زينب الغزالي) ويتشكل جماعة "شباب محمد" التى عرفت فيما بعد بجماعة الفنية العسكرية^(٢٦).

ومن رحم هذه الجماعة (شباب محمد) يأتى وكيل نيابة من سوهاج اسمه يحيى هاشم ليشكل مجموعة جديدة، (يقول رفعت سيد أحمد - المرجع السابق - ص ١٩ إنه حاول بها اقتحام السجن للإفراج عن صالح سرية بما يعنى أنه كان واحداً من بقايا تنظيم الفنية العسكرية). ويقول اللواء فؤاد علام إن هذه المجموعة كانت مكونة من عدد من المدنيين وأحد المجندين بالقوات المسلحة "وأنها كانت تؤمن بفكر التكفير، وأن يحيى هاشم وضع خطة للقيام بتفجيرات بالقاهرة، وباغتيال السادات"، ثم: "وبعد حصوله على الأسلحة بادرنا بإجهاض المحاولة حتى لا تتسع

وحاصرناه هو وأتباعه فى منطقة جبلية بين محافظتى قنا وسوهاج أثناء قيامهم بتدريبات بدنية وعسكرية وإطلاق نيران وإعداد متفجرات وطلبنا منه تسليم نفسه فقابل القوات بإطلاق النيران وتمكن من الهرب والاحتماء بإحدى المغارات، وقتل على باب المغارة" (٢٧).

ويظل الشوك ينبت مزيداً من الشوك..

ونتابع مع اللواء فؤاد علام: "وصلت إلى جهاز مباحث أمن الدولة معلومات عن فلول من الجماعة التى نفذت حادث الفنية العسكرية تجمعت للإعداد للقيام بانقلاب، واغتيال القيادة السياسية والاستيلاء على السلطة. وقد حددت هذه الجماعة ساعة الصفر أثناء مرور موكب الرئيس السادات ونيكسون بكورنيش الإسكندرية.. ورسماً خطة لمتابعة تحركات التنظيم أولاً بأول، ونجحنا فى دس بعض ضباطنا الأقوياء بين صفوفهم وبدأنا من جديد عمليات الاختراق لهذه التنظيمات. واعتمد إجهاض مؤامرة اغتيال نيكسون والسادات على محورين الأول استبدال إير البنادق الآلية بأخرى لا تعمل، وتغيير القنابل بأخرى لا تنفجر. واستمرت المراقبة ٢٤ ساعة متصلة طوال اليوم. أما المحور الثانى فكان تركيز الخدمات الأمنية وتكثيفها بشدة فى المواقع التى تحدت لتتفيذ عملية الاغتيال، واستخدمنا تكنولوجيا عالية جداً مكنتنا من متابعتهم بالصوت والصورة طوال اليوم فى وكرهم الذى كان عبارة عن شاليه فى منطقة نائية بالعجمى.. وضبط التنظيم بأسلحته وقنابله" (٢٨).

وفى ذات الفترة "أنشأ شاب يدعى مصطفى يسرى تنظيماً مسلحاً، ولكن ما لبث أن اعتقل وتمت تصفية التنظيم" (٢٩).

تكاثر الشوك الذى نبتت جذوره فى التربة الإخوانية وانتشر، ووصل الأمر أن بلغ عدد التنظيمات الدينية المسلحة حتى عام ١٩٨٧ رقماً مهولاً؛ فقد وصل إلى ٥٦ تنظيمًا (٣٠).

ويبقى السؤال... لماذا؟

هناك إجابات عديدة عن هذا السؤال الذى كلما حاولنا الإجابة عنه، استدعت كل إجابة مزيداً من الأسئلة.

والحقيقة أن هناك العديد من البحوث والاجتهادات التى بحثت ولم تنزل عن إجابة وافية، وثمة توجهات عديدة لهذه الأبحاث.. اجتماعية وحضارية ونفسية وثقافية واقتصادية وديموجرافية، وقد أثمرت هذه الدراسات نتائج بالغة الأهمية سبق أن وعدنا بأن نفرّد لها كتاباً خاصاً.

لكننا سنكتفى هنا بالبواعث الحركية والعملية التى مثلت قوة الدفع الأولى فتولدت منها متواليات من قوى دفع غير منظورة قفزت بهذه الحركات إلى مسرح الأحداث.

ونبدأ بأصحاب هذه الجماعات.

هم يتصورون أن قيامهم ببناء تنظيمهم وتفعيله هو امتثال لقدر الله، وهو قدر لا يتغير ولا يتبدل، وهو نافذ لا محالة، أو هكذا فهموا ولا يزالون يفهمون الآيات الكريمة... (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ (٥٤)) [المائدة]. (وإن تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) [محمد].

والأحاديث النبوية، ومنها: "ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة أو حتى يأتى أمر الله" و"لا يزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون".

وهم.. وبعد تفسير ملئوا لهذه النصوص وأمثالها يعتبرون أنفسهم المؤهلين لإنفاذ إرادة الله. وهى إرادة ثابتة دائمة ومستمرة. ولا يمكن إيقافها ولا تجاهلها. ومن لم يقم بإنفاذها فهو فى نظرهم "قاعد" عن إنفاذ الإرادة الإلهية. وتتوالى المفردات التى تصف هذا "القاعد" حتى تصل فى أحيان كثيرة إلى الكفر.

لكنهم يقومون، ينشطون، يجمعون جموعاً أو بعضاً منها، يمتشقون سلاحاً وعنفاً وقتلاً وتأسلاً بلا حدود، وفي نهاية الأمر يهزمون. فى كل مرة يهزمون ومن الدرس لا يتعلمون. وحتى الأخطاء لا يسعون لتصحيحها. فكيف؟ ولماذا؟ هناك كثير من قول فى هذا المقام. ورغم أهمية البحث المفصل فى هذا الأمر فإننا سنحاول أن نستعرض بعضاً منه وبإيجاز.

ونعود لنسال لماذا يهزمون دوماً، ولماذا لا يتعلمون من الدرس دوماً؟ حسن البنا وحسن الهضيبي (الإخوان) ١٩٤٨ ثم ١٩٥٤ ثم سيد قطب ١٩٦٥، صالح سرية، شكرى مصطفى، عمر عبد الرحمن، عبد السلام فرج، عبود الزمر، أسامة بن لادن، أيمن الظواهري ومن أتوا بعضهم... جميعاً تماردوا فى غيهم، وتصوروا أنهم "الأعلون" وأنهم "الغالبون" وأنهم "الأعز سناً" وأنهم منتصرون. ولقد تعمدت أن أورد أسماء القيادات وليس الجماعات لأنهم هم من تلبستهم هذه الحالة ثم ألبسوها لأتباعهم.

وهى فى أغلب الأحيان حالة فردية يتوهم الفرد عبرها أنه الأكثر علماً بالمعنى الحقيقى للنص الإسلامى (قرآنًا وسنة) ومن ثم فهو وأتباعه وحدهم الذين وصفهم القرآن الكريم بأنهم "الراسخون فى العلم".

وأصل هذا التصور يأتى من الفكر الشيعى "فجميع أهل الشيعة تقريباً يسلمون بأن الأئمة هم الذين وصفهم القرآن الكريم بالراسخين فى العلم، ولذلك فإنهم وحدهم دون سواهم بعد النبى (ﷺ) ما عدا الله تعالى ذاته يعلمون بدقة متناهية المعنى الحقيقى للكلمة المقدسة" (٣١).

ويفسر أحد أهم أئمة الشيعة وهو حميد الدين الكرمانى هذا الأمر بالتمييز بين "النطقاء" وهم الأنبياء الذين يأتون بشرية ويكتاب مقدس، وبين "الأسس" وهم الخلفاء المباشرون للأنبياء ثم المتتابعون من بعدهم، وهم القادرون على تأويل الشريعة والكتب المقدسة" (٣٢). وإذا كان المفكرون الشيعة يقولون بقدرة "الأساس" أو من تبعه من "أسس" على معرفة المغزى الباطن والقوى الكامنة خلفه، وإن كانت

مستورة خلف أو حتى خارج الرمز الوارد فى النص. فإن البعض من متطرفى "السنة" أخذوا عن الشيعة الزعم بأنهم هم أنفسهم الراسخون فى العلم، وإن اختلفوا عنهم فى عدم البحث عن المغزى الباطن، بل أخذوا وفقط بالنص وبحرفيته الظاهرة لغة. وقد يتطرفون فيقولون كما قال شكرى مصطفى "لا قياس ولا تأويل" و"لا إجماع ولا استحسان ولا مصالح مرسله. فقط قال الله وقال الرسول" (٣٣).

هؤلاء وبعد أن يتوهموا أنهم "الراسخون فى العلم" ويلجأون إلى التفسير النصى متناسين أسباب التنزيل للآيات. يتوهمون الرسوخ فى العلم ويوهمون به أتباعهم، ويتصورون أنفسهم "الأعلى سنداً" والأعلى قدراً، وهو ما أسماه سيد قطب "الاستعلاء بالإيمان" (٣٤). إن هذا اليقين يدفعهم لتصور أنهم ومهما أخطأوا الحساب سينتصرون. ومن ثم يدفعهم هذا التصور إلى القيام بتحركات منفعة إلى حد السذاجة. فشكرى مصطفى تصور أنه بالخيال والسيوف وعدد رجاله القليل سوف يهزم "روم" الزمن الحديث (أى أمريكا والاتحاد السوفيتى وكل حكام الطاغوت على الأرض جميعاً). وصالح سرية وقد جمع معه بضع عشرات من الطلاب. رسم مخططاً ساذجاً وتخيل إمكانية تحقيقه فكتب بخط يده بياناً ليذاع عبر التليفزيون (بعد انتصار جماعته طبعاً) قال فيه: "بيان من صالح سرية رئيس الجمهورية.. لقد نجحنا والحمد لله صباح اليوم فى السيطرة على الحكم واعتقال جميع المسؤولين عن النظام السابق وبدء عهد جديد.. وهكذا وببساطة تصور نجاح هذه الحفنة من طلابه وهذا المخطط الساذج" (٣٥).

أما أيمن الظواهرى فقط جسد كل انتقادنا لسذاجتهم قائلاً: "إنهم يقولون عنا أنصاف مجانين لأننا نتصور قدرتنا على هزيمة أمريكا ومن معها من اليهودية والمسيحية العالمية، ونسألهم ألم نهزم الاتحاد السوفيتى أكبر قوة برية فى العالم؟" (٣٦).

ببساطة هم يصورون لأنفسهم ولأتباعهم أنهم ينفذون الإرادة الإلهية، ولأن الله سوف ينصرهم حتماً (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)) [الروم] لكنهم لم يسألوا

أنفسهم لماذا ينصرهم هم؟ وضد من؟ وهل هم حقاً المؤمنون والأعلى سنداً أم لا؟ ومع كل هزيمة، يقولون إنها "محنة" وإنها "امتحان" لا يجب عليه إلا بالصبر والمزيد من الإيمان والأخذ بالأسباب، ولكن الأخذ بالأسباب يعنى عندهم مجرد محاولة إتقان الضربة ضد العدو، وليس البحث فى مدى ملائمة الفعل ذاته، ومدى علاقته بصحيح الإسلام أو حتى مدى تلاؤمه مع توازنات القوى. فهم دوماً يعتقدون أنهم "الأقوى" لأنهم الأكثر إيماناً.

والحقيقة أن أهم أسباب هذا التكرار اللامتناهى للفشل والإخفاقات يأتى من عدم إدراك هذه الجماعات لقيمة ما يسمى فى عصرنا الحديث بالنقد الذاتى. أو ما أسمى قديماً فى علم الحديث "الجرح والتعديل".

يقول د. كليم صديقى: "إن الحركة الإسلامية تواجه إشكالية حقيقية فهى عندما تواجه فشلاً فى خططها تعتبر ذلك "محنة" و"امتحاناً" ومن هنا تصبح إمكانية اكتشاف الخطأ غاية فى الصعوبة. وحتى لو تم اكتشاف الخطأ فإنه ينظر إلى وقوعه على أنه إرادة إلهية من أجل امتحان إيمانهم. ومن ثم يكون النقد الذاتى محدوداً بمحدودية مدى الالتزام العقيدى الثابت وغير القابل للاجتزاء أو التعديل.. وتبقى حدوده محددة فى إطار مدى التزام الحركة للإطار الإسلامى فى حدود فهمهم" (٣٧).

لهذا هم يأتون دوماً. يندفعون دوماً. ثم يفشلون دوماً ولا يتعلمون.

ولكن.. يبقى السؤال:

كيف يأتون؟ ومن أين؟

كشفت بعض التحقيقات أن أفراداً عديدين من جماعة الإخوان تمترسوا فى فترات "المحنة" فى صفوف الجمعيات الإسلامية المنتشرة فى ربوع مصر. ففي هذه الفترات كان هناك ما يزيد على ١٥٠٠ جمعية أهلية إسلامية تتأثر إخوانيون فى صفوف العديد منها ليفرخوا من هناك جيلاً جديداً من المتأسلمين الذين عانينا منهم فى سبعينيات وثمانينيات القرن الماضى، الأمر الذى دفع السادات - بعد أن تبين

خطر مهادنته للإخوان وأشباههم - إلى إصدار قرارات بحل عدد منها. ويلاحظ أحد الباحثين أن "الإخوان" قد ركزوا عملية الاختراق هذه على "الجمعية الشرعية" التي تعتبر كبرى هذه الجمعيات. ويقول: كانت "الاعتصام" المجلة الشهرية الناطقة باسم الجمعية الشرعية تستخدم لفترة من الوقت كلسان حال لتيار إخواني تزعمه الشيخ صلاح أبو إسماعيل. وكان الشيخ عبد اللطيف مشتهري رئيس الجمعية الشرعية، ومحمد عطية خميس رئيس جمعية شباب سيدنا محمد يكتبان باستمرار في مجلة "الدعوة" لسان حال جماعة الإخوان بعد عودتها للمصدر في زمن السادات. وفي انتخابات مجلس الشعب عام ١٩٨٧ انطلق أعضاء جمعية شباب محمد ليؤيدوا مرشحي الإخوان علناً، وأصبح كل أعضاء هذه الجمعية في محافظة سوهاج أعضاء في جماعة الإخوان^(٣٨).

ولأن هذا الموضوع شديد الأهمية وشديد الخطر، لأنه يمثل الحاضنة الفكرية والتنظيمية والحركية للجماعات المتأسلمة على اختلافها فإنه سيحتاج منا إلى وقفة وإن مختصرة.

والحقيقة أن البحث المدقق والإحصائي يكشف لنا عن تلازم بين تزايد المد المتأسلم وبين زيادة عدد الجمعيات الأهلية الإسلامية بما يعنى أن "المتأسلمين" قد استخدموا هذه الجمعيات "مخابئ" لأنشطتهم السرية والعنوية، ومجالات للتجنيد والتمويل والانفتاح على الجماهير.

نسبة الجمعيات الأهلية الإسلامية إلى مجموع الجمعيات الأهلية^(٣٩):

الفترة	النسبة
١٩٦٠ - ١٩٧٠	١٧.٦٠%
١٩٧١ - ١٩٨٠	٢٠.٢٤%
١٩٨١ - ١٩٩٠	٢٤.٠%

وتفسر بعض الدراسات الأكاديمية ذلك قائلة إن سببه هو اتجاه السادات "إلى استخدام الحركات الإسلامية فى مواجهة اليسار والناصرين" (٤٠)، أما سبب هذا التصاعد فى النشاط والفعالية فى حقبة الثمانينيات فيرجعه البعض إلى "تراجع دور الدولة فى تقديم خدمات أو حتى اهتمامات اجتماعية نتيجة التزامها بحزمة من سياسات التكيف الهيكلى والإصلاح الاقتصادى التى تفرض الحد من الإنفاق الحكومى فى المجال الاجتماعى. وفى مقابل تراجع دور الدولة، اتسع دور الجمعيات الإسلامية فهى تقدم خدمات (تعليمية وصحية... إلخ) أفضل مما تقدمه الدولة، وأقل تكلفة مما يقدمه القطاع الخاص" (٤١).

والحقيقة أن هذه الجمعيات قد نجحت فى أن تخلق شبكة من الارتباطات والعلاقات والمصالح مع عديد من فئات المجتمع وخاصة سكان الأحياء الفقيرة والمتوسطة فى المدن من خلال إنشاء سلسلة من دور الحضانة والمدارس والعيادات والمستوصفات وحتى المستشفيات التى تقدم خدماتها بأجور رمزية أو حتى بالمجان (٤٢).

وهكذا فهى تسد الفراغ الذى خلفته الدولة بسياساتها (٤٣).

وثمة مؤشرات ومعلومات تشير إلى أن "جماعة الإخوان قد اتجهت إلى دعم بعض الجمعيات الخيرية والدينية مثل "جماعة الدعوة الإسلامية" و"الجمعية الشرعية" و"جمعية الهداية الإسلامية" و"أنصار السنة المحمدية" وهى جمعيات لا تعمل بشكل مباشر فى الحقل السياسى، ولكن بعضها يشكل قنوات للتجنيد لعضوية جماعة الإخوان من ناحية، وعنصراً للمساندة السياسية للجماعة ومرشحيتها فى الانتخابات من ناحية أخرى" (٤٤).

وفى البداية سكنت الحكومة على هذا الدور، ولعل البعض ارتاح إليه إذ هو يرفع بعضاً من العبء عن كاهل الحكومة ويخفف من حدة التوتر الاجتماعى. بينما تناسى هذا البعض دور هذه المؤسسات فى تعبئة جماهير واسعة لصالح هذا الاتجاه.

ولعل الحكومة لم تستيقظ لخطورة هذا الوضع الراهن إلا فى زلزال ١٩٩٢ حيث بدت هذه الجمعيات أكثر كفاءة وأسرع استجابة لمتطلبات الوضع. وفى غضون ساعتين من وقوع الزلزال، وفيما كانت الأجهزة الحكومية لم تزل مرتبكة كانت قوافل تابعة للجمعيات الأهلية الإسلامية منتشرة فى المواقع المنكوبة مقدمة الأطباء والأغطية والأدوية والطعام، الأمر الذى لاحظته مراسل قناة C.N.N مما دفع الحكومة إلى إصدار أوامر عسكرية تحظر تقديم أى خدمات مباشرة لضحايا الزلزال إلا من خلال وزارة الشؤون الاجتماعية أو الهلال الأحمر^(٤٥).

وقد استفادت التيارات المتأسلمة فائدة جماهيرية وعضوية وحركية كبيرة عبر تحريكها من خلال هذه الجمعيات، كما أنها - وهذا هام جداً- قد استفادت موارد مالية ضخمة تأتى عبر التبرعات والزكاة والصدقات التى يقدمها الكثيرون لهذه الجمعيات بحسن نية، وهى موارد يصعب رصدها أو التحاسب بشأنها.

وتشير إحدى الدراسات إلى أن حصيللة أموال الزكاة فقط وهى تمثل ٥٠% من موارد هذه الجمعيات قد بلغت حوالى ٢٠ مليون جنيه فى عام ١٩٨٩، وهو مبلغ تم جمعه فى ثلاثة آلاف مسجد فقط^(٤٦).

ثم إن مقارنة عدد الجمعيات الأهلية الإسلامية فى المحافظات تكشف أن المحافظات التى تحظى بالعدد الأكبر من هذه الجمعيات وهى المنيا - القاهرة . أسبوط (تضم معاً ٢٥٨% من إجمالى هذه الجمعيات) هى أكثر المحافظات فى عدد ضحايا العمليات الإرهابية وفى عدد المقبوض عليهم من أعضاء الجمعيات^(٤٧).

وتشير دراسة أكاديمية إلى أن أهداف جماعة الإخوان المسلمين من اختراق الجمعيات الأهلية الإسلامية تقلخص فيما يلى:

. اتخاذها منبراً للدعاية والتأثير الفكرى والسياسى.

. اتخاذها إطاراً آمناً للتنظيم والتعبئة والحشد السياسى.

. كونها مصدراً آمناً للتمويل^(٤٨).

ولا يخفى الإخوان خططهم هذه، فالأستاذ سيف الإسلام حسن البنا صرح فى

حديث صحفى: "نحن نعمل منذ فترة طويلة على إقامة أجهزة اجتماعية ومستشفيات ومدارس وأندية رياضية، وسوف تواصل الشركات الإسلامية أنشطتها المالية والتجارية والصناعية"^(٤٩).

وإذا ما اتخذنا "الجمعية الشرعية" (وتضم ٣٥٠ فرعاً)، وهى واحدة من أكبر الجمعيات الأهلية الإسلامية كنموذج تكرر كثيراً فإننا نكتشف ما يلى:

- بدأ اختراق الإخوان لهذه الجمعية عام ١٩٧٣ عن طريق الحاج عبده مصطفى أبو شمة الذى قدم فيضاً من التبرعات للجمعية أعقبه حصوله على مقعد فى مجلس إدارة الجمعية بدعم من الشيخ عبد اللطيف مشتهرى المعروف بتعاطفه مع الإخوان.

- سيطر محمد أحمد عاشور أحد كوادى الإخوان على رئاسة تحرير مجلة الجمعية (الاعتصام).

- بعد إغلاق مجلة "الدعوة" لسان حال جماعة الإخوان أصبحت "الاعتصام" المنبر الإعلامى الرئيسى للإخوان^(٥٠).

وما لبث الإخوان أن سيطروا على مجلس إدارة الجمعية الشرعية فتولى عبده مصطفى الكادر الإخوانى منصب وكيل الجمعية للشئون المالية والشيخ محمود فايد منصب وكيل الجمعية للشئون العلمية، والدكتور رضا الطيب مسئولية مشروع كفالة اليتيم بالجمعية الذى بلغت ميزانيته الشهرية مليون جنيه عام ١٩٩٤^(٥١).

كذلك سيطر الإخوان على عدد من المواقع الحاكمة فى فروع مهمة لهذه الجمعية مثل فرع الجمعية بالجيزة الذى ترأسه الدكتور الإخوانى عليان عمار الذى نشط فى تسفير الشبان للحرب فى أفغانستان^(٥٢)، تماماً كما فعلوا مع أيمن الظواهرى الذى سافر عن طريق الإخوان إلى أفغانستان عبر مستوصف خيرى إخوانى فى السيدة زينب^(٥٣).

ولكى نعرف حقيقة الكسب السياسى والمالى والمعنوى الذى تحققه جماعة الإخوان من اختراقها لهذه الجمعية وحدها. يكفى أن نشير إلى أن عدد فروعها

وصل إلى ٣٥٠ فرعاً في بداية التسعينيات، كما أنها تشرف على عدة آلاف من المساجد وتضم عدة ملايين من الأعضاء^(٥٤).

ولعل هذه العلاقات الإخوانية المتشابكة هي التي دفعت المستشار أحمد عبد القادر المدعى العام الاشتراكي (المسئول عن التحقيقات مع المقبوض عليهم في حملة سبتمبر ١٩٨١) إلى القول في تصريحات صحفية: "إن الاتجاهات الأولية للتحقيق أثبتت أن هناك رابطة قوية بين الجماعات الإسلامية والإخوان والطوائف الأخرى في أهدافهم المشتركة التي بدأت تأخذ صورة التعاون خلال المرحلة الأخيرة"^(٥٥).
ويضاف إلى ذلك كله تمكن "الجماعة" من اختراق النقابات المهنية الأساسية..
كما يتضح من الجدول التالي.

أعضاء جماعية الإخوان في مجالس إدارات النقابات المهنية في التسعينيات^(٥٦)

النقابة	عدد أعضاء مجلس الإدارة	عدد أعضاء الإخوان
الأطباء	٢٥	٢٠
المهندسين	٦١	٤٥
الصيدلة	٢٥	١٧
المحاميين	٢٥	١٨

وغنى عن القول إن أعضاء الجماعة في قيادة هذه النقابات قد اتخذوا منها موقعاً للدعاية الفكرية والسياسية، وأيضاً كمصدر تمويل هائل لأنشطة الجماعة. فكثير من الحشود الإخوانية في المؤتمرات الجماهيرية والسياسية مولت من أموال هذه النقابات.. وما خفى كان أعظم.

... لكن الجماعات الدينية والمتأسلمين لم يكونوا وحدهم الساعين إلى اتخاذ المؤسسات الدينية كأداة للاستقواء، فقد كان هناك أيضاً جهاز أمن الدولة الذى ظل ولآماد طويلة يلعب ذات الدور متوهماً أنه يجتلب القوة لنفسه لكنه كان فى ذات الوقت يفتح الطريق أمام تبرير المتأسلمين للخلط بين الدين والسياسة.. أو بتعبير أدق أسلمة السياسة.

الهوامش:

- (١) راجع كمجرد مثال: محمود الصباغ - حقيقة الجهاز الخاص، ودوره في جماعة الإخوان - القاهرة - ١٩٨٩.
- (٢) سيد قطب - معالم في الطريق - في ظلال القرآن - الطبعة الثانية.
- (٣) ابن الجوزي - تلبيس إبليس - ص ٩٠.
- (٤) لمزيد من التفاصيل راجع: ابن الأثير (عز الدين) - الكامل في التاريخ.
- (٥) د. عامر النجار - الخوارج - ص ١٤٤.
- (٦) أبو الحسن الأشعري - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين - ص ٥٨.
- (٧) د. عامر النجار - المرجع السابق - ١٧٣.
- (٨) ابن الجوزي - المرجع السابق - ص ٩١.
- (٩) المرجع السابق - ص ٩٣.
- (١٠) المرجع السابق - ص ٩٤.
- (١١) د. عامر النجار - المرجع السابق - ١٤٠.
- (١٢) ابن الجوزي - المرجع السابق - ص ٩٥.
- (١٣) بكر بن حماد التهرتني - الدرر الوقاد من شعر بكر بن حماد التهرتني - ص ٦٢.
- (١٤) أبو الحسن الأشعري - المرجع السابق - ص ٧.
- (١٥) د. عامر النجار - المرجع السابق - ص ١٥٤.
- (١٦) المرجع السابق - ص ١٥٧.
- (١٧) مجلة النهج - صيف ٢٠٠١ - دراسة للدكتور عبد الله حمادى بعنوان: التكفير والهجرة في فكر الخوارج.
- (١٨) أبو الفتح الشهرستاني - الملل والنحل - ص ٢٢.
- (١٩) د. رفعت سيد أحمد - النبي المسلح - الجزء الأول - الرافضون - لندن (١٩٩١) - ص ١٢.
- (٢٠) المرجع السابق - ص ٢١.
- (٢١) المرجع السابق - ص ٢٠.
- (٢٢) المرجع السابق - ص ٢٠.
- (٢٣) المرجع السابق - ص ٢١.
- (٢٤) نبيل فاريس - الإسلام لا يعرف العنف - الملف السرى للجماعات الإسلامية في مصر - القاهرة (١٩٩٢) - ص ٢٠.
- (٢٥) المرجع السابق.
- (٢٦) د. رفعت سيد أحمد - المرجع السابق - ص ١٩.
- (٢٧) لواء فؤاد علام - الإخوان وأنا، من المنشية إلى المنصة - القاهرة (١٩٩٥) - ٣٣٦.
- (٢٨) المرجع السابق - ص ٣٣٨.

(٢٩) د. رفعت سيد أحمد - المرجع السابق - ص ١٩.

(٣٠) د. رفعت سيد أحمد - النبی المسلح - الجزء الثاني - الثائرون - لندن (١٩٩١) - ص ٩٢.

(٣١) بول ووكر - الفكر الإسماعيلي في عصر الحاكم بأمر الله - ترجمة سيف الدين القصير - دمشق (١٩٩٥) - ص ١٠١.

(٣٢) حميد الدين الكرمانى - الرسالة الحاوية في الليل والنهار - وقد وضعها المؤلف (٣٩٩هـ) ردا على التساؤل حول أولوية وربما أفضلية " الناطق " أى النبی أم " الأساس " أى خليفته والمتابعون بعده.

(٣٣) شكرى مصطفى - التوسمات . مخطوط (لم تسبق طباعته) مكتوب بخط اليد بالحبر الأسود والآيات والأحاديث بالخط الأحمر . والصفحات مرقمة بالأرقام الأفرنجية وعددها ٨٥ صفحة . وهناك اقتباسات جرى تضمينها في ملاحق هذا الكتاب.

(٣٤) سيد قطب - معالم في الطريق - ص ٣٤.

(٣٥) حيثيات الحكم الصادر في قضية جماعة شبان محمد - المتهم فيها صالح سرية وآخرون.

(٣٦) أيمن الظواهرى - فرسان تحت راية النبی - راجع موقع الظواهرى على الإنترنت.

(٣٧) د. كليم صديقى - الحركة الإسلامية، قضايا وأهداف، منشورات المعهد الإسلامى - لندن - (١٩٨١).

(٣٨) نبيل فارس - المرجع السابق - ص ١١.

(٣٩) د. أمانى قنديل، د. سارة بن نفيسة - الجمعيات الأهلية في مصر - القاهرة (١٩٩٤) ص ٢٥.

(٤٠) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية - الأهرام - تقرير الحالة الدينية في مصر ١٩٩٥ - القاهرة (١٩٩٦) ص ٢٣٦.

(41) Guenea,N.& Ibrahim,s-Changim- Face of Egypt's Islamic Activism- 1997-p.16.

ورقة بحثية.

(٤٢) المرجع السابق.

(٤٣) د. هالة مصطفى - الإسلام السياسى في مصر - من حركة الإصلاح إلى جماعات العنف - القاهرة (١٩٩٢) - ص ٩٧.

(٤٤) حسنين توفيق (دكتور) - الإخوان المسلمون والتعددية الحزبية - قراءة في رؤية حسن البنا - القاهرة - (١٩٩٦) ص ٤.

(45) Guenena-Ipid-p.60

(٤٦) هويدا عدلى - دراسة بعنوان حركة الإسلام السياسى - أسباب النشأة ومحددات الازدهار - وريت ضمن كتاب - الجمعيات الأهلية الإسلامية في مصر - إشراف وتقديم عبد الغفار شكر - القاهرة - (٢٠٠١) - ص ٦٣.

(٤٧) عماد صيام (دكتور) - الحركة الإسلامية والجمعيات الأهلية في مصر - بحث ضمن المرجع السابق - ص ٩٦.

(٤٨) المرجع السابق - ص ١١٥.

(٤٩) روزاليوسف - ١٩٧٧.

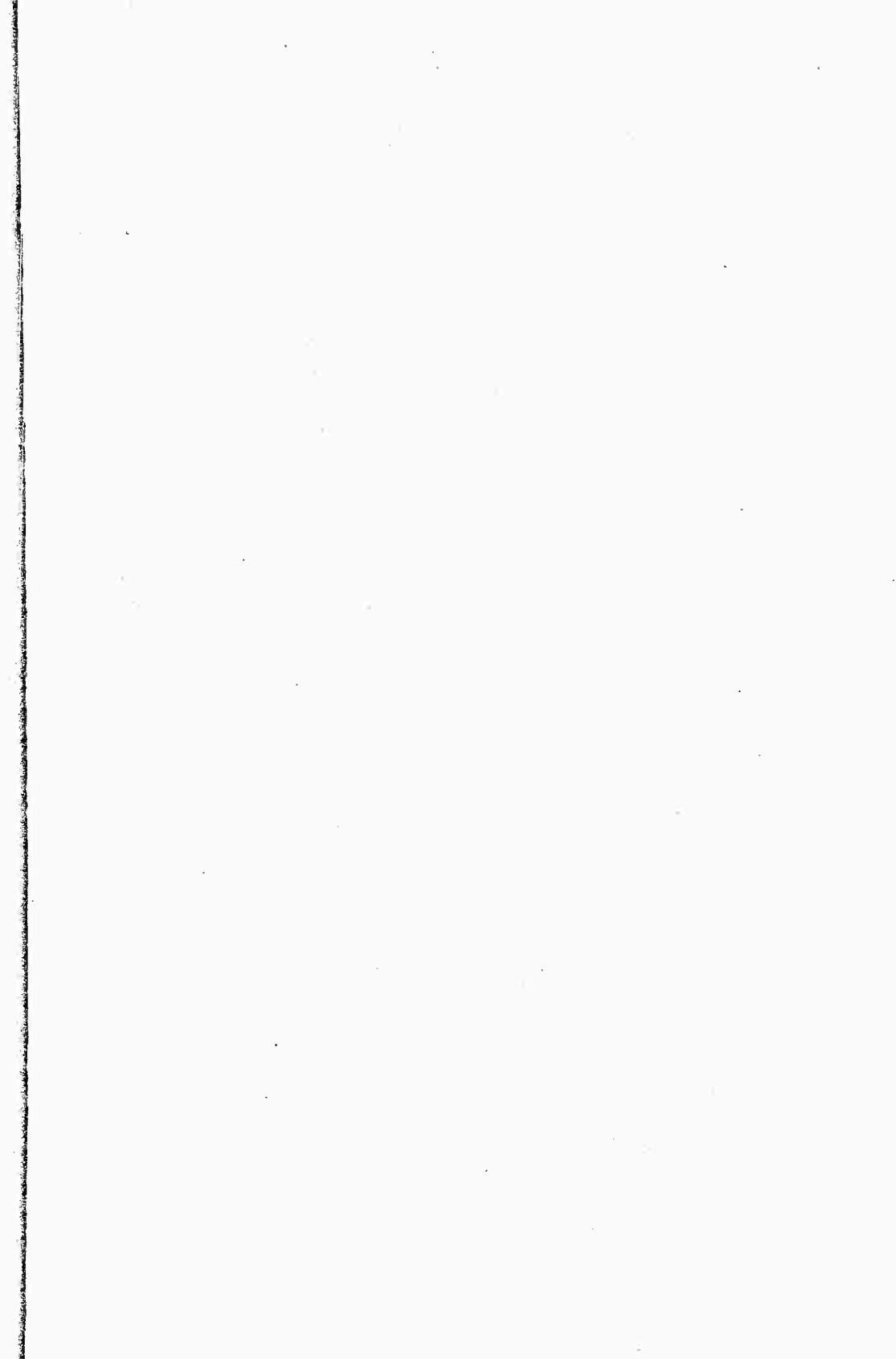
(٥٠) د. عبد العظيم رمضان - الأصول التاريخية والفكرية للجماعات الإسلامية - القاهرة (١٩٩٥) - ص ٢٢٧.

(٥١) روزاليوسف ١٤-٨-١٩٩٥.

- (٥٢) روزاليوسف ١٣-١٢-١٩٩٣.
- (٥٣) أيمن الظواهري - فرسان تحت راية النبي - المرجع السابق.
- (٥٤) لمزيد من التفاصيل راجع: عماد صيام - المرجع السابق.
- (٥٥) الأهرام - ٣-١٠-١٩٨١.
- (٥٦) مصطفى كامل السيد (دكتور) - تحرير - حقيقة التعددية السياسية في مصر - القاهرة (١٩٩٦) دراسة لأمانى قنديل بعنوان الجمعيات الدينية والمشاركة السياسية - ص ٣٤٤.

الفصل الثاني

من يختطف الإسلام لصالحه؟



ونكتشف شيئاً مثيراً للدهشة.. فبقدر ما خشى حكامنا على امتداد الزمان الحديث من أن يستخدم معارضوهم الدين سبيلاً لتحقيق مآرب سياسية، فإنهم أنفسهم فعلوا ذات الشيء مقدمين لهؤلاء المعارضين الحجة والمبرر في محاولات تدين السياسة.

ومنذ وصول "فؤاد" إلى القصر الملكي كان حلم الاستقواء بالدين هو عتاده في مواجهة الزعامة المهيبة لسعد زغلول، وكان الأزهر والتحكم في مفاتيح السيطرة عليه السبيل الأسهل.. والأيسر.

ومنذ البدايات الأولى، وعندما كان فؤاد لم يزل سلطاناً بغير سلطة، حاول أن يفرض سيطرته على الأزهر بشكل دستوري، وفيما كانت لجنة الثلاثين تصوغ مشروع دستور ١٩٢٣ كانت عين فؤاد مسلطة على موضوع علاقته بالأزهر. وإذا أتت نصوص المشروع خالية من أى إشارة لعلاقة الملك وسلطاته بالأزهر. الأمر الذى يعنى بدهاءة أن لجنة الثلاثين لم تر أى مبرر لمنح الملك سلطات على الأزهر أو تجاهه، بل تركت أمر الإشراف عليه شأنه شأن غيره من المؤسسات للوزارة المسؤولة أمام البرلمان. غضب "فؤاد" وصمم على نص يجعل للملك وحده السلطة على الأزهر. وبعد صراعات مريرة أسفرت المعركة عن نص: "يحال إلى قانون يصدر فيما بعد لينظم الطريقة التى يباشر بها الملك سلطته فيما يختص بالمعاهد الدينية وتعيين الرؤساء الدينيين، والأوقاف التى تديرها وزارة الأوقاف، وعلى العموم المسائل الخاصة بالأديان المسموح بها فى البلاد"^(١)، واتفق على "أنه إذا لم توضع أحكام تشريعية تنظم هذا الأمر تستمر مباشرة هذه السلطة طبقاً للقواعد والعادات المعمول بها الآن"^(٢).

ويعترف الشيخ الظواهرى الذى عينه فؤاد شيخاً للأزهر ليكون عيناً له على هذه المؤسسة المهمة بأن "الملك فؤاد كان حريصاً على أن يعرف كل شىء عن الأزهر

والمعاهد الدينية، فقد كان جلالته يعتبر أن هذه الناحية هي من الأمور الخاصة به، يديرها جلالته دون وساطة أحد من وزرائه^(٣).

وقد بدأت محاولات القصر الملكي لاستخدام الأزهر كمؤسسة لمواجهة النفوذ الطاعى لحكومة سعد زغلول بتبنى بعض المطالب الوظيفية لرجال الأزهر فى محاولة لإظهار الحكومة بأنها تقف ضد الأزهريين، الأمر الذى نتج عنه تحرك أزهرى يطالب بما أسمى "رفع الوساطة بين الملك وشيوخ الأزهر كما لا وساطة بين جلالة الملك وبين رئيس الوزراء، إذ لا يليق فى عهد جلالتم الميمون أن يحال بين كبير رجال الدين وبين كبير رجال الدنيا"^(٤).

وتتشكل كثمرة لهذه المحاولات ظاهرة جديدة، إذ ينظم الأزهريون شيوخاً وطلاباً مظاهرة صاخبة تتوجه لاستقبال فؤاد عند عودته من مصيفه بالإسكندرية، وتعالى هتافات المتظاهرين بما لم يسمعه المصريون من قبل "يسقط سعد زغلول" و"لا رئيس إلا الملك"^(٥) ويتواصل حدوث مثل هذه المظاهرات بتشجيع من القصر والشيوخ من رجال القصر ومن رجال الأمن.

وكانت سعادة الملك تبدو بالغة كلما وصلتته أنباء عن مظاهرات مماثلة، الأمر الذى شجع رجال الأمن على موافاته بتقارير وافية عن مثل هذه التحركات.. وترخر ملفات البوليس السياسى بتقارير نكتفى بنموذج منها:

"محافظة القاهرة

إدارة الضبط - فرع "ب"

الموضوع: تقرير عن حالة الأزهر الشريف يوم ٤ فبراير ١٩٢٧

نمرة ١٩٠ سياسى سرى - مطلوب رد

"حضرة صاحب المعالى كبير الأمناء لحضرة صاحب الجلالة الملك:

أتشرف بإخبار معاليكم أنه كان بالأزهر أمس عدد كبير جداً لمناسبة صلاة الجمعة فألقيت فيه الخطب الكثيرة طوال النهار، وفى الليل أيضاً، وقد كانوا يصيحون بالنداءات الآتية من وقت لآخر: "يحيا جلالة الملك" - "يحيا حسن

نشأت باشا". "يسقط البرلمان والحكومة وسعد باشا".
وقد كان البوليس مرابطاً على بعد من الجامع الأزهر ولم تحصل مظاهرات،
ولم تقع حوادث.

وهذا لمعاليكم للمعلومية

تحريراً فى ٥ فبراير ١٩٢٧ حكمدار بوليس مصر^(٦).

ويحلل د. عبد العظيم رمضان معطيات العلاقة بين القصر الملكى والأزهر
قائلاً: "استمرت علاقة التحالف بين القصر والأزهر طوال عهد الملك فؤاد وحتى
نهاية حياته. ونظراً لأن القصر كان على علاقة تحالف أخرى مع الإنجليز فلم
يكن هناك مفر من أن يتأثر الأزهر بهذه العلاقة أيضاً. وحين اتجهت السياسة
البريطانية فى ربيع ١٩٣٥ تحت ضغط الحركة الوطنية إلى تقديم بعض
الترضيات للجماهير المصرية فرضت على الملك إخراج الشيخ الظواهرى من
منصب مشيخة الأزهر وتعيين الشيخ مصطفى المراغى مكانه.. وكان الشيخ
المراغى على علاقة بالسلطات البريطانية منذ أن كان موظفاً كبيراً بالسودان.
وعندما نقل إلى مصر اتصل باللورد جورج لويد المندوب السامى البريطانى،
وأصبح على علاقة وطيدة معه، إلى حد إنه لم يكن يمضى أسبوع دون أن يكون
الشيخ مدعواً أو زائراً فى دار المندوب السامى، كما حكى محمد شفيق رئيس القسم
العربى بالدار^(٧).

وكان طموح الملك فؤاد نحو الخلافة مكملاً لمعركته ضد خصومه. وكانت
الفرصة هى إلغاء كمال أتاتورك للخلافة العثمانية فى ٣ مارس ١٩٢٤. ولم يتأخر
فؤاد طويلاً؛ فبعد أربعة أيام فقط من قرار أتاتورك عقد عدد من شيوخ الأزهر
اجتماعاً احتجاجاً فيه على إلغاء الخلافة، ثم بادر الشيخ محمد حسين وكيل الجامع
الأزهر فنشر مقالاً دعا فيه أهل الحل والعقد "إلى المبادرة للنظر فى بيعة خليفة
للمسلمين"^(٨). وكان هذا البيان بداية تحرك فؤاد والأزهر معاً من أجل تنصيب ملك
مصر خليفة للمسلمين.

ودارت الماكينة سريعاً استجابة لتلبية رغبة الملك.. وفى ١٩ شعبان ١٣٤٢ (٢٥ مارس ١٩٢٤) أى بعد واحد وعشرين يوماً فقط من إسقاط الخلافة العثمانية اجتمع العلماء برئاسة شيخ الأزهر ليعلموا سقوطبيعة "السلطان" عبد المجيد وقرروا دعوة ممثلى جميع الأمم الإسلامية إلى مؤتمر يعقد فى القاهرة برئاسة شيخ الأزهر للبحث فىمن يجب أن تسند إليه الخلافة ومكان وجوده وحددوا شهر شعبان من العام التالى موعداً لانعقاده^(٩).

وفى ربيع أول ١٣٤٢ (أكتوبر ١٩٢٤) صدرت نشرة "المؤتمر" بهدف إنجاح الدعوة للمؤتمر. وفى العدد الأول نشر محمد رشيد رضا مقالاً افتتاحياً دعا فيه إلى عقد "أول مؤتمر إسلامى عام يشترك فيه علماء الدين والدنيا من كل الأمم الإسلامية.. ومهمته هى وضع قواعد للحكومة الإسلامية المدنية التى يظهر فيها علو التشريع الإسلامى، ووضع قواعد للتربية والتعليم تجمع بين هداية الدين ومصالح الدنيا، واختيار خليفة وإمام للمسلمين"^(١٠).

لكن الحماس الآتى من مصر أخاف البعض وأطمع الكثيرين فى منصب الخليفة. فتراخى البعض وانقسم الآخر وانتهى الأمر بأن عقد مؤتمر هزيل فى ذى القعدة ١٣٤٤ (١٣ مايو ١٩٢٦).. وكان الهزال ملحوظاً فى الحضور.. وفى القرارات.

وقد تعرضت فكرة الخلافة لهجوم شديد من حزب الوفد وكذلك من حزب الأحرار الدستوريين.

ونشرت مجلة "السياسة" (جريدة الأحرار الدستوريين) مقالاً قالت فيه: "إن الدستور ينص على أنه لا يجوز للملك أن يتولى مع ملك مصر أمور دولة أخرى بغير رضا البرلمان. ومن ثم يتعين ترك بحث هذه المسألة للسياسيين، وأن يعدل علماء الأزهر عن الدعوة للمؤتمر". وكتب الشيخ على عبد الرازق مقالاً فى ذات الجريدة أكد فيه أن الحماس للخلافة ليس دفاعاً عن الدين وإنما مساندة "للأناس يريدون أن يبقى فى الوجود ذلك الشئ ليكونوا له حماة"^(١١).

وتكتمل التداعيات بإصدار الشيخ على عبد الرازق كتابه الشهير "الإسلام وأصول الحكم". الذى أكد فيه أن الإسلام جعل من الحكومة والحكم والقضاء والإدارة ومراكز الدولة "خطط دنيوية صرفة، لا شأن للدين بها، فهو لم يعرفها ولم ينكرها، ولا أمر بها ولا نهى عنها، وإنما تركها لنا لنرجع فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة"^(١٢).

وأكد أنه "ليس من حاجة إلى تلك الخلافة لأمر ديننا ولا لأمر دنيانا. ولو شئنا قلنا أكثر من ذلك، فإنما كانت الخلافة ولم تزل نكبة على الإسلام والمسلمين وينبوع شر وفساد"^(١٣).

وقامت قيامة القصر ومعه قامت قيامة الأزهر.. كتب شيوخه عديداً من المقالات والكتب، يهاجمون الشيخ على عبد الرازق، ثم مثل الشيخ للمحاكمة أمام هيئة كبار العلماء التى أصدرت حكمها فى ١٢ أغسطس ١٩٢٥ "بنزع شهادة العالمية من الشيخ على عبد الرازق ومحو اسمه من سجلات الجامع الأزهر، وطرده من كل وظيفة. لعدم أهليته للقيام بأية وظيفة دينية أو غير دينية"، وعقب صدور الحكم أسرع شيخ الأزهر ليزف البشرى إلى الملك فأبرق له "شاكراً غيرته على الدين من عبث العابثين وإلحاد الملحدين وحفظ كرامة العلم والعلماء"^(١٤).

ويرحل فؤاد ويأتى فاروق ليلعب ذات اللعبة، يديرها له وهو لم يزل فتى صغير السن الثالث: على ماهر - كامل البندارى - الشيخ المراغى. ومنذ اليوم الأول حاول القصر أن يصادر الدين لمصلحته، فاقترح الأمير محمد على (ولى العهد) أن يتم تنصيب الملك فى احتفال دينى. ورفض النحاس وألقى أمام مجلس النواب خطاباً قال فيه: "إن ذلك إقحام للدين فيما ليس من شأنه وإيجاد سلطة دينية خاصة بجانب السلطة المدنية"، ومضى قائلاً: "إن الإسلام لا يعرف سلطة روحية.. وليس أحرص منى ولا من الحكومة التى أتشرف برئاستها على احترام الإسلام وتنزيه الإسلام، كما أنه ليس أحرص منا على الالتزام بالدستور. والاحتفال بمباشرة الملك لسلطته الدستورية شئ آخر فهو مجال وطنى يجب أن يتبارى فيه

سائر المصريين مسلمين وغير مسلمين" (١٥).

لكن الملك وبتشجيع من الشيخ المراغى، وإذ يلتقى بأعضاء مجلس الشيوخ ليرفعوا له رد المجلس على خطاب العرش يواصل تحديه ويفاجئ الجميع بقوله: "لا يكفى رضاء الأمة عنكم بل يجب أن يكون معه رضاء الملك كذلك" (١٦).

ثم يذيع بياناً بالراديو على الشعب يقول فيه: "إن ثقتى بنفسى وتوكلى على الله يلهمنى تصريف الأمور ويوجهنى الوجهة الصحيحة" (١٧).

ثم يتحدث الشيخ المراغى بصراحة لم تعرفها مصر من قبل قائلاً: "إن الأمة الإسلامية هى محتوى سياسى، كما أنها محتوى دينى، ونحن نرفض أية محاولة لفصل سلطة الدين عن سلطة ولى الأمر" (١٨).

وهكذا وفى غمرة حماس القصر ورجاله للاستقواء بالدين فى مواجهة النحاس باشا.. فتحوا الباب واسعاً أمام الدعاوى المتأسلمة التى كان يتحدث بها حسن البنا وجماعته.

ويكون طبيعياً أن يكون الاستقواء هذه المرة بالأزهر وجماعة الإخوان معاً. وعندما خرجت مظاهرات الوفديين هاتفة "النحاس أو الثورة" اخرج حسن البنا رجاله ليهتفوا "الله مع الملك".

وقد ظل التحالف الإخوانى مع القصر واضحاً بل وفاضحاً بحيث وضعت الجماعة كل ثقلها فى خدمة القصر. وقد استفادت من ذلك دعماً مادياً ومعنوياً لكنها استفادت أيضاً ما هو أهم.. فالقصر كان يفتح أمامها أبواب الادعاء بأسلمة السياسة (١٩).

.. ونأتى على الزمن الناصرى لنكتشف أن الأمر لم يتغير كثيراً.

ربما اختلفت الأساليب لكن المحتوى الأساسى ظل كما هو.

فى البداية كان هناك غزل واضح بين الضباط الآتين إلى الحكم وبين جماعة الإخوان. وشهدت مصر سباقاً محموماً بين محمد نجيب وجمال عبد الناصر حول التقرب إلى الإخوان والتقارب معهم.

ثم وبعد بروز الخلافات السياسية بين نجيب وجمال بدأت رحلة التحالف بين نجيب والإخوان، وبدأ الإخوان فى محاولات خطيرة تستهدف إشعال نيران الوقيعة بين الرجلين مستغلين حالة حقيقة من الخلافات والحساسيات المتبادلة الأمر الذى انتهى وبعد أن تمكن عبد الناصر من انتزاع مطرقة السلطة بأن يهوى بها على رأس الجماعة، ساعياً نحو تقسيمها وهو ما نجح فيه إلى حد كبير، ثم إلى توجيه ضربات قاصمة لها.

والحقيقة "أن النخبة السياسية لنظام ١٩٥٢ قد اعتبرت أن الدين أحد الركائز الأساسية لأيدولوجيتها السياسية خاصة فى المراحل الأولى. وعندما رفعت شعار الاشتراكية استخدمت الدين لتبرير هذا التوجه. وحرصت على الربط بين الاشتراكية والدين" (٢٠).

وفى مطلع الستينات بدأ عبد الناصر فى خطة منهجية استهدفت السيطرة على المؤسسة الدينية الأساسية وهى الأزهر. وفى يونيو ١٩٦١ صدر قانون ينظم العلاقة بين الدولة ومؤسسة الأزهر (٢١). ويلغى القانون القديم الصادر فى عام ١٩٣٦ الذى كان يعطى للأزهر درجة أكبر من الاستقلالية (٢٢).

ويمكن القول إن أهم تغيير أدخل على هذه العلاقة وفق القانون الجديد تمثل فى تقليص استقلالية الأزهر وجعله تابعاً بشكل مباشر لرئاسة الجمهورية ليس فقط بإعطاء رئيس الجمهورية الحق فى تعيين وعزل شيخ الأزهر ووكيله، وإنما أيضاً بإدراج ميزانية خاصة للأزهر ضمن الموازنة العامة للدولة. وبهذا يمكن القول إن هذا القانون قد جعل من الأزهر مؤسسة حكومية خاضعة لسلطة الدولة. ومن هنا فإننا نلاحظ أن ما أسماه النظام الناصرى بعملية تطوير الأزهر عبر القانون ٦٠٣ لسنة ١٩٦١ لم يكن سوى تحقيق هدف سياسى بالأساس، وهو إحكام سيطرة الحكم على مؤسسة الأزهر، استكمالاً لسيطرة الدولة على كل المؤسسات، بحيث يمكن القول إن هذا القانون كان تكريساً "للسياسة استهدف بها عبد الناصر ربط الدين بسياسته بحيث تحدد العلاقة فى شكل يعطى السلطة مساحة دينية مقابل دعم

الإسلام لها ممثلاً فى المؤسسات الدينية وخاصة الأزهر^(٢٣).

بينما يرى باحث آخر أن موقف النظام الناصرى من المؤسسات الدينية الرسمية "كان جزءاً من موقف أشمل يتصل برؤية النظام لعلاقة الدين بالمجتمع، والوظيفة المنوطة به فى مجال التنمية. ومن هنا ينظر للإِنفاق على الأزهر وتطويره على أنه تحقيق لهدف سياسى يسعى إلى تحجيم الاستقلالية النسبية التى كان يتمتع بها، ولكى يصبح رجاله مجرد موظفين حكوميين يحرصون على مناصبهم ورواتبهم ومستقبلهم الوظيفى، وهكذا يتحقق للسلطة أن تخضع هذه المؤسسة من ناحية، وأن تضيف الشرعية على سياساتها من ناحية أخرى"^(٢٤).

لكن النظام الناصرى لم يكتف بإخضاع الأزهر بل اتجه أيضاً إلى أسلمة المناهج التعليمية وخاصة فى زمن تولى كمال الدين حسين لوزارة التعليم، كما عمل على تأسيس العديد من الهيئات ذات الطابع الإسلامى، فأنشأ المؤتمر الإسلامى (١٩٥٥) وتولى أحد قادة النظام (أنور السادات) موقع السكرتير العام فيه، ثم أنشأ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (١٩٦٠) ونشط هذا المجلس فى إصدار "موسوعة جمال عبد الناصر" للفقهاء الإسلامى، وأصدر سلسلتين شهريتين "دراسات فى الإسلام" و"كتب إسلامية"، كما أصدر مجلة شهرية بأكثر من لغة هى "منبر الإسلام"^(٢٥).

وبهذا يكون النظام الناصرى قد منح نفسه ما أراد.. فقد سيطر على المؤسسات الدينية، وكذلك أضفى - أو حاول - ما يمكن تسميته مشروعية دينية على ما يتخذ من قرارات وإجراءات.

وجاوب كذلك أن يحقق توازناً بين حربه القاسية ضد جماعة الإخوان وبين إضفاء المسحة الإسلامية على مسلكه.

لكنه فى ذات الوقت قدم خدمة جلييلة للجماعة ذاتها التى خاض حربه ضدها، ولكل الجماعات المتأسلمة التى استفادت من تكريس فكرة الدولة ذات الطابع الدينى. ومهما حاولت الناصرية تحقيق توازن فى هذا الأمر فإنها قد فشلت لأن

جماعة الإخوان ظلت الأقدر والأقرب من فكرة الدولة الدينية. وكان النظام كان يمهّد لها الطريق بينما هو يحاول تطويقها، محاولاً الظهور بمظهر الأقرب إلى الدين.

كذلك فعلها السادات..

فقد وصل إلى السلطة فى ظل هيمنة شاملة وساحقة للفكر الناصرى ولمن أسموا أنفسهم أو تمت تسميتهم بأنهم ورثة أو حراس الفكر الناصرى. يقول أحد الباحثين المتخصصين فى هذه المرحلة: "فى الأيام الأولى لحكم السادات، تبدى الأمر وكأنه مجرد مرحلة انتقالية، فقد كان السادات يتعامل فى واقع الأمر مع شبح عبد الناصر، محاولاً فى ذات الوقت الابتعاد عن سياسته"^(٢٦). وبرغم كل محاولات السادات كى يبدو ذا خط مستقل وسياسة متميزة عن سياسات عبد الناصر إلا أن شبح عبد الناصر ظل قادراً على أن يقيد خطاه لفترة ما. ولعله قد أوضح ذلك بجلاء بعبارات مريرة أحياناً فى كتابه "البحث عن الذات"^(٢٧)، ولعل ذلك يفسر السر فى إصراره على البحث عن رداء جديد لنظام يختلف ويتميز عن الرداء الناصرى. لكى لا يظل مجرد تلميذ - حتى لو كان مجتهداً - للرئيس السابق، ولكى يستطيع أن يتخلص من مناوئيه الذين ساعدوه على الوصول لسدة الرئاسة بينما أحكموا قبضتهم على ما توهموا أنه كل مفاتيح السلطة والنفوذ فى الدولة.

وهكذا رسم السادات خطة جديدة تستهدف الاستقواء المباشر والحاسم ليس بالدين فحسب، وإنما أيضاً بالجماعات المتأسلمة وعلى رأسها جماعة الإخوان، وإذ لم يجد أن مساندة هذه الجماعة كافية اندفع ليؤسس جماعات جديدة أكثر تأسلاً وأكثر شراسة. وبدأ السادات رحلته هذه بإدخال تعديل على الدستور نص فيه على "الإسلام دين الدولة، واللغة العربية لغتها الرسمية، ومبادئ الشريعة مصدر رئيسى للتشريع"^(٢٨).

ولعل الهدف من هذه الخطوة وما تلاها من خطى كان يستهدف.. بناء فكر جديد مستقل عن الفكر الناصرى، والاستناد إلى قوى جديدة (الإخوان والجماعات) لمواجهة رجال الفكر "القديم" (أى الناصرى) والنفوذ الماركسى واليسارى عموماً الذى تنامى بصورة لافتة للنظر فى بداية السبعينيات وخاصة فى الجامعات. وبعد ١٥ مايو اتخذ هذا المسار لنفسه قوة دفع قوية، وأكثر وضوحاً وصراحة.. وترددت تسميات مثل "الرئيس المؤمن" و"رئيس مسلم لدولة مسلمة" و"دولة العلم والإيمان".

ويلاحظ البعض أن السادات "أسمى ما فعله فى ١٥ مايو ١٩٧١ بأنه "ثورة التصحيح" مؤكداً "أن ما حدث فى يوم ١٥ مايو وما تلاه من أيام، عملية "تصحيح" لمسار ثورة يوليو ١٩٥٢" (٢٩).

لكنه وبرغم كل المحاولات الدعوية للتخلص من الشبح الناصرى فقد ظلت محاولاته جزئية، حتى كانت حرب أكتوبر ١٩٧٣ فكانت البداية لتكريس مشروعية مستقلة له كشخص وكنظام حكم.

ومن هنا يمكن القول إن "١٥ مايو" ١٩٧١ كان نقطة الانعطاف الحاسمة نحو التوجه الساداتى لدعم الإخوان ولتشكيل الجماعات المتأسلمة الأخرى. يقول حسن أبو باشا، وكان فى موقع القادر على التعرف على الحقائق الأمنية: "وكانت الخطوة الأولى التى اتخذها الرئيس الراحل السادات بعد صدامه مع من أطلق عليهم مراكز القوى هى إعطاء الضوء الأخضر لتشكيل ما سمي بالجماعات الإسلامية فى الجامعات. وكان واضحاً أنه لجأ إلى هذه الخطوة كى يحقق توازناً على الساحة السياسية فى مواجهة التيار الماركسى الذى وقف ضد نظام حكمه منذ اللحظات الأولى لولايته" (٣٠). ويمضى حسن أبو باشا: "كان واضحاً تماماً فى ذلك الوقت أن تنظيم الاتحاد الاشتراكى بعد أن تفكك تنظيمه الطليعى يفقد الفعالية المؤثرة على المجال الجماهيرى بصفة عامة وعلى المجال الطلابى بصفة خاصة، وأن القدرة الحركية للعناصر الماركسية فى المجال الطلابى تتجاوز بكثير

قدرة الاتحاد الاشتراكي. وكانت الظاهرة الأولى بعد إسناد أمانة التنظيم بالاتحاد الاشتراكي للسيد محمد عثمان إسماعيل أن بدأت تظهر في المجال الطلابي ما يسمى بالجماعات الإسلامية^(٣١). وقد أعطى النظام لهذه الجماعات دعماً غير محدود وشجعها على أن تتصادم ويعنف مع الجماعات الماركسية والناصرية "في أية مناسبة يتاح لها فيها أن تخلق مثل هذا الصدام"^(٣٢).

ولكن ومع بروز قوة الجماعات وجموحها وانفلاتها من إسطار النظام بدأ السادات في تعزيز تعاونه مع الإخوان بهدف محاصرة هذه الجماعات وبهدف تحقيق انشقاق في صفوف المتأسلمين، لكن الإخوان لم يكونوا حليفاً مخلصاً، قد عملوا على الاستفادة من السادات دون أن يفقدوا تمايزهم، وكى يراكموا قدراً من النفوذ أنها ذات اللعبة القديمة المتجددة دوماً.. لعبة المصالح المشتركة مع الطاغوت، وما إن خيل إليهم أنهم امتلكوا ما يكفي من نفوذ حتى أخذوا في ممارسة ضغوط شديدة على السادات مطالبين بعودة الشرعية لجماعتهم، "ولكن السادات تجنب الصدام معهم حفاظاً على الوجه الليبرالي الذي حاول الظهور بمظهره وتجنباً للدخول في صدام معهم وتهدة لحدة المعارضة الإسلامية العنيفة"^(٣٣)، ولكنه حاول أيضاً أن يحتويهم فقدم لهم تنازلاً تمثل في السماح لمجلة "الدعوة" بالصدور دون أن يمنحها ترخيصاً رسمياً^(٣٤).

لكن الأمر يتطلب قدراً من التدقيق والتوثيق.

ولنبداً من البداية..

يقول عمر التلمساني: "في عام ١٩٧٢ جاء فضيلة الشيخ سيد سابق وأخبرني بأن السيد أحمد طعيمة، وكان وزيراً للأوقاف أخبره بأن السادات على استعداد للقاء بعض الإخوان المسلمين المعروفين لإزالة ما في النفوس، والتعاون على خدمة الوطن، وكان ذلك قبل إبعاد الخبراء السوفيت بقليل فرحبت بالفكرة.. وعرضت الأمر على فضيلة المرشد حسن الهضيبي فقال إن الفكرة لا بأس بها إن صحت النوايا.. ثم طلب مني الشيخ سيد سابق - طبقاً لما طلب منه السيد أحمد طعيمة -

أن أقوم بتكوين لجنة من الإخوان تقابل السادات فى الإسكندرية لوضع الصيغة النهائية للاتفاق، واتصلت بالسيد أحمد طعيمة وأعلمته بأسماء الإخوان الذين سيقابلون السادات.. ثم حدث توقف تام" (٣٥).

ويواصل التلمسانى: "وفى مرة أخرى طلب منى السيد عثمان أحمد عثمان وكان وزيراً للإسكان أن تلقاه مجموعة منا فذهبت مع الدكتور أحمد الملط والحاج حسنى عبد الرازق والأستاذ صالح أبو رقيق وقابلناه. فرأى أنه من الخير أن نقدم للسادات وجهة نظرنا فى الإصلاح كتابة حتى يدرس الأمر فى روية وعلى مهل فكتبنا له وجهة نظرنا فى تسع صفحات فولسكاب حملها له السيد عثمان أحمد عثمان. ثم كانت لى مقابلات مع السيد محمد حسن مبارك، وكان نائباً لرئيس الجمهورية فى ذلك الحين لقيته فى منزله فى مصر الجديدة منفرداً مراراً، ومعى الأستاذ مصطفى مشهور مرات أخرى للإجابة عن بعض الاستفسارات عن بعض ما جاء بتلك الصفحات التسع. ثم انتهى الأمر إلى صمت مطبق وتوقفت اللقاءات" (٣٦). ثم يضيف فى موقع آخر: "واستدعانى المرحوم السيد فؤاد محيى الدين فى أوائل ديسمبر ١٩٨٢ لمقابلته فى دار رئاسة مجلس الوزراء وكنت أظن أن الاستدعاء لأمر له أهميته، واستمرت المقابلة حوالى نصف ساعة وسألنى سيادته عما سيكون موقفنا فى الانتخابات، فكان الرد أن الإخوان لم يتفقوا مع أحد بعد. ولم يزد ولم أزد" (٣٧).

ويبدو أنه كان هناك وسطاء آخرون. يقول د. محمود جامع فى رسالة إلى اللواء فؤاد علام عقب نشر اللواء لسلسلة مقالات أصدرها فيما بعد فى كتاب: "الاجتماعات التى حدثت مع قيادات الإخوان المسلمين تمت بعد تولى السادات رئاسة الجمهورية وقمت بدور الوسيط للإفراج عن المسئولين منهم ودعوة الخارجيين من أرض الوطن. وقد أرسلنى السادات للسفر إلى الخارج لعدة مرات للاتصال بهم" (٣٨).

ثم.. وبعد ذلك تبقى مساحة غامضة لم يتحدث عنها كثيراً من تحدثوا عن

علاقة السادات بالإخوان على كثرتهم. فالحدث دوماً يبدأ بعام ١٩٧١. ثم يستأنف بعام ١٩٧٩ فماذا حدث فى هذه العلاقة خلال هذه الفترة الزمنية المسكوت عما حدث فيها؟ لا احد يتحدث عن ذلك، ثم وفجأة يحدثنا عمر التلمسانى عما كان فى أواخر عام ١٩٧٩.. أى يقفز عديداً من السنين من علاقة غامضة ويقول: "وفى مقابلتى مع الرئيس السادات بناء على طلبه فى ديسمبر ١٩٧٩، طلب منى أن أقابل السيدة آمال عثمان وزيرة الشؤون الاجتماعية فأدركت ما يهدف إليه، وهو أن يخضع جماعة الإخوان لسلطان وزارة الشؤون الاجتماعية، ولم أذهب لأن مطلبنا الذى لا نساوم عليه هو عودة الجماعة كما كانت يوم أن قرروا حلها، ولما قلت له أننى ما تعودت بحث مثل هذه الأمور مع سيدات قهقهه عالياً وقال "طيب روح يا سيدى لنبوى أو منصور حسن ولم أذهب" (٣٩).

ويقول أيضاً فى مباهاة: "كان وزير الداخلية يستعين بى مراراً فى تهدئة ثائرة طلاب الجماعات، فكنت أستجيب، وكنت أوفق فيما طلب منى"، لكنه مع ذلك يؤكد حالة غريبة من التناقض أو بالدقة المراوغة إذ يواصل قائلاً: "كنت موقفاً بصواب الكثير من آراء الطلبة (أى الجماعات الإسلامية) وفى نفس الوقت لم أكن مقتنعاً بجدوى تصرف وزارة الداخلية معهم" (٤٠).

ونتوقف أمام هذه العبارة فهى تلخص موقف الإخوان من السادات.. بل وموقفهم فى كل علاقاتهم مع جميع من تعاونوا معهم. وزير الداخلية يطلب منه إقناع طلاب الجماعات الإسلامية بتهديئتهم. وبينما هو يرى صواب موقف الجماعات وخطأ تصرفات وزير الداخلية، يعلن موافقته ويلتقى بالجماعات. إنها المراوغة الإخوانية المعتادة.

لكن عمر التلمسانى يوضح موقفه من علاقته بالسادات وبأية قوى سياسية أخرى فيقول إذ عاتبه السادات لأنه التقى بزعماء المعارضة: "إن السادات يعلم علم اليقين أننى رفضت الانضمام إلى جبهة تكونها المعارضة لا ترفعاً ولا تعالياً، ولكن سبب الرفض هو إيمانى بأن الإسلام أقوى جبهة تقف ضد الظالمين، وهى أجد

أن ينضم إليها المعارضون جميعاً وحتى الحزب الوطنى^(٤١).

ومع ذلك فقد قدم الإخوان كثيراً من التنازلات للسادات مقابل ما قدمه لهم، ولعل أخطر هذه التنازلات هو موقفهم من انتفاضة يناير ١٩٧٧، حيث هاجموا وأدانوا القائمين بها، مصورين للسادات أنهم يسعون لحمايته من قوى اليسار. كذلك موقفهم من كامب ديفيد والتطبيع مع الإسرائيليين. فقد أَرْضَى السادات كثيراً قبول الإخوان للتطبيع وفتحهم أبواب مجلة الدعوة لمقابلة إسرائيليين. يقول التلسمانى.. "أربعة أساتذة إسرائيليين من جامع تل أبيب زاروا مجلة الدعوة وقابلهم الأخ مصطفى مشهور فى أدبه المعروف واتزانه وحكمته... قابلهم الإخوة بأسلوبهم الهادئ المشهور وقدموا لهم تحية الزيارة ودعوهم فى أدب واتزان. وهكذا يتحدى الصهاينة مشاعر المسلمين فى دارهم وكأنهم يقولون لنا ها نحن قد حصلنا على اعتراف رسمى من حكومتكم بوجودنا فى فلسطين، فماذا فعلتم أنتم بمعارضتكم وحرب عصاباتكم؟

ورغم كل هذا التبحر فقد كان الإخوان على قمة المسؤولية الاجتماعية فى استقبالهم وعدم خدش مشاعرهم^(٤٢).

وبرغم هذه المراوغة فى رواية الواقعة فإن الجميع يعرف أن كل القوى السياسية المعارضة قد رفضت أى تطبيع مع الإسرائيليين، ورفضت استقبال وفودهم. لكن الإخوان قدموا هدية مجاملة للسادات.

ورغم أن التلسمانى يسجل تبرم الإخوان من محاولات السادات لإضعافهم ويقول: "ولما فشلوا فى عدة محاولات رأوا أن يضربوا الإخوان المسلمين بأيدى مسلمة، فقامت فى مصر جماعات إسلامية لا حصر لها تحت أسماء مختلفة وبرامج متباينة، لا همّ لها كلها إلا محاربة الإخوان المسلمين، تتهمهم بما لا يتهمهم به من هم من غير المسلمين أو المتمسلمين. هذه حقيقة عرفها الكثيرون، وأرعى النظام الحبل لهذه الجماعات ومدوها بالأسلحة والمعونات المادية والأمكنة لتكون لهم مقراً حتى إذا استفحل أمر هذه الجماعات تنكرت لمن أقاموها، وكانت

النتائج ما نراه ونقرأه ونسمع"^(٤٣).

لقد ضرب السادات - أو حاول - الإخوان فى مقتل فرغم تعاونه معهم، ورغم ما منحه لهم من مساحات واسعة للعمل إلا أنه أتى لهم بشريك ومنافس خطر فى الساحة الإسلامية.. وهذا ما لا يرضاه الإخوان.

ومع ذلك فقد صاح التلمسانى أمام جمع كبير من الناس مخاطباً السادات: "أتمنى أن يطول عهد حكمك إلى أبعد مدى"، ولما عاتبه البعض قال: "كان هذا إحساسى نحوه حقاً، لأننا فى مدة حكمه أعدنا إصدار مجلة الدعوة فى ثوبها القشيب، وكنا نقيم الأحفال من المناسبات الدينية وغيرها نقول فيها ما نشاء فى جرأة ووضوح لا نخشى فيما نقول إلا الله"^(٤٤).

إنها المراوغة المتبادلة، وربما النفاق المتبادل، يتحالف الطرفان وكل منهما يضرب الآخر من تحت الحزام. أو قل هى "لعبة المصالح المشتركة على الطاغوت".

لكن الجماعات والإخوان لم يعدما مساحة مشتركة وحلفاء مشتركين فى عهد السادات، ولعل المنسق بين الجميع، أو الحليف المشترك مع هذا الطرف وذاك ومعهما معا باسم السادات كان السيد محمد عثمان إسماعيل الذى يكتب رسالة إلى اللواء فؤاد علام يقرر فيه وبصراحة: "بادئ ذى بدء أقر أننى شكلت الجماعات الإسلامية فى الجامعات - وليست أسراً إخوانية - باتفاق مع المرحوم الرئيس السادات"^(٤٥)... لكن علام وهو العارف بعدد من الخبايا بحكم موقعه الأمنى يرد عليه مؤكداً أنه استعان بالإخوان بل ويكاد يقول إنه كان أحد قاداتهم فيقول: "قلت إنك بدأت فى تكوين الجماعات فى أواخر عام ١٩٧٢ فمن كان معك يساعدك فى تكوين الجماعات التى كونتها؟ وهل فى تلك الفترة (السبعينيات) سافرت إلى السعودية للحج أو العمرة وحضرت مؤتمر الإخوان؟ هل قابلت قاداتهم هناك مثل عبد العظيم لقمة؟"^(٤٦).

وهكذا يمكن أن يتضح الأمر. السادات عن طريق رجله محمد عثمان إسماعيل أمين التنظيم في الاتحاد الاشتراكي شكل "الجماعات الإسلامية" ويقول رجل الأمن إن الإخوان أسهموا في ذلك. ويؤكد التلمساني أن وزير الداخلية كان يوفده لتهدئتهم. ويؤكد أنه كان يتفق مع أفكارهم. ويعرف الجميع أن عمر التلمساني كان الحاضر المتكرر في عديد من المعسكرات التي أقامها محمد عثمان إسماعيل لطلاب الجماعات وخاصة في معسكر أبو قير.

.. ثم تكاثرت الجماعات وقويت شوكتها بدعم من السادات وبدعم من الإخوان. كل يناور على الآخر، السادات يريد الجماعات ليقص نفوذ الإخوان. والإخوان نشطوا في دعمهم بأمل أن يأتوا إلى أحضانهم وأن يسهموا في أسلمة المناخ العام وهو ما يريده الإخوان، وفي النهاية انضم بعض شباب الجماعات إلى الإخوان ، أما الغالبية العظمى فقد وقفوا ضد السادات وضد الإخوان معاً.

وباختصار اندفع الطرفان: السادات والإخوان، في دعم "الجماعات" الأول كي يجعل منهم قوة توازن مع الإخوان، ولكي يجعل منهما معاً (الجماعات والإخوان) قوة ضغط ضد اليسار الذي تمرّد عليه، وضد الشبح الناصري الذي لم يزل يطارده. أما الإخوان فقد نشطوا في دعم الجماعات.. وفي توسيع قاعدتها ليكونا معاً قوة ضغط على السادات وعلى اليسار وليتخذوا منهم قاعدة واسعة الانتشار للتحرك في الجامعات وفي المجتمع.. ولكي يسهموا معهم في إضفاء طابع متأسلم على المجتمع ككل وهو المناخ الأفضل لتحرك الإخوان.

وفي هذه المباراة المعقدة يمكن القول إن الإخوان كانوا الأكثر كسباً فقد أطاحت اللعبة بالسادات، ويمكن القول أيضاً أنها أطاحت بالجماعات.. وظل الكاسب الوحيد.. الإخوان. وهكذا اكتسب الأستاذ عمر التلمساني وبحق اللقب الذي أطلقه عليه رجال الأمن "أمير الدهاء".

وهكذا خاض الجميع: السادات ورجاله.. والإخوان وراثتهم، سباقاً مكثفاً لإنشاء هذه الجماعات.. ودعمها وتنظيمها.. ونقرأ: "في عام ١٩٧٣ عقد المعسكر

الإسلامى الأول لجامعات القاهرة وعين شمس. وفى عام ١٩٧٤ عقد المعسكر الإسلامى الثانى لجامعات القاهرة وعين شمس والأزهر. وفى عام ١٩٧٥ أضيف إلى المعسكر طلاب جامعتى المنصورة والزقازيق. وفى عام ١٩٧٦ عقد المعسكر الرابع، وأضيف إليه طلاب جامعات أسيوط والإسكندرية. وفى عام ١٩٧٧ عقد المعسكر بحضور كل الجامعات. وفى العادة كان يسبق المعسكر لكل جامعة معسكرات مصغرة للكليات كعملية تنشيطية للعقول والأجسام استعداداً للمعسكر العام للجامعة. والسؤال هو: من كان يصرف على هذه المعسكرات؟^(٤٧).

ويحاول الدكتور محمود جامع أن يجيب عن هذا السؤال إجابة مخففة فيزيد الطين بلة؛ إذ يقول: "حول موضوع الدعم المادى للجماعات الإسلامية فقد كانت مصاريف نثرية رمزية لتكاليف المعسكرات الصيفية أو رحلات حج وعمره لبعض الشباب، وهى من مصاريف النشاط الشبابى للاتحاد الاشتراكى"^(٤٨). وهكذا عرفنا مصدر التمويل.

ولكن لندع الطرف الآخر يتحدث.. ولنستمع إلى بعض رموز الجماعات. الأستاذ منتصر الزيات يقول: "إن الدور الحيوى لتوسيع طرح الأفكار الإسلامية فى جامعة أسيوط يعود بالتأكيد أساساً إلى توجيه السادات بفتح القنوات الرسمية أمام التيار الإسلامى، إضافة إلى وجود محمد عثمان إسماعيل محافظ أسيوط وهو من الشخصيات المقربة من السادات. والمناخ فى أسيوط فى ذلك الوقت كان أقوى من المناخ فى جامعة القاهرة التى كان يرأسها د. صوفى أبو طالب وهو أيضاً رجل متدين ومتقف، وله باع كبير فى الإسلاميات. لكن عثمان إسماعيل نصح السادات بضرورة فتح الباب أمام التيار الإسلامى لضرب التيارات الناصرية واليسارية. والسادات كان بلا رجال فرغب فى أن يصفى رجال عبد الناصر، وهو ما حدث فى ١٥ مايو ١٩٧١"^(٤٩).

أما عن علاقة الإخوان المسلمين بهذا الأمر.. يقول منتصر الزيات: "وعلى رغم أن السادات هو صاحب قرار الإفراج عن الإخوان المسلمين ليعطيهم الفرصة

فى العمل الدعوى السلمى العام، إلا أن حديث الإخوان إلى المجتمع كان ينصب على التعذيب والقهر والتجاوزات التى وقعت داخل السجون. هذا الحديث لم يصاحبه رؤى للانفتاح الذى كان يحدث فوجد شكرى مصطفى فى هذا المناخ زاداً للحديث عن كفر الحكام. وكان يجد امتداده فى الخلفية التى تصنع من دون عناء منه، وكان يقول هناك شرك أكبر وشرك أصغر^(٥٠). وهكذا يؤكد لنا شاهد من أهلها كيف أن الإخوان والآتين من تحت عباءتهم وبتحريض منهم كانوا المستفيدين من الخطة الساداتية - الإخوانية. كذلك كان الأمر مع مجموعة السماوى.. ونمضى مع منتصر الزيات: "الشيخ عبد الله السماوى (كان اسمه طه السماوى لكنه رفض أن يتسمى باسمه وأسمى نفسه عبد الله) من الشباب الذين دخلوا السجن مع الإخوان المسلمين وعمره ١٦ سنة تقريباً وبقي فيه حتى خرج يافعاً.. واستغل فكرة ترك الباب مفتوحاً للتيار الإسلامى وأصبح أكثر قدرة على التحرك من شكرى مصطفى لعوامل عدة أهمها أنه لم يكن يكفر المجتمع.. وكان أكثر ذكاءً"^(٥١). كذلك كان الأمر مع صالح سرية "كانت مجموعة الفنية العسكرية التى قادها صالح سرية رافداً من روافد العمل الإسلامى. وقد أقام علاقة مع بعض الإخوان، وتعرف على السيدة زينب الغزالى ومن خلالها إلى طلال الأنصارى"^(٥٢). إنه الأصبع الإخوانى الموجود دوماً.. موجود فى كل تحرك لهذه الروافد.. وإذ يقرر منتصر الزيات أن النشاط الطلابى "كان يقام فى ذلك الوقت بدعم من الدولة" فإنه يورد أيضاً: "كان السادات يريد أن يتخلص من رجال عبد الناصر. وأراد أن يستأصل تماماً كل الجذور اليسارية، فسمح للتيار الإسلامى بالعمل. والأساس فى هذا الموضوع يرجع إلى صفقة ما أو اتفاق ما بين السادات وقيادات الإخوان، فبعد لقائه الشهير بالشيخ عمر التلمسانى والشيخ صالح أبو رقيق بدأ السادات يسمح لقيادات الإخوان بزيارة الجامعات فى تطور غير مسبوق، لكسر شوكة التيارات الشيوعية واحتوائها. كانت المرة الأولى التى يزور فيها مرشد للإخوان جامعة مصرية، وكان استقبال الطلبة للشيخ التلمسانى ورموز الإخوان حافلاً. وكانت

الندوات التى عقدت لهم تتم تحت حراسة الأمن" (٥٣).

ثم نأتى إلى شاهد آخر من قيادة الجماعات هو وائل عثمان الذى يقول: "اتصلنا بالمباحث وبأمين التنظيم بالاتحاد الاشتراكى (محمد عثمان إسماعيل) وبعدد كبير من المسئولين، وفى إحدى هذه الزيارات عرض علينا الأمين العام للاتحاد الاشتراكى استعداداه لوضع مائة مليون ونصف المليون من الجنيهاً تحت تصرفنا لمقاومة الشيوعية بالجامعة" (٥٤).. إنها المصروفات الرمزية والنثرية التى تحدث عنها د. محمود جامع.

كذلك سمح النظام ولا ندرى كيف بطبع كتيب "رسالة الإيمان" لصالح سرية على نفقة الاتحاد العام لطلاب جامعة القاهرة. وبناء على طلب من اتحاد طلاب كلية العلوم. احتوت هذه الطبعة على مقدمة بقلم رئيس الاتحاد إبراهيم السكرى وكانت مقدمة عنيفة تصف بالكفر كل من لم يحكم بما أنزل الله. ولم يشر فى الطبعة إلى اسم المؤلف الذى كان قد أعدم بعد مؤامرة الفنية العسكرية التى استهدفت اغتيال السادات نفسه.

كانت هناك مهادنة لكنها كانت من طرف واحد. فالجماعات وبعد أن قويت شوكتها أصبحت خارج السيطرة.. والإخوان يواصلون تلاعبهم بالجميع ويفرزون من تحت عباءتهم المزيد من بؤر التكفير والإرهاب.. السماوى، شكرى مصطفى، صالح سرية.

ورغم ذلك ظل السادات على مراهنته الخاسرة.

يقول لواء فؤاد علام: "تجمعت لدينا الخيوط الأولى عن وجود تنظيم ينتشر فى محافظات الجمهورية ويتركز فى القاهرة والإسكندرية.. وكان السادات فى ذلك الوقت يرفع شعار دولة العلم والإيمان ويتبنى سياسة مهادنة الحركات الإرهابية التى تتخذ الدين ستاراً لنشاطها الإرهابى الإجرامى، وحدث بينه وبين قيادات الإخوان تعاطف شديد"، ثم: "كانت حركتنا مقيدة وكثيراً ما كانت الإجراءات التى نتخذها حيالهم تقابل بالرفض، حتى فوجئت أجهزة الأمن بمحاولة الاستيلاء على

الفنية العسكرية.. ولم يهتز النظام واستمر في المهادنة^(٥٥).
وكان حادث تنظيم يحيى هاشم، ثم "لم يضع النظام خطوطاً حمراء ولا بيضاء
تحت هذا الحادث واستمر في ممالأة الجماعات الدينية"^(٥٦).
ذات الرأي يردده الأستاذ منتصر الزيات إذ يقول: "لم يترك حادث اغتيال الشيخ
الذهبي الذي انتهى باعتقال شكرى مصطفى وجماعته ومحاكمته وإعدامه أثراً سلبياً
على بقية التيار الإسلامى فلم يتم التعرض للإسلاميين"^(٥٧).
وتمضى المراهنة الخاسرة من جانب السادات.
هو راح ضحيتها، والجماعات تمادت حتى طحنت، وتبقى جماعة الإخوان،
لتظل مصدراً للإرهابيين المتأسلمين، الذين يأتون دوماً من تحت عباءتها، وليس
من أى مصدر آخر.

الهوامش:

- (١) دستور ١٩٢٣ - م ١٥٣.
- (٢) الكاتب - أغسطس ١٩٧٤ - مقال لطارق البشرى، بعنوان - الأزهر بين القصر والحركة الوطنية .
- (٣) من مذكرات شيخ الإسلام الظواهرى - السياسية والأزهر - ص ٧٩.
- (٤) الأخبار - ١٤-١١-١٩٢٤.
- (٥) الأخبار - ١١-١١-١٩٢٤.
- (٦) جمال سليم - البوليس السياسى يحكم مصر - ص ٣١٥.
- (٧) صباح الخير - ٣١-٣-١٩٧٧. مقال للدكتور عبد العظيم رمضان - بعنوان : الدين فى الصراع السياسى.
- (٨) محمد محمد حسين - الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر - ج ٢ - ص ٤٧.
- (٩) المنار مجلد ٢٥ - ج ٤، عدد ١٩ شعبان ١٤٣٢ - ٢٥ مارس ١٩٢٤ - ص ٣٦٧ ، وأيضاً الأهرام ٢٧ مارس ١٩٢٧.
- (١٠) المؤتمر - ربيع أول ١٣٤٣هـ.
- وأيضاً : المنار - مجلد ٢٥ - ج ٧ - ص ٥٢٥.
- (١١) السياسة - ٢ مارس ١٩٢٦.
- (١٢) على عبد الرازق - الإسلام وأصول الحكم - ص ١٠٢.
- (١٣) المرجع السابق - ص ٣٦.
- (١٤) محمد رجب البيومى - الأزهر بين السياسة وحرية الفكر - القاهرة (١٩٨٣) - ص ١١٥.
- (١٥) لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد- مصطفى النحاس، السياسى والزعيم والمناضل - بيروت (١٩٧٦).
- وأيضاً: د. رفعت السعيد - الليبرالية المصرية - دمشق (٢٠٠٣) .
- (١٦) المصرى - ٢٢-٢-١٩٣٧.
- (١٧) المصرى - ١-١٧-١٩٣٨.
- (18) G.E Vongronebrum-Modern Islam.
- (١٩) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع: راجع: د. رفعت السعيد - الإرهاب المتأسلم - جماعة الإخوان المسلمين- القاهرة - ط ٢ - ٢٠٠٤.
- وأيضاً : المتأسلمون ماذا فعلوا بالإسلام وينا - ط ٢- القاهرة (٢٠٠٣).
- (٢٠) هالة مصطفى (دكتورة) - الدولة والحركات الإسلامية المعارضة، بين المهادنة والمواجهة فى عهدى السادات ومبارك - القاهرة (١٩٩٥) ص ١٤٠.
- (٢١) القانون ٦٠٣ لسنة ١٩٦١ الخاص بإعادة تنظيم الأزهر والهيئات التى يشملها.
- (٢٢) القانون ٢٦ لسنة ١٩٢٦.
- (23) Burce Borbwich-Religion and Politics Israel and Egypt. The Middle East Jurnal No. 33 Spring, 1979-p,156.
- (24) Gabriel Warburg-Islam and Politics in Egypt, 1952-1980 Middle Eastern Studies-April 1982-p.132.
- (٢٥) مكسيم رودنسون - الإسلام والرأسمالية - ترجمة نزيه الحكيم - ط ٤ - بيروت (١٩٨٢) - ص ٢٠٠.

(26) P.J. Vatikiotis-The History of Egypt from Mohamde Ali to Moubarak-Baltimore (1985). P.4211.

(٢٧) أنور السادات - البحث عن الذات - القاهرة ص ٢٩٥.

(٢٨) دستور جمهورية مصر العربية - ١٩٧١م - ٢.

(29) Vatikiotis-Ibid-p.424.

(٣٠) حسن أبو باشا - مذكرات في الأمن والسياسة - القاهرة (١٩٩٠) - ص ٢٩.

(٣١) المرجع السابق - ص ٣٠.

(٣٢) هالة مصطفى - المرجع السابق - ص ١٥٢.

(33) Saad Eddin Ibrahim- An Islamic Alternative in Egypt- The Muslim Brotherhood and Sadat.- p.90.

(٣٤) عمر التلمساني - أيام مع السادات - القاهرة (١٩٨٤) - ص ١١٢.

(٣٥) عمر التلمساني - ذكريات لا مذكرات - القاهرة (١٩٨٥) - ص ١١٣.

(٣٦) المرجع السابق - ص ١١٤.

(٣٧) المرجع السابق - ص ١١٥.

(٣٨) لواء فؤاد علام - الإخوان وأنا - المرجع السابق - ص ٢٧٣.

(٣٩) عمر التلمساني - أيام مع السادات - المرجع السابق - ص ١٨.

(٤٠) المرجع السابق - ص ٥٠.

(٤١) المرجع السابق - ص ٢٤.

(٤٢) عمر التلمساني - ذكريات لا مذكرات - المرجع السابق - ص ١٩٥.

(٤٣) عمر التلمساني - أيام مع السادات - المرجع السابق - ص ٣٨.

(٤٤) المرجع السابق - ص ٤١.

(٤٥) اللواء فؤاد علام - المرجع السابق - ص ٢٦٦.

(٤٦) المرجع السابق - ص ٣٠٦.

(٤٧) اللواء فؤاد علام - المرجع السابق - ص ٣٠٧.

(٤٨) المرجع السابق - ص ٢٧٣.

(٤٩) الحياة - ١٠ يناير ٢٠٠٥ - مقال لمنتصر الزيات بعنوان: ولادة الجماعات الإسلامية في مصر وهزائمها.

(٥٠) المرجع السابق.

(٥١) المرجع السابق.

(٥٢) المرجع السابق.

(٥٣) المرجع السابق.

(٥٤) وائل عثمان - أسرار الحركة الطلابية ٦٨-١٩٧٥ - في هندسة القاهرة، سلسلة "حزب الله في مواجهة حزب

الشيطان" - القاهرة - ص ١٠٢.

(٥٥) اللواء فؤاد علام - المرجع السابق - ص ٣٣٧.

(٥٦) المرجع السابق - ص ٣٣٦.

(٥٧) الحياة . مقال لمنتصر الزيات . المرجع السابق.

ثعابين آتية من عباءة الإخوان

صالح سرية

جماعة شباب محمد (الفنية العسكرية)

شكري مصطفى

الجماعة المسلمة (التكفير والهجرة)

صالح سرية .. لعبة الفنية العسكرية

(وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩)) [الحج]

قرآن كريم

تجمع كل المصادر على أن د. صالح سرية كان إخوانياً، وتجمع أيضاً على أنه كان عضواً في حزب التحرير الإسلامى، فهل ثمة فارق كبير؟ أكاد أقول لا فرق. المصدر واحد هو جماعة الإخوان لكن هؤلاء الآتين من تحت عباءة الجماعة يتنوعون وفق رؤى وأفكار قد تتمايز لكنها تبقى دوماً في إطار المدرسة الإخوانية. ولنحاول أن نوضح رأينا هذا مستنديين إلى الوقائع التاريخية.

حزب التحرير الإسلامى

تأسس في أغسطس ١٩٥٠، كانت جماعة الإخوان لم تنزل تعاني من محنتها الأولى التى انتهت بأعمال عنف شديدة القسوة تبادلها الطرفان (الإخوان والحكومة).. وانتهت بحل الجماعة، واعتقال وسجن آلاف من الإخوان واغتيال رئيس الوزراء محمود فهمى النقرشى ثم اغتيال المرشد المؤسس الأستاذ حسن البنا.

هنا بدأ الشيخ تقى الدين النبهانى تمرده على الفكر الإخوانى الداعى إلى العنف، وكل ما أسفر عنه من "جهاز سرى" مسلح وإرهاب. وبدأ يدعو إلى جماعة تعتمد على نشر "العقائد" الإسلامية، وتستدعى "الخلافة" الضائعة التى بدونها لن يكون هناك أى أمل. باختصار كان الشيخ النبهانى إخوانياً أو قريباً جداً من الإخوان، وخاصة إخوان الضفة الغربية، وكثيراً ما شاركهم نشاطهم وشارك فى عملية التنقيف الإخوانى، بعدد من المحاضرات منها محاضرات عن نظام المال فى الإسلام معلناً أنه اقتبس معلوماته من كتاب "العدالة الاجتماعية فى الإسلام" للأستاذ سيد قطب.

وقد بدأ تقى الدين النبهانى توجهه الفكرى باتجاه قومى عربى مطعم بالإسلامية وتبدى هذا واضحاً فى كتابه "رسالة العرب" ثم وبثأثير من الفكر الإخوانى تسحب

تدريجياً من الفكر القومي إلى فكر إسلامي صرف.. لكنه اختلف مع المدرسة الإخوانية في رؤيته للعمل من أجل الدعوة. فأعلن أن مهمته هي ترسيخ العقائد الإسلامية في نفوس الأعضاء وإلى تكوين تنظيم منضبط لا يستند إلى العنف، وذلك فيما كان إخوان الضفة الغربية والأردن وتحت تأثير الضربة التي استدهاها الإرهاب الإخواني يتحدثون عن التكوين الأخلاقي للمجتمع. وامتد الخلاف لتتبلور معالمه في كتاب للنبهاني هو "التكتل الحزبي"^(١). ولتلافي أسباب الشقاق استدعى إخوان الأردن الأستاذ سيد قطب ليقنع النبهاني بالعودة إلى حظيرة الجماعة، خاصة أنه كان قد بدأ في تأسيس حزب التحرير الإسلامي. واستطاع سيد قطب والنبهاني أن يصلا إلى حل وسط.. يمضى النبهاني وحزبه وأفكاره، ولكن في إطار الدعوة الإخوانية الشاملة.

ومضى حزب التحرير بقيادة النبهاني ليدعو إلى نشر العقائد الإسلامية وإلى استعادة الخلافة كشرط جوهري لنجاح الدعوة الإسلامية وانتصارها. وأصدر النبهاني عديداً من الكتب والنشرات تكاد قراءتها أن تقدم لنا صورة متمثلة وإن كانت غير متطابقة مع الفكر الإخواني. ومن هذه الكتب:

١. نظام الإسلام.

٢. نداء حار إلى العالم الإسلامي.

٣. مفاهيم سياسية لحزب التحرير الإسلامي.

٤. الخلافة.

وكانت أهم نقاط اللوم التي وجهها النبهاني لجماعة الإخوان أنها تعجلت باستخدام العنف قبل أن تقوم بترسيخ "العقائد" في المجتمع، وأنها لم تستطع أن تحقق "السنة النبوية" وهي أن تحقق انتصار الدعوة وتفيوئها (أي وصولها للحكم) خلال ثلاثة عشر عاماً وهي المدة التي قضاها الرسول (صلى الله عليه وسلم) في مكة (عندما كانت داراً للكفر والجاهلية) قبل أن يهاجر إلى المدينة ويقيم دولته.

والخلاف في التوجه تركز على ضرورة الاهتمام أولاً "بتتقيف ملايين البشر

تتقيفاً جماعياً (وليس فقط أعضاء الجماعة بالعقائد الإسلامية)^(٢) وذلك قبل أى تحرك مناوئ للأنظمة، ذلك أنه بدون ملايين من المسلمين الذين يتم تتقيفهم بالعقائد الإسلامية، لن يمكن نجاح أى تحرك ضد أنظمة الحكم.. ويعنى ذلك جعل تربة هذه الأمة مفعمة بالعقائد مؤمنة بها بما يؤهلها لأن تكون منبتاً طبيعياً لرجل دولة مسلم يقود الأمة الإسلامية.

كما دعت إلى عمل سياسى يقوم "برصد الحوادث والوقائع وجعلها بذاتها ناطقة بصحة أفكار الإسلام وأحكامه وصدقها فتحصل الثقة التامة لدى الجماهير بتوجهات الحزب"^(٣).

ويقول النبهانى إن أى مجتمع يعيش الناس فيه داخل جدارين سميكين، جدار العقيدة والفكر، وجدار الأنظمة التى تعالج علاقات الناس وطريقهم فى العيش. وهنا يأتى خلافه فى التطبيق مع الإخوان. فهم يسعون إلى تكوين "طليعة" مسلحة تستخدم العنف ضد حكم الطاغوت حتى تسقطه، بينما هو يقول: "إذا أريد قلب هذا المجتمع (أى أنه يسعى لقلب المجتمع ولكن بوسيلة أخرى) يكون من قبل أهله أنفسهم، إذ لا بد أن يتركز الهجوم على الجدار الخارجى، أى لا بد أن يكون الهجوم موجهاً للأفكار بما يؤدى إلى تحقيق انقلاب فكرى، يتبعه تلقائياً الانقلاب السياسى الذى يؤدى إلى تغيير الحكم والنظام وسائر العلاقات"^(٤).

ويقسم النبهانى خطته فى تحقيق "الانقلاب السياسى للاستيلاء على الحكم إلى ثلاث مراحل: "صراع فكرى" ثم "انقلاب فكرى" ثم "تسلم زمام الحكم عن طريق الأمة تسليماً كاملاً"^(٥).

باختصار هو يريد أيضاً قلب أنظمة الحكم، ولكن بعد ضمان مساندة الجماهير له بعد تتقيفها بالعقائد وتحقيق الانقلاب الفكرى. ومع ذلك، وما إن شعر الحزب بقدر ما من القوة فى الأردن والضفة الغربية "وخاصة بعد أن نجح فى الوصول بأحد أعضائه إلى البرلمان الأردنى عام ١٩٦٧" حتى قام عام ١٩٦٨ بمحاولة انقلابية أفشلتها القوات الفلسطينية - التى كانت موجودة بالأردن - بالتعاون مع

وعاد الحزب ليؤجل كل شيء، وليدعو إلى عدم التصادم مع السلطات القائمة، مؤكداً أن "سقوط الخلافة هو الثغرة التي ضاعت منها فلسطين، وأن قيام الخلافة الإسلامية هو الطريق لتحرير فلسطين" وبرغم اشتعال العمل الفدائي الفلسطيني فقد تباعد عنه الحزب استناداً إلى ذات الفكرة "فالجihad في فلسطين ليس فريضة حتى تقوم دولة الخلافة".

ولأن فكرة "الخلافة" تمثل أساساً محورياً في فكر الحزب فسوف نتابعها ولكن بإيجاز.. ونقرأ في كتاب "الخلافة": "إقامة خليفة فرض على المسلمين كافة في جميع أقطار العالم، والقيام به كالقيام بأي فرض من الفروض التي فرضها الله على المسلمين، وهو أمر محتّم لا تخير فيه، ولا هودة في شأنه، والتقصير في القيام به معصية من أكبر المعاصي يعذب الله عليها أشد العذاب"^(٧).

وكذلك: "إن إقامة الدين وتنفيذ أحكام الشرع في جميع شئون الحياة الدنيا فرض على المسلمين بالدليل القطعي الثبوت القطعي الدلالة، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا بحاكم ذي سلطان والقاعدة الشرعية أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فكان منصب الخليفة فرضاً من هذه الجهة أيضاً"^(٨). ثم: "ولا توجد في الإسلام أية رخصة في القعود عن القيام بهذا الفرض حتى يقام".. أما المدة التي يُمهّل فيها المسلمون لإقامة خليفة بعد وفاة أو سقوط حكم الخليفة القائم فهي "ليلتان فلا يحل لمسلم أن يبيت ليلتين وليس في عنقه بيعة".

أما عن موقف الحزب من الديمقراطية، فإننا نطالع في وثيقة جديدة ذات الأفكار القديمة التي تعتبر الديمقراطية كفرًا بالله سبحانه. ونقرأ: "إنهم جعلوا الإنسان هو المشرع. وبالنسبة للمسلمين فإن هذا يعني أن يكفروا - والعياذ بالله - بكل الأدلة القطعية الثبوت، و:"الكفار وعلمائهم من حكام بلاد المسلمين، وكل المنادين بالديمقراطية من المحسوبين على المسلمين، سواء كانوا أفراداً أو حركات يدركون أن الديمقراطية أساسها نبذ شرع الله.. واتباع شرع مخلوقاته"^(٩).

أما عن حرية العقيدة فتقول الوثيقة: "لا يجوز لمسلم أن يعتنق أية عقيدة أخرى سواء كانت عقيدة دين سماوى آخر كاليهودية أو النصرانية، أو كانت عقيدة مبدأ آخر كالرأسمالية أو الاشتراكية"^(١٠). أما حرية الرأى "فهى تعنى السماح للعملاء والمنافقين والفجار وأعداء الإسلام بالدعوة ضد الإسلام وهدم كيان الأمة وتمزيقها إلى قوميات وأقطار وطوائف وفئات"^(١١).

وقد أعد الحزب مشروعاً لدستور الدولة الإسلامية مكوناً من ١٨٦ مادة. وهو يدور حول ذات الأفكار التى أشرنا إليها.. لكننا سنكتفى بإيراد نص المادة الأخيرة من هذا المشروع لعلها توضح الاتجاه العام فيه..

"م ١٨٦: "المنظمات التى تقوم على غير أساس الإسلام أو تطبيق أحكام غير أحكام الإسلام، لا يجوز للدولة أن تشترك فيها، وذلك كالمنظمات الدولية مثل هيئة الأمم المتحدة، ومحكمة العدل الدولية، وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي، أو كالمنظمات الإقليمية مثل الجامعة العربية"^(١٢).

وبرغم هذا التشدد الواضح إلا أن أفكاره تبدو متساهلة فى مناطق أخرى، ففى إجابة عن سؤال "ما حكم القُبلة بشهوة" تقول إحدى نشرات الحزب: "التقبيل من حيث هو تقبيل ليس بحرام لدخوله تحت عموم الأدلة المبيحة لأفعال الإنسان العادية.. فالصور العارية ليست حراماً بل من المباحات، وتقبيل الرجل لامرأة فى الشارع سواء كان بشهوة أم بغير شهوة مباح"^(١٣).

وفى فتوى أخرى: "والمرأة إذا لبست الباروكة الشعر ولم تطع زوجها فى خلعتها لا تكون ناشزة، كذلك إذا لبست البنطلون وإذا خرجت لحضور مهرجان أو مؤتمر بدون إذن زوجها لا تكون ناشزة"^(١٤).

وربما كانت هذه الفتاوى "المودرن" أحد أسباب انتشار الحزب فى أوروبا وأمريكا، فثمة قاعدة كبيرة لهذا الحزب فى بريطانيا على رأسها عبد القادر زلوم. وقاعدة أخرى قوية أيضاً فى عدد من جامعات أمريكا. منها جامعة شيكاغو حيث تم تجنيد الباكستانى "تويدب" الذى عاد إلى لاهور ليؤسس فرعاً قوياً للحزب فى باكستان.

وفى أبريل ٢٠٠٢ اعتقلت أجهزة الأمن المصرية تنظيمًا تابعاً للحزب يضم خمسين مصرياً وأربعة بريطانيين والمثير للدهشة أن المقبوض عليهم من المصريين اعترف بعضهم بأنهم انضموا للحزب خلال وجودهم بالخارج فالمتهم هشام عبد العاطى اعترف بأنه انضم للحزب خلال وجوده فى لبنان. واعترف المتهم أشرف محمد راضى بأنه انضم للحزب عام ١٩٩٣ عند وجوده فى ألمانيا. كما كان من بين المتهمين أربعة بريطانيين هم: زافى بانكروست، وماجد نواز، وحسن رزقى، ويان مالكون... واعترف الأربعة بأنهم حضروا إلى مصر للعمل على إعادة إحياء نشاط الحزب بعد أن أنهى نشاطه فى نهاية السبعينيات. وكان دفاعهم عن أنفسهم أن حزب التحرير الإسلامى لا يدعو إلى العنف وإنما يسعى إلى تنقيف المجتمع بالعقائد الإسلامية وتتصل المتهمون من أفكار صالح سرية قائلين إن قضية الفنية العسكرية قد نسبت إلى الحزب ظلماً^(١٥).

.. ويمكن القول إن حزب التحرير الإسلامى ينمو وينكمش عكس وجود الجماعات المتأسلمة التى تستخدم العنف (الإخوان والجماعات) فما إن تزدهر هذه الجماعات حتى نكتشف انكماش الحزب، وما إن تضرب وتضعف حتى يزدهر. كان هذا فى بداية الخمسينيات... وكان أيضاً فى الأيام الأخيرة.

شباب محمد

بدأ هذا التنظيم على يدى صالح سرية وانتهى كذلك على يديه. وقد أتى صالح سرية من ذات الوعاء الذى أتى منه تقى الدين النبهانى، الضفة الغربية (ولد سرية فى حيفا وانتقل مع أسرته إلى الضفة) وعانى كما عانى أستاذه من العدوان الصهيونى على وطنه وشعبه، ونشط كما نشط فى صفوف جماعة الإخوان فى الضفة الغربية، ثم انضم إليه عندما أسس حزب التحرير الإسلامى فى الأردن. يقول أحد الباحثين المتعاطفين مع التيارات الإسلامية: "كانت ثمة علاقات وثيقة تربط حزب التحرير الإسلامى بالجهاز السرى للإخوان، وبتقى الدين النبهانى شخصياً منذ العمليات الفدائية التى قام بها الإخوان خلال حرب فلسطين

١٩٤٨" (١٦). عاش صالح سرية بالأردن وعاصر أحداث أيلول الأسود عام ١٩٧٠ ومن الأردن إلى القاهرة عام ١٩٧١ حيث حصل على درجة الدكتوراة في التربية من جامعة عين شمس وخلال هذه الفترة حظى بدعم مادي ومعنوي من جماعة الإخوان، وأقام علاقات وثيقة مع العديد من القيادات المفرج عنها حديثاً. وأصبح وثيق الصلة بالمرشد المستشار حسن الهضيبي، وبالسيدة زينب الغزالي لكنه يئس من أي تحرك فعلى للجماعة، فقد وصفهم في التحقيقات "أنهم ناس ميتة، خرجوا من السجن وكل واحد عاوز يتزوج ويسافر للخارج" (١٧).

ويبدو أنه فقد حماسه للبقاء في القاهرة لهذا السبب "فغادر إلى بغداد حيث التحق بجماعة الإخوان المسلمين هناك"، وأسس مجموعة مسلحة في إطار هذه الجماعة لكنها مكونة أساساً من الفلسطينيين المقيمين بالعراق. ثم بدأ في الإعداد لانقلاب عسكري يبدأ باغتيال أحمد حسن البكر وصادام حسين وكان ذلك عام ١٩٧٣" (١٨). واكتشفت المؤامرة، لكن صالح سرية تمكن من الهرب هو وأسرته إلى القاهرة، وفي القاهرة حصل على دعم ما، من جهة ما، يقال إنها شخصية إخوانية مهمة كانت تعمل في الجامعة العربية، والتحق بالعمل فيها.

ورغم تقييمه السلبي السابق لجماعة الإخوان فقد عاد فوراً إلى أحضانها في القاهرة ربما لأن الجماعة كانت قد استعادت قدرتها على التحرك الفاعل عبر تحالفها الوثيق مع السادات، وعبر مشاركة قياداتها في عمليات التنقيف في المعسكرات الإسلامية الصيفية لطلاب الجامعات، بما مكنهم من تجنيد جيل جديد من طلاب الجامعات. واستمر في زيارة السيدة زينب الغزالي في بيتها.. وهناك "التقى بطلال الأنصاري وهو شاب متحمس ذو ميول دينية، واتفقا على وجوب إقامة دولة إسلامية تسعى من خلال الجهاد إلى تغيير النظام القائم وإقامة نظام إسلامي، ونشط طلال الأنصاري الذي كان يقيم بالإسكندرية في ضم عديد من الأعضاء الذين تعرف عليهم عبر ترده على المساجد، وكذلك زملاؤه في الدراسة.. وأصبح طلال أميراً للإسكندرية" (١٩).

ويقول باحث آخر: "إن صالح سرية كان على علاقة وثيقة بالمرشد حسن الهضيبي وزينب الغزالي، وأنه كون تنظيماً شبيهاً بتنظيم أستاذه تقي الدين النبهاني، وهو تنظيم يعتمد على أفراد يجند كل منهم على انفراد ويعيشون حياتهم بصورة طبيعية، ولا يتجمعون كلهم معاً بما جعلهم بعيدين عن أعين الأمن. وجعل ضربتهم مفاجئة للأمن. وكان معظم أعضاء تنظيمه من الطلاب (جامعة القاهرة - جامعة الإسكندرية - الأزهر - الفنية العسكرية)^(٢٠). وسريعاً جداً تكون التنظيم، فالتحالف الساداتي - الإخواني كان قد جعل الجامعات والمجتمع جاهزين لإفراز مثل هذه التجمعات.

وفى أبريل ١٩٧٤ قام التنظيم بعملية الفنية العسكرية، فكيف نجح صالح سرية فى تكوين تنظيم بهذه السرعة؟

هذه السرعة تعزز رأينا السابق الإشارة إليه وهو دور التحالف الساداتي - الإخواني، ونقرأ فى البحث الأكاديمي الصادر عن المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية: "تجدر الإشارة إلى أن الجماعة انتشرت انتشاراً سريعاً وتنامت عضويتها فى فترة لم تتجاوز عدة أشهر مما يدفع للتساؤل حول أسباب هذا الانتشار وخاصة فى صفوف الشباب" ويمضى البحث قائلاً: "المتهم سعد درياله يقول إن النكسة كان لها تأثير سيئ على الجميع، وأن السادات عندما تولى الرئاسة انتظر منه المتدينون تغييراً إلا أن التغيير لم يحدث بالدرجة المطلوبة"^(٢١).

كذلك لعب الإعلام الساداتي دوراً كبيراً فى شحن الشباب بجرات دفعتهم إلى أسئلة تعبر عن حيرتهم "حاولت أجهزة الإعلام الرسمية تفسير انتصارها فى أكتوبر على أنه منحة من الله مما انعكس على الشارع المصرى، ودعم منطق الجماعات الإسلامية". يقول المتهم محمود خلاف محمد (طالب بالكلية الفنية العسكرية): "طبعاً لما جاءت حرب رمضان ربنا أكبر منا، وبعد التفاصيل المروعة والمقارنات العجيبة التى تظهر بدائع لطف الله فى هذه الحرب مع كل جندي وكل حادثة، بعد هذه المعركة كل جندي يروى أنه لم يفعل شيئاً ولكن الله ستر، وكل ضابط يقول

لم أفعل شيئاً لكن الله لطف. وكل إنسان يقول الحمد لله لنرجع إلى الله" (٢٢)، لكن أحداً من المسئولين لم يتوقع رد الفعل عند طالب صغير السن يمضى متسائلاً أو محتجاً: "لكن أصبح هذا الرجوع إلى الله هو أغان في الإذاعة وعبارات تقال، ولم يقل أحد لنرجع إلى قانون الله وقرآنه ونترك الناس وقوانين الأرض" (٢٣).

وقد لعب خطباء المساجد الذين سمح النظام لهم بالترويج للأفكار المتطرفة.. وإدانة المجتمع القائم باعتباره مبدلاً لشرع الله، دوراً مهماً في تشكيل وجدان هؤلاء الطلاب الصغار السن تشكيلاً خاطئاً. يقول البحث المشار إليه: "ويبدو أن معظم أعضاء الجماعة قد تأثروا أيضاً بالنشاط الديني الذي قامت به بعض المساجد، وخاصة أنهم من طلاب الجامعات ولم تتشكل بعد مواقفهم. وبالتالي فإن أئمة هذه المساجد قد لعبوا دوراً مهماً في تشكيل اتجاهاتهم. يقول المتهم محمد أمين مجاهد: لقد استمعنا في المساجد إلى الدعوة للإيمان والاستقامة والثبات وصفات الرسول (ﷺ) وإلى كلامهم عن الوضع الحالي ومقارنته بالوضع الإسلامي الصحيح". ومن أقوال بعض المتهمين نلاحظ اهتماماً ملحوظاً بالمواظبة على الصلاة وسماع الخطبة في مساجد معينة كمسجد القائد إبراهيم بالإسكندرية ومسجد جماعة أنصار السنة بأسبورتج بالإسكندرية. وجامع عمرو بن العاص بالقاهرة. وكان المتهمون يوصون بعضهم بعضاً بالصلاة في هذه المساجد لاعتقادهم في صحة أفكار أئمة هذه المساجد" (٢٤).

ورغم أن المتهمين أقرروا في التحقيقات بأن لهم برنامجاً ثقافياً يستند إلى "القرآن - السنة - كتابات صالح سرية - كتابات سيد قطب ووحيد خان وابن تيمية" (٢٥)، إلا أن المتأمل في أقوالهم أمام النيابة يكتشف سطحية واضحة في أفكارهم ومواقفهم ربما لأن التثقيف لم يكن جاداً وربما بسبب صغر سنهم وربما بسبب قصر الفترة بين انضمامهم للجماعة والقبض عليهم.

ومما يوحى بسطحية أفكارهم "أنهم في التحقيقات كانوا يصفون الحاكم بالكفر وإنه طاغوت لا يحكم بما أنزل الله، ولكنهم عندما سئلوا عن رؤيتهم لنوعية الحاكم

المسلم لم يجدوا إجابات ذات قيمة، وقال أحدهم إنه يرشح شيخ الأزهر رئيساً للجمهورية ووليه حسين الشافعى لأنه يصلى، ثم محافظ القاهرة لأنه رمم جامع عمرو بن العاص" (٢٦).

ويكرر ذات الترشيحات المتهم سعد محمد درباله لكنه يضيف إلى أسباب أفضلية حسين الشافعى "إنه يواظب على سماع خطب الشيخ الغزالى وبالتالى فهو مؤمن وملتزم" (٢٧).

ولعلنا نحتاج إلى بعض من الأرقام لعلها تكشف لنا عن طبيعة هذا التنظيم ومكونه الاجتماعى ومتوسط أعمار الأعضاء وكيفية التعرف عليهم وضمهم للجماعة.

٥٣ - شخصاً من مجموع الأعضاء الذين اشتركوا فى عملية الفنية العسكرية انضموا للجماعة عن طريق الأصدقاء والزمالة فى الجامعات.
٢٧ - شخصاً تم ضمهم عن طريق التعارف فى المساجد (٢٨).

وتأكيداً للطابع العسكرى والانقلابى لهذا التنظيم منذ البداية اعترف "كارم الأناضولى فى التحقيقات أن التنظيم لم يقبل عضوية النساء فى صفوفه" (٢٩).
ثم نبدأ فى محاولة للتعرف الرقمى على طبيعة مكنونى التنظيم. وهى أرقام مستقاة من ملف تحقيقات القضية.

. أجرى التحقيق مع ٨٠ متهماً. فى ٤٩١١ صفحة.

- الجناح العسكرى وأعضاؤه هم طلاب الفنية العسكرية وأميرهم كارم الأناضولى.

ويضم الجناح المدنى ٦١ عضواً.

توزيع المتهمين حسب السن

فئات السن	من ١٨ إلى ٢٥ سنة	من ٢٦ إلى ٣٠ سنة	من ٣١ إلى ٣٧ سنة	المجموع
العدد	٦٦	٨	٦	٨٠

المستوى التعليمى للمتهمين

المهنة	طالب جامعى	طالب الفنية العسكرية	طالب ثانوى	عامل	مجنّد	مهندس	عامل حر	المجموع
العدد	٤٢	١٧	٦	٧	٣	٤	١	٨٠

وبهذا نلاحظ أن عدد المتهمين كانوا ٨٠ متهماً منهم ٦٥ طالباً.

التوزيع الجغرافى للمتهمين

المحافظة	العدد
الإسكندرية	٤٩
القاهرة	١٣
الجيزة	١١
القليوبية	٢
الشرقية	٢
دمياط	٤
قنا	١

ويلاحظ أن أكبر مجموعتين من الأعضاء تأتي من الإسكندرية والقاهرة.. والأولى أميرها طلال الأنصارى (الذى تعرف عليه صالح سرية فى منزل زينب الغزالى، والذى أقر فى التحقيقات أن عدداً من أعضاء مجموعته كانوا على علاقة بجماعة الإخوان):

والثانية كان أميرها حسن الهلاوى (وكان سجيناً إخوانياً انضم إلى صالح سرية بعد الإفراج عنه).

ولعلنا نلاحظ أن الدور الفاعل للبذور الإخوانية فى صفوف الجماعة من أمرين مهمين؛ الأول: إن طلال الأنصارى هو الذى ضم كارم عزت الأناضولى إلى الجماعة وكان طالباً بالفنية العسكرية، وقام كارم بتجنيد ١٨ طالباً بالكلية ما لبثوا أن بايعوه أميراً لهم^(٣٠). أما الأمر الثانى: فهو أن هذه البذور الإخوانية هى صاحبة فكرة التعجيل بمخطط العمل الانقلابى عن طريق طلاب الفنية العسكرية. فقد

اعترف "كل من طلال الأنصارى وحسن الهلالى وكارم الأناضولى وكامل محمد عبد القادر (وكان نائب أمير الإسكندرية طلال الأنصارى) بأنهم اتفقوا فيما بينهم على التعجيل بعملية الاستيلاء على الحكم قبل أن يبلغوا صالح سرية، وعندما أبلغوه اعترض على ذلك ثم وافق تحت ضغطهم وخضوعه للأغلبية.

ويبقى أن نستعرض فى عجلة شديدة أفكاراً وردت فى كتاب "رسالة الإيمان" التى وزعها صالح سرية على أعضاء تنظيمه عام ١٩٧٣^(٩).

■ "فى بداية الإسلام وخلال العهد المكى كان الناس فى نظر الإسلام ينقسمون إلى قسمين لا ثالث لهما إما مسلمون وإما كافرون.. ومع بداية العهد المدنى أضيف قسم ثالث وهم المنافقون.

■ والمنافقون هم المسلمون ظاهراً والكافرون باطناً. وبعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) قل اهتمام المسلمين وانعدم بدراسة أحكام المنافقين فى الإسلام. ذلك أن الأحكام تدور على ظاهر الإنسان ولا تفتش فى باطنه، ولذلك أجروا على المنافقين حكم الإسلام لأننا لا نعرف الباطن.

■ ثم يقول صالح سرية عن رسالة الإيمان: "وهذه الرسالة حسب علمى هى أول رسالة من نوعها فى تشخيص الكفر الذى وقع فيه المسلمون عن علم أو عن جهل بسبب الظروف الجديدة التى وقعوا فيها"، ويقول أن دراسة هذه الرسالة "أهم فى نظرى ألف مرة من دراسة قضايا العقيدة التى كتبت فى الماضى، لأن تلك القضايا لا وجود لها اليوم، ولا تشكل خطراً كبيراً على المسلمين وإنما الخطر ينبع من هذه الردة الجماعية التى لا عاصم منها إلا الله"، ويقول: "إن الله وحده صاحب التشريع فى هذا الكون، وليس لأحد حق التشريع إلا فيما لا نص فيه. فمن أعطى لنفسه الحق فى إيجاد منهج للحياة أو التشريع فقد أشرك بالله، وكفر بالله أساساً، واتخذ له رياً سواه حتى لو كان مؤمناً بالله ورسوله".

■ ثم يقرر: "وعليه فإن كل الأنظمة وكذلك كل البلاد الإسلامية وقد اتخذت لها مناهج ونظماً وتشريعات غير الكتاب والسنة، فقد كفرت بالله، واتخذت من

نفسها آلهة وأرباباً، فكل من أطاعها مقتنعاً بها فهو كافر لأنه اتخذ لنفسه رباً سوى الله. وهذا الكفر الجديد أشد كفراً من مشركى الجاهلية".

■ "إن القرآن هو المنهاج الذى وضعه الله للبشر فنرى المسلمين رفضوا هذا المنهاج كخطة عمل، لكنهم قدسوه ككتاب للتلاوة.. فهل هناك كفر بالقرآن أكثر من هذا؟ إن من يرفض اتخاذ القرآن منهجاً للحياة كافر لا شك فى ذلك، مهما أظهر من التقديس، حتى لو كان هذا التقديس ظاهراً وباطناً".

■ "وقد يقال إن هذه الحكومات نصت فى دساتيرها على أنها دولة إسلامية، وأن شريعة الإسلام من مصادر التشريع وأنها تبنى المساجد وتدرس الدين فى المدارس وتذيع القرآن والأحاديث الدينية إلخ، ألا يدل ذلك على أنها دولة إسلامية؟ والجواب قطعاً لا. والسبب أنها تنص على أنها دولة اشتراكية أو ديمقراطية أو وطنية أو قومية.. وهذه الكلمات كفر صريح. إذ أن الديمقراطية على سبيل المثال منهاج للحياة مخالف لمنهاج الإسلام".

ومهما أفضنا واستفضنا فى إيراد نصوص من "رسالة الإيمان" فإننا نكتشف أنه ما من جديد، إنها ذات الأفكار والمفاهيم التى طالعنا فى كتابات القطب الإخوانى سيد قطب.

والمثير للاهتمام أن صالح سرية لم يشأ إخفاء ذلك بل لعله تباهى به. فهو إذ يرفض غالبية كتب التفسير فإنه يؤكد أن التفسير الحق هو الذى يمكن الرجوع إليه فى كتاب ابن كثير وكتاب الظلال (فى ظلال القرآن لسيد قطب) فى طبعاته الأخيرة^(٢١).

وكان صالح سرية على خلاف أستاذه المباشر تقى الدين النبهانى يلتزم بفكر جماعة الإخوان الذى "يرى أن المهم ليس نشر العقيدة أولاً، ولا تكوين جماعة مؤمنة أولاً. وإنما المهم الاستيلاء على السلطة وفرض النظام الإسلامى"^(٢٢).

ولعل هذا يفسر تركيزه على مجموعة الفنية العسكرية (١٩ عضواً). بالإضافة إلى ثلاثة جنود، فيكون مجموع العسكريين ٢٢ من إجمالى المقبوض عليهم (٨٠ عضواً).

وقد أقام صالح سرية تنظيمه على أساس هرمي، لكنه لم يكن محكماً ولم تكن له قواعد أمان كافية.

فالجماعة تتكون من مجموعات ولكل مجموعة أمير، ولا يوجد عدد محدد لأعضاء المجموعة. يقول كامل محمد عبد القادر نائب أمير الإسكندرية طلال الأنصاري إن المجموعة قد يصل عددها إلى عشرة أعضاء، وأن كل عضو يضم عضواً جديداً يلحقه على نفس المجموعة^(٣٣).

كذلك افترقت الجماعة أبسط قواعد السرية فكل الأعضاء المقبوض عليهم اعترفوا بأنهم تقابلوا مع صالح سرية واجتمعوا معه في لقاءات عديدة. كما كانت الدورات التدريبية تضم عدداً من الأعضاء من مجموعات مختلفة. بل أكد أحد المتهمين وهو أحمد صالح عامر في تحقیقات النيابة أنه حضر اجتماعاً بحديقة الأورمان تلقى فيه الأعضاء بعض التدريبات البدنية^(٣٤).

ولم يكن هناك نظام محدد لجمع الاشتراكات فكل عضو يدفع ما يشاء ولأمير كل مجموعة أن ينفق من الاشتراكات التي يجمعها على شؤون الدعوة وعلى بعض الأعضاء المحتاجين. وأكد المنتمون أنه لم تكن هناك أية مصادر للتمويل. ولعل هذه الطبيعة الهشة للتنظيم وافتقاده لنظام آمن لتحركاته، ولتمويل كاف تثير الدهشة من تعجل قياداته في القيام بالانقلاب.

كما أن عجز الأمن عن اكتشاف هذا التنظيم يثير هو أيضاً المزيد من الدهشة وإن كان اللواء فؤاد علام قد أكد عديداً من المرات أن النظام كان مسترخياً ومرتاحاً لوجود مناخ متأسلم، بل وكان يساند هذا المناخ. وذلك عبر تحالف وثيق مع جماعة الإخوان.. بل ويؤكد أنه كثيراً ما صدرت التعليمات من أعلى لشل يد الأمن عن ملاحقة هذه الجماعات.

ونأتى بعد ذلك إلى خطة الانقلاب الذي حاولت الجماعة عن طريقه الوصول إلى السلطة وإزالة حكم الطاغوت، وسوف نكتشف منذ الوهلة سذاجة الإعداد،

وسداجة التخطيط، وسداجة التصور الذى قامت عليه هذه الخطة، تلك السداجة التى عبر عنها طلال الأنصارى (أمير الإسكندرية) إذ قال فى التحقيق: "البلد قائمة على مجموعة الأفراد اللى يبحكموها وبمجرد أن نضع أيدينا عليهم نقدر نستولى على السلطة ونحكم البلد"^(٣٥).

إنها ذات الفكرة وذات السداجة التى مارسها الإخوان عام ١٩٤٨ (اغتيال النقراشى) ثم عام ١٩٥٤ (محاولة اغتيال عبد الناصر) ثم عام ١٩٥٦ (المحاولة الثانية لاغتيال عبد الناصر على يد مجموعة سيد قطب) ومارسته جماعة الجهاد فى عام ١٩٨١ (اغتيال السادات).

إنه ذات التصور الخاطئ الذى أوهمهم أنهم "الفرقة الناجية" وأنهم الأعلى سنداً والأعلى إيماناً.. ثم "وكان حقاً علينا نصر المؤمنين" (الروم). ونطالع محضر تحقیقات النيابة فى القضية، لنتابع المخطط الذى وضعته الجماعة للاستيلاء على السلطة.

■ درس رئيس التنظيم مع أعضائه الخطة الكاملة للاستيلاء على الحكم خلال اجتماعات متتالية جرت أيام ١٢، ١٥، ١٦ إبريل ١٩٧٤.

■ تجمع أعضاء التنظيم من القاهرة الكبرى والإسكندرية مساء الأربعاء ١٧ إبريل فى ميدان العباسية فى مجموعات صغيرة متناثرة حيث جرى اختيار مجموعة مكونة من ١٨ فرداً لاقتحام الكلية الفنية العسكرية بمساعدة عدد من طلبتها المنضمين إلى التنظيم.

■ قام أعضاء التنظيم بمهاجمة حرس البوابة الخلفية للكلية بالأسلحة البيضاء/ واستولوا على بندقيتى الحارسين ثم تمكنوا بعد ذلك من دخول الكلية حيث انضموا إلى زملائهم داخل الكلية الذين كانوا قد أعطوا لمجموعة الاقتحام إشارة ضوئية لبدء العملية.

■ اقترح أعضاء التنظيم بأكملهم - القادمون من الخارج والعدد المحدود من طلبة الكلية - مخزن السلاح بالكلية، غير أن حراس المخزن سدوا عليهم الطريق

وحدثت اشتباكات بالأسلحة النارية والبيضاء أسفرت عن مقتل ١١ شخصاً وإصابة ٢٢ الأمر الذى أدى إلى فشل العملية (٣٦).

والحقيقة أن هذه الخطة قد اتسمت بعنصرين أساسيين أولهما سذاجة التخطيط وعدم إعداد الأعضاء المشاركين فيها للقيام بها؛ فقد تم استدعاؤهم - وأغلبهم من الإسكندرية- بحجة السماع لمحاضرة تنقيفية، وفى ميدان العباسية قام صالح سرية بشرح الخطة فى عجالة لمجموعة محدودة من القادة الذين قاموا بدورهم بشرحها للآخرين ومجموعهم ١٨. وبديهي أن مثل هذا الشرح المتعجل وعدم إعداد الأفراد يدل على سذاجة مفرطة.

أما العنصر الثانى فهو العنف الشديد فى التنفيذ، أنه البدايات التى لم تعرفها مصر حتى ذلك الحين.. مثل القتل بالأسلحة البيضاء والخنق بالحبال. أما استكمال الخطة فكان يعتمد على قيام أعضاء التنظيم من طلبة الكلية بالاستيلاء على غرفة التليفون، وإغلاق مخازن السلاح والذخيرة بأقفال أحضروها معهم ليسهل عليهم فتحها عندما يريدون.

أما بقية المخطط فى حالة نجاح عملية الاقتحام فكان يقوم على أساس القبض على ضباط الكلية ومديرها عند حضورهم فى الصباح واحتجازهم كرهائن. والاستيلاء على الأسلحة، ثم يتحرك أعضاء التنظيم بسيارات الكلية إلى قاعة اللجنة المركزية بمبنى الاتحاد الاشتراكى بكورنيش النيل (٣٧).

ثم يقومون بعد ذلك باقتحام قاعة اللجنة المركزية ظهراً خلال اجتماع الرئيس السادات مع أعضاء اللجنة المركزية وأعضاء مجلس الشعب وذلك بعد إيهام الحراس الموجودين بالقاعة بوجود متفجرات داخلها؛ الأمر الذى سيثير فوضى داخل القاعة الأمر الذى سيمكنهم من اعتقال الرئيس وأعضاء الحكومة وكل القيادات المهمة.

وبعد ذلك يقوم رئيس التنظيم د. صالح سرية بإلقاء بيان عن طريق الإذاعة والتليفزيون يعلن فيه الاستيلاء على السلطة.

ورغم كل هذه البساطة والسذاجة التى أحاطت بالخطة فإنه يبدو أن د. صالح سرية كان واثقاً من نجاحها إلى درجة أنه أعد وخطط يده البيان الذى كان يزعم أن يذيعه بنفسه عبر الإذاعة والتلفزيون بصفته الرئيس الجديد للجمهورية^(٣٨).

ويحكم على صالح سرية ونائبه بالإعدام. وينفذ الحكم فى ١١ أكتوبر ١٩٧٥. ذهب الزعيم وسجن البعض.. أما المفرج عنهم فقد كانوا وقوداً لمزيد من الإرهاب المتأسلم.

إن نظرية يمكن تسميتها عنقود العنف المتأسلم بدأت تحكم مسار هذه الجماعات.

- تقى الدين النبهانى وصالح سرية يأتیان من جماعة الإخوان.
- يأتى معهما حسن الهلاوى وطلال الأنصارى وعدد من أعضاء الجماعة أتوا هم أيضاً من جماعة الإخوان.
- المفرج عنهم من جماعة صالح سرية بعضهم انضم سريعاً إلى شكرى مصطفى فى جماعة التكفير والهجرة.

والبعض الآخر وخاصة أبناء محافظة الإسكندرية انضموا إلى مجموعة صغيرة شكلها بالإسكندرية مصطفى يسرى (تأسست عام ١٩٧٤) وأسمت نفسها جماعة الجهاد.. ومن صفوف هذه الجماعة أتى المهندس محمد عبد السلام فرج المهندس الأساسى لجماعة الجهاد فى تطورها الجديد ومهندس عملية اغتيال السادات.. وصاحب كتاب الفريضة الغائبة.

وعبر مسار آخر شقه أحد سجناء الإخوان السابقين بعد الإفراج عنه، وهو الشيخ طه السماوى، الذى أعيد القبض عليه عام ١٩٧٥ هو ومجموعة من أعضائه بتهمة محاولة إشعال النار فى مسجد السيد البدوى لأنهم كانوا يعتبرون التبرك بأولياء الله كفراً وشركاً كالوثنية. ثم اتضح بعد ذلك أن عبود الزمر وخالد الإسلامبولى كانا على علاقة بالسماوى^(٣٩).

وفيما بعد أرسلت مباحث أمن الدولة إلى المخابرات الحربية كتاباً يحمل رقم

١٦٢ لسنة ١٩٨١ ذكرت فيه أن الملازم أول خالد أحمد شوقي الإسلامبولي الضابط بالمدفعية يعتقد فكر طه السماوى وإنه سبق أن اصطحب أمير الجماعة (السماوى) إلى بلدته نجع حمادى لحضور عقد قران شقيقته. وقد حققت المخابرات الحربية مع خالد الإسلامبولي حول حقيقة علاقته بالسماوى ونصحته بالابتعاد عن الجماعات الدينية وكتبت تقريراً أفاد بضرورة إبعاده عن الاشتراك فى العرض العسكرى(?)^(٤٠).

ونمتلك فى النهاية علامتى استفهام كبيرتين.

الأولى: كيف ولماذا اشترك خالد الإسلامبولي فى العرض بعد قرار المخابرات الحربية.

أما الثانية: فهى عنقود العنف المتأسلم المرتبط بالإخوان دوماً. فى كل مرة وفى كل مرحلة يطل علينا الشبح الإخوانى المرتدى ثياب الإرهاب المتأسلم. وليس بالإمكان اعتبار ذلك كله من قبيل المصادفات.

الهوامش:

- (١) تقى الدين النبهاني - التكتل الحزبي - ط٢ - عمان - ص ١٨.
- (٢) تقى الدين النبهاني - مفاهيم سياسية لحزب التحرير الإسلامي - ص ٨٧.
- (٣) تقى الدين النبهاني - نداء حار لحزب التحرير الإسلامي - ٩٦.
- (٤) المرجع السابق - ص ٩٨.
- (٥) تقى الدين النبهاني - التكتل الحزبي - المرجع السابق - ص ٣٧.
- (٦) الحياة (لندن) - ١٧-٤-٢٠٠٤ مقال لغازي التوبة بعنوان: حزب التحرير الإسلامي بدايات وتأثير محدود.
- (٧) حزب التحرير الإسلامي - الخلافة - الإنترنت - موقع الحزب.
- (٨) المرجع السابق .
- (٩) حزب التحرير الإسلامي - الحملة الأمريكية للقضاء على الإسلام - ٢٥ مارس ١٩٩٦ - الإنترنت - موقع حزب التحرير الإسلامي .
- (١٠) المرجع السابق.
- (١١) المرجع السابق.
- (١٢) حزب التحرير الإسلامي - الحملة الأمريكية للقضاء على الإسلام - ٢٥ مارس ١٩٩٦ - الإنترنت - موقع حزب التحرير الإسلامي.
- (١٣) حزب التحرير الإسلامي - نشرة سؤال وجواب - ٢٤ ربيع الأول ١٣٩٠ هـ - ٢١ - ٥ - ١٩٧٠.
- (١٤) المرجع السابق عدد ٢ محرم ١٣٩٢ هـ - ١٧ - ٢ - ١٩٧٢.
- (١٥) الحياة (لندن) - ٢١ مارس ٢٠٠٤ - مقال لمحمد صلاح بعنوان: انشغال الظواهري مع بن لادن وانكفاء الجماعة يضعان حزب التحرير في دائرة الضوء.
- (١٦) رفعت سيد أحمد (دكتور) - النبي المسلح - الثائرون - المرجع السابق - ص ٨١.
- (١٧) المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنايئة - بحث الحركات الاجتماعية المتطرفة - الحركات الدينية - الندوة الرابعة - ١٢-٥-١٩٨٢، قراءة في تحقيقات قضيتي الفينة العسكرية والتكفير والهجرة - منى العريني وآخران - ص ٢٣٠.
- (١٨) الحياة - (لندن) - ١٧-٤-٢٠٠٤ مقال: غازي التوبة - المرجع السابق .
- (١٩) المركز القومي للبحوث - المرجع السابق - ص ٢٣١.
- (٢٠) المرجع السابق - ص ٨١.
- (٢١) المرجع السابق - ص ٢٣١.
- (٢٢) المرجع السابق.
- (٢٣) المرجع السابق.
- (٢٤) المرجع السابق - ص ٢٢٣.

- (٢٥) المرجع السابق - ص ٢٣٩.
- (٢٦) المرجع السابق.
- (٢٧) المرجع السابق - ص ٢٣٢.
- (٢٨) المرجع السابق - ص ٢٣٥.
- (٢٩) المرجع السابق - ص ٢٣٦.
- (٣٠) المعهد القومى للبحوث - المرجع السابق - ص ٢٣١.
- (*) علما بأننا سنورد نصاً وافياً للكتيب فى الملاحق.
- (٣١) راجع بعض الفوارق بين الطبعة الأولى للظلال وبين الطبعة التى نقحها سيد قطب وطبعها وهو فى السجن، فى : رفعت السعيد - الإرهاب المتأسلم لماذا ومتى وإلى أين؟، القاهرة (٢٠٠٤) ص ٢٤٠ وما بعدها.
- (٣٢) نبيل فارس - المرجع السابق - ص ٢٢.
- (٣٣) المركز القومى للبحوث - المرجع السابق - ص ٢٣٥.
- (٣٤) المرجع السابق - ص ٢٣٢.
- (٣٥) المركز القومى للبحوث - المرجع السابق - ص ٢٣٧.
- (٣٦) بيان صحفى أصدرته النيابة عن الحادث.
- (٣٧) نبيل فارس - المرجع السابق - ص ٥١.
- (٣٨) راجع النص الكامل للبيان بالملاحق.
- (٣٩) نبيل فارس - المرجع السابق - ص ٢٣.
- (٤٠) المرجع السابق.

رسالة الإيمان^(*)

مقدمة تاريخية

فى بداية الإسلام وخلال العهد المكى كان الناس فى نظر الإسلام ينقسمون إلى قسمين لا ثالث لهما، إما مسلمون وإما كافرون. وقد يكون الكافر ملحداً أو مشركاً أو من أهل الكتاب، ويبدو أن الملحدين فى ذلك الوقت كانوا من القلة بحيث لم يعرفهم الإسلام اهتماماً. ومع بداية العهد المدنى، أضيف قسم ثالث وهم المنافقون، وعلى هذا كان الناس فى حياة الرسول (ﷺ) ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

١- المسلمون وهم الذين يؤمنون بالشهادتين "لا إله إلا الله محمد رسول الله (ﷺ)" ظاهراً وباطناً، ويطبقون أوامر الله ورسوله وينتهون عن نواهيه. ولم يكن فى ذلك العهد مسلم لا يطبق الأوامر ولا ينتهى عن النواهى.

٢- كافرون لا يؤمنون بالشهادتين فى آن معاً ظاهراً وباطناً.

٣- منافقون وهم مسلمون ظاهراً وكافرون باطناً.

وبعد وفاة الرسول (ﷺ) قل اهتمام المسلمين أو انعدم بدراسة أحكام المنافقين فى الإسلام. ذلك أن الأحكام إنما تدور على ظاهر الإنسان ولا تقتش عن باطنه، ولذلك أجروا على المنافقين حكم الإسلام لأننا لا نعرف الباطن. وكانت العقيدة الإسلامية فى عهد رسول الله (ﷺ) والخلفاء الراشدين وفى الدولة الإسلامية بصفة عامة بسيطة جداً لا تتعدى الإيمان بالشهادتين، وينبثق عنها الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسول واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله دون تعقيد ولا

(*) د. صالح سرية.

فلسفة ولا تعمق ولا تتطع. وقد بدأت بعض القضايا الجديدة منذ وفاة الرسول (ﷺ) تحتاج إلى تحديد موقف العقيدة منها بدأت أول ما بدأت بحكم من ترك ركن الزكاة مع اعتقاده بكل أمور الإسلام، فأجمع الصحابة بعد تردد على أنه كافر مرتد حلال الدم يجب قتله.

ثم نشأت مع قضية قبول الإمام على للتحكيم ظهور الخوارج الذين بدأوا يكفرون الصحابة بالجملة ويناقشون في مسائل العقيدة، ولا يسلمون ببساطة لقول الصحابة. كما بدأت بدايات الشيعة وعقائدهم. لكن كل هذه الأمور لم تتبلور إلا في عهد الدولة العباسية، حيث أدت العوامل الثلاثة الآتية إلى التعمق في مسائل العقيدة وهذه العوامل هي:

أولاً: الترف العقلي: الذي بدأ يتوسع ويتعمق في فهم الكتاب والسنة مع دخول الفلسفات المختلفة من يونانية وهندية وفارسية إلى اللغة العربية، والتوسع في دراسة الأديان المقارنة مما فتح كثيراً من القضايا التي كان يمر عليها الصحابة مرور الإيمان والتسليم دون تعمق ولا تقطع.

ثانياً: دخول الزنادقة في المعركة: وهم من المجوس وغيرهم ممن لم يستطيعوا محاربة الإسلام علناً، فأظهروا الإسلام وأرادوا هدمه من الداخل عن طريق تشكيك المسلمين بدينهم بإثارة الشبهات حول العقيدة الإسلامية.

ثالثاً: تبلور المذاهب السياسية التي نشأت في نهاية الخلافة الراشدة ونمت أثناء الدولة الأموية، وهي مذاهب: السنة - الشيعة - الخوارج، بحيث تميزت هذه المذاهب وأصبح لكل منها قواعده الخاصة ورجالها وطرق نقله.. مما أوجد بالضرورة خلافات في مسألة العقيدة على أن هذه الخلافات كانت خلافات نظرية لا يبنى عليها عمل؛ إذ كانت تتركز على صفات الله وتأويلها أو عدم تأويلها وعلى عقيدة القضاء والقدر وعلى مرتكب الكبيرة وهل هو كافر أم لا، وقضايا مثل قضية خلق القرآن. ونشأت في هذه الفترة أنواع كثيرة من الفرق وبادت كلها تقريباً ولم يبق منها إلا ما نقرأه في الكتب.

ولقد كان الخلاف على أشده في العصور العباسية الأولى بسبب انتشار الثقافة يوم ذاك. فلما سادت عصور الجهل تقلصت الخلافات، لكن نشأت قضايا جديدة في العقيدة تتناسب مع هذه الفترة إذ عمت الطرق الصوفية العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه. وانتشر التوسل بالأولياء والصالحين وما شابه ذلك فنشأت طائفة من العلماء والسلفيين تصف هذه الأعمال بالشرك، وزادت الأبحاث في هذه الموضوعات بين من يدافع ومن يهاجم وكان من أبرز المهاجمين "ابن تيمية" وتلميذه ابن قيم الجوزية من السابقين ومحمد عبد الوهاب من المتأخرين، وبقيت كل كتب العقيدة إذن محصورة إما بما استقر عليه الأمر من محاولات في زمن الدولة العباسية أو ما استقر عليه الأمر من كتب ابن تيمية وأتباعه إلى نهاية الدولة العثمانية.

وبزوال الدولة العثمانية نشأت حالة جديدة لم يسبق أن تعرض لها طريق الإسلام، ونشأت قضايا جديدة ثبتت على هذه الحالة لم يتطرق إليها أحد فيما مضى لأنها لم تكن موجودة، وعلماء اليوم لم يتحدثوا عنها. إما لأنهم جمدوا على التقليد فليست عندهم القدرة على مواجهة ما استجد من أمور الحياة وإما لأنهم من وعاظ السلاطين ممن لا يجرون على قول الحق مخافة قطع أرزاقهم ومرتباتهم، وإما لأسباب أخرى لم يقصد إلى استقصائها.

وهذه الرسالة - حسب علمي - هي أول رسالة من نوعها في تشخيص الكفر الذي وقع فيه المسلمون عن علم أو عن جهل بسبب الظروف الجديدة التي وقعوا فيها، ودراستها في نظري أهم ألف مرة من دراسة قضايا العقيدة التي كتبت في الماضي لأن تلك القضايا لا وجود لها اليوم ولا تشكل خطراً كبيراً على المسلمين. فإنما الخطر ينبع من هذه الردة الجماعية التي لا عاصم منها إلا الله ووقوف المؤمنين لصد تياراتها بكل الأساليب الشرعية.

وقبل أن أبدأ بسرد المقومات الأساسية لهذه الردة أود أن أبين الأسس الرئيسية للعقيدة الإسلامية وأبادر إلى القول إنني لا أميل إلى استخدام مصطلح العقيدة

وأفضل عليه مصطلح الإيمان ذلك لأن المصطلحات التي استجذبت في الإسلام كانت لها مساوئ أكثر من الحسنات، إذ إن آيات القرآن وأحاديث الرسول (ﷺ) قد فسرت فيما بعد وفق هذه المصطلحات وليس العكس مما أدى إلى الضلال والعياذ بالله.

وعلى سبيل المثال فإن كلمات الشرك والكفر والظلم والفسق والضلال والنفاق وغيرها كانت في كثير من الأحيان تأتي مترادفة كقوله تعالى: (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) ((١٣)) [لقمان] أو قوله: (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) ((٢٥٤)) [البقرة] وقوله: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) ((٦٧)) [التوبة] ثم جاءت كتب العقيدة لتضع لكل من هذه الكلمات معنى محدوداً، ثم بدأت تفسير ما ورد في القرآن الكريم أو السنة فيها وفق هذه المعاني مما أدى إلى الضلال، وذلك مثلاً حينما فسروا قول الله تعالى: (وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) ((١٣)) [المائدة] - الظالمون - الفاسقون.

وإذا كنت أستخدم هذه المصطلحات فليس إيماناً بها وإنما لأنها استقرت في الأذهان مع طلبى التقليل منها تمهيداً لإلغائها نهائياً وعلى كل إن الإيمان كما صورته رسول الله (ﷺ) هو:

الإيمان بالله:

ليس المقصود به الإيمان بوجوده فقط هناك من البديهيات التي لا تحتاج إلى نقاش في نظر الإسلام ونحن نؤمن بوجود الحجر والشمس والقمر، كما نؤمن بوجود أعدائنا إيماناً لا شك فيه، ومن المقطوع به أنه ليس المقصود بالإيمان بالله هو هذا الإيمان.

إنما المقصود بالإيمان بالله تعالى ما يلي:

١- إنه وحده الذى خلق الكون وهو وحده المتصرف بشئونه، ولا أناقش هذه النقطة كثيراً لأن أكثر المؤمنين بوجود الله في منطقتنا يؤمن بذلك. أما المشركون به آلهة أخرى في الخلق والتدبير فغير موجودين بمنطقتنا وقد اقتصر أمرهم في

بقية العالم على الفئات غير المتعلمة فلا داعى للإطالة إذن.

٢- إنه وحده صاحب التشريع فى هذا الكون وليس لأحد حق التشريع إلا فيما لا نص فيه، فمن أعطى لنفسه الحق فى إيجاد منهج للحياة أو التشريع فقد أشرك بالله وكفر بالله أساساً واتخذ له رباً سواه حتى ولو كان مؤمناً بالله ورسوله. وفى ذلك أمثلة كثيرة، نقصر منا على ما يلى:

(أ) ذكر الله عن مشركى قريش أنهم آمنوا بصدق رسوله (ﷺ) لقوله: (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)) [الأنعام].

ولذلك فإنهم كفار لأنهم لم ينقادوا عملياً وفق هذا التصديق، ومن قرأ السيرة وجد أن عدداً كبيراً من اليهود كانوا مقتنعين أن محمداً رسول الله وهو الذى بشرت به التوراة لكنهم لم ينقادوا له فاعتبروا كافرين.

(ب) إن فرعون حين قال لقومه: (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (٣٨)) [القصص] لم يقصد أنه هو الذى خلق الكون أو أنه هو المتصرف بشئونه، ولم يقل بذلك أحد لأن الكل يعلم أنه ولد كبقية الناس وكبر مثلهم وأنه لا يستطيع أن يتصرف بالشمس أو القمر أو الريح أو فيضان النيل...

ولم تكن عبادة الناس بهذا المعنى، وإنما كان يقصد أنه صاحب الأمر المطاع الوحيد فيهم بما له عليهم من سلطان، فمن وضع نفسه من الأمة هذا الموقف فقد نصب نفسه إلهاً عليهم ومن أطاعه عن اقتناع فقد عبده من دون الله.

عن حديث عدى بن حاتم الطائى حينما سمع رسول الله (ﷺ) يتلو الآية: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ (٣١)) [التوبة] واضح تمام الوضوح فيما رمى إليه، فقد عزا رسول الله عبادة النصارى للأحبار والرهبان بأن هؤلاء أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم فتلك عبادتهم. وليس ذلك مقصوراً على الأحبار والرهبان؛ فكل من فعل ذلك فقد نصب نفسه رباً وكل من أطاعه على ذلك اتخذ له رباً غير الله.

وعليه فإن كل الأنظمة وكذلك كل البلاد الإسلامية التى اتخذت لها مناهج

ونظماً وتشريعات غير الكتاب والسنة، فقد كفرت بالله واتخذت من نفسها آلهة وأرباباً. فكل من أطاعها مقتنعاً بها فهو كافر لأنه اتخذ له رياً سوى الله، وهذا الكفر الجديد أشد كُفراً من مشركى الجاهلية، إذ إن أولئك قد اتخذوا الأصنام كما قالوا (لِيَقْرَبُنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) (([الزمر] في حين أن هؤلاء قد كفروا بالله أساساً واتخذوا آلهة أخرى بدلاً عنه، وهذه القضية الخطيرة لم يتطرق إليها علماء المسلمين فى الماضى لأنها لم تكن موجودة فى أزمانهم، وأصبح جلاؤها فى هذا العصر فرضاً على كل العاملين فى الحقل الإسلامى، بل هو الفرض الأول لأنها أساس التوحيد والشرك فى هذا العصر.

٣- والنقطة الأخيرة من الإيمان بالله هى أن نقدر الله حق قدره وأن نتصرف وفق ذلك. والمسلمون اليوم غير منتبهين إلى هذه النقطة، فلا يدركون معنى كلمة (الله أكبر) التى يقولونها يومياً عشرات المرات يل يدعون الله فى مقام أقل من رئيس الدولة أو الوزير أو العامل أو الضابط أو أقل من الشرطى ومن المباحث ولو عرض عليه أمر الله مع أى واحد من هؤلاء فكثيراً ما ينفذ أمر هؤلاء تاركاً أمر الله. ولتوضيح هذه النقطة كنت أضرب لإخوانى هذا المثل: (ولو أن رجلاً ضخماً يمسك مسدساً هم عليك ليقْتلك وفى نفس الوقت رأيت طفلاً صغيراً يحمل قشة فهل تحسب فى هذه الحالة حساباً للطفل... الجواب قطعاً لا.. إنما الحساب كله يكون للرجل صاحب المسدس فإذا حسبت حساباً للطفل وأنا عاقل فمعنى ذلك أننى غير مؤمن بأن هذا الرجل بيده مسدس)، فلو طبقنا هذا المثل على الله وعلى البشر (والمقارنة هنا إنما لضرب المثل فقط والله المثل الأعلى) فإن الإيمان بالله يقصد حتماً ألا تحسب حساباً للبشر بجانب الله سبحانه، فإن حسبنا حساباً للبشر كائناً من كان هذا البشر إذا تعارض مع أمر الله فهذا دليل عدم الإيمان. فإذا امتنعت عن العمل لاستئناف الحياة الإسلامية وإزالة الكفر الموجود فى الأفراد والمجتمع والدولة خوفاً من السلطة وسجونها وأحكامها ولم أحسب حساباً لعذاب الله على تقصيرى فهذا يعنى إننى حسبت حساباً للقشة فى يد الطفل، ولم أحسب

حساباً للمسدس فى يد الرجل، والله المثل الأعلى، ومعنى ذلك بدهاءة أننى فى هذه الحالة لا أوّمن بأن الله أكبر، هذه إذن هى القضايا التى نريد توجيه الناس إليها بالنسبة للإيمان بالله.

أما قضايا الصفات مثل يد الله، عين الله، أو الاستواء على العرش أو تبسم الله أو ضحكة الله أو محبته أو كراهته... إلخ، مما ورد فى الكتاب والسنة فإننا نفرها كما وردت ونعتبرها من الآيات المتشابهة التى لا يعلمها إلا الله ولم يكن الصحابة يثيرونها أو حتى يفكرون فيها وما بدأ الكلام عليها إلا فى عصر الترف الفكرى والخوض فيها لا يودى إلى نتيجة عملية. ونحن لا يهمننا إلا ما ينبى عليه عمل. لأن كل مسألة لا ينبى عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذى نهانا الله عنه شرعاً وكل المسلمين مقتنعين على أنه تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (١١) [الشورى] وأن هذه الآيات ليست على ظاهرها وكذلك كل ما يتعلق بأمر الغيب كالجنة والنار وما فى الجنة من لبن وعسل ونخل ورمان....، وما فى النار من أفاعى وكلايب وعقارب... إلخ.

لأن هذه حياة غير هذه الحياة والله سبحانه وتعالى يقرب لنا الأمور للترغيب والترهيب، لأنه لا يخاطبنا إلا على قدر ما نفهم وترفض الخوض فى هذه القضايا ونعتبر ذلك من المحن التى مرت فى تاريخ الإسلام فلا يفيد ذلك.

الإيمان بالملائكة:

والملائكة خلق من خلق الله (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (٦) [التحریم]، ولكل واحد من الملائكة وظيفة محددة يؤديها: منهم رسل الله إلى الأنبياء، ومنهم خزنة، ومنهم من يقبض الأرواح، ومنهم الموكلون بكتابة الحسنات والسيئات ومنهم الذين يسألون الناس فى القبر... إلخ.

والملائكة من عالم الغيب لا نعرف عنهم إلا ما ورد فى الكتاب والسنة ولا نتعدى ذلك، والبحث خارج نطاق الكتاب والسنة عبث لا طائل تحته وبدعة نحاربها. ومن عالم الغيب أيضاً الشياطين (إبليس وذريته) ولا نعلم عنهم إلا ما

ورد فى الكتاب والسنة ولا نزيد على ذلك. من عالم الغيب أيضاً الجن، وهؤلاء منهم المؤمنون ومنهم دون ذلك ولا نعلم عنهم إلا ما ورد فى الكتاب والسنة. وما نسميه من بحوث الجن أو تقصى خارج نطاق الكتاب والسنة لا علاقة له بالدين وإنما نطاقه أمور الدنيا مثله فى ذلك مثل بحوث علم النفس والتدخل فى نطاق الخزعات. ولا يسأل الذين فى هذا المجال إلا عما ورد فى الكتاب والسنة فقط. وقد ورد فى القرآن الكريم إشارات إلى وجود مخلوقات فى السماء لا نعلم عنها شيئاً مثل قوله تعالى: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ) ((٤٩)) [النحل]، وقوله (وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ) ((٢٩)) [الشورى].

الإيمان بكتب الله:

أنزل الله عددا من الكتب على أنبيائه منها: التوراة والإنجيل والزيور، وعدداً من الصحف وقد حرفت هذه الكتب فلا نعلم اليوم ما بين أيدينا منها ما هو الصحيح ولا ما هو المحرف، وقد أنزل الله القرآن على محمد فنسخ كل الكتب السابقة وأصبح بذلك الكتاب الواجب الاتباع. ولقد أنزل ذلك الكتاب أساساً ليكون المنهاج الذى تسير عليه البشرية فى حياتها. فهو إذن للتطبيق والتففيذ. ولقد كان الصحابة يخشون حفظه حتى لا يكون حجة عليهم، لأنهم كانوا لا يحفظون آية إلا إذا طبقوها ولهذا حفظوا العلم والعمل معاً فى آن واحد، وكان حافظ القرآن فى زمن الصحابة المقدم منهم لأنه أعلمهم وأكثرهم تطبيقاً. ولم يكن بين المسلمين والقرآن حاجز وإنما كانوا يستمدون منه التعليمات مباشرة. فلما شاع الترف الفكرى بين المسلمين وانقسموا شيعاً وأحزاباً ومذاهب ترك المسلمون الأخذ من كتاب الله مباشرة وأصبح الأخذ كله من المذهب، وفقد القرآن قيمته عند المسلمين ككتاب هداية وتوحيد، اقتصر المسلمون على تلاوته للبركة أو الطرب على صوت قارئه، أو تقديسه بأن يكتب على أفر الورق وبمياه الذهب ويحفظ فى أحسن الأماكن ويقبل ويوضع على الرأس... إلخ.

ومُنغ المسلمون من الأخذ من الكتاب مباشرة لأن من يسمونهم (رجال الدين) قد

اقتدوا بالنصارى الذين حصروا الكتاب المقدس على طبقة رجال الدين التى منعت أيا كان من فهمه وتفسيره، وعادة التقديس لم تكن موجودة عند الصدر الأول للإسلام لا لرسول الله (ﷺ) ولا للقرآن، فلم يكن أحد يقوم للرسول (ﷺ) ولا كانت عادة تقبيل يديه معروفة ولا كان يقبل أن يقف أحد وهو جالس، أو أن يسير خلفه أحد ولا كان ينحنى له أحد. كان الناس يعاملونه كأى رجل منهم لكن أوامره وتعليماته كانت تنفذ فوراً عن طوعية وحب دون أدنى تردد أو جدل أو شك، والأمر نفسه كان للقرآن فقد كان يكتب على العظم والحجارة أو سعف النخيل، وكانت هذه الكتابات توضع على الأرض وتحت السرير الذى ينام عليه الصحابى. وحين طبعت الآيات القرآنية على النقود كان المسلمون يدخلون بها المراحيض ولم يكونوا يعرفون هذا التقديس الشكلى، لكن إذا قرأ أحدهم قول الله تعالى تغير لونه وبائر إلى تنفيذه، ولا يجرؤ أحد أن يخالف أمر الله حيث كانت الكفة لصالح التنفيذ العملى، ولم تكن هناك شكليات التقديس النظرى، فلما أهمل المسلمون التنفيذ عوضوا عنه بهذه الشكليات من التقديس وهذا هزر وسخرية بكتاب الله ورسوله (ﷺ).

ونحن نريد للفئة المؤمنة:

أولاً: أن تقرأ القرآن للتنفيذ لا للتقديس ولا للطرب.

ثانياً: ألا يكون بينها وبين القرآن أى حاجز، يكفينا من القرآن هذه البساطة الرائعة التى يبعده عنها وجمالها أى تفسير.

إن آية "الحمد لله" لا تحتاج على تفسير، وأن أى تفسير يفقدها تفسيرها فى نفس المؤمن.

وآية (تَنَجَّاهُ جُؤُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا) (١٦) [السجدة]
وآية (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) (١٦) [الحديد].

وأمثال هذه الآيات لا تحتاج إلى واسطة حتى يفهمها المؤمن ويتأثر بها ثم يقوم بتنفيذها.

وأنا لا أقصد بهذا إلغاء كل التراث الإسلامى فى التفسير وعلوم القرآن وأن يقوم كل جاهل بتفسير القرآن على هواه، أبداً، كل الذى أريده ألا توضع الحواجز بيننا وبين القرآن. وما أمكن فهمه والتأثر به ويتفذه فلنفع ذلك مباشرة، وما لم نستطع فهمه رجعنا إلى كتب التفسير متجنبين فى ذلك ما يلى:

- ١- تفسير أهل الأهواء بالنسبة لآيات العقائد مثل كتاب الكشاف للزمخشري.
- ٢- تفسيرات الفقهاء لآيات الأحكام لأن كل فقيه يطوع الآية لمذهبه.
- ٣- تفسيرات الصوفية الذين يحولون الآيات إلى رموز للقرآن يجعلونها بواطن خلاف الظاهر.

- ٤- تفسيرات الآيات التى تتعرض للسنن الكونية من قبل علم الله.
- ٥- الإسرائيليات التى ما خلا منها كتاب من كتب التفسير تقريباً مع الأسف الشديد.

- ٦- الأحاديث الموضوعة التى دس على كثير من كتب التفسير.
- والتفسير الحق للقرآن الذى يعتمد على ما يلى:
- ١- اللغة العربية دون تعقيد أو تحريف وحسب بساطة اللغة العربية.
 - ٢- تفسير القرآن بالقرآن بأن تجمع الآيات ذات الموضوع الواحد أو الكلمات المتشابهة.

- ٣- الحديث النبوى الشريف وهو المبين للسنة.
- ٤- تطبيقات العهد الأول وفهمهما على أن يكون ذلك بالنقل الصحيح، ولعل خير التفاسير التى يمكن الرجوع إليها كتاب ابن كثير أو كتاب "الظلال" فى طبعاته الأخيرة، على أن يكون واضحاً أن الله أبى العصمة لكتاب غير كتابه.

الإيمان بالرسل والأنبياء:

لقد بعث الله سبحانه فى كل أمة نبياً أو رسلاً: (وَإِنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)) [فاطر] ولم يقص علينا القرآن إلا عدداً قليلاً منهم: (وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ (١٦٤)) [النساء] ومحمد بن

عبد الله هو خاتم الأنبياء فرض عليه وعلى أمته الاقتداء بهديهم وجاء تشريعه فنسخت شرائعهم، وهؤلاء الأنبياء وأتباعهم قبل بعثة محمد مسلمون، والنبي والمسلمون أولى بهم من أقوامهم الذين لم يتبعوهم، وقد وقع كثير من المسلمين في هذا القرن في الكفر بسبب عقيدتهم بأنبياء بنى إسرائيل أو أتباعهم في أزمااتهم، ومن هؤلاء المسلمين قوم متدينون؛ والسبب في ذلك أنهم نظروا إلى التاريخ نظرة وطنية أو نظرة قومية، وليست نظرة إسلامية فضلاً أو أضلوا. ومن ذلك من يفخرون بفرعون لأنه طرد اليهود من مصر وهذا كفر صريح فهؤلاء اليهود المؤمنون بموسى مسلمون وفرعون كافر. ومنهم من يعتز بالكنعانيين باعتبارهم عرباً ويقف موقف العداء من داود وسليمان لأنهما حاربا الكنعانيين وأقاما دولة لليهود بفلسطين وهذا كفر أيضاً لأن داود وسليمان أنبياء، ولأن أتباعهم من اليهود مسلمون والكنعانيون كفار، ونحن أولى بموسى وأتباعه من يهود اليوم؛ لأن أولئك كانوا مسلمين ومثلنا في ذلك المسلمون الحقيقيون الباكستانيون والهنود فهم أولى بمحمد وأتباعه العرب المسلمين من ميشيل عفلق وجورج حبش، وغيرهم من العرب غير المسلمين سواء كانوا نصارى أو شيوعيين أو ملحدين.

الإيمان بمحمد خاتم النبيين ليس المقصود به تقديسه أو التغزل بجماله والاعتقاد بعبقريته أو الاعتزاز به كبطل من أبطال التاريخ، وإنما المقصود اتباعه: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) ((آل عمران)). والتأسي: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) ((الأحزاب)).

لا إيمان بغير هاتين النقطتين مهما كان إقباله والاعتزاز به والتقدير له. ولا تتم هاتان النقطتان إلا بمعرفة الحديث النبوي الشريف، ومن أكبر المصائب التي وقع فيها المسلمون منذ القرن الثالث حتى الآن هو جهل الغالبية العظمى من علماء المسلمين بحديث رسول الله، ونحن لا نعتبر الرجل عالماً بالإسلام إلا إذا كان عالماً بالحديث. إن كبار فقهاء المسلمين ملئت كتبهم بالأحاديث الموضوعة والساقطة، وكبار علماء الأصول وكبار علماء التفسير وكبار علماء الصوفية قد

ملأوا كتبهم بأمثال هذه الأحاديث.

الإيمان باليوم الآخر:

ولا يقصد بالإيمان هنا الاقتناع المنطقي كما هو الحال بالنسبة للإيمان بالشهادتين كما شرحنا سابقاً. فالإقتناع المنطقي لا يسمى إيماناً ولا يخرج صاحبه من دائرة الكفر إلى دائرة الإيمان، وإنما نقصد بالإيمان أن نقدر الجنة والنار حق قدرهما كما هو الأمر بالنسبة للإيمان بالله. وبعدم وضوح هذه النقطة عند المسلمين المتأخرين لم يكن للإيمان باليوم الآخر بصورته الموجودة أى أثر على سلوك الناس، لأن الموجود ليس إيماناً وإنما هو اقتناع، ولو استشعرت حقيقة أننا مبعوثون بعد الموت وهو حق لا يشك فيه إنسان فيكون المصير إما جنة أبداً وإما ناراً أبداً، وأيقنا بحقيقة النار وحقيقة الجنة فإن من المستحيل أن نسلك الطريق الذى يؤدي إلى النار. ولقد كنت أضرب لإخواني مثلاً يقرب الأمر إليهم: لو أن شخصاً حكم عليه بالأشغال الشاقة وعلم أن السجن به أنواع من التعذيب الرهيب من الضرب المبرح وتشريح اللحم بأمشاط الحديد والكى بالنار فى الأماكن الحساسة ويأكل السجين جزءاً من لحمه كما يضطر إلى شرب البول أو أكل الغائط وغير ذلك من وسائل التعذيب، ثم عرض عليه أن يخرج من السجن وأن يصبح ملكاً يتمتع بكل طيب فى الدنيا مقابل شئء يؤديه فما موقف هذا الرجل؟ لا شك أنه مستعد أن يدفع ملك الدنيا كلها ليس من أجل أن يصبح ملكاً. وإنما من أجل أن يخلص نفسه من العذاب فقط. فإذا وقف هذا الرجل موقف اللامبالاة تجاه تخليص نفسه فمعنى ذلك أنه غير مؤمن بحقيقة التعذيب فى السجن أو غير مؤمن بحكم المحكمة أصلاً. وهذا هو واقع غالب المتدينين اليوم إذ أنهم فى موقف اللامبالاة أنه لا يوجد فى الحياة أى عمل يضمن به صاحبه الجنة والخلاص من النار إلا عمل واحد وهو الشهادة فى سبيل الله. وهذا واضح من قول رسول الله (ﷺ): (والله لا يدخل الجنة أحد بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته).

أما الشهادة ففيها من الآيات والأحاديث ما لا يحصى. فإذا أيقن المسلم ذلك فإن من البديهيات أن الشهادة تصبح أهم أمنية يسعى إليها بل هي الأمل الوحيد في الحياة لأنها الوسيلة المضمونة الوحيدة التي تخلصه من النار وتدخله أعلى مراتب الجنة. والذي يهرب من الشهادة لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون مؤمناً بالمعنى الذي أشرت إليه حين ضربت المثل بالسجن والتعذيب فيه، والفرق بين جيل الصحابة والأجيال المتدنية الحالية يظهر واضحاً في هذه القضية ولا يحتاج لضرب الأمثلة من حرص الصحابة على الشهادة (ركضاً إلى الله بغير زاد)، وتوضيح هذه النقطة من الإيمان باليوم الآخر هي التي يجب أن تتركز عليها التربية الإسلامية، لأن مدار تعاليم الإسلام هو عن التهريب والترغيب و(خَوْفاً وَطَمَعاً) ((١٦)) [السجدة]. ولكن حين ننجح في غرس عقيدة الإيمان باليوم الآخر يومها ننجح في حرص كل فرد على تنفيذ الأوامر واجتناب النواهي دون حاجة إلى إرهاب أنفسنا في الحث على التفاصيل.

الإيمان بالقدر:

لقد كان الإيمان بالقدر خيره وشره من الله سبحانه وتعالى سبباً في عز المسلمين في الصدر الأول. ثم أصبحت هذه العقيدة سبباً في ذلهم وتأخرهم، وانحطاطهم في العصور المتأخرة. كان الصدر الأول من المسلمين يعتقدون أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، وإن اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، كانوا يؤمنوا بقوله تعالى: (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا) ((٥١)) [التوبة] كانوا يؤمنون بأن الإنسان يموت في لحظة معينة (لَا يَسْتَأْذِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) ((٣٤)) [الأعراف]، وفقاً لهذه العقيدة كانوا يتصرفون بشجاعة نادرة لا تعرف الخوف، ومم يخاف ولا أحد يستطيع أن يضره، ولماذا يهرب الموت وهو لن يموت إلا في ساعته؟

ولهذا كان الخوف من العمل لإعلاء كلمة الله دليل عدم الإيمان: (فَلَا تَخْشَوُا

النَّاسَ وَاخْشَوْنَ (٤٤)) [المائدة].

(قَلَّا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)) [آل عمران]. ثم تحول هذا الفهم بعد العصور الثلاثة الأولى على جدل فلسفى حول الجبر والاختيار وهل الإنسان مسير أم مخير، ونحن نرفض هذا الجدل البيزنطى الذى قسم المسلمين إلى فرق وشيع، لأن هذا الكلام لا يبنى عليه عمل فنحن فى كلتا الحالتين مأمورون بتنفيذ أوامر الله، "كل ميسر لما خلق له"، بعد أن انتهى الجدل فى عصور الظلمات تحولت العقيدة إلى التواكل الذمىم والانسحاب من الحياة وبدأ كل مقعد يضع اللوم على الله: (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣)) [الإسراء] فإذا شرحت للناس حالة الفساد قالوا هذه إرادة ربنا وإذا طلبت منهم العمل للتغيير قالوا إذا أراد ربنا يغير الحال. وتحولت عزيمة العمل إلى أدعية لا أكثر. وإن معظم المتدينين اليوم كافرون عملياً بالقدر، إذ لو كانوا يؤمنون به حقاً لشمروا عن ساعد الجد لتغيير المنكر غير مبالين بالسجن وقطع الأرزاق لأنه لا أحد يستطيع أن يضرهم بما لم يكتب عليهم بل ولم يبالوا بالإعدام لأنه: (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا (١٤٥)) [آل عمران]، والذى يتردد فى ذلك كافر بالقدر مهما فلسف القضية، وحاول بالحجج المنطقية الفارغة، ولا دعوة للإسلام إلا بغرس هذه العقيدة فى قلوب الفئة التى ستغير.

هذه هى إذن أصول العقيدة الإسلامية... إذن فأصول الإيمان هى:

• الإيمان بالله: خالق الكون ومدبره وواضع المنهاج الذى يجب أن تسير عليه البشرية.

• الإيمان بالملائكة: وبواسطتهم أوحى الله إلى أنبيائه شرائعه وكتبه، وكان آخر هؤلاء الأنبياء محمد فهو خاتم الأنبياء الذى نسخت شريعته جميع الشرائع، وفى الركن الثانى إذن الإيمان بمحمد وهاتان العقيدتان هما ما يعبر عنهما فى الشهادتين: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وإذا حولناهما إلى ترجمة عملية كانت تنفيذاً للكتاب والسنة.

• الإيمان بالقدر: وهو الذى يعطينا الشحنة الدافقة التى تدفعنا إلى التنفيذ دون المبالاة بالمخاطر.

وهكذا يظهر أن مدار العقيدة الإسلامية إذاً على الشهادتين: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وقد ضل كثير من المسلمين فى مختلف العصور القديمة والحديثة معتمدين فى ذلك على ظواهر بعض الأحاديث الصحيحة مثل: (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة) وأمثالها، وبذلك أهملوا شأن العمل نهائياً ولم يحكم بكفر كثير ممن شك بكفرهم، إذ ليس المقصود بمثل هذه الأحاديث مجرد القول، وهذه بديهية لا يختلف عليها اثنان. وإلا فلو أن ملحداً قرأ كتاباً فيه لفظ الشهادتين وقرأها لأعتبر مؤمناً، وهذا ما لا يقوله مسلم إذ ليس المقصود مجرد القول، ولو كان المقصود مجرد القول لكان هذا الملحد مؤمناً لأنه قال هذه الكلمة، كما أنه ليس المقصود مجرد الاعتقاد، فإن "هرقل" كما بينت سابقاً كان معتقداً أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله (ﷺ)، وكذلك يهود الحجاز فى زمن الرسول (ﷺ)، بل إن من أهل مكة من كان مؤمناً بأن محمداً رسول الله: (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) ((٣٣)) [الأنعام].

الحكم:

إن الحكم القائم اليوم فى جميع بلاد الإسلام هو حكم كافر فلا شك فى ذلك، والمجتمعات فى هذه البلاد كلها مجتمعات جاهلية. أما الحكم فأدلتنا على كفره لا حصر لها فى الكتاب والسنة منها: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) ((٦٥)) [النساء]، ومنها: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضُلَالاً مُبِيناً) ((٣٦)) [الأحزاب].

إذا ثبت أن هذه الحكومات كافرة وأن هذه المجتمعات جاهلية فهل كل فرد فيها كافر؟

الإجابة قطعاً لا. إنما الكافر من هؤلاء من آمن بأن هذه الحكومات على حق

وأن الإسلام باطل، أو ينبغي أن يقتصر على قضايا العبادة أو كان لا مبالياً سواء جاء الإسلام أو لم يأت، أو كان ناقماً على هذه الحكومات لكنه يرى الإصلاح بطريقة أخرى غير طريقة الإسلام، ويكون مؤمناً من هؤلاء من آمن بأن الإسلام هو الحق وأن هذه الحكومات كافرة ويعمل على تغييرها لتكون إسلامية سرّاً أو علناً. من رضى وتابع فهو كافر ومن كره وعمل على التغيير فهو المؤمن، يستوى فى ذلك أكبر رأس مع أقل فرد، وعلى هذا يجوز للمسلم أن يكون موظفاً أو ضابطاً أو وزيراً أو حتى رئيساً للدولة فى هذه الدولة الكافرة، ومع ذلك يكون مؤمناً كامل الإيمان إذا كان واحداً من ثلاثة أشخاص:

١- إذا كان واضحاً فى عقيدته مصرحاً بأنه يعمل لإقامة الدولة الإسلامية، وفى الدولة التى تسير على النظام الديمقراطى، إذا تكونت جماعة إسلامية أو حزب إسلامى، جاز له المساهمة صراحة بالانتخابات ودخول البرلمان والمشاركة فى الوزارات إذا كان صريحاً بأن يسعى عن هذا الطريق إلى السلطة وتحويل الدولة إلى دولة إسلامية.

٢- إذا كان العلى غير ممكن يجوز للشخص أن يدخل فى مختلف اختصاصات الدولة بأمر من الجماعة الإسلامية، ويستغل منصبه لمساعدة هذه الجماعة للحصول على السلطة أو للتخفيف عنها فى حالة المحنة، أو لقيادتها بأى طريق. ولا مانع أن يصبح وزيراً حتى مع حكم طاغية إذا كان بهذه النية.

٣- إذا لم يكن فى أى جماعة إسلامية لعدم اقتناعه بأى جماعة من الجماعات التى اتصلت به ولكنه مؤمن بكل المبادئ التى ذكرناها، وقد وطد العزم على أن ينضم إلى الجماعة الإسلامية الحقبة حين يجدها ويستغل منصبه فى إفادة الإسلام والمسلمين.

والجهاد لتغيير هذه الحكومات وإقامة الدولة الإسلامية فرض عين على كل مسلم ومسلمة لأن الجهاد ماض إلى يوم القيامة.

الأحزاب والجمعيات والمبادئ العقائدية:

كل من اشترك في حزب عقائدى فهو كافر لا شك في كفره، وهذه الأحزاب مثل الأحزاب الشيوعية أو حزب البعث العربى الاشتراكى أو حركة القوميين العرب أو الحزب القومى السورى أو الاتحاد الاشتراكى العربى وأمثالها، ذلك أن هذه الأحزاب لها عقائد ومناهج مخالفة لعقائد ومناهج الإسلام، فمن آمن بها دل على أنه يفضلها على عقائد ومناهج الإسلام وهذا كفر، والجهل هنا لا يفيد صاحبه لأن الجهل بعد انتشار الإسلام ليس عذراً. ومثل الأحزاب، الجمعيات العقائدية، مثل الجمعيات الماسونية أو الليونز أو الروتارى أو غيرها من الجمعيات العالمية ذات الأهداف السرية، لأن هذه الجمعيات أيضاً لها مناهج وعقائد مخالفة للإسلام، حكمها فى ذلك كحكم الأحزاب كما سبق. وينطبق هذا الحكم على من اعتقد فلسفة مخالفة للإسلام مثل الفلسفة المادية أو الوجودية أو البرجماتية وغيرها. وكذلك من اعتقد مبدأ سياسياً مخالفاً للإسلام كالديمقراطية أو الرأسمالية والاشتراكية والوطنية والقومية الأممية وغيرها. فكل من اعتقد هذه الفلسفات أو المبادئ أو مثيلاً لها فهو كافر.

موالاة الدولة والأحزاب الكافرة:

لقد أصبح واضحاً الآن أن هناك حكومات وأحزاباً وجماعات كافرة مقابلها جماعات تعمل لإقامة الدولة الإسلامية، هناك إذن حزب الشيطان وحزب الله، فكل من والى الحكومات الكافرة والأحزاب والجماعات الكافرة ضد الجماعات الإسلامية فهو كافر، لأنه ناصر الكفر على الإيمان، وإننا نوضح هنا بقراءة جميع الآيات التى اشتملت على لفظ الموالاة ومشتقاتها فى القرآن الكريم وسنجد الحكم هنا واضحاً أن الحكومة التى تحارب وتتعقب وتسجن وتعدم أعضاء الجماعات الإسلامية لا شك كافرة، لأنها تحارب الحكم بما أنزل الله، وكل من ينفذ أوامرها فى ذلك عن طواعية ورضا دون إنكار فهو كافر، سواء كان مخبراً أو شرطياً أو ضابطاً أو محققاً أو قاضياً أو صحفياً يؤيد إجراءات الحكومة ويشوه سمعة

المسلمين، أو غير هؤلاء مما يؤيدها فى إجراءاتها بأى نوع من أنواع التأييد.
وأقول هنا إن هؤلاء الزعماء قد يكونون متدينين بالمعنى التقليدى؛ يصومون
ويصلون ويقرأون القرآن بخشوع لكنهم كفار لأنهم آمنوا بجزء من الإسلام وكفروا
بباقى أجزائه.

القوانين:

كل القوانين المخالفة للإسلام فى الدولة فهى قوانين كفر، وكل من أعدها أو
ساهم فى إعدادها أو جعلها تشريعات ملزمة، وكل من طبقها دون اعتراض عليها
أو إنكارها فهو كافر، وعلى هذا فإن كل أعضاء اللجنة من المستشارين الذين
وضعوا هذه التشريعات، وكل أعضاء البرلمان الذين صدقوا وكل مجلس الوزراء
الذى قدمها والرئيس الذى وقع عليها، والقضاة والنيابة ومحقق الشرطة والمباحث
الذين حققوا بموجبها فهم كفار، وكل فرد من أفراد الشعب رضى بها أو لم ينكرها،
أو وقف موقف اللامبالاة منها فهو كافر، لأن كل هؤلاء قد فضلوا شريعة البشر
على شريعة الله وهذا كفر لأنهم اتخذوا آلهة غير الله وحكموا بغير ما أنزل الله.
الاعتزاز بتراث الكفر:

ولقد جاء الإسلام للقضاء على الكفر والجاهلية، فمن اعتز بأى مظهر من
مظاهر الجاهلية هذه والكفر هذا فهو كافر، وحين اعتنق الناس مبادئ الوطنية
والقومية بدأوا يحبون هذا التراث الجاهلى الكافر ويعترفون به. فالوطنيون فى
مصر أحياوا تراث الفراعنة واعتزوا به ورفعوه على الإسلام وهذا كفر، والقوميون
أحياوا تراث الجاهلية العربية، واعتزوا به، بل منهم من سمى ابنه لهب حتى يناديه
الناس أبو لهب لعنه الله، وأمثال هؤلاء قد يعتزون بالإسلام أيضاً ولكن كتراث
وليس كدين ومنهج وشريعة، ولا يفرقون بين الاعتزاز بمحمد مثلاً وبين عنترة بن
شداد الكافر باعتبار أن كلا منهما عربى. وقد أدى هذا بكل شعب من الشعوب
إلى الاعتزاز بتراثهم الكافر. ومن هذا التراث ما حارب الإسلام، وكل هذا كفر
والعياذ بالله لأن الاعتزاز بالكفر كفر (دعوها فإنها منتنة) جزء من حيث صحيح.

حصر الدين بالعبادة:

وكلمة العبادة من المصطلحات التي حرفت عن معناها الأصلي الإسلامى واستبدلت بمعناها النصرانى فى نظر الناس، وأصبحت مقصورة على صلة العبد بربه وتشمل الصلاة والصيام والزكاة والحج والذكر ولا تشمل التشريع، ولا صلة الإنسان بالإنسان، أو صلة الإنسان بالدولة، أو صلة الدولة بالدولة الأخرى، وهذا المفهوم لكلمة العبادة خطأ من وجهة النظر الإسلامية إذ أن معناها يشمل تنفيذ كل أوامر الله فى الكتاب والسنة.

يرفعون شعار (الدين لله والوطن للجميع) وهذا الشعار من رفعه فهو كافر لأن الدين والوطن وما على الوطن لله رب العالمين.

طقوس الشرك الجديد:

فى كل الحكومات اليوم طقوس تعيد إلى الأذهان طقوس عبادة الأصنام، ومن هذه الطقوس:

(أ) تحية العلم: حيث يقوم أفراد الجيش أو الشرطة أو طلاب المدارس أو الفرق الرياضية بأداء التحية العسكرية لقطعة قماش تسمى علم الدولة، ويصبح العلم فى هذه الحالة كأنه صنم تجرى له العبادة بهذه الكيفية.

(ب) السلام الجمهورى: أو الملكى أو الأميرى حيث يكون لكل دولة فرقة موسيقية معينة، إذا عزفت كان على رئيس الدولة والمستمعين والضباط الحاضرين والجنود أن يؤدوا التحية كل بأسلوب خاص.

(ج) تحية قبر الجندى المجهول: ولذلك طقوس معلومة تؤدى فى أوقات معلومة، ومن هذا القبيل حيث يزور رئيس دولة أخرى، فإنه قد يزور قبر مؤسس هذه الدولة أو قبر أحد زعمائها، وقد يكون هذا من أعدى أعداء الإسلام فيؤدى أمام القبر أيضا طقوسا معينة. وهناك أنواع كثيرة مختلفة من الشرك.

والاشتراكية مثل آخر للكفر فالإسلام ينص على أن المال مال الله والناس مستخلفون فيه فليس لهم التصرف فيه إلا وفق ما أمر الله لأنه هو مال الله، بينما

ترى الاشتراكية أن المال مال المجتمع والدولة (التي يسيرها الحزب، أو الديكتاتور الحاكم أو الحكومة... إلخ) هي صاحبة الحرية في التصرف في المال وليس الأفراد. والأصل ألا يملك الأفراد في المستقبل البعيد. في حين ترى الرأسمالية أن المال ملك الأفراد يتصرفون فيه وفق ما يشاؤون ولا حق لأحد حتى الدولة أن تتدخل في هذه الحرية (أصل المبدأ هكذا)، فكل من الاشتراكية والرأسمالية إذا تناقض الإسلام في أصلها ولذلك ستختلف الفروع في ذلك حتماً.

مثال آخر: فقد نشأت القومية في المشرق العربي معادية للإسلام، ففي النصف الثاني من القرن الماضي كانت الدولة العثمانية تمثل في نظر الناس والعالم (الدولة الإسلامية). وقد تعاون الاستعمار الغربي مع التبشير الصليبي (الماسونية) على تحطيم الدولة العثمانية، فرأوا في أحسن وسيلة هي تفتيت وحدة هذه الدولة وأوعزوا إلى الماسونية تبني الحركة الطورانية (القومية التركية) فقام بعض الضباط والشبان الأتراك الذين درسوا في الغرب وتشيعوا بالنفاق والثقافات الغربية وكانت نزعة التدين عندهم غير حقيقية بتشكيل حزب الاتحاد التركي الذي قام بانقلاب ضد السلطان عبد الحميد، وبدأ يحكم الشعوب الإسلامية بطريقة جديدة غير الطريقة الإسلامية، تعتمد على استعمار الأتراك للشعوب الأخرى واتباع سياسة التتريك المشهورة. في الوقت نفسه، أوعزوا إلى النصارى في بلاد العرب تبني حركة القومية العربية، وأنشئت الجامعة الأمريكية في بيروت التي طرحت زعماء المنطقة فيما بعد لغرض إحياء هذه الجاهلية، ولهذا لا نستغرب إن كان معظم زعماء القومية العربية في هذه المنطقة من النصارى من آل اليازجي والبستاني وزرين ثم كان كل رؤساء الأحزاب القومية من النصارى مثل ميشيل عفلق وجورج حبش وأنطون سعادة، وكذلك كان الصف الثاني من قيادات هذه الأحزاب، وقد عقد أول مؤتمر للأحزاب القومية سنة ١٩١٣، في باريس، وتبني الاستعمار الإنجليزي والفرنسي هذه الحركات وصرف عليها من الأموال مما أصبح معروفاً في كل كتب التاريخ. وحين قامت أول ثورة للقومية العربية للشريف حسين (جد

الملك حسين ملك الأردن حالياً) كان القائد الحقيقى لها هو لورانس الإنجليزى المشهور فى التاريخ، وكانت كل أسلحتها وأموالها من إنجلترا وأصبح زعماء هذه الثورة هم زعماء العراق والأردن وسوريا فيما بعد، وقد كان خط هذه القومية علمانياً واضحاً لا لبس فيه.

لقد ركز الإسلام فى بداية الدعوة على الإيمان (العقيدة) فى كل السور المكية، فلما تركز الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر والقدر لم يكن هناك حاجة للاقتناع بصلاحيّة هذه التشريعات وعلينا إذا أردنا النجاح أن نركز معانى الإيمان قبل كل شىء، فإذا نجحنا فى ذلك سهل كل شىء آخر أما السير بالعكس فلن يؤدى إلى نتيجة.

قد يوجد عندنا مفكرون مسلمون يصلحون للجدل والنقاش، وقد يكون لدينا رأى سلبى غير إيجابى ليست عنده روح الجهاد والاستشهاد والجنة، وإنما نحن نريد مؤمنين يقودهم علماء مؤمنون ولا نريد علماء ينقصهم الإيمان ويرتبطون بالدنيا ومغرياتّها.

والحمد لله رب العالمين.

بيان صالح سرية

رئيس الجمهورية

بسم الله الرحمن الرحيم (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)) (آل عمران) .. "أيها الشعب الحبيب أيتها الأمة المجاهدة الصابرة لقد نجحنا والحمد لله صباح اليوم فى السيطرة على الحكم واعتقال جميع المسؤولين عن النظام السابق وبدء عهد جديد ونحن لا نكيل الوعود لكم ولكننا نعلن أن النظام الجديد سيقوم على المبادئ التالية:

- ١- ستقوم مبادئ الدولة على أسس جديدة لا لبس فيها ولا تناقض.
- ٢- سوف لا تكون الثورة مقصورة على الجوانب السياسية والعسكرية فقط وإنما تشمل جميع نواحي الحياة الاقتصادية والثقافية والتعليمية والوظيفية والاجتماعية وغيرها.
- ٣- سوف تهتم الدولة اهتماماً خاصاً بالإيمان والأخلاق والفضيلة.
- ٤- سوف تهتم الدولة فى كل سياستها بمصلحة الأمة أولاً ثم المواثيق والاتفاقات.
- ٥- ستعمل الدولة على تحرير كل الأجزاء السليبية من وطننا وعلى مساعدة المحرومين والمظلومين فى كل مكان وستقاوم الاستعمار بجميع أشكاله فى العالم.
- ٦- ستعمل الدولة جاهدة على قيام الوحدة بكل الطرق دون الاكتفاء بالادعاءات اللفظية وستقوم بكل جهدها لدفع التنمية من أجل رفع مستوى السكان.
- ٧- سوف تطلق الحرية للمجتمع ليقول كل ما يريد ونقد كل أجهزة الدولة عدا الكذب والافتراء والبهتان.

- ٨- سنعيد تقييم كل المبادئ والأشخاص والوظائف.
٩- سوف تحمي الدولة كل مبادئ العدل المشهورة في تراثنا.
والله الموفق ،،،

صالح سرية

رئيس جمهورية مصر العربية^(*)

(*) ونلاحظ على البرنامج الذى أعده صالح سرية أنه لم يورد حرفاً عن الإسلام ولا عن الحكومة الإسلامية ولا حتى عن تطبيق الشريعة.

شكرى مصطفى
الجماعة المسلمة (التكفير والهجرة)

فى عام ١٩٦٥ وفىما كانت حملات القبض قد اشتدت فى إطار قضية الأستاذ سيد قطب قبض على شاب صغير السن (طالب فى زراعة أسيوط) هو شكرى مصطفى متهماً بالانضمام لجماعة الإخوان.

هناك فى سجن طرة وفى إطار سجناء الجماعة المشحونين بالعداء لحكم عبد الناصر، ولقسوة سجانيه عاش شكرى ست سنوات.

وكان الإخوان فى ذلك الحين منقسمين على أنفسهم سياسياً. قسم يرى أن فترة السجن قد استطالت وأنه لا بأس من إعلان تأييد عبد الناصر وسياسته كمنفذ للخروج من سجن لا نهاية معلومة له. وقسم ظل ملتزماً بالعداء السياسى لعبد الناصر. ونبت من الخلاف السياسى اختلاف فكرى، تصاعد حتى بلغ التكفير.

يقول الأستاذ عمر التلمسانى: "عندما كنا فى المعتقلات كان عذاب زبانية عبد الناصر على أشد صورة ووحشية، وتصور بعض المعذبين أن ما وقع عليهم لا يمكن أن يصدر من مسلم فى قلبه ذرة من إيمان.. وفى غمار هذا الهول نبتت فكرة التكفير عند بعض الشباب.. ورسخت فى أذهانهم وآمنوا بها فى اقتناع غريب"^(١).

ومن بين هؤلاء الشباب كان شكرى مصطفى، كان يصيح فى وجه سجناء الإخوان وخاصة دعاة تأييد عبد الناصر منهم: "من العار على المسلمين أن يمسك بهم كالدجاج دون مقاومة، كنتم تكذبون على أنفسكم وعلى الناس. عندما كنتم تقولون: الموت فى سبيل الله أسمى أمانينا"^(٢).

وكان شكرى مصطفى يدعو للجهاد ضد الكفار حتى فى داخل السجون "فهم كفره والواجب قتالهم وجهادهم، والأصل فى حياة المسلم هو طلب الشهادة فإن حصل عليها فى أى موقع فهو الفائز... ويجب على المسلمين أن يبحثوا عن الشهادة فى سبيل الله، ولو بين طرق العنابر وظلمة الزنازين، وعندما كان يحاول

البعض تهدئته كان يصيح: لو حسن تصوركم علمتم أن الشهادة هي الباب الصعب في العالم الرحب»^(٣).

وكثراً ما كان يقف في عنابر مزرعة طرة صارخاً بشعر أعده رداً على من يناقشونه داعياً إياهم بالهجرة إلى الله:

اترك شلالة من ضلوا وغـيهم
واتبع نبيك واستوثق على رسل
أعدت شـاردها لله فاجتمعت
من بعد مختلف الأهواء والنحل
أو يصرخ فيهم مندداً ومعلنا مفارقتهم:

دياركمو قومى أثارت فؤادينا
وذكراكمو قومى أدمت جراحينا
وقفت بأرض ما عليها علاقة
من الأهل إلا ذكريات خواليها
فيما ليتنى عنها بعيد مسافة
ويا ليت تلك الأرض ليست بلادينا^(٤)

وفي الغرفة رقم ٢ فى سجن مزرعة طرة تمترس شكرى مصطفى ومجموعة من الشباب منهم "عبد الله السماوى، والمرحوم أحمد إسماعيل ومجموعة من الشباب قدر لهم أن يكونوا زعماء بعد ذلك"^(٥). وكانت مجموعته تضطرم بالثورة العارمة.

فشكرى يريد أن يعلنها حرباً على العالم أجمع، ومن ليس معه فهو من الكافرين، وعنبره هو سفينة نوح والناجى هو من ركب فيها. ومن ليس معه فهو عليه، كانت نفسه تضطرم بالغضب والرغبة فى الانتقام ويعلن هذا فى كل مكان ولكل شخص...

وصار الغضب يغلى فى صدره حتى جافاه النوم فهو يقطع الليل جيئةً وذهاباً

فى الممر الطويل صامتاً متأملاً^(٦).

وبعد النكسة، وعندما تراخت قبضة العنف فى السجون الناصرية، أبلغ المعتقلون فى سجن مزرعة طرة أن من يكتب تظلاً من أمر الاعتقال سوف يفرج عنه (وبالطبع كان من المفترض أو من الضرورى أن يؤكد المتظلم على ولاءه للرئيس عبد الناصر)، ويقول أحمد رائف (مؤلف البوابة السوداء): "وقلت له يا شكرى: قائد المعتقل أقسم بخروج كل من يكتب تظلاً فما قولك؟ فأجابنى رحمه الله ساخراً:

إنهم قالوا، وخير القول قول العارفين

مخطئ من ظن يوماً أن للشعلب ديناً^(٧)

والحقيقة أن شكرى مصطفى كان يردد رأيه فى شجاعة ودون خوف وحتى فى مواجهة قيادات السجن، و"بعد هزيمة يونيو زار حسن طلعت (مدير البوليس السياسى) معتقل مزرعة طرة، وفيما كان يلاين السجناء قام إليه شكرى مصطفى ووجه إليه كلاماً قاسياً كطلقات نارية من مدفع أوتوماتيكى.. أنت كافر ورئيس جمهوريتك كافر، ولئن أحيانى الله وخرجت من المعتقل لأقاتلنكم قتالاً شديداً، ولئن مت فسوف يأتى بعدنا من يقضى عليكم ويزيل دولتكم، ولئن هربتم من عقابنا فى الدنيا فلن ينج أحد منكم يوم القيامة"^(٨). وإذا كان حسن طلعت قد أبدى تراجعاً قائلاً: "لا شك أنكم فئة من المؤمنين المظلومين، وأنتم تقرأون القرآن وتعرفون أجر الصابر على البلاء وأن هذا يكفر الذنوب"^(٩).

إلا أن قيادات الإخوان كانت تخشى من أن تؤدى هذه الاستفزازات أو أن تتطور لما يؤدى إلى الصدامات التى ذاق السجناء السياسيون مرارتها عديداً من المرات. ولهذا ظلوا يضغطون على هذه المجموعة من الشباب الثائرين ويحاصرونهم.. ونقرأ ما رواه واحد من أتباعه: "كان الشيخ شكرى منبواً فى معتقل طرة السياسى من أكثر الإخوان، لا لدمامة خلقه، فقد خلقه الله فأحسن خلقه، ولا لسوء خلق فهو لم يكن يثور إلا إذا ثار الحق، وما عاب هذا الأسلوب حينئذ غير

عصبية فى الطبع حالت بينه وبين الالتقاء مع الآخرين من رجال الحركة الإسلامية عند نقط اتفاق" (١٠).

لكنه كان يستخف بخوف "الإخوان" من التصادم مع حراس السجن، ويندد بهم قائلاً:

إن التلى حرسـت بأبـطـال الـوـغى
باتت تصـانـع سـفـلة الحـراس

وزادت حدة التصادمات داخل صفوف الإخوان فى السجن. المعارضون لعبد الناصر، يحاصرون ويهاجمون المؤيدين له. وبرز تياران واضحان: معارضون ومؤيدون. ثم انقسم المعارضون كما رأينا إلى قائلين بالتكفير ورافضين لذلك. وفى أتون هذا اللهب من النقاشات التى اتخذت أحياناً طابعاً عدائياً قاسياً (كما حدث فى سجن جناح بالواحاح) اشتعل شكرى مصطفى بمواقفه المتشددة محدثاً صدامات ودويًا مرتفعًا، الأمر الذى أدى بإدارة السجن إلى ترحيله بين عدة سجون وكانت فرصة سانحة كى ينشر أفكاره.

وطوال السنوات الست التى قضاها فى السجن قرأ شكرى كثيراً من كتب الفقه واللغة والتفسير، وتلقى الكثير على يدى "القطبيين" الذين أفلتوا من أحكام الإعدام فى قضية سيد قطب وحكم عليهم بالسجن. ودون وهو فى السجن عديداً من الكراسات كانت الأساس لأفكار جماعته. واستمر شكرى مصطفى فى السجن حتى وفاة جمال عبد الناصر.

ويقول اللواء فؤاد علام: "يوم وفاة عبد الناصر لم يكن فى السجن من أعضاء الجماعات الدينية سوى ١١٨ فقط. ثمانون من قيادات الإخوان المتشددین أمثال عمر التلمسانى ومحمد قطب ومصطفى مشهور. وطلب السادات ملفاتهم وقرر الإفراج عنهم فى صفقة سياسية من طرف واحد. وذلك رغم تحذيرات الأجهزة الأمنية من خطورة هؤلاء وكانوا جميعاً مصنفين "خطر جداً" لكنها دراما التاريخ

التي جعلته يوقع بيده قرار إعدامه^(١١).

أفرج عنهم جميعاً.. وتكون المفارقة.. توجه عمر التلمساني وعدد من إخوانه فور الإفراج عنهم إلى قصر عابدين ليدونوا في سجل التشريفات شكرهم للرئيس^(١٢). بينما "اتجه شكرى مصطفى إلى أسبوط وبدأ خطة الانتشار في القلب والأطراف. "فقد أخذ في تنفيذ خطة لقيام الدولة الإسلامية بعد أن تخرج جيوشه من شعاب اليمن لتطهر العالم من الفساد والكفر. وانتشر التنظيم في عدة محافظات أبرزها المنيا وأسيوط، وتدريبوا على الأعمال العسكرية في منطقة جبلية بالبر الغربى بمحافظة المنيا. كنا في ذلك الوقت نرصد الخيوط ولكننا بلا غطاء سياسى وأبلغنا أحد الخفراء السريين أنهم حاولوا قتله أثناء مروره بالمصادفة في المنطقة. ولكنه نجح في الإفلات. ورؤى ضبط المجموعة بالكامل وكانت أول قضية للتنظيم التكفير والهجرة^(١٣).

لكن الأدلة كانت ضعيفة جداً ولم تزد عن حيازة أسلحة وذخائر بدون ترخيص، ولم تتكشف في التحقيقات ما يقلل من غلواء التهاون مع هذه التيارات، فقد كان السادات مصمماً على المضى في مهادنته معهم حتى لو كانت من طرف واحد. وصدرت أحكام مخففة جداً^(١٤).

وعاد شكرى مصطفى ليمارس نشاطه بحماس شديد مطمئناً إلى أن ظهره غير مكشوف. واستفاد شكرى وأتباعه من مناخ عام مفعم بالتأسلم حرص السادات على دعمه وتمويله فانتشرت المعسكرات الإسلامية التي وصفت بأنها معسكرات "للتدريب الروحي والدينى، وعملت الجماعات الإسلامية على تغيير أنماط الحياة الجامعية، ففرضت وقف المحاضرات والأنشطة الأخرى فى أوقات الصلاة، ومنعت إقامة حفلات موسيقية وأمسيات فنية. واستخدمت أسلوب تقديم الخدمات لجذب المؤيدين بتوزيع كتب دراسية رخيصة وأسهمت فى تدعيم الإسكان الجامعى والعلاج الطبى، وقدمت دعماً للمواصلات ووزعت ملابس رخيصة وقدمت مساعدات مالية مباشرة^(١٥). وكان خلف ذلك كله دعم وتأييد وتمويل من السلطة.

واستفاد شكرى مصطفى من ذلك كله.. وساهم فيه، وحصد منه نفوذاً وأعضاء وأموالاً.

ورغم أن الأمن قد اكتشف الجماعة، وقبض على قياداتها، وقدمهم للمحاكمة، إلا أن الأحكام المخففة قد منحت شكرى مصطفى انطباعاً بأن السلطة تفتح أمامه أبواب النشاط. وتعطيه الفرصة للمزيد من العمل. وكان شكرى على حق تماماً فى ذلك، فانطلق بأقصى جهد ممكن فى بناء تنظيمه، ويقال إن عدد أعضائه قد بلغ خمسة آلاف^(١٦). وسريعاً تشكل تنظيم هرمى قوى.. يمتلك إمكانات لا بأس بها.. عدد من الشقق فى أكثر من مدينة، وعدد من السيارات. وتمويل لا بأس به، قال شكرى مصطفى فى التحقيقات أنه يحصل عليه من تابعيه الذين سافروا للعمل فى البلاد العربية ليتمكنوا من الحصول على دخل مرتفع يرسلون أغلبه لأميهم. كما أن كثيرين من هؤلاء المسافرين تركوا مساكنهم تحت تصرف الأمير.

وقد ارتبطت نشأة التنظيم وأفكاره وعضويته بشخصية مؤسسه، فهناك زملاؤه فى زنازين معتقل مزرعة طرة من أعضاء الإخوان كعبد الرحمن أبو الخير والسماوى وغيرهما وابن أخته ماهر عبد العزيز بكري (النائب الأول للأمير) وابن أخته الآخر هاشم عبد العزيز بكري. وبعض زملاء دراسته فى كلية الزراعة جامعة أسيوط ومنهم صفوت الزينى.

لكن التركيبة العضوية كانت فى أغلبها من شباب صغار طلاب على الأرجح. وقد أجريت دراسة على المتهمين فى قضية اختطاف واغتيال الشيخ الذهبى وعددهم ٤٧ متهماً، فتبين ما يلى:

- متوسط العمر ٢٥ سنة. أصغرهم عمره ١٤ سنة وأكبرهم ٣٩ سنة.
- أغلب المتهمين ترك الدراسة أو العمل وتفرغ للعبادة والدعوة والعمل فى الجماعة إلى درجة أن المحقق مع المتهمين توقف بعد فترة من التحقيقات سأل فيها ٣٢ شخصاً عن سؤال بقية المتهمين عن مهنتهم.

• وفى حدود الاثنين والثلاثين متهماً الذين سئلوا عن مهنتهم كان هناك ١٧ طالباً فى مراحل دراسية مختلفة، ومنهم تلميذ واحد فى الإعدادية. وقد أفصح جميعهم أنهم توقفوا عن الدراسة. والخمسة عشر الآخرين منهم ٣ أتموا دراستهم الجامعية لكنهم لا يعملون. وآخر هو أنور مأمون أحمد قال إنه حاصل على بكالوريوس زراعة ويعمل تاجراً لكنه لم يحدد نوع التجارة. فيما أكد أربعة أنهم تخلوا أو فى سبيلهم للتخلى عن وظائفهم مبررين ذلك بالتفرغ للعبادة مع العمل فى مشروع تجارى صغير (كبيع كتب أو بيع سواك أمام أحد المساجد).

وفى التحقيقات قال المتهم عبد الرحمن يوسف حسين إنه استقال من عمله فى مصلحة الضرائب استعداداً للهجرة إلى المدينة المنورة للتعبء هناك. وقال إنه استقال "لأن زميلاته فى العمل من النساء المتبرجات يسببن له تعباً نفسياً" (١٧).

وقد أقام شكرى مصطفى تنظيمه على أساس فكرة "الهجرة"، ومن لا يستطيع الهجرة بعيداً عن أرض الكفر، يهاجر بنفسه بعيداً عن المجتمع الكافر، فيترك مدرسته أو عمله، ويترك أسرته ويهاجر إلى الجماعة ليقوم مع مجموعة من أعضائها فى واحدة من الشقق العديدة التى شكلت شبكة لا بأس بها لإيواء الأعضاء.. حيث يتم تزويجهم من عضوات فى الجماعة بما حقق ارتباطاً وثيقاً بين العضو والجماعة. وهكذا فإن الجماعة "قد انتزعت أعضائها من وعائهم الاجتماعى ودفعتهم إلى العزلة عن أسرهم وعملهم ومدارسهم فحققت لهم نوعاً من الهجرة. فالمتهم إبراهيم عبد المنعم أبو سنة كان طالباً بكلية الهندسة ووالده أستاذ بكلية الطب جامعة عين شمس ترك منزل الأسرة ليقوم مع الجماعة وترك الدراسة ليبيع السواك أمام أحد المساجد. والمتهم جمال غريب حشيش كان طالباً بكلية التربية جامعة طنطا والده مزارع بسيط ترك الأسرة والدراسة وأقام فى شقة قال فى التحقيق إن الجماعة كانت تدفع له إيجارها. والمتهم صفوت الزينى والده وكيل مدرسة إعدادية وترك الأسرة هو أيضاً. والمتهم عبد الله محمود غزالة وكان أمير مجموعة مصر الجديدة حاصل على دبلوم معهد فنى صناعى. ويعمل بائعاً

متجولاً للكتب الدينية، وقال للمحقق أن ربحه اليومي ما بين جنيه وستين قرشاً. ويلاحظ هنا أن مفاهيم الحياة والعمل والأسرة قد بدأت تتدرج تماماً فى إطار فكر الجماعة^(١٨).

"وكان شكرى مصطفى يدعو أتباعه عند الحاجة إلى العزلة الشعورية يعنى ممكن يبقى موجود فى مجتمع كافر لأنه ضرورة ولكنه ينفصل عنه شعورياً. ولذلك أحياناً حتى أثناء وجوده معنا فى السجن كان يبقى منعزلاً شعورياً، وكان يصلى معنا فى الصف لكن تكبيرته لنفسه، ولا يأتى فعلياً بإمام منا. لكنه يبقى فى الصف درءاً للفتنة"^(١٩).

ويشير أحد الباحثين إلى حقيقة أن كثيراً من أعضاء الجماعة من مواليد الريف أو المدن الصغيرة، وأنهم انضموا إلى الجماعة بعد فترة من انتقالهم إلى المدن الكبيرة كالقاهرة والإسكندرية والمنيا وأسيوط بعد أن حصلوا على الثانوية العامة.. حيث أقاموا إما فى المدن الجامعية التى كانت مركزاً لنشاط التيارات الإسلامية المتصاعد أو فى مناطق فقيرة وعشوائية مع عدد من زملائهم^(٢٠).

وفى مناخ اجتماعى جديد ومتفتح كهذا يستشعر الفتى الصغير القادم من مجتمع قروى مغلق بحالة من الغربة والرفض. ونلاحظ أنه ذات الإحساس الذى تحدث عنه كثيراً الأستاذ حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان، عندما حضر إلى القاهرة ليدرس فى كلية دار العلوم^(٢١).

ونلاحظ توزيعاً جغرافياً لعضوية الجماعة يعزز هذا الرأى. فعضوية الجماعة تركزت فى عدد كبير من المدن الكبيرة التى تتواجد بها جامعات أو معاهد، القاهرة - الإسكندرية - الجيزة - المنيا - أسيوط - المنصورة - دمياط.

ويقول أحد الباحثين إنه "تابع شخصياً حالة أعضاء الجماعة من المنيا فوجد أن أغلبهم يقيم فى حى الجنوب الذى يتكون من عزية جاد السيد وأبو هلال وأرض المولد. حيث تعيش أكثر من خمسمائة أسرة فى حجرات ضيقة وأكواخ إيواء، ويتكدس فى هذا الحى الفقير ما يزيد على مائة وخمسين ألف شخص جميعاً فى

حالة فقر مدقع. وذلك على عكس الحى البحرى (أبو سلطان) والذى تسكن فيه الأسر الراقية والمتوسطة.. والذى لم تأت منه عضوية تذكر إلى صفوف الجماعة والجماعات المماثلة^(٢٢).

ويقول البحث الذى أعده المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية (المرجع السابق) عن نتائج فحص عينة من أعضاء الجماعة "والانطباع المبدئى لدى هيئة البحث التى قامت بإجراء دراسة حالة لبعض المحكوم عليهم من هؤلاء الشبان ملخصه إن هؤلاء شباب مراهق مندفع يغلب على سلوكه الرعونة والانفعال وإنه يمثل شريحة مغلقة ليست لديها رؤية واضحة للقضايا المجتمعية. وإنه من الصعوبة بمكان إجراء حوار مفتوح مع هذه الشريحة"^(٢٣).

إنهم فى أغلبهم فتية مراهقون أرهقهم الفقر والاغتراب واستدرجهم التحالف الشيطانى بين السلطة والإخوان والمناخ الذى يشجعهم على التطرف والمزيد من التطرف.

ولا يمكن لأى بحث أن ينسى أن هذه الجماعة، وهذا الجيل من المتأسلمين قد انطلق فى إطار مجتمع الانفتاح فى السبعينيات وهو المجتمع الذى حاصر الفقراء بمزيد من الإفقار ومنح الأثرياء ثراءً غير محدود.

تقول دراسة أعدها البنك الدولى عن مصر السبعينيات وصدرت عام ١٩٨٠: "أن نسبة الأسر التى تعيش تحت خط الفقر المدقع تبلغ ٤٥% من إجمالى الأسر المصرية، وأن النسبة ترتفع فى الصعيد إلى ٥٢%، حيث تركزت هذه الجماعات أساساً.

وأن نصيب أغنى ٥% من السكان من الدخل القومى قد ارتفع من ٧% إلى ٢٢% بينما انخفض نصيب أفقر ٢٠% من السكان من ١٥% من الدخل القومى إلى ٧%"^(٢٤).

وفى هذا الوقت الذى كان المجتمع يقوم بتهميش دور فئات عديدة ونبذهم ويدفعهم دفعاً إلى "الاغتراب عنه أتى شكرى مصطفى ليحتضن المنتمين إليه،

وليقوم بخلق نواة أو نموذج عملي للمجتمع الذي ينشده، أو لنقل أنه أقام دولة صغيرة على مقياسه ومقاس أفكاره فمنح أعضائه حياة جديدة. وقام لهم بكل ما يحتاجون من زواج وطلاق وسكن وتربية وتعليم (وفق رؤيته هو) وكان قادراً على أن يكون البديل عن مجتمع يلفظهم ولا يعنى بمصائيرهم.

وهكذا وعن رضا تام وبحماس شديد كان أعضاء الجماعة يبائعونه معلنين "نبايعك على السمع والطاعة في المنشط والمكره وفي عسرنا ويسرنا، وعلى أثره علينا، وألا ننازع الأمر أهله، إلا أن نرى كفراً بواحاً لنا فيه من الله برهان" (٢٥)، وكان الأعضاء يقدرونه ويطيعونه ويثبتون دوماً ولأهم له حتى وهم تحت التحقيق.

المتهم مجدى صابر يقول عنه فى التحقيق: "إنه رجل نزيه ومؤمن"، ويقول إسلام محمد عاطف للمحقق: "إن لشكرى مصطفى شخصية متكاملة، فهو صالح وتقى، وطلق اللسان، وله الفضل فى إلهامى مبادئ الجماعة".

أما المتهم صفوت حسن الزينى فيقول فى زهو وهو أمام المحقق إن فكره مستمد من القرآن والسنة والتأمل مع النفس والحوار مع شكرى مصطفى (٢٦).

يقول منتصر الزيات: "وكانت أبحاث شكرى مصطفى وحده هى التى تدرس لأعضاء الجماعة ولا يدرس لهم أى شىء آخر، فهو لا يصمد أمام العلم الصحيح. لذلك عندما كانوا يلتقون بعلماء ليناظروهم، تتهاوى حججه بسرعة، وهنا أصبح منهج رفض التلقى من الآخر. ووضع حاجز حول جماعته، وقال إنه لا يقبل علماء السلطة" (٢٧). بل إن الجماعة كانت تلجأ إلى تصفية المخالفين حتى من داخل التيار الإسلامى، ويقولون لا تجادل، حتى أن الأخ حسن الهالوى ناقش شكرى مصطفى نفسه وبعض كبار أتباعه وأقام عليهم الحجة، وكان قد سجل هذه المناظرات على شرائط كاسيت فذهبوا إلى بيته فى الطالبية وحاولوا قتله. وفعلاً ضربوه ضرباً مبرحاً لولا أن تداركته عناية الله"، وكان الهالوى أحد قادة الحركة الإسلامية فى ذلك الوقت (٢٨).

ويكتب عبد الرحمن أبو الخير فى مقدمة كتابه: "أما بعد فإن الأخ شكرى مصطفى له فى النفس محبة لا يرتقى لمثلها سوى محبة الوالد وشفقته على ولده، وله فى حياتى ذكريات بدأت منذ عام ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠) بمعتقل طرة السياسى فى الحقة الختامية لمحنة الإخوان المسلمين الكبرى" (٢٩).

وكان طبيعياً بعد ذلك أن يمتلك شكرى مصطفى نفوذاً كبيراً جداً على الجماعة. وكان هو الذى يختار أمراء المجموعات فى المحافظات والمدن والأحياء. ويقول الأعضاء المتهمون أمام المحقق ودون غضاضة: "سلطة الأمير واسعة ولا يمكن محاسبته أو مناقشته فى أمر من الأمور التى يقررها"، هكذا قال المتهم عبد السلام مصطفى محمد عيسى. أما المتهم أحمد محمد عرفة فقد قال: "كان معيار الأداء مرتبطاً بمدى القرب أو البعد الشخصى من شكرى مصطفى".

وكان الأمير (شكرى مصطفى) هو المسيطر على مالية الجماعة ومواردها التى كانت تأتى فى أغلبها من أعضاء الجماعة الذين سافروا ليعملوا فى الدول البترولية بأمر من الأمير. وكان يقوم بتوزيع المالية على أمراء المحافظات محدداً بنود الصرف" (٣٠).

وخصص شكرى مصطفى مبالغ مالية من ميزانية الجماعة لمساعدة الأعضاء غير القادرين وخاصة لاحتياجاتهم الطارئة كالزواج. كما أنه كان يقرض بعض أعضاء الجماعة فى حالة حاجتهم للاقتراض بما يوحى أنه كان يمتلك دخلاً كبيراً. فهل أتى ذلك كله من أعضاء يعملون بالخارج؟ هذا مجرد سؤال.

يقول المتهم محمد الأمين عبد الفتاح فى أقواله إن الاعتداء على بعض المنشقين من الجماعة كان بسبب أنهم لم يسددوا ما اقترضوه من أموال الجماعة. وقد عاش الأعضاء ومارسوا حياتهم اليومية فى مجموعات تشارك كل منها فى إحدى شقق الجماعة، بما شكل نوعاً من الهجرة الداخلية، وأسهم فى خلق نسق مشترك من الحياة يختلف بشكل جذرى عن نمط الحياة السائد.

وكنموذج للانغلاق ما أكدته المتهم عبد الفتاح عمر مذكور أمير منطقة إمبابة

أن الجماعة كانت تلزم أعضائها "بعدم الزواج من غير عضوات الجماعة لأننا لا يمكن أن نتأكد من إيمان من هن خارجها" (٣١).

كما أن شكرى مصطفى أقام نمطاً من تنشئة أبناء الأعضاء وفق مبادئ الجماعة كي ترتبط الأسرة بأكملها بالجماعة.

يقول المتهم إسلام محمد عاطف (١٥ سنة) إن والدته منعتة من الذهاب إلى المدرسة، وبدأت في تعليمه الأمور الدينية. كما أن والده وكان يعمل مساعداً في القوات البحرية بالإسكندرية ترك الخدمة بعد انضمامه للجماعة "وهاجر" إلى القاهرة ومعه زوجته وأطفاله الستة. وانضموا جميعاً للجماعة وتتراوح أعمار الأطفال بين ١٥ عاماً وعام ونصف.

ووضع شكرى مصطفى نظاماً صارماً لعقاب المخطئين من الأعضاء والعضوات "وذلك بالضرب على القدمين عدداً محدداً من الضربات". كما جاء في أقوال المتهم عبد الرحمن محمد عبد الرحمن.

كما أن العضو المنشق كان يعتبر مفارقاً للجماعة المسلمة أى مرتداً. وكان تشدد الأمير (شكرى مصطفى) وطغيان شخصيته وعدوانيته على أعضاء الجماعة دافعاً بذاته لانشقاق بعض الأعضاء لكن شكرى قاوم المنشقين بعنف شديد وصل إلى حد محاولة اغتيالهم.

وذلك كما حدث مع المنشق حسن الهلاوى، وأخيه خالد الهلاوى ورفعت أحمد أبو دلال.

ويعترف عبد الله محمود عبد الرحمن أمير مصر الجديدة بأن "المنشقين مرتدون وكفرة ويجب قتلهم" (٣٢).

ويمكن القول إنه كان هناك هدف خفى لهذه العدوانية الشديدة ضد المنشقين وهو إخافة الأعضاء وترويعهم وتحذيرهم من أى خلاف مع الأمير. ويعترف المتهم كمال فراج يحيى بأنه "تلقى تدريبات عسكرية وبدنية وأنه خشى من رفض الاشتراك فيها حتى لا يتهم بالارتداد والكفر" (٣٣).

ولكن هناك سبب أساسى وهو سبب فكرى.. فشكرى مصطفى يقول إن جماعته هى الجماعة المسلمة، وأن مفارقتها مفارق للإسلام، ومن ثم فمن الطبيعى، بل من الضرورى أن يعتبر المنشق عن الجماعة مرتدًا.

ولكى يكتمل الشكل الحاسم ويكتمل الاستعداد أقام شكرى مصطفى معسكرات للتدريب البدنى والعسكرى واستخدام الأسلحة. وقد اعترف المتهم كمال فراج يحيى بأنه وغيره من الأعضاء تدربوا على الأسلحة النارية^(٣٤).

وقياساً على رأيهم فى أنهم وحدهم "الجماعة المسلمة" فقد اعتبروا كما قلنا من قبل أن مفارقتهم مفارق للإسلام ولهذا - وكما يروى عبد الرحمن أبو الخير فإن الأخ "أبو مصعب" رفض طلبه بأن يصليا صلاة الغائب على روح كل من صالح سرية وكارم الأناضولى عقب إعدامهما فى قضية الفنية العسكرية.. ودار بينهما الحوار التالى:

- عبد الرحمن أبو الخير: ألا يجوز أن نعترف بالأمر الواقع وهو تعدد الجماعات القائمة على التصور الصحيح؟

- أبو مصعب: لا يجوز أن تتعدد الجماعة المسلمة.

- عبد الرحمن أبو الخير: هناك جماعات أخرى أسبق منا فى النشأة مثل الجماعات الإسلامية فى شبه القارة الهندية. أو قد ينشأ بلاغ آخر فى أى قارة أخرى قدراً، على نفس التصور الذى أنزل الله على نبيه ويحول بيننا وبينهم افتقادنا لإمكانية الاتصال وأدواته.

- أبو مصعب: ولو.. لا يجوز أن تتعدد الجماعة المسلمة، فالحق واحد، والجماعة واحدة^(٣٥).

ولعله مما يكمل لنا - وإلى حد ما - صورة شكرى مصطفى أن نعود إلى ما قاله منتصر الزيات: "كان شعره طويلاً تأسيساً بالرسول (ﷺ) وكان حاد نظرة العين. وقد جاءت لى الفرصة وجلست مع بعض من كانوا يحققون معه من رجال النيابة العسكرية. وكانوا يتكلمون عنه بكل احترام مؤكدين أنه كان ذكياً جداً وملسناً

ومتكلماً. وحتى وقت اقتياده لحبل المشنقة كان يقول لهم إن الله سينقذنى. وهذا ما سمعته شخصياً من الذى نفذ فيه حكم الإعدام. وهذا يوضح إلى أى مدى كانت تنعكس هذه الثقة فى أتباعه ومعاونيه خصوصاً إذا كانوا قليلي العلم^(٣٦).

وقد واجه التنظيم عدة مشكلات دفعتة إلى تطوير أساليب عمله السرى.

.. ففى بدايات نشأة الجماعة.. ورغبة من شكرى مصطفى فى تطبيق منهج الهجرة ومفارقة المجتمع الكافر.. أمر بهجرة بعض الأعضاء للإقامة بأحد الكهوف فى جبال محافظة المنيا فى عام ١٩٧٣، وذلك للتفرغ للعبادة والعيش بطريقة بسيطة خالية من جميع مظاهر المدنية الحديثة الكافرة، الأمر الذى دفع للشك فى هويتهم.

ويقول المتهم إبراهيم عبد المنعم أبو سنة: "اصطدم بنا الأهالى واتهمونا بأننا يهود وأبلغوا الأمن عنا"، وكانت هذه هى بداية تعرف الأمن على الجماعة. وقد توالى حملات صغيرة وهامشية على الجماعة حتى بلغت أربعاً فى الفترة حتى ١٩٧٦ الأمر الذى دفع الجماعة إلى تغيير أسلوب عملها التنظيمى.

فقد بدأت فى تدريب أعضائها بدنياً وعسكرياً بهدف حمايتهم لأنفسهم من عدوان الأهالى ومطاردات الأمن. كما أن لقاء أعضاء الجماعة فى هذه الفترة بعدد من السجناء الشيوعيين قد مكنهم من التعرف على بعض أساليب العمل السرى مثل: إقامة تنظيم هرمى قاعدته مجموعات صغيرة العدد من خمسة أو ستة أعضاء. ولا يجوز تعرف أعضاء مجموعة على المجموعات الأخرى. ولكل مجموعة أمير، ويعطى العضو الجديد البيعة لأمير مجموعته.

ثم يتصاعد الهرم التنظيمى: لكل حى أمير، ولكل مدينة أمير، ثم أمير لكل محافظة. والأمير العام هو شكرى مصطفى وله أربعة نواب ونائبه الأول هو ماهر عبد العزيز بكرى (ابن أخته).

وتجتمع المجموعة كل أسبوع أو كل أسبوعين على الأكثر^(٣٧).

كما نقل شكرى مصطفى عن الشيوعيين فكرة الأسماء السرية (الحركية)

للأعضاء وأسمائها كنية.

وكانت الأسماء السرية لقيادات الجماعة كما يلي:

"شكرى مصطفى - أبو سعد

ماهر بكري.. أبو عبد الله

محمد الأمين عبد الفتاح.. أبو الغوث

أنور مأمون صقر.. أبو مصعب

مجدى صابر حبيب - أبو الهيثم

هاشم بكري - أبو حذيفة

صفوت الزينى - أبو طلحة"^(٣٨).

لقد عرف شكرى مصطفى كيف يبنى تنظيمه، وقبلها عرف كيف يبنى نفسه كزعيم لهذا التنظيم. ويحكى عبد الرحمن أبو الخير عن لقائه مع شكرى مصطفى لأول مرة بعد أن افترقا عقب الإفراج عنهما من معتقل مزرعة طرة، فيقول: "استمعت إلى الأخ شكرى وازيدت يقيناً بأنه قد تغير، فلم يكن شكرى ذلك الفتى العصبى الذى لا يؤبه لشأنه كما شاهدته آخر مرة فى معتقل طرة السياسى.. لقد كان فى لقائى الجديد له شكرى الداعية المكتمل العناصر، لولا بقية من الهياج العصبى الذى يدفعه لتجريح محدثه إن لمس فيه أدنى ذرة من الخلاف فى رأى..

وشعرت بأن الله قد ساق هذا الداعية ليخرج المسلمين من كبوتهم وقد كان قرأنى الحجة ومسلم البلاغ"^(٣٩).

وينعى على أعضاء الجماعة جميعاً أن الفرد منهم كان يكفيه "أن يلمس شبهة مناقشة فى رأيه بقصد التيقن منه لكى يندفع إلى أخيه المناقش اندفاعاً عدائية، وقد يصل الأمر إلى التجريح والغمز أو غير ذلك من وسائل بناء الكراهية فى القلوب"^(٤٠).

لكنه مع ذلك يدهش - وهو الإخوانى القديم الذى تبنى على الأسس التنظيمية المتسمة بالصرامة - من مدى تماسك الجماعة والالتزام الصارم لأعضائها

بتعليمات الأمير. فيقول عن تجربته معهم فى إحدى فترات السجن: "لقد لمست عظمة الواقع العملى لأفراد الجماعة فى الضبط الإدارى والسمع والطاعة. فقد صدرت أوامر بعدم مخاطبة المرتدين والجماعات الأخرى فالتزم الجميع بهذا الأمر. ولاحظت على هذا الأمر أن عنصر الشعور بالرقابة (رقابة الأعضاء على بعضهم البعض) قد أدى إلى تنفيذ الأمر تماماً. لقد التزم كل عضو بالطاعة من منطلق أنها طاعة لله ورسوله (ﷺ). لكن عدداً قليلاً صدع بالطاعة لهذا الأمر إيثاراً للسلامة ولكيلا يتهم بالعصيان والردة. وكنت أرى أن البعض يتخاطب مع الشيوعيين ولا يتخاطب مع الجماعات الأخرى، وكان تفسير ذلك أن هذا التخاطب مصلحى. ثم صدر أمر بعدم التخاطب مع الشيوعيين، لكن جريمة التخاطب مع الشيوعيين كانت أهون من جريمة مخاطبة المأخوذین بسبب الإسلام. ولقد اقترحت إجراء حوار مع الفئات الأخرى وخاصة مع رفاعى سرور وقلول الشيخ صالح سرية ومجموعة جماعة التكفير بالإسكندرية لكن الاقتراح رفض على أساس أن هذا الحوار لن يثمر ثمرة تترجى"^(٤١).

لكن عبد الرحمن أبو الخير ينقلنا بعد ذلك إلى مسألة بالغة الأهمية إذ يقول: "والحق أقول إن الأخ شكرى صاحب الجماعة المسلمة خاطب من بلغ من قمة الحق فجمعهم عليه، ولم أر خلال تأملى لتاريخ الحركة الإسلامية انطلاقة مثل انطلاقة مما يجعلنى لا أجد كلمات لتقييم هذه الانطلاقة سوى أنه بقدر ما هو صانع لأعظم انطلاقة عملية فى تاريخ الحركة الإسلامية بقدر ما هو - فى نفس الوقت - صانع لأكبر مأساة فى تاريخ الحركة الإسلامية إنها مأساة إجهاض الحق من قمة الحق. أى إجهاض الحركة الإسلامية بتطويع تجمعها لسياسة الجاهلية أملاً فى تحقيق مغنم للحركة مقابل تحقيق مصلحة للجاهلية، وهو ما أسمى أسلوب العمل من خلال خطة العدو. فقد أسفرت النتيجة عملياً عن توظيف الجماعة فى إجهاض الحركة الإسلامية ذاتها... لقد بنى حركته على أساس مبدأ حركى فاسد هو العمل من خلال خطة العدو وهو مبدأ سياسى وظف الجماعة

لمصلحة الطاغوت من حيث لا يدري إمامها ولا أفرادها فلقى الجميع الضربة القاصمة" (٤٢).

فما قصة العمل من خلال خطة العدو هذه؟
إن للأمر تفصيلاً مهماً.

وفى البداية نقرر أنها ليست فكرة جديدة، فقد مارستها جماعة الإخوان المسلمين طوال تاريخها وقادتها مرات إلى تحقيق نجاحات ومرات أخرى إلى محن قاسية. فحسن البنا أيد الملك فؤاد. ثم ساند فاروق وباعه على كتاب الله وسنة رسوله، وأخرج جوالته فى مظاهرات صاخبة تهتف للملك "تهبك بيعتنا" ويعلو هتافها "الله مع الملك". الملك كان ضد الوفد صاحب الجماهيرية الواسعة والطاغية، والإخوان لهم مصلحة فى إضعاف الوفد كى يتخلصوا من أكبر منافس لهم وسط الجماهير، ومن هنا يتحالفون مع الملك ضد الوفد، وفى الوقت نفسه يحاولون وسراً بناء جهازهم السرى ويسلحونه مستفيدين من اطمئنان القصر الملكى لهم.

كذلك كان الأمر مع السادات.. فالسادات كان يريد التخلص من الشيوعيين والناصريين الذين سيطروا لفترة على الجامعات وأقلقوا مضاجع النظام. وعمر التلمسانى كان ضد اليسار ويريد ان يحتل مكانه ومكانته فى الجماعات. كما أنه كان بحاجة إلى فسحة من وقت يعمل فيها بطمأنينة لإعادة بناء الجماعة. وكان بحاجة إلى السماح له بالخطابة والمحاضرة فى الجامعات وفى معسكرات الطلاب الصيفية ليبنى جسوراً تنظيمية مع جيل جديد من الشباب بعد أن شاخت عضوية الجماعة فى السجون، لكن السادات لم يكن يطمئن للإخوان فقام ببناء "الجماعات الإسلامية" فى الجامعات وسمح لها بأن تنشط وأن توسع من عضويتها ومنحها دعماً ومالاً وسنداً بهدف مقاومة أى نفوذ للإخوان. وعمر التلمسانى يعرف ذلك لكنه يتغاضى عنه، فهو يستفيد من أسلمة المناخ العام فى الجامعات وفى المجتمع، فهذا المناخ العام يمنحه ظهيراً يستند إليه فى تحركه العلنى والسرى، وهو

فى الوقت نفسه يستفيد من خبرة الجماعة وتاريخها فى اقتناص عضوية من وعاء "الجماعات" أى ذات الوعاء الذى أقامه السادات.. ولا بأس من أن يتشدد أعضاء الجماعات، ولا بأس من أن يمارسوا إرهاباً عنيفاً فهنا تبرز جماعة الإخوان كالحل الأفضل، وتبرز كقوة معتدلة تكون قادرة على دعوة النظام للاستناد إليها ومنحها المزيد من الدعم مقابل الاستناد إليها فى مواجهة المتطرفين. وهكذا وكلما ازداد المتأسلمون تأسلاً وإرهاباً وخروجاً عن صحيح الدين ازدادت جماعة الإخوان كسباً، أو هكذا حاولوا.

إنها لعبة المصالح المشتركة مع الطاغوت وهى لعبة ذكية وساذجة فى آن واحد. وقد أتقنتها جماعة الإخوان عبر تاريخها، وطبقها عمر التلمسانى بدهاء. ونلاحظ أنه اعترف بها بوضوح عندما طالعنا فى فصل سابق اعتراف التلمسانى بأن وزير الداخلية قد طلب منه أن يعمل على مناقشة الطلبة المتطرفين لتهدئتهم وكيف أنه وافق، ثم أضاف أنه كان يوافق الطلاب فى أفكارهم، ويختلف مع الحكومة فى أسلوب تعاملها معهم لكنه مع ذلك حاول أن يخادع وزير الداخلية، بينما كان وزير الداخلية هو أيضاً يخادعه.

وحاول شكرى مصطفى أن يفعلها، لكنه لم يكن يمتلك لا خبرة ولا كفاءة ولا دهاء عمر التلمسانى وإخوانه.

ويحكى لنا عبد الرحمن أبو الخير قصة مراهنة شكرى مصطفى على العمل من خلال خطة العدو فيقول إنه اجتمع مع عدد من أعضاء التنظيم ومنهم أبو عبد الله (ماهر بكري) حيث عرضوا عليه هذه الخطة وحدثه بكري قائلاً: لقد عرضت الحكومة على الجماعة رغبتها فى أن نتعاون معها على أساس أن جماعتنا تصرف الشباب عن المناهج الانقلابية وتدعو إلى الهجرة، وأن الحكومة بحاجة إلى جماعة إسلامية تستوعب الخاصة من الشباب ثم على جماعة أخرى تستوعب العامة، ونحن إن شاء الله جماعة الخاصة والإخوان المسلمين جماعة العامة، وقد قبلنا ذلك، وقد يقولون علينا عملاء، فليقولوا لكن المهم أن نحقق تقدم الجماعة

وستصبح إن شاء الله الجماعة الوحيدة في مصر".

ومضى ماهر بكري قائلاً: "إنهم يتعاونون معنا مقابل صرف الشباب عن الانقلابات فالحكومة قدمت هذا العرض وهي تعلم تماماً أن منهجنا لا يتصادم مع خطتها حالياً، فهو منهج هجرة ويصرف الشباب عن التجمعات ذات المناهج الانقلابية شأن تنظيم الفنية العسكرية".

وقال: "إن الحكومة جادة في عرضها، وقد عرضت علينا تعويضنا عما لحق بنا من أضرار في الماضي كدعاية سيئة أو اعتقال، وطلبت منا رفع قضية ضد دور الصحف والأجهزة الأخرى التي هاجمتنا للحصول على التعويض المناسب، واتفقنا مع المحامي شوكت التوني لرفع القضايا فالجماعة في حاجة إلى المال".

ويرد عبد الرحمن أبو الخير "أن الطاغوت بذلك سوف يجرننا إلى الاحتكام إليه. وهذا محرم شرعاً لقوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيداً (٦٠)) [النساء].

ويرد عليه أبو مصعب (أنور مأمون صقر): أبدأ، ما وجه الحرمة في ذلك إن رسول الله (ﷺ) قد دخل في جوار كافر، لقد دخل في جوار مطعم بن عدى ليحميه من الكفار في الطائف، ثم قال: واحد بيقول لك عندي لك حقوق تعالى خدها، أقول له لأ؟

. أبو الخير: إننا بذلك سوف نُستثمر، سوف يستثمرنا الطاغوت لمصلحته.
- أبو الغوث (محمد الأمين عبد الفتاح): قبلنا أن نستثمر، قبلنا أن نستثمر (٤٣).

ونمضي مع هذه الحوارات الكاشفة، بل والفاضحة لكل أطرافها.. للسادات ونظامه وللإخوان ولشكري مصطفى.

يقول أبو الخير "التقيت أبو عبد الله وبدأ يشرح لي أسلوباً جديداً لم يسبق أن سمعته أسماه "الحسابات الدقيقة للمصالح المشتركة بين الجماعة المسلمة

والجاهلية" وقال إذا كانت هناك عملية ما.. يمكن أن تقوم بها الجماعة بالاشتراك مع العدو بحيث تكسب الجماعة ٥٤% منها ويكسب العدو ٤٦% منها فإننا نؤيدها لأنه دون ذلك لن تتقدم الجماعة خطوة واحدة".

ويرد عليه أبو الخير: ذلك حق، ولكن العبرة بالطرف الذى يستخدم الآخر لمصلحته.. وأرى أن الجاهلية هى الغالبة، وبالتالي فإن بيدها خيوط التأثير فى اتجاهات المصلحة.

فيقول أبو عبد الله: أبدأً، إن الله تبارك وتعالى معنا وليس معهم، وبالتالي فإننا نملك المحافظة على تحقيق نسبة من المصلحة أكبر مما يحققه العدو^(٤٤).

ولأن هذا الموضوع كان الشغل الشاغل للجماعة فقد ناقشه شكرى مصطفى (أبو سعد) مع عبد الرحمن أبو الخير أيضاً، وقال له:

" أنا أقول للطاغوت أنا لا أشكل عقبة فى طريق خطتك فحجبنى للنساء عن الجامعات والمدارس أقول به للنظام هأنذا أريحك من مشاكل تعليمهن وانتقالاتهن. وهجرتى لا تشكل خطراً انقلابياً عليك وأساهم بذلك فى تخفيف مشكلة الإسكان، وبترك الوظائف أريحك من المرتبات التى تدفع لنا".

ويعلق عبد الرحمن أبو الخير تعليقاً مريراً: "لقد كانت مصارحة أبى سعد (شكرى مصطفى) واضحة، أراد أن يحقق هدفه من خلال خطة الطاغوت، فاصطاده الطاغوت فى شبابه. وذلك جزاء من لم يعرف عمق الموقف الربانى للحركة الإسلامية"^(٤٥).

وبقى من ذلك كله.. أن هذه المحاولات قد كشفت لنا وبجلاء وأكدت وبوضوح ما كنا نحاول إثباته خلال مراحل هذه الكتابة.. وهو ذلك الحلف بين السادات والإخوان، والذى أسماه شكرى مصطفى "خطة العمل مع الطاغوت من خلال تحقيق المصالح المشتركة".

وإذا أردنا أن نتحدث عن فكر شكرى مصطفى فإننا لن نكون بحاجة إلى قول

كثير . فالوليمة المريرة بل والشديدة المرارة واردة في الملاحق .. مقتبسات متسعة من
أخطر كتب شكرى مصطفى وهو "التوسمات" وهى وثيقة لم يسبق نشرها .
لكننا سنقدم إشارات موجزة:

- لا فقه ولا إجماع ولا استحسان ولا مصالح مرسلة، فقط قال الله وقال
الرسول.

- للمسلم أن ينهل مباشرة من كتاب الله دون حاجة إلى فقهاء أو علماء و(وَلَقَدْ
يَسْرُنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ (١٧)) [القمر].

- ويقول من قلد كفر .. أى أن من يقول إنه يتبع أحد الفقهاء كأن يقول إنه
شافعى أو حنفى أو حنبلى فقد أشرك بالله، ويستند على الآية (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ
وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ (٣١)) [التوبة].

- يرى شكرى مصطفى أننا مقبلون على آخر الزمان .. ويورد أدلة اقتراب قيام
القيامة ويدعى أنها تحققت أو هى بسبيلها إلى ذلك. ومن ثم يعتبر نفسه "أمير
آخر الزمان".

- ويقول إنه سيخوض الحرب ضد روم الأرض (أمريكا والاتحاد السوفيتى
آنذاك وكل الدول الكافرة) وسوف يستخدم فى ذلك القتال الخيل (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا
اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ (٦٠)) [الأنفال] والسيوف "الجنة تحت ظلال
السيوف" حديث شريف. وهو يرفض أية تكتيكات أو مناورات فى هذه الحرب
فالحديث الشريف يقول: "يحارب المسلمون كما يصلون صفًا" لأنها نفوس باعت
نفسها واشترت الجنة. وإذ يشعر بأن الشكوك تحيط بإمكانية الانتصار فى حرب
كهذه ويسلاح كهذا وخطط كهذه.. يردد (وَكَاَنَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧))
[الروم] و (وإن جندنا لهم الغالبون (١٧٣)) [الصافات].

أما خطته للوصول إلى مرحلة الحرب .. فهى على عدة مراحل:

- الدعوة العلنية إلى كلمة الله، ولا تكون فيها سرية إلا للضرورة.

- ثم اعتزال المجتمع الجاهلى عندما يشتد البلاء وترهق الأرواح وهنا تكون

الهجرة إلى أرض تحفظ على المؤمنين إيمانهم وما من رسول إلا وهاجر. وهكذا تتحقق التخلية التي يسلط فيها سبحانه وتعالى الكافرين على بعضهم البعض وينزل عليهم من المصائب ما قد يدفع بهم إلى الإفاقة من جاهليتهم.

- ومن ثم يعود المسلمون من هجرتهم وهم أقوياء وينتصرون حتماً على جند الشيطان.

- ولعل المنبع الأساسي لهذا الفكر هن الأخذ المطلق بالتفسير النصي للقرآن، فهو لم يضع في الاعتبار أسباب النزول ولا دوافعه ولا توقّعاته، وإنما فقط الفهم اللغوي الصرف للنص فقاده ذلك إلى مزالق عديدة.

منها على سبيل المثال "يعود الإسلام غريباً" كما بدأ" وكما تعنى المثلية في كل شيء. ومن ثم يكون على المسلم الأخذ قولاً وفعلاً بما كان عليه الأمر عند البدء بالدعوة المحمدية.

ولا بد من استخدام القوة والعنف ففي القرآن الكريم (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) (١٨) [الأنبياء].

ويفسر شكرى الآية في كتابه "التوسمات" إن الله لم يضع الحق على الباطل بل يقذفه، أي بقوة وبشدة.

وتتجلى فداحة الأخذ بالتفسير النصي من إصراره على مواجهة طائرات ودبابات "روم الأرض" وقنابلهم الذرية بالخيال والسيوف. كما تتجلى أيضاً في موقفه من العلم والتعليم. فالعلم وسيلة لعبادة الله. وكل علم يتعلمه الإنسان لغير العبادة. فقد تعلمه لنفسه، وتعلمه لغير الله. وهذا شرك.

ويقول رسول الله: "اللهم أنى أعوذ بك من علم لا ينفع، ويضيف شكرى من عنده "أى علم لا أعبدك به" ويقول "وقد ذم الله تعالى التعليم من أجل الدنيا وعلوم الدنيا التي يطغى بها البشر".

ثم يصل شكرى إلى نهاية أليمة" النبى (ﷺ) لا يقرأ كان فى قدرته أن يقرأ ويحسب. بل إن أمته كلها أمة أمية لا تكتب وال تحسب. ثم يورد الآية الكريمة

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) ((٢)) [الجمعة].

ويفسرهما تفسيراً غريباً.. فالأميون في أول الزمان يجب أن يبقوا أميين في آخر الزمان، وإذ يتعلمون فإنه غير مسموح لهم في نظره إلا علم "الكتاب والحكمة".

ثم هو يتمادى في التفسير النصي ليصل إلى القول: "ولقد خرجت كما هو معلوم من الأمة الأمية خير أمة أخرجت للناس، أو بمعنى آخر خير أمة أخرجت للناس أمة أمية". ويقصد بالأمة الأمية عموم هذه الأمة وغالبيتها. ولا مانع من وجود قراء وكتاب من هذه الأمة. ولكن بقدر الضرورة. والذي نعنيه من ذلك أن جماعة الحق في آخر الزمان، خير أمة سوف تخرج للناس مرة ثانية، سمتها وعمومها أنها أمة أمية لأنها تدخل في قول الرسول "نحن أمة أمية".

ولست بحاجة إلى مزيد. فعلى هذا النمط في فهم القرآن والسنة سار شكرى مصطفى وسار أتباعه. فقط نتأمل المنطق. ونتأمل كيف تساق التفسيرات وتستخرج من النص استخراجاً غير منطقي وربما غير عقلاني.

ولمن أراد الاستزادة.. فإليه المزيد في الملاحق.

وفى واحدة من جلسات التحقيق التي كان شكرى مصطفى يحاضر فيها.. سمع منه عبد الرحمن أبو الخير العبارة التالية:

"إنني أتهم بالخيانة العظمى أولئك الرجال من قادة الحركة الإسلامية الذي قادوا رجالهم إلى التهلكة، وفرطوا في أعناقهم أو بوأوهم أعماق السجون.. وأسلموا رجالهم لجلاديهـم والمـشـانق والسجون" (٤٦).

ويردد أبو الخير نفسه ذات الموقف قائلاً: "إنها حوادث غريبة لم يكن لجماعات الحركة الإسلامية فيها مصلحة، بل اتخذت كمبرر مبهج للجمهور المصري خفيف العقل ضد الحركة الإسلامية فبارك وأدها، ووأد الإسلام معها. قال تعالى في المصريين (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَّاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) (٥٤) [الزخرف] (٤٧).

ومع ذلك فعلوها بأنفسهم في أنفسهم، وقاموا بعملية ساذجة خائبة ربما كانت

نتويجاً لسوء تقدير الخصم. ذلك الطاغوت الذي استدرجهم إلى لعبة "الحسابات الدقيقة للمصالح المشتركة" هي عملية اختطاف واغتيال الدكتور الذهبي التي انتهت بتصفية الجماعة وتوجيه ضربة قاسية لها.

فمن هو الذهبي؟ كان الشيخ الذهبي رجلاً هادئاً مطمئن النفس قليل الكلام، تحول بيته في حلوان إلى ملتقى إسلامي تدار فيه ندوة إسلامية مفتوحة كل ليلة يستطيع أى مسلم حضورها بغير دعوة أو سابق معرفة. وعندما اختير وزيراً للأوقاف أصر على عدم تعيين حرس خاص على باب منزله، وظلت أحوال البيت كما هي، بحيث لم يشعر أحد بأن في هذا البيت وزيراً.

ولم يكن الشيخ يفكر في لحظة أن آراءه سوف تضع نهاية درامية لحياته على يد جماعة التكفير والهجرة .. "كان قدر الشيخ الذهبي أن يتولى وزارة الأوقاف إبان تلك الفترة التي بدأت فيها هذه الجماعة في نشر أفكارها بين الشباب المتحمس للدين، وقد انتشرت هذه الأفكار مما أثار حفيظة رجال الحكم وقلقهم، وكذلك قلق القائمين على الدعوة الإسلامية"^(٤٨).

"وقد ولد الشيخ الذهبي في قرية مطويس (كفر الشيخ) عام ١٩١٥. وكان أول دفعته في شهادة العالمية التي حصل عليها في الشريعة عام ١٩٣٩. ثم حصل على درجة الدكتوراة في التفسير والحديث عام ١٩٤٦. وأعيد من كلية أصول الدين التي عمل بها أستاذاً لجامعة الكويت لتدريس مادتي التفسير وعلم الحديث فيها. وفي عام ١٩٧٣ أصبح عميداً لكلية أصول الدين بجامعة الأزهر. وأصبح أميناً عاماً لمجمع البحوث الإسلامية وأميناً لمؤتمر علماء المسلمين عام ١٩٧٤. ثم اختير وزيراً للأوقاف في أبريل ١٩٧٥ وله عديد من الكتب في الأحوال الشخصية ومذاهب المسلمين، وكتاب يتضمن تفسير سور الأحزاب والنور والنساء، وكان يخطط لاستكمال تفسير بقية القرآن"^(٤٩).

وفي عام ١٩٧٥ أدرك القائمون على شئون الدعوة في وزارة الأوقاف خطر انتشار أفكار المتأسلمين وخاصة على يد جماعة التكفير والهجرة فأصدر الشيخ

كتيباً من ٦٨ صفحة اشترك فى تأليفه ١٩ شيخاً من رجال الدعوة بالوزارة يردون فيه على هذه الأفكار. وكتب الذهبى مقدمة هذا الكتيب الذى أهده: إلى الشباب المؤمن الذى يحاول إصلاح نفسه. وجاء فى المقدمة: "إن جماعة أطلقت على نفسها أهل الكهف أو جماعة التكفير والهجرة. غالب الظن أن هذه الجماعة ليست إلا فئة من الشباب ينشد الدين فى أسى صوره وأبعدها عن مظاهر فساد الخلق وانحراف السلوك. ولكن فريقاً من المتطرفين الذين يسعون فى الأرض فساداً قد استغلوا فى هذا الشباب حماس الدين فأتوه من هذا الجانب، وصوروا لهم المجتمع الذى يعيشون فيه بأنه مجتمع كافر يجب مقاومته"^(٥٠).

وظل الدكتور الذهبى يؤكد فى كتاباته وفى محاضراته وندواته آراء تقول: إن الإسلام ينتشر بالدعوة الهادئة والإقناع ولبس بالإرهاب، وإنه لا بد من تنقية الفكر الإسلامى من البدع والخرافات والضلالات بعد أن أصبح صوت الخرافة أقوى من صوت الحقيقة، ولا بد من تنقية تراثنا من شوائب التخريف والتضليل وتعرية كل محاولات الدس والتأويلات المغرضة التى تعرض لها على مدى التاريخ. وإن أى نشاط تخريبى يبعد الشباب عن الدين، وليس المطلوب أن نقضى على هؤلاء، ولكن المطلوب أن نطهر عقولهم بجهود مخلصه"^(٥١). ورغم هدوء الكلمات والكتابة المحاذرة دفع الشيخ حياته ثمناً لها. فى واحدة من أندر العمليات الإرهابية، حيث تقوم جماعة تقول إنها مسلمة باغتيال شيخ مسلم، بل كبير من كبار شيوخهم.

ابتداء يقول عبد الرحمن أبو الخير إن هذه العملية كلها كانت جزءاً من خطة "استثمار المصالح المشتركة" بمعنى أن منفذها قد استدرجوا لفعلا لإيمانهم بأنهم سوف يستفيدون منها.. بينما المستفيد هو المحرض (النظام الحاكم) لأنه بذلك سوف يتخلص من خصمين فى وقت واحد.. من الشيخ الذهبى ومن الجماعة التى قويت شوكتها بأكثر مما هو مسموح به. ونقرأ: "ولقد رحل الشيخ شكرى وأبو عبد الله (ماهر بكرى) شهيدين من منطلق اجتهد فأخطأ والله أعلم بالقلوب. لقد أقدمنا على لعبة استثمار الجماعة المسلمة للخطة السياسية للطاغوت من ذلك المنطلق

الذى وسوس به شياطين الإنس لهما طمعاً فى نصره الجماعة فكان الخطأ. وكان السقوط الذى من معاملته تحويل الجماعة المسلمة إلى حزب سياسى تؤسس خلفيات الأمير فيه على كتاب الأمير لميكافيللى.. وليس على نهج القرآن الكريم.. لقد استثمر الطاغوت حياتهم، ثم استثمر مماتهم لإرهاب الكل فى وقت اقتضت فيه مصلحته إرهاب الجميع^(٥٢). ثم يقول "لقد قتلوهم لأنهم مسلمون من طليعة الحق التى أثبتت نجاحها فى ميدان الحركة الإسلامية لبعث هذا الدين من جديد. لقد قتلوهم بعد ان أفقدوهم سنة الله فى الأمن (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) (٨٢)) [الأنعام] وكان قتلهم تطهيراً لهم"^(٥٣).

ويشير أبو الخير فى الأسطر السابقة إلى من أسماهم "شياطين الإنس" فمن هم فى نظره؟ هما من يدعى أنهما رسل النظام للإيقاع بهم.. وهما الأستاذ شوكت التونى والأستاذ محمد صبيح الصحفى والسياسى المخضرم وكلاهما كان على علاقة وثيقة بالنظام.

والأستاذ شوكت التونى كان يعتبر فى الفترة السابقة على عملية الاختطاف "محامى الجماعة" أنه ذلك المحامى الذى قال عنه قادة الجماعة إن الحكومة قد كلفته برفع دعاوى تعويض ضد الصحف التى عرضت بالجماعة فى فترات سابقة وضد الحكومة بسبب أوامر الاعتقال السابقة.. ويقول عنه أبو الخير: "الأستاذ شوكت التونى من مشاهير المحامين بمصر، وهو عضو نادى روتارى القاهرة وصديق حميم لمخضرمى السياسة فى مصر ومنهم الأستاذ محمد صبيح الصحفى العجوز" ويقول: "والأستاذ شوكت التونى هو محامى الجماعة الذى اعتاد كل من الإخوة: ماهر عبد العزيز بكري، وأنور مأمون صقر، ومجدى صابر حبيب التردد على مكتبه، والمكوث معه الأوقات والأوقات.. وكان بلا شك للأستاذ شوكت التونى أثر فى مكونات الفكر الحركى للجماعة. لقد استحوذ على إعجاب ماهر وأنور ومجدى أحياناً وكذا أبو طلحة (صفوت الزينى) الثابت عليه كثرة التردد على إدارة المباحث بعلم إمرة الجماعة. لقد تسلسل شوكت التونى بأثره الهادئ السارى

سريان السم بين الشرايين إلى عقل الجماعة دون أن يدري كل من فيها. بل إن زعامتها كانت ترى في شوكت التونى ناصحاً أميناً. حتى إذا ما وقعت الواقعة واختطف الذهبي في موعده.. أصدر شوكت التونى محامى الجماعة نداه إلى الجماعة للحفاظ على حياة الدكتور الذهبي ثم سافر في نفس اليوم إلى أمريكا.. ولم يعد إلا شاهداً أمام المحكمة العسكرية". وقال أمام المحكمة: "فى مساء يوم الخطف اتصل بى اللواء محمد نبوى إسماعيل وقابلته وشرح لى ظروف الحادث وطلب منى التوسط لإنقاذ الذهبي، وأكدت له أنه لن يمس بسوء، وأصدرت بياناً نشرته الصحف والإذاعة والتلفزيون ثم فوجئت بنبأ قتل الذهبي أثناء وجودى فى أمريكا" (٥٤).

ويفسر البعض السفر المفاجئ والمتعجل للمحامى الذى يلعب دور الوسيط والمستحوذ على ثقة الطرفين بأنه كان استكمالاً للخطة الحكومية، فقد قطعت وسائط الاتصال بين الجماعة والحكومة.

الأمر الذى ألجأ الجماعة إلى الاتصال تليفونياً بعشرات الصحفيين والسياسيين لتبلغهم بمطالبها للإفراج عن الشيخ الذهبي لكن أحداً منهم لم يتدخل، لأن أحداً لا يعرف شيئاً عن حقائق العلاقات ولا خفاياها.

وإذا جاز للمؤلف أن يتقدم بشهادته فإننى أدلى بها. ففى ظهر يوم الخطف اتصل بى تليفونياً صوت ومتوتر وواهن ليبلغنى أن الجماعة المسلمة قد اختطفت الشيخ الذهبي وأنها تشترط لإطلاق سراحه أن يسمح لها بالعمل العلنى وأن تدلى ببيان عبر التلفزيون وأن تدفع لها الحكومة ٢٠٠ ألف جنيه وأن تفرج عن أعضائها المعتقلين، كانت إجابتى: وما ذنب الشيخ الذهبي فى ذلك كله؟ فأجاب فى وهن واضح "الله غالب على أمره". وإذ تحدثت مع صحفيين عدة من زملائى فى جريدة الأهرام أجابوا بأنهم تلقوا ذات الرسالة..

ويسأل أبو الخير فى كتابه: "إذا كانوا يريدون إنقاذ الذهبي فلماذا لم يدفعوا المائتى ألف جنيه ثم يقبضوا عليهم ويستردوها" (٥٥).

ويرد أبو الخير مقولته إن السبب في رغبة النظام في التخلص من الذهبي هو إعداده لتقرير خطير عن الفساد في جهاز الدعوة الإسلامية بوزارة الأوقاف بمناسبة قضية المغربي الشهيرة التي كان الذهبي شاهد إثبات فيها.

لكن الرد على هذه الحجة أمر سهل. فقد كان بالإمكان إقالة الشيخ من الوزارة وإلزامه بالصمت.. وكفى الله المؤمنين القتال. لكن الأهم هو أن هذا التقرير قد نشر كاملاً بعد بضعة أشهر وكان بإمكان النظام أن يمنع نشره^(٥٦).

ثم نعود إلى ما تردد حول هذه الصفقة المزعومة.

يقول الأستاذ علوي حافظ: "إن السادات عين الشيخ الذهبي في وزارة الأوقاف ونسى أو تناسى أنه أولاً وأخيراً عالم فاضل. وفي وزارة الأوقاف اكتشف الذهبي الذي لا يعرف الحرام أبداً عصابات لنهب وسلب أموال المسلمين الذي هو مسئول عنها أمام الله، والسادات كان يعلم الكثير عن اللصوص، وبعضهم كان بيتكلم باسمه دون رقيب ولا حسيب على هؤلاء الشياطين. لا مستندات ولا فواتير، والإجابة دائماً جاهزة على ألسنتهم: دى سياسة عليا. حتى وصل ذات يوم شيك إلى وزارة الأوقاف بالملايين تبرعاً من شخصية عربية لها قيمتها لتجديد وفرش بيوت الله، سرقت العصابة هذه الملايين كغيرها. وعندما طلب سفير هذه الدولة من الذهبي أن يقدم له بياناً بأوجه إنفاق الشيك لم يجد الذهبي سوى أن يطلب إعفاه من الوزارة وجمع ما لديه من أوراق رسمية تحمى ظهره. ورفض السادات قبول الاستقالة.

ورسمت خطة للتخلص منه، وطلبوا منه كتابة دراسة عن الجماعات وعملوا "مونتاژ" للكتابة وطبعوا الكتاب، فاعتبرته الجماعة عدواً لها وطلبت من الشيخ إيضاح موقفه، فرفض فهو وزير ولديه تعليمات بعدم مقابلتهم. وهنا اندس في الجماعة مخبرين من أمن الدولة وهم الذين نفذوا عملية الخطف والقتل^(٥٧).

وعمر التلمساني يلمح إلى شيء من ذلك في كتابه أيام مع السادات.

أما قاضى المحكمة العسكرية العليا التي حاكمت المتهمين وحكمت عليهم فقد

أدلى بأحاديث للصحف بعد صدور الأحكام قال فيها: "إن المتهمين ادعوا أن الجريمة من تأليف وإخراج مباحث أمن الدولة. وأن جثة الشيخ الذهبي نقلت بعد القتل إلى الشقة التي ضبطت فيها وأن اعترافاتهم أمام النيابة جاءت تحت التعذيب" (٥٨)، وبمراجعة التحقيقات نجد أن شكرى مصطفى يشير كثيراً إلى أن السادات هو الذى أحدث الواقعة بين الجماعة والشيخ ليضرب عصفورين بحجر واحد (٥٩).

ونعود بعد هذه الادعاءات.. إلى وقائع عملية الاختطاف التى اتسمت بسذاجة مثيرة للدهشة من طرفيها الجماعة ومباحث أمن الدولة.. ونستخلص من ملفات القضية واعترافات المتهمين وشهادة الشهود الوقائع التالية:

- قام ماهر عبد العزيز (ابن شقيقة شكرى مصطفى) ونائبه الأول بإصدار الأوامر.

- وقام أنور مأمون صقر (أبو مصعب) بشرح الخطة وأدوار كل واحد من المنفذين.

- استخدمت سيارتان فى العملية مازدا ونصر. قاد المازدا إبراهيم حجازى (أبو رواجه) والسيارة النصر محمد إبراهيم أبو دنيا.

- بدأت العملية الساعة الثانية من فجر يوم ١٩٩٧/٧/٤. حيث توقفت السيارتان أمام منزل الشيخ الذهبي فى شارع الساييس بحلوان.

- ارتدى أحد المفذين ملابس ضابط برتبة رائد. ودخل المسكن ومعه ثمانية مسلحين أحدهم يحمل مدفعاً رشاشاً ادعوا أنهم من مباحث أمن الدولة، وأخذوا الشيخ معهم بعد ممانعة منه ومن أبنائه، وهم يوجهون الرشاش إلى الشيخ وأبنائه ودفعوا الشيخ وبالقوة إلى إحدى السيارتين وانطلقوا بسرعة.

- خرجت الدكتورة أسماء ابنة الشيخ إلى الفراندة وصرخت، تجمع عدد من المارة والسكان ليجدوا السيارة الأخرى تستبدل إحدى العجلات تكاثر المارة على

الشخص الذى يستبدل العجلة وقبضوا عليه وهو يصرخ "أنا مباحث".

- اتصلت الأسرة بالمسؤولين وبدأت عملية تمشيط بحثاً عن الخاطفين.
وهنا تتبدى سذاجة الطرفين..

- الترتيب الساذج الذى يدفع أحد الخاطفين إلى أن ينهمك فى تبديل عجلة السيارة ولا يفر هارباً ليلحق بزملائه.

- ورد الفعل الأمنى الذى أوحى بأن الأمن كان نائماً، ففى هذه اللحظة فقط اكتشفوا انهم لا يملكون معلومات كافية عن الجماعة والشقق التى تستخدمها.

- أسفرت الحملة الأولى عن القبض على أربعة أعضاء فقط من الجماعة.

- أصدر ممدوح سالم رئيس الوزراء أمراً بالتحرى عن كل شاغلى الشقق المفروشة بما يؤكد نقص معلومات الأمن.

- أثناء تحرى اثنين من الضباط عن شقة مفروشة (شارع محمد حسن، منطقة الأندلس، الهرم) رفض مستأجروها الإدلاء ببيانات عن شخصيتهم مما أثار الشكوك فهوجمت الشقة وعثر على شخصين تعرف عليهما الأمن فيما بعد، وهما أحمد نصر الله حجاج وصبرى محمد القط، وعثر معهما على سدفع رشاش وخمسين علبة ذخيرة. ورسم كروكى لفيلا الدكتور الذهبى موضح عليه مداخل ومخارج الفيلا (لماذا ظلا محتفظين به؟) وعثر معهما أيضاً على عقد إيجار لفيلا مفروشة بشارع محمد حسين - المتفرع من شارع فاطمة رشدى - بالهرم (لماذا وجد العقد فى هذه الشقة؟) وأثناء تفتيش الشقة حضر شخص ولما شاهد رجال الأمن حاول ابتلاع ورقة.. لكن رجال الأمن استخلصوها منه.

- توجه رجال الأمن إلى الفيلا التى عثروا على عقدها، فوجدوا الشيخ الذهبى راقداً على ظهره وسط بركة من الدماء.. وقد قتل برصاصتين إحداها خرجت من عينه اليسرى (ويلاحظ أن شكرى مصطفى كان يفتى أن العين اليسرى هى العين التى ينظر بها الشيطان).

- وقد اعترف مصطفى غازى تفصيلاً وقال إن مهنته عامل بناء وأنه أسمى

نفسه بعد الانضمام للجماعة "أبو توبة" وقال إن الدكتور الذهبي قد قتل فى الساعة العاشرة تماماً من مساء ١٩٧٧/٧/٥ وتالت الاعترافات ومعها عمليات القبض واتضح من الاعترافات أن قائد التنفيذ نقيب شرطة سابق اسمه أحمد طارق عبد العليم وكان ضابطاً بمديرية أمن بنى سويف" وفى مارس ١٩٧٧ (أى قبل الاختطاف ثلاثة أشهر) قرر المجلس الأعلى للشرطة إنهاء خدمته وإحالته إلى المعاش لارتباطه ارتباطاً وثيقاً بعدد من الأشخاص الذين ينتمون إلى منظمات دينية (أحاله للمعاش فهل أخضعوه للمراقبة؟).

- واعترف الجميع تقريباً بأن المخطط للعملية هو شكرى مصطفى.
- بعض الاعترافات أفادت بأن لشكرى مصطفى مسكناً خاصاً فى مكان منعزل بمنطقة الزهور بعزبة النخل.

- وفى ظهر يوم ١٩٩٧/٧/٨ كان العريف سرى عبد المحسن عطا من إدارة البحث الجنائى بمديرية أمن القاهرة وهو من أهل المنطقة نفسها يجلس بمحل ترزى مجاور لهذا المنزل. وحوالى الساعة ١ ظهراً شاهد رجلاً وامرأة. المرأة منقبة والرجل ملثم (ويكاد المريب أن يقول خذونى) والمرأة تحمل طفلاً على كتفها، والرجل يحمل حقيبتين كبيرتين، وعندما اقتربا من المنزل رقم ١٨ ظهرت إحدى المنقبات من الشباك وأشارت إليهما بالابتعاد ولكن المخبر والترزى لحقا بهما.

وجرى الحوار التالى وفق ما هو مثبت فى محضر التحقيقات.

المخبر: أنت مين، ومخبى وشك ليه؟

الملثم: أنا زين، عاوزين إيه؟

المخبر: عايزين بطاقتك.

الملثم - أنتم مين؟ وفين بطاقتكم؟

المخبر: احنا مباحث فين بطاقتك؟

الملثم: أنا معرفش أى حاجة ولا أعترف بالبطاقات.

ثم قال الملثم: لو سمحتم، لا يجوز أن تكون هناك عورة بيننا.

الست حثدخل وأنا هأرجع لكم.

الغريب أنهما تركاه. فدخل ثم عاد (وماذا لو خرج مسلحاً؟).

وقام المخبر بتفتيشه فعثر معه على ٢٤ جنياً وتذكرة قطار قادم من بنها.

ودار حوار جديد:

الملثم: انتو عاوزين منى إيه أنا معنديش بطاقة.

المخبر: اسمك إيه؟

الملثم: اسمى زين.

المخبر: أنت من جماعة التكفير والهجرة اللي قتلت الشيخ الذهبي؟

الملثم: الجماعة مقتلنش حد.

المخبر: أنت من الجماعة؟

الملثم منفعلاً: أنا شكرى مصطفى عايزين إيه، كررها ثلاث مرات، عايزين إيه؟

وهنا أسقط فى يد المخبر، فليس معه سلاح ولا جهاز للاتصال برؤسائه، ولا

يوجد تليفون بالمنطقة. وليس له زملاء قريبون. وليس هناك مارة فى هذا المكان

النائى ليستعين بهم.

وأجاب المخبر: مش عايزين حاجة اتفضل ادخل نام.

ودخل شكرى مصطفى. وتوجه الترزى إلى التليفون الوحيد الموجود بالمنطقة،

بينما وقف المخبر على باب البيت (ويبقى التساؤل هل كان شكرى مصطفى قد

قرر الاستسلام. وماذا لو خرج هو والمنقبتان وتغلبوا حتى لو بسكين على المخبر

وفر هو هارباً؟).

المهم اتصل الترزى فى النهاية بقسم شرطة المطرية، وبعد فترة وصلت قوة

بقيادة الرائد عادل سليم رئيس مباحث القسم (إنه ذاته العميد عادل سليم وكيل

مباحث القاهرة الذى قتله الإرهابى محمد صلاح أثناء هروبه بعد اغتيال د. رفعت

المحجوب).

دخل النقيب ليجد شكرى مصطفى جالساً على الأرض واضعاً رأسه بين ركبتيه.

وعندما شاهد الضابط قال بهدوء: أنتم وصلتم، ووقف بهدوء^(٦٠).

وعلى الفور وصلت قوة كبيرة على رأسها اللواء نبوى إسماعيل (وكان آنذاك مساعداً لوزير الداخلية) وخرج النبوى إسماعيل ليعلن للصحفيين أن القبض على شكرى مصطفى زعيم الجماعة يمثل نقطة حول مهمة نقلتنا من مرحلة مواجهة الجماعة إلى مرحلة تصفيتها^(٦١).

أما أخبار اليوم فقد نشرت فى صدر صفحتها الأولى صورة شكرى مصطفى وتحتها عبارة "نظرة الإرهاب"، والعناوين البارزة كانت: "القبض على زعيم العصابة. بعد أكبر حملة قام بها رجال الأمن لضبط أعضاء عصابة الإرهاب- أمير الإرهاب يعترف أنا الذى دبرت خطف الذهبى. أمير الإرهاب يعلن: أنا طه المصطفى وسأحكم الأرض ومن عليها.. اليوم يبدأ التحقيق مع زعيم العصابة. نحن نسعى لحكم الأرض كلها ونستحل دم وعرض ومال كل من ينشق علينا"^(٦٢). ودارت الماكينة الحكومية ضد شركاء الأمس فى "أكذوبة المصالح المشتركة".

"بعد الاطلاع على الدستور. وعلى القانون رقم ١٦٢ لسنة ١٩٥٨ بشأن حالة الطوارئ، وعلى القانون ٢٥ لسنة ١٩٦٢ بإصدار قانون الأحكام العسكرية. وعلى قرار رئيس الجمهورية رقم ١٣٣٧ لسنة ١٩٦٧ بإعلان حالة الطوارئ.

قرر:

مادة ١: يحال إلى القضاء العسكرى القضية ٢٠٥ حصر أمن دولة عليا لعام ١٩٧٧ الخاصة بخطط ومقتل الدكتور محمد حسين الذهبى وما ارتبط بها من جرائم أخرى" وكذلك الجرائم المتصلة بتنظيم جماعة التكفير والهجرة وما ارتكب أفرادها من جرائم أخرى لم يتم التصرف فيها بعد".

وبعد محاكمة دافع فيها شكرى مصطفى عن أفكاره، أصدرت المحكمة العسكرية حكمها بإعدام كل من:

. شكرى مصطفى

. ماهر بكرى

. طارق عبد العليم

. أنور مأمون صقر

. مصطفى غازي

كما قضت المحكمة بمعاينة ١٢ متهماً بالأشغال الشاقة المؤبدة و ٢٤ متهماً بالأشغال الشاقة المؤقتة وبراءة ١٣ متهماً.

ويبقى بعد ذلك بضعة هوامش مهمة في جعبة البحث:

■ أعلن رئيس المحكمة في تصريحاته للصحفيين بعد صدور الأحكام "أنه نظراً لطابع القضية والمتهمين حاولت المحكمة الاستعانة بالمسؤولين في وزارة الأوقاف وبشيخ الأزهر للرد على هذه الأفكار (وهما الشيخ متولى الشعراوى، والشيخ عبد الحليم محمود) وكتبت لهما أكثر من مرة ولم يرد أحد منهما. كما تمت اتصالات تليفونية معهما دون جدوى ولم يكن أمام المحكمة سوى الاعتماد على معلوماتها الخاصة وثقافتها مستعينة بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية والفقه الإسلامى.

■ أثبتت هيئة المحكمة فى حيثيات الحكم هذا التقاعس.

■ وبناء على وعد تليفونى لرئيس المحكمة نشرت الصحف أن الشيخ عبد الحليم محمود والدكتور عبد الجليل شلبى سوف يحضران للشهادة فى الجلسة التى ستعقد فى ٢٣ سبتمبر ١٩٧٧ ولم يحضرا.

■ طلبت المحكمة من عدد من كبار رجال الدين الرد على أفكار الجماعة كتابة دون حاجة للحضور ولم يصلها أى رد كتابى.

لقد فضل شيخ الأزهر ووزارة الأوقاف أن يمسكوا العصا من منتصفها مع السلطة والمناصب التى يحتلونها.. ولا يريدون تنفيذ أفكار المتأسلمين الذين سفكوا دماء شيخ كبير من قرنائهم ربما خوفاً من مصير كمصيره.

■ جيل كييل فى كتابه "النبي والفرعون" ينعى على أجهزة الإعلام أنها صورت شكرى مصطفى فى صورة مجرم مجنون. وهو أمر غير صحيح (نلاحظ

أن أيمن الظواهري يقول فى كتابه "فرسان تحت راية النبى": إن خصومنا يقولون عنا إننا أنصاف مجانيين لأننا نتوهم إمكانية الانتصار على أمريكا واليهودية والمسيحية العالمية).

■ نبيل فارس فى كتابه "الإسلام لا يعرف العنف" يقول: "إن مشكلة هذه الجماعة أنها تحولت إلى مدرسة للتفكير. رغم أنه لم يعد لها وجود تنظيمى جاد. لكن عدداً كبيراً من التنظيمات السرية التى تطفو فجأة على السطح بعملية اغتيال أو هجوم إرهابى تمتد جذورها بشكل مباشر مع هذه الجماعة.

فبعد أن أعدم شكرى مصطفى تفرق أتباعه أما زوجته "استشهاد" فقد تزوجت من أحد أعضاء الجماعة الإسلامية، والبعض من الأعضاء تاب والآخرين تسربوا تحت الأرض ليعودوا من جديد مرتدين أقمصاً جديدة على ذات الجسم التكفيرى القديم، أو حتى بذات الاسم "التكفير والهجرة".

■ ويقول عادل دسوقي (جريدة الحياة "لندن" ١٩ نوفمبر ١٩٩٦) إن الجماعة قد عاودت الظهور عدة مرات، ويقول: ويمكن القول أن تنظيم التكفير والهجرة قد مر بثلاث مراحل أساسية من أجل العودة إلى الساحة: ١٩٧٧-١٩٨٣، ١٩٨٣-١٩٨٩، ١٩٨٩-١٩٩٦.

وتتميز المراحل الجديدة فى التخلّى التكتيكى عن الهجرة الكاملة إلى الصحراء وإزالة اللحية، والتخلّى عن المظاهر الدينية التقليدية، والسماح بالعمل فى المؤسسات الحكومية، والتحرك العلنى، والإعلان عن الاسم الرسمى للجماعة "جماعة المسلمين".

■ أما المرحلة الثالثة فقد شهدت ظهور جماعة جديدة هى "الناجون من النار" التى انشقت عن "التوقف والتبين" والتى صاغت فكراً يجمع بين فكر تنظيم "الجهاد" و"التكفير والهجرة".

■ ثم أنشأت مجموعة أخرى من "التكفير والهجرة" لتتنضم إلى "السماوية" وهى جماعة يرأسها "طه السماوى" وقد استخدمت هذه المجموعة العنف، وقامت

بعمليات مسلحة ضد أندية الفيديو ودور السينما ومحال بيع المشروبات الروحية والسطو المسلح على محلات الذهب التى يمتلكها المسيحيون.

■ أما الطبعة الثالثة من "التكفير والهجرة" فقد ظهرت فى "جماعة الشوقيين" نسبة إلى زعيمها شوقى الشيخ الذى سيطر تقريباً على قرية كحك مركز إيشواى (الفيوم) وقد سحقها رجال الأمن فى هجوم كاسح على القرية فى ٢٧ - ٤ - ١٩٩٠. ■ ومن القرية ذاتها انشق عن الشيخ شوقى أحد الأعضاء ليؤسس جماعة هى "التكفير الجديد".

وهكذا يمضى عنقود العنف المرير .

- جماعة الإخوان التى أفرزت أهم قادة التكفير والهجرة (شكرى مصطفى - عبد الرحمن أبو الخير - طه السماوى -، وآخرون).
- التكفير والهجرة ويخرج منها حسب الترتيب:
- التوقف والتبين، ومنها أتت:
- الناجون من النار، ومنها أتت:
- السماويون، ومنها أتت جماعة:
- الشوقيون، ومنها أتت جماعة:
- التكفير الجديد.

- وفى عام ١٩٩٦ قبض على عدة مئات من أعضاء "التكفير والهجرة".
- وأخيراً وفى عام ٢٠٠٥ نطالع فى إحدى الصحف "حذر خبراء بريطانيون أمس من خطر استقرار حركة التكفير والهجرة الإرهابية داخل البلاد بعدما نجح موالوها فى استغلال التراخى فى تطبيق إجراءات اللجوء السياسى.
- وأوردت النشرة المتخصصة فى الشؤون الاستخباراتية "جينس أنتلجنس ريفيو" "أن حركة التكفير والهجرة الأكثر تطرفاً من تنظيم القاعدة قد عززت تدريجياً وجودها فى أوروبا فى الأعوام الأخيرة عبر شبكة غير منظمة من الأئمة والمؤيدين لها. وأشارت النشرة إلى شكوك أجهزة الأمن المحلية فى احتمال مساهمة هذه

الحركة المتطرفة في وضع مخطط تفجيرات قطارات مدريد في ١١ مارس ٢٠٠٤. وقالت: إن بريطانيا تشكل نقطة عبور رئيسية لهذه الجماعات التي قاتل عناصرها في أفغانستان خلال الثمانينيات مؤكدة وجود موالين لها في فرنسا وألمانيا وإيطاليا وبريطانيا عبر ١٦ مسجداً على الأقل^(٦٣).

الهوامش:

- (١) عمر التلمساني - ذكريات لا مذكرات - المرجع السابق - ص ١١٣.
- (٢) أحمد رائف - سراديب الشيطان - صفحات من تاريخ الإخوان - القاهرة (١٩٨٩) - ص ٥٣ .
- (٣) أحمد رائف - البوابة السوداء - المرجع السابق - ص ٥٨٢ .
- (٤) الحياة - (لندن) - ١٩ نوفمبر - ١٩٩٦ - مقال لعادل دسوقي بعنوان: ربع قرن على ظهور فكر التكفير والهجرة. الجماعة الأولى تغيرت ملامحها.
- (٥) أحمد رائف - البوابة السوداء - المرجع السابق - ص ٤٨٢ .
- (٦) المرجع السابق - ص ٥٠٩.
- (٧) المرجع السابق - ص ٥٣٩.
- (٨) المرجع السابق - ص ٥٧٤.
- (٩) المرجع السابق - ص ٥٧٥.
- (١٠) عبد الرحمن أبو الخير - ذكريات مع جماعة المسلمين (التكفير والهجرة) - الكويت (١٩٨٠م - ١٤٠٠هـ) - ص ١٨.
- (١١) اللواء فؤاد علام - المرجع السابق - ٢٣٦.
- (١٢) نبيل فارس - الإسلام لا يعرف العنف - المرجع السابق - ص ١٤.
- (١٣) اللواء فؤاد علام - المرجع السابق - ص ٢٣٧.
- (١٤) ملف القضية ٦١٨ لسنة ١٩٧٣ أمن دولة عليا.
- (١٥) نبيل فارس - الإسلام لا يعرف العنف - المرجع السابق - ص ١٨.
- (١٦) المرجع السابق - ص ٢١.
- (١٧) المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجناائية - المرجع السابق - ص ٢٤٨ .
- (١٨) المرجع السابق - ص ٢٤٩.
- (١٩) منتصر الزيات - الجماعة الإسلامية - رؤية من الداخل - القاهرة (٢٠٠٥) - ص ٤٠.
- (٢٠) نبيل فارس - الإسلام لا يعرف العنف - المرجع السابق - نقلاً عن دراسة للدكتور سعد الدين إبراهيم.
- (٢١) لمزيد من التفاصيل راجع: حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية.
- (٢٢) نبيل فارس - الإسلام لا يعرف العنف - المرجع السابق - ص ٢٩ ويقول المؤلف إنه قام بهذا البحث بنفسه.
- (٢٣) المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجناائية - المرجع السابق - ص ٢٠٤.
- (٢٤) تقرير البنك الدولي - عام ١٩٨٠.
- (٢٥) أقوال المتهم محمد سعد محمد في تحقيقات النيابة في قضية اختطاف واغتيال الدكتور الذهبي وهي القضية ٦ لسنة ١٩٧٧ أمن دولة عليا.

- (٢٦) أقوال المتهمين مجدى صابر، إسلام محمد عاطف وصفوت الزينى فى تحقيقات النيابة، فى القضية ٦ لسنة ١٩٧٧ أمن دولة عليا.
- (٢٧) منتصر الزيات - الجماعة الإسلامية، رؤية من الداخل - المرجع السابق - ص ٤١.
- (٢٨) المرجع السابق - ص ٤٣.
- (٢٩) عبد الرحمن أبو الخير - ذكريات مع الجماعة السلفية (التكفير والهجرة) - المرجع السابق - ١٨.
- (٣٠) المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجناائية - المرجع السابق - ص ٢٤٧.
- (٣١) المرجع السابق - ص ٢٤٦.
- (٣٢) المرجع السابق - ص ٢٤٣.
- (٣٣) المرجع السابق - ص ٢٤٦.
- (٣٤) المرجع السابق - ص ٢٤٤.
- (٣٥) عبد الرحمن أبو الخير - ذكريات مع جماعة المسلمين - المرجع السابق - ص ٩٤.
- (٣٦) منتصر الزيات - المرجع السابق - ص ٤٢.
- (٣٧) المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجناائية - المرجع السابق - ص ٢٤٣.
- (٣٨) وردت هذه التسميات والأسماء الحقيقية لها فى صفحات متناثرة من: عبد الرحمن أبو الخير - ذكريات مع الجماعة المسلمة - المرجع السابق.
- (٣٩) المرجع السابق - ص ٣٢.
- (٤٠) المرجع السابق - ص ١٤.
- (٤١) المرجع السابق - ص ١٣٨.
- (٤٢) المرجع السابق - ص ١٩.
- (٤٣) المرجع السابق - ص ٥٨.
- (٤٤) المرجع السابق - ص ٨٧.
- (٤٥) المرجع السابق - ص ٨٤.
- (٤٦) عبد الرحمن أبو الخير - المرجع السابق - ص ١١١.
- (٤٧) المرجع السابق - ص ١١٤.
- (٤٨) نبيل فارس - الإسلام لا يعرف العنف - المرجع السابق - ٥٩٢.
- (٤٩) المرجع السابق - ص ٦١.
- (٥٠) قبسات من هدى الإسلام - إصدار وزارة الأوقاف - القاهرة (١٩٧٥) - مقدمة بقلم الشيخ الذهبى.
- (٥١) نبيل فارس - الإسلام لا يعرف العنف - المرجع السابق - ص ٦٢.
- (٥٢) عبد الرحمن أبو الخير - ذكريات مع جماعة المسلمين - المرجع السابق - ص ١٩٦.
- (٥٣) المرجع السابق - ص ١٩٧.
- (٥٤) المرجع السابق - ص ١٥٠.
- (٥٥) المرجع السابق - ص ١٥١.

- (٥٦) محمد حسين الذهبي (الدكتور) - مشكلات الدعوة والدعاة - مكتب الشهيد الدكتور الذهبي - القاهرة (ربيع الأول ١٣٩٨ هـ فبراير ١٩٧٨ م) . وهو النص الكامل للتقرير المشار إليه.
- (٥٧) علوى حافظ - المنصة - القاهرة (د. ت).
- (٥٨) نبيل فارس - الإسلام لا يعرف العنف - المرجع السابق - ص ٧٧.
- (٥٩) المرجع السابق - ص ٥٩.
- (٦٠) الاقتباسات السابقة عن الحوار منقولة عن: ملف القضية رقم ٢٠٥ لسنة ١٩٧٧ حصر أمن دولة عليا الخاص بقضية اختطاف واغتيال الدكتور الذهبي، المتهم فيها شكري مصطفى وآخرون، ويقع في ٧٥٢ صفحة.
- (٦١) الجمهورية - ٩ يوليو ١٩٧٧.
- (٦٢) أخبار اليوم - ٩ يوليو ١٩٧٧.
- (٦٣) الحياة (لندن) - ٢-٢-٢٠٠٥.

التوسمات^(*)

شكرى مصطفى

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)) [القمر] تساوى:-
 (مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا
 عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ (٣)) [الأحقاف].

والخلاصة العملية لإقامة دولة الإسلام تبني وتقوم على أمرين:

١. تدمير الكافرين.

٢. توريث المؤمنين الأرض من بعدهم.

(وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ (١٤)) [إبراهيم].. ولكن بشرط

(ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدَ (١٤)) [إبراهيم] .

(خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدَ (١٤)) [إبراهيم] تساوى

(يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً (٥٥)) [النور] وقبلها:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا

اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً (٥٥)) [النور].

(*) كراس مكتوب بخط اليد لأن شكرى مصطفى كان يرفض استخدام المطبعة باعتبار أنها عتاد كافر، ولا

يستخدمه إلا الكافرون، والكتابة بالحبر الأسود، بينما الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مكتوبة الحبر الأحمر.

والكراس فى ٨٥ صفحة من القطع العادى للكراس. ونكتفى بنشر مقتطفات منه توضح حقيقة الفكر الذى

التزمه شكرى مصطفى والزم به تنظيمه.

إن الله سبحانه وتعالى حينما خلق بالحق وأمر بالحق قد قدر أن من جملة سننه فى الكون، تلك السنن التى لا تتغير ولا تتبدل.. أن يزهر نوره على الأديان كلها ولو كره المشركون... لماذا؟

لأنه الدين الحق ودين الحق. قال الله تعالى فى ذلك:

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (([الصف].

.. فظهر الإسلام لأنه دين الحق. ويدمر الباطل لأنه كان زهوقاً (إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) (([الإسراء] وقال تعالى: (وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ) ((١٤١)) [آل عمران].

.. فإذا محق الكافرون وتمحص المؤمنون يظهر دين الله..
أو كما قال الله تعالى:

(كَزَرِعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ - أَى غَضَضَ بَعْضُهُ بَعْضًا . فَاسْتَخْلَطَ - أَى أَصْبَحَ كُلُّ عود قوًى - فاستوى على سوقه - فَاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ أَى نَضَجَ وَطَاب - يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ - والزراع هنا هو الله سبحانه وتعالى - لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ - أَى يدمر دولتهم - وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) (([الفتح].

وكما قلنا إن شرط التمكين والاستخلاف:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا) (([النور] وهذا هو شرط الاستخلاف والتمكين (يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا) (([النور].

وكذا يقول الله تبارك وتعالى:

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) (١٠٥)

إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦)) [الأنبياء].

إن توريت المؤمنين الأرض حق ثابت لا يتغير وسنة ثابتة لا تتحول، ولذلك جعلها الله وعداً منه.

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥)) [القصص].

ولن يجعلهم أئمة إلا بعد الصبر واليقين.. كما يقول سبحانه وتعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)) [السجدة].

فالصبر يكون بتحمل الأذى في أرض الاستضعاف إلى حين الخروج والهجرة، ويكون على حرب الشهوات التي زينها الشيطان للإنسان.. واليقين يكون بدفع ما يلقيه الشيطان وحزبه من الشبهات القابعة في الإيمان.. ثم نستكمل آية القصص.. (وَجَعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَتُكَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ نَازِلٌ وَنُزُلٌ مِّنْ سَمَوَاتٍ وَمَا مَنَ وَجُودُهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)) [القصص].

وكما هو معروف أن للمستضعفين في أرض الاستضعاف يفتنون في دينهم ويلاقون الأذى من الطغاة.

(يَسْتَضِعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ (٤)) [القصص].
والمستضعفون الذين يقولون (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا (٧٥)) [النساء] - فيصبر المستضعفون على تحمل الأذى إلى حين الخروج ثم وعد الله.. ثم يأتي بعد ذلك النصر وتدمير الكافرين.

(قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)) [الأعراف] ثم يأتي النصر بعد ذلك بعد الإيذاء والصبر.

(وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ

فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)) [الأعراف].

إن قضية تدمير الكافرين وتوريث المؤمنين حق ثابت وسنة ثابتة:
(فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣)) [فاطر].

"جفت الأقلام وطويت الصحف"

(وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا (٥٩)) [الكهف].

وكل قرية ظلمت وعصمت كان حقاً على الله أن يهلكها ويدمرها.

■ ثم يتم الحق الآخر والآية الأخرى.. وذلك في الآية التي بعدها: (ثُمَّ نُنَجِّي

رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا (١٠٣)) [يونس] هل انتهت هذه السنة؟ لا

(كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)) [يونس].

إن الله سبحانه وتعالى فعال لما يريد يعز من يشاء ويذل من يشاء، ينصر هذا

ويهزم هذا وكل ذلك بالحق.. وبحكمة وسنة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل.

وكما أن هذه الحكمة وهذه السنة في الإحياء والإماتة، وفي ذهاب الليل وإقبال

النهار، وفي الكون كله، كذلك هذه الحكمة وهذه السنة في إعزاز المسلمين وذل

الكافرين ونرى هذا المعنى في الآية:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن

تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ (٢٦)) [آل عمران]. سنة لا تتغير وهي إذا استقام المؤمنون

على أمر الله أعزهم الله ونصرهم وذل الكافرين وخذلهم (إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ (٢٦) تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ

وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)) [آل عمران] وهي

السنة الأخيرة التي لا تتغير - (وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ

وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)) [آل عمران].

وكذا يقول الله تعالى :

(إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ (١٣)) [البروج] ويقول قبلها

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢)) [البروج]

والصلة بين الآيتين أن الله يهلك الكافرين ويبطش بهم ويبدئ ويعيد فى تمكين المؤمنين وتوريثهم وهو الغفور الودود، أى غفور للمؤمنين بعد أن يبطش بالكافرين.

إن الله سبحانه كما أنه يبدئ ويعيد فى تدمير الكافرين كلما ظلموا... كذلك يبدئ ويعيد فى توريث المؤمنين الأرض كلما آمنوا وعملوا الصالحات.

■ وعلى ضوء هذا يمكننا أن نفهم قوله تعالى:

(كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا (١٠٤)) (الأنبياء)

الإضافة هنا فى كلمة "كما" أى أن الله يبدئ الخلق ويعيده بصورة واحدة "كما"

(كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ (١٠٤)) [الأنبياء].

(كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (٦٣)) [النور]

"وسيعود قريباً كما بدأ..." الحديث

(نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠)) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢)) [هود].

ماذا ينتظرون... سنة الله.

(فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢)) ثُمَّ نُنْجِى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)) [يونس].. لكن سنة الله أنه لا يبطل الباطل حتى يجيء الحق وأنه لا يمحى الكافرين حتى يمحى المؤمنين وأن الله لا يغيظ الكافرين حتى يستوى زرع المؤمنين وتستوى جماعتهم.. فيقول تعالى:

(بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ (١٨)) [الأنبياء]

إن الله لم يضع الحق على الباطل.. بل يقذفه.. أى بقوة وبشدة (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)) [الإسراء].

هكذا كان رسول الله ﷺ يقول حينما دخل مكة منتصراً إن الباطل سمته الزهوق،

ولكن تدميره يكون فى وقت معين وهو عند تكوين جماعة المؤمنين.

■ إن النبى ﷺ سار فى طريق الحق وقانون الحق وأقام دولة الحق ودين الحق بالحق وبسنة الحق.. ولهذا تكونت خير أمة أخرجت للناس. فإذا أردنا أن نعيد هذه الأمة - التى هى خير أمة أخرجت للناس فلا بد من سلوك نفس الطريق... طريق الحق.. لإقامة دولة الحق ولإظهار دين الحق.

(كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ(١٠٤)) [الأنبياء].. "وسيعود قريباً كما بدأ".

وكلمة "كما" تفيد المثلية فى كل شىء.

فلا بد إذا من وضع خطة محكمة ثابتة للوصول إلى أحسن الصيغ وأحسن الخلق، وهذه الخطة لا بد أن تكون أحسن خطة إذا أردنا أن نصل إلى أحسن خلق وإلى أحسن صيغة. إن الإنسان إذا أراد مثلاً أن يصنع كرسيّاً يجلس عليه.. على أحسن صنعة لا بد له أن ينتقى له أحسن الخشب، ويختار له أحسن الأبعاد والأطوال وأحسن الألوان ويقطع الخشب بأحسن منشار، ويضع فى هذا الكرسي أحسن المسامير وأنسبها، وفى النهاية إذا أراد أن يعيد صنع نفس الكرسي على نفس الدرجة من الحسن فلا بد أن يتبع نفس الأسلوب والدرجات.

إن شرط تمكين المسلمين فى الأرض واستخلافهم وإقامة دولتهم وإظهار دينهم هو الإيمان والعمل الصالح.. هذا الشرط لا يمكن أن يتغير أو يتبدل من زمان إلى زمان أو من مكان إلى مكان، فسيكون الإيمان والعمل الصالح الذى أمر به رسول الله ﷺ وأصحابه غير الإيمان والعمل الصالح فى آخر الزمان!! لا يمكن..

لا بد من سلوك طريق النبى (ﷺ) وأصحابه شبراً بشبر وذراعاً بذراع... لأن الله سبحانه وتعالى يبدأ الخلق ثم يعيده بصورة لا تتغير ولا تتبدل، ولا تتحول وهى (كما) كما بدأ الإسلام عاد الإسلام.

فنعلم من ذلك أن الفرقة الناجية هى ما كانت على سلوك وطريق وفعل النبى (ﷺ) وأصحابه أو يقول (ﷺ).

قال الله سبحانه:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ (٢١))
[الأحزاب] ، فكل من كان يرجو الله واليوم الآخر له أسوة حسنة في رسول (ﷺ)
فى كل شىء ونحن حينما نقول ذلك، نقوله لبيان حقيقة واحدة، وهى أن على
جماعة الحق فى آخر الزمان التأسى الكامل برسول الله (ﷺ) حينما أراد أن يظهر
دين الله فى الأرض.. ولكن الرسول (ﷺ) لم يقم للإسلام دولة إلا بعد الهجرة..
فهل علينا نحن جماعة آخر الزمان - أن نهاجر تأسيساً بالرسول حتى نقيم للإسلام
دولة؟ والإجابة نعم.

ولا بد من الهجرة.. وهناك بحث كبير لإثبات ذلك وبيان أن الهجرة سنة من
سنن إعادة الإسلام إلى الأرض ومن سنن نصر المؤمنين وهلاك الكافرين. ولا
مانع من أن نوضح هذه الحقيقة بإيجاز لنبين بعد ذلك أمراً يتعلق بهذه الحقيقة..
حقيقة أنه لا إسلام ودولة تقام له إلا بعد الهجرة.

■ (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ (٢١٦)) (البقرة).

هذه العبارة بأقسامها الثلاثة لا يستطيع الإنسان أن يؤديها إلا فى المجتمع
المسلم الذى عن طريقه سيحكم إلى شرع الله فى كل أموره.
ولكن هذا المجتمع لا يوجد... فأصبح وجوده ضرورة، ضرورة عبادة الله لأنه
ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

فالواجب علينا عبادة الله وهى لا تتم إلا فى المجتمع المسلم.. وهو لا يوجد
فأصبح وجوده واجبا لوجوب عبادة الله.

وهذا المجتمع المسلم ليس مائدة تنتزل من السماء ولكنه يتكون من
المستضعفين الذين هاجروا إلى أرض الله الواسعة مع الأنصار الذين تبوءوا الدار
والإيمان يحبون من هاجر إليهم.. وهناك يستطيعون أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به
شيئاً، خاصة أنفسهم ويستطيعون أن يبلغوا البلاغ الكامل ويجاهدوا فى سبيل الله
كما فعل الرسول (ﷺ) وفى الوعيد على التهاون فى واجب الهجرة والتخلى عنه قال
تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاعَتْ مَصِيرًا) ((٩٧)) [النساء].

وفى فضل الهجرة قال الله تعالى:

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) ((١٠٠)) [النساء]

وفى ضمان وجود أرض الهجرة أكد الله سبحانه وتعالى ذلك بكلمة إن الإنسان إذا أراد أن يعمل الصالحات فعليه بالأرض الواسعة تلك الأرض التي لا يعبد فيها إلا إياه - سبحانه قال تعالى:

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ) ((٥٦)) [العنكبوت].

والجهاد فى سبيل الله لم يفرض على المسلمين إلا بعد الهجرة.

(أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) ((٤٠)) [الحج]
والإذن بالقتال لم يأت إلا فى المدينة بعد الهجرة.

كذلك فى آيات كثيرة من القرآن تجد أن الجهاد لا يكون إلا بعد الهجرة (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ) ((٢١٨)) [البقرة].

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ((٧٤)) [الأنفال].

(وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ) ((٧٥)) [الأنفال].

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) ((١١٠)) [النحل].

وقال ﷺ: "وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهن: الجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد فى سبيل الله".

کما إنه لا یوجد رسول إلا وهاجر.. قال تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا (كل الذين كفروا) لِرُسُلِهِمْ (لكل الرسل) لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا
أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا (ولكن الرسل لا يختارون إلا الخروج) فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ
لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ
وَعِيدِ (١٤)) [إبراهيم].

وكذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا
(أَي نَزَلَ عَلَيْهِمُ الْهَلَاكُ) (٧٦) سُنَّةٌ (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ
مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧)) [الإسراء].

أَوْ كَمَا قَالَ وَرَقَّةُ بْنُ نَوْفَلٍ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَوَّلِ بَعْثَتِهِ (مَا جَاءَ رَجُلٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا أَخْرَجَهُ قَوْمَهُ).

كذلك فإن هلاك الكفار وتدمير دولتهم لا يأتي وهناك مؤمنون في وسطهم، والسنة أن يخرج المسلمون من أرض الكفر ولا يبقى إلا الكافرون.. حين ذلك ينزل العذاب عليهم" (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ (٣٣)) [الأنفال].

(وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنَّ تَطَوُّوهُمْ فَتُصَيِّبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (٢٥) [الفتح]

(وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يُلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا) ((الإسراء) ٧٦) أى يهلكون بعد خروج.

ولكن متى تكون الهجرة؟

تكون حينما يظلم الإنسان..

والذين هاجروا في الله (متى؟!) من بعد ما ظلموا..

وتكون الهجرة عندما تصل الحال بالمؤمنين إلى النحو الذي تصوره الآية:

(إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلَحُوا إِذَا

أَبْدَا (٢٠)) [الكهف].

وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَزِدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)) [البقرة]

والمتدبر فى الآية يجد أنه بعد ما ذكر أن الكافرون فى استمرارهم لقتال المسلمين ليردوهم عن دينهم إن استطاعوا ذكر بعد ذلك الهجرة كذلك الآية :

(مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ - فَتَنَةٌ وَتَكْوِيلٌ بِالْمُؤْمِنِينَ - وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صُدْرًا (١٠٦)) [النحل].

ثم ذكر بعدها الهجرة وكانها المخرج الوحيد من العذاب والفتنة (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠)) [النحل].

وهناك أحاديث أخرى عن الهجرة منها:

ـ "الهجرة باقية إلى يوم القيامة" (ما معناه).

ـ لا تنقطع الهجرة حتى قطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تخرج الشمس من مغربها.

"بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً، كما بدأ. وإن الإيمان ليأزر إلى المدينة كما تأزر الحية إلى جحرها" (مسلم).

وقد بين الله سبحانه وتعالى فى آيات كثيرة من القرآن أن الخير كل الخير يأتى بعد الهجرة.

فالرزق يأتى بعد الهجرة.

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً (١٠٠)) [النساء].

وإذا مات الإنسان فى الطريق وهو مهاجر إلى الله غفر الله له:

(وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) ((١٠٠)) [النساء].

الهداية إلى الصراط المستقيم يأتي بعد الهجرة وكذلك التثبيت عليه:
(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا) (٦٦) وَإِذَا لَا تَأْنِيَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا) (٦٧) وَلَهَذَيْنَا هُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا) ((٦٨)) [النساء].

وخير كثير كثير.. يأتي بعد الهجرة.

(فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا) ((٤٩)) [مريم].

(فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ) ((٢١)) [الشعراء].

ولكن إذا تيقنا أن الإسلام سيعود إلى الأرض مرة ثانية فإنه سيعود كما بدأ وبنفس الطريقة التي بدأ بها.. ويمر المسلمون بنفس المراحل التي مر بها أسلافهم من جماعة وسمع وطاعة واضطهاد وفتنة وتمحيص ثم هجرة ونصر ورزق.
وإذا اتفقنا على ذلك وتيقنا من كل ذلك فهل معنى ذلك أن المسلمين ملزمون بسنن الرسول ﷺ العادية في الدعوة إلى الإسلام وفي نشر الإسلام.

هل يلزمهم أن يهاجروا على القناتة مثلاً كما هاجر الرسول ﷺ، وهل يلزمهم أن يهاجروا عن طريق الساحل كما هاجر الرسول ﷺ؟! وما الضابط في ذلك؟
الضابط في ذلك هو أن ما جاء بنص عام يبين أن هذا الأمر من دين الله وأنه من أعمال المسلمين وأنه لا يكون إيمان بغيره.. إذا جاءت النصوص بهذه الصورة فحينئذ يلزمنا الاتباع، أما إذا جاء سلوكاً ليس فيه أنه عام ولا سنة ثابتة فحينئذ لا يلزمنا الاتباع.

فمثلاً حينما يقول الله سبحانه:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ

وَعَدَوْكُمُ (٦٠)) [الأنفال] فهذا خطاب موحد للمؤمنين في أول الزمان، وفي آخر الزمان - والقوة - كما جاء في الحديث، وكما سنبين فيما بعد - هي الرمي - والخيال هي الخيل.. فإذا جاء من يقول إن الخيل لا تصلح الآن فنقول له نحن لا نقاتل وعندما نقاتل فسيكون قَتالنا بالسيف والرمي والخيال.

وإن السنة في ذلك كما بينا هي أن المسلمين يستقيمون على أمر الله ثم يهاجرون في سبيل الله إلى أرض الله الواسعة فلا يبقى إلا الظالمون.. حينئذ تأتي عليهم سنة الله.. الهلاك والدمار.

(لَوْ تَرَىٰٓهُمْ لَعَدَّيْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُم عَذَابًا أَلِيمًا) ((٢٥)) [الفتح].
 (وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ) (٧٦) سُنَّةٌ مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا
 تَحْوِيلًا) ((٧٧)) [الإسراء].

ثم يعاد الخلق كما بدأ بعد أن أهلك الله الكافرين وعلومهم وأساليبهم في القتال - وسوف يوضح هذا الموضوع أكثر من ذلك في حينه.

والآن..

حان حين تفصيل ما الذى كانت عليه جماعة محمد صلى الله عليه وسلم.. لقد بينا فيما سبق أن كل الفرق هالكة إلا فرقة واحدة بينها لنا رسول الله (ﷺ) وهى:
"الجماعة ما أنا عليه اليوم وأصحابى".

وبينا أن الإسلام سيعاد إلى الأرض مرة ثانية وذلك بنص الحديث وأن هذه الإعادة سيكون كالبداية سوا بسواء:
 "بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ".

وقال عليه الصلاة والسلام:
 "تركتم على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك ليلها كنهارها" الحديث
 معناه:

"ترکت فیکم إن تمسکتُم به لن تضلوا بعدی أبداً کتاب الله وسنتی".
 "ما ترکت شیئاً یقریکم إلی الله وقد أمرتکم به، وما ترکت من شیء یباعدکم عن

الله إلا وقد نهيتكم عنه".

"وقد رأى رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب يقرأ في صحيفة التوراة فغضب لذلك وقال له:

"والله لو أن موسى حياً بين أظهركم ما وسعه إلا أن يتبعنى".
وبين الله سبحانه أنه لا يوجد أضل ممن لم يستجب للرسول في كل شيء وبين أنهم يتبعون أهواءهم.

(فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)) [القصاص].

"لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به".

"من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد - أى باطل".

"من أتى بعمل ليس عليه أمر فهو رد".

■ لا إجماع لا قياس ولا مصالح مرسلة ولا رأى صحابى ولا... ولا... ولا...
قال الله وقال الرسول وحسب.

هكذا كانت جماعة محمد ﷺ تنهل نهلاً مباشراً من كلام الله وكلام الرسول ﷺ.

وجماعة آخر الزمان لا بد أن تسلك نفس الطريق.

.. وكما أنه لا يمكن لجماعة محمد ﷺ أن تأخذ شيئاً من غير الكتاب والسنة وإقامة الإسلام.. فذلك جماعة الحق جماعة آخر الزمان لا بد لها من الاختصار على الكتاب والسنة، ولا تأخذ شيئاً من غير الكتاب فالسنة.

■ كانت جماعة محمد ﷺ تتعلم هذا الدين لا تتعلمه لمجرد العلم ولا تتعلمه للدنيا... ولكن تتعلمه للتطبيق والعمل والعبادة.

قال الله تعالى:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (١٩)) [محمد] (... لماذا؟....) لتتوب إليه وتعبده

لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا (لماذا؟..)

فَاعْبُدُونِ (٢٥) [الأنبياء].

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) [الذاريات].

العلم وسيلة لعبادة الله... وكل علم يتعلمه الإنسان لغير العبادة فقد تعلمه لنفسه وتعلمه لغير الله وهذا شرك.

وكان رسول الله ﷺ يتعوذ من علم لا ينفع.

"اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع" أى علم لا أعبدك به.

ولم يكونوا يتعلمون أيضاً من أجل الدنيا لم يكونوا يتعلمون لتعمير الأرض ورفع البناء.

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا (٨٣) [القصاص].

كانوا يتعلمون للآخرة.. وأى علم ليس للآخرة فهو عبث وشرك.

وقد ذم الله تعالى التعليم من أجل الدنيا وعلوم الدنيا التى يطغى بها البشر ويفسدون فى الأرض ولا يصلحون، فقال تعالى:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) [الروم]

▪ لقد مكث رسول الله ﷺ فى مكة ثلاث عشرة سنة لا يعلم المسلمين إلا الكتاب والحكمة.. ولم يعلم نفسه صلى الله عليه وسلم غير ذلك، لقد شاب فى مكة صلى الله عليه وسلم وهو لا يعلم أن النخل يحتاج إلى تلقيح الأنثى من الذكر حتى أفتى لأصحابه بألا يلقحوا النخل فلما تبين له أنه أخطأ قال لهم: "ما قلت لكم قال الله لا أكذب على الله وأنتم أعلم بشئون دنياكم".

ولكن ما هى أم القرى فى عهدنا الحالى التى تنهض منها الدعوة الإسلامية. عهد قيام الدولة الإسلامية مرة ثانية – كما وعد بذلك الله ورسوله ﷺ؟ قبل أن نحجب عن هذا السؤال نسأل سؤالاً أولاً: ما معنى أم القرى؟ المقصود بأم القرى أى ناصحة القرى ونحن نقصد بذلك أم القرى فى منطقة الشرق الأوسط التى نزلت

فيها عموم الرسالات السماوية التي نعرفها وهي بدهة لا يقصد بها البلد ذات الترف المادى وإلا فكانت الفرس أو الروم أم القرى لأن كلا من الدولتين كانت أحسن حالاً من مكة من ناحية العمران والترف.. وإنما المقصود بأم القرى البلد الذى تتجه إليه أنظار الناس فكانت مكة أم القرى لوجود البيت الحرام فيها، وكانت فيها قبيلة قريش وزعامة العرب، كما أنها أيضا ملتقى أنظار العرب. وقال الله عن ذلك: (أَلَا نُنَاقِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ (١٣)) [التوبة].

وهو يقصد بذلك مكة لأنهم هم الذين بدأو المسلمين أول مرة بالقتال ويقول القرآن قبلها (فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ (١٢)) [التوبة] والرابطة بين الآيتين أن أئمة الكفر كانوا بطبيعة الحال فى مكة، ولكن ما الحكمة فى إرسال الرسل فى أم القرى لتقام دولة الإسلام بهم؟

الحكمة الأولى:

إن الله يريد أن يربى المؤمنين تربية فكرية كاملة، فى أم القرى أكبر المفكرين وأصحاب البيان فيرسلون الشبهات على المؤمنين فيتمحص المؤمنون فكراً ويجاهدون للرد على الشبهات والشكوك القاذحة فى الإيمان وبذلك يكونون أئمة فى الكفر، وتقام عليهم دولة الإسلام. قال تعالى فى ذلك: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)) [السجدة].

الحكمة الثانية:

أن بأم القرى أكبر مراكز الكفر، ويظهر الحق فى أم القرى ثم ماذا بعد ذلك، ثم يقذف الله تعالى بهذا الحق الذى يظهر فى أم القرى فيدفعه - أى يصيبه فى مقاتله فى المكان الذى يقتل منه فى دماغه حنى يقضى عليه، ومتى قضى على الباطل فى أكبر مراكزه، كان ذلك أدعى أن يقضى عليه فى أقل مراكزه وما دون أم القرى من الدول. أى من حول أم القرى من القرى.

"بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكن الويل مما تصفون".

الحكمة الثالثة:

أن أئمة الكفر يوجدون فى أم القرى ولهم قدرة على تعذيب المؤمنين وضربهم وعندهم فى ذلك غرائب الحيل.. فينتج من هذا تدريب وتهذيب وتمحيص المؤمنين الذين سوف تقام عليهم دولة الإسلام، كما أن الشجار الذى يحدث بين المؤمنين والعتاة فى أم القرى أخرى أن يسمعه العالم، ويسمعه الناس أجمعين لأنه حدث فى أم القرى. ولذلك فقله تعالى لمحمد ﷺ:

(وَلْيُنذِرْ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا (٩٢)) [الأنعام].

من الناحية التطبيقية أين هى أم القرى الآن فى منطقة الشرق الأوسط... أين المكان الذى يصدر الكفر إلى العالم العربى؟

.. أين القرية التى حاربت؟ من نادى بالجهاد فى سبيل الله منذ أن ينادى بالجهاد فى سبيل الله - بصرف النظر عما إذا كان بصورة صحيحة أم غير صحيحة؟.. وأين القرية التى تعتبر متجه العالم العربى؟
هى ببداية الآن.. مصر.

ولا ننسى أن الله قد بين قصة موسى وفرعون فى القرآن أكثر من مرة، وفى أكثر من موضع.. وأن هذه القصة ركز عليها القرآن تركيزاً شديداً فلا شك أنه سبحانه وتعالى حينما أهلك فرعون قال: (لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ آيَةً (٩٢)) [يونس].
وقال سبحانه: (فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِّلْآخِرِينَ (٥٦)) [الزخرف] أى آخر الناس
وآخر جماعة محمد صلى الله عليه وسلم.. هم الذين قال الله عنهم: (وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ (٣)) [الجمعة].

إن الجماعة الإسلامية فى آخر الزمان - التى أخبر عنها الإسلام تنشأ فى أم القرى ثم هاجر فيها إلى بلد غيرها.. وكذلك سوف تفعل الجماعة الإسلامية فى آخر الزمان.. وسوف تهاجر من أم القرى إلى أرض الله الواسعة التى أخبرنا بها الشرع أيضاً، وجدير بالقول إن هجرة المسلمين فى أول الأمر لم تكن من أرض

استضعاف إلى مكان عزة وسلطان للمسلمين.. بل كانت من مكان أكبر استضعافاً إلى مكان أقل استضعافاً.. لم يكن المسلمين عند هجرتهم للحبشة هم ملوك الحبشة، ولا ملوك المدينة وكان في المدينة حين هجرة المسلمين الأوس والخزرج من المشركين، وكان هناك اليهود. فلما هاجر الرسول ﷺ كان هناك رجل من المشركين تنظم له خرزات التاج ليكون هو الملك وهو عبد الله بن أبي وكان يعد ليكون حاكم المنطقة وظل بحاله والرئاسة لكفار حتى أسلم بعد غزوة بدر.

وأخيراً فإن السنة أن تنشأ جماعة الحق في أم القرى وكل زمان له أم قرى ثم تهاجر جماعة الحق من أم القرى هذه إلى مكان يكون لها فيما بعد السلطان والغلبة وذلك بعد أن يهدي الله ناس هذا المكان من حكام ومحكومين.

■ بعد الهجرة يكون الجهاد فالنصر أو الاستشهاد.

ولكن من العدو الذي تقاظه الجماعة المسلمة هل هو عدو ثابت أم متغير؟

قال تعالى:

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) ((٨٢)) [المائدة].

فكلمة "الذين آمنوا" كلمة عادية تشمل المؤمنين في أول الزمان وفي آخر الزمان وعدو أول الزمان هو عدو آخر الزمان.

الآية تقول أشد الناس عداوة اليهود مع أن المشركين أول من حارب الرسول ﷺ

لا اليهود..

وكذلك في جماعة الإسلام في آخر الزمان فإن أول من يحارب المسلمين ويقف

في طريقهم هم أهلهم من المشركين.

فكيف التفسير إذا؟

التفسير هو ما في قلوبهم من بغض وشر وعداوة للمسلمين.. وقيمة هذا الكراهية

التي في القلب هي عند التمكين لهم تكون المحاربة أكثر وأشد.

وجدير بالقول إن أكبر دولتين الآن في العالم وهما روسيا وأمريكا يسيطر

عليهما اليهود وهم من صنع اليهود، كما أن روزفلت وتشيرشل وستالين وهم زعماء

الحرب العالمية الثانية كانوا كلهم عملاء لليهود.

كل هذا فضلاً عن سيطرتهم على فرنسا وإنجلترا منذ الثورات التي أقاموها هناك.. الثورة الإنجليزية والفرنسية، واختصاراً فلا توجد دولة في العالم الآن إلا وتسير في فلك روسيا أو أمريكا. وروسيا وأمريكا لا يحركهما إلا اليهود.

وصدق الله العظيم

(وَلَنَعْلَنَ غُلُوًّا كَبِيرًا) (٤) [الإسراء] وهم اليهود.

والسؤال الآن:

▪ وناقش الآن نقطة تكاد تكون أهم النقاط في الخطة الإسلامية وهي لها أيضاً صلة لسنة الله سبحانه في الخلق:

معلوم أن المسلمين لا يعملون في فراغ، والجماعة المسلمة لا تعمل في فراغ، والرسالة الإسلامية لم تنزل في مقر بيت رسول الله ﷺ من البيوت وإنما أنزل الله هذا النور ليكون رحمة للعالمين وهدى وبشرى للمسلمين.

فالجماعة المسلمة تتأثر وتؤثر في غيرها والخطة الإسلامية لإقامة دولة الإسلام بناء على ذلك تتأثر بالظروف العالمية.

إن الله سبحانه وتعالى حينما أراد أن يرسل محمد ﷺ ليكون هادياً للبرية أرسله على فترة من الرسل وانقطاع من الوحي حتى أن النبي ﷺ قد صح عنه في صحيح مسلم أنه قال: "إن الله قد نظر إلى الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقية من أهل الكتاب".

والنقطة التي تهمنا في هذا الحديث هي أن الله سبحانه قد أرسل الرسول محمد ﷺ بعد ما مقت الأرض.. فهل هذه سنة؟

إن الله يرسل الرسول بعد فساد الذين قبله ومقتهم.. والجواب أنه في العادة هذه سنة.. وفي العادة هكذا..

".. سيعود غريباً كما بدأ... (اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) (١١) [الروم].

وذلك بصورة واحدة لا تتغير وهي:

(كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ (٦٣)) [الأنبياء]

والذى حدث فى عهد رسول الله ﷺ أن الله قد أحدث تمهيداً لقيام دولة الإسلام. قتال بين الفرس والروم وكانوا هم القوتين الكبريين فى العالم آنذاك، وكانوا على خلاف فكرى كبير كالأخلاف الموجود بين روسيا الشيوعية وأمريكا المسيحية - وكذلك كانت دولة الفرس وثنية ودولة الروم مسيحية.

وقد سمى الله سبحانه فى سورة الروم انتصار الروم على الفرس سماه (نصر الله) وسوف نشرح هذه الآية بالتفصيل.

ولكن الذى نحن بصدده لنبينه الآن هو أن جماعة الحق حينما تظهر لا تستطيع أن تكافئ فى القوة والعدد القوى الموجودة فى الأرض لأنها تتوى أن تحارب وتجاهد على مستوى الأرض كلها فلا تستطيع أن تكافئ قوى الأرض. صحيح أنه:

(كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)) [البقرة]. ولكننا مطالبون أن نعد للكفار ما نستطيع من قوة للتفوق والغلبة.. وسوف نقول فى النهاية:

(كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً (٢٤٩)) [البقرة]

إذا فكيف لجماعة المسلمين والإسلام وهم ضعفاء وقليلون أن يتغلبوا على القوى العالمية بهيئاتها الحالية؟ هل يعدون أنفسهم لصناعة الصواريخ والنفاثات ومعدات حربية كالتى موجودة الآن ليتساووا مع الكفرة فى القوة ويسبقوهم؟ أم أن النصر يأتى للمسلمين بهلاك الكافرين بعضهم بعضاً وبهلاك أيضاً معداتهم وأسلحتهم ثم يضعفون أو يتساوون مع المسلمين فى العدد والعدة. نناقش هذه المسألة من الناحية العقلية والإمكانات الواقعية لأى جماعة مسلمة ناشئة:

الجماعات الكافرة التى سوف تحارب المسلمين كللت كل جهودها فى طول عمرها للدنيا ومتاعها والحرص عليها والعلو فيها، واستغلت عقولها فى البحث فى

علوم الدنيا وخصوصاً العلوم الصناعية والحربية كما هو واضح الآن فى هذا العالم.
(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ((٧)) [الروم] (ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ) ((٣٠))
[النجم].

(فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ) ((٨٣)) [غافر]
(..مَنْ أَشَدُّ مِرًا قُوَّةً) ((١٥)) [فصلت]

أما الجماعة الإسلامية فتكون خارجة قريباً من الاستضعافات وضعيفة وقد
ابتليت بشيء من نقص الأنفس والثمرات.. وجاهدت مرة ومرة المشركين وغيرهم
أيام الاستضعاف وقد استنفدت قواها فى ذلك وقوطعت من الناس وضيق عليها
فى المال وتفرقت ردحا من الزمن للدعوة إلى الله والجهاد فى سبيل الله وحصرت
جهودها فى أول الأمر فى تعلم الإسلام على مكث وكفت أيديها إلا عن الصلاة.
فهل يتصور؟

والإجابة لا.. هذا لا يحدث فى الطبيعة البشرية وفى المقررات المادية..
وأما الذى يحدث أن تتقاتل القوى الكافرة بطبيعة الحال تمهيداً لقيام الدولة
الإسلامية.. كما سنرى فى قتال الفرس والروم أيام رسول الله ﷺ تمهيداً لقيام دولته
- دولة الإسلام الأولى، وبيان أن تلك السنة سنة دائمة تتصل بخلق السماوات
والأرض وقيام ذلك على الحق.

أيضاً فى واقعنا لو نظرنا نفس النظرة وناقشنا نفس السؤال ونفس الموضوع.
الجماعة المسلمة الآن حينما تقوم مع قيام روسيا وأمريكا وقيام الدول الكافرة
بمعداتها الحربية الضخمة والصواريخ والذرة، فهل يتصور أن الجماعة المسلمة فى
آخر الزمان تستطيع أن تلحق بهؤلاء من حيث القوة الحربية هذه أو تتفوق عليهم..
وذلك فى أى زمان من الأزمان؟؟

هل يتصور أن جماعة الحق ولو فى مدة مائة سنة تستطيع أن تمتلك ما
تمتلكه روسيا وأمريكا من معدات وقوى؟ هل هذا هو التصور الطبيعى الذى

يتصوره العقلاء.. أم يتصوره السفهاء والمعتوهون؟! وفي الحقيقة مع أن هذا التصور عجيب إلا أن كل الجماعات المنتسبة للإسلام تتصور هذا التصور عدا هذه الجماعة المسلمة إن شاء الله.

يتصورون أنهم سوف يعملون انقلاباً مثلاً في بلد من البلاد مع أن هذا لم يحدث أبداً في تاريخ الإسلام.. أقصده انقلاباً إسلامياً، ثم يعملون على تكرار الانقلابات في باقى الدول ثم تتحد هذه الدول ثم يحاربون روسيا وأمريكا بعد ذلك ليظهروا دين الله.

وفي الحقيقة أنهم إن أخلصوا لله وأرادوا أن يظهروا دين الله لما فكروا هذا التفكير.. تفكير الأطفال في استطاعتهم الوصول إلى القمر.. أما التصور الجاد للجماعة الإسلامية أنها تسعى أولاً لتعبد الله ولا تشرك به شيئاً فتكون قد ظفرت بالجنة، ثم بعد ذلك يمكن الله لها في الأمر بقدره في أمر لا يمكننا نحن أن نتدخل فيه.

وعدنا الله سبحانه وتعالى بأننا إن عبدناه نصرنا..

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) (١٢٦) [آل عمران]

النصر ليس من عندنا نحن علينا أن نعبد الله سبحانه ونخلص في ذلك ثم ينفذ قدر الله سبحانه وتعمل السماوات والأرض لنصر هذه الطائفة المؤمنة بكل الجنود الذين هم في قبضة الله سبحانه وتعالى من رياح وبخار وملائكة... إلخ.

(وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) (٣١) [المدثر].

أى كل جنود الله سبحانه وتعالى.. والذي حدث للجماعة المسلمة الأولى هو الذى سيحدث - إن شاء الله . للجماعة المسلمة فى آخر الزمان... وهى سنة من سنن الله سبحانه وتعالى. ولننظر الآن بعد هذه المقدمة.

أوائل سورة الروم.. وهى سورة من السور المكية نزلت فى أواخر العهد المكى للمسلمين أى قبيل الهجرة، وكما بينا أن الله سبحانه قد أحدث قتالاً بين الفرس والروم قبل قيام دولة الإسلام الكبرى غلبت فيه الفرس أولاً ثم غلبت الروم بعد ذلك

بقول الله سبحانه وتعالى:

(الم) (١) غَلَبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٣) [الروم].

(غَلَبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ .. (٣)) [الروم].. لا توجد كلمة في القرآن زائدة لماذا قال الله سبحانه - في أدنى الأرض.. أى حدد المكان وهو أقرب الأرض للمسلمين.

وكان في إمكان القرآن أن يقول:

(غَلَبَتِ الرُّومُ فِي الْأَرْضِ ..).

هذه لمحة صغيرة في الموضوع ولكنها ليست ما نناقشه.

أدنى الأرض أى أقربها فجعل الناس الذين هم أقرب الأعداء للمسلمين يغلبون حتى تكون قوتهم أضعف ما يمكن وإلا لو كانوا هم الغالبين لدمروا الجماعة المسلمة فغلبهم الله سبحانه وتعالى في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين.

ولكن الله لا يخلف وعده بنصر المؤمنين طالما هم عبده وعملوا الصالحات حينئذ يتحقق وعد الله.. ومن أوفى بعهده من الله..

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً .. (٥٥)) [النور].

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧)) [الروم].

نجد الكفار والجماعات المنتسبة إلى الإسلام وليست من الإسلام في شيء يهتمون بالواقع الظاهري فقط وبنى خطتها على الواقع الظاهري فقط.

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٧)) [الروم]

بينما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بألا يهتم بأمر الكفار فقال له بعد الكلام عن الهجرة:

(لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ) ((١٩٦)) [آل عمران]

وقال له أيضا على ما فى أيدى الكفار من أموال:

((إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ) ((٣٦)) [الأنفال]

وكما قال الكفار:

(نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ) ((٤٤)) [القمر] رد عليهم بقوله:

(سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) ((٤٥)) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى

وَأَمْرٌ ((٤٦)) [القمر]

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ

وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ) ((٨)) [الروم]

وضحت الآية الآن قضية الخلق بالحق التى شرحناها فى أول الكلام وصلتها

بتدمير الكافرين ونصر المؤمنين، وبيان أنها سنة لا تتغير ولا تتبدل.

(قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُكْذِبِينَ) (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا

وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ) ((١٣٩)) [آل عمران]

.. (اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ((١١)) [الروم]

بدأت دولة الإسلام بصورة معينة وظروف معينة وسيعيدها فى آخر الزمان

بنفس الصورة، ونفس الظروف التى كانت فى بداية دولة الإسلام من هلاك القوتين

الكبريين الفرس والروم تمهيداً لقيام دولة الإسلام الأولى.. وسيهلك دولتى روسيا

وأمريكا إن شاء الله تمهيداً لقيام دولة الإسلام الثانية (اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ

يُعِيدُهُ) ((١١)) [الروم] ثم بعد قيام دولة الإسلام الثانية يعود الفساد على الأرض مرة

ثانية ثم قيام الساعة.. وهو قول الله (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ((١١)) [الروم].

كان ما تكلمنا فيه محاولة للتعرف على صلة الظروف بالحركة الإسلامية،

وبالخطة الإسلامية.. وتبين لنا يقينا أن الحركة الإسلامية تتأثر بقتال يحدث فى

آخر الأرض أو فى أدنى الأرض، كما بين الله سبحانه وتعالى، هذه الصلة ليست فقط من الناحية العامة هلاك الكافرين وتوريث المؤمنين الأرض.. إنه أيضا - يتصل بأسلوب القتال الذى سوف يحدث بين المسلمين وغيرهم. إن الوسائل الإسلامية فى القتال تنبثق من الأصول الإسلامية للمسلمين.. الكافرون يقاتلون مثلاً فى قرى محصنة أو من وراء جدر.

أما أسلوب القتال عند المسلمين فهو ينبثق من الأصول الإسلامية فى القتال وهى مواجهة رجل لرجل لأنها نفوس باعت الدنيا واشترت الآخرة.. إذن فهى لا تخشى الموت ولا تهاب القتال. إن أصول الكافرين فى القتال أصول كانت نتاجاً طبيعياً لمعصية الله سبحانه - وهى أعدت بأموال كافرة وأصول كافرة. ولقد صنعتها الجاهلية بجاهليتها وليست بإيمانها وتقواها.

إذن المسلمون لا يكون أسلوبهم معتمداً على الوسائل الجاهلية، وهذه مسألة ليست من البديهيات العقلية، ولكننا نقول ذلك بعد أن علمنا وتيقنا من أن الأصل أن الله يدمر على الكافرين.

(وَإِنْ مِّنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ (٥٨)) [الإسراء]

ونحن نطمئن إلى هذه القاعدة تطالعنا حكمة جميلة وهى أن الله حينما يدمر الكافرين يدمر أيضا أسلوبهم ووسائلهم فى القتال وفى المعيشة، ويصبح الأصل فى الوسائل القتالية هى وسائل المسلمين فى القتال.

وسوف نثبت إن شاء الله أن الجماعة المسلمة، كما أن لها طابعاً مميزاً فريداً فى معرفة الله وتقواه، ولها طابع فريد فى السلوك والمعاملات والأخلاقيات، كذلك فهى لها طابع فريد فى الأسلوب الحربى للقتال، فلها طابع فريد فى أسلوب المعيشة وهو أسلوب قائم على الزهد فى الدنيا والأخشوشان فيها والأخذ منها بقدر الاستخلاف فى الأرض وعبادة الله وكانت أفراد الجماعة المسلمة تعلم قول الله:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا (٨٣))

[القصص].

وقد روى عن رسول الله ﷺ:

"المحراث إذا دخل بيتا دخل معه الذل".

وحينما يدخل عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ فيجد الوسادة التي كانت تحت رسول الله ﷺ قد أثرت في جنبه فيبكي عمر بن الخطاب فيقول له الرسول ﷺ: "ما يبكيك؟ فيقول عمر: إن كسرى وقيصر يتمتعون في الحرير والديباج (أو كما قال عمر بن الخطاب) وأنت رسول يصنع بك هكذا!! فقال له رسول الله ﷺ، أفى شك أنت يا ابن الخطاب؟ إنما لهم الدنيا ولنا الآخرة". هؤلاء الكافرون يخاطبون يوم القيامة بقول الله سبحانه:

(أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ) ((٢٠)) [الأحقاف]

هل بقيت لكم حسنة تجزون بها. لا.. استمتعتم بكل شيء في الدنيا فيوم القيامة يجزون عذاب الهون. ولماذا عذاب الهون لأنهم علوا في نعيم كل شيء واستمتعوا غاية الاستمتاع في كل شيء فكان حقا على الله أن يهينهم ويضع ويحط من شأنهم. إن الأساس الذي ترتفع به الجماعة المسلمة حقا هو زهدها في الدنيا وإقبالها على الآخرة، وإن السبب الأساس الأصيل في انحطاط هؤلاء المنتسبين إلى الإسلام حينما عمروا الدنيا على حساب الآخرة، وحينما أقبلوا على الدنيا بقلوبهم وزين لهم الشيطان أعمالهم.

... ثم نعود إلى موضوعنا فنقول:

إن الأساليب الإسلامية في القتال مرتبهة ومتقيدة بصبغة المسلمين وطبيعتهم.. وسوف نبين أن هذه الأساليب أساليب عتيقة وقديمة قدم هذا الدين.. دين محمد ﷺ، ودين إبراهيم عليهما السلام ودين الجماعة المسلمة في آخر الزمان.

وأمامنا طريقتان وهما:

■ إما أن تتغير أساليب هذه الجماعة المسلمة في القتال ولا تحارب بأساليب المؤمنين الأوائل ويتلاعبوا بذلك مع الكافرين ويصبح عندهم الصواريخ

والقنابل..

■ وما أن يغير الله من أساليب الكافرين فى القتال متى يتم الله سنته لأنه معلوم أن السيف لا يغلب الصاروخ، فإما أن يكون مع المؤمنين فيرجع الأرض على ما كانت عليه ويدور الفلك كله حتى يتلاءم مع المسلمين ديناً واعتقاداً وسلوكاً وأسلوب حياة وأسلوب قتال الصف ذلك فتقول:

إن الله سبحانه وتعالى يقول فى سورة الصف:

((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوعٌ (٤)))

[الصف] ونسأل انفسنا هل حب الله للمؤمنين له أساس وحكمة؟ ام من غير أساس وحكمة؟..

... له أساس وحكمة...

إذاً فالله يحب المؤمنين وهم يحاربون على هيئة معينة، وهى هيئة الصف كأنهم بنیان مرصوص..

لكن هل هذه الحكمة أو هذا الأساس من الممكن أن يتغير من زمان إلى زمان، أو من مكان إلى مكان فيتغير حب الله ويتغير الأساس الذى يحب الله المؤمنين عليه؟

الإجابة.. لا.

ف نجد رسول الله ﷺ كان يَصِفُ المؤمنين للقتال كما كان يصفهم للصلاة.. وظل هذا النظام - نظام الصف - فى الجماعة المسلمة أو الإسلامية بهيئاته من مقدمة وميسرة والساق والقلب إلى أن توارت الجماعة المسلمة، وذلك قبل الخلافة العثمانية.. ثم كانت الحروب بعد ذلك فى حالاتها العمومية بين كفار وكفار، أو بين كفار وقوم ينتسبون إلى الإسلام وهم يجهلون أمر الإسلام وحقيقة الجهاد فى الإسلام.. ولم تكن باسم الله وفى سبيل الله وكانت بلا ضابط ولا نظام.

ولكن نظام الصف والقتال فى الصف سيعود كما أخبر النبى ﷺ حيث يقول عن المسلمين والروم فى حديث عيسى بن مريم الذى رواه مسلم:

".. فإذا تصافوا للقتال.. قال المسلمون كذا.. وقالت الروم كذا...".

والخلاصة أن القتال في الصف أمر يتعلق بحب الله وهذه سنة لا تتغير وأن الجماعة المسلمة في آخر الزمان، كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم سوف تحارب على نظام الصف.

أو حينما يقول النبي ﷺ: "الجنة تحت ظلال السيوف" نعلم ذلك ولا يمكننا أن نقول الجنة تحت ظلال البنادق مثلاً أو الصواريخ أو الغازات لأن النبي ﷺ لو أراد أن يقول ذلك لما أعيته اللغة العربية، وهو الفصيح البليغ الذي أعطى جوامع الكلم وكان يمكنه مثلاً أن يقول: الجنة تحت ظلال الأسلحة.

وجد أن النبي ﷺ قاتل بالسيف والجماعة المسلمة من بعده قاتلت بالسيف والجماعة المسلمة في آخر الزمان ستقاتل بالسيف، حيث يقول النبي ﷺ بعد فتح القسطنطينية في وقت نزول عيسى ابن مريم:

"... وقد علقوا سيوفهم بالزيتونة...".

كذلك الرمح فهو نفس الشيء فقد قاتل به النبي ﷺ مع الجماعة المسلمة الأولى وستقاتل به الجماعة المسلمة في آخر الزمان، حيث يقول النبي ﷺ عن عيسى بن مريم حينما يقتل الدجال:

".. ويريه دمهم (أي دم الدجال) في حريته".

كذلك الرمي والخيول: يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) ((٦٠)) [الأنفال]

أعدوا.. لمن الخطاب؟ للجماعة المسلمة وللأمة المسلمة في كل زمان ومكان. فحينئذ يخاطبنا الله ويخاطب الجماعة المسلمة في آخر الزمان بقوله:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ) ((٦٠)) [الأنفال]

ويفسر الرسول ﷺ القوة بقوله:

"ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي".

"ارموا واركبوا وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا".

ويحدد نوع الرمي فيقول:

"ارموا فإن أباكم إسماعيل كان رامياً".

ولعل سائل يسأل: ألا يقصد بالرمي رمى البنادق مثلاً أو المدفع؟

فنقول له لا.. حيث إن النبي ﷺ كان يحدد الرماية على أساس ما كانوا يفهمونه في عهده، وحيث كانت الرماية في اللغة العربية كان يتصور بها شيء معين محدد ونحن مطالبون بهذا المعنى، وإن كان هذا المعنى غير قطعي إلا أن عندنا من الأدلة ما هو أقطع من ذلك.

قال سبحانه وتعالى حينما أمرنا بالرماية وأمرنا رسول الله ﷺ بالرماية أمرنا أيضاً بركوب الخيل، ولا شك أن الله سبحانه وتعالى ورسوله، قد دلانا على أهم وسيلة للقتال، وهى الرمي وركوب الخيل. ولو كان يقصد بالرماية رماية البنادق والقنابل والصواريخ مثلاً فحينئذ يستحيل أن يكون الخيل فيه فعلماً يقينا أن المقصود بإرموا واركبوا وهو قول النبي ﷺ وقوله تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ (٦٠)) [الأنفال]

إن القوة والرمي هنا رمى يمكن الاستفادة معه بالخيل - بل يكون الخيل عدة ثالثة للرماية ومن أهم عدد القتال.. وهذا لا يكون إلا والرمي هو ما كان عليه محمد ﷺ بالرمي والنبيل والسهم هذه الأشياء المعروفة.

وحينما ستعود الدولة الإسلامية بالجماعة المسلمة.. جماعة الحق في آخر الزمان بين الرسول ﷺ بأن الرماية ستعود وأن الخيل سيعود حتى أخبر رسول الله ﷺ عن الطليعة التى أفرجها الجماعة المسلمة الراجعة منتصرة من فتح القسطنطينية يخرجون عشرة فرسان للطليعة فيقول عنهم رسول الله ﷺ:

" إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم ولون خيولهم هم من خير الفوارس يومئذ على الأرض" ..

تكلمنا الآن عن وسيلة المسلمين حتى فى القتال وأنها وسيلة متكررة، وإن الله

برحمته وبِعِزَّتِهِ قَدْ بَرَأَ الْجَمَاعَةَ الْمُسْلِمَةَ مِنْ وَسَائِلِ الْكَافِرِينَ الْجَاهِلِيَةِ الْحَدِيثَةِ.
وَإِنَّمَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ - إِذَا كُنَّا الْجَمَاعَةَ الْمُسْلِمَةَ، وَإِذَا اتَّفَقَ عَلَى أَنَّمَا الْجَمَاعَةُ
الْمُسْلِمَةُ الْمَعْنِيَةُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ وَالتِّي مَا إِنْ تَظْهَرُ حَتَّى تَظَلُّ ظَاهِرَةً غَالِبَةً لَا
يُغَيِّرُهَا مِنْ خَالِفِهَا حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الدِّجَالُ أَوْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ.
فَإِنَّمَا بِذَلِكَ نَكُونُ قَدْ وَضَعْنَا أَيْضًا جُزْءًا فِي الْخُطَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.. مَا قِيَمَةُ هَذِهِ
الْقَضِيَّةِ فِي الْخُطَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؟

أَوَّلًا: حَدَدْنَا أَنَّ الْعَدُوَّ الضَّخْمَ لَا بَدَّ أَنْ يَدْمَرَ.. فَلَسْنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى إِعْدَادِ قُوَّةٍ
تَتَناظر قُوَّتَهُ. بَلْ وَتَعْدِلُ الْأَمَلُ الْمَرْجُو حَيْثُ إِنَّهُ يَبْعُدُ الْأَمَلُ عَلَى كُلِّ عَاقِلٍ أَنَّهُ
يَتَصَوَّرُ مُحَارِبَةَ أَمْرِيكَ وَرُوسِيَا وَالْعَالَمَ كُلَّهُ بِالْوَسَائِلِ الْمَحْدُودَةِ لِلْمُسْلِمِينَ.
فَلَمَّا عَلِمْنَا أَنَّ اللَّهَ بِرَحْمَتِهِ وَعِزَّتِهِ سَيَهْلِكُ الْكَافِرِينَ تَعْدِلُ الْأَمَلُ الْمَرْجُو، وَأَصْبَحَ
هَذَا أَقْرَبَ لِلْوَسِيلَةِ الْبَشَرِيَّةِ الْمَعْقُولَةِ الَّتِي يَضَعُهَا اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ.. وَأَيْضًا أَصْبَحْنَا فِي
غَنَى عَنْ إِعْدَادِ قُوَّةٍ وَصَوَارِيخٍ وَمَدَافِعٍ وَأَصْبَحْنَا فِي غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى عَمَلِ انْقِلَابَاتٍ
عَسْكَرِيَّةٍ. وَتَعَدَّلَتْ قَضِيَّتُنَا وَتَوَافَقَتْ قَضِيَّةُ التَّسْلِيحِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَعَ قَضِيَّةِ الْهَجْرَةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ فِي أَنَّ الْمُسْلِمِينَ سَوْفَ يَذْهَبُونَ إِلَى أَرْضٍ جَرْدَاءٍ أَرْضَ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ وَهُمْ
قَلِيلٌ الْعِدَدِ وَالْعِدَّةُ فَهَلْ هَذِهِ الظُّرُوفُ تُؤْهِلُهُمْ إِلَى أَنْ يَصْنَعُوا قَنْبَلَةَ ذَرِيَّةٍ وَقَدْ عَفَانَا
اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ ذَلِكَ بِرَحْمَتِهِ.

إِنَّ الْقَنْبَلَةَ الذَّرِيَّةَ خَلَقَهَا اللَّهُ عَلَى أَيْدِي الْكَفَّارِ لِيَدْمَرَ بِهَا الْكَافِرِينَ (إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ
يُغْلَبُونَ) ((الأنفال/٣٦))

أَوْ حِينَئِذٍ يَقُولُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ ﷺ:

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ((٥٥))

[التوبة]

يَتَبَيَّنُ لَنَا الْمَعْنَى مِنْ ذَلِكَ وَنَعْلَمُ أَنَّ آيَاتِ الْقُرْآنِ أَنَّهُ مَا أَرْسَلْتَ لَجَمَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ
وَانْتَهَى الْأَمْرُ، وَإِنَّمَا أَيْضًا لَنَا لَكِي نَتَدَبَّرُ عَلَى أُسَاسِهَا وَنَعْمَلُ عَلَى أُسَاسِهَا إِنْ كُنَّا

جادين فى العمل تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.
ولكن هل هناك نصوص تبين وتشير إلى قيام حرب فعلا يستهلك فيها
الكافرون فى آخر الزمان؟

نحن قد تكلمنا عن نصوص عامة تبين هلاك الكافرين حينما يظلمون وقد
ظلموا وذلك مثل:

(حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَارْتَبَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا
أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ (٢٤)) [يونس].

والآية عامة وتتكلم عن قضية عامة وتتكلم عن زخرف الأرض فى أى زمان
وتتكلم عن أهلها فى أى زمان أو مكان وليست يوم القيامة كما يعتقد البعض.

▪ ولكننا نحن معاشر المسلمين جماعة الحق إن شاء الله نتيقن من الهلاك
والعذاب الشديد الذى سوف يعترى البشرية بسبب فسادها وظلمها وأن هذه
هى سنة الله فى خلقه.. ولن تجد كلمات الله تبديلاً، (وَإِنْ مِّنْ قَرَّةٍ إِلَّا نَحْنُ
مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى الْكِتَابِ
مَسْطُورًا) (٥٨) [الإسراء].

والآن نتطلق إلى المنطلق الواقعى فى تدبير الخطة ومحاولة معرفة الظروف
العالمية التى على ضوئها نعمل خطتنا من هذا الجانب.
يقول رسول الله ﷺ عن دلالات قرب قيام القيامة.

"عمران بيت المقدس خراب يثرب، وخروج الملحمة، فتح القسطنطينية خروج
الدجال".

سنناقش هذا الحديث لأن هذا الحديث يبين منطلقاً من منطلقات الحركة
ومنطلقاً من الناحية العالمية، وسيطرة اليهود على العالم، وما يقابلها من أعمال
المسلمين وصلة ذلك بالحركة الإسلامية.

يقول الرسول ﷺ: "عمران بيت المقدس، ولم يقل "عمار" بيت المقدس.. وإنما
"عمران" وهذا يدل على أن العمار عمار كبير حيث إن صيغة عمران من صيغ

المبالغة فى التعمير. فحينما يعمر بيت المقدس تخرب يثرب، وهذا يدل للمتدبر على أن السيطرة للكافرين فى الأرض ولا شك، ويكون عمران بيت المقدس عمراناً مادياً. وبالطبع وببداهة أن الذى يسيطر على بيت المقدس حالياً هم اليهود.. والأدلة القاطعة تدل على أنهم الآن يحاولون أن يرفعوا هذا البناء إلى أرقى مستوى وأرقى تعمير. وفى هذا الوقت تشير اليهود إشارات واضحة إلى ضرب مكة بالصواريخ وقالوا إن طائراتنا يمكنها أن تصل إلى المدينة قبل وصولها إلى القاهرة أى يهددون المدينة بذلك.

والنبي ﷺ يبين أنه ما أن يعمر بيت المقدس ويعمره الكافرون حتى تنسل هذه الفئة الكافرة أو بقيادتها أو بمعداتها فتدمر وتخرّب المدينة.

وما بين فتح المدينة وخروج الملحمة.. ستة أعوام ويخرج الدجال فى العام السابع. ففسطاط المسلمين سيكون فى موضع يقال له الغوطة فى مدينة يقال لها دمشق.

"عمران بيت المقدس خراب يثرب وخراب يثرب خروج الملحمة والملحمة فتح القسطنطينية خروج الدجال". ويصيب المسلمون قبل نزول عيسى ابن مريم.. عليه السلام، جوع شديد حتى أن أحدهم ليحرق وتر قوسه ويأكله من شدة الجوع. وفى هذه الفترة التى يكون فيها المسلمون فى فتح القسطنطينية، وهم رجوع إلى أرض الشام يكون الدجال قد عاث يميناً وعاث شمالاً عليه لعنة الله. وهذا الدجال أعور عينه اليمنى وله مواصفات فى كتب السنة أهمها:

إنه رجل من بنى آدم خلقه الله تعالى ليكون محنة للناس فى آخر الزمان فيضل به كثيراً ويهذى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين.. ومعه تمثال الجنة وتمثال النار. ناره جنة وجنته نار ويعمل أحداثاً كثيرة تراجع فى كتاب الفتن والملاحم: كتاب النهاية لابن كثير. كما أن معظم ما ذكرناه من أحاديث الفتن وغيرها مذكورة فى هذا الكتاب. وفى الحديث:

■ وقال رسول الله "ستكون فيكم النبوة ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله ثم

تكون خلافة على منهاج النبوة ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله ثم ملك
عضوض مثل ملك كسرى ثم خلافة على منهاج النبوة ثم سكت...".
(ما معناه).

ولكن ظهور الدولة الإسلامية متى سيكون بالتحديد؟
الله أعلم.

■ لا يهمننا التحديد الزمني لآخر الزمان بقدر ما يهمننا أن نعبد الله ولا نشرك
به شيئاً ونستقيم على أمره ونستسلم له من حيث المبدأ فى كل ما أمره،
وأخيراً - ليس لنا من الأمر شيئاً.

(وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا
الْحِسَابُ (٦٣)) [الرعد].

... ولكننا نحب أن نرى بأعيننا آيات الله من دمار للكافرين وانتصار للمؤمنين
ونحب أن يشرفنا الله أن نكون أتباع محمد ﷺ.. خير أمة أخرجت للناس،
وأصحاب عيسى الذى سوف يجد فيهم خلفاً من حواربيه والذى سيكون فيهم خير
جيش وخير الشهداء وفيهم خير الفرسان، كما أخبر رسول الله ﷺ، نحب أن يشرفنا
بذلك.

فإن من علامات دمار دولة الكفر وظهور دولة الإسلام.

ظهور جماعة الحق التى أخبر عنها رسول الله ﷺ التى يستقيم أولها استقامة
كاملة على أمر الله ويقا تل آخرها الدجال وحتى ينزل عيسى ابن مريم.. هذه
الجماعة وضعت حداً فاصلاً بين الكفر والإسلام فى وقت كثر فيه الضلال
والمضلّلين، ووضعت الحد الفاصل بين من هو المسلم ومن هو الكافر.. وهى
قضية لن يكون إسلام ولا مسلمون إلا بمعرفتها.

خاتمة:

.. وليس بعد ..

فلم تزل الثعابين تلد ثعابين

ليس بعد.

فليس من الممكن أن نغلق ملف الإرهاب المتأسلم دون أن نستكمل، نحن أو غيرنا صفحاته. ولم تزل الدعوة إلى العطاء في هذا المجال مفتوحة ليسهم فيها الجميع.

فالإرهاب المتأسلم ليس مجرد مغامرة عابرة قام بها عدد من "المتشددين" أو "المتأسلمين" أو "المجاهدين" سيان عندنا كيف يسميهم البعض أو حتى الموقف منهم، وإنما المهم هو إعطاء هذه المسألة حقها من الدراسة أو بالدقة الدراسات المختلفة الاتجاهات والمتعددة المواقف، فمن ذلك كله يمكن للجيل الجديد من الشباب أن يعرف الحقيقة. وأن يطالع عمق هذه البئر الغائرة من التأسلم. وأن يستخلص وينفسه حقيقة هذا التأسلم وحقيقة هؤلاء المتأسلمين. فالقضية أكبر وأعمق وأخطر من أن ننظر إليها بالقطعة، كل حالة على حدة. أو كل تنظيم أو كل فعل إرهابي على حدة. القضية أكثر تعقيداً وتشابكاً، لأنها في الجوهر قضية فكرية. ألم نقل دوماً أن الإرهاب يبدأ فكراً؟

ومن هذا الفكر المتأسلم تنبت وبالضرورة ثعابين سامة. وهي تأتي دوماً من عمق البئر المتأسلم.. من تحت العبادة الإخوانية.

فجماعة الإخوان التي كرسست ومنذ نهاية عشرينيات القرن الماضي هذه البضاعة المتأسلمة. والتي سعت حثيثاً لأسلمة السياسة. وسعت في مجال السياسة مرتدية مسوحاً متأسلمة، والتي سعت وتحت سقف ما أسمى "بالمصالح المشتركة

مع الطاغوت" إلى تحالفات وتهادنات مع الحكام من الملك فؤاد وحتى الرئيس السادات واستطاعت أن تجنى من ذلك كله ثماراً؟ سوف تنتهى حتماً إلى أشواك تدمى.

وهى التى تبث الفكرة المتأسلمة بإصرار وتأن وعمد، وتولد منها ثعابينها الآتية دوماً من تحت عباءتها.. وتستخدم هذه الثعابين على كل الأوجه تارة لنشر مناخ التأسلم، وهو ما تسعى إليه الجماعة دوماً، وتارة لتصطاد من هذا الوعاء مزيداً من الأعضاء، وتارة ثالثة لتوهم الحكم أنها المرفأ الآمن إذ تزعم أنها "الجماعة المعتدلة" وأنها القادرة على مواجهة "التطرف" بينما هى الصانعة الأساسية لهذا "التطرف" - هذا إن قبلنا هذه التسمية..

وعلى أية حال. وأياً كان الموقف من هذه الجماعة أو الأشواك التى يتوالى استنباتها من حقها، فإن الدراسة المتأنية ضرورية وواجبة.

فالأمر متعلق بمصر ومستقبلها. لكنه وقبل هذا متعلق بالإسلام وصورته فى أعين الآخرين، بل وفهمه فى وجدان المسلمين أنفسهم.

الأمر جاد وجدى ومن ثم فإنه يحتاج إلى جهد الكثيرين ليدرسوا المنابع السياسية والفكرية لهذه الحركات، والعوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والنفسية التى تسهم فى تهيئة المناخ لنمو هذه الحركات، وتجدها الدائم.

ذلك أن أبسط قواعد فهم ظاهرة ما.. هى دراسة منابعها وعمقها وبواعثها. وإذ توقفنا مع هذا الكتاب عند حدود صعود وهبوط جماعتى الفنية العسكرية والتكفير والهجرة.. فإن المساحة المتأسلمة لم تزل ممتدة..

فمنذ ١٩٧٧.. وحتى يومنا توافدت مواكب متأسلمة عدة، هزت الوجدان المصرى وهزت معه اليقين والاستقرار وأضفت غيامات داكنة على المناخ.. الماضى والحاضر والمستقبل.

ومن ثم فإن دراسات متأنية وموضوعية لهذا الصعود والهبوط المتكرر قد أصبحت ضرورية، وهى دراسات يمكنها، يل ويتعين عليها أن تتناول الأبعاد

السياسية والاقتصادية والاجتماعية.. الداخلية والخارجية التي أسهمت فى عملية نسج هذا المناخ الذى أنبت ولم يزل مثل هذا التأسلم.
.. وهو ما ندعو الجميع إلى تأمله ودراسته.
أما نحن - فإن كان فى العمر بقية - فإننا سنواصل تقديم جهد المقلّ.
محاولين أن نقدم رؤيتنا المتواضعة للظاهرة ومنابعها وبواعثها ودوافع تجددتها.
وهذا ما نطمح إليه.

مراجع الجزء الأول

كتب عربية:

- . إبراهيم المويلحي . حديث عيسى بن هشام.
- . إبراهيم قاعود . عمر التلمساني شاهدا على العصر .
- . أحمد أنس الحجاجي . الرجل الذي أشعل الثورة.
- . أحمد شفيق باشا . حوليات مصر السياسية . الحولية الأولى والثانية.
- . أحمد رائف . البوابة السوداء.
- . أحمد عادل كمال . النقط فوق الحروف.
- . أحمد عبد المجيد . الإخوان وعبد الناصر . القصة الكاملة لتنظيم ١٩٦٥.
- . أمين عز الدين . الطبقة العاملة منذ نشأتها وحتى ١٩٥٢.
- . أبو الفرج الأصفهاني . الأغاني . مقاتل الطالبين.
- . أبو الحسن الندوي . مذكرات سائح في الشرق العربي .
- . أبو حيان التوحيدي . الإمتاع والمؤانسة.
- . أبو عمر يوسف بن عبد البر . جامع بيان العلم وفضله.
- . أبو القاسم إبراهيم . الدين الخالص أو إرشاد الخلق إلى دين الحق.
- . أبو يوسف . الخراج.
- . ابن أبي الحديد . شرح نهج البلاغة.
- . ابن الأثير (عز الدين) . الكامل في التاريخ.
- . أسد الغابة.
- . ابن أبي أصيبعة . عيون الأنباء في طبقات الأطباء.
- . ابن تيمية . الفتاوى الكبرى.
- . ابن خلدون . المقدمة.

- . ابن حبيب . أسماء المغتالين من الأشراف .
- . ابن حجر . الخيرات الحسان . تهذيب التهذيب .
- . ابن عبد البر القرطبي . الاستيعاب . الانتقاء .
- . ابن عساكر . تهذيب تاريخ دمشق الكبير .
- . ابن القيم (الإمام) . أعلام الموقعين .
- . ابن منظور . لسان العرب .
- . الدينورى . الأخبار الطوال .
- . السيد يوسف . الإخوان المسلمون وجذور العنف والإرهاب فى مصر .
- . السهيلي . الروض الأنف .
- . الشوكانى . القول المفيد فى الاجتهاد والتقليد .
- . الطبرى (أبو جعفر ابن جرير) . تاريخ الرسل والملوك .
- . الغزالى (حجة الإسلام الإمام)
- . إحياء علوم الدين .
- . المستصفى من علم الأصول .
- . زبدة نصيحة الملوك (مقتبسات من كتاب التبر المسبوك فى نصيحة الملوك)
- . إعداد عبد الحميد حمدان (دكتور) .
- . الفخر الرازى . التفسير الكبير .
- . القرافى (الإمام) الإحكام فى تمييز الفتاوى عن الأحكام .
- . الكتبى . الوفيات .
- . ألبرت حورانى . الفكر العربى فى عصر النهضة (١٧٩٨ . ١٩٣٩)
- . المفضل الضبى . المفضليات .
- . المقرئى . الخطط .
- . أمين الخولى (الشيخ) . المجددون فى الإسلام .
- . برنارد لويس . الغرب والشرق الأوسط .

- بادو، وآخرون . التطور فى الدين، دراسات إسلامية لمجموعة من المستشرقين الأمريكيين . ترجمة نقولا زيادة وآخرون.
- جلال الدين السيوطى (الإمام) . التنبيه بما يبعثه الله على رأس كل مائة.
- جمال الدين الأفغانى (الشيخ) . الرد على الدهريين . خاطرات جمال الدين.
- جمال سليم . البوليس السياسى يحكم مصر .
- جيل كيبيل . الفرعون والنبي، التطرف الدينى فى مصر . ترجمة أحمد خضر .
- حسن البنا . الرسائل الثلاث.
- مذكرات الدعوة والداعية .
- مجموعة رسائل الإمام الشهيد .
- دعوتنا .
- حديث الثلاثاء .
- حسن حنفى . الدين والثورة فى مصر .
- حسن الهضيبى . دعاة لا قضاة.
- حسين حامد حسان (دكتور) . نظرية المصلحة فى الفقه الإسلامى .
- حلمى النمنم . سيد قطب وثورة يوليو .
- خالد محيى الدين . والآن أتكلم .
- راشد البراوى (دكتور) . حقيقة الانقلاب الأخير فى مصر .
- رشيد رضا (الشيخ) . الخلافة أو الإمامة الكبرى .
- تاريخ الأستاذ الإمام .
- رضوان السيد . الإسلام المعاصر .
- رفاعة الطهطاوى (الشيخ) . مناهج الألباب المصرية فى مباهاج الآداب العصرية .
- رفعت السعيد (دكتور) . حسن البناء متى وكيف ولماذا؟
- عمائم ليبرالية .
- الليبرالية المصرية .

- . محمد فريد، الموقف والمأساة.
- . التيارات السياسية المصرية.
- . صفحات من تاريخ جماعة الإخوان.
- . المتأسلمون ماذا فعلوا بالإسلام وبنا.
- . الإرهاب إسلام أم تأسلم.
- . زكريا البيومي (دكتور) . الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية.
- . زينب الغزالي . أيام في حياتي.
- . سامي الدهان . قدامى ومعاصرون.
- . سامح عيد . الإخوان المسلمون، الحاضر والمستقبل . أوراق في النقد الذاتي.
- . سعد الدين صالح (دكتور) . الإخوان المسلمون إلى أين؟
- . سمير أمين . أزمة المجتمع العربى.
- . سيار الجميل . بقايا وجذور التكوين العربى الحديث.
- . سيد قطب . فى ظلال القرآن . الأجزاء من ١ إلى ١٣ . لماذا أعدموني؟ (نص الإقرار الذى كتبه سيد قطب أثناء التحقيق معه فى السجن الحربى).
- . من هنا نعلم.
- . معركتنا مع اليهود.
- . كتب وشخصيات.
- . طفل القرية.
- . معالم فى الطريق.
- . معركة الإسلام والرأسمالية.
- . التصوير الفنى فى القرآن.
- . فى ظلال القرآن . (١٣ جزءاً).
- . نحو مجتمع إسلامى.
- . المستقبل لهذا الدين.

- . السلام العالمى والإسلام.
- . الإسلام ومشكلات الحضارة.
- . خصائص التصور الإسلامى.
- . شبلى شميل (دكتور). فلسفة النشوء والارتقاء . مجموعة الكتابات (جزءان).
- . طارق البشرى . الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ . ١٩٥٢.
- . عادل حمودة . سيد قطب من القرية إلى المشنقة.
- . عباس خضر . هؤلاء عرفتهم.
- . عبد الرحمن الكواكبي (الشيخ) . أم القرى . طبائع الاستبداد فى مصارع الاستعباد.
- . عبد العزيز الشناوى (دكتور) . الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها.
- . عبد العظيم رمضان (دكتور) . الإخوان المسلمون والتنظيم السرى.
- . عبد القادر عودة . التشريع الجنائى الإسلامى.
- . عبد الكريم زيدان (دكتور) . المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية.
- . عبد الله النفيسى (تحرير) . الحركة الإسلامية، رؤية مستقبلية.
- . عبد المنعم عبد الرؤوف . أرغمت فاروق على التنازل عن العرش.
- . عبد المتعال الجابرى . لماذا اغتيل الإمام الشهيد؟
- . على جريشة (دكتور) . أصول الشريعة الإسلامية.
- . على الحديدى (دكتور) . عبد الله النديم.
- . على الدالى . جذور الإرهاب، القصة الحقيقية للإخوان.
- . على عبد الرازق (الشيخ) . الإسلام وأصول الحكم.
- . على عشاوى . التاريخ السرى للإخوان.
- . عمر التلمسانى . قال الناس ولم أقل فى حكم السادات.
- . ذكريات لا مذكرات.
- . عمر السكندرى، سليم حسن . تاريخ مصر من الفتح العثمانى.
- . فاروق عبد السلام . فقه حركة الإخوان فى الميزان.

- . فتحي العسال (الشيخ) . الإخوان المسلمون بين عهدين . قصة الإخوان كاملة .
. فؤاد علام (لواء) . الإخوان وأنا .
. قاسم أمين . تحرير المرأة .
. كاريمان إبراهيم المغربي . الإخوان المسلمون من حسن البنا إلى سيد قطب .
. كمال حامد مغيث (دكتور) . تاريخ الفكر المصرى الحديث .
. مارسيل كولومب . تطور مصر ١٩٢٤ . ١٩٥٠ .
. محمد أبو زهرة (الشيخ) . أصول الشريعة .
. محمد توفيق بركات . سيد قطب، خلاصة حياته، منهجه فى الحركة والنقد الموجه إليه .
. محمد جابر الأنصارى (دكتور) . تحولات الفكر والسياسة فى الشرق العربى .
. محمد حسين هيكل (دكتور) . حياة محمد .
. محمد الدسوقي (دكتور) . التجديد فى الفقه الإسلامى .
. محمد سالم مدكور (دكتور) . الفقه الإسلامى .
. محمد شوقى زكى . الإخوان المسلمون والمجتمع المصرى .
. محمد صبيح . مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية .
. محمد عبده (الشيخ) . الأعمال الكاملة . تحقيق د. محمد عمارة .
. محمد عبد الغنى حسن (دكتور) . عبد الله فكرى .
. محمد عمارة (دكتور) . الصحوة الإسلامية والتحدى الحضارى .
. محمد الغزالى (الشيخ) . كيف نتعامل مع القرآن .
. محمد كامل ضاهر (دكتور) . الصراع بين التيارين الدينى والعلمانى فى الفكر العربى المعاصر .
. محمد محمد حسين (دكتور) . الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر .
. محمود حمدى زقزوق (دكتور) . مقاصد الشريعة الإسلامية وضرورات التجديد .
. محمود الصباغ . حقيقة النظام الخاص ودوره فى دعوة الإخوان المسلمين .

- . محمود عبد الحليم . الإخوان المسلمون، أحداث صنعت التاريخ، (ثلاثة أجزاء).
- . مصطفى صبرى توفادى (شيخ الإسلام) . النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة.
- . مصطفى لطفى المنفلوطى . النظرات.
- . مذكرات شيخ الإسلام الطواهرى . السياسة والأزهر.
- . نجيب محفوظ . المرايا.
- . هادى العلوى . الاغتيال السياسى فى الإسلام.
- . ولى الدين يكن .
- . التجارب . المعلوم والمجهول.
- . وليم سليمان قلادة (دكتور) . المسيحية والإسلام على أرض مصر.
- . يوسف حامد العالم (دكتور) . المقاصد العامة للشريعة الإسلامية.

صحف ودوريات:

- . الأساس ١٩٤٩.
- . الإذاعة والتلفزيون ١٩٧١.
- . الأخبار ١٩٠٩ . ١٩٢٤ . ١٩٥٢.
- . الأهرام . ١٩٢٢ . ١٩٢٣ . ١٩٢٤.
- . إسرائيل . ١٩٣١ . ١٩٣٢.
- . البصير . ١٨٧٨.
- . البلاغ (الأسبوعى) ١٩٢٩.
- . الحياة (لندن) . ١٩٩٠.
- . الإخوان المسلمون . ١٩٣٦ . ١٩٤٨.
- . آخر ساعة . ١٩٤٩.
- . الرسالة . ١٩٣٣ . ١٩٣٨ . ١٩٥٢.

- . السياسة . ١٩٢٦ .
- . السياسة (الأسبوعية) ١٩٢٧ .
- . الشعب . ١٩٨٦ .
- . الشهاب . ١٩٤٧ . ١٩٧٣ .
- . العصور . المجموعة الكاملة (١٩٢٧ . ١٩٣٠) .
- . الفكر الجديد . ١٩٤٨ .
- . المجلة الجديدة . ١٩٢٩ . ١٩٣٠ .
- . المصور . ١٩٨٢ .
- . المصرى . ١٩٥٠ .
- . المقتطف . ١٨٧٦ . ١٩٠٤ . ١٩٢٦ .
- . المقطم . ١٩٢٣ . ١٩٢٤ .
- . المؤتمر . ١٣٤٣ هجرية .
- . المنار . ١٩٢٤ . ١٩٢٥ .
- . النداء . ١٩٥٢ .
- . النذير ١٣٥٨ هـ .
- . الوطن (الكويت) . ١٩٨١ .
- . اليسار . ١٩٩٩ .
- . الهلال . ١٩٦٧ . ١٩٨٦ .
- . روز اليوسف . ١٩٣٥ . ١٩٤٩ . ١٩٥٢ . ١٩٥٣ .
- . صباح الخير . ١٩٧٧ .
- . صوت الأمة . ١٩٤٩ .
- . لواء الإسلام . ١٩٨٩ .

معاجم وموسوعات:

- . الوسيط . (إبراهيم مصطفى وآخرون).
- . مختار الصحاح . محمد بن أبى بكر الرازى (الإمام).
- . الأساس . الزمخشري.
- . الفيروزىادى.
- . دائرة المعارف الإسلامية.

وثائق وأوراق قضائية ورسائل علمية:

- . دستور ١٩٢٣.
- . قرار حل جماعة الإخوان المسلمين ٨ ديسمبر ١٩٤٨ . المذكرة التفسيرية.
- . محكمة الشعب . محاكمات الإخوان المسلمين . ج ١ . وحتى ج ٥ .
- ملف القضية ١٢ لسنة ١٩٦٥ أمن دولة عسكرية عليا المتهم فيها سيد قطب وآخرون.
- صور ميكروفيلمية لملف القضية ١٢ لسنة ١٩٦٥ . مكتبة المركز القومى للدراسات القضائية . المتحف القضائى . مكتبة الميكروفيلم.
- . مرافعة الأستاذ أحمد حسين فى قضية اغتيال المرحوم محمود فهمى النقراشى باشا .
- . شريف يونس . سيد قطب وأثره الفكر السياسى فى مصر . رسالة ماجستير غير منشورة.
- تقرير فضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف السبكى . رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف حول كتاب معالم فى الطريق لسيد قطب .
- . وليم سليمان قلادة (دكتور) من العثمانية إلى المصرية . بحث مقدم إلى المؤتمر السنوى الثالث عشر للبحوث السياسية كلية الاقتصاد والعلوم السياسية (١٩٩٩).
- . الحركات الدينية المتطرفة . المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجناائية . رئيس الندوة د. أحمد محمد خليفة.

- Adams-Islam and Modernism In Egypt.
- Beger, M- The Arab World Today.
- Blunt, M. Secret History of Egypt.
- Hourani, Albert – Arabic thought in the Liberal Age 1798-1939.
- Khadduri, M- Political Trends in the Arab world.
- Mitchell, R. The Society of Muslim Brothers.
- Safran, Nadav – Egypt in Search of political Community.
- Smith, Wilfred Cantwell – Islam in the Modern History.
- Stewart, Desmond-Search of Religious and Political Community.

مراجع الجزء الثاني

كتب عربية:

. أبو الأعلى المودودي:

. الحجاب .

. نظرية الإسلام السياسية .

. أبو الحسن الندوي . كيف دخل العرب التاريخ .

. مذكرات سائح في الشرق العربي .

. إبراهيم قاعود . عمر التلمساني شاهداً على العصر .

. أحمد أنس الحجاجي . الرجل الذي أشعل الثورة .

. رسالة من المريخ .

. روح وريحان .

. أحمد حمروش . قصة ثورة ٢٣ يوليو .

. أحمد حسين . واحتترقت القاهرة .

. أحمد حسن الشامي . رياح التغيير في اليمن .

. أحمد عادل كمال . النقط فوق الحروف .

. أحمد فايد الصائدی (دكتور) . المعارضة اليمنية .

. أحمد نار . القتال في الإسلام .

. إسماعيل أحمد شافعي . الإخوان المسلمون، دعوة الحق والإنقاذ . مقتطفات من

رسائل وخطب الإمام الشهيد .

. السيد محمد ع شماوی (دكتور) . تاريخ الفكر السياسي المصري ١٩٤٥ .

. ١٩٥٢ .

. السيد يوسف . الإخوان المسلمون هل هي صحوة إسلامية؟ . ستة أجزاء .

- ١٩٥٢ .
- ١٩٤٥ . آمال محمد كامل البيومي (دكتورة) . التيارات السياسية في مصر
- أمين عز الدين . الطبقة العاملة المصرية منذ نشأتها حتى الآن .
- أنور الجندى . الإخوان المسلمون في ميزان الحق .
- عبد العزيز جاويش : قائد الدعوة، حياة رجل وتاريخ مدرسة .
- أنور السادات . أسرار الثورة المصرية .
- أنيس صايغ (دكتور) . الفكرة العربية في مصر .
- أيمن الظواهري . فرسان تحت راية النبي .
- ثورة اليمن . إصدارات مركز الدراسات والبحوث اليمنية .
- جمال الدين الأفغانى (الشيخ) . الرد على الدهريين .
- خاطرات جمال الدين . أملاه على محمود باشا المحزومى .
- جمال سليم . البوليس السياسى يحكم مصر .
- جمال الشرقاوى . حريق القاهرة .
- حسن البنا (الإمام الشهيد) :
- المأثورات .
- مذكرات الدعوة والداعية .
- قومية الإسلام .
- الرسائل الثلاث .
- رسالة المؤتمر الخامس .
- رسالة التعاليم .
- مجموعة رسائل الإمام الشهيد .
- بين الأمس واليوم .
- المأثورات وورد الرابطة .
- تذكرة الداعى .

- . دعوتنا فى طور جديد.
- . الإخوان المسلمون تحت راية القرآن.
- . مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى.
- . نحو النور.
- . إلى أى شىء ندعو الناس؟
- . رسالة الجهاد.
- . القول الفصل.
- . حسين فوزى النجار (دكتور). الإسلام والسياسة.
- . رشيد رضا (الشيخ):
- . كتاب الوحي.
- . الخلافة أو الإمامة العظمى.
- . رضوان محمد رضوان . المأثورات.
- رفاة الطهطاوى (الشيخ) . مناهج الألباب المصرية فى مباحج الآداب العصرية.
- . رفعت السعيد (دكتور) . مصطفى النحاس . السياسى والزعيم، المناضل.
- . رؤوف شلبى (دكتور) . الشيخ حسن البنا ومدرسة الإخوان المسلمين.
- . زكريا البيومى (دكتور) . الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية.
- . سامى الدهان . قدامى ومعاصرون.
- . سيد قطب:
- . العدالة الاجتماعية فى الإسلام.
- . الإسلام والسلام العالمى.
- . شبلى شميل:
- . شرح مقالات بخنر الست حول نظرية داروين.
- . الحقيقة . فلسفة النشوء والارتقاء.

- . مجموعة الكتابات . جزءان .
- . صلاح شادى . حصاد العمر .
- . طارق البشرى . الحركة السياسية فى مصر ١٩٥٢ .
- . عبد الباسط البنا . تاج الإسلام وملحمة الإمام .
- . عبد الحكيم عابدين . البواكير (مجموعة شعرية) .
- . عبد الخبير الخولى . قائد الدعوة الإسلامية، حسن البنا .
- . عبد الرحمن الكواكبي (الشيخ):
- . طبائع الاستبداد فى مصارع الاستعباد .
- . أم القرى .
- . عبد العظيم رمضان (دكتور) . تطور الحركة الوطنية .
- . عبد القادر عودة . الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه .
- . عبد المجيد الباجورى . حسن البنا .
- . عبد المنعم عبد الرؤوف (اللواء) . أرغمت فاروق على التنازل عن العرش .
- . عصام حسونة . ٢٣ يوليو وعبد الناصر .
- . على فهمى كامل . سيرة مصطفى كامل . ج ١ .
- . على عبد الرازق (الشيخ) . الإسلام وأصول الحكم .
- . على الحديدى (دكتور) . عبد الله النديم .
- . فتحى العسال . حسن البنا كما عرفته .
- . فؤاد علام (اللواء) . الإخوان وأنا .
- . كامل إسماعيل الشريف . الإخوان المسلمون فى حرب فلسطين .
- . كمال كيرة . محكمة الشعب .
- . لطفى عثمان . قضية مقتل النقراشى باشا .
- . لويس عوض (دكتور) . تاريخ الفكر المصرى الحديث . جزءان .
- . ليوناردو بايندر . الثورة العقائدية فى الشرق الأوسط . تعريب خيرى حماد .

- مارسيل كولومب . تطور مصر ١٩٢٤ . ١٩٥٠ .
- محسن محمد . من قتل حسن البنا؟
- محمد التابعى . هؤلاء هم الإخوان .
- محمد جابر الأنصارى (دكتور) تحولات الفكر والسياسة فى الشرق العربى .
- محمد حبيب أحمد . نهضة الشعوب الإسلامية فى العصر الحديث .
- محمد حسن أحمد . الإخوان المسلمون فى الميزان .
- محمد شوقى زكى . الإخوان المسلمون والمجتمع المصرى .
- محمد عبد الله السمان . الإسلام المصفى .
- محمد صبيح . مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية .
- محمد عبد الغنى حسن . وعبد الله فكرى .
- محمد لبيب البوهى :
- الإيمان والرجل .
- مع شهداء الإسلام .
- محمد فهمى الطماوى . المجاهدين .
- محمد محمد حسين (دكتور) . الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر .
- جزءان .
- محمد الغزالى (الشيخ) :
- من هنا نعلم .
- الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين .
- الإسلام والاستبداد السياسى .
- محمود جامع (دكتور) . وعرفت الإخوان .
- محمود عبد الحليم . الإخوان المسلمون، أحداث صنعت التاريخ . رؤية من الداخل . ثلاثة أجزاء .
- محمود الصباغ . حقيقة النظام الخاص ودوره فى دعوة الإخوان المسلمين .

- . موسى إسحق الحسينى . الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة.
- . هادى العلوى . الاغتيال السياسى فى الإسلام.
- . ولى الدين يكن : المعلوم والمجهول . جزاء .
- . التجاريب .
- . يونان لبيب رزق (دكتور) . الأحزاب المصرية قبل ثورة ١٩٥٢ .

مذكرات:

- . من مذكرات شيخ الإسلام الظواهرى، السياسة والأزهر .
- . محمد حسين هيكل (دكتور) . مذكرات فى السياسة المصرية . جزاء .

كتب تراثية:

- . تفسير الخطيب الشربينى . جزاء .
- . الفخر الرازى . التفاسير الكبرى .

وثائق خاصة بجماعة الإخوان:

- . قانون النظام الأساسى لهيئة الإخوان المسلمين العامة .
- قانون النظام الأساسى لهيئة الإخوان المسلمين وشعبها طبقا للتعديل الذى أقرته الجمعية العمومية باجتماعها غير العادى المنعقد فى ٣٠ يناير ١٩٤٨ .
- . نظام الأسر نشأته وأهدافه .
- . مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين . ١٣٥٧ هـ .
- . الأخوات المسلمات . الرسالة الأولى . ١٩٥١ .
- . البرنامج التثقيفى لجماعة الإخوان المسلمين .
- تقرير عن النشاط الكشفى لجماعة الإخوان . إعداد عبد الغنى عابدين .
- . السكرتير العام لجمعية الكشافة المصرية ووكيل عام جواله الإخوان المسلمين .

.قرارات الجمعية العمومية لجماعة الإخوان المسلمين ١٩٤٥.
.حتى يعلم الناس . كتيب أصدره قادة الإخوان في الأردن والعراق والسودان عام
١٩٥٤.

وثائق وأوراق قضائية:

.دستور ١٩٢٣.

.القانون رقم ١٧ لسنة ١٩٣٨.

. محكمة الشعب . نصوص وقائع محاكمات جماعة الإخوان المسلمين (قضية
محاولة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر) . ستة أجزاء.

. المذكرة التفسيرية للأمر العسكري رقم ٦٣ لسنة ١٩٤٨ بحل جماعة الإخوان
المسلمين مقدمة من عبد الرحمن بن عمار وكيل وزير الداخلية.

- محضر تحقيق النيابة في القضية ٥١ لسنة ١٩٤٩ والخاصة بمقتل محمود
فهmy النقراشى باشا.

- محضر تحقيق النيابة في قضية مقتل حسن البنا . الجناية ١٠٧١ لسنة
١٩٥١.

.مرافعة الأستاذ أحمد حسين المحامى في قضية اغتيال محمود فهmy النقراشى
باشا.

.قضايا الإخوان . قضية سيارة الجيب . الحثيثات ونص الحكم.

. جرائم عصابة الإخوان (كتاب وثائقى).

. رسالة خطية من خالد محيى الدين عضو مجلس الثورة إلى حضرة المحترم

جمال عبد الناصر وكيل مجلس الثورة . مؤرخة فى ١/٣/١٩٥٣.

F.O - 371-73474-13467(1949)

F.O - 371-23343-13467(1949)

F.O - 371-23342(1939)

دوريات:

- .الأخبار: ١٩٠٩ . ١٩٢٤ . ١٩٧٣ .
.الإخوان المسلمون (الأسبوعية) ١٩٣٦ . ١٩٣٨ . ١٩٤٤ . ١٩٤٥ . ١٩٤٦ .
.الإخوان المسلمون (نصف شهرية) ١٩٤٢ .
.الإخوان المسلمون (اليومية) ١٩٤٨ .
.آخر ساعة: ١٩٤٨ . ١٩٧٠ .
.الإذاعة والتلفزيون: ١٩٧١ .
.الأهرام: ١٩٣٠ . ١٩٣٧ . ١٩٤٢ .
.إسرائيل: ١٩٣١ . ١٩٣٢ .
.البصير: ١٨٧٨ .
.البلاغ: ١٩٣٧ .
.الجماهير: ١٩٤٧ .
.الجمهورية: ١٩٥٤ .
- الدعوة: ١٩٥١ . ١٩٥٢ . ١٩٥٣ . ١٩٥٤ . ١٩٧٧ .
.الرسالة: ١٩٥٢ .
.روز اليوسف: ١٩٧٧ .
.شبرا: ١٩٣٨ .
.الشباب: ١٩٤٧ .
.صباح الخير: ١٩٧٧ .
.عالم الإسلام: ١٩٤٧ .
.الكاتب: ١٩٧٤ .
.المباحث: ١٩٥٠ . ١٩٥١ .
.المسلمون: ١٩٥٣ .
.المصرى: ١٩٣٧ . ١٩٤٨ .

- .المقتطف: ١٨٧٦.
- .مصر الفتاة: ١٩٣٩.
- .المصور: ١٩٥٢ . ١٩٥٤ . ١٩٥٥.
- .الهلال: ١٩٦٨ . ١٩٧٣.
- .الوفد المصري: ١٩٤٦.

مراجع أجنبية:

- Adams- Islam and Modernism in Egypt.
- Ahmed, J.- The intellectual origins of Egyptians Nationalism.
- Badaoui, Zaki- Les problems du travail et organisations ouvriers
- Beinun and Lockman- workers on the Nile.
- Berger, M.- The Arab world today.
- Blunt, W.- Secret History of the English occupation of Egypt.
- Gibb, W.A.R.- Modern trends in Islam.
- Hennis, Christina- Nationalism and Revolution in Egypt, The Role of Muslim Brotherhood.
- Heyworth Dunne- Religions and political trends in Egypt.
- Hourani, Albert- Arabic thought in the liberal age, 1789-1939.
- Kamel, M.- Egyptians et Anglais.
- Khadduri, R.- The Society of Muslim Brothers.
- Peters, Donald- The Muslim Brotherhood, Terrorists of Zealots.
- Resner, Lawrence- Eternal Strangers- The Flights of Modern Jew from Bagdad to Casablanca.
- Safran, Nadav- Egypt in Search of political Community.
- Smith, Welfren, Cantwell- Islam in Modern History.
- Vatikiotis – The Modern History of Egypt.
- Von Grunebaum – Modern Islam, The Search for Cultural Identity.
- Wheel Lock0 Keith- Nasser new Egypt.

دوريات باللغات الأجنبية:

- Cahiers de L'orient Contemporaine- 1949-II
- Middle East Journal- July 1939.
- Monde non – Chretien – June 1953.
- New Middle East – January 0 February 1975.

مراجع الجزء الثالث

كتب باللغة العربية

- الأشعري - (أبو الحسن) - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين.
- ابن الأثير (عز الدين) - الكامل في التاريخ.
- ابن الجوزي - تلبيس إبليس.
- أحمد رائف - سراديب الشيطان
- البوابة السوداء
- أحمد عادل كمال - النقط فوق الحروف.
- الشهرستاني (أبو الفتح) - الملل والنحل.
- أمانى قنديل (الدكتورة)، سارة بن نفيسة (الدكتورة) - الجمعيات الأهلية فى مصر.
- أنور السادات - البحث عن الذات.
- أيمن الظواهرى - فرسان تحت راية النبى.
- بكر بن حماد التهرتى - الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التهرتى.
- بول ووكر - الفكر الإسماعيلى فى عصر الحاكم بأمر الله - ترجمة سيف الدين القصير.
- جمال سليم - البوليس السياسى يحكم مصر.
- تقى الدين النبهانى - نداء حار إلى العالم الإسلامى.
- مفاهيم سياسية لحزب التحرير الإسلامى.
- التكتل الحزبى
- حزب التحرير الإسلامى - الخلافة.
- مشروع دستور للدولة الإسلامية.

- الحملة الأمريكية للقضاء على الإسلام.
- سؤال وجواب (نشرة).
- حسن أبو باشا - مذكرات فى الأمن والسياسة.
- حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية.
- حسنين توفيق (الدكتور) - الإخوان المسلمون والتعددية الحزبية - قراءة فى رؤية حسن البنا.
- حميد الدين الكرمانى - الرسالة الحاوية فى الليل والنهار.
- رفعت السعيد (الدكتور) - مصطفى النحاس، السياسى والزعيم والمناضل.
- الليبرالية المصرية.
- المتأسلمون ، ماذا فعلوا بالإسلام وينا.
- الإرهاب المتأسلم - جماعة الإخوان المسلمين.
- رفعت سيد أحمد (الدكتور) - النبى المسلح - الراضون.
- النبى المسلح - الثائرون.
- سيد قطب - معالم فى الطريق.
- فى ظلال القرآن.
- شكرى مصطفى - الخلافة.
- التوسعات.
- صلاح شادى - حصاد العمر.
- صالح سرية (الدكتور) - رسالة الإيمان.
- عامر النجار (الدكتور) - الخوارج.
- عبد الغفار شكر (إشراف) - حركة الإسلام السياسى- يحدث فى أسباب النشأة ومحددات الازدهار.
- عبد الرحمن أبو الخير - ذكريات مع جماعة المسلمين (التكفير والهجرة).
- عبد العظيم رمضان (الدكتور) - الأصول التاريخية والفكرية لجماعات الإسلام

السياسى.

- علوى حافظ - المنصة.
- على عبد الرازق (الشيخ) - الإسلام وأصول الحكم.
- عمر التلمسانى - أيام مع السادات.
- ذكريات لا مذكرات.
- فؤاد علام (اللواء) - الإخوان وأنا، من المنشية إلى المنصة.
- كليم صديقى (الدكتور) - الحركة الإسلامية - قضايا وأهداف.
- محمود الصباغ - حقيقة الجهاز الخاص ودوره فى دعوة الإخوان المسلمين.
- محمد حسن الذهبى (الشيخ الدكتور) - (تقديم) قبسات من هدى الإسلام.
- مشكلات الدعوة والدعاة.
- محمد رجب البيومى - (الدكتور) - الأزهر بين السياسة وحرية الفكر.
- محمد محمد حسين (الدكتور) - الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر.
- مصطفى كامل السيد (الدكتور) - (تحرير) حقيقة التعددية السياسية فى مصر.
- من مذكرات شيخ الإسلام الطواهرى - السياسة والأزهر.
- مكسيم رودنسون - الإسلام والرأسمالية - ترجمة نزيه الحكيم.
- نبيل فارس - الإسلام لا يعرف العنف - الملف السرى للجماعات الإسلامية فى مصر.
- هالة مصطفى (الدكتورة) - الإسلام السياسى فى مصر - من حركة الإصلاح على جماعات العنف.
- الدولة والحركات الإسلامية المعارضة، بين المهادنة والمواجهة فى عهدى السادات ومبارك.
- وائل عثمان - أسرار الحركات الطلابية (٦٨ - ١٩٧٥) فى هندسة القاهرة.

صحف ودوريات

- أخبار اليوم - ١٩٧٧.
- الأخبار - ١٩٢٣.
- الأهرام - ١٩٢٧ - ١٩٨١.
- الجمهورية - ١٩٧٧.
- الحياة اللندنية - ١٩٩٦ - ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥.
- السياسة - ١٩٢٦.
- المصرى - ١٩٣٧ - ١٩٣٨.
- المنار - ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م.
- النهج - صيف ٢٠٠١.
- المؤتمر - ١٣٤٣ هـ.
- روزاليوسف - ١٩٨٧ - ١٩٩٣ - ١٩٩٥.

تقارير وبحوث ووثائق

- القانون ٢٦ لسنة ١٩٣٦ الخاص بالأزهر.
- القانون ٦٠٣ لسنة ١٩٦٢ الخاص بإعادة تنظيم الأزهر والهيئات التى يشملها.
- دستور المملكة المصرية ١٩٢٣.
- دستور جمهورية مصر العربية ١٩٧١.
- حيثيات الحكم فى قضية جماعة شباب محمد - أحداث الكلية الفنية العسكرية المتهم فيها صالح سرية وآخرون.
- بيان صحفى صادر عن النيابة العامة حول حادث الكلية الفنية العسكرية.
- ورقة ضمن مضبوطات صالح سرية بخط يده معنونة:
- "بيان من صالح سرية رئيس جمهورية مصر العربية".

- ملف القضية ٦١٨ لسنة ١٩٧٣ أمن دولة عليا.
- محضر تحقيقات النيابة العسكرية فى القضية رقم ٢٠ لسنة ١٩٧٧ عسكرية عليا والخاصة باختطاف واغتيال الدكتور محمد حسن الذهبى - المتهم فيها شكرى مصطفى وآخرون.
- تقرير البنك الدولى عن الأوضاع الاقتصادية فى مصر (١٩٨٠).
- المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية - بحث الحركات الاجتماعية المتطرفة - الحركة الدينية (١٩٨٢).
- مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية - مؤسسة الأهرام - تقرير الحالة الدينية فى مصر ١٩٩٥.

كتب ودراسات باللغة الإنجليزية

- Ibrahim, Saad Eddin- An Islarmic Alternative in Egypt, The Muslim Brotherhood and Sadat.
- Guenena, N.- Ibrhim Saad Eddin- Changing Face of Egypt's Isalmc Activism.
- Vatikiotis, P.S.- The History of Egypt from Mohamed All to Moubarak.
- Vongrumebrum, G.E.-Modern Islam.
- Bruce Norbwich-Religion and politics in Israel and Egypt The Middle East Journal-Spring1979.
- Gabriel Warburg-Islam and Politics in Egypt 1952- 1980 Middle Eastern Studies-April 1982.

الفهرس

ليست مجرد مقدمة ٧

الجزء الأول:

الجماعة كيف بدأت؟ ولماذا؟ ٢٣

المبتدأ ٢٥

الفصل الأول:

الفقه والتراث ٢٩

الفصل الثاني:

الإرهاب كيف يأتي ٥٥

الفصل الثالث:

الجهاز السرى ١٣٥

الفصل الرابع:

سيد قطب.. الأب الروحى للإرهاب ١٩٥

الخبر ٢٦٧

الجزء الثانى:

بسن البنا.. مسلحًا ٢٧١

وال هادية ٢٧٥

إرشادات كاشفة ٢٧٧

— لماذا؟ ٢٧٩

الفصل الأول:

مصر.. والجماعة ٢٩٧

الفصل الثاني:

الشيخ البنا.. والجماعة ٣٣٩

الفصل الثالث:

الجماعة في غمرة السياسة ٣٩٧

الفصل الرابع:

لعبة المصالح المشتركة مع الطاغوت ٤٣٥

الفصل الخامس:

البنا و الطاغوت .. من تلاعب بمن؟ ٤٥٥

الفصل السادس:

من السياسة إلى الرصاص ٤٦٩

الفصل السابع:

العنف المتبادل ٤٩٥

ليست خاتمة.. فهل تلد الثعابين إلا مثلها؟ ٥٢٣

الجزء الثالث:

وثعابين الإرهاب تأتي من الجماعة ٥٣١

مقدمة ٥٣٩

الفصل الأول:

التكفير والهجرة.. عبر التاريخ ٥٤٧

الفصل الثاني:

من يختطف الإسلام لصالحه؟ ٥٧٥

الفصل الثالث:

ثعابين آتية من عباءة الإخوان ٥٩٩

صالح سرية.. لعبة الفنية العسكرية ٦٠١

ملحق رقم (١) رسالة الإيمان	٦٢٣
ملحق رقم (٢) بيان صالح سرية رئيس الجمهورية	٦٤٥
الفصل الرابع:	
شكرى مصطفى.. الجماعة المسلمة (التكفير والهجرة)	٦٤٧
ملحق رقم (١) التوسمات	٦٨٩
خاتمة	٧٢١
المراجع	٧٢٤

